



الرَّحْمَةُ الْخَوْفُ

بِحَثٍ فِي السِّيرَةِ النَّبَوَيَّةِ عَلَى صَاحِبِهِ أَفْضَلِ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ

كَاتِب
فضيحة الشیع

صَفِيُّ الرَّحْمَنِ الْمَبَارِكُوْرِي
المجامعةُ السلفيةُ. الهند

وَزَارَةُ الْأَوقافِ وَالشُّؤُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ

إِذَارَةُ الْأَسْتُقْوَنِ الْإِسْلَامِيَّةِ
دُولَةُ قَطَر

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ
الْحٰمِدُ لِلّٰهِ الْعَظِيْمِ

الْحَقُّ الْخَوْمَانِي

بِحَثٍ فِي أُكْتَبَرِ الْأَجْوَنَةِ عَلَى صَاحِبِهِ أَعْصَلِ أَصْلَاهُ وَالسَّلَادُ

حُقُوق الْطَّبِيعَ مَعْفُوضَة
١٤٦٨ - ٧٠٠٢ - مَر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة
معالي الشيخ محمد علي الحركان
الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي

الحمد لله رب العالمين ، خالق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وصل الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والرسل أجمعين ، بشر وأنذر ، ووعد وأ وعد ، أنقذ الله به البشر من الضلال ، وهدى الناس إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض إلا إلى الله تصرير الأمور ، وبعد :

فلما أعطى الله سبحانه وتعالى لرسوله عليه السلام الشفاعة والدرجة الرفيعة ، وهدى المسلمين إلى محبته ، وجعل اتباعه من محبته تعالى فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّكُمْ تُعْجِزُونَ اللَّهَ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ بِكُمْ اللَّهُ وَيَعْلَمُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ، فكان هذا من الأسباب التي صبرت القلوب تهفو إلى محبته عليه السلام ، وتلمس الأسباب التي توثق الصلة فيما بينها وبينه عليه السلام ، فمنذ فجر الإسلام والمسلمون يتسابقون إلى إبراز محسنه ، ونشر سيرته العطرة عليه السلام ، وسيرته عليه السلام هي أقواله وأفعاله وأخلاقه الكريمة ، فقد قالت السيدة عائشة زوج النبي عليه السلام رضي الله عنها : « كان خلقه القرآن » ، والقرآن كتاب الله وكلماته التامة ، ومن كان كذلك كان أحسن الناس وأكملاهم وأحظمهم بمحبة خلق الله جميعاً .

ولم يزل المسلمون متمسكين بهذه المحبة الغالية التي انبثق عنها المؤتمر الإسلامي الأول للسيرة النبوية الشريفة الذي عقد في باكستان سنة ١٣٩٦ هـ ، حيث أعلنت الرابطة في هذا المؤتمر عن جوائز مالية مقدارها مائة وخمسون ألف ريال سعودي ، توزع على أحسن خمسة بحوث في السيرة النبوية بالشروط الآتية :

(١) أن يكون البحث متاماً مع ترتيب الحوادث التاريخية حسب وقوعها .

- (٢) أن يكون جيداً ولم يسبق نشره من قبل .
- (٣) أن يذكر الباحث جميع المخطوطات والمصادر العلمية التي اعتمد عليها في كتابة البحث .
- (٤) أن يكتب الباحث ترجمة كاملة ومفصلة عن حياته ، مع ذكر مؤهلاته العلمية ومؤلفاته إن وجدت .
- (٥) أن يكتب البحث بخط واضح ، ويستحسن نسخه على الآلة الكاتبة .
- (٦) تقبل البحوث باللغة العربية واللغات الحية الأخرى .
- (٧) يبدأ قبول البحوث من غرة ربيع الآخر ١٣٩٦هـ ، وينتهي موعد القبول بغرة المحرم ١٣٩٧هـ .
- (٨) تسلم البحوث إلى الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في ظرف مختوم ، وتوضع الأمانة عليه رقمًا تسلسلياً خاصاً .
- (٩) تقوم بفحص البحوث لجنة عليا من كبار العلماء في هذا الشأن .
- فكان هذا الإعلان حافزاً لتسابق العلماء الذين وهبهم الله حب رسوله ﷺ ، واستعدت رابطة العالم الإسلامي لاستقبال هذه البحوث باللغات العربية والإنجليزية والأردية وأية لغة أخرى .
- وبدأ الإخوان الكرام في إرسال بحوثهم بهذه اللغات ، وقد بلغ عددها واحداً وسبعين ومائة بحث منها :

- ٨٤ بحثاً باللغة العربية ، ٦٤ بحثاً باللغة الأردية ، ٢١ بحثاً باللغة الإنجليزية ، وبحث واحد فقط باللغة الفرنسية ، وبحث واحد فقط باللغة الموساوية .
- وقد كونت الرابطة لجنة من كبار العلماء لدراسة هذه البحوث وترتيبها حسب استحقاق الفائز للجائزة ، وقد كان الفائزون بالجوائز حسب الترتيب الآتي :
- (١) الفائز بالجائزة الأولى الشیخ صفی الرحمن المبارکفوری من الجامعة السلفیة بالهند ، ومقدار جائزته خمسون ألف ريال سعودی .
- (٢) الفائز بالجائزة الثانية الدكتور مجید علی خان من الجامعة الخلیة الاسلامیة نیودھی الهند ، ومقدار جائزته أربعون ألف ريال سعودی .

- (٣) الفائز بالجائزة الثالثة الدكتور نصیر احمد ناصر رئيس الجامعة الإسلامية بباكستان ، ومقدار جائزته ثلاثة ألف ريال سعودي .
- (٤) الفائز بالجائزة الرابعة الأستاذ حامد محمد محمود منصور ليود من جمهورية مصر العربية ، ومقدار جائزته عشرون ألف ريال سعودي .
- (٥) الفائز بالجائزة الخامسة الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ من المدينة المنورة / المملكة العربية السعودية ، ومقدار جائزته عشرة آلاف ريال سعودي .

وقد أعلنت الرابطة أسماء الفائزين في المؤتمر الإسلامي الآسيوي الأول الذي عقد في كراتشي في شهر شعبان سنة ١٣٩٨هـ . كما أعلن عن ذلك في جميع الصحف .

وبهذه المناسبة أقامت الأمانة العامة للرابطة بمقرها بمكة المكرمة حفلًا كبيراً ، تحت إشراف صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد المحسن بن عبد العزيز ، وكيل إمارة منطقة مكة المكرمة ، نيابة عن صاحب السمو الملكي الأمير فواز بن عبد العزيز أمير منطقة مكة المكرمة ، حيث تفضل سموه بتوزيع الجوائز على أصحابها ، وذلك صباح يوم السبت الموافق ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٩٩هـ . وفي هذا الحفل أعلنت الأمانة العامة أنها ستقوم بطبع البحوث الفائزة ونشرها بعدة لغات ، وتنفيذًا لذلك هاهي ذي تضع بين يدي القارئ الكريم باكورة طبعات تلك البحوث ، وهو بحث الشيخ صفي الرحمن المباركفوري ، من الجامعة السلفية بالمند لأنه الفائز بالجائزة الأولى ، وستوالي طبع بقية البحوث الفائزة حسب ترتيبها ، سائلين الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا جميعاً أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، إنه نعم المولى ونعم النصير . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الأمين العام
لرابطة العالم الإسلامي
محمد بن علي الحمران

مقدمة الناشر

ستظل سيرة الرسول ﷺ هي الرصيد التاريخي الأول الذي تستمد منه الأجيال التلاحدة من ورثة النبوة وحملة مشاعل العقيدة زاد مسيرها ، وعناصر بقائهما ، وأصول امتدادها .

ومن درس تاريخه ﷺ وأعطاه حقه من النظر والفكر والتحقيق رأى نسقاً من التاريخ العجيب ، استعمل به الرسول ﷺ والفتنة المؤمنة معه على عناصر المادة وعوامل الجذب الأرضي ، وارتقاوا بالإنسانية إلى درجات لم تشهدها على امتداد عصورها وأزمانها .

ومن يعمق النظر في سيرته ﷺ - محاولاً أن يتبع السر الذي وقع في التاريخ القفر المجدب فأخضب به ، وأنبتت الدنيا أزهاره الإنسانية الجميلة فأنشأ ﷺ رجالاً إن عيهم بشيء لم تعههم إلا أنهم دون الملائكة ، يجدوها تقول له : - إن هننا دنيا الصحراء التي تربى في أحضانها الرجال الذين دخلوا بالإسلام على ما دخل عليه الليل .

ولو تأملت في أفعاله ﷺ وجدتها تقول لك :
إني أصنع أمة لها تاريخ الأرض من بعد .

ولم يكن مثله ﷺ في الصبر على البلاء والثبات على الحق واستقرار النفس واطمئنانها على زلازل الدنيا ، ولا في الرحمة ورقة القلب والسمو فوق معانى البقاء الأرضي ، فهو قد خلق كذلك ليغلب الحوادث ويسلط على المادة .

وبذلك كان ﷺ منبع تاريخ في الإنسانية كلها دائماً ، وللدنيا رأس نظام أفكارها الصحيحة .

ولقد طبع الله سبحانه وتعالى على قلب الرسول ﷺ ، فباعد بينه وبين زيف الموى وسرف الطبيعة ، ولذلك يجب على من يقرأ سيرته ﷺ ويتعرف على شمائله وحديثه أن يبحث دائمًا عن طابع الله في كل شيء فيها ، وسيظهر له من تفسيرها أن الدنيا لم تستطع أن تحقق غايتها الأخلاقية العليا إلا فيها ، وأنه ﷺ كان إنساناً ، وكان أيضًا حركة في تقدم الإنسانية ، وأن من معجزاته ﷺ أنه أضاف في تاريخه ما عجزت عنه البشرية في تاريخها ، وأن كل أمره ﷺ موضوعة وضعاً إلهياً كأنها صفات كونها الله وعلقها في التاريخ لمعانى الحياة تعليق الشمس في السماء لمواد الحياة . ولو تأملت بيانه ﷺ ، تجده ينطلق إلى مثل الحالة التي تتأمل فيها روضة تنفس على القلب ، أو منظراً يهز خياله النفس ، أو عاطفة تزيد بها الحياة في الدم ، على هدوء وروح وإحساس ولذة ، ثم يزيد على ذلك أنه يصلح من الجهات الإنسانية في نفسك ، ثم يرزق الله منه من رزق النور ، فإذا أنت في ذوق البيان كأنما ترى المتكلم ﷺ وراء كلامه .

هذا يكون النظر في كلامه ﷺ ، فهو كلام كلما زدته فكرًا زادك معنى ، وتفسيره قريب .. قريب كالروح في جسمها البشري ، ولكنه بعيد كالروح في سرها الإلهي ، فهو ملك على قدر ما أنت معه ، إن وقفت على حدٍ وقف ، وإن مددت مد ، وما أديت به تأدي ، وليس فيه شيء من كل ما تراه لكل بلغاء الدنيا ، من صناعة عبث القول ، والرغبة في تكثير سواد المعانى ، وترك اللسان يطيش طيشة اللغوى يتعلق بكل ما عرض له ، إنما هو كلام قيل لتصير به المعانى إلى حقائقها ، فهو من لسان وراء فكر ، وراءه قلب ، وراءه إيمان ، وراءه الله جل جلاله ، وهو كلام في مجموعه كأنه دنيا أصدرها ﷺ عن نفسه العظيمة ، لا تبرح ماضية في طريقها السوى على دين الفطرة فلا تتسع لخلاف ولا يقع بها التناقض .

من هنا تبرز الأهمية القصوى في أن تكون سيرة الرسول ﷺ وأقواله عاملة في النفس المؤمنة عمل القلب من الحسد ، ورقية عليها رقابة الضمير على العقل ، حتى يكون الارتقاء والسمو والعلو والارتفاع بالأجسام فوق جواذب المادة وقيود الأرض .

ولن تستطيع النفس أن تتحقق هذه المقومات وبها بقایا من رواسب المادة أو جواذب الأرض ، ولن تستطيع النفس أن ترفق وتخلق إلا إذا أدركـت غاية وجودها من خلال رصيدها التاريخي الطويل ، الذي لم تظفر به أمة من الأمم كما ظفرت أمّة الإسلام « إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق

الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ». عبارات تفيض إيماناً وتشع ضياءً ، وخرجت من نفس تربت على يد القائد والمعلم الأول صلوات الله عليه ، فأدركت غاية وجودها فعملت على تحقيقها .. وهكذا يجب أن يكون كل من أراد أن يشارك الكتاب في سيرها في الطريق الطويل .

وللأهمية التي تحملها سيرة الرسول صلوات الله عليه في حياة المسلمين على امتداد التاريخ وفي حياتهم الحاضرة ؛ فقد وضعت كتب كبيرة اختلفت نظراتها للسيرة ومناهجها في تناولها ، ولكن كانت هناك بعض الكتب في هذا المجال امتازت بشمولها وكثراً ودقة منهجها ، بما يعين القارئ على أن يتناول مسيرة الرسول صلوات الله عليه في بسر يعينه على فهمها فهماً شاملًا واستيعابها دون ما نقص أو خلل .

وكان هذا الكتاب «الرحيق المختوم» للأستاذ صفي الرحمن المباركفورى - من الجامعة السلفية بالهند - من الكتب المتميزة في السرد التاريخي والذي امتاز بنهجه الواضح وشموليته الجامحة في عرض السيرة العطرة عرضاً عميقاً يسيراً ، خالياً من الشوائب أو الأباطيل التي لحقت بعض كتب السيرة .

ويمتاز هذا الكتاب أيضاً في كونه معيناً لكل قارئ أو باحث في السيرة أن يجد بغيته فيه . وقد فاز هذا الكتاب بالجائزة الأولى لمسابقة السيرة النبوية التينظمتها رابطة العالم الإسلامي .

ولا ننسى هنا أن ننوه بإضافة هذا المجهد إلى المجهود العظيمة التي بذلها العلماء المنود على امتداد العصور ، في حرصهم وحفظهم للتراث الإسلامي وإبداعهم الفذ في مجالات التفسير والسيرة والحديث وعلومه خاصة .

ونحن إذ نقدم هذا الكتاب إلى المسلمين في شوارق الأرض ومغاربها ؛ نسأل الله أن يعم به الفائدة والنفع .

والله من وراء القصد
الناشر

كلمة المؤلف

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فجعله شاهداً وبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وجعل فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وفجر لهم بناية الرحمة والرضوان تفجيراً .

وبعد ، فإن من دواعي الغبطة والسرور أن رابطة العالم الإسلامي أعلنت عقب مؤتمر السيرة النبوية الذي انعقد في باكستان في شهر ربيع الأول من سنة ١٣٩٦ هـ بإقامة مسابقة على مستوى العالم الإسلامي ، للبحث حول موضوع السيرة النبوية – على صاحبها ألف ألف صلاة وسلام – تنشيطاً للكاتبين ، وتنسيقاً لجهودهم الفكرية ، وإن أرى أن هذا العمل له قيمة كبيرة ربما لا يحيط بوصفها البيان . فإن السيرة النبوية والأسوة الحمدية على صاحبها ما يستحق من الصلاة والسلام – إذا لاحظناها بعين الدقة والاعتبار – هي المنبع الوحيد الذي تنفجر منه بناية حياة العالم الإسلامي وسعادة المجتمع البشري .

وإن من سعادتي وحسن حظي أنني أساهم في تلك المسابقة المباركة ، ولكن أين أنا حتى أقي ضوءاً على حياة سيد الأولين والآخرين عليه السلام . وإنما أنا رجل يرى لنفسه كل السعادة والفلاح أن يقتبس من نوره ، حتى لا يتهالك في دياجير الظلمات ، بل يحيا وهو من أمنته ، ويموت وهو من أمنته ، ويفغر الله له ذنبه بشفاعته .

وكلمة بسيطة أرى أن أقدمها عن منهجي في مقالتي هذه : إنني قبل أن آخذ في كتابة المقالة رأيت أن أضعها في حجم متوسط متجنبنا التطويل الممل والإيجاز الخل ، ولكني كثيراً ما رأيت في المصادر اختلافاً كبيراً في ترتيب الواقع ، أو في تفصيل جزئياتها ، وفي مثل هذه الواقع قمت

بالتحقيق البالغ ، وأدرت النظر في جميع جوانب البحث . ثم أثبتت في صلب المقالة ما ترجم
لديّ بعد التحقيق . ولكن احتزت عن إيراد الدلائل والبراهين ؛ لأن ذلك يفضي إلى طول غير
مطلوب . نعم ! ربما أشرت إلى الدلائل حين خفت الاستغراب من بقاؤ المقالة ، أو حين رأيت
عامة الكاتبين ذهبا إلى خلاف الصحيح .

اللهم قدر لي الخير في الدنيا والآخرة ، إنك أنت الغفور الودود ذو العرش المجيد .

الجمعة المباركة ٢٤ / ٧ / ١٣٩٦ هـ
٢٣ / ٧ / ١٩٧٦ م

صفي الرحمن المباركفوري

الجامعة السلفية

بنارس الهند

٣٣٣

موقع العرب وأقوامها

إن السيرة النبوية – على صاحبها الصلاة والسلام – عبارة في الحقيقة عن الرسالة التي حملها رسول الله ﷺ إلى المجتمع البشري ، وأنحرج بها الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله . وإذاً فلا يمكن إحضار صورتها الرايعة بتقاضها إلا بعد المقارنة بين خلفيات هذه الرسالة وأثارها . ونظراً إلى ذلك نقدم فصلاً عن أقوام العرب وتطوراتها قبل الإسلام ، وعن الظروف التي بُعث فيها محمد ﷺ .

موقع العرب:

العرب لغة : الصحاري والقفار ، والأرض المجدبة التي لا ماء فيها ولا نبات . وقد أطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب . كما أطلق على قوم قطنوا تلك الأرض ، واتخذوها موطنأً لهم .

وجزيرة العرب يمدها غرباً البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء ، وشرقاً الخليج العربي وجزءاً كبيراً من بلاد العراق الخنزيرية ، وجنوباً بحر العرب الذي هو امتداد لبحر الهند ، وشمالاً بلاد الشام وجزء من بلاد العراق على اختلاف في بعض هذه الحدود ، وتقدر مساحتها ما بين مليون ميل مربع إلى مليون وثلاثمائة ألف ميل مربع .

والجزيرة لها أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعي والجغرافي ؛ فأما باعتبار وضعها الداخلي فهي محاطة بالصحاري والرمال من كل جانب ، ومن أجل هذا الوضع صارت الجزيرة حصنًا منيعاً لا يسمح للأجانب أن يحتلوها ويسيطروا عليها سيطرتهم ونفوذهم . ولذلك نرى سكان الجزيرة أحرازاً في جميع الشعوب منذ أقدم العصور ، مع أنهم كانوا مجاوري لإمبراطوريات عظيمتين

لم يكونوا يستطيعون دفع هجماتها لولا هذا السد المنيع .

وأما بالنسبة إلى الخارج فإنها تقع بين القارات المعروفة في العالم القديم . وتلتقي بها برأً وبحراً . فإن ناحيتها الشمالية الغربية باب للدخول في قارة إفريقيا ، وناحيتها الشمالية الشرقية مفتاح لقارة أوروبا ، والناحية الشرقية تفتح أبواب العجم والشرق الأوسط والأدنى . وتفضي إلى الهند والصين ، وكذلك تلتقي كل قارة بالجزيرة بحراً ، وترسي سفنها و بواسرها على ميناء الجزيرة رأساً .
ولأجل هذا الوضع الجغرافي كان شمال الجزيرة وجنوبها مهبطاً للأمم و مركزاً لتبادل التجارة ، والثقافة ، والديانة ، والفنون .

أقوام العرب:

وأما أقوام العرب فقد قسمها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي ينحدرون منها :

(١) العرب البائدة : وهم العرب القدامى الذين لم يمكن الحصول على تفاصيل كافية عن تاريخهم ، مثل : عاد و ثمود و طسم و جديس و عملاق و سواها .

(٢) العرب العاربة : وهم العرب المنحدرة من صلب يعرب بن يشجب بن قحطان ، وتسمى بالعرب القحطانية .

(٣) العرب المستعربة : وهي العرب المنحدرة من صلب إسماعيل ، وتسمى بالعرب العدنانية .
أما العرب العاربة - وهي شعب قحطان - فمهدها بلاد اليمن ، وقد تشعبت قبائلها وبطونها فاشتهرت منها قبيلتان :

(أ) حمير ، وأشهر بطونها زيد الجمhour ، وقضاعة ، والسكاك .

(ب) كهلان ، وأشهر بطونها هدان ، وأنمار ، وطيء ، ومذحج ، وكندة ، وخم ، وجذام ، والأزد ، والأوسن ، والخزرج ، وأولاد جفنة ملوك الشام .

وهاجرت بطون كهلان عن اليمن ، وانتشرت في أنحاء الجزيرة ، وكانت هجرة معظمهم قبيل سيل العرم حين فشلت تجاراتهم ؛ لضغط الرومان وسيطرتهم على طريق التجارة البحرية ، وإفسادهم طريق البر بعد احتلالهم بلاد مصر والشام .

ولا غرو فقد كانت منافسة بين بطون كهلان وبطون حمير أدت إلى جلاء كهلان ، ويشير إلى ذلك بقاء حمير مع جلاء كهلان .

ويمكن تقسيم المهاجرين من بطون كهلان إلى أربعة أقسام :

(١) الأزد - وكانت هجرتهم على رأي سيدهم وكبيرهم عمران بن عمرو مزيقباء . فساروا يتنقلون في بلاد اليمين ويرسلون الرواد ، ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال . وهاما تفصيل الأماكن التي سكنتها فيها بعد الرحلة نهائياً : عطف ثعلبة بن عمرو من الأزد نحو الحجاز ، فأقام بين الثعلبية وذي قار ، ولما كبر ولده وقوي ركبه سار نحو المدينة ، فأقام بها واستوطنه . ومن أبناء ثعلبة هذا : الأوس والخزرج ، ابنا حارثة بن ثعلبة .

وانطلق منهم حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - وبنوه في ربوع الحجاز ، حتى نزلوا بمنطقة الظهران ، ثم افتتحوا الحرم فقطعوا مكة وأجلوا سكانها الجراهمة .

ونزل عمران بن عمرو في عمان ، واستوطنه هو وبنوه ، وهم أزد عمان ، وأقامت قبائل نصر بن الأزد بهامة ، وهم أزد شنوة .

وسار جفنة بن عمرو إلى الشام فأقام بها هو وبنوه ، وهو أبو الملوك الغساسنة . نسبة إلى ماء في الحجاز يعرف بحسان كانوا قد نزلوا بها أولاً قبل تنقلهم إلى الشام .

(٢) لخم وجذام - وكان في التلخمين نصر بن ربيعة أبو الملوك المنادرة بالحيرة .

(٣) بنو طيء - ساروا بعد مسيرة الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين أجا وسلمى ، وأقاموا هناك ، حتى عرف الجبلان بجيلى طيء .

(٤) كندة - نزلوا بالبحرين ، ثم اضطروا إلى مغادرتها فنزلوا بحضرموت ، ولاقوا هناك ما لا يروا بالبحرين ، ثم نزلوا نجد ، وكونوا هناك حكومة كبيرة الشأن ولكنها سرعان ما فنيت وذهبت آثارها .

وهناك قبيلة من حمير مع اختلاف في نسبتها إليه - وهي قضااعة - هجرت اليمين واستوطنت بادية السهاوة من مشارف العراق^(١) .

(١) انظر لتفصيل هذه القبائل وهجراتها : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرمي ١١/١ ١٢-١٣ وقلب جزيرة العرب ص ٢٣١ إلى ٢٣٥ - وختلفت المصادر التاريخية اختلافاً كبيراً في تعين زمن هذه المجرات وأسبابها =

وأما العرب المستعرية فأصل جدهم الأعلى - وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام - من بلاد العراق ، من بلدة يقال لها «أر» على الشاطئ الغربي من نهر الفرات ، بالقرب من الكوفة ، وقد جاءت الحفريات والتنقيبات بتفاصيل واسعة عن هذه البلدة وعن أسرة إبراهيم عليه السلام ، وعن الأحوال الدينية والاجتماعية في تلك البلاد^(١) .

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام هاجر منها إلى حaran أو حران ، ومنها إلى فلسطين ، فاتخذها قاعدة لدعونه ، وكانت له جولات في أرجاء هذه البلاد وغيرها^(٢) وقد مرّ مصر ، وقد حاول فرعون مصر كيداً وسواً بزوجته سارة ولكن الله ردّ كيده في نحره ، وعرف فرعون ما لسارة من الصلة القوية بالله ، حتى أخدّمها ابنته^(٣) هاجر ؛ اعترافاً بفضلها ، وزوجتها سارة إبراهيم^(٤) .

ورجع إبراهيم إلى فلسطين ، ورزقه الله من هاجر إسماعيل ، وغارت سارة حتى أحاث إبراهيم إلى نفي هاجر مع ولدتها الصغرى - إسماعيل - فقدم بهما إلى الحجاز ، وأسكنهما بواد غير ذي زرع عند بيت الله الحرم الذي لم يكن إذ ذاك إلا مرتقعاً من الأرض كالرالية ، تأتيه السبيل فتأخذ عن يمينه وشماله ، فوضعهما عند دوحة فوق زمم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء . فوضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ورجع إلى فلسطين ، ولم تمض أيام حتى نفذ الرزق والماء ، وهناك تفجرت بئر زمم بفضل الله ، فصارت قوتاً لهم وبلاغاً إلى حين .
والقصة معروفة ببطولها^(٥) .

وجاءت قبيلة يمانية - وهي جرهم الثانية - فقطنت مكة بإذن من أم إسماعيل يقال إنهم كانوا قبل ذلك في الأودية التي بأطراف مكة . وقد صرحت رواية البخاري أنهم نزلوا مكة بعد

^(١) وبعد إدارة النظر من جميع الجوانب أتيتنا ما ترجع عندها في هذا الباب من حيث الدليل .

^(٢) تفهم القرآن للسيد أبي الأعلى المودودي ٥٥٣/١ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ .

^(٣) نفس المصدر ١٠٨/١ .

^(٤) المعروف أن هاجر كانت أمة مملوكة ، ولكن حق الكاتب الكبير العلامة القاضي محمد سليمان المصورفوري أنها كانت حرة ، وكانت ابنة فرعون - انظر رحمة للعلمين - ٣٧-٣٦/٢ .

^(٥) نفس المصدر ٢٤/٢ وانظر في تفصيل القصة : صحيح البخاري ١/ ٤٧٤ .

^(٦) انظر صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ١/ ٤٧٤-٤٧٥ .

إسماعيل ، وقيل أن يشب ، وأنهم كانوا يرون بهذا الوادي قبل ذلك^(١) .

وقد كان إبراهيم يرحل إلى مكة بين آونة وأخرى ليطالع تركه ، ولا يعلم كم كانت هذه الرحلات ، إلا أن المصادر التاريخية الموثوقة حفظت أربعة منها .

فقد ذكر الله تعالى في القرآن أنه أرى إبراهيم في المنام أنه يذبح إسماعيل ، فقام بامتثال هذا الأمر ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَ وَتَلَمَّلَ الْجِنِّينَ ۖ وَنَدَيْتَهُ أَنْ يَتَابَ إِبْرَاهِيمُ ۚ ۱٤٢﴾ قَدْ صَدَقَ الْأُرْثُ يَا إِنَّا كَذَلِكَ بَغَزَى الْمُحْسِنِينَ ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلْوَةُ الْمُبَيِّنُ ۖ ۱٤٣﴾ وَقَدَّتَهُ يَذْبَحُ عَظِيمٍ ﴿۱٤٤﴾ .

وقد ذكر في سفر التكوين أن إسماعيل كان أكبر من إسحق بثلاث عشرة سنة ، وسياق القصة يدل على أنها وقعت قبل ميلاد إسحاق ، لأن البشرة ياسحق ذكرت بعد سرد القصة بتفاصيلها .

وهذه القصة تتضمن رحلة واحدة – على الأقل – قبل أن يشب إسماعيل ، أما الرحلات الثلاث الآخر فقد رواها البخاري ببطولها عن ابن عباس مرفوعاً^(٢) وملخصها أن إسماعيل لما شب وتعلم العربية من جرهم ، وأنفسهم وأعجبهم زوجوه امرأة منهم ، وماتت أمه ، وبدا لإبراهيم أن يطالع تركه فجاء بعد هذا الزواج ، فلم يجد إسماعيل فسأله امرأته عنه وعن أحواهـما ، فشكـت إليه ضيق العيش فأوصـها أن تقول لإـسماعيل أن يغير عـتبـةـ بـابـهـ ، وفهمـ إـسماعـيلـ ماـ أـرـادـ أـبـوهـ ، فـطـلقـ اـمـرـأـهـ تـلـكـ وـتـزـوـجـ اـمـرـأـهـ أـخـرـىـ ، وـهـيـ اـبـنـةـ مـضـاضـ بـنـ عـمـرـوـ ، كـبـيرـ جـرـهمـ وـسـيـدـهـمـ^(٣) .

وجاء إبراهيم مرة أخرى بعد هذا الزواج الثاني فلم يجد إسماعيل فرجـعـ إلى فـلـسـطـينـ بعدـ أنـ سـأـلـ زـوـجـهـ عـنـ أـحـواـهـمـاـ فـأـنـتـ عـلـىـ اللـهـ ، فـأـوـصـىـ إـلـىـ إـسـمـاعـيلـ أـنـ يـثـبـتـ عـتـبـةـ بـابـهـ .

وجاء مرة ثالثة فلقي إسماعيل وهو ييري نبلا له تحت دوحة قريباً من زرمـنـ فـلـمـ رـآـهـ قـامـ إـلـيـهـ فـصـنـعـ كـاـيـصـنـ الـوـالـدـ بـالـوـلـدـ وـالـوـلـدـ بـالـوـالـدـ ، وـكـانـ لـقـاؤـهـ بـعـدـ قـرـةـ طـوـيـلـةـ مـنـ الزـمـنـ ، قـلـمـاـ يـصـرـ فـيـهاـ أـلـبـ الـكـبـيرـ أـلـأـوـاهـ الـعـطـوفـ عـنـ وـلـدـهـ ، وـالـوـلـدـ بـارـ الصـالـحـ الرـشـيدـ عـنـ أـيـهـ وـفـيـ هـذـهـ الـمـرـةـ بـنـيـاـ

(١) نفس المصدر ٤٧٥/١ .

(٢) الآيات ١٠٧-١٠٣ من سورة الصافات .

(٣) ج ١/٤٧٥-٤٧٦ .

(٤) قلب جزيرة العرب ص ٢٢٠ .

الكعبة ، ورفعوا قواعدها ، وأذن إبراهيم في الناس بالحج كأمره الله .

وقد رزق الله إسماعيل من أبناء مضاض اثني عشر ولداً ذكر^(١) وهم : نابت أو نبایوط ، قيدار ، وأدبائيل ، وبشام ، ومشام ، ودوما ، وميشا ، وحدد ، وبينا ، وبطور ، ونفيس ، وقیدمان ، وتشعبت من هؤلاء انتتا عشرة قبيلة ، سكنت كلها في مكة مدة ، وكانت جل معيشتهم التجارة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ومصر ثم انتشرت هذه القبائل في أرجاء المخربة بل وإلى خارجها . ثم أدرجت أحواضهم في غياب الزمان ، إلا أولاد نابت وقیدار .

وقد ازدهرت حضارة الأنباط – أبناء نابت – في شمال الحجاز ، وكونوا حكومة قوية دان لها من بأطافها ، واتخذوا البطراء عاصمة لهم ، ولم يكن يستطيع مناؤتهم أحد حتى جاء الرومان فقضوا عليهم ، وقد رجع السيد سليمان التدويني بعد البحث الأثيق والتحقيق الدقيق أن ملوك آل غسان وكذا الأنصار من الأوس والخزرج لم يكونوا من آل قحطان ، وإنما كانوا من آل نابت بن إسماعيل ، وبقاياهم في تلك الديار^(٢) .

وأما قيدار بن إسماعيل فلم ينزل أبناؤه بمكة يتناسلون هناك حتى كان منه عدنان وولده معد ، ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها . وعدنان هو الجد الحادي والعشرون في سلسلة النسب النبوى ، وقد ورد أنه ~~عليه السلام~~ كان إذا انتسب فبلغ عدنان يمسك ويقول : كذب النسايون ، فلا يتجاوزه^(٣) . وذهب جمّع من العلماء إلى جواز رفع النسب فوق عدنان ، مضعفين للحديث المشار إليه ، وقالوا إن بين عدنان وبين إبراهيم عليه السلام أربعين أبياً بالتحقيق الدقيق^(٤) .

وقد تفرقت بطون معد من ولده نزار – قيل لم يكن معد ولد غيره – فكان لزار أربعة أولاد ، تشعبت منهم أربعة قبائل عظيمة : إباد وأنمار وربيعة ومضر ، وهذا الأخيران هما اللذان كثرت بطونهما واتسعت أفخاذهما ، فكان من ربيعة : أسد بن ربيعة ، وعزّة ، عبد القيس ، وأبنا وائل – بكر ، وتغلب – وحنيفة وغيرها .

(١) نفس المصدر .

(٢) انظر تاريخ أرض القرآن ٢/٧٨ إلى ٨٦ .

(٣) انظر الطبرى ٢/١٩٤-١٩١ والأعلام ٥/٦ .

(٤) رحمة للعلميين ٢/١٤، ٨، ٧/١٥، ١٤، ١٦، ١٧ .

وتشعبت قبائل مصر إلى شعوبتين عظيمتين : قيس عيلان بن مصر ، وبطون إلياس بن مصر . فمن قيس عيلان : بنو سليم ، وبنو هوازن ، وبنو غطفان ، ومن غطفان : عبس وذبيان ، وأشجع وغني بن أعصر .

ومن إلياس بن مصر : تميم بن مرة ، وهذيل بن مدركة ، وبنو أسد بن خزيمة وبطون كنانة بن خزيمة ، ومن كنانة : قريش ، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة .

وأنقسمت قريش إلى قبائل شتى ، من أشهرها : جمع ، وسهم ، وعدى ، ومخروم ، وتم ، وزهرة ، وبطون قصي بن كلاب ، وهي عبد الدار بن قصي ، وأسد بن عبد العزى بن قصي ، وعبد مناف بن قصي .

وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ، ونوفل ، والمطلب ، وهاشم وبيت هاشم هو الذي اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم عليهما السلام^(١) .

قال عليهما السلام : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم »^(٢) .

وعن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله عليهما السلام : « إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم وخير الفريقين ، ثم تخير القبائل ، فجعلني من خير القبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم ، فإنما خيرهم نفساً وخيرهم بيتي »^(٣) .

ولما تكاثر أولاد عدنان تفرقوا في أنحاء شتى من بلاد العرب ، متبعين موقع القطر ومنتابت العشب .

فهاجرت عبد القيس ، وبطون من بكر بن وائل ، وبطون من تميم إلى البحرين فأقاموا بها . وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن علي بن بكر إلى الجamaة فنزلوا بحجر ، قصبة الجamaة .

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرى ١٤/١ ، ١٥ .

(٢) رواه مسلم عن وائلة بن الأسعق ، باب فضل نسب النبي عليهما السلام ٢٤٥/٢ والترمذى ٢٠١/٢ .

(٣) رواه الترمذى ، باب ما جاء في فضل النبي عليهما السلام ٢٠١/٢ .

وأقامت سائر بكر بن وائل في طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر ، فأطّراف سواد العراق ، فالأبلة فهيت .

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ، ومنها بطون كانت تسكن بكرأ . وسكنت بنو نعم بعادية البصرة .

وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة ، من وادي القرى إلى خيبر إلى شرق المدينة إلى حد الجليلين ، إلى ما ينتهي إلى الحرة .

وسكنت ثقيف بالطائف ، وهوazen في شرق مكة بنواحي أوطاس ، وهي على الحادثة بين مكة والبصرة .

وسكنت بنو أسد شرق تباء وغربي الكوفة ، بينهم وبين تباء ديار بحتر من طيء ، وبينهم وبين الكوفة خمس ليال .

وسكنت ذبيان بالقرب من تباء إلى حوران .

وبقي بهيمة بطون كنانة ، وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش ، وكانوا متفرقين لا تجتمعهم جامدة حتى نبغ فيهم قصي بن كلاب ، فجمعهم ، وكون لهم وحدة شرفهم ورفع من أقدارهم^(١) .

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرى ١٥/١ - ١٦ .

الحكم والإمارة في العرب

حيثما أردنا أن نتكلم عن أحوال العرب قبل الإسلام ؛ رأينا أن نضع صورة مصغرة من تاريخ الحكومة والإمارة والملل والأديان في العرب ، حتى يسهل علينا فهم الأوضاع الطارئة عند ظهور الإسلام .

كان حكام الجزيرة حين بزغت شمس الإسلام قسمين : قسم منهم ملوك متوجون ، لكنهم كانوا في الحقيقة غير مستقلين ، وقسم هم رؤساء القبائل والعشائر ، لم ينفعهم من الحكم والامتياز ، ومعظم هؤلاء كانوا على تمام الاستقلال . وربما كانت بعضهم تبعية لملك متوج ، والملوك المتوجون هم ملوك اليمين ، وملوك آل غسان ، وملوك الجزيرة ، وما عدا هؤلاء من حكام الجزيرة فلم تكن لهم تيجان .

الملك باليمن:

من أقدم الشعوب التي عرفت باليمين من العرب العازبة قوم سباً ، وقد عثر على ذكرهم في حفريات « أور » بخمسة وعشرين قرناً قبل الميلاد . ويدرك ازدهار حضارتهم ونفوذ سلطانهم وبسط سيطرتهم بأحد عشر قرناً قبل الميلاد .

ويمكن تقسيم أدوارهم حسب التقدير الآتي :

(١) القرون التي خلت قبل سنة ٦٥٠ ق.م ، وكان ملوكهم يلقبون في هذا الزمن بـ « مكرب سباً » وكانت عاصمتهم بلدة « صرواح » التي توجد أنقاضها على مسافة يوم إلى الجانب الغربي من بلدة « مأرب » وتعرف باسم « خريبة » وفي زمنهم بدأ بناء السد الذي عرف بسد

مأرب ، والذي له شأن كبير في تاريخ اليمن ، ويقال إن سبأ بلغوا من بسط سلطتهم إلى أن اتخذوا المستعمرات في داخل بلاد العرب وخارجها .

(٢) منذ سنة ٦٥٠ ق.م إلى سنة ١١٥ ق.م وفي هذا الزمن تركوا لقب « مكرب » وعرفوا بملوك سبأ ، واتخذوا « مأرب » عاصمة لهم بدل « صرواح » وتوجد أنقاضها على بعد ستين ميلًا من صنعاء إلى جانبيها الشرقي .

(٣) منذ سنة ١١٥ ق.م إلى سنة ٣٠٠ م ، وفي هذا العهد غلبت قبيلة حمير على مملكة سبأ ، واتخذت بلدة « ريدان » عاصمة لها بدل « مأرب » . ثم سميت بلدة « ريدان » باسم ظفار ، وتوجد أنقاضها على جبل مدبور بالقرب من « بريم » وفي هذا العهد بدأ فيهم السقوط والانحطاط ، فقد فشلت تجاراتهم إلى حد كبير ؛ لبسط سيطرة الأنباط في شمال الحجاز أولاً ، ثم لغبة الرومان على طرق التجارة البحرية بعد نفوذ سلطانهم على مصر وسوريا وشمال الحجاز ثانياً ، ولتنافس القبائل فيما بينها ثالثاً . وهذه العناصر هي التي سببت في تفرق آل قحطان وهجرتهم إلى البلاد الشاسعة .

(٤) منذ سنة ٣٠٠ م إلى أن دخل الإسلام في اليمن . وفي هذا العهد توالت عليهم الأضطرابات والحوادث ، وتابعت الانقلابات ، والمحروب الأهلية التي جعلتهم عرضة للأجانب حتى قضت على استقلالهم ، ففي هذا العهد دخل الرومان في عدن ، ومعونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة سنة ٣٤٠ م ، مستغلين التناقض بين قبيلتي همدان وحمير ، واستمر احتلالهم إلى سنة ٣٧٨ م . ثم نالت اليمن استقلالها ، ولكن بدأت تقع الثلمات في سد مأرب ، حتى وقع السيل العظيم الذي ذكره القرآن بسيل العرم في سنة ٤٥٠ م أو ٤٥١ م . وكانت حادثة كبرى أدت إلى خراب العمran وتشتت الشعوب .

وفي سنة ٥٢٣ م قاد ذو نواس اليهودي حملة منكرة على المسيحيين من أهل نجران ، وحاول صرفهم عن المسيحية قسراً . ولما أتوا خد لهم الأخذود وألقاهم في النيران ، وهذا الذي أشار إليه القرآن في سورة البروج بقوله : ﴿ قُتِلَ أَعْجَنْبُ الْأَخْذُود﴾ الآيات ، وكان من جراء ذلك نفحة الصرانية الناشطة إلى الفتح والتوسيع تحت قيادة أباطرة الرومان على بلاد العرب ، فقد حرضوا

الأحباش ، وهياوا لهم الأسطول البحري ، فنزل سبعون ألف جندي من الجبعة ، واحتلوا اليمن مرة ثانية ، بقيادة أرباط سنة ٥٢٥ م ، وظل أرباط حاكماً من قبل ملك الجبعة حتى اغتاله أبرهة - أحد قواد جيشه - وحكم بدله بعد أن استرضى ملك الجبعة ، وأبرهة هذا هو الذي جند الجنود لدم الكعبة ، وعرف هو وجنته بأصحاب الفيل .

وبعد وفاة الفيل استنجد اليهانيون بالفرس ، وقاموا بمقاومة الجبعة حتى أجلوهم عن البلاد ، ونالوا الاستقلال في سنة ٥٧٥ م بقيادة معد يكرب بن سيف ذي يزن الحميري ، واتخذوه مakaً لهم ، وكان معد يكرب أبيقى معه جمعاً من الجبعة يخدمونه ويعيشون في ركابه ، فاغتالوه ذات يوم ، وموته انقطع الملك عن بيت ذي يزن ، وولى كسرى عاماً فارسياً على صنعاء ، وجعل اليمن ولاية فارسية فلم تزل الولاية من الفرس تتراقب على اليمن حتى كان آخرهم باذان الذي اعتنق الإسلام سنة ٦٣٨ م . وبإسلامه انتهى نفوذ فارس على بلاد اليمن^(١) .

الملك بالحيرة:

كانت الفرس تحكم على العراق وما جاورها منذ أن جمع شملهم قوروش الكبير (٥٥٧ - ٥٢٩) ق.م ولم يكن أحد ينأوهم ، حتى قام الإسكندر المقدوني سنة ٣٢٦ ق.م فهزم ملوكهم دارا الأول ، وكسر شوكتهم ، حتى تخزأت بلادهم وتولاهما ملوك يعرفون بملوك الطوائف ، واستمروا يحكمون البلاد مجزأة إلى سنة ٢٣٠ م . وفي عهد هؤلاء الملوك هاجر القحطانيون ، واحتلوا جزءاً من ريف العراق ثم لحقتهم من هاجر من العدنانيين فزاحموهم حتى سكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية .

وعادت القوة مرة ثانية إلى الفرس في عهد أردشير - مؤسس الدولة الساسانية منذ سنة ٢٢٦ م - فإنه جمع شمل الفرس ، واستولى على العرب المقيمين على تخوم ملكه ، وكان هذا سبباً في رحيل قضاة إلى الشام ، ودان له أهل الحيرة والأنبار .

(١) انظر في تفصيل ذلك : تفہیم القرآن ٤/١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، وتأریخ أرض القرآن ج ١ / من ١٣٣ إلى نهاية الكتاب ، وفي تعین السنين اختلاف كبير بين المصادر التاريخية ، وقد قال بعض الكتاب عن هذه التفاصیل «إن هنا إلا أساطير الأولين» .

وفي عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الواضح على الحيرة وسائر من بادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر ، وكان أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يمحكم العرب مباشرة ، وينعهم من الإغارة على تخوم ملكه ، إلا أن يملك عليهم رجلاً منهم له عصبية تؤيده وتنفعه ، ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم ، ولذلك عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطعنهم ملوك الرومان ، وكان يقى عند ملك الحيرة كثيبة من جند الفرس ؛ ليستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب الباية ، وكان موت جذيمة حوالي سنة ٢٦٨ م .

وبعد موت جذية ولـى الحيرة عمرو بن عدي بن نصر اللخمي ، أول ملوك اللخميين – في عهد كسرى سابور بن أردشير – ثم لم تزل الملوك من اللخميين تتولى على الحيرة حتى ولـى الفرس قباد بن فیروز ، وفي عهده ظهر مزدك ، وقام بالدعوة إلى الإباحية ، فتبعه قباد كما تبعه كثير من رعيته ، ثم أرسل قباد إلى ملك الحيرة – وهو المنذر بن ماء السماء – بدعوه إلى أن يختار هذا المذهب ويدين به ، فألى عليه حبة وأنفه ، فعزله قباد ، وولـى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندي بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكي .

وخلف قباد كسرى أنوشروان ، وكان يكره هذا المذهب جداً ، فقتل المزدك وكثيراً من دان بمذهبه ، وأعاد المنفر إلى ولاية الحيرة ، وطلب الحارث بن عمرو لكنه أفلت إلى دار كلب ، فلم يزل فيه حتى مات .

واستمر الملك بعد المنذر بن ماء السماء في عقبه ، حتى كان النعمان بن المنذر ، وهو الذي غضب عليه كسرى بسبب وشایة دبرها زيد بن عدي العبادي ، وأرسل كسرى إلى النعمان يطلبـه ، فخرج النعمان حتى نزل سراً على هانيء بن مسعود سيد آل شيبان ، فأودعه أهله وما له ، ثم توجه إلى كسرى ، فحبسهـ كسرى حتى مات وولى على الحيرة بدله إياـس بن قبيصة الطائـي ، وأمرهـ أن يرسل إلى هانيء بن مسعود يطلبـ منه تسليم ما عنده ، فلـى ذلك هانيء حمية ، وأذنـ الملك بالحرب ، ولم تلبـث أن جاءـت مرازـية كسرى وكـاتـبهـ في موـكـبـ إياـسـ ، وكانتـ بينـ الفـريـقـيـنـ مـوقـعةـ هـائلـةـ عـندـ ذـي قـارـ ، وانتـصـرـ فـيهـ بـنـوـ شـيبـانـ ، وانـهـزـمـتـ الفـرسـ هـزـيمةـ منـكـرةـ . وهذاـ أولـ يومـ انتـصـرتـ فـيهـ الـعـربـ عـلـىـ الـعـجمـ ، وـهـوـ بـعـدـ مـيلـادـ الرـسـولـ ﷺـ بـقـلـيلـ ، فـإـنـهـ عـلـيـ السـلامـ وـلـدـ لـثـانـيـةـ أـشـهـرـ مـنـ وـلـاـيـةـ إـيـاسـ بـنـ قـبـيـصـةـ عـلـىـ الـحـيـرـةـ .

وولى كسرى على الحيرة بعد أيام حاكماً فارسياً ، وفي سنة ٦٣٢ عاد الملك إلى آل خم ،
فتوى منهم المنذر الملقب بالمعروف ، ولم تزد ولايته على ثمانية أشهر حتى قدم عليه خالد بن الوليد
بعساكر المسلمين^(١) .

الملك بالشام:

في العهد الذي ماجت فيه العرب بهجرات القبائل صارت بطون من قضاة إلى مشارف الشام وسكنت بها ، وكانوا من بني سليع بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سليع المعروفون باسم الضجاعمة ، فاصطبنهم الرومان ؛ ليمنعوا عرب البرية من العبث ، ولن يكونوا عدة ضد الفرس ، وولوا منهم ملكاً ، ثم تعاقب الملك فيهم سنين ، ومن أشهر ملوكهم زياد بن المبولة ، ويقلل زمنهم من أوائل القرن الثاني الميلادي إلى نهاية تقوياً ، وانتهت ولايتهم بعد قدوم آل غسان ، الذين غلبوا الضجاعمة على ما يديهم وانتصروا عليهم ، فولتهم الروم ملوكاً على عرب الشام ، وكانت قاعدتهم دومة الجندل ، ولم تزل تتولى الغساسنة على الشام بصفتهم عملاً للملوك الروم حتى كانت وقعة اليرموك سنة ١٣ هـ ، وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأبيم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(١) .

الإمارة بالمحاجنة

ومضت الدهور والأيام ولم يزل أمر أولاد إسماعيل عليه السلام ضيلاً لا يذكر ، حتى

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرى ٢٩/١، ٣٠، ٣١، ٣٢.

(٢) نفس المصدر ٣٤/١ ، وأرض القرآن ٨٠/٢ ، ٨١ ، ٨٢ .

(٣) قلب جزيرة العرب ص ٢٢٠ - ٢٣٧.

(٤) سفر التكوين ٢٥ : ١٧ .

(٥) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠ - ٢٣٧ ، وابن هشام ١١١/١ - ١١٣ ، وذكر ابن هشام ولاية نابت فقط من نواب إسماعيل عليه السلام .

ضعف أمر جرهم قبيل ظهور بختنصر ، وأخذ نجم عدنان السياسي يتألق في أفق سماء مكة منذ ذلك العصر ، بدليل ما جاء بمناسبة غزو بختنصر للعرب في ذات عرق ، فإن قائد العرب في الموقعة لم يكن جرمياً^(١) .

وتفرت بنو عدنان إلى الين عند غزوة بختنصر الثانية (سنة ٥٨٧ق.م) ، وذهب برمياه النبي بعد إلى الشام ، فلما انكشف ضغط بختنصر رجع بعد إلى مكة فلم يجد من جرهم إلا جرشم بن جلهمة ، فتزوج بابنته معانة فولدت له نزاراً^(٢) .

واساء أمر جرهم بمكة بعد ذلك ، وضاقت أحواالم ، فظلموا الوافدين إليها ، واستحلوا مال الكعبة^(٣) ، الأمر الذي كان يغrieve العدنانيين ، ويشير حفيظتهم ، ولما نزلت خزاعة بمر الظهران ، ورأى نفور العدنانيين من الجراة استغل ذلك ، فقادت بمعونة من بطون عدنان – وهم بتو بكر بن عبد مناف بن كنانة – بمحاربة جرهم ، حتى أجلتهم عن مكة ، واستولت على حكمها ، في أواسط القرن الثاني للميلاد .

ولما جاءت جرهم إلى الجلاء سدوا بئر زمم ، ودرسوها موضعها ، ودفعوا فيها عدة أشياء ، قال ابن إسحق : فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرمي^(٤) بغازلي الكعبة^(٥) ، وبحجر الركن الأسود فدقهما في بئر زمم ، وانطلق هو ومن معه من جرهم إلى الين ، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكتها حزناً شديداً ، وفي ذلك قال عمرو^(٦) :

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمّر بمكة سامر
بل نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والحدود العواثر
ويقدر زمن إسماعيل عليه السلام بعشرين قرناً قبل الميلاد ، ف تكون إقامة جرهم في مكة

(١) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠ .

(٢) رحمة للعاملين ٤٨/٢ .

(٣) قلب جزيرة العرب ص ٢٣١ .

(٤) هذا غير مضاض الجرمي الأكبر الذي مضى ذكره في قصة إسماعيل عليه السلام .

(٥) قال المسعودي : وكانت الفرس تهدي إلى الكعبة أموالاً في صدر الزمان وجواهر ، وقد كان سasan بن يابك أهدى غالباً من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً فقدمه (عمرو) في بئر زمم أهدى انظر مروج الذهب ٢٠٥/١ .

(٦) ابن هشام ١١٤/١ - ١١٥ .

واحداً وعشرين قرناً تقربياً ، وحكمهم على مكة زهاء عشرين قرناً . واستبدلت خزاعة بأمر مكة دونبني بكر ، إلا أنه كان إلى قبائل مصر ثلاث حالات :

الأولى : الدفع بالناس من عرفة إلى المزدلفة ، والإجازة بهم يوم النفر من مني ، وكان على ذلك بنو الغوث بن مرة من بطون إلياس بن مصر ، وكانتوا يسمون صوفة ومعنى هذه الإجازة أن الناس كانوا لا يرمون يوم النفر حتى يرمي رجل من صوفة ، ثم إذا فرغ الناس من الرمي ، وأرادوا النفر من مني أخذت صوفة بجانبي العقبة ، فلم يجز أحد حتى يرموا ، ثم يخلون سبيل الناس ، فلما انقضت صوفة ورثهم بنو سعد بن زيد منة من تميم .

الثانية : الإفاضة من جمّع غداة النحر إلى مني ، وكان ذلك في بني عنوان .

الثالثة : إنساء الأشهر الحرم . وكان ذلك إلى بني تميم بن عدي من بني كنانة^(١) .

واستمرت ولية خزاعة على مكة ثلاثة سنين^(٢) . وفي وقت حكمهم انتشر العدنانيون في نجد وأطراف العراق والبحرين ، وبقي بأطراف مكة بطون من قريش وهم حلول وحرم ، وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة . وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شيء حتى جاء قصي بن كلاب^(٣) .

ويذكر من أمر قصي أن أباه مات وهو في حضن أمه ، ونکحت أمه رجلاً من بني عذرة – وهو ربيعة بن حرام – فاحتملها إلى بلاده بأطراف الشام ، فلما شب قصي رجع إلى مكة ، وكان واليها إذ ذاك حليل بن حبشه من خزاعة ، فخطب قصي إلى حليل ابنته حبي ، فرغب فيه حليل وزوجه إياها^(٤) فلما مات حليل قامت حرب بين خزاعة وقريش أدت أخيراً إلى تغلب قصي على أمر مكة والبيت .

وهناك ثلاث روايات في بيان سبب هذه الحرب .

الأولى : أن قصياماً لما انتشر ولده وكثير ماله وعظم شرفه وهلك حليل رأى أنه أولى بالكة وبأمر مكة من خزاعة وبني بكر ، وأن قريشاً رؤوس آل إسماعيل وصربيهم ، فكلم رجالاً من

(١) ابن هشام ٤٤/١ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٢٢ .

(٢) ياقوت مادة « مكة » .

(٣) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرمي ٣٥/١ ، وابن هشام ١١٧/١ .

(٤) ابن هشام ١١٧/١ - ١١٨ .

قريش وبني كنانة في إخراج خزاعة وبني بكر عن مكة فأجابوه^(١).

الثانية : أن حليلاً - فيها ترعم خزاعة - أوصى قصيَا بالقيام على الكعبة وبأمر مكة^(٢).

الثالثة : أن حليلاً أعطى ابنته حني ولاية البيت ، واخذ أبا غبشان الخزاعي وكيلًا لها ، فقام أبو غبشان بسدانة الكعبة نيابة عن حني ، فلما مات حليل اشتري قصي ولاية البيت من أبي غبشان بزق من الخمر ، ولم ترض خزاعة بهذا البيع ، وحاولوا منع قصي عن البيت ، فجمع قصي رجالاً من قريش وبني كنانة لإخراج خزاعة من مكة ، فأجابوه^(٣).

وابا ما كان ، فلما مات حليل وفعلت صوفة ما كانت تفعل أثأهم قصي بن معه من قريش وكنانة عند العقبة فقال : نحن أولى بهذا منكم ، فقاتلوه فغلبهم قصي على ما كان بأيديهم ، وأخازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصي ، فبدأهم قصي ، وأجمع لحرفهم ، فالتفوا واقتلوه قتالاً شديداً ، صار جم من الفريقين فريسة له ، ثم تداعوا إلى الصلح فحكموا يعمر بن عوف أحد بنى بكر ، فقضى بأن قصيَا أولى بالكتبة وبأمر مكة من خزاعة ، وكل دم أصابه قصي منهم موضوع بشدحه تحت قدميه ، وما أصابت خزاعة وبنو بكر فقيه الديمة ، وأن يخلق بين قصي وبين الكعبة - فسمى يعمر يومئذ الشداخ -^(٤) وكان استيلاء قصي على مكة والبيت في أواسط القرن الخامس للميلاد سنة ٤٤٠ م^(٥) وبذلك صارت لقصي ، ثم لقريش السيادة التامة ، والأمر النافذ في مكة ، وصار الرئيس الديني لذلك البيت الذي كانت تفتدى إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة .

ومما فعله قصي بمكة أنه جمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وقطعها رباعاً بين قومه ، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم التي أصبحوا عليها ، وأقر النساء والصفوان ، وعدوان ومرة بن عوف على ما كانوا عليه من المناصب ؛ لأنه كان يراه ديناً في نفسه لا ينبغي تغييره^(٦).

ومن مآثر قصي أنه أسس دار الندوة بالجانب الشمالي من مسجد الكعبة ، وجعل بابها إلى المسجد ، وكانت تجمع قريش ، وفيها تفصل مهام أمورها ، وهذه الدار فضل على قريش ؛ لأنها

(١) نفس المصدر ١/١١٧ - ١١٨.

(٢) نفس المصدر ١/١٨٨.

(٣) رحمة للعلميين ٢/٥٥.

(٤) ابن هشام ١/١٢٣ - ١٢٤.

(٥) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٢.

(٦) ابن هشام ١/١٢٤ - ١٢٥.

ضمنت اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى^(١).

وكان لقصي من مظاهر الرياسة والتشريف :

(١) رياضة دار الندوة ، ففيها كانوا يتشاركون فيها نزل بهم من جسام الأمور ، ويروجون فيها بناتهم .

(٢) اللواء ، فكانت لا تعدد راية الحرب إلا بيده .

(٣) الحجابة وهي حجابة الكعبة ، لا يفتح بابها إلا هو ، وهو الذي يلي أمر خدمتها وسداتها .

(٤) سقاية الحاج ، وهي أئمهم كانوا يملأون للحجاج حياضاً من الماء ، يملونها بشيء من التمر والزبيب ، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة^(٢) .

(٥) رفادة الحاج ، وهي طعام كان يصنع للحاج على طريقة الضيافة ، وكان قصي فرض على قريش خرجا تخرجه في الموسم من أموالها إلى قصي ، فيصنع به طعاماً للحاج ، يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد^(٣) .

وكان كل ذلك لقصي ، وكان ابنه عبد مناف قد شرف وсад في حياته ، وكان عبد الدار بكره ، فقال له قصي : لأنحقنك بالقوم وإن شرفوا عليك ، فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش ، فأعطاه دار الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، وكان قصي لا يخالف ولا يرد عليه شيء صنعه ، وكان أمره في حياته وبعد موته كالدين المتبوع ، فلما هلك أقام بنوه أمره لا نزاع بينهم ولكن لما هلك عبد مناف نافس أبناءه بنى عمهم عبد الدار في هذه المناصب ، وافتقرت قريش فرقين ، وكاد يكون بينهم قتال ، إلا أنهم تداعوا إلى الصلح ، واقسموا هذه المناصب ، فصارت السقاية والرفادة إلىبني عبد مناف ، وبقيت دار الندوة واللواء والحجابة بيدبني عبد الدار ، ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت هاشم بن عبد مناف ، فكان هو الذي يلي السقاية والرفادة طول حياته ، فلما مات خلفه أخوه المطلب بن عبد مناف ، وولي بعده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ ، وبعده أبناؤه حتى جاء الإسلام

(١) ابن هشام ١٢٥/١ ، عاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرى ٣٦/١ ، وأخبار الكرام ص ١٥٢ .

(٢) عاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرى ٣٦/١ .

(٣) ابن هشام ١٣٠/١ .

والولاية إلى العباس بن عبد المطلب^(١).

وكان لقريش مناصب سوى ذلك وزعوها فيما بينهم ، وكونوا بها دويلة – بل بتعبير أصح : شبه دويلة ديمقراطية . وكانت لها من الدواائر والتشكيلات الحكومية ما يشبه في عصرنا هذا دواائر البرلمان و مجالسها ، وهكذا لوحة من تلك المناصب :

(١) الإيسار ، أي تولية قداح الأصنام للاستقسام ، كان ذلك في بني جمع .

(٢) تحجير الأموال ، أي نظم القربات والنذور التي تهدى إلى الأصنام ، وكذلك فصل الخصومات والمرافقات . كان ذلك في بني سهم .

(٣) الشوري ، كانت في بني أسد .

(٤) الأشناق ، أي نظم الديات والغرامات ، كان ذلك في بني تم .

(٥) العقاب ، أي حمل اللواء القومي ، كانت ذلك في بني أمية .

(٦) القبة ، أي نظم المعسكر ، وكذلك قيادة الخيل ، كانت في بني مخزوم .

(٧) السفاراة ، كانت في بني عدي^(٢) .

الحكم فيسائر العرب:

قد سبق لنا أن ذكرنا هجرات القبائل القحطانية والعدنانية ، وأن البلاد العربية اقتسمت فيما بينها ، فما كان من هذه القبائل بالقرب من الحيرة كانت تبعاً لملك العرب بالحيرة ، وما كان منها في بادية الشام كانت تبعاً للغساسنة ، إلا أن هذه التبعية كانت اسمية لا فعلية . وأما ما كان منها في البوادي في داخل الجزيرة فكانت حرة مطلقة .

وفي الحقيقة كان لهذه القبائل رؤساء تسودهم القبيلة ، وكانت القبيلة حكومة مصغرة أساس كيانها السياسي الوحدة العصبية ، والمنافع المتبادلة في حماية الأرض ودفع العداون عنها .

وكانت درجة رؤساء القبائل في قومهم كدرجة الملوك ، فكانت القبيلة تبعاً لرأي سيدها في السلم وال الحرب ، لا تتأخر عنه بحال ، وكان له من الحكم والاستبداد بالرأي ما يكون لدكتاتور

(١) ابن هشام ١٢٩ / ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٢ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٧٩ .

(٢) تاريخ أرض القرآن ٢ / ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .

فري ، حتى كان بعضهم إذا غضب غضب له ألف من السيف لا تسأله فيها غضب ، إلا أن المنافسة في السيادة بين أبناء العم كانت تدعوهم إلى المصانعة بالناس ، من بذل الندى ، وإكرام الضيف ، والكرم ، واللحم وإظهار الشجاعة ، والدفاع عن الغير ؛ حتى يكسروا الحامد في أعين الناس ، ولا سيما الشعراء الذين كانوا لسان القبيلة في ذلك الزمان ، وحتى تسمو درجتهم عن مستوى المنافسين .

وكان للسادة والرؤساء حقوق خاصة ، فكانوا يأخذون من الغنيمة المرباع والصنفي والنشيطة والفضول ، يقول الشاعر :

لك المرباع فينا والصفا يا وحكمك والنشيطة والفضول
والمرباع : ربع الغنيمة ، والصنفي : ما يصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة ، والنشيطة : ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم . والفضول : ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة ، كالبعير والفرس ونحوهما .

الحالة السياسية:

قد ذكرنا حكام العرب ، والآن آن لنا أن نذكر جملة من أحوالهم السياسية ، فالأقطار الثلاثة التي كانت مجاورة للأجانب كانت حالتها السياسية في تضعضع وانحطاط لا مزيد عليه ، فقد كان الناس بين سادة وعبد ، أو حكام ومحكومين ، فالسادة – ولا سيما الأجانب – هم كل الغنم ، والعبيد عليهم كل الغرم ، وبعبارة أوضح إن الرعايا كانت بمثابة مزرعة تورد المحصولات إلى الحكومات ، فتستخدمها في ملذاتها وشهواتها ، ورغائبهما ، وجورها ، وعدوانها . أما الناس فهم في عمياتهم ينخبطون ، والظلم ينحط عليهم من كل جانب وما في استطاعتهم التذمر والشكوى ، بل هم يسامون الخسف ، والجلور ، والعداب ألواناً ساكين ، فقد كان الحكم استبدادياً ، والحقوق ضائعة مهدورة ، والقبائل المجاورة لهذه الأقطار مذبذبون تتقادفهم الأهواء والأغراض ، مرة يدخلون في أهل العراق ، ومرة يدخلون في أهل الشام . وكانت أحوال القبائل داخل الجزيرة مفككة الأوصال ، تغلب عليها المنازعات القبلية والاختلافات العنصرية والدينية حتى قال ناطقهم :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غوث ، وإن ترشد غزية أرشد

ولم يكن لهم يدعم استقلالهم ، أو مرجع يرجعون إليه ، ويعتمدون عليه وقت
الشدائد .

وأما حكومة الحجاز ؛ فقد كانت تنظر إليها العرب نظرة تقدير واحترام ، ويرونها قادة
وسدنة المركز الديني ، وكانت تلك الحكومة في الحقيقة خليطاً من الصداراة الدينية والحكومية
والزعامة الدينية ، حكمت بين العرب باسم الرعامة الدينية ، وحكمت في الحرم وما والاه بصفتها
حكومة تشرف على مصالح الوافدين إلى البيت ، وتنفذ حكم شريعة إبراهيم ، وكانت لها من
الدواائر والتشكيلات ما يشبه دواائر البرلمان – كما أسلفنا – ولكن هذه الحكومة كانت ضعيفة
لا تقدر على حمل العبء كا وضح يوم غزو الأنجاش .

ديانات العرب

كان معظم العرب اتبعوا دعوة إسماعيل - عليه السلام - حين دعاهم إلى دين أبيه إبراهيم - عليه السلام - فكانت تعبد الله وتتوحده وتدين بدينه ، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظاً مما ذكروا به ، إلا أنهم بقي فيهم التوحيد وعدة شعائر من دين إبراهيم ، حتى جاء عمرو بن لحي رئيس خزاعة ، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعرف والصداقة والحرص على أمور الدين ، فأحبه الناس ، ودانوا له ظناً منهم أنه من أكابر العلماء وأفضل الأولياء ، ثم إنه سافر إلى الشام ، فرأهم يعبدون الأوّلاد ، فاستحسن ذلك وظنّه حقاً ، لأن الشام محل الرسل والكتب ، فقدم معه بليل وجعله في جوف الكعبة ، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله ، فأجابوه . ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة ، لأنهم ولادة النبي وأهل الحرم^(١) .

ومن أقدم أصنامهم مناة ، كانت بالمشلل على ساحل البحر الأحمر بالقرب من قديد ، ثم اتخذوا اللالات في الطائف ، ثم اتخذوا العزى بوادي نخلة ، هذه الثلاث أكبر أوّلائهم ، ثم كثّر الشرك ، وكثّرت الأوّلاد في كل بقعة من الحجاز ، ويدرك أن عمرو بن لحي كان له رئي من الجن ، فأخبره بأن أصنام قوم نوح - ودوا وسواها وبغوث وبغرور ونسراً - مدفونة بجدة فأثارها فاستثارها ، ثم أوردها إلى تهامة ، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل^(٢) ، فذهبت بها إلى أوطانها ، حتى صار لكل قبيلة ثم في كل بيت صنم . وقد ملأوا المسجد الحرام بالأصنام ، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثة وستين صنماً ، فجعل يطعنها حتى تساقطت ، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت^(٣) .

(١) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٢ .

(٢) صحيح البخاري ١ / ٢٢٢ .

(٣) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٣ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ .

وهكذا صار الشرك وعبادة الأصنام أكبر مظاهر من مظاهر دين أهل الجاهلية ، الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم .

وكانت لهم تقاليد ومراسم في عبادة الأصنام ، ابتدع أكثرها عمرو بن لحي ، وكانوا يظنون أن ما أحدثه عمرو بن لحي بدعة حسنة ، وليس بتغيير للدين إبراهيم فكان من مراسم عبادتهم للأصنام أنهم :

(١) كانوا يعكفون عليها ، ويلتجلون إليها .. ويتهرون بها ، ويستغفرونها في الشدائـد ، ويدعونها ل حاجاتهم ، معتقدـن أنها تشفع عند الله ، وتحقق لهم ما يريدون .

(٢) كانوا يمـجـون إلـيـها و يطـوـفـون حـوـلـها ، ويـتـذـلـلـون عـنـدهـا ، ويـسـجـدـونـ لها .

(٣) كانوا يـقـرـبون إلـيـها بـأـنـوـاعـ مـنـ الـقـرـابـينـ ، فـكـانـواـ يـذـجـونـ وـيـنـحرـونـ لهاـ وـيـسـمـاـتهاـ .

وهـذـاـ النـوعـانـ مـنـ الذـعـ ذـكـرـهـماـ اللـهـ تـعـالـىـ فـيـ قـوـلـهـ (وـمـاـذـبـحـ عـلـىـ الـصـبـ) (٥: ٣) وـفـيـ قـوـلـهـ (وـلـأـتـأـكـثـرـ أـلـوـامـاـلـوـيـدـكـ أـسـمـ اللـهـ عـلـيـهـ) (٦: ١٢١) .

(٤) وكان من أنواع التقرب أنهم كانوا يخـصـونـ لـلـأـصـنـامـ شـيـئـاـ مـنـ مـاـكـلـهـمـ وـمـشـارـبـهـمـ حـسـبـاـ يـدـوـهـمـ ، وـكـذـلـكـ يـخـصـونـ لهاـ نـصـيـباـ مـنـ حـرـثـهـمـ وـأـنـامـهـمـ . وـمـنـ الـطـرـائـفـ أـنـهـ كـانـواـ يـخـصـونـ منـ ذـلـكـ جـزـءـاـ اللـهـ أـيـضـاـ ، وـكـانـ عـنـهـمـ أـسـبـابـ كـثـيرـاـ مـاـ كـانـواـ يـنـقـلـونـ لـأـجـلـهـاـ إـلـىـ الـأـصـنـامـ مـاـ كـانـ اللـهـ ، وـلـكـنـ لـمـ يـكـوـنـواـ يـنـقـلـونـ إـلـىـ اللـهـ مـاـ كـانـ لـأـصـنـامـهـمـ بـحـالـ . قـالـ تـعـالـىـ : (وـجـعـلـوـاـلـهـ عـلـيـهـ مـسـاـذـرـاـ مـنـ الـحـرـثـ وـالـأـنـعـمـ نـصـيـباـ فـقـالـواـ هـذـاـ اللـهـ بـرـقـمـهـ وـهـذـاـ شـرـكـاـيـنـاـ فـمـاـ كـانـ إـشـرـكـاـيـهـمـ فـلـأـيـصـلـ إـلـىـ اللـهـ وـمـاـكـانـ اللـهـ فـهـوـيـصـلـ إـلـىـ شـرـكـاـيـهـمـ سـكـاءـ مـاـيـحـكـمـوـتـ) (٦: ١٣٦) .

(٥) وكان من أنواع التقرب إلى الأصنام النذر في الحرش والأنعام ، قال تعالى : (وـقـالـواـ هـذـهـ أـنـعـمـ وـحـرـثـ حـجـرـ لـأـيـطـعـمـهـمـ إـلـاـ مـنـ تـشـاءـ بـرـقـمـهـ وـأـنـعـمـ حـرـمـتـ ظـهـورـهـاـ وـأـنـعـمـ لـأـيـذـكـرـوـنـ أـسـمـ اللـهـ عـلـيـهـاـ أـفـرـأـةـ عـلـيـهـ) (٦: ١٣٨) .

(٦) وكانت منها البحيرة والسائلة والوصيلة والخامي . قال ابن إسحاق : البحيرة بنت السائلة ، هي الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر سبـيـتـ ، فـلـمـ يـرـكـ ظـهـرـهـاـ ، وـلـمـ يـبـزـ وـبـرـهـاـ ، وـلـمـ يـشـرـبـ لـبـنـهاـ إـلـاـ ضـيـفـ ، فـمـاـ تـجـتـ بعدـ ذـلـكـ مـنـ أـنـثـيـ شـقـتـ أـذـنـهاـ ، ثـمـ خـلـيـ سـيـلـهـاـ مـعـ أـمـهـاـ ، فـلـمـ يـرـكـ ظـهـرـهـاـ ، وـلـمـ يـبـزـ وـبـرـهـاـ ، وـلـمـ يـشـرـبـ لـبـنـهاـ إـلـاـ ضـيـفـ ، كـمـ فعلـ

بأنها . فهي البحيرة بنت السائبة . والوصيلة : الشاة إذا أتامت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر جعلت وصيلة . قالوا : قد وصلت ، فكان ما ولد بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم إلا أن يموت شيء فيشتراك فيأكله ذكورهم وإناثهم . والخامسي : الفحل إذا تتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حتى ظهره ، فلم يركب ، ولم يجز وبره ، وخلي في إبله يضرب فيها ، لا يتتفع منه بغير ذلك ، وفي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآبَقَهُ وَلَا وَصِيلَقَهُ وَلَا حَامِرٌ وَلِكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْرَبُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٥ : ١٠٣) وأنزل : ﴿وَقَاتُلُوا مَافِيْ بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةً لِذَكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ (٦ : ١٣٩) وقيل في تفسير هذه الأنعام غير ذلك^(١) .

وقد صرخ سعيد بن المسيب أن هذه الأنعام كانت لطواوغتهم^(٢) وفي الصحيح مرفوعاً : أن عمرو بن لحي أول من سب السوائب^(٣) .

كانت العرب تفعل كل ذلك بأصنامهم ، معتقدين أنها تقربهم إلى الله وتوصلهم إليه ، وتشفع لديه كما في القرآن : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقْرَبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (٣ : ٣٩) ﴿وَيَعْبُدُونَ بَنِ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضْرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (٤ : ١٨) .

وكانت العرب تستقسم بالأذlam ، والرلم : القدح الذي لا ريش عليه ، وكانت الأذلام ثلاثة أنواع : نوع فيه «نعم» و«لا» ، كانوا يستقسمون بها فيما يربدون من العمل من نحو السفر والنكاح وأمثالهما . فإن خرج «نعم» عملوا به وإن خرج «لا» أخرجوه عامه ذلك حتى يأتوه مرة أخرى ، ونوع فيه المياه والديبة ، ونوع فيه «منكم» أو «من غيركم» أو «ملحق» فكانوا إذا شكوا في نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل ، وبمائة جزور ، فأعطوهها صاحب القدح . فإن خرج «منكم» كان منهم وسيطاً ، وإن خرج عليه «من غيركم» كان حليفاً ، وإن خرج عليه «ملحق» كان على منزلته فيه ، لا نسب ولا حلف^(٤) .

(١) ابن هشام ١/٨٩ ، ٩٠ .

(٢) صحيح البخاري ١/٤٩٩ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرمي ١/٥٦ ، وابن هشام ١/١٥٢ ، ١٥٣ .

ويقرب من هذا الميسر والقداح ، وهو ضرب من ضروب القمار ، وكانوا يقتسمون به لحم الجزار التي يذبحونها بحسب القداح .

وكانوا يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمجمين ، والكافر : هو من يتعاطى الإخبار عن الكواين في المستقبل ، ويدعى معرفة الأسرار ، ومن الكهنة من يزعم أن له تابعاً من الجن يلقي عليه الأخبار ، ومنهم من يدعى إدراك الغيب بفهم أعطيه ، ومنهم من يدعى معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على موقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله ، وهذا القسم يسمى عرافة ، كمن يدعى معرفة المسروق ومكان السرقة والضالة ونحوهما . والمنجم : من ينظر في التنجوم أي الكواكب ، ويحسب سيرها ومواقيتها ، ليعلم بها أحوال العالم وحوادثه التي تقع في المستقبل ^(١) والتصديق بأخبار المجنين هو في الحقيقة إيمان بالنجوم ، وكان من إيمانهم بالنجوم الإيمان بالأنواء ، فكانوا يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ^(٢) .

وكانت فيهم الطيرة (بكسر فتح) وهي الشائوم بالشيء ، وأصله أنهم كانوا يأتون الطير أو الظبي فينفرونه ، فإن أخذ ذات اليمين مضوا إلى ما قصدوا ، وعدوه حسناً ، وإن أخذ ذات الشمال انتهوا عن ذلك وتشاءموا ، وكانوا يتشاركون كذلك إن عرض الطير أو الحيوان في طريقهم .

ويقرب من هذا تعليقهم كعب الأزب ، والشائوم ببعض الأيام والشهر والحيوانات والدور والنساء ، والاعتقاد بالعدوى والهامة ، فكانوا يعتقدون أن المقتول لا يسكن جاؤه ما لم يؤخذ بثأره ، وتصير روحه هامة أي يوماً تضر في الفلووات وتقول : صدى صدى أو اسقوني استقرني ، فإذا أخذ بثأره سكن واستراح ^(٣) .

كان أهل الجاهلية على ذلك وفيهم بقايا من دين إبراهيم ولم يتركوه كله ، مثل تعظم البيت والطواف به ، والحج والعمرة ، والوقوف بعرفة ، والمزدلفة وإهادة البدن ، نعم ابتدعوا في ذلك بدعا .

(١) مرقة المفاتيح شرح مشكاة المصايح ٢/٢ ، ٣ .

(٢) انظر صحيح مسلم مع شرحه للنووي ، باب بيان كفر من قال : مطرنا بالنوء ، من كتاب الإيمان ١/٥٩ .

(٣) انظر صحيح البخاري ٢/٨٥١ ، ٨٥٧ مع حواشيه للشيخ أحمد علي السهارنوري .

منها أن قريشاً كانوا يقولون : نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم ، وولادة البيت وقاطنو مكة ، وليس لأحد من العرب مثل حقنا ومتزتنا – وكانوا يسمون أنفسهم الحمس – فلا ينبغي لنا أن نخرج من الحرم إلى الخل ، فكانوا لا يقفون بعرفة ، ولا يفيضون منها ، وإنما كانوا يفيضون من المزدلفة وفيهم أنزل : ﴿ثُمَّ أَفِيظُهُمْ مِنْ حَيْثُ أَفْكَانَ الْكَاسِ﴾ (٢ : ١٩٩) ^(١) .

ومنها أنهم قالوا : لا ينبغي للخمس أن يأْتُقُلُوا ولا يسلعوا السمن ، وهم حرم ، ولا يدخلوا بيته من شعر ، ولا يستظلوا إلا في بيوت الأدم ما داموا حرمًا ^(٢) .

ومنها أنهم قالوا : لا ينبغي لأهل الخل أن يأكلوا من طعام جاعوا به من الخل إلى الحرم إذا جاعوا حجاجاً أو عماراً ^(٣) .

ومنها أنهم أمروا أهل الخل أن لا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس ، فإن لم يجعلوا شيئاً فكان الرجال يطوفون عراة ، وكانت المرأة تضع ثيابها كلها إلا درعاً مفرجاً ثم تطوف فيه وتقول :

اليوم يدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحلم
وأنزل الله في ذلك : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عَنْهُ كُلِّ مَسْعِدٍ﴾ (٧ : ٣١) ، فإن تكرم أحد من الرجل والمرأة فطاف في ثياب التي جاء بها من الخل ألقاها بعد الطواف ، ولا يتغى بها هؤلاء ولا أحد غيره ^(٤) .

ومنها أنهم كانوا لا يأتون بيوتهم من أبوابها في حال الإحرام ، بل كانوا ينقبون في ظهور البيوت نقباً يدخلون وبخرون منه ، وكانت يحسبون ذلك الجفاء برأ وقد منعه القرآن (٢ : ١٨٩) .

كانت هذه الديانة – ديانة الشرك وعبادة الأوثان ، والاعتقاد بالأوهام والخرافات – ديانة معظم العرب ، وقد وجدت اليهودية ، والمسيحية ، والجوسية والصاباوية سبيلاً للدخول في روع العرب .

(١) ابن هشام ١٩٩/١ ، صحيح البخاري ٢٢٦/١ .

(٢) نفس المصدر الأول ٢٠٢/١ .

(٣) ابن هشام ٢٠٢/١ .

(٤) ابن هشام ٢٠٢/١ ، ٢٠٣ ، صحيح البخاري ٢٢٦/١ .

ولليهود دوران - على الأقل - مثلهما في جزيرة العرب :

الأول : هجرتهم في عهد الفتوح البابلية والأشورية في فلسطين ، فقد نشأ عن الضغط على اليهود ، وعن تحرير بلادهم وتدمير هيكلهم على يد الملك بخنثور سنة ٥٨٧ ق.م وسيطر أكرهم إلى بابل أن قسماً منهم هجر البلاد الفلسطينية إلى الحجاز ، وتوطن في روعها الشالية^(١).

الدور الثاني : يبدأ من احتلال الرومان لفلسطين بقيادة بنتوس الروماني سنة ٧٠ م ، فقد نشأ عن ضغط الرومان على اليهود ، وعن تحرير الهيكل وتدمره أن قبائل عديدة من اليهود رحلت إلى الحجاز ، واستقرت في بئر خير وتياء ، وأنشأت فيها القرى والآطام والقلاع ، وانتشرت الديانة اليهودية بين قسم من العرب عن طريق هؤلاء المهاجرين ، وأصبح لها شأن يذكر في الحوادث السياسية التي سبقت ظهور الإسلام ، والتي حدثت في صدره . وحيثما جاء الإسلام كانت القبائل اليهودية المشهورة هي : خير والنضير والمصلدق وقريظة وقينقاع ، وذكر السمهودي في وفاة الوفا (ص ١١٦) أن عدد القبائل اليهودية يزيد على عشرين^(٢) .

ودخلت اليهودية في اليمن من قبل تبان أسعد أبي كرب ، فإنه ذهب مقاتلاً إلى بئر واعتنق هناك اليهودية وجاء بعيرين من بني قريظة إلى اليمن ، فأخذت اليهودية إلى التوسيع والانتشار فيها ، ولما ولـي اليمن بعده ابنه يوسف ذو نواس هجم على المسيحيين من أهل نجران ودعاهم إلى اعتناق اليهودية ، فلما أبوا خـدـمـاـهـ لـهـمـ الـأـخـلـودـ ، وأحرقوهم بالنـارـ ، ولم يفرق بين الرجل والمرأة والأطفال الصغار والشيوخ الكبار ، ويقال إن عدد المقتولين ما بين عشرين ألفاً إلى أربعين ألفاً ، وقع ذلك في أكتوبر سنة ٥٢٣^(٣) . وقد أورد القرآن جزءاً من هذه القصة في سورة البروج .

أما الديانة النصرانية فقد جاءت إلى بلاد العرب عن طريق احتلال الجبشة والرومـانـ ، وكان أول احتلال الجبشة للـيـمـنـ سنة ٣٤٠ م ، واستمر إلى سنة ٣٧٨ م^(٤) ، وفي ذلك الزمان دخل البشير المسيحي في روع اليمن ، وبالقرب من هذا الزمان دخل رجل زاهد مستجاب الدعوات

(١) قلب جزيرة العرب ص ١٥١ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) تفهم القرآن ٢٩٧/٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٧/٦ ، وابن هشام ٢٠/١ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٥ ، ٣٦ .

(٤) تفهم القرآن ٢٩٧/٦ .

وصاحب كرامات - وكان يسمى فيميون - إلى نجران ، ودعاهم إلى الدين المسيحي ، ورأى أهل نجران من أمراء صدقه وصدق دينه ما لبوا لأجله المسيحية واعتنقوها^(١) .

ولما احتلت الأحباش اليمن كرد فعل لما أتاه ذو نواس ، وتمكن أبرهة من حكمتها ؛ أخذ ينشر الديانة المسيحية بأوفر نشاط ، وأوسع نطاق ، حتى بلغ من نشاطه أنه بني كنيسة باليمن كانت تسمى الكعبة اليهانية ، وأراد أن يصرف حج العرب إليها ، ويهدم بيت الله الذي يمكّه ، فأنهض الله نكال الآخرة والأولى .

وقد اعتنق النصرانية العرب الغساسنة وبقائل تغلب وطيء وغيرهما بجاورة الرومان ، بل قد اعتنقها بعض ملوك الحيرة .

أما المجموعية فكان معظمها في العرب الذين كانوا بجوار الفرس ، فكانت في عراق العرب وفي البحرين - الأحساء - وهجر وما جاورها من منطقة سواحل الخليج العربي ، ودان لها رجال من اليمن في زمن الاحتلال الفارسي .

أما الصابئية فقد دلت الحفريات والتنقيبات في بلاد العراق وغيرها أنها كانت ديانة قوم إبراهيم الكلدانين ، وقد دان بها كثير من أهل الشام ، وأهل اليمن في غابر الزمان ، وبعد تتابع الديانات الجديدة من اليهودية والنصرانية تضعضع بنية الصابئية وخدم نشاطها ، ولكن لم يزل في الناس بقايا من أهل هذه الديانة مختلطين مع المحسوس ، أو بجاورين لهم ، في عراق العرب ، وعلى سواطئ الخليج العربي^(٢) .

الحالة الدينية:

كانت هذه الديانات هي ديانات العرب حين جاء الإسلام ، وقد أصاب هذه الديانات الأخلاص والبوار ، فالمشركون الذين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم كانوا بعيدين عن أوامر ونواهي شريعة إبراهيم ، مهمّين ما أنت به من مكارم الأخلاق . فكثرت معاصيهم ، ونشأوا منهم على توالى الزمان ما ينشأ في الوثنين من عادات وتقاليد تجري مجرى الخرافات الدينية ، وأثرت في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيراً بالغاً جداً .

(١) انظر في ذلك مفصل ابن هشام ٣١/١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) تاريخ أرض القرآن ٢١٩٣/٢ إلى ٢٠٨ .

وأما اليهودية فقد انقلب رباء وتحكماً، وصار رؤساؤها أرباباً من دون الله، يتحكمون في الناس وبخاسبوهم حتى على خطرات النفس وهمسات الشفاه ، وجعلوا همهم الحظوة بالمال والرياسة ، وإن صاع الدين وانتشر الإلحاد والكفر والتهاون بالتعاليم التي حض الله عليها وأمر كل فرد بتقديسها .

وأما النصرانية فقد عادت وثنية عسرة الفهم ، وأوجدت خلطًا عجيباً بين الله والإنسان ، ولم يكن لها في نقوص العرب المتندين بهذا الدين تأثير حقيقي ، بعد تعاليمها عن طراز المعيشة التي أفسدواها ، ولم يمكنوا يستطيعون الابتعاد عنها .

وأما سائر أديان العرب فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين ، فقد تشابهت قلوبهم ، وتواردت عقائدهم ، وتوافقت تقاليدهم وعوائدهم .

صور من المجتمع العربي الجاهلي

بعد البحث عن سياسة المخربة وأدبياتها ؛ بقي لنا أن نتكلم حول الأحوال الاجتماعية ، والاقتصادية ، والخلقية ، وفيما يلي بيانها بإيجاز :

الحالة الاجتماعية:

كانت في العرب أوساط متنوعة ، تختلف أحوال بعضها عن بعض ، فكانت علاقة الرجل مع أهله في الأشراف على درجة كبيرة من الرقي والتقدم ، وكان لها من حرية الإرادة ونفذ القول القسط الأوفر ، وكانت محترمة مصونة تسل دونها السيف ، وتراق الدماء ، وكان الرجل إذا أراد أن يتذرع بما له في نظر العرب المقام السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاته إلا المرأة ، وربما كانت المرأة إذا شاءت جمعت القبائل للسلام ، وإن شاءت أشعلت بينهم نار الحرب والقتال ، ومع هذا كله فقد كان الرجل يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة ، وصاحب الكلمة فيها ، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد الزواج تحت إشراف أوليائها ولم يكن من حقها أن تفتات عليهم .

بينما كانت هذه حال الأشراف ، كان هناك في الأوساط الأخرى أنواع من الاختلاط بين الرجل والمرأة ، لا نستطيع أن نعبر عنه إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة ، روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فكان منها نكاح الناس اليوم ، يخطب الرجل إلى الرجل وليته فيصدقها ثم ينكحها ، ونكاح آخر : كان الرجل يقول لأمرأته إذا طهرت من طمثها أرسل إلى فلان فاستبعضي منه ، ويعتز لها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبرىء حملها من ذلك الرجل الذي تستبعض منه ، فإذا تبرىء حملها أصحابها زوجها إن أحب ، وإنما

يُفْعَلُ ذَلِكَ رغْبَةً فِي نِجَابِ الْوَلَدِ ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ يُسَمَّى نِكَاحُ الْأَسْتِبْضَاعِ ، وَنِكَاحٌ آخَرُ :
 يُجْتَمِعُ الرَّهْطُ دُونَ الْعَشْرَةِ . فَيُدْخِلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ كُلَّهُمْ يَصِيبُهَا . فَإِذَا حَمَلَتْ ، وَوُضِعَتْ وَمَرَتْ
 لَيَالٍ بَعْدَ أَنْ تَضُعَ حَمْلَهَا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلُهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عَنْهَا ،
 فَتَقُولُ لَهُمْ : قَدْ عَرَقْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ وَقَدْ وَلَدْتُ ، وَهُوَ ابْنُكُ يَا فَلَانُ ، فَتَسْمَى مِنْ أَحْبَتْ
 مِنْهُمْ بِاسْمِهِ فَيُلْحِقُ بِهِ وَلَدَهَا وَنِكَاحٌ رَابِعٌ : يُجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ فَيُدْخِلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ لَا يَمْتَنِعُ مِنْ
 جَاءَهَا . وَهُنَّ الْبَغَايَا ، كَنْ يَنْصَبُونَ عَلَى أَبْوَابِهِنْ رَأْيَاتٍ ، تَكُنْ عَلَيْهَا مِنْ أَرَادَهُنَّ دُخُلٌ عَلَيْهِنْ ، فَإِذَا
 حَمَلَتْ فَوُضِعَتْ حَمْلَهَا جَمِيعًا لَهَا ، وَدُعِيَ لَهُمُ الْقَافِةُ ، ثُمَّ أَلْحَقُوا لَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ فَالْتَّاطِهِ وَدُعِيَ
 ابْنَهُ ، لَا يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَمَّا بَعْثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ هَدَمَ نِكَاحَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ كَلَهِ إِلَّا نِكَاحٌ
 إِلَّا إِسْلَامٌ الْيَوْمِ^(١) .

وَكَانَ عِنْدَهُمْ اِجْتِمَاعٌ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ تَعْقِدُهَا شَفَارُ السَّيْفِ ، وَأَسْنَةُ الرَّماحِ ، فَكَانَ
 الْمُتَغَلِّبُ فِي حُرُوبِ الْقَبَائِلِ يُسَيِّي نِسَاءَ الْمُتَهَوِّرِ فَيَسْتَحْلِمُهُنَّ ، وَلَكِنَّ الْأُولَادَ الَّذِينَ تَكُونُ هُنَّهُمْ
 يَلْحِقُهُمُ الْعَارُ مَدَّةَ حَيَاتِهِمْ .

وَكَانَ مِنَ الْمُعْرُوفِ فِي أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْدُونَ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ مِنْ غَيْرِ حَدٍ مَعْرُوفٍ
 يَنْتَهِ إِلَيْهِ ، وَكَانُوا يَجْمِعُونَ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ ، وَكَانُوا يَتَزَوَّجُونَ بِزَوْجَةِ أَبَائِهِمْ إِذَا طَلَقُوهَا أَوْ مَاتَوْهَا عَنْهُ
 (سُورَةُ النِّسَاءِ ٢٢ ، ٢٣) وَكَانَ الطَّلاقُ يَدُ الرَّجُالِ لَا إِلَى حَدِّ مَعِينٍ^(٢) .

وَكَانَتْ فَاحِشَةُ الزِّنَا سَائِدَةً فِي جَمِيعِ الْأَوْسَاطِ ، لَا نَسْتَطِعُ أَنْ نَخْصُّ مِنْهَا وَسْطًا دُونَ وَسْطٍ
 أَوْ صِنْفًا دُونَ صِنْفٍ ، إِلَّا أَفْرَادًا مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ مَنْ كَانَ تَعَاظِمُ نَفْوسُهُمْ يَأْتِي الْوَقْعُ فِي هَذِهِ
 الرَّذِيلَةِ ، وَكَانَتِ الْخَرَائِرُ أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْإِمَاءِ وَالْطَّامِةِ الْكَبِيرِيَّ هِيَ الْإِمَاءُ ، وَيَبْدُو أَنَّ الْأَغْلِبِيَّةَ
 السَّاحِقَةَ مِنَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ تَكُنْ تَخْسِ بَعْرَ في الْإِنْتَسَابِ إِلَى هَذِهِ الْفَاحِشَةِ ، رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ
 عُمَرِ بْنِ شَعْبِيْبِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِهِ قَالَ : قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فَلَانًا أَنِي ، عَاهَرٌ
 بِأَمَّةٍ ، فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا دُعْوَةَ فِي إِسْلَامٍ ، ذَهَبَ أَمْرُ الْجَاهِلِيَّةِ . الْوَلَدَ
 لِلْفَرَاشِ وَالْعَاهِرِ الْحَجَرِ ، وَقَصْةُ اِخْتِصَامِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ وَعَبْدِ بْنِ زَمْعَةَ فِي أَبْنَ أَمَّةٍ زَمْعَةٍ

(١) أَبُو دَاوُدُ ، كَابِ النِّكَاحِ ، بَابُ وَجْهِ النِّكَاحِ الَّتِي كَانَ يَتَناكِحُ بِهَا أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ .

(٢) نَفْسُ الْمُصْدِرِ بَابُ نَسْخِ الْمَرْاجِعَةِ بَعْدَ التَّطْلِيقَاتِ الْمُتَلِقَّبَاتِ . وَهُنَّ الَّذِي ذَكَرُهُ الْمُفْسُرُونَ فِي سَبِّ تَزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى
 « الطَّلاقُ مَرْزَانٌ » .

- وهو عبد الرحمن بن زمعة - معروفة^(١) .

وكان علاقه الرجل مع أولاده على أنواع شتى فمنهم من يقول :

إِنَّا أُولَادَنَا يَيْنِنَا أَكْبَادَنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ

ومنهم من كان يهدى البنات خشية العار والإإنفاق ، ويقتل الأولاد خشية الفقر والإإملاق (القرآن ٦ - ١٥١ . ١٦ - ٥٨ ، ٥٩ - ٣١ . ١٧ - ٨١ . ٨) ولكن لا يمكننا أن نعد هذا من الأخلاق المنتشرة السائدة ، فقد كانوا أشد الناس احتياجاً إلى البنين ، ليتقوا بهم العدو .

أما معاملة الرجل مع أخيه وأبناء عمته وعشائرته فقد كانت موطدة قوية ، فقد كانوا يحبون للعصبية القبلية ، ويموتون لها . وكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية ، وكان أساس النظام الاجتماعي هو العصبية الجنسية والرحم ، وكانوا يسرون على المثل السائر « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » على المعنى الحقيقي ، من غير التعديل الذي جاء به الإسلام من أن نصر الظالم كمه عن ظلمه ، إلا أن التناقض في الشرف والسؤدد كثيراً ما كان يفضي إلى الحروب بين القبائل التي كان يجمعها أب واحد ، كما نرى ذلك بين الأوس والخزرج ، وعبس وذبيان ، وبكر وتغلب وغيرها .

أما العلاقة بين القبائل المختلفة فقد كانت مفككة الأوصال تماماً ، وكانت قواهم متباينة في الحروب . إلا أن الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين الدين والخرافة ربما كان يخفف من حدتها وصرامتها وفي بعض الحالات كانت الموالاة والخلف والتبعية تفضي إلى اجتماع القبائل المتغيرة ، وكانت الأشهر الحرم رحمة وعوناً لهم على حياتهم وحصول معايشهم .

وقصاري الكلام أن الحالة الاجتماعية كانت في الحضيض من الضعف والعماية فالجهل ضارب أطنابه ، والخرافات لها جولة وصولة والناس يعيشون كالأنعام ، والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالمحمادات أحياناً ، وال العلاقة بين الأمة واهية مبتوطة ، وما كان من الحكومات فعل منها أمثلاء الخزيائن من رعيتها ، أو جر الحروب على مناويها .

الحالة الاقتصادية:

أما الحالة الاقتصادية ، فتبعت الحالة الاجتماعية ، ويتبين ذلك إذا نظرنا في طرق معايش

(١) أبو داود باب الولد للفراش .

العرب . فالتجارة كانت أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة ، والجولة التجارية لا تيسر إلا إذا ساد الأمن والسلام ، وكان ذلك مفقوداً في جزيرة العرب إلا في الأشهر الحرم ، وهذه هي الشهور التي كانت تعقد فيها أسواق العرب الشهيرة من عكاظ وذي المجاز وبجنة وغيرها .

وأما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها ، ومعظم الصناعات التي كانت توجد في العرب من الحياكة والدباغة وغيرها كانت في أهل البين والخيرة ، ومشارف الشام ، نعم كانت في داخل الجزيرة الزراعة ، والحرث ، واقتناء الأنعام ، وكانت نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل ، لكن كانت الأمتعة عرضة للحروب ، وكان الفقر والجوع والعرى عاماً في المجتمع .

الأخلاق:

لا ننكر أن أهل الجاهلية كانت فيه دنايا ورذائل وأمور ينكرها العقل السليم ، ويأباهما الوجدان ، ولكن كانت فيه من الأخلاق الفاضلة المحمودة ما يروع الإنسان ، ويفضي به إلى الدهشة والعجب ، فمن تلك الأخلاق .

(١) الكرم ، وكانوا يتبارون في ذلك ويفتخرون به ، وقد استندوا فيه نصف أشعارهم ، بين متدرج به ومنش على غيره ، كان الرجل يأتي الضيف في شدة البرد والجوع ، وليس عنده من المال إلا ناقته التي هي حياته وحياة أسرته ، فتأخذه هزة الكرم ، فيقوم إليها ، ويندبحها لضيفه ، ومن آثار كرمهم أنهم كانوا يتحملون الديات الهائلة والحملات المدحشة ، يكفون بذلك سفك الدماء ، وضياع الإنسان ، ويتدحرون بها مفتخرین على غيرهم من الرؤساء والسدادات .

وكان من نتائج كرمهم أنهم كانوا يتمدحون بشرب الخمور ، لا لأنها مفخرة في ذاتها ، بل لأنها سبيل من سبل الكرم ، وما يسهل السرف على النفس ، ولأجل ذلك كانوا يسمون شجر العنبر بالكرم ، وخره بيانت الكرم . وإذا نظرت إلى دواوين أشعار الجاهلية تجد ذلك باباً من أبواب المدح والفاخر ، يقول عنترة بن شداد العبسي في معلقته :

ركد الهواجر بالمشوف المعلم
قُرنت بأزهر بالشمال مفدم
مالي ، وعرضي وافر لم يكلم
وكا عللت شمائلي وتكرمي

ولقد شربت من المدامه بعدما
بزجاجة صفراء ذات أسرة
فإذا شربت فإني مستهلك
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى

ومن نتائج كرمهم اشتغالهم بالميسر ، فإنهم كانوا يرون أنه سبيل من سبل الكرم ، لأنهم كانوا يطعمون المساكين مارجحوه ، أو ما كان يفضل عن سهام الرابحين ، ولذلك ترى القرآن لا ينكر نفع الخمر والميسير وإنما يقول ﴿وَإِنْهُمْ مَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمْ﴾ (٢١٩ : ٢) .

(٢) ومن تلك الأخلاق الوفاء بالعهد ، فقد كان العهد عندهم ديناً يتمسكون به ، ويستهينون في سبيله قتل أولادهم ، وتخريب ديارهم ، وتتكفي في معرفة ذلك قصة هانئ بن مسعود الشيباني ، والسموأل بن عاديا ، وحاجب بن زرارة التميمي .

(٣) ومنها عزة النفس وإباء عن قبول الخسق والضم ، وكان من نتائج هذا فرط الشجاعة ، وشدة الغيرة ، وسرعة الانفعال ، فكانوا لا يسمعون كلمة يشمون منها رائحة الذل والهوان إلا قاموا إلى السيف والسنان ، وأثاروا الحروب العوان ، وكانوا لا يبالون بتضحيه أنفسهم في هذا السبيل .

(٤) ومنها المضي في العزائم ، فإذا عزموا على شيء يرون فيه الجد ، والافتخار لا يصرفهم عنه صارف ، بل كانوا يخاطرون بأنفسهم في سبيله .

(٥) ومنها الحلم ، والأناة ، والتؤدة ، كانوا يتمدحون بها إلا أنها كانت فيهم عزيمة الوجود ، لفرط شجاعتهم ، وسرعة إقدامهم على القتال .

(٦) ومنها السذاجة البدوية ، وعدم التلوث بلوثات الحضارة ، ومكائدتها ، وكان من نتائجه الصدق والأمانة ، والنفور عن المخداع والغدر .

نرى أن هذه الأخلاق الثيبة – مع ما كان لجزيرة العرب من الموقع الجغرافي بالنسبة إلى العالم – كانت سبباً في اختيارهم لحمل عبء الرسالة العامة ، وقيادة الأمة الإنسانية والمجتمع البشري ؟ لأن هذه الأخلاق وإن كان بعضها يفضي إلى الشر ، ويجلب الحوادث المؤلمة ، إلا أنها كانت في نفسها أخلاقاً ثيبة ، تدر المنافع العامة للمجتمع البشري بعد شيء من الإصلاح ، وهذا الذي فعله الإسلام .

ولعل أغلى ما عندهم من هذه الأخلاق وأعظمها نفعاً بعد الوفاء بالعهد هو عزة النفس والمضي في العزائم ، إذ لا يمكن قمع الشر والفساد ، وإقامة نظام العدل والخير ؛ إلا بهذه القوة القاهرة ، وبهذا العزم الصميم .

ولهم أخلاق فاضلة أخرى دون هذه التي ذكرناها وليس قصتنا استقصاءها .

نسب النبي - ﷺ - وأسرته

نسب النبي - ﷺ - :

لنسب النبي ﷺ ثلاثة أجزاء : جزء اتفق على صحته أهل السير والأنساب وهو إلى عدنان ، وجزء اختلفوا فيه ما بين متوقف فيه وقاتل به ، وهو ما فوق عدنان إلى إبراهيم عليه السلام ، وجزء لا نشك أن فيه أموراً غير صحيحة ، وهو ما فوق إبراهيم إلى آدم عليهما السلام ، وقد أسلفنا الإشارة إلى بعض هذا ، وهاك تفصيل تلك الأجزاء الثلاثة :

الجزء الأول : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب – واسمه شيبة – بن هاشم – واسمه عمرو – بن عبد مناف – واسمه المغيرة – بن قصي – واسمه زيد – بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر – وهو الملقب بقریش وإليه تنسب القبيلة – بن مالك بن النضر – واسمه قيس – بن كنانة بن خزيمة بن مدركة – واسمه عامر – بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان^(١) .

الجزء الثاني : ما فوق عدنان ، وعدنان هو ابن أد بن هميسع بن سلامان ابن عوص بن بوز بن قموال بن أبي بن عوام بن ناشد بن حزا بن بلداس بن يدلاف بن طابخ بن جاحم بن ناحش بن مانخي بن عيض بن عقر بن عبيد بن الدعا بن حمدان بن سنير بن يربى بن يحزن بن يلحن بن أرعوي بن عيض بن ديشان بن عيسى بن أفناد بن أبيهاب بن مقصر بن ناثث بن زارح بن سمي بن مزي بن عوضة بن عرام بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام^(٢) .

(١) ابن هشام ١/١ ، ٢ . تلقيح فهو أهل الآخر ٥ ، ٦ ، رحمة للعالمين ١١/٢ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٥٢ .

(٢) قد جمع العلامة محمد سليمان المنصورفوري هذا الجزء من النسب برواية الكلبي ، وابن سعد بعد تحقيق دقيق . انظر رحمة للعالمين ١٤/٢ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ و فيه اختلاف كبير بين المصادر التاريخية .

الجزء الثالث : ما فوق إبراهيم عليه السلام ، وهو ابن تارح – واسمه آزر – بن ناحور بن ساروغر – بن راعو بن فالمخ بن عابر بن شالخ ابن أرفخشش بن سام بن نوح – عليه السلام – بن لامك بن متولشخ بن أختنوخ – يقال هو إدريس عليه السلام – ابن يرد بن مهلاطيل بن قينان بن آنوشه بن شيث بن آدم عليهم السلام^(١) .

الأسرة النبوية:

تعرف أسرته عليه السلام بالأسرة الهاشمية - نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف - وإن ذكر شيئاً من أحوال هاشم ومن بعده .

(١) هاشم - وقد أسلفنا أن هاشماً هو الذي تولى السقاية والرفادة من بني عبد مناف حين تصالح بنو عبد مناف وبنو عبد الدار على اقسام المناصب فيما بينهما ، وهاشم كان موسراً ذا شرف كبير ، وهو أول من أطعم الترید للحجاج بمكة ، وكان اسمه عمرو فما سمي هاشماً إلا لمشمه الخيز ، وهو أول من سن الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء والصيف ، وفيه يقول الشاعر :

عمرٌ الذي هشم الترید لقومه
سنتٌ إلیه الرحلان کلاهمَا

ومن حديثه أنه خرج إلى الشام تاجراً ، فلما قدم المدينة تزوج سلمى بنت عمرو أحد بنى عدي بن النجار ، وأقام عندها ، ثم خرج إلى الشام - وهي عند أهلها قد حملت بعد المطلب - فمات هاشم بغزة من أرض فلسطين ، وولدت امرأته سلمى عبد المطلب سنة ٤٩٧ م ، وسمتها شيبة لشبيه كانت في رأسه^(١) ، وجعلت تربى في بيت يثرب ، ولم يشعر به أحد من أسرته بمحنة وكان لهاشم أربعة بنين وهم : أسد ، وأبو صيفي ، ونضلة ، وعبد المطلب . وخمس بنات وهن : الشفاء ، وخالدة ، وضعيفة ، ورقية ، وجنة^(٢) .

(٢) عبد المطلب - قد علمنا مما سبق أن السقاية والرفادة بعد هاشم صارت إلى أخيه

(١) ابن هشام ٢/١ ، ٣ ، ٤ تلقيح فهوم أهل الآخر ص ٦ ، خلاصة السير للطبرى ص ٦ ، ورحة للعالمين ١٨/٢ وانختلفت هذه المصادر في تلفظ بعض هذه الأسماء وكذا سقط من بعض المصادر بعض الأسماء .

(٢) ابن هشام ١٣٧، رحمة للعلميين ٢٦، ٢٤/٢.

(۳) ابن هشام ۱/۱۰۷.

المطلب بن عبد مناف (وكان شريفاً مطاعاً ذا فضل في قومه ، كانت قريش تسميه الفياض لسخائه) ولما صار شيبة - عبد المطلب - وصيفاً أو فوق ذلك سمع به المطلب . فرحل في طلبه ، فلما رأه فاضت عيناه ، وضمه ، وأرده على راحلته ، فامتنع حتى تاذن له أمه ، فسألها المطلب أن ترسله معه ، فامتنعت فقال :

إنما يضي إلى ملك أبيه ، وإلى حرم الله ، فأذنت له ، فقدم به مكة مردفه على بعيره ، فقال الناس : هذا عبد المطلب ، فقال ويحكم إنما هو ابن أخي هاشم .. فأقام عنده حتى ترعرع ، ثم إن المطلب هلك ببردeman من أرض اليمن ، فولي بعده عبد المطلب ، فأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون لقومهم ، وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه ، وعظم خطره عليهم (١) .

ولما مات المطلب وثبت نوبل على أركاح عبد المطلب فغضبه إياها ، فسأل رجالاً من قريش النصرة على عمه ، فقالوا لا ندخل بينك وبين عمه . فكتب إلى أخواه منبني النجار أبياناً يستتجدهم ، وسار خاله أبو سعد بن عدي في ثمانين راكباً ، حتى نزل بالأبطح من مكة ، فتلقاء عبد المطلب ، فقال : المنزل ، يا خال ! فقال : لا والله حتى ألقى نوبلأ ، ثم أقبل فوق نوبل ، وهو جالس في الحجر مع مشائخ قريش ، فسل أبو سعد سيفه وقال : ورب البيت لعن لم ترد على ابن أخي أركاحه لأتمكن منك هذا السيف ، فقال : ردتها عليه ، فأشهد عليه مشائخ قريش ، ثم نزل على عبد المطلب ، فأقام عنده ثلاثة ، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة ، فلما جرى ذلك حالف نوبل بني عبد شمس بن عبد مناف علىبني هاشم ، ولما رأت خزاعة نصر بني النجار لعبد المطلب قالوا : نحن ولدناه كا ولدتموه ، فتحن أحق بنصره - وذلك أن أم عبد مناف منهم - فدخلوا دار الندوة ، وحالقو بني هاشم على بني عبد شمس ونوفل ، وهذا الحلف الذي صار سبباً لفتح مكة كما سيأتي (٢) .

ومن أهم ما وقع لعبد المطلب من أمور البيت شيئاً (٣) :

حفر بئر زرم ووقعة الفيل .

(١) ابن هشام ١/١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب التجدي ص ٤١ ، ٤٢ .

(٣) ابن هشام ١/١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ .

وخلصة الأول أنه أمر في المنام بحفر زمزم ووصف له موضعها ، فقام بحفر ، فوجد فيه الأشياء التي دفنتها الجراهمة حين جاؤوا إلى الحلاء ، أي السيف والدرع والغزالين من الذهب ، فضرب الأسياf بباباً للكعبة ، وضرب في الباب الغزالين ، وأقام سقاية زمزم للحجاج .

ولما بدت بئر زمزم نازعت قريش عبد المطلب ، وقالوا له : أشركنا قال ما أنا بفاعل ، هذا أمر خصصت به ، فلم يتركوه حتى خرجوا به للمحاكمة إلى كاهنةبني سعد ، ولم يرجعوا حتى أراهم الله في الطريق ما دلهم على تخصيص عبد المطلب بزمزم ، وحيثند نذر عبد المطلب لعن آثار الله عشرة أبناء ، وبلغوا أن يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة .

وخلصة الثاني أن أبرهة الصباح الحبشي ، النائب العام عن النجاشي على اليمين ، لما رأى العرب يمحجون الكعبة بنى كنيسة كبيرة بصنعاء ، وأراد أن يصرف حج العرب إليها ، وسمع بذلك رجل من بنى كنانة ، فدخلها ليلاً فلطلع قبلتها بالعذرة . وما علم أبرهة بذلك ثار غيظه ، وسار بجيشه عرمم – عدده ستون ألف جندي – إلى الكعبة ليهدمها ، واحتار لنفسه فيلاً من أكبر الفيلة ، وكان في الجيش ٩ فيلة أو ١٣ فيلاً ، وواصل سيره حتى بلغ المغمس ، وهناك عباً جيشه ، وهياً فيه ، وتهياً لدخول مكة ، فلما كان في وادي محسر بين المزدلفة ومنى بر克 الفيل ، ولم يقم ليقدم إلى الكعبة ، وكانوا كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم بهرون ، وإذا صرفوه إلى الكعبة برک ، فبینا هم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلتهم كعصف مأكول ، وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر ثلاثة أحجار ، حجر في منقاره ، وحجران في رجليه أمثال الحمص ، لا تصيب منهم أحداً إلا صار تقطيع أعضاؤه ، وهلك ، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يموح بعضهم في بعض فتساقطوا بكل طريق ، وهلكوا على كل منزل ، وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسبب أنامله ، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرق ، وانصرع صدره عن قلبه ثم هلك .

وأما قريش فكانوا قد تفرقوا في الشعاب وتحرزوا في رؤوس الجبال ، خوفاً على أنفسهم من معرة الجيش ، فلما نزل بالجيش ما نزل رجعوا إلى بيوتهم آمنين^(١) .

وكانت هذه الواقعة في شهر المحرم قبل مولد النبي ﷺ بخمسين يوماً أو بخمسة وخمسين يوماً – عند الأكثر – وهو يطابق أواخر فبراير أو أوائل مارس سنة ٥٧١ م ، وكانت تقدمة قدمها الله

(١) ابن هشام ٤٢١ إل ٥٦ ، تفهم القرآن ٤٦٢/٦ إل ٤٦٩ .

لنبيه وبيته ، لأننا حين ننظر إلى بيت المقدس نرى أن المشركين من أعداء الله تسلطوا على هذه القبلة ، وأهلها مسلمون كما وقع لبختنصر سنة ٥٨٧ ق.م ، والروماني سنة ٢٧٠ م ، ولكن الكعبة لم يسيطر عليها النصارى - وهم المسلمون إذ ذاك - مع أن أهلها كانوا مشركين .

وقد وقعت هذه الواقعة في الظروف التي يبلغ نبأها إلى معظم العمورة المتحضرة إذ ذاك ، فالجحشة كانت لها صلة قوية بالروماني ، والفرس لا يزالون لهم بالمرصاد ، يترقبون ما نزل بالروماني وحلفائهم ، ولذلك سرعان ما جاءت الفرس إلى اليمن بعد هذه الواقعة ، وهاتان الدولتان كانتا تمثلان العالم المتحضر . فهذه الواقعة لفتت أنظار العالم ودلتة على شرف بيت الله ، وأنه هو الذي اصطفاه الله للتقديس ، فإذاً لو قام أحد من أهله بدعوى النبوة كان ذلك هو عين ما تقتضيه هذه الواقعة ، وكان تفسيراً للحكمة الخفية التي كانت في نصرة الله ، المشركين ضد أهل الإيمان بطريق يفوق عالم الأسباب .

وكان عبد المطلب عشرة بنين ، وهم : الحارث والزبير وأبو طالب ، وعبد الله ، وحمزة ، وأبو هب ، والغيداق ، والم القوم ، وصفار ، والعباس ، وقيل : كانوا أحد عشر ، فزادوا ولدا اسمه قثم ، وقيل : كانوا ثلاثة عشر ، فزادوا عبد الكعبة وحجلا ، وقيل : إن عبد الكعبة هو الم القوم ، وحجلا هو الغيداق ولم يكن من أولاده رجل اسمه قثم ، وأما البنات فست وهن : أم الحكيم - وهي البيضاء - وبيرة وعاتكة وصفية وأروى وأميمة^(١) .

(٢) عبد الله والد رسول الله عليه السلام - أمة فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن خزروم بن يقظة بن مرة ، وكان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب ، وأعفهم وأرحمهم إليه ، وهو الذي يبح ، وذلك أن عبد المطلب لما تم أبناؤه عشرة ، وعرف أنهم يمنعونه أخيرهم بنذره فأطاعوه ، فكتب أسماءهم في القداح ، وأعطاهم قم هيل ، فضرب القداح فخرج القدر على عبد الله ، فأخذنه عبد المطلب ، وأخذ الشفرة ، ثم أقبل به إلى الكعبة ليذبحه ، فمنعته قريش ولا سيما أحواله من بني خزروم وأخوه أبو طالب ، فقال عبد المطلب : فكيف أصنع بنذرني فأشاروا عليه أن يأتي عرافة فيستأمرها ، فأتتها ، فأمرت أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل ، فإن خرجت على عبد الله يزيد عشرًا من الإبل حتى يرضى ربه ، فإن خرجت على الإبل خبرها ، فرجع

(١) تلقيع فهوم أهل الأثر ص ٩ ، ٥٦ / ٢ ، رحمة للعلميين .

وأقرع بين عبد الله وبين عشر من الإبل فوقعت القرعة على عبد الله فلم ينزل بزيد من الإبل عشرةً ولا تقع القرعة إلا عليه إلى أن بلغت الإبل مائة فوقعت القرعة عليها ، فنحرت عنه ، ثم تركها عبد المطلب لا يرد عنها إنساناً ولا سبعاً ، وكانت الديبة في قريش وفي العرب عشرةً من الإبل ، فجرت بعد هذه الواقعة مائة من الإبل ، وأقرها الإسلام ، وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « أنا ابن الذبيحين » يعني إسماعيل ، وأباه عبد الله^(١) .

واختار عبد المطلب لولده عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وهي يومئذ تعد أفضلاً امرأة في قريش نسباً وموضعاً ، وأبواها سيد بنى زهرة نسباً وشرفاً ، فبني بها عبد الله في مكة ، وبعد قليل أرسله عبد المطلب إلى المدينة يمتار لهم ثمراً ، فمات بها ، وقيل : بل خرج تاجراً إلى الشام ، فأقبل في غير قريش ، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفي بها ، ودفن في دار النابغة الجعدي ، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة ، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ ، وبه يقول أكثر المؤرخين ، وقيل : بل توفي بعد مولده بشهرين^(٢) . ولما بلغ نعيه إلى مكة رثته آمنة بأروع المرائي ، قالت :

عوا جانب البطحاء من ابن هاشم
دعته المنايا دعوة فأجابها
عشيبة راحوا يحملون سريره
فإن تلك غالاته المنايا وريها
ومجمع ما خلفه عبد الله خمسة أحوال ، وقطعة غنم ، وجارية حبشية اسمها بركة وكتبتها أم
أمين ، وهي حاضنة رسول الله ﷺ^(٣) .

(١) ابن هشام ١٥١/١ إلى ١٥٥ ، رحمة للعالمين ٢/٨٩ ، ٩٠ مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله ص ١٢ ، ٢٣ ، ٢٢ .

(٢) ابن هشام ١٥٦/١ ، ١٥٨ ، فقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٤٥ ، رحمة للعالمين ٢/٩١ .

(٣) طبقات ابن سعد ٦٢/١ .

(٤) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله التجدي ص ١٢ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٤ صحيح مسلم ٩٦/٢ .

المولد وأربعون عاماً قبل النبوة

المولد:

ولد سيد المرسلين ﷺ بشعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول ، لأول عام من حادثة الفيل ، وأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنسروان ، ويافق ذلك العشرين أو الثاني والعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١ م حسبما حرقه العالم الكبير محمد سليمان المنصور فوري والمحقق الفلكي محمود باشا^(١) .

وروى ابن سعد أن أم رسول الله ﷺ قالت : لما ولدته خرج من فرجي نور أضاءت له قصور الشام ، وروى أحمد عن العرباض بن سارية ما يقارب ذلك^(٢) .

وقد روي أن إرهاصات بالبعثة وقعت عند الميلاد ، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى ، وخدمت النار التي يعبدتها المجوس ، وانهدمت الكائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت ، روى ذلك البهقي^(٣) ولا يقره محمد الغزالى^(٤) .

ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بخفیده ، فجاء مستبشراً ودخل به الكعبة ، ودعا الله وشكر له ، واختار له اسم محمد - وهذا الاسم لم يكن معروفاً في العرب - وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون^(٥) .

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرى ٦٢/١ ، رحمة للعلميين ٣٨/١ ، ٣٩ واحتلاظهم في تعين تاريخ أبريل فرع للاختلاف في التقويمات الميلادية .

(٢) انظر مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله التجدي ص ١٢ وابن سعد ٦٣/١ .
(٣) نفس المصدر الأول .

(٤) انظر فقه السيرة لحمد الغزالى ص ٤٦ .

(٥) ابن هشام ١٥٩/١ ، ١٦٠ ، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرى ٦٢/١ وقيل إنه ولد مخوناً ، انظر =

وأول من أرضعته من المراضع - بعد أمه عليها السلام - ثوبية مولاة أبي هب بلبن ابنها يقال له مسروح ، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب ، وأرضعت بعده أمّا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ^(١) .

في بنى سعد:

وكانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يتسموا المراضع لأولادهم ، ابتعاداً لهم عن أمراض الحواضر ؛ لقوى أجسامهم ، وتشتد أعصابهم ، ويتفنوا اللسان العربي في مهدهم ، فالتمس عبد المطلب لرسول الله عليه السلام الرضعاء ، واسترضع له امرأة من بنى سعد بن بكر - وهي حليمة بنت أبي ذؤيب - وزوجها الحارث بن عبد العزى المكى بأبي كبشة ، من نفس القبيلة .
واخواته عليهم السلام هناك من الرضاعة عبد الله بن الحارث ، وأنيسة بنت الحارث ، وحذافة أو جذامة بنت الحارث (وهي الشيماء - لقب غالب على اسمها) - وكانت تحضن رسول الله عليه السلام وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ابن عم رسول الله عليه السلام .

وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضاً في بنى سعد بن بكر ، فأرضعت أمّه رسول الله عليه السلام يوماً وهو عند أمّه حليمة ، فكان حمزة رضيع رسول الله عليه السلام من وجهين ، من جهة ثوبية ومن جهة السعدية ^(٢) .

ورأت حليمة من بركته عليه السلام ما قصّت منه العجب ، ولتركتها تروي ذلك مفصلاً :

قال ابن إسحق : كانت حليمة تحدث : أنها خرجت من بلدتها مع زوجها وابنها صغيراً ترضعه ، في نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء قالت : وذلك في سنة شعباء لم تبق لنا شيئاً ، قالت : فخرجت على أثاث لي قمراء ، معنا شارف لنا ، والله ما تبض بقطرة ، وما ن GAM لينا أجمع من صبينا الذي معنا ، من بكائه من الجوع ، ما في ثديي ما يغنيه ، وما في شارفنا ما يغذيه ، ولكن كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أثاثي تلك فلقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجاً ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما من امرأة إلا وقد عرض

= تلقيح فهوم أهل الآخر ص ٤ وقال ابن القم : ليس فيه حديث ثابت . انظر زاد المعاذ ١٨/١ .

(١) تلقيح فهوم الآخر ص ٤ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٣ .

(٢) زاد المعاذ ١٩/١ .

عليها رسول الله ﷺ فأخاباه ، إذا قيل لها إنه يتيم ، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول : يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه وحده ! فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمنا معه إلاأخذت رضيعاً غيري ، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبها : والله إني لأكرهه أن أرجع من بين صواحبها ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلا أحذنه . قال : لا عليك أن تفعل ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . قالت : فذهبت إليه ، فأخذته ، وما حملني على أخيه إلا أنا لم أجده غيره ، قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلي ، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثديي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روسي ، وشرب معه أخيه حتى روسي ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجي إلى شارفنا تلك ، فإذا هي حافل ، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشعباً ، فبتنا بخير ليلة ، قالت : يقول صاحبها حين أصبحنا : تعلمي والله يا حلية ! لقد أخذت نسمة مباركة ، قالت : قلت : والله إني لأرجو ذلك ، قالت : ثم خرجنا وركبت أنا أثاني ، وحملته عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شيء من حرمهم ، حتى إن صواحبها ليقلن لي : يا ابنة أبي ذؤيب ، ويحك ! أربعين علينا ، أليست هذه أثائقك التي كنت خرجت عليها ؟ فأقول هن : بلى والله ! إنها هي هي ، فيقلن : والله إن لها شأننا ، قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلادبني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لينا ، فتحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجد لها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعاياهم : ويلكم اسرعوا حيث يسرع راعي بنت أبي ذؤيب ، قتروح أغناهم جياعاً ما تبعض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعاً لينا ، فلم نزل نتعرف من الله الزرايدة والخير حتى مضت ستة وفصالة وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنته حتى كان غلاماً جفراً ، قالت : قدمنا به على أمه ونحن أحقر على مكنته فيها ، لما كنا نرى من بركته ، فكلمنا أمه ، وقلت لها : لو تركت ابني عندي حتى يغدو ، فإني أخشى عليه وباء مكة ، قالت : فلم نزل بها حتى ردته علينا^(١) .

وهكذا بقى رسول الله ﷺ فيبني سعد ، حتى إذا كانت السنة الرابعة أو الخامسة^(٢) من

(١) ابن هشام ١٦٢ / ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) هنا ما ذهب إليه عامة أهل السير ، وبتفصي سياق رواية ابن إسحاق أنه وقع في السنة الثالثة ، انظر ابن هشام ١٦٤ / ١٦٥ .

مولده وقع حادث شق صدره ، روى مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ، وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذته فصرعه ، فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظهره - فقالوا : إن محمدًا قد قتل ، فاستقبلوه وهو متყع اللون^(١) .

إلى أمه الحنون:

وخشيت عليه حليمة بعد هذه الواقعة حتى ردته إلى أمه ، فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين^(٢) .

ورأت آمنة وفاة لذكرى زوجها الراحل أن تزور قبره بيترب ، فخرجت من مكة قاطعة رحلة تبلغ خمساً كيلو متراً ، ومعها ولدها اليتيم - محمد ﷺ - وخدمتها أم أيمن ، وقيمتها عبد المطلب ، فمكثت شهراً ، ثم قفت ، وبينما هي راجعة إذ يلاحقها المرض ، ويلع عليها في أوايل الطريق ، فماتت بالأبواء بين مكة والمدينة^(٣) .

إلى جده العطوف:

وعاد به عبد المطلب إلى مكة ، وكانت مشاعر الحنون في فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم ، الذي أصيب بحصاب جديد نكاً الجروح القديمة ، فرق عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده ، فكان لا يدعه لوحده المفروضة ، بل يؤثره على أولاده ، قال ابن هشام : كان يوضع عبد المطلب فاثـ في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له ، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذنه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابني هذا فوالله إن له لشاناً ،

(١) صحيح مسلم ، باب الإسراء ٩٢/١ .

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٧ ، ابن هشام ١٦٨/١ .

(٣) ابن هشام ١٦٨/١ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٧ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرمي ٦٣/١ ، فقه السيرة للغزالى ص ٥٠ .

ثم يجلس معه على فراشه ، ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع^(١) .

ولثاني سنوات وشرين وعشرة أيام من عمره توفي جده عبد المطلب بمكة ، ورأى قبل وفاته أن يعهد بكماله حفيده إلى عمه أبي طالب شقيق أخيه^(٢) .

إلى عمه الشفيف:

ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه ، وضممه إلى ولده ، وقدمه عليهم ، واختصه بفضل احترام وتقدير ، وظل فوق أربعين سنة يعز جانبها . ويحيط عليه حمايته ، ويصادق ويختلف من أجله ، وستأتي نبذة من ذلك في مواضعها .

يستسقى الغمام بوجهه:

أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال : قدمت مكة وهم في قحط ، فقالت قريش : يا أبو طالب ! أقحط الوادي ، وأجدب العيال ، فهلم فاستسق ، فخرج أبو طالب ومعه غلام ، كأنه شمس دجن ، تجلت عنه سحابة قثاء ، حوله أغيلمة ، فأخذته أبو طالب ، فألصق ظهره بالكتيبة ، ولاذ بأصبعه الغلام ، وما في السماء تزعة ، فأقبل السحاب من ه هنا وه هنا ، وأغدق وأغدو دق ، وانفجر الوادي وأخضب النادي والبادي ، وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال :

وأيضاً يستسقى الغمام بوجهه ثال اليتامي عصمة للأرامل^(٣)

بحيرا الراهب:

ولما بلغ رسول الله ﷺ أثنتي عشرة سنة - قيل وشهرين وعشرة أيام^(٤) - ارتحل به أبو طالب تاجراً إلى الشام ، حتى وصل إلى بصرى - وهي معدودة من الشام وقصبة لحوران ، وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان - وكان في هذه البلد راهب

(١) ابن هشام ١٦٨/١ .

(٢) تلقيع فهو أهل الأثر ص ٧ ، ابن هشام ١٦٩/١ .

(٣) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدي ص ١٥ ، ١٦ .

(٤) قاله ابن الجوزي في تلقيع فهو أهل الأثر ص ٧ .

عرف ببحيرا واسمه جرجيس فلما نزل الركب خرج إليهم ، وأكرمهم بالضيافة ، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك وعرف رسول الله ﷺ بصفته ، فقال وهو آخذ بيده : هذا سيد العالمين ، هذا يعثه الله رحمة للعالمين . فقال أبو طالب : وما علمك بذلك ؟ فقال : إنكم حين أشرقتם من العقبة لم يق حجر ولا شجر إلا وخرّ ساجداً ، ولا تسجد إلا لنبي ، وإنني أعرفه بخاتم النبوة في أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة ، وإننا نجده في كتابنا ، وسأل أبو طالب أن يرده ، ولا يقدم به إلى الشام ، خوفاً عليه من اليهود ، فبعثه عمه مع بعض علمائه إلى مكة^(١) .

حرب الفجار:

ولخمس عشرة من عمره ﷺ كانت حرب الفجار بين قريش ومن معهم من كنانة وبين قيس عيلان ، وكان قائداً قريش وكنانة كلها حرب بن أمية لمكانته فيهم ساناً وشرفاً ، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة ، حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لكتيبة على قيس . وسميت بحرب الفجار لانتهاك حرمات الحرم والأشهر الحرم فيها ، وقد حضر هذه الحرب رسول الله ﷺ ، وكان ينبل على عمومته ، أي يجهز لهم النيل للرمي^(٢) .

حلف الفضول:

وعلى أثر هذه الحرب وقع حلف الفضول في ذي القعدة في شهر حرام ، تداعت إليه قبائل من قريش : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيمن بن مرة ، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان التيمي لسننه وشرفه ، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاماً معه ، وكانوا على من ظلمهم حتى ترد عليه مظلمته ، وشهد هذا الحلف رسول الله ﷺ ، وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة : لقد شهدت في

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله التجدي ص ١٦ ، وابن هشام ١/١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ووقع في كتاب الترمذى وغيره أنه بعث معه بلا بلا (تحفة الأحوذى) وهو من الغلط الواضح ، فإن بلا بلا إذ ذاك لعله لم يكن موجوداً ، وإن كان موجوداً فلم يكن مع عمه ولا مع أبي بكر . زاد المعاد ١/١٧ .

(٢) ابن هشام ١/١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٥ ، قلب جزيرة العرب ص ٢٦٠ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرى ١/٦٣ .

دار عبد الله بن جدعان خلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجتبت^(١) .

وهذا الحلف روحه تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها ، ويقال في سبب هذا الحلف إن رجلاً من زيد قدم مكة بضاعة ، واشتراها منه العاص بن وائل السهمي ، وحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الأحلاف عبد الدار ، ومخزوماً ، وجحشاً ، وسهماً ، وعدياً ، فلم يكتثروا له ، فعلا جبل أبي قبيس ، ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعاً صوته ، فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال : ما لهذا ترك ؟ حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم في حلف الفضول ، فقاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزبيدي بعد ما أبرموا الحلف^(٢) .

حياة الكنج:

ولم يكن له عَلَيْهِ عَمَلٌ مُعِينٌ في أول شبابه ، إلا أن الروايات تواترت أنه كان يرعى غنماً ، رعاهما في بني سعد^(٣) ، وفي مكة لأهلها على قراريط^(٤) وفي الخامسة والعشرين من سنّه خرج تاجراً إلى الشام في مال خديجة رضي الله عنها ، قال ابن إسحق : كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها ، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم ، وكانت قريش قوماً تجارةً فلما بلغها عن رسول الله عَلَيْهِ مَا بلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبله رسول الله عَلَيْهِ منها ، وخرج في مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام^(٥) .

زواجه خديجة:

ولما رجع إلى مكة ، ورأت خديجة في مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا ، وأخبرها

(١) ابن هشام ١/١١٣ ، ١٣٥ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله التجددي ص ٣٠ ، ٣١ .

(٢) نفس المصدر الأخير ص ٣٠ ، ٣١ .

(٣) ابن هشام ١/١٦٦ .

(٤) فقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٥٢ .

(٥) ابن هشام ١/١٨٧ ، ١٨٨ .

غلامها ميسرة بما رأى فيه عليه السلام من خلال عنده ، وشمائل كريمة ، وفكرة راجع ، ومنطق صادق ، ونوح أمين . وجدت ضالتها المنشودة – وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجهما ، فلأنّ عليهم ذلك – فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منية ، وهذه ذهبت إليه عليه السلام تفتخه أن يتزوج خديجة ، فرضي بذلك ، وكلم أعمامه ، فذهبوا إلى عم خديجة ، وخطبوها إليه ، وعلى أثر ذلك تم الزواج ، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مصر ، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين ، وأصدقها عشرين بكرة ، وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة ، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسباً وثروة وعقلًا ، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله عليه السلام ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت ^(١) .

وكل أولاده عليه السلام منها سوى إبراهيم ، ولدت له أولاً القاسم – وبه كان يكتن – ثم زينب ورقية ، وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله ، وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر ، ومات بنوه كلهم في صغرهم ، أما البنات فكلهن أدركتن الإسلام فأسلمن وهاجرن ، إلا أنهن أدركتهن الوفاة في حياتهم عليه السلام ، سوى فاطمة رضي الله عنها فقد تأخرت بعده ستة أشهر ، ثم لحقت به ^(٢) .

بناء الكعبة وقضية التحكيم:

ولخمس وثلاثين سنة من مولده عليه السلام قامت قريش ببناء الكعبة ، وذلك لأن الكعبة كانت رضاً فوق القامة ، ارتفاعها تسعه أذرع من عهد إسماعيل ، ولم يكن لها سقف ، فسرق نفر من اللصوص كنزها الذي كان في جوفها ، وكانت مع ذلك قد تعرضت – باعتبارها أثراً قدیماً – للعواودي التي أوهت ببنائها ، وصدقت جدرانها ، وقبل بعثته عليه السلام بخمس سنين جرف مكة سيل عرم ، انحدر إلى البيت الحرام ، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار ، فاضطررت قريش إلى تجديد بنائها حرصاً على مكانتها ، واتفقوا على أن لا يدخلوا في بنائها إلا طلياً ، فلا يدخلوا فيها مهر بغي ، ولا بيع رباً ، ولا مظلمة أحد من الناس ، وكانوا يهابون هدمها ، فابتداً بها الوليد ابن المغيرة المخزومي ، وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصبه شيء ، ولم يزالوا في المدح حتى وصلوا إلى قواعد

(١) ابن هشام ١٨٩/١ ، ١٩٠ ، فقه السيرة محمد الغزالى ص ٥٩ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٧ .

(٢) نفس المصدر الأول ١٩٠/١ ، ١٩١ ، والثانى ص ٦٠ ، وضع الباري ٥٠٧/٧ وبين المصادر اختلاف يسر أخذنا ما هو الراجح عندنا .

إبراهيم ، ثم أرادوا الأخذ في البناء ، فجزأوا الكعبة ، وخصصوا لكل قبيلة جزء منها ، فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة ، وأخذوا يبنونها ، وتولى البناء بناء رومي اسمه باقون ، ولما بلغ البناء موضع الحجر الأسود اختلفوا فيما يمتاز بشرف وضعه في مكانه ، واستمر التزاع أربع ليال أو خمساً ، واشتد حتى كاد يتتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم ، إلا أن أبي أمية بن المغيرة الخزرومي عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه ، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ ، فلما رأوه هتفوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد . فلما انتهى إليهم ، وأخبروه الخبر طلب رداء ، فوضع الحجر وسطه ، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعاً بأطراف الرداء ، وأمرهم أن يرفعوه ، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده ، فوضعه في مكانه ، وهذا حل حصيف رضي به القوم .

وقصرت بقريش النفقه الطيبة فأخرجوا من الجهة الشمالية نحواً من ستة أذرع ، وهي التي تسمى بالحجر والخطم ، ورفعوا بابها من الأرض ؛ لثلا يدخلها إلا من أرادوا ، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعاً سقفوه على ستة أعمدة .

وصارت الكعبة بعد انتهاءها ذات شكل مربع ترقيعاً يبلغ ارتفاعه ١٥ متراً ، وطول ضلعه الذي في الحجر الأسود والمقابل له ١٠ ، ١٠ م ، والحجر موضوع على ارتفاع ١,٥٠ م من أرضية المطاف . والضلوع الذي في الباب والمقابل له ١٢ م وبابها على ارتفاع مترين على الأرض ، ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها ، متوسط ارتفاعها ٢٥ م ومتوسط عرضها ٣٠,٣٠ م وتسمى بالشاذروان ، وهي من أصل البيت لكن قريشاً تركتها^(١) .

السيرة الإجمالية قبل النبوة:

إن النبي ﷺ كان قد جمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات ، وكان طرازاً رفيعاً من الفكر الصائب ، والنظر السديد ، ونال حظاً وافراً من حسن الفطنة وأصالحة الفكرة وسداد الوسيلة والمهدف ، وكان يستعين بصحته الطويل على طول التأمل وإدمان الفكره واستكناه الحق ، وطالع بعقله الخصب وفطنته الصافية صحائف الحياة وشوؤن الناس وأحوال الجماعات ،

(١) انظر في تفصيل بناء الكعبة ابن هشام ١٩٢/١٢ إلى ١٩٧ ، وفقه السيرة لحمد الغزالي ص ٦٢ ، ٦٣ ، وصحبي البخاري باب فضل مكة وبنائها ٢١٥/١ ، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرمي ٦٤/١ ،

فُعاف ما سواها من خرافة ، ونَأى عنها ، ثُم عايش الناس على بصيرة من أمره وأمرهم ، فما وجد حسنا شارك فيه ، وَإِلَّا عاد إلى عزلته العتيدة ، فكان لا يشرب الخمر ، ولا يأكل مما ذبح على النصب ، ولا يحضر للأوثان عيداً ، ولا احتفالاً ، بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة ، حتى لم يكن شيء أبغض إليه منها ، وحتى كان لا يصر على سماع الحلف باللات والعزى^(١) .

ولاشك أن القدر حاطه بالحفظ ، فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا ، وعندما يرضي باتباع بعض التقاليد غير الحمودة تتدخل العناية الربانية للحيلولة بينه وبينها ، روى ابن الأثير قال رسول الله ﷺ : « ما همت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبينه ، ثم ما همت به حتى أكرمني برسالته ، قلت ليلة للغلام الذي يرعى غنم بأعلى مكة : لو أبصرت لي غنمی حتى أدخل مكة وأسر بها كما يسر الشباب ! فقال : أفعل ، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا ، فقلت ما هذا ؟ فقالوا : عرس فلان بفلانة ، فجلست أسمع . فضرب الله على أذني فنمت ، فما أيقظني إلا حر الشمس . فعدت إلى صاحبي فسألني ، فأخبرته ، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت بمكة فأصابني مثل أول ليلة .. ثم ما همت بسوء »^(٢) .

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله قال : لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ و Abbas بنقلان الحجارة ، فقال عباس للنبي ﷺ : اجعل إزارك على رقبتك يقييك من الحجارة ، فخر إلى الأرض ، وطمحت عيناه إلى السماء ، ثم أفاق فقال : إزاري ، إزاري ، فشد عليه إزاره^(٣) وفي روایة فما رؤيت له عورة بعد ذلك^(٤) .

وكان النبي ﷺ يمتاز في قومه بخلال عذبة وأخلاق فاضلة ، وشمائل كريمة فكان أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأعزهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وألينهم

(١) يدل عليه كلامه مع بحيرا . انظر ابن هشام ١/١٢٨ .

(٢) اختلقو في صحة هذا الحديث فصححه الحاكم والذهبي وضعفه ابن كثير في البداية والنهاية ٢/٢٨٧ .

(٣) صحح البخاري باب بنيان الكعبة ١/٥٤٠ .

(٤) نفس المصدر مع شرح القسطلاني .

عربكة ، وأعفهم نفساً ، وأكرمهم خيراً ، وأبرهم عملاً ، وأوفاهم عهداً ، وآمنهم أمانة ، حتى
سماه قومه «الأمين» ؛ لما جمع فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية ، وكان كما قالت أم
المؤمنين خديجة رضي الله عنها : يحمل الكل ، ويكتسب المعدوم ، ويقرى الضيف ويعين على
نوائب الحق^(١) .

(١) صحيح البخاري ٣/١

في ظلال النبوة والرسالة

في غار حراء :

ولما تقارب سنه بِكَلَّتِهِ الأربعين، وكانت تأملاته الماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه، حبب إليه الخلاء، فكان يأخذ السوق والماء ويدهب إلى غار حراء في جبل النور، على مبعدة نحو ميلين من مكة — وهو غار لطيف طوله أربعة أذرع، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع ذراع من ذراع الحديد — ومعه أهله قريباً منه، فيقيم فيه شهر رمضان، يطعم من جاءه من المساكين، ويقضى وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون، وفيما وراءها من قدرة مبدعة، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهللة، وتصوراتها الواهية، ولكن ليس بين يديه طريق واضح، ولا منهج محدد، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه^(١).

وكان اختياره بِكَلَّتِهِ لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له، وليعده لما يتنتظره من الأمر العظيم. ولا بد لأي روح يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى.. لا بد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت، وانقطاع عن شواغل الأرض وضجة الحياة، وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة.

وهكذا دبر الله لحمد بِكَلَّتِهِ وهو يده لحمل الأمانة الكبرى، وتنوير وجه الأرض، وتعديل خط التاريخ.. دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات، ينطلق في هذه العزلة شهراً من الزمان، مع روح الوجود الطلبيقة، ويتدار ما وراء الوجود من غيب مكتون، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله^(٢).

(١) رحمة للعلميين ٤٧/١، وابن هشام ١/٢٣٥، ٢٣٦، في ظلال القرآن الجزء ٢٩/١٦٦.

(٢) نفس المصدر الأخير ٢٩/١٦٦، ١٦٧.

جبريل ينزل بالوحى:

ولما تكامل له أربعون سنة - وهي رأس الكمال ، وقيل : ولها تبعث الرسل - بدأت آثار النبوة تتلوح وتتلمع له من وراء آفاق الحياة ، وتلك الآثار هي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، حتى مضت على ذلك ستة أشهر - ومدة النبوة ثلاثة وعشرون سنة ، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة - فلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته عليه عليه السلام بحرا شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض ، فأكرمه بالنبوة ، وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن^(١) .

وبعد النظر والتأمل في القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدد ذلك اليوم بأنه كان يوم الإثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلاً ، ويوافق ١٠ أغسطس سنة ٦١٠ م ، وكان عمره عليه السلام إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية ، وستة أشهر ، و ١٢ يوماً ، وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر و ٢٢ يوماً^(٢) .

(١) قال ابن حجر : وحکى البهقی أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر ، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع في شهر مولده وهو ربيع الأول ، بعد إكماله أربعين سنة ، وابتداء وحي البقطة في رمضان (فتح الباري ٢٧/١ ٢٧) .
(٢) اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً في أول شهر أكرمته الله فيه بالنبوة ، وإنزال الوحي ، فذهب طائفة كبيرة إلى أنه شهر ربيع الأول ، وذهب طائفة أخرى إلى أنه رمضان ، وقيل هو شهر رجب (انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب النجدي ص ٧٥) ورجحنا الثاني - أي أنه شهر رمضان - لقوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ (٢ : ١٨٥) ولقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (٩٧ : ١) ومعلوم أن ليلة القدر في رمضان ، وهي المراد بقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مِبَارَكَةٍ، إِنَّا كَانَ مِنْذَرِينَ ﴾ (٤٤ : ٣) ولأن جواره عليه السلام بحراً كان في رمضان ، وكانت وقعة نزول جبريل فيها كما هو معروف .

ثم اختلف القائلون ببدء نزول الوحي في رمضان في تحديد ذلك اليوم ، فقيل : هو اليوم السابع ، وقيل السابع عشر ، وقيل الثامن عشر (انظر مختصر سيرة الرسول المذكور ص ٧٥ ، ورحمة للعالمين ٤٩/١) وقد أصر الحضرى في حماصراته على أنه اليوم السابع عشر (محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرى ٦٩/١) . وإنما رجحنا أنه اليوم الحادى والعشرون مع أنها لم نر من قال به لأن أهل السيرة كلهم أو أكثرهم متتفقون على أن مبعثه عليه السلام كان يوم الإثنين ، وبيدينهم ما رواه آئمة الحديث عن أبي قادة رضي الله عنه أن رسول الله عليه السلام سئل عن صوم يوم الإثنين ، فقال : فيه ولدت فيه أنزلت عليه ، وفي لفظ : ذاك يوم ولدت فيه ويوم بعثت أو أنزلت عليه فيه (صحيح مسلم ١/٣٦٨ ، ٥/٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٤/٢٨٦ ، ٣٠٠) ، البهقى

ولنستمع إلى عائشة الصديقة رضي الله تعالى عنها تروي لنا قصة هذه الواقعة التي كانت شعلة من نور اللاهوت ، أخذت تفتح دياجير ظلمات الكفر والضلال ، حتى غيرت مجرى الحياة ، وعدلت خط التاريخ . قالت عائشة رضي الله عنها :

أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حب إلى الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليلاني ذوات العدد قبل أن يتزع إلى أهله ، ويتوارد لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : أقرأ : فقلت : ما أنا بقاريء ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : أقرأ يا سيريك الذي خلقك خلق الإنسان من عليق ^(١) أقرأ وربك الأكرم ^(٢) فرجع بها رسول الله ﷺ يرجم فواده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال خديجة ، مالي ، وأخيرها الخبر ، لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لنصل بالرحم ، وتحمل الكل ، وتكتسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نواب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزي ابن عم خديجة – وكان امرأها تنصر في المحاهمية ، وكان يكتب الكتاب العراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي – فقالت له خديجة : يا ابن عم ! اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر مارأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزله الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً ، ليتنى أكون حياً إذ يخرج لك قومك فقال رسول الله ﷺ : أو مُخرجي هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ،

= الحكم ٦٠٢/٦٠٢) ويوم الإثنين في رمضان من تلك السنة لا يوافق إلا اليوم السابع ، والرابع عشر ، والحادي والعشرين ، والثامن والعشرين ، وقد دلت الروايات الصحيحة أن ليلة القدر لا تقع إلا في وتر من ليالي العشر الأوامر من رمضان وأنها تنتقل فيما بين هذه الليلات ، فإذا قارنا بين قوله تعالى : «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» ^(٣) ، وبين رواية أبي قحافة أن مبعثه ^(٤) كان يوم الإثنين وبين حساب التقويم العلمي في وقوع يوم الإثنين في رمضان من تلك السنة تعين لنا أن مبعثه ^(٥) كان في اليوم الحادي والعشرين من رمضان ليلاً .
كان نزول الآيات إلى قوله تعالى : «علم الإنسان ما لم يعلم» ^(٦) .

وإن يدركني يومك نصرًا مؤزرًا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي ^(١) .

وروى الطبرى وابن هشام ما يفيد أنه خرج من غار حراء بعدما فوجيء بالوحى ثم رجع وأتم جواره ، وبعد ذلك رجع إلى مكة ، ورواية الطبرى تلقي ضوءاً على سبب خروجه وهكذا نصها :

قال رسول الله ﷺ بعد ذكر مجىء الوحي : ولم يكن من خلق الله أبغض على من شاعر أو مجنون ، كنت لا أطيق أن أنظر إليهما ، قال : قلت : إن البعد - يعني نفسه - شاعر أو مجنون إلا تحدث بها عن قريش أبداً ! لأعمدن إلى حالي من الجبل فألاطرين نفسى منه فلأقتلنها ، فلأستريحن ! قال : فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد !! أنت رسول الله ، وأننا جبريل . قال : فرفعت رأسى إلى السماء ، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قد미ه في أعلى السماء يقول : يا محمد ! أنت رسول الله وأننا جبريل . قال : فوقفت أنظر إليه ، وشغلني ذلك عما أردت ، فما أتقدمن وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقعاً ما أتقدمن أمامي ، ولا أرجع ورأي ، حتى بعثت خديجة رسالها في طلبي ، حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مقامي ، ثم انصرف عنى وانصرفت راجعاً إلى أهلي ^(٢) حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيقاً إليها (ملتصقاً بها مائلاً إليها) فقالت : يا أبا القاسم ! أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلي ، ثم حدثها بالذى رأيت ، فقالت : أبشر يا ابن عم ، واثبت ، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ^(٣) ، ثم قامت فانطلقت إلى ورقة وأخبرته . فقال : قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده لقد جاءه الناموس الأكير الذى كان يأتي موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له : فلبيث ، فرجعت خديجة وأخبرته بقول ورقة ، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف (إلى مكة) لقيه ورقة ، وقال بعد أن سمع منه خبره : والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكير الذى جاء موسى ^(٤) .

(١) صحيح البخارى ١، ٢/٣ ، وقد أخرج البخارى مع اختلاف يسر في اللفظ في كتابي التفسير وتغير الروايا .

(٢) نص الطبرى ٢٠٧/٢ .

(٣) نص ابن هشام ١/٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٤) ملخص من ابن هشام ١/٢٣٨ .

فترة الوحي:

أما مدة فترة الوحي فروى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد أنها كانت أياماً^(١) وهذا الذي يتراجع بل يتعمّن بعد إدارة النظر في جميع الجوانب . وأما ما اشتهر من أنها دامت طيلة ثلاث سنين أو ستين ونصف فلا يصح بحال ، وليس هذا موضع التفصيل في رده .

وقد بقى رسول الله ﷺ في أيام الفترة كبيباً محزوناً ، تعرّية الحيرة والدهشة ، فقد روى البخاري في كتاب التعبير ما نصه :

وقر الوحي فترة حق حزن النبي ﷺ فيها بلغنا حزناً عدا^(٢) منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهد الحال ، فكلما أوف بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال : يا محمد إنك رسول الله حقاً ، فيسكن لذلك جائمه ، وتقر نفسه ، فرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غداً مثل ذلك ، فإذا أوف بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك^(٣) .

جبريل ينزل بالوحي مرة ثانية:

قال ابن حجر : وكان ذلك (أن انقطاع الوحي أياماً) ، ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروع ، وليحصل له التسوف إلى العود^(٤) ، فلما تقلصت ظلال الحيرة ، وثبتت أعلام الحقيقة ، وعرف ﷺ معرفة اليقين أنه أضحت نبياً لله الكبير المتعال ، وأن ما جاءه سفير الوحي ينقل إليه خبر السماء وصار تشوّهه وارتقاءه بمحبي الوحي سبباً في ثباته واحتماله عندما يعود ، جاءه جبريل للمرة الثانية . روى البخاري عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي ، قال :

فيينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذي جاءني بحراً قاعد على كرسي بين السماء والأرض ، فجئت منه حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهل قفلت : زملوني زملوني ، فزمليوني ، فأنزل الله تعالى : يا أهيا المدثر إلى قوله : فاهجر ، ثم

(١) فتح الباري ١/٢٧، ٣٦٠/١٢ .

(٢) بالعين المهمّلة من العدو ، وهو الذهاب بسرعة ، وفي بعض النسخ « غداً » بالمعنى المجمّة .

(٣) صحيح البخاري كتاب التعبير باب أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة . ١٠٣٤٠/٢ .

(٤) فتح الباري ١/٢٧ .

حمي الوحي وتابع^(١).

استطراد في بيان أقسام الوحي:

قبل أن نأخذ في تفصيل حياة الرسالة والنبوة ، نرى أن نتعرف أقسام الوحي الذي هو مصدر الرسالة ومدد الدعوة . قال ابن القيم – وهو يذكر مراتب الوحي :
إحداها : الرؤيا الصادقة ، وكانت مبدأً وحيه عليه السلام .

الثانية : ما كان يلقىء الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال النبي صلوات الله عليه : إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها . فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته .

الثالثة : أنه صلوات الله عليه كان يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له ، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً .

الرابعة : أنه كان يأتيه في مثل صلصلة المجرس ، وكان أشدّه عليه فيلتبس به الملك ، حتى أن جبينه ليتصد عرقاً في اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ، ففقلت عليه حتى كادت ترضاها .

الخامسة : أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها ، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم .

السادسة : ما أواه الله إليه ، وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها .

السابعة : كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك كما كلام الله موسى بن عمران ، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن . وثبتتها لنبينا صلوات الله عليه هو في حديث الإسراء .

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهي تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب ، وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف . انتهى مع تلخيص يسير في بيان المرتبة الأولى والثامنة^(٢) ، والحق أن هذه الأخيرة ليست ثابتة .

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب والرجز فاهجر ٧٣٣/٢ .

(٢) انظر زاد المعد ١٨/١ .

أمر القيام بالدعوة إلى الله، وموادها

تلقي النبي ﷺ أوامر عديدة في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّرِّ﴾ قُرْفَانِزْ ﴿١﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِرْ ﴿٢﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِرْ ﴿٣﴾ وَالرُّحْزَ فَاهْجِرْ ﴿٤﴾ وَلَا تَمْنَعْ نَسْتَكِبْرْ ﴿٥﴾ وَلَرِبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٦﴾ أوامر بسيطة ساذجة في الظاهر ، بعيدة المدى والغاية ، قوية الأثر والفعل في الحقيقة ونفس الأمر .

- ١ - فغاية القيام بالإذنار أن لا يترك أحداً من يخالف مرضاة الله في عالم الوجود إلا وينذره بعواقبه الوخيمة حتى تقع رغفة وزلزال في قلبه وروعيه .
- ٢ - وغاية تكبير الرب أن لا يترك لأحد كبراء في الأرض إلا وتكسر شوكتها ، وتقلب ظهراً لبطن ، حتى لا يبقى في الأرض إلا كبراء الله تعالى .
- ٣ - وغاية تطهير الثياب وهجران الرجز أن يبلغ في تطهير الظاهر والباطن وفي تزكية النفس من جميع الشوائب والألواث إلى أقصى حد وكال يمكن لنفس بشرية تحت ظلال رحمة الله الوارفة وحفظه وكله وهدايته ونوره ، حتى يكون أعلى مثل في المجتمع البشري ، تجتذب إليه القلوب السليمة ، وتحس بهيئته وفخامته القلوب الرائفة ، حتى ترتكز إليه الدنيا بأسرها وفقاً أو خلافاً .
- ٤ - وغاية عدم الاستكثار بالمنة أن لا يعد فعالاته وجهوده فخيمة عظيمة ، بل لا يزال يجتهد في عمل بعد عمل ، ويبذل الكثير من الجهد والتضحية والغداء ، ثم ينسى كل ذلك ، بل يفني في الشعور بالله بحيث لا يحس ولا يشعر بما بذل وقدم .
- ٥ - وفي الآية الأخيرة إشارة إلى ما سيلقاه من أذى المعاندين من المخالفة والاستهزاء والسخرية إلى الجد والاجتهد في قتله وقتل أصحابه ، وإبادة كل من التف حوله من المؤمنين ، يأمر الله تعالى أن يصبر على كل من ذلك بقوة وجلادة ، لا لينال حظاً من حظوظ نفسه ، بل مجرد مرضاة ربه .

الله أكيرا ما أبسط هذه الأوامر في صورتها الظاهرة. وما أروعها في إيقاعاتها الهدئة الخلابة، ولكن ما أكبرها وأفحشها وأشدتها في العمل، وما أعظمها إثارة لعاصفة هوجاء تحضر جوانب العالم كله، وتركتها يتلاحم بعضها في بعض.

والأيات نفسها تشتمل على مواد الدعوة والتبلیغ، فالإنذار نفسه يقتضي أن هناك أعمالاً لها عاقبة سوأى يلقاها أصحابها، ونظرأً لما يعرفه كل أحد أن الدنيا لا يجازى فيها بكل ما يفعل الناس، بل ربما لا يمكن المجازة بجميع الأعمال. فالإنذار يقتضي يوماً للمجازاة غير أيام الدنيا، وهو الذي يسمى يوم القيمة ويوم الجزاء والدين، وهذا يستلزم حياة أخرى غير الحياة التي نعيشها في الدنيا.

وسائل الآيات تطلب من العباد التوحيد الصريح، وتغويض الأمور كلها إلى الله تعالى، وترك مرضاه النفس، ومرضاه العباد إلى مرضاه الله تعالى.

فإذن تتلخص هذه المواد في:

(أ) التوحيد.

(ب) الإيمان باليوم الآخرة.

(ج) القيام بتزكية النفس بأن تناهى عن المنكرات والفواحش التي تفضي إلى سوء العاقبة، وبأن تقوم باكتساب الفضائل والكمالات وأعمال الخير.

(د) تغويض الأمور كلها إلى الله تعالى.

(هـ) وكل ذلك بعد الإيمان برسالة محمد ﷺ وتحت قيادته النبيلة وتوجيهاته الرشيدة.

ثم إن مطلع الآيات تضمنت النداء العلوى - في صوت الكبير المتعال - بانتداب النبي ﷺ لهذا الأمر الجلل، وانتزعه من النوم والتدبر والدفء إلى الجهاد والكفاح والمشقة: ﴿يَأَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قُرْآنٌ فَانِذُرْ﴾ كأنه قيل: إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً، أما أنت الذي تحمل هذا العبء الكبير فما لك والنوم؟ وما لك والراحة؟ وما لك والفراش الدافئ؟ والعيش الهادىء؟ والمداع المربيع! قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك. قم للجهاد والنصر، والكد والتعب. قم فقد مضى وقت النوم والراحة، وما عاد من ذي اليوم إلا السهر المتواصل، والجهاد الطويل الشاق. قم فتهياً لهذا الأمر واستعد.

إنها لكلمة عظيمة رهيبة، تتنزعه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من دفء الفراش في البيت الهدئ والحضن الدافئ، لتندفع به في الخضم، بين الزعازع والأنواء، وبين الشد والجذب في ضمائير الناس وفي واقع الحياة سواء.

وقام رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فظل قائماً بعدها أكثر من عشرين عاماً! لم يسترح ولم يسكن، ولم يعش لنفسه ولا لأهله. قام وظل قائماً على دعوة الله، يحمل على عاتقه العباء الثقيل الباهظ ولا ينوء به، عباء الأمانة الكبرى في هذه الأرض، عباء البشرية كلها، عباء العقيدة كلها، وعباء الكفاح والجهاد في ميادين شتى، عاش في المعركة الدائمة المستمرة أكثر من عشرين عاماً. لا يلهمه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد. منذ أن سمع النداء العلوي الجليل، وتلقى منه التكليف الرهيب... جزاه الله عنه وعن البشرية كلها خير الجزاء^(١).

وليست الأوراق الآتية إلى صورة مصغرة بسيطة من هذا الجهاد الطويل الشاق الذي قام به رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ خلال هذا الأمد.

(١) في ظلال القرآن تفسير سوري المولى والمذر، ج ٢٩/١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢.

أدوار الدعوة ومراحلها

يمكن أن نقسم عهد الدعوة الحمدية – على صاحبها الصلاة والسلام والتحية – إلى دورين يمتاز أحدهما عن الآخر تمام الامتياز وهم :

- (١) الدور المكي ، ثلاث عشرة سنة تقريباً .
- (٢) الدور المدني ، عشر سنوات كاملة .

ثم يشتمل كل من الدورين على مراحل لكل منها خصائص تمتاز بها عن غيرها ، ويظهر ذلك جلياً بعد النظر الدقيق في الظروف التي مرت بها الدعوة خلال الدورين .

ويمكن تقسيم الدور المكي إلى ثلاث مراحل :

- ١ – مرحلة الدعوة السرية ، ثلاث سنين .
- ٢ – مرحلة إعلان الدعوة في أهل مكة ، من بداية السنة الرابعة من النبوة إلى أواخر السنة العاشرة .

٣ – مرحلة الدعوة خارج مكة ، وفشوها فيهم ، من أواخر السنة العاشرة من النبوة إلى هجرته صلوات الله عليه إلى المدينة .

أما مراحل الدور المدني فسيجيء تفصيلها في موضعه .

المرحلة الأولى

جهاد الدعوة

ثلاث سنوات من الدعوة السرية:

معلوم أن مكة كانت مركز دين العرب ، وكان بها سدنة الكعبة ، والقمام على الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب ، فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسراً وشدة عما لو كان بعيداً عنها . فالأمر يحتاج إلى عزيمة لا ترثها المصائب والكوارث ، كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة في بدء أمرها سرية ، لثلا يفاجأ أهل مكة بما يهيجهم .

الرعيل الأول:

وكان من الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولاً على أصدق الناس به وأآل بيته ، وأصدقائه ، فدعاهم إلى الإسلام ، ودعا إله كل من توسم فيه خيراً من يعرفهم ويعرفونه ، يعرفهم بحب الله الحق والخير ، ويعرفونه بتحري الصدق والصلاح ، فأجابه من هؤلاء - الذين لم تخالطهم ريبة قط في عظمة الرسول ﷺ وجلالة نفسه وصدق خبره - جمع عرفوا في التاريخ الإسلامي بالسابقين الأولين ، وفي مقدمتهم زوجة النبي ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، ومولاه زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي^(١) وابن عميه علي بن أبي طالب - وكان صبياً يعيش في كفالة الرسول - وصديقه الحميم أبو بكر الصديق . أسلم هؤلاء في أول يوم من أيام الدعوة^(٢) .

(١) كان قد أسر ورق ، فملكته خديجة ، ووهبته لرسول الله ﷺ ، وجاءه أبوه وعمه ليذهبوا به إلى قومه وعشائره ، فاختار عليهما رسول الله ﷺ ، فبنياه حسب قواعد العرب ، وكان لذلك يقال : زيد بن محمد ، حتى جاء الإسلام فأبطل النبي .

(٢) رحمة للعلميين ٥٠ / ١ .

ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام ، وكان رجلاً مالقاً محباً سهلاً ، ذا خلق و معروف ، وكان رجال قومه يأتونه وبالفونه ، لعلمه و تجارتة ، و حسن مجالسته ، فجعل يدعو من يشق به من قومه من يغشاه ويجلس إليه ، فأسلم بدعايته عثمان بن عفان الأموي ، والزبير بن العوام الأسدي ، و عبد الرحمن بن عوف ، و سعد بن أبي و قاص الزهريان ، و طلحة بن عبد الله التيمي . فكان هؤلاء النفر الثاني الذين سبقو الناس هم الراعيل الأول و طليعة الإسلام .

و من أوائل المسلمين بلال بن رياح الحبشي ، ثم تلاهم أمين هذه الأمة^(١) أبو عبيدة عامر بن الجراح من بني الحارث بن فهر ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان ، و عثمان بن مظعون وأخواه قدامة و عبد الله ، و عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، و سعيد بن زيد العدوبي ، و امرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب ، و خباب بن الأرت و عبد الله بن مسعود المذلي و خلق سواهم ، وأولئك هم السابقون الأولون ، و هم من جميع بطون قريش وعدهم ابن هشام أكبر من أربعين نفراً^(٢) . وفي ذكر بعضهم في السابقين الأولين نظر .

قال ابن إسحاق : ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة ، و تحدث به^(٣) .

أسلم هؤلاء سراً ، وكان الرسول ﷺ يجتمع بهم ويرشدتهم إلى الدين متخفياً ؛ لأن الدعوة كانت لا تزال فردية و سرية ، وكان الوحي قد تتابع و حي نزوله بعد نزول أوائل المدثر . وكانت الآيات وقطع السور التي تنزل في هذا الزمان آيات قصيرة ، ذات فواصل رائعة منيعة ، وإيقاعات هادئة خلاة تتناسب مع ذلك الجو الهامس الرقيق ، تشتمل على تحسين تركيبة النفوس ، و تقبیح تلویتها برغام الدنيا ، تصف الحنة والنار كأنهما رأى عن ، تسیر بالمؤمنين في جو آخر غير الذي فيه المجتمع البشري آنذاك .

الصلوة:

و كان في أوائل ما نزل الأمر بالصلوة ، قال مقاتل بن سليمان : فرض الله في أول الإسلام

(١) انظر لتسميتها بهذا اللقب صحيح الجماري مناقب أبي عبيدة بن الجراح ٥٣٠/١ .

(٢) انظر سورة ابن هشام ٢٤٥/١ إلى ٢٦٢ .

(٣) نفس المصدر ٢٦٢/١ .

الصلة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشى ، لقوله تعالى : ﴿وَسَيَّدْ بِحَمْدِ رَبِّكَ يَا عَشَقَ وَالْأَكْبَرِ﴾ (٤٠ : ٥٥) وقال ابن حجر : كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ قبل الإسراء يصل قطعاً ، وكذلك أصحابه ، ولكن اختلف هل فرض شيء قبل الصلوات الخمس من الصلوات أم لا ؟ فقيل إن الفرض كانت صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها . انتهى . وروى الحارث بن أسامة من طريق ابن هبعة موصولاً عن زيد بن حارثة : أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ في أول ما أوحى إليه آتاه جبريل ، فعلمته الوضوء ، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من ماء فنضج بها فرجه . وقد روى ابن ماجة بمعناه . وروى نحوه عن البراء بن عازب وأبي عباس وفي حديث أبي عباس ، وكان ذلك من أول الفريضة^(١) .

وقد ذكر ابن هشام أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهباً في الشعاب فاستخروا بصلاتهم من قومهم ، وقد رأى أبو طالب النبي ﷺ وعليه يصليان مرة ، فكلمها في ذلك ، ولما عرف جلية الأمر أمرها بالثبات^(٢) .

الخير يبلغ إلى قريش إجمالاً:

يبدو بعد النظر في نواح شتى من الواقع أن الدعوة - في هذه المرحلة - وإن كانت سرية وفردية ، لكن بلغت أنباءها إلى قريش ، بيد أنها لم تكترث بها .

قال محمد الغزالى : وترامت هذه الأنبياء إلى قريش فلم تعرها اهتماماً ، ولعلها حسبت محمداً أحد أولئك الديانين ، الذين يتكلمون في الألوهية وحقوقها ، كما صنع أمية بن أبي الصلت ، وقس بن ساعدة ، وعمرو بن نفيل وأشباههم ، إلا أنها توجست خيفة من ذيوع خبره وامتداد أثره ، وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته^(٢) .

مرت ثلاثة سنين والدعوة لم تزل سرية وفردية ، وخلال هذه الفترة تكونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون ، وتبيّن الرسالة وتكتيّبها من مقامها، ثم تنزّل الوحي يكلّف رسول الله ﷺ بمعالته قومه ، ومجابهه باطلهم ومهاجمة أصنامهم .

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٨٨ .

(۲) ابن هشام ۱/۲۴۷ .

(٣) فقه المسيرة ص ٧٦ .

المرحلة الثانية الدعوة جهارا

أول أمر بإظهار الدعوة:

أول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٦ : ٢١٤) والsurah التي وقعت فيها الآية - وهي سورة الشعرا - ذكرت فيها أولاً قصة موسى عليه السلام من بداية نبوته إلى هجرته مع بنى إسرائيل ، ونجاتهم من فرعون وقومه ، وإغراق آل فرعون معه ، وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التي مر بها موسى عليه السلام خلال دعوه فرعون وقومه إلى الله .

أرى أن هذا التفصيل إنما جاء به حين أمر الرسول ﷺ بدعاوة قومه إلى الله ، ليكون أماماً وأمام أصحابه نموذجاً لما سيلقونه من التكذيب والاضطهاد حينها يجهرون بالدعوة ، ول يكنوا على بصيرة من أمرهم منذ بداية دعوتهم .

ومن ناحية أخرى تشتمل هذه السورة على ذكر مآل المكذبين للرسل ، من قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة - علاوة على ما ذكر من أمر فرعون وقومه - ليعلم الذين سيقومون بالتكذيب بما يؤمنون إليه أمرهم وما سيلقون من مؤاخذة الله إن استمروا على التكذيب ، وليعرف المؤمنون أن حسن العاقبة لهم لا للمكذبين .

الدعوة في الأقربين:

وأول ما فعل رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية أنه دعا بنبي هاشم فحضروا ، ومعهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف ، فكانوا خمسة وأربعين رجلاً . فبادره أبو هلب وقال : وهؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصُّباء . واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق

من أخذك ، فحسبك بتوأيك ، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يشب بك بطون قريش ، وتمدهم العرب ، فما رأيت أحداً جاء علىبني أئمه بشر مما جئت به ، فسكت رسول الله ﷺ ، ولم يتكلم في ذلك المجلس .

ثم دعاهم ثانية وقال : « الحمد لله أحمده ، وأستعينه ، وأؤمن به ، وأنوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . ثم قال : إن الرائد لا يكذب أهله والله الذي لا إله إلا هو ، إني رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة ، والله تموتون كما تنامون ، ولتبغضن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً » . فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك ، وأشد تصديقنا لحديثك ، وهو لاء بنو أئمك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم غير أني أسرعهم إلى ما تحب ، فامض لما أمرت به . فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك ، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب .

قال أبو هب : هذه والله السواة ، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم ، فقال أبو طالب : والله لننفعه ما بقينا^(١) .

على جبل الصفا:

وبعدما تأكد النبي ﷺ من تعهد أبي طالب بمحاباته ، وهو يبلغ عن ربه ، قام يوماً على الصفا فصرخ : يا صدراه : فاجتمع إليه بطون قريش ، فدعاهم إلى التوحيد والإيمان برسالته وبال يوم الآخر . وقد روى البخاري طرفاً من هذه القصة عن ابن عباس . قال : لما نزلت **﴿وَإِنَّ رَّاعِيَتَكُمْ أَلَاَقْرَبُونَ﴾** صعد النبي ﷺ على الصفا ، فجعل ينادي بابني فهر ! يابني عدي ! لبطون قريش ، حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟ فجاء أبو هب وقريش . فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقـ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقـاً ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو هب : تبا لك سائر اليوم . لهذا جمعتنا ؟ فنزلت **﴿تَبَّأَتْ يَدَآءِي لَهَبٍ﴾** .^(٢)

(١) ابن الأثير ، فقه السيرة ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) صحيح البخاري ٧٤٣ ، ٧٠٢/٢ ، والرواية مخرجة في صحيح مسلم أيضاً ١١٤/١ .

وروى مسلم طرفاً آخر من هذه القصة عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ فعم وخاص. فقال: يا عشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا عشربني كعب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد! أنقذني نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً، إلا أن لكم رحمة سأبليها بيلالها^(١).

هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغ، فقد أوضح الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلات بينه وبينهم. وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله.

الصدع بالحق وردود فعل المشركين:

ولم يزل هذا الصوت يرتعج دويه في أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى ﴿فَاصْنَعْ بِمَا تُؤْمِنْ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤:١٥) فقام رسول الله ﷺ يعكر على خرافات الشرك وترهاته، ويدرك حقائق الأصنام وما لها من قيمة في الحقيقة، يضرب بعجزها الأمثال، وبين بالبيانات أن من عبدها وجعلها وسيلة بينه وبين الله فهو في ضلال مبين.

انفجرت مكة بمشاعر الغضب، وماجت بالغرابة والاستكثار، حين سمعت صوتاً يجهر بتضليل المشركين وعباد الأصنام، كأنه صاعقة قصفت السحاب، فرعدت وبرقت وزلزلت الجو الهادئ، وقامت قريش تستعد لجسم هذه الثورة التي اندلعت بعنته، ويخشى أن تأتي على تقاليدها وموروثتها.

قامت لأنها عرفت أن معنى الإيمان بنفي الألوهية عما سوى الله، ومعنى الإيمان بالرسالة وبالاليوم الآخر هو الانقياد التام والتقويض المطلق، بحيث لا يبقى لهم خيار في أنفسهم وأموالهم، فضلاً عن غيرهم. ومعنى ذلك انتفاء سيادتهم وكبرياتهم على العرب، التي كانت بالصبغة الدينية، وامتناعهم عن تنفيذ مرضياتهم أمام مرضاة الله ورسوله، وامتناعهم عن المظالم التي كانوا يفترونها على الأوساط السافلة، وعن السيئات التي كانوا

(١) صحيح مسلم ١١٤/١ ، صحيح البخاري ٣٨٥/١ ، ٧٠٢/٢ ، مشكاة المصايح ٤٦٠/٢.

يجترحونها صباح ومساء. عرفوا هذا المعنى فكانت نفوسهم تأبى عن قبول هذا الوضع «المخزي» لا لكرامة وخير **﴿بَنِ رَبِّهِ الْإِنْسَنُ لِيَقْرَأُ أَمَانَةً﴾** (٧٥:٥).

عرفوا كل ذلك جيداً، ولكن ماذا سيفعلون أمام رجل صادق أمين، أعلى مثل للقيم البشرية وللكارم الأخلاق، لم يعرفوا له نظيراً ولا مثيلاً خلال فترة طويلة من تاريخ الآباء والأقوام؟ ماذا سيفعلون؟ تغيروا في ذلك، وحق لهم أن يتغيروا.

وبعد إدارة فكرتهم لم يجدوا سبيلاً إلا أن يأتوا إلى عم أبي طالب، فيطلبوا منه أن يكف ابن أخيه عما هو فيه، ورأوا لإلباس طلبهم لباس الجد والحقيقة أن يقولوا: إن الدعوة إلى ترك آلهتهم، والقول بعدم نفعها وقدرتها سبة قبيحة وإهانة شديدة لها، وفيه تسفيه وتضليل لأبائهم الذين كانوا على هذا الدين، وجدوا هذا السبيل فتسارعوا إلى سلوكها.

وفد قريش إلى أبي طالب:

قال ابن إسحاق: مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا فاما أن تكتفه عنا، وإنما أن تخلي بيتنا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولًا رقيقًا، ورد لهم ردًا جميلاً فانصرفوا عنه ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه^(١).

المجلس الاستشاري لكتف العجاج عن استئصال الدعوة:

وخلال هذه الأيام أهم قريشاً أمر آخر، وذلك أن الجهر بالدعوة لم يمض عليه إلا أشهر معدودة حتى قرب موسم الحج، وعرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم، فرأيت أنه لا بد من كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد ﷺ حتى لا يكون لدعوته أثر في نفوس العرب، فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة يتداولون في تلك الكلمة، فقال لهم الوليد: أجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم ببعض، ويرد قولكم بعضه ببعض، قالوا: فأنت فقل، قال: بل أنتم قولوا أسمع. قالوا: نقول: كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو

(١) ابن هشام ٢٦٥/١

بزمضة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، ما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسطه ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول : ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما نقول ؟ قال : والله إن لقوله حلاوة ، وإن أصله لعدق ، وإن فرمه لخناة ، وما أنت بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر . جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، ففرقوا عنه بذلك ^(١) .

وتفيد بعض الروايات أن الوليد لما رد عليهم كل ما عرضوا له ، قالوا : أرنا رأيك الذي لا غضاضة فيه ، فقال لهم : أمهلوني حتى أفكر في ذلك ، فظل الوليد يفكر ويفكر ، حتى أبدى لهم رأيه الذي ذكر آنفًا ^(٢) .

وفي الوليد أنزل الله تعالى ست عشرة آية من سورة المدثر (من ١١ إلى ٢٦) وفي خلالها صور كيفية تفكيره ، فقال : ﴿إِنَّهُ فَكَرْ وَفَدَرَ ﴿١٩﴾ فَتُلِّيَ كَفَ قَدَرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ فُلِّيَ كَفَ قَدَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ وَأَسْتَكَبَرَ ﴿٢٤﴾ فَقَالَ إِنَّهُنَّ إِلَّا سِرَّ يُوتَرُ ﴿٢٥﴾ إِنَّهُنَّ إِلَّا هَوَى الْبَشَرُ ﴿٢٦﴾ .

وبعد أن اتفق المجلس على هذا القرار أخذوا في تنفيذه ، فجلسوا بسبيل الناس حين قدموه الموسم ، لا يبر بهم أحد إلا حذروه وإيه ، وذكروا لهم أمره ^(٣) .

والذي تولى كبير ذلك هو أبو هلب ، فقد كان رسول الله ﷺ يتبع الناس إذا واف الموسم في منازلهم وفي عكاظ وجنة وذبي الحجاز ، يدعوهم إلى الله ، وأبو هلب وراءه يقول : لا تطيعوه فإنه صانع كذاب ^(٤) .

(١) نفس المصدر ٢٧١/١ .

(٢) انظر في ظلال القرآن ٢٩ ، ١٨٨ .

(٣) ابن هشام ١/٢٧١ .

(٤) روى فعله هذا الترمذى عن نزيد بن رومان و .. عن طارق بن عبد الله الحارنى ورواه الإمام أحمد فى مسنده ٤٩٢/٣ ، ٣٤١/٤ .

وأدى ذلك إلى أن صدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ ، وانتشر ذكره في بلاد العرب كلها .

أساليب شتى لمجابهة الدعوة:

ولما رأت قريش أن مهداً ﷺ لا يصرفه عن دعوته هذا ولا ذاك . فكروا مرة أخرى ، واختاروا لقمع هذه الدعوة أساليب تلخص فيما يأتي :

١ - السخرية والتحقير ، والاستهزاء والتكميل والتضليل ، قصدوا بها تخذيل المسلمين ، وتوهين قواهم المعنوية ، فرموا النبي ﷺ بهم هازلة وشتائم سفهية ، فكانوا ينادونه بالجنون ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الْدِرْكُرِينَ إِنَّكَ لِمَجْنُونٌ ﴾ (٦:١٥) ويصمونه بالسحر والكذب ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكُفَّارُ هَذَا سَحْرٌ كَذَابٌ ﴾ (٤:٣٨) وكانوا يشيعونه ويستقبلونه بنظارات ملتهمة ناقمة ، وعواطف منفعلة هائجة ﴿ وَإِنْ يَكُادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَرْفَوْنَكَ إِبْصَرَهُمْ لَمَّا سَمِعُوا الْأَذْكُرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ لِمَجْنُونٌ ﴾ (٦٨:٥١) وكان إذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم وقالوا: هؤلاء جلساوه ﴿ مَنْ أَنْهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا ﴾ (٦:٥٢) قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمُ بِالسَّكِّرِينَ ﴾ (٦:٥٣) وكانوا كما قص الله علينا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنَ الْدِينِ أَمْنَوْا إِيمَانَهُمْ كُوْنَ ﴿٦﴾ وَإِذَا مَرُوا بِهِمْ يَنْغَامِزُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَيْهِمْ أَهْلَهُمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِنَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنْ هُؤُلَاءِ لِضَالُوْنَ ﴿٢٢﴾ وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَفِظِيْنَ ﴾ (٨٣:٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣) .

٢ - تشويه تعاليه وإثارة الشبهات ، وبث الدعايات الكاذبة ، ونشر الإبرادات الواهية حول هذه التعاليم ، وحول ذاته وشخصيته ، والإكثار من كل ذلك بحيث لا يبقى للعامة مجال في تدبر دعوته ، فكانوا يقولون عن القرآن: ﴿ أَسْطِرِيْرُ الْأَوَّلِيْنَ أَكْتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (٢٥:٥) ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا إِلْفَكُ أَفْتَرَنَهُ وَأَعْانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَا خَرُونَ ﴾ (٢٥:٤) وكانوا يقولون ﴿ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ ﴾ (١٦:١٠٣) وكانوا يقولون عن الرسول ﷺ ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (٢٥:٧) وفي القرآن نماذج كثيرة للردود على إبراداتهم بعد نقلها أو من غير نقلها .

٣ - معارضه القرآن بأساطير الأولين ، وتشغيل الناس بها عنه . فقد ذكروا أن النضر بن

الحارث قال مرة لقريش : يا معشر قريش ! والله لقد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بمحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، فقلتم : ساحر . لا والله ما هو ساحر . لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم : كاهن . لا والله ما هو بكافر . قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعوا سجعهم ، وقلتم : شاعر . لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعوا أصنافه كلها هزجه ورجله ، وقلتم : مجنون . لا والله ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنفه ، ولا وسنته ، ولا تخليطه ، يا معشر قريش فانظروا في شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

ثم ذهب النضر إلى الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم وأسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً للتذكرة بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر ، ويقول : والله ما محمد بأحسن حديثاً مني ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثاً مني^(١) .

وتفيد رواية ابن عباس أن النضر كان قد اشتري قينات ، فكان لا يسمع برجل مال إلى النبي ﷺ إلا سلط عليه واحدة منها ، تطعمه وتسقيه ، وتغفي له ، حتى لا يبقى له ميل إلى الإسلام ، وفيه نزل قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشَرِّي لَهُوَ الْحَدِيثُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ »^(٢) .

٤ - مساومات حاولوا بها أن يلتقي الإسلام والماهليّة في منتصف الطريق بأن يترك المشركون بعض ما هم عليه ، ويترك النبي ﷺ بعض ما هو عليه (« وَدُؤُلُوتَدِهْنُ فِيَدِهْنُونَ ») (٦٨ : ٩) فهناك رواية ابن جرير والطبراني تفيد أن المشركين عرضوا على رسول الله ﷺ أن يعبد آلهتهم عاماً ، ويعبدون ربهم عاماً . ورواية أخرى لعبد بن حميد تفيد أنهم قالوا : لو قبلت آلهتنا نعبد إلهك^(٣) .

وروى ابن إسحاق بسنده ، قال : اعرض رسول الله ﷺ - وهو يطوف بالکعبة -

(١) ابن هشام ١/٢٩٩ ، ٣٥٨ ، ٣٠٠ ، ٣٥٨ ، وتفہم القرآن ٤/٨ ، ٩ ، خنصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله التجدی ص ١١٧ ، ١١٨ .

(٢) تفہم القرآن ٤/٩ .

(٣) تفہم القرآن ٦/٥٠١ ، ٢٠٥ .

الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وال العاص بن وائل السهمى - وكانوا ذوى أسنان في قومهم - فقالوا يا محمد هلم فلتعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنتم قد أخذت بحظك منه ، فائز الله تعالى فيهم ﴿ قُلْ يَأْتِيَهَا الْكَافِرُونَ ﴾ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ السورة كلها ﴿٢﴾ .

وحسن الله مفاوضتهم المضحكه بهذه المفاصلة الحازمة .

ولعل اختلاف الروايات لأجل أنهم حاولوا هذه المسماومة مرة بعد أخرى .

الاضطهادات:

أعمل المشركون الأساليب التي ذكرناها شيئاً فشيئاً لكتف الدعوة بعد ظهورها في بداية السنة الرابعة من النبوة ، ومضت على ذلك أسابيع وشهور وهم مقتصرن على هذه الأساليب ، لا يتجاوزونها إلى طريق الاضطهاد والتعذيب ، ولكنهم لما رأوا أن هذه الأساليب لا تجدي لهم نفعاً في كف الدعوة الإسلامية ؛ اجتمعوا مرة أخرى ، وكونوا منهم لجنة أعضاؤها خمسة وعشرون رجلاً من سادات قريش ، رئيسها أبو هب عم رسول الله ﷺ ، وبعد التشاور والتفكير اتخذت هذه اللجنة قراراً حاسماً ضد رسول الله ﷺ ، وضد أصحابه . فقررت أن لا تألو جهداً في محاربة الإسلام ، وإيذاء رسوله ، وتعذيب الداخلين فيه ، والتعرض لهم بألوان من النكال والإيلام ﴿٣﴾ .

اتخذوا هذا القرار وصمموا على تنفيذه . أما بالنسبة إلى المسلمين - ولا سيما المستضعفين منهم - فكان ذلك سهلاً جداً . وأما بالنسبة إلى رسول الله ﷺ فإنه كان رجلاً شهماً وقوياً ذات شخصية فذلة ، تتعاظمه نفوس الأعداء والأصدقاء ، بحيث لا يقابل مثلها إلا بالإجلال والتشريف ، ولا يجترىء على اقتراف الدنيا والرذائل ضده إلا أراذل الناس وسفهاؤهم ، ومع ذلك كان في منعة أبي طالب ، وأبو طالب من رجال مكة المعدودين ، كان معظمماً في أصله ، معظماً بين الناس ، فما يجسر أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته ، إن هذا الوضع أفلق قريشاً

(١) ابن مثام ١/٣٦٢ .

(٢) رحمة للعلميين ١/٥٩ ، ٦٠ .

وأقامهم وأعدهم ، ولكن إلام هذا الصبر الطويل أمام دعوة تشوف إلى القضاء على زعامتهم الدينية ، وصدارتهم الدنيوية .

وببدأوا الاعتداءات ضد النبي ﷺ ، وعلى رأسهم أبو هب ، فقد اتخذ موقفه هذا من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول قبل أن تهم قريش بذلك . وقد أسلفنا ما فعل بالنبي ﷺ في مجلس بنى هاشم ، وما فعل على الصفا ، وقد ورد في بعض الروايات أنه – حينما كان على الصفا – أخذ حجراً ليضرب به النبي ﷺ^(١) .

وكان أبو هب قد زوج ولديه عتبة وعتبة بنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبلبعثة ، فلما كانت البعثة أمرها بتطليقهما بعنف وشدة ، حتى طلقاهما^(٢) .

ولما مات عبد الله – الابن الثاني لرسول الله ﷺ – استبشر أبو هب ، وهرول إلى رفاته يبشرهم بأنَّ محمداً صار أبتر^(٣) .

وقد أسلفنا أنَّ أبي هب كان يحول خلف النبي ﷺ في موسم الحج والأسواق لتكتذيبه ، وقد روى طارق بن عبد الله المخاربي ما يفيد أنه كان لا يقتصر على التكذيب ، بل كان يضر به بالحجر حتى يدمى عقباه^(٤) .

وكانت امرأة أبي هب – أم جيل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان – لا تقل عن زوجها في عداوة النبي ﷺ ، فقد كانت تحمل الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ليلاً ، وكانت امرأة سليطة تسط في لسانها ، وتطليل عليه الاقراء والدنس ، وتؤجج نار الفتنة ، وتثير حرباً شعواء على النبي ﷺ ، ولذلك وصفها القرآن بمحاللة الخطب .

ولما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر الصديق ، وفي يدها فهر (أي بمقدار ملء الكف) من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله يبصرها عن رسول الله ﷺ ، فلا ترى إلا أبي بكر ، فقالت : يا أبي بكر ! أين صاحبك ؟ قد بلغني أنه يهجوني ، والله لو وجدته لضررت بهذا الفهر فاه ، أما

(١) روى ذلك الترمذى .

(٢) في ظلال القرآن ٢٨٢/٣ ، تفهم القرآن ٥٢٢/٦ .

(٣) تفهم القرآن ٤٩٠/٦ .

(٤) جامع الترمذى .

والله إني لشاعرة . ثم قالت :

مذمماً عصينا * وأمره أبينا * ودينه قلينا

ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأتك ؟ فقال : ما رأته ، لقد أخذ الله ببصرها عني ^(١) .

وروى أبو بكر البزار هذه القصة . وفيها أنها لما وقفت على أبي بكر قالت : « أبا بكر هجانا صاحبك ، فقال أبو بكر : لا ورب هذه البناء ، ما ينطق بالشعر ولا يتغوه به ، فقالت : إنك لصدق » .

كان أبو هب يفعل كل ذلك وهو عم رسول الله عليه صلوات الله وحشه ، كان بيته ملصقاً بيته ، كما كان غيره من جيران رسول الله عليه صلوات الله يؤذونه وهو في بيته .

قال ابن إسحاق : كان النفر الذين يؤذون رسول الله عليه صلوات الله في بيته أبا هب ، والحكم بن أبي العاص بن أمية ، وعقبة بن أبي معيط ، وعدى بن حمزة الثقفي ، وابن الأصداء الهمذلي - و كانوا جيرانه - لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص ^(٢) ، فكان أحدهم يطرح عليه صلوات الله رحم الشاة وهو يصلى ، وكان أحدهم يطرحها في برمنته إذا نصبته له ، حتى اخذ رسول الله عليه صلوات الله حجراً ليستتر به منهم إذا صلى ، فكان رسول الله عليه صلوات الله إذا طرحا علىه ذلك الأذى يخرج به على العود ، فيقف به على بابه ، ثم يقول : يا بني عبد مناف ! أي جوار هذا ؟ ثم يلقيه في الطريق ^(٣) .

وازداد عقبة بن أبي معيط في شقاوته وخبيثه ، فقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أن النبي عليه صلوات الله كان يصلى عند البيت وأبو جهل وأصحابه له جلوس ، إذ قال بعضهم لبعض أياكم يجيء بسلام جزوربني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد . فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبي معيط) ^(٤) فجاء به فنظر ، حتى إذا سجد النبي الله وضع على ظهره بين كفيه ، وأنا أنظر ، لا أغنى شيئاً ، لو كانت لي منعة ، قال : فجعلوا يضحكون ،

(١) انظر سيرة ابن هشام ١/٣٣٥ ، ٣٣٦ .

(٢) هو أبو الخليفة الأموي مروان بن الحكم .

(٣) ابن هشام ١/٤١٦ .

(٤) صرح بذلك في صحيح البخاري نفسه ١/٥٤٣ .

ويحيل بعضهم على بعض (أي يتمايل بعضهم على بعض مرحًا وبطراً)، ورسول الله ﷺ ساجد، لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة، فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه، ثم قال: اللهم عليك بقريش ثلاث مرات، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم، وقال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمي اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط – وعد السابع فلم يحفظه – فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذي عَذَّ رسول الله ﷺ صرعى في القليب، قليب بدر^(١).

وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزة ولده. وفيه نزل: ﴿وَيَلِّ
كُلَّ هَمَزَةٍ لَتُنَزَّ﴾ قال ابن هشام: الهمزة: الذي يشتم الرجل علانية، ويكسر عينيه،
ويغمز به. والهمزة: الذي يعيي الناس سراً ويؤذيهم^(٢).

أما أخوه أبي بن خلف فكان هو وعقبة بن أبي معيط متصافين. وجلس عقبة مرة إلى النبي ﷺ وسمع منه، فلما بلغ ذلك أبياً آتاهه وعاتبه وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله ﷺ ففعل. وأبي بن خلف نفسه فت عظماً رمياً ثم نفخه في الرياح نحو رسول الله ﷺ^(٣).

وكان الأحس بن شريق الشعفي من ينال من رسول الله ﷺ، وقد وصفه القرآن بـ^{١٠}
صفات تدل على ما كان عليه، وهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْنُ كُلَّ حَلَافٍ مَّهِينٍ﴾ ^{١١} هَمَّازٌ مَّشَّاعٌ
^{١٢} يَنْسِيمٌ ^{١٣} مَنَاعٌ لِّتَغْرِيْرٍ مُّعْتَدِّلٌ أَشِيمٌ ^{١٤} عَثَّلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ . (٦٨: ١٠ - ١٣).

(١) صحيح البخاري، كتاب الموضوع، باب إذا ألقى على المصلى قنف أو جفنة ٣٧/١.

(۲) ابن هشام ۱/۳۰۶، ۳۰۷

(٣) نفس المصدر ١/٣٦٢، ٣٦١.

(٤) في ظلال القرآن ٢٩/٢١٢

والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً. فأنزل **﴿فَلَيْلَةُ نَادِيَّهُ﴾**^(١). وفي رواية أن النبي ﷺ أخذ بخناقه، وهزه، وهو يقول له: **﴿فَأَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى مُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾**^(٢) ف قال عدو الله: أتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً، واني لأعز من مشي بين جبليها^(٣).

ولم يكن أبو جهل ليغيب من غباوته بعد هذا الانهيار، بل ازداد شقاوة فيما بعد. أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم! فقال: واللات والعزي، لعن رأيته لأطأن على رقبته ولأغفرن وجهه، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلی، زعم ليطاً رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقيبه ويتنقى بيديه، فقالوا: ما لك يا أبي الحكم؟ قال: إن بيبي وبينه خندقاً من نار وهو لاء أجنحة، فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً^(٤).

كانت هذه الاعتداءات بالنسبة إلى النبي ﷺ مع ما لشخصيته الفذة من وقار وجلال في نفوس العامة والخاصة، ومع ما له من منعة أبي طالب أعظم رجل محترم في مكة، أما بالنسبة إلى المسلمين – ولا سيما الضعفاء منهم – فإن الإجراءات كانت أقسى من ذلك وأمر، ففي نفس الوقت قامت كل قبيلة تعذب من دان منها بالإسلام أنواعاً من التعذيب، ومن لم يكن له قبيلة فأحرجت عليهم الأوباش والسدادات أولاناً من الاضطهاد، يفرز من ذكرها قلب الحليم.

كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أئبته وأخزاءه، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال، والجاه، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به^(٥). وكان عم عثمان بن عفان يلفه في حصير من أوراق التخليل ثم يدخلنه من تحته^(٦). ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أجاعتته وأخرجته من بيته، وكان من أنعم الناس عيشاً، فتخشف جلدته تخشف الحياة^(٧).

(١) نفس المصدر .٢٠٨/٣٠

(٢) نفس المصدر .٣١٢/٢٩

(٣) رواه مسلم في صحيحه.

(٤) ابن هشام /١ .٣٢٠/١

(٥) رحمة للعالمين .٥٧/١

(٦) نفس المصدر /١ ، ٥٨/١، وتلقيع فهوم أهل الأثر ص .٦٠

وكان بلال مولى أمية بن خلف الجمحي ، فكان أمية يضع في عنقه حبلًا ، ثم يسلمه إلى الصبيان ، يطوفون به في جبال مكة ، حتى كان يظهر أثر الحبل في عنقه ، وكان أمية يشده شدًّا ثم يضره بالعصا ، وكان يلجهه إلى الجلوس في حر الشمس ، كما كان يكرهه على الجوع ، وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجه إذا حيت الظهيرة فيطرحه في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى . فيقول – وهو في ذلك – أحد ، أحد ، حتى مر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون ذلك به ، فاشتراه بغلام أسود ، وقيل بسبع أواق أو بخمس من الفضة وأعتقده^(١) .

وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه مولى لبني خزوم ، أسلم هو وأبوه وأمه ، فكان المشركون – وعلى رأسهم أبو جهل – يخرجونهم إلى الأبطح إذا حيت الرمضان ، فيعدذبونهم بحرها . ومر بهم النبي عليه السلام وهم يعدذبون فقال : صبراً آل ياسر ! فإن موعدكم الجنة ، فمات ياسر في العذاب ، وطعن أبو جهل سمية – أم عمار – في قبلاها بحربة فماتت ، وهي أول شهيدة في الإسلام ، وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة ، وبوضع الصخر أحمر على صدره أخرى ، وبالنغريق أخرى . وقالوا : لا تتركك حتى تسب محمداً ، أو تقول : في اللات والعزى خيراً ، فوافقهم على ذكر مكرها ، وجاء باكيًا متذرعاً إلى النبي عليه السلام ، فأنزل الله ﷺ من كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ حَلَّ أَمَّا مُؤْمِنٌ أَكْثَرُهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بِالْإِيمَانِ ﴿١٦﴾ (٢) .

وكان أبو فكيهة – واسمها أفلح – مولى لبني عبد الدار ، فكانوا يشدون برجله الحبل ، ثم يجروننه على الأرض^(٣) .

وكان خباب بن الأرت مولى لأم أمغار بنت سباع الخزاعية ، فكان المشركون يذريونه أنواعاً من التنكيل ، يأخذون بشعر رأسه فيجدونه جذباً ، ويلوون عنقه تلوية عنيفة وأضجعواه مرات عديدة على فحام ملتهبة ، ثم وضعوا عليه حجراً ؛ حتى لا يستطيع أن يقوم^(٤) .

(١) رحمة للعلميين ٥٧/١ ، تلقيح الفهوم ص ٦١ ، ابن هشام ٣١٧/١ ، ٣١٨ .

(٢) ابن هشام ٣١٩/١ ، ٣٢٠ ، ٣٢٠ ، فقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٨٢ وروى بعض ذلك العوفي عن ابن عباس ، انظر مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص ٩٢ .

(٣) رحمة للعلميين ٥٧/١ ، من إعجاز التنزيل ص ٥٣ .

(٤) نفس المصدر ٥٧/١ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٦٠ .

وكانت زنيرة والهدية وابتها وأم عبيس إماء أسلم ، وكان المشركون يسمونهن من العذاب أمثال ما ذكرنا . وأسلمت جارية لبني مؤمل – وهم حي من بني عدي – فكان عمر بن الخطاب – وهو يومئذ مشرك – يضر بها ، حتى إذا مل قال : إني لم أتركك إلا ملاة^(١) .

وابتاع أبو بكر هذه الجواري فأعتقهن ، كما أعتق بلاً وعامر بن فهيرة^(٢) .

وكان المشركون يلفون بعض الصحابة في إهاب الإبل والبقر ، ثم يلقونه في حر الرمضاء ، ويلبسون بعضاً آخر درعاً من الحديد ثم يلقونه على صخرة ملتهبة^(٣) .

وقائمة المعذبين في الله طويلة ومؤلمة جداً ، فما من أحد علموا بإسلامه إلا تصدوا له وأذوه .

دار الأرق:

كان من الحكمة تلقاء هذه الاضطهادات أن يمنع رسول الله ﷺ المسلمين عن إعلان إسلامهم قوله أو فعلأً ، وأن لا يجتمع بهم إلا سراً ؛ لأنه إذا اجتمع بهم علنا فلا شك أن المشركين يحولون بينه وبين ما يريد من تركيبة المسلمين وتعليمهم الكتاب والحكمة ، وربما يفضي ذلك إلى مصادمة الفريقين ، بل وقع ذلك فعلأً في السنة الرابعة من النبوة ، وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون في الشعاب ، فيصلون فيها سراً ، فرأهم نفر من كفار قريش ، فسبوهم وقاتلوهم ، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً فسال دمه ، وكان أول دم أهريق في الإسلام^(٤) .

ومعلوم أن المصاومة لو تعددت وطالت لأفضت إلى تدمير المسلمين وإبادتهم ، فكان من الحكمة الاختفاء ، فكان عامة الصحابة يخفون إسلامهم وعبادتهم ودعوتهم واجتماعهم ، أما رسول الله ﷺ فكان يجهز بالدعوة والعبادة بين ظهاري المشركين ، لا يصرفه عن ذلك شيء ، ولكن كان يجتمع مع المسلمين سراً ؛ نظراً لصالحهم وصالح الإسلام ، وكانت دار الأرق بن

(١) رحمة للعلميين ٥٧/١ ، ابن هشام ٣١٩/١ .

(٢) ابن هشام ٣١٨/١ ، ٣١٩ .

(٣) رحمة للعلميين ٥٨/١ .

(٤) ابن هشام ٢٦٣/١ ، مختصر سيرة الرسول محمد بن عبد الوهاب ص ٦٠ .

أبي الأرقم المخزومي على الصفا . وكانت بعزل عن أعين الطفاة ومحالسهم ، فكان أن اخذها مركزاً للدعوه ، ولاجتاعه بال المسلمين من السنة الخامسة من النبوة^(١) .

الهجرة الأولى إلى الحبشة:

كانت بداية الاضطهادات في أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة ، بدأت ضعيفة ، ثم لم تزل يوماً وشهراً فشراً حتى اشتدت وتفاقمت في أواسط السنة الخامسة ، حتى نبا بهم المقام في مكة ، وأوعزتهم أن يفكروا في حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم ، وفي هذه الساعة الضنكـة الحالـكة نـزلـت سـورـةـ الـكـهـفـ ، رـدـوـدـاـ عـلـىـ أـسـلـةـ أـدـلـ بـهـ المـشـرـكـونـ إـلـىـ النـبـيـ ﷺـ ، وـلـكـهـ اـشـتـملـتـ عـلـىـ ثـلـاثـ قـصـصـ ، فـيـهاـ إـشـارـاتـ بـلـيـفـةـ مـنـ اللهـ تـعـالـىـ إـلـىـ عـبـادـ الـمـؤـمـنـينـ ، فـقـصـةـ أـصـحـابـ الـكـهـفـ تـرـشـدـ إـلـىـ الـهـجـرـةـ مـنـ مـاـكـرـ الـكـفـرـ وـالـعـدـوـانـ حـيـنـ مـخـافـةـ الـفـتـنـ عـلـىـ الـدـيـنـ ، مـتـوكـلاـ عـلـىـ اللهـ هـ وـإـذـ أـعـزـلـتـ مـوـهـمـ وـمـاـيـقـبـلـوـهـ إـلـاـ اللـهـ فـأـوـأـ إـلـىـ الـكـهـفـ يـنـشـرـلـكـمـ رـبـيـكـمـ مـنـ رـحـمـتـهـ ، وـيـهـيـئـلـكـمـ مـنـ أـمـرـكـمـ مـرـفـقاـ هـ)١٨ : ١٦(.

وقصة الخضر وموسى تفيد أن الظروف لا تجري ولا تنبع حسب الظاهر دائماً ، بل ربما يكون الأمر على عكس كامل بالنسبة إلى الظاهر . ففيها إشارة لطيفة إلى أن الحرب القائمة ضد المسلمين ستتعكس تماماً ، وسيتصادر هؤلاء الطغاة المشركون – إن لم يؤمنوا – أمام هؤلاء الضعفاء المدحورين من المسلمين .

وقصة ذي القرين تفيد أن الأرض الله يورثها من عباده من يشاء . وأن الفلاح إنما هو في سبيل الإيمان دون الكفر ، وأن الله لا يزال يبعث من عباده – بين آونة وأخرى – من يقوم بإنجاء الضعفاء من يأجوج ذلك الزمان وما جوجه ، وأن الأحق بإرث الأرض إنما هم عباد الله الصالحون . ثم نزلت سورة الزمر تشير إلى الهجرة ، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة هـ لـلـذـيـنـ أـخـسـتـوـفـ هـذـهـ الـدـيـنـاـ حـكـسـةـ هـ وـأـرـضـ اللهـ وـاسـعـةـ إـنـمـاـيـوـقـ الـصـنـرـوـنـ أـجـرـهـمـ بـغـيرـ حـسـابـ هـ)٣٩ : ١٠(وكان رسول الله ﷺ قد علم أن أصحمة النجاشي ملك الحبشة ملك عادل ، لا يظلم عنده أحد ، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهـمـ منـ الفتـنـ .

وفي رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة . كان مكوناً من

(١) نفس المصدر الأخير ص ٦١ .

اثني عشر رجلاً وأربع نسوة ، رئيسهم عثمان بن عفان ، ومعه السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ ، وقد قال النبي ﷺ فيما : إنما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهمما السلام^(١) .

كان رحيل هؤلاء تسللا في ظلمة الليل – حتى لا تفطن لهم قريش – خرجوا إلى البحر ، ويسموا ميناء شعيبة ، وقيضت لهم الأقدار سفيتين تجاريتن أبحرتا بهم إلى الحبشة ، وفطنت لهم قريش ، فخرجت في آثارهم ، لكن لما بلغت إلى الشاطيء كانوا قد انطلقاً آمنين ، وأقام المسلمون في الحبشة في أحسن جوار^(٢) .

وفي رمضان من نفس السنة خرج النبي ﷺ إلى الحرم ، وهناك جمع كبير من قريش ، كان فيه ساداتها وكراؤها ، فقام فيهم ، وأخذ يتلو سورة النجم بعنة ، إن أولئك الكفار لم يكونوا سمعوا كلام الله قبل ذلك ، لأن أسلوبهم المتواصل كان هو العمل بما تواصى به بعضهم بعضاً ، من قوله ﴿لَا سَمْعًا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَلَفْوًا فِيهِ لَعْلَكُمْ تَغْبَلُونَ﴾ (٤١ : ٢٦) فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة ، وقع آذانهم كلام الهي رائع خلاب – لا يحيط بروعته وجلالته البيان – تفانوا عما هم فيه ، وبقي كل واحد مصغياً إليه ، لا ينطر بياله شيء سواه ، حتى إذا تلا في خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب ثم قرأ ﴿فَاتَّجَدُ رَأْلَهُ وَأَعْبُدُوا﴾ (٥٣ : ٦٢) ثم سجد ، لم يبالك أحد نفسه حتى خر ساجداً ، وفي الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين ، فما تمالكو أن يخروا لله ساجدين^(٣) .

وسقط في أيديهم لما أحسوا أن جلال كلام الله لو زمامهم ، فارتکبوا عين ما كانوا يبذلون قصارى جهدهم في محوه وإفائه ، وقد توالي عليهم اللوم والعتاب من كل جانب ، من لم يحضر هذا المشهد من المشركين ، وعند ذلك كذبوا على رسول الله ﷺ واقفروا عليه أنه عطف على أصنامهم بكلمة تقدير ، وأنه قال عنها « تلك الغرانيق العلي ، وإن شفاعتهن لترتجي » ، جاءعوا بهذا الإفك المبين ، ليعتذرلوا عن سجودهم مع النبي ﷺ ، وليس يستغرب هذا من قوم كانوا

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجاشي ص ٩٢ ، ٩٣ ، زاد المعا德 ٢٤/١ ، رحمة للعالمين ٦١/١ .

(٢) رحمة للعالمين ٦١/١ ، زاد المعا德 ٢٤/١ .

(٣) روی البخاري قصة السجود مختصرأ عن ابن مسعود وابن عباس ، انظر باب سجدة النجم وباب سجود المسلمين والمشركين ١٤٦/١ ، وباب ما لقى النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ٥٤٣/١ .

يُؤلفون الكذب ، ويطبلون الدس والاقراء^(١) .

بلغ هذا الخبر إلى مهاجري الحبشة ، ولكن في صورة تختلف تماماً عن صورته الحقيقة ، بلغهم أن قريشاً أسلمت ، فرجعوا إلى مكة في شوال من نفس السنة ، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار ، وعرفوا جلية الأمر ، رجع منهم من رجع إلى الحبشة ، ولم يدخل في مكة من سائرهم أحد إلا مستخفياً ، أو في جوار رجل من قريش^(٢) .

ثم اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش ، وسطت بهم عشائرهم ، فقد كان صعب على قريش ما بلغها عن النجاشي من حسن الجوار ، ولم ير رسول الله ﷺ بدا من أن يشير على أصحابه بال مجرة إلى الحبشة مرة أخرى ، وكانت هذه المجرة الثانية أشق من سابقتها ، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها ، ييد أن المسلمين كانوا أسع ، ويسر الله لهم السفر فانحازوا إلى نجاشي الحبشة قبل أن يدركوا .

وفي هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان فيهم عمار ، فإنه يشك فيه ، وثمان عشرة أو تسع عشرة امرأة^(٣) . وبالأول جزم العلامة محمد سليمان المنصورفوري^(٤) .

مكيدة قريش بـمهاجري الحبشة:

عز على المشركين أن يجد المهاجرون مأمناً لأنفسهم ودينيهم ، فاختاروا رجلين جليدين لبيبين ، وهما : عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة – قبل أن يسلما – وأرسلوا معهما المدايا المستطرفة للنجاشي ولبطارقة ، وبعد أن ساق الرجالان تلك المدايا إلى البطارقة ، وزوداهما بالحجج التي يطرد بها أولئك المسلمين ، وبعد أن انفتت البطارقة أن يشيروا على النجاشي بإقصائهم ، حضرا إلى النجاشي ، وقدما له المدايا ثم كلماه ، فقالا له :

أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من

(١) تفهم القرآن ٥/١٨٨ وإلى هذا التوجيه جنح المحققون في حديث الغرانيق .

(٢) نفس المصدر ٥/١٨٨ . زاد المعاد ١/٢٤ ، ٢/٤٤ ، ٤٤/٢ ، وابن هشام ١/٣٦٤ .

(٣) انظر زاد المعاد ١/٢٤ ، رحمة للعالمين ١/٦١ .

(٤) انظر المصدر الأخر .

آباءهم وأعمامهم وعشائرهم ، لتردّهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوا بهم فيه .

وقالت البطارقة : صدق أباها الملك ، فأسلمهم إليهما ، فليرداهم إلى قومهم وببلادهم .

ولكن رأى النجاشي أنه لا بد من تمحیص القضية ، وسماع أطرافها جميعاً ، فأرسل إلى المسلمين ، ودعاهم ، فحضرها ، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كائناً ما كان . فقال لهم النجاشي : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل ؟

قال جعفر بن أبي طالب - وكان هو المتكلم عن المسلمين - : أباها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل منا القوي الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبة وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونبعده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباءنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحaram والدماء ، ونهاينا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقدف المحسنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلوة والزكاة والصيام - فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه ، وأمنا به ، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فغذبنا ، وفتننا عن ديننا ، ليروننا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهروا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجننا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبتنا في جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أباها الملك .

قال له النجاشي : هل ملك ما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال له جعفر : نعم ! فقال له النجاشي : فاقرأ عليه صدرأ من **﴿كَمَيْعَص﴾** فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال لهم النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون - يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه - فخرجا ، وقال عمرو بن العاص لعبد الله بن

ربيعة: والله لآتنيهم غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم. فقال له عبد الله بن ربيعة: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا، ولكن أصر عمرو على رأيه.

فلما كان الغد قال للنجاشي: أيها الملك! إنهم يقولون في عيسى بن مريم قوله عظيماً، فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح، ففرعوا، ولكن أجمعوا على الصدق، كائناً ما كان، فلما دخلوا عليه، وسائلهم قال له جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هو عبد الله رسوله وروحه وكلمة ألقاها إلى مريم العذراء البتوء.

فأخذ النجاشي عوداً من الأرض، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، فتناحرت بطارقته، فقال: وإن نخرتم والله.

ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي – والشيمون: الآمنون بلسان الحبشة – من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبراً من ذهب وأني آذيت رجالاً منكم – والدير الجبل بلسان الحبشة.

ثم قال لحاشيته: ردوا عليهم هداياهم، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه.

قالت أم سلمة التي تروي هذه القصة: فخرجوا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاعوا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار^(١).

هذه رواية ابن إسحق، وذكر غيره أن وفادة عمرو بن العاص إلى النجاشي كانت بعد بدر، وجمع بعضهم بأن الوفادة كانت مرتين^(٢) لكن الأسئلة والأجوبة التي ذكرها أنها دارت بين النجاشي وجعفر في الوفادة الثانية هي نفس الأسئلة والأجوبة التي ذكرها ابن إسحق تقريراً، ثم إن تلك الأسئلة تدل لفحواها أنها كانت في أول مراجعة قدمت إلى النجاشي.

أخفقت حيلة المشركين، وفشل مكيدتهم، وعرفوا أنهم لا يشيعون ضغبيتهم إلا في حدود سلطانهم، ونشأت فيهم من أجل ذلك فكرة رهيبة. رأوا أن التفصي عن هذه «الداهية» لا يمكن إلا بكاف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن دعوته تماماً، ولا فباءً عداته، ولكن كيف السبيل إلى

(١) ابن هشام ملخصاً ٣٣٤/١، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨.

(٢) مختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي ص ٩٦، ٩٧، ٩٨، وفي تلك الصفحات تفصيل الأسئلة والأجوبة.

ذلك وأبو طالب يحوطه ويحول بينه وبينهم ؟ رأوا أن يواجهوا أبا طالب في هذا الصدد .

قريش يهددون أبا طالب :

جاءت سادات قريش إلى أبي طالب فقالوا له : يا أبا طالب إن لك سنًا وشرفاً ومتلة فيها . وإنما قد استهيناك من ابن أخيك فلم تنه ، وإنما والله لا نصیر على هذا ، من شتم آبائنا ، وتسيفي أحلامنا ، وعيّب آهتنا ، حتى تکفه عنا ، أو نناظره وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

عظم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد ، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، فأبقي علىَ وعلى نفسك ، ولا تخمني من الأمر ما لا أطيق ، فظن رسول الله ﷺ أن عممه خاذله ، وأنه ضعُف عن نصرته ، فقال : يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر – حتى يظهره الله أو أهلك فيه – ما تركته ، ثم استعبر وبكي ، وقام ، فلما ولَى ناداه أبو طالب فلما أقبل قال له : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً^(١) .

وأنشد :

وَاللَّهُ لَنْ يَصْلِلُوا إِلَيْكَ بِجَمِيعِهِمْ حَتَّىٰ أَوْسَدْ فِي التَّرَابِ دَفِنَا
فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةً وَأَبْشِرْ وَقْرَ بِذَاكَ مِنْكَ عَيْوَنَا^(٢)

قريش بين يدي أبي طالب مرة أخرى :

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماض في عمله ؛ وعرفت أن أبا طالب قد أدى خذلان رسول الله ﷺ ، وأنه جمع لفراهم وعداوتهم في ذلك ، فذهبوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا له : يا أبا طالب إن هذا الفتى أنهى في قريش وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره ، واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم ، فقتله ، فإنما هو رجل برجل ، فقال : والله ليس ما تسمونني ، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونه . هذا والله ما لا يكون أبداً . فقال المطعم بن

(١) ابن هشام ١، ٢٦٦، ٢٦٥ .

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجاشي ص ٦٨ .

عدي بن نوفل بن عبد مناف : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً ، فقال : والله ما أنصفتوني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ ، فاصنع ما بدا لك^(١) .

لا تذكر المصادر التاريخية زمن هاتين الوفادتين ، لكن يبدو بعد التأمل في القرائن والشهادات أنها كانتا في أواسط السنة السادسة من النبوة ، وأن الفصل بين الوفادتين لم يكن إلا يسيراً .

فكرة الطغاة في إعدام النبي - ﷺ -

بعد فشل قريش وخبيتهم في الوفادتين عادوا إلى ضراوتهم وتنكيلهم بأشد مما كان قبل ذلك ، وخلال هذه الأيام نشأت في طغائهم فكرة إعدامه ﷺ بطريق أخرى ، وكانت هذه الفكرة وتلك الضراوة هي التي سببت في تقوية الإسلام ببطلين جليلين من أبطال مكة ، وهما : حمزة بن عبد المطلب ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم .

فمن تلك الضراوة أن عتبية بن أبي هلب أتى يوماً إلى رسول الله ﷺ فقال : أنا أكفر بـ « وأَلْجِمْ إِذَا هَوَى » و بالذى « دَنَافَدَنَّا » ثم تسلط عليه بالأذى ، وشق قميصه ، وتفل في وجهه ، إلا أن البزاق لم يقع عليه ، وحيثند ذعا عليه النبي ﷺ وقال : « اللهم سلط عليه كلباً من كلابك » ، وقد استجيب دعاؤه ﷺ ، فقد خرج عتبية مرة في نفر من قريش ، حتى نزلوا في مكان من الشام يقال له الزرقاء ، فطاف بهم الأسد تلك الليلة ، فجعل عتبية يقول : يا ويل أخي ، هو والله أكلى كذا دعا محمد عليّ ، قتلني وهو بمكة ، وأنا بالشام ، فعدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه^(٢) .

ومنها ما ذكر أن عقبة بن أبي معيط وطيء على رقبته الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان^(٣) .

(١) ابن هشام ١/٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٢) تفهم القرآن ٦/٥٢٢ ، من الاستيعاب ، والإصابة ، ودلائل النبوة ، والروض الأنف ، وختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٣٥ .

(٣) نفس المصدر الأخير ص ١١٣ .

وَمَا يَدْلِ عَلَى أَن طَغَتْهُمْ كَانُوا يَرِيدُونَ قَتْلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ ،
قَالَ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ :

يَا مُعْشِرَ قَرِيشٍ إِنْ مُحَمَّداً قَدْ أَبَى إِلَّا مَا تَرَوْنَ مِنْ عَيْبٍ دِينَنَا ، وَشَتَّمْ آبائِنَا ، وَتَسْفِيهِ
أَحَلَّمَا ، وَشَتَّمْ آهَنَتَا ، وَإِنِّي أَعاهَدُ اللَّهَ لِأَجْلِسِنَ لَهُ بَحْرَ مَا أَطْيَقَ حَمْلَهُ ، فَإِذَا سَجَدَ فِي صَلَاتِهِ
فَضَخَّتْ بِهِ رَأْسَهُ ، فَأَسْلَمُونِي عَنْدَ ذَلِكَ أَوْ امْتَعَنِي ، فَلَيَصْنَعَ بَعْدَ ذَلِكَ بْنُ عَبْدِ مَنَافَ مَا بَدَا
لَهُمْ ، قَالُوا : وَاللَّهِ لَا نَسْلِمُكَ لِشَيْءٍ أَبْدَأَ ، فَامْضِ لِمَا تَرِيدُ .

فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو جَهْلٍ ، أَخْذَ حَجْرًا كَمَا وَصَفَ ، ثُمَّ جَلَسَ لِرَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْتَظِرُهُ ، وَغَدَّا
رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا كَانَ يَغْدُو ، فَقَامَ يَصْلِي ، وَقَدْ غَدَتْ قَرِيشٌ فَجَلَسُوا فِي أَنْدِيَتِهِمْ ، يَنْتَظِرُونَ
مَا أَبْوَ جَهْلٍ فَاعْلَمُ ، فَلَمَّا سَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، احْتَمَلَ أَبُو جَهْلٍ الْحَجْرَ ، ثُمَّ أَقْبَلَ نَحْوَهُ ، حَتَّى
إِذَا دَنَا مِنْهُ رَجَعَ مِنْهُ زَمَانًا مِنْتَقِعًا لَوْنَهُ ، مَرْعُوبًا قَدْ يَسْتَيْرِي يَدَاهُ عَلَى حَجْرِهِ ، حَتَّى قَذَفَ الْحَجْرَ مِنْ
يَدِهِ ، وَقَامَ إِلَيْهِ رَجَالُ قَرِيشٍ فَقَالُوا لَهُ : مَالِكٌ يَا أَبَا الْحَكْمِ؟ قَالَ : قَمْتُ إِلَيْهِ لِأَفْعَلَ بِهِ مَا قَلْتُ
لَكُمُ الْبَارِحةَ ، فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ عَرَضَ لِي دُونَهُ فَحْلٌ مِنَ الْإِبْلِ ، لَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَامَتِهِ ،
وَلَا مِثْلُ قَصْرَتِهِ وَلَا أَنْيابِهِ لَفَحْلٌ قَطُّ ، فَهُمْ يَبْيَأُونِي أَنْ يَأْكُلَنِي .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَذَكَرَ لِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : ذَلِكَ جَبَرِيلٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَوْ دَنَ
لِأَخْذِهِ^(۱) .

وَبَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَ أَبُو جَهْلٍ بِرَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، مَا أَدَى إِلَى إِسْلَامِ حَمْزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
وَسِيَّاطِي .

أَمَا طَغَاءُ قَرِيشٍ فَلَمْ تَرُلْ فَكْرَةُ الْإِعدَامِ تَنْضَجْ فِي قُلُوبِهِمْ ، رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عُمَرَ بْنِ الْعَاصِ قَالَ : حَضَرُوهُمْ وَقَدْ اجْتَمَعُوا فِي الْحَجْرِ ، فَذَكَرُوا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالُوا :
مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ هَذَا الرَّجُلُ ، لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ ، فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ
إِذْ طَلَعَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَأَقْبَلَ يَمْشِي حَتَّى اسْتَلَمَ الرَّكْنَ ، ثُمَّ مَرَ بَهُمْ طَائِفًا بِالْبَيْتِ ، فَعَمَّزَوْهُ
بَعْضُ الْقَوْلِ ، فَعَرَفَتْ ذَلِكَ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَلَمَّا مَرَ بَهُمْ ثَانِيَةً غَمَّزَوْهُ بِمَثْلِهَا ، فَعَرَفَتْ
ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ ، ثُمَّ مَرَ بَهُمْ ثَالِثَةً فَعَمَّزَوْهُ بِمَثْلِهَا ، فَوَقَفَ ثُمَّ قَالَ : أَتَسْمَعُونَ يَا مُعْشِرَ قَرِيشٍ ، أَمَا

(۱) ابن هشام ۱/۲۹۸ - ۲۹۹ .

والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى إن أشدتهم فيه ليرفوه بأحسن ما يجد ، ويقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جيولاً .

فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به ، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه ، وقام أبو بكر دونه ، وهو ي يكنى ويقول : أنتلون رجلاً أن يقول رب الله ؟ ثم انصرفوا عنه . قال ابن عمرو : فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط^(١) . انتهى ملخصاً .

وفي رواية البخاري عن عروة بن الزبير قال : سألت ابن عمرو بن العاص أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ ، قال : يسألي النبي ﷺ يصلّي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فوضع ثوبه في عنقه ، فخفقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ، ودفعه عن النبي ، وقال : أنتلون رجلاً أن يقول رب الله ؟^(٢) .

وفي حديث أسماء : فأقى الصريح إلى أبي بكر ، فقال : أدرك صاحبك ، فخرج من عندنا ، وعليه غدائر أربع ، فخرج وهو يقول : أنتلون رجلاً أن يقول : رب الله ؟ فلهموا عنه ، وأقبلوا على أبي بكر ، فرجع إلينا لا ننس شيئاً من غدائره إلا رجع معنا^(٣) .

إسلام حمزة بن عبد المطلب:

خلال هذا الجو الملبد بسحائب الظلم والطغيان أضاء برق نور للمقهورين طريقهم ، إلا وهو إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، أسلم في أواخر السنة السادسة من النبوة ، والأغلب أنه أسلم في شهر ذي الحجة .

وسبب إسلامه أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ يوماً عند الصفا ، فآذاه ونال منه ، ورسول الله ﷺ ساكت لا يكلمه ، ثم ضربه أبو جهل بحجر في رأسه فشجه ، حتى نزف منه الدم ، ثم انصرف عنه إلى نادي قريش عند الكعبة ، فجلس معهم ، وكانت مولاً لعبد الله بن

(١) ابن هشام ١/٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٢) صحيح البخاري - باب ذكر ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ١/٥٤٤ .

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله التجدي ص ١١٣ .

جدعان في مسكن لها على الصفا ترى ذلك ، وأقبل حمزة من القفص متوجهاً قوسه ، فأخبرته المولا بما رأى من أبي جهل ، فغضب حمزة – وكان أعز فتى في قريش وأشد شكيمة – فخرج يسعى ، لم يقف لأحد ، معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد قام على رأسه ، وقال له : يا مصفر انته ، تشم ابن أخي وأنا على دينه؟ ثم ضربه بالقوس فشجه شجة منكرة ، فثار رجال من بني مخزوم – حي أبي جهل – وثار بنو هاشم – حي حمزة – فقال : أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإني سببت ابن أخيه سبباً قبيحاً^(١).

وكان إسلام حمزة أول الأمر أنفه رجل ألى أن يهان مولاه . ثم شرح الله صدره ، فاستمسك بالعروة الوثقى^(٢) ، واعتذر به المسلمين أيا اعتذار .

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

وخلال هذا الجو الملبد بسحائب الظلم والطغيان أضاء برق آخر أشد بريقاً وإضاءة من الأول ، ألا وهو إسلام عمر بن الخطاب ، أسلم في ذي الحجة سنة ست من النبوة^(٣) . بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة رضي الله عنه^(٤) . وكان النبي ﷺ قد دعا الله تعالى لإسلامه ، فقد أخرج الترمذى عن ابن عمر ، وصححه ، وأخرج الطبراني عن ابن مسعود وأنس أن النبي ﷺ قال : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجال إليك : بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام » فكان أحبهما إلى الله عمر رضي الله عنه^(٥) .

وبعد إدارة النظر في جميع الروايات التي رويت في إسلامه يبدو أن نزول الإسلام في قلبه كان تدريجياً ، ولكن قبل أن نسوق خلاصتها نرى أن نشير إلى ما كان يتمتع به رضي الله عنه من العواطف والمشاعر .

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٦٦ ، رحمة للعلميين ١/٦٨ ، ابن هشام ١/٢٩١ .

(٢) تدل عليه رواية ذكرها الشيخ عبد الله التجدي في مختصر السيرة ص ١٠١ .

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ١١ .

(٤) سئل رواية في ذلك .

(٥) الترمذى ، أبواب المناقب ، مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب ٢/٢٠٩ .

كان رضي الله تعالى معرفاً بمحة الطبع وقوة الشكيمة ، وطالما لقي المسلمين منه ألوان الأذى ، والظاهر أنه كانت تصرخ في نفسه مشاعر متناقضة ، احترامه للتقاليد التي سنتها الآباء والأجداد ، واسترساله مع شهوات السكر واللهو التي ألفها ، ثم إعجابه بصلابة المسلمين واحتقارهم للبلاء في سبيل عقيدتهم ، ثم الشكوك التي كانت تساوره – كأي عقل – في أن ما يدعوه إليه الإسلام قد يكون أجل وأذكى من غيره ، وهذا ما إن يثور حتى ينحور . قاله محمد الغزالى^(١) .

وخلال الروايات مع الجمع بينها – في إسلامه رضي الله عنه – أنه التجأ ليلة إلى المبيت خارج بيته ، فجاء إلى الحرم ، ودخل في ستر الكعبة ، والنبي عليه السلام قائم يصلّي وقد استفتح سورة «الحاقة» فجعل عمر يستمع إلى القرآن ، ويعجب من تأليفه ، قال : فقلت – أى في نفسي – هذا والله شاعر كما قالت قريش ، قال : فقرأ ﴿إِنَّمَا تَقُولُ رَسُولُ كَرِيمٍ﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ (٦٩ : ٤٠ ، ٤١) قال : قلت : كاهن . قال : ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَانِذَكُرُونَ نَزَّلْنَا عَلَيْكُم مِنَ الْعَلَمِينَ﴾ إلى آخر السورة . قال فوقع الإسلام في قلبه^(٢) .

كان هذا أول وقوع نواة الإسلام في قلبه ، لكن كانت قشرة التزعزعات الجاهلية ، والعصبية التقليدية ، والتعاظم بدين الآباء هي غالبة على مع الحقيقة التي كان يتهمس بها قلبه ، فبقي مجدداً في عمله ضد الإسلام ، غير مكترت بالشعور الذي يكمن وراء هذه القشرة .

وكان من حدة طبعه وفرط عداوته لرسول الله عليه السلام أنه خرج يوماً متوضحاً سيفه ، يريد القضاء على النبي عليه السلام ، فلقيه نعيم بن عبد الله النحام العدو^(٣) ، أو رجل من بنى زهرة^(٤) ، أو رجل من بنى مخروم^(٥) . فقال : أين تعمد يا عمر ؟ قال : أريد أن أقتل محمداً قال : كيف تأمن من

(١) فقه السيرة ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لأبن الجوزي ص ٦ ، ويقرب من هذا ما رواه ابن إسحاق عن عطاء ومجاهد . لكن في آخره ما يخالف ذلك . انظر ابن هشام ١ / ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ويزيد من هذا أيضاً ما أورده ابن الجوزي عن جابر ، وفي آخره أيضاً ما يخالف هذه الرواية انظر تاريخ عمر بن الخطاب ص ٩ - ١٠ .

(٣) وهذا على رواية ابن إسحاق ، انظر ابن هشام ١ / ٣٤٤ .

(٤) روى ذلك أنس بن مالك رضي الله عنه . انظر تاريخ عمر بن الخطاب ص ١٠ ، وختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله بن محمد النجدي ص ١٠٣ .

(٥) روى ذلك ابن عباس انظر المصدر الأخير ص ١٠٢ .

بني هاشم ومن بني زهرة وقد قتلت حمداً؟ فقال له عمر : ما أراك إلا قد صبوا وتركت دينك الذي كنت عليه ، قال أفلأ كذلك على العجب يا عمر ! إن أخْتَك وختنك قد صبوا ، وتركا دينك الذي أنت عليه ، فمشي عمر داماً حتى أتاهما وعندما خباب بن الأرت ، معه صحيفة فيها **(طه)** يقرئها إياها - وكان يختلف إلَيْهِما ويقرئهما القرآن - فلما سمع خباب حس عمر توارى في البيت ، وستر قاطمة - أخذ عمر - الصحيفة ، وكان قد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب إلَيْهِما ، فلما دخل عليهما قال : ما هذه الهيبة التي سمعتها عندكم ؟ فقالا : ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا . قال : فلعلكم قد صبوا . فقال له ختبه : يا عمر أرأيت إن كان الحق في غير دينك ؟ فوثب عمر على ختبه فوطأ شديداً . فجاءت أخته فرفعته عن زوجها فنفعها نفعحة بيده ، فدمى وجهها - وفي رواية ابن إسحاق أنه ضربها فشجها - فقالت - وهي غضبي - : يا عمر إن كان الحق في غير دينك ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

فلما يئس عمر ، ورأى ما أخته من الدم ندم واستحي ، وقال : أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرؤه ، فقالت أخته : إنك رجس ، ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل ، فقام فاغتسل ، ثم أخذ الكتاب ، فقرأ **(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)** فقال : أسماء طيبة طاهرة . ثم قرأ **(طه)** حتى انتهى إلى قوله **(إِنَّمَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)** فقال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ؟ دوني على محمد .

فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت ، فقال : أبشر يا عمر ، فإني أرجو أن تكون دعوة الرسول ﷺ لك ليلة الخميس (اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام) ورسول الله ﷺ في الدار التي في أصل الصفا .

فأخذ عمر سيفه ، فتوسحه ، ثم انطلق حتى أتى الدار ، فضرب الباب ، فقام رجل ينظر من خلل الباب فرأه متتوسحاً السيف ، فأخبر رسول الله ﷺ ، واستجتمع القوم ، فقال لهم حمزة : مالكم ؟ قالوا : عمر ، فقال : عمر ، افتحوا له الباب ، فإن جاء يريد خيراً بذلك له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه ، ورسول الله ﷺ داخل يوحى إليه فخرج إلى عمر حتى لقبه في الحجرة ، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف ، ثم جبذه جبدة شديدة فقال : أما أنت منتهياً يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنکال ما نزل بالوليد بن المغيرة ؟ اللهم ! هذا

عمر بن الخطاب ، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب ، فقال عمر ،أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . وأسلم فكير أهل الدار تكيرة سمعها أهل المسجد^(١) .

كان عمر رضي الله عنه ذا شكيمة لا يرام ، وقد أثار إسلامه ضجة بين المشركين بالذلة ، والهوان ، وكسا المسلمين عزة وشرفًا وسروراً .

روى ابن إسحاق بسنده عن عمر قال : لما أسلمت تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة ، قال : قلت : أبو جهل ، فأتيت حتى ضربت عليه بابه فخرج إليَّ ، وقال : أهلاً وسهلاً ، ما جاء بك ؟ قال : جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدقت بما جاء به . قال : فضرب الباب في وجهي ، وقال : قبحك الله ، وقبح ما جئت به^(٢) .

وذكر ابن الجوزي أن عمر رضي الله عنه قال : كان الرجل إذا أسلم تعلق به الرجال ، فيضربونه ويضرهم ، فجئت - أي حين أسلمت - إلى خالي - وهو العاصي بن هاشم - فأعلمه فدخل البيت ، قال : وذهبت إلى رجل من كبراء قريش - لعله أبو جهل - فأعلمه فدخل البيت^(٣) .

وذكر ابن هشام وكذا ابن الجوزي مختصرًا ، أنه لما أسلم أباً إلى جميل بن معمر الجمحى - وكان أنقل قريش للحديث - فأخبره أنه أسلم ، فنادى جميل بأعلى صوته أن ابن الخطاب قد صباً . فقال عمر : - وهو خلفه - كذب ، ولكنني قد أسلمت ، فثاروا إليه ، فما زال يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم ، وطلخ ، أي أعيَا عمر ، فقعد ، وقاموا على رأسه ، وهو يقول : افعلنوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو كنا ثلات مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا^(٤) .

وبعد ذلك زحف المشركون إلى بيته يريدون قتله . روى البخاري عن عبد الله بن عمر

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ص ٧ ، ١٠ ، ١١ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، ابن هشام ١/٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

(٢) المصدر الأخير ١/٣٤٩ ، ٣٥٠ .

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٨ .

(٤) نفس المصدر ص ٨ وابن هشام ١/٣٤٨ ، ٣٤٩ .

قال : بينما هو - أي عمر - في الدار خائفاً ، إذ جاءه العاص بن وائل السهمي أبو عمرو ، وعليه حلة سيرة وقميص مكفوف بحرير ، وهو من بني سهم ، وهم حلفاؤنا في الجاهلية ، فقال له : مالك ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلوني أن أسلمت ، قال لا سبيل إليك - بعد أن قالها أمنت - فخرج العاص ، فلقي الناس قد سال بهم الوادي ، فقال أين تريدون ؟ فقالوا : هذا ابن الخطاب الذي قد صبا ، قال : لا سبيل إليه ، فكر الناس^(١) وفي لفظ ، في رواية ابن إسحاق : والله لكانوا كانوا ثواباً كشط عنه^(٢) .

هذا بالنسبة إلى المشركين ، أما بالنسبة إلى المسلمين ؟ فروى مجاهد عن ابن عباس قال : سألت عمر بن الخطاب ، لأي شيء سميت الفاروق ؟ قال : أسلم حمزة قبل ثلاثة أيام - ثم قص عليه قصة إسلامه وقال في آخره - قلت : - أي حين أسلمت - يا رسول الله ! ألسنا على الحق وإن متنا وإن حيينا ؟ قال : « بلى ! والذي نفسي بيده ، إنكم على الحق وإن مت وإن حيتم » ، قال : قلت : فقيم الاختفاء ؟ والذي يبعثك بالحق لتخرجن ، فأخرجناه في صفين ، حمزة في أحدهما ، وأنا في الآخر ، له كدد كدد الطحين ، حتى دخلنا المسجد ، قال : فنظرت إلى قريش وإلى حمزة ، فأصابتهم كابة لم يصبهم مثلها ، فسماني رسول الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبِينُ « الفاروق » يومئذ^(٣) .

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول : ما كنا نقدر أن نصل إلى الكعبة حتى أسلم عمر^(٤) .

وعن صحيب بن سنان الرومي رضي الله عنه ، قال : لما أسلم عمر ظهر الإسلام ، ودعى إليه علانية ، وجلسنا حول البيت حلقا ، وطفنا بالبيت ، وانتصافنا من غلظ علينا ، ورددنا عليه بعض ما يأتي به^(٥) .

(١) صحيح البخاري ، باب إسلام عمر بن الخطاب ١/٥٤٥ .

(٢) ابن هشام ١/٣٤٩ .

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٦ ، ٧ .

(٤) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٠٣ .

(٥) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ١٣ .

وعن عبد الله بن مسعود قال : ما زلت أعزه منذ أسلم عمر^(١) .

ممثل قريش بين يدي الرسول ﷺ :

وبعد إسلام هذين البطلين الجليلين - حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما - أخذت السحائب تتشقّع ، وأفاق المشركون عن سكرهم في إدلاه العذاب والنكال إلى المسلمين ، وحاولوا مساومة مع النبي ﷺ بإغداق كل ما هو ممكن أن يكون مطلوباً له ؛ ليكتفوا عن دعوته . ولم يكن يدرى هؤلاء المساكين أن كل ما تطلع عليه الشمس لا يساوي جناح بعوضة أمام دعوته ، فخابوا وفشلوا فيها أرادوا .

قال ابن إسحاق : حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً ، قال يوماً ، وهو في نادي قريش ، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معاشر قريش ألا أقوم إلى محمد؟ فأكلمه ، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ، ويكتف عننا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ ، يكترون ويزيدون ، فقالوا : بلى ، يا أبا الوليد قم إليه ، فكلمه ، فقام إليه عتبة ، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من السلطة^(٢) في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبدت به آهاتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع » ، قال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تزيد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تزيد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا يقطع أمراً دونك ، وإن كنت تزيد به ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيساً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه : قال : « أو قد فرغت يا أبا الوليد؟ » قال : نعم ، قال : « فاسمع مني » ، قال : أفعل ،

(١) صحيح البخاري ، باب إسلام عمر بن الخطاب ٥٤٥/١ .

(٢) هي المزيلة الرفيعة المهيبة .

قال: بسم الله الرحمن الرحيم . ﴿ حَمٌ ﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ كَتَبْ فُصِّلَتْ هَاءِيْتُمْ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ بِشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَغْرَضَ أَكْثَرَهُمْ فِيهِمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْيَتَهُ مِمَّا لَدَنَا دُعُونَا إِلَيْهِ ﴾ ثم مضى رسول الله عليه صلوات الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها ، يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله عليه صلوات الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك . فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : خلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورأي أني سمعت قول الله ما سمعت مثله فقط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا عشر قريش أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكون لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتهم بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكته ملككم ، وعزه عزكم ، وكتمت أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأي فيه فاصنعوا ما بدا لكم^(١) .

وفي رواية أخرى أن عتبة استمع حتى جاء الرسول عليه صلوات الله عليه وسلم ، إلى قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ أَغْرَضُوا فَقُلْ أَنَّدَرَتُكُمْ صَعِيقَةً مِّثْلَ صَعِيقَةِ عَادٍ وَّنَمُودٍ ﴾ فقام مذعوراً ، فوضع يده على فم رسول الله عليه صلوات الله عليه وسلم ، يقول : أشدك الله والرحم ! وذلك مخافة أن يقع النذير ، وقام إلى القوم فقال ما قال^(٢) .

أبو طالب يجمع بنى هاشم وبنى عبدالمطلب:

تغير مجرب الظروف وتبدل الأوضاع والأحوال ، ولكن أبا طالب لم يزل يتوجس من المشركين خيفة على ابن أخيه ، إنه كان ينظر في الحوادث الماضية - إن المشركين هددوه بالمنازلة ، ثم حاولوا مساومة ابن أخيه بعمارة بن الوليد ليقتلواه ، وإن أبا جهل ذهب إلى ابن أخيه بحجر يرضخه ، وإن عقبة بن أبي معيط خنق ابن أخيه بردائه وقاد يقتله ، وإن ابن الخطاب كان قد خرج بالسيف ليقضي على ابن أخيه - كان أبا طالب يتدارب في هذه الحوادث ، ويشم منها

(١) ابن هشام ١/٢٩٣، ٢٩٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٦/١٥٩، ١٦٠ ، ١٦١ .

رائحة شر يرجف له فؤاده ، وتأكد عنده أن المشركين عازمون على إخفار ذمته ، عازمون على قتل ابن أخيه ، وما يغنى حمزة أو عمر أو غيرهما إن انقض أحد من المشركين على ابن أخيه بفتحة . تأكد ذلك عند أبي طالب ، ولم يكن إلا حقاً ، فإنهم كانوا قد أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية ، وإلى هذا الإجماع إشارة في قوله تعالى ﴿أَمَّا بُرْمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبِرْمُونَ﴾ (٤٣ : ٧٩) فماذا يفعل أبو طالب إذن .

إنه لما رأى تائب قريش على ابن أخيه قام في أهل بيته من بنى هاشم وبني المطلب ولدي عبد مناف ، ودعاهم إلى ما هو عليه من منع ابن أخيه والقيام دونه ، فأجابوه إلى ذلك مسلمهم وكافرهم ، حية للجوار العربي ، إلا ما كان من أخيه أبي هب ، فإنه فارقهم ، وكان مع قريش ^(١) .

(١) ابن هشام ٢٦٩/١ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله بن محمد النجدي ص ١٠٦ .

المقاطعة العامة

وقدت أربع حوادث ضخمة – بالنسبة إلى المشركين – خلال أربعة أسابيع ، أو في أقل مدة ، منها : أسلم حمزة ، ثم أسلم عمر ، ثم رفض محمد عليهما السلام مسامتهم ، ثم توأثت بنو المطلب ، وبنو هاشم كلهم مسلّمهم وكافرهم ، على حياة محمد عليهما السلام ومنعه ، حار المشركون ، وحقّت لهم الحيرة ، إنهم عرّفوا أنهم لو قاموا بقتل محمد – عليهما السلام – يسيل وادي مكة دونه بدمائهم ، بل ربما يفضي إلى استئصالهم . عرفوا ذلك فانخرّفوا إلى ظلم آخر دون القتل ، لكن مضاضة عما فعلوا بعد .

ميثاق الظلم والعدوان :

اجتمعوا في خيف بني كنانة من وادي المχصب فتحالّفوا ، على بني هاشم وبني المطلب أن لا ينأكحوهم ، ولا يسايّعوهم ، ولا يجالسوهم ، ولا يخالطوهم ، ولا يدخلوا بيوتهم ، ولا يكلموهم ، حتى يسلّموا إليهم رسول الله عليهما السلام للقتل ، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق «أن لا يقبلوا من بني هاشم صلحًا أبداً ، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلّموه للقتل» قال ابن القيم : يقال : كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم ، ويقال : نصر بن الحارث ، والصحيح أنه بغيض بن عامر بن هاشم ، فدعوا عليه رسول الله عليهما السلام فشلت يده^(١) .

تم هذا الميثاق ، وعلقت الصحيفة في جوف الكعبة ، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم – إلا أبا هلب – وحبسوا في شعب أبي طالب ليلة هلال الحرم سنة سبع منبعثة .

(١) زاد المعاد ٤٦/٢ .

ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب:

واشتد الحصار ، وقطعت عنهم الميرة والمادة ، فلم يكن المشركون يترون طعاماً يدخل مكة ولا يبعا إلا بادروه فاشتروه ، حتى بلغهم الجهد ، والتجأوا إلى أكل الأوراق والملحود ، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع ، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سراً - وكانوا - لا يخرجون من الشعب لاشتاء الحاجة إلا في الأشهر الحرم ، وكانوا يشترون من العير التي ترد مكة من خارجها ، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في السلعة قيمتها حتى لا يستطيعوا الشراء .

وكان حكيم بن حزام رما يحمل قمحًا إلى عمه خديجة - رضي الله عنها - وقد تعرض له مرة أبو جهل فتعلق به لينفعه ، فتدخل بينهما أبو البختري ، ومكنته من حمل القمح إلى عمه .

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله ﷺ ، فكان إذا أخذ الناس مصالحهم يأمر رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه ، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله ، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أوبني عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ ، وأمره أن يأتي بعض فرشم .

وكان رسول الله ﷺ وال المسلمين يخرجون في أيام الموسم ، فيلقون الناس ، ويدعونهم إلى الإسلام ، وقد أسلفنا ما كان يأتي به أبو هب .

نقض صحيفية الميثاق:

مرت ثلاثة أعوام كاملة والأمر على ذلك ، وفي الحرم^(١) سنة عشر من النبوة حدث نقض الصحيفه وفك الميثاق ، وذلك أن قريشاً كانوا بين راض بهذا الميثاق وكاره له ، فسعى في نقض الصحيفه من كان كارهاً لها .

وكان القائم بذلك هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي - وكان يصل بني هاشم في الشعب مستخفياً بالليل بالطعام - فإنه ذهب إلى زهير بن أبي أمية المخزومي - وكانت أمه عاتكة

(١) الدليل على هذا أن أبي طالب مات بعد نقض الصحيفه بستة أشهر ، وال الصحيح في موت أبي طالب أنه في شهر رجب . ومن يقول : إنه مات في رمضان فهو يقول إنه مات بعد نقض الصحيفه بثمانية أشهر وأيام .

بنت عبد المطلب - وقال : يا زهير ، أرضيت أن تأكل الطعام ، وتشرب الشراب ، وأخوالك بحيث تعلم ؟ فقال : وبمحك ، فما أصنع وأنا رجل واحد ؟ أما والله لو كان معي رجل آخر لقدمت في نقضها ، قال : قد وجدت رجلاً . قال : فمن هو ؟ قال : أنا . قال له زهير : أبغنا رجلاً ثالثاً .

فذهب إلى المطعم بن عدي ، فذكره أرحامبني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف ، ولم يلتفت له على موافقته لقريش على هذا الظلم ، فقال المطعم : وبمحك ، ماذا أصنع ؟ إغنا أنا رجل واحد ، قال : قد وجدت ثانياً ، قال من هو ؟ قال : أنا قال : أبغنا ثالثاً . قال قد فعلت . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية ، قال : أبغنا رابعاً .

فذهب إلى أبي البختري بن هشام ، فقال له نحواً ما قال للمطعم ، فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية ، والمطعم بن عدي ، وأنا معك ، قال : أبغنا خامساً .

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه ، وذكر له قرابتهم وحقهم ، فقال له : وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد ؟ قال : نعم ثم سمي له القوم ، فاجتمعوا عند الحجون ، وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة ، وقال زهير : أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم .

فلما أصبحوا غدوا إلى أندبائهم ، وغدا زهير عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعاً ، ثم أقبل على الناس ، فقال : يا أهل مكة أنا أكل الطعام ، ونبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى ، لا يُباعون ولا يبتاعون منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل - وكان في ناحية المسجد - : كذبت ، والله لا تشق . فقال : زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب . ما رضينا كتابتها حيث كتبت . قال أبو البختري : صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به .

قال المطعم بن عدي : صدقنا وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها وما كتب فيها .
وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك .

قال أبو جهل : هذا أمر قضي بليل ، تُشَوَّرَ فيه بغیر هذا المکان .

وأبو طالب جالس في ناحية المسجد . إنما جاءهم لأن الله كان قد أطلع رسوله على أمر الصحيفة ، وأنه أرسل عليها الأرضية ، فأكلت جميع ما فيها من جوى وقطيعة وظلم إلا ذكر الله عز وجل ، فأخبر بذلك عمه ، فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا ، فإن كان كاذبا خلينا بينكم وبينه ، وإن كان صادقاً رجعتم عن قطبيتنا وظلمنا ، قالوا : قد أنصفت . وبعد أن دار الكلام بين القوم وبين أبي جهل ، قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها ، فوجد الأرضية قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » . وما كان فيها من اسم الله فانها لم تأكله .

تم نقض الصحيفة ، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب ، وقد رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته ، ولكنهم كما أخبر الله عنهم ، ﴿ وَإِن يَرَوْا إِيَّاهُ يَعْرِضُونَ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌ ﴾ (٥٤ : ٢) أعرضوا عن هذه الآية وازدادوا كفراً إلى كفرهم ^(١) .

(١) جمعنا تفاصيل المقاطعة من صحيح البخاري ، باب نزول النبي ﷺ بمكة ٢١٦ / ١ ، وباب تقاسم المشركين على النبي ﷺ ٥٤٨ / ١ ، زاد المعاد ٤٦ / ٢ ، وابن هشام ٣٥٠ / ١ ، ٣٥١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ورحمة للعلميين ٦٩ / ١ ، ٧٠ وختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، وختصر السيرة للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي ص ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ . وبين هذه المقدار اختلاف يسر ، أخذنا ما ترجح عندنا بعد النظر في القرآن .

آخر وفد قريش إلى أبي طالب

خرج رسول الله ﷺ من الشعب ، وجعل ي العمل على شاكلته ، وقريش وإن كان قد تركوا القطيعة ، لكنهم لم يزالوا عاملين على شاكلتهم من الضغط على المسلمين ، والصد عن سبيل الله ، أما أبو طالب فهو لم يزل يحوط ابن أخيه ، لكنه كان قد جاوز الثمانين من سنه ، وكانت الآلام والحوادث الضخمة المتواترة منذ سنوات – لا سيما حصار الشعب – قد وهنت وضعفت مفاصله ، وكسرت صلبه ، فلم يمض على خروجه من الشعب إلا أشهر معدودات ، وإذا هو يلاحقه المرض ويلح به – وحينئذ خاف المشركون سوء معناتهم في العرب إن أتوا بعد وفاته بمنكر على ابن أخيه ، فحاولوا مرة أخرى أن يفاضلوا النبي ﷺ بين يديه ، ويعطوا بعض ما لم يرضاوا إعطاؤه قبل ذلك ، فقاموا بوفادة هي آخر وفادتهم إلى أبي طالب .

قال ابن إسحاق وغيره : لما اشت肯ى أبو طالب ، وبلغ قريشاً ثقله ، قالت قريش بعضها البعض : إن حمزة وعمر قد أسلمَا ، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها ، فانطلقو بنا إلى أبي طالب ، فليأخذن على ابن أخيه ، وليعطه منا ، والله ما نأمن أن يبتزونا^(١) أمننا ، وفي لفظ : فإننا نخاف أن يموت هذا الشيخ ، فيكون إليه شيء فغيرنا به العرب ، يقولون تركوه ، حتى إذا مات عممه تناولوه .

مشوا إلى أبي طالب فكلموه ، وهم أشراف قومه ؛ عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، في رجال من أشرافهم – وهم خمس وعشرون تقريرًا – فقالوا : يا أبو طالب إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه ، فخذ له منا ، وخذ لنا منه ،

(١) ابْتَزَهُ أَمْرُهُ : سلب إيماه وغلبه عليه .

ليكف عننا ونكشف عنه ، وليدعنا وديتنا ، وندعه ودينه ، فبعث إليه أبو طالب ، فجاءه ، فقال : يا ابن أخي ، هؤلاء أشراف قومك ، قد اجتمعوا لك ، ليعطوك ، وليراحنوا منك ، ثم أخبره بالذى قالوا له وعرضوا عليه ، من عدم تعرض كل فريق للآخر . فقال لهم رسول الله ﷺ : أرأيتم إن أعطتكم كلمة تكلم بها ، ملكتكم بها العرب ، ودانت لكم بها العجم ؟ ، وفي لفظ أنه قال مخاطباً لأبي طالب : « أريدكم على كلمة واحدة يقولونها ، تدين لهم بها العرب ، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية » ، وفي لفظ آخر قال : « يا عم ، أفلأ تدعوهما إلى ما هو خير لهم ؟ » قال : وإلى ما تدعوهما ؟ قال : « أدعوهما إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم » ، ولفظ رواية ابن إسحاق : « كلمة واحدة تعطونها ، تملكون بها العرب ، وتدينون لكم بها العجم » ، فلما قال هذه المقالة ، توافقوا وتحيروا ، ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة النافعة إلى هذه الغاية والحد ، ثم قال أبو جهل : ما هي ؟ وأبيك لنعطيكها عشر أمثالها ، قال : « تقولون : لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه » . فصنفوا بأيديهم ، ثم قالوا : أترید يا محمد أن يجعل الآلة إلهاً واحداً ؟ إن أمرك لعجب .

ثم قال بعضهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آباءكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه . ثم تفرقوا .

وفي هؤلاء نزل قوله تعالى : ﴿ صَّ وَالْقُرْمَاءِنِ ذِي الَّذِكْرِ ① بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزْنَةٍ وَشَقَاقٍ ② كَمَا هَلَكَ كَمَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنَيْنَ فَنَادَاهُ أَوْلَادُ حِينَ مَنَاصِ ③ وَعَجَبُوا أَنَّ جَاهَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفَّارُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ④ أَجْعَلَ اللَّهُمَّ إِلَهَهَا وَمَنْدَانَ هَذَا الشَّقْنَعُ عَجَابٌ ⑤ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَائِكَةُ مِنْهُمْ أَنَّ أَمْشُوا وَأَصْبَرُوا عَلَى مَا لَهُمْ ⑥ كَمَّ إِنَّ هَذَا الشَّقْنَعُ يُرَادُ ⑦ مَا سَمِعْنَا بِهِنَّا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَخْيَالُنَا ⑧ ﴾ (٢٨) .

(١) ابن هشام ١/٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، تفہیم القرآن ٤/٤، مختصر السیرة للشيخ عبد الله ص ٩١ .

عام الحزن

وفاة أبي طالب:

ألح المرض بأبي طالب ، فلم يلبث أن وافته المنية ، وكانت وفاته في رجب^(١) سنة عشر من النبوة ، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر^(٢) . وقيل : توفي في رمضان قبل وفاة خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام .

وفي الصحيح عن المسيب : أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنه أبو جهل ، فقال : « أي عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » ، فقال أبو جهل عبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ، ترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزلا يكلماه حتى قال آخر شيء كلامهم به : على ملة عبد المطلب . فقال النبي ﷺ : « لاستغفرن لك ما لم أنه عنك » ، فنزلت : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَئِكُنْ قُرْبَةً مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَنَاحِ﴾ (١١٣: ٩) ونزلت ﴿إِنَّكَ لَا تَهِيَّى مِنْ أَحَبِبْتَ﴾^(٣) (٢٨: ٥٦) .

ولا حاجة إلى بيان ما كان عليه أبو طالب من الحياة والمنع ، فقد كان الحصن الذي تختفي به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء ، ولكنه بقي على ملة الأشياخ من

(١) تاريخ إسلام الشاه أكبر خان النجيفي آبادي ١٢٠/١ ، وفي المصادر اختلاف كبير في الشهر الذي توفي فيه أبو طالب ، وهذا الذي رجحناه إنما رجحناه لأن أكثر المصادر متفقة على أن موته كان بعد ستة أشهر من الخروج من الشعب ، وأن الحصار كان ثلاثة أعوام ، وأن بدء الحصار كان ليلة هلال المحرم سنة سبع ، وإن ذ فموته في رجب سنة عشر من النبوة .

(٢) مختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي ص ١١١ .

(٣) صحيح البخاري ، باب قصة أبي طالب ٥٤٨/١ .

أجداده ، فلم يفلح كل الفلاح . ففي الصحيح عن العباس بن عبد المطلب ، قال للنبي ﷺ : ما أغنيت عن عمك ، فإنه كان يعوطك ويغضب لك ؟ قال : هو في ضحاض من نار ، ولو لا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار^(١) .

ومن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي ﷺ - وذكر عنده عمه - فقال : لعله تفعه شفاعتي يوم القيمة ، فيجعل في ضحاض من النار تبلغ كعبه^(٢) .

خدية إلى رحمة الله :

وبعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين أو ثلاثة - على اختلاف القولين - توفيت أم المؤمنين خديجة الكبرى رضي الله عنها ، كانت وفاتها في شهر رمضان في السنة العاشرة من النبوة ، وها خمس وستون سنة ، ورسول الله ﷺ إذ ذاك في الخمسين من عمره^(٣) .

إن خديجة كانت من نعم الله الجليلة على رسول الله ﷺ ، بقيت معه ربع قرن تحن عليه ساعة قلقه ، وتوازره في أحرج أوقاته ، وتعينه على إبلاغ رسالته ، وتشاركه في مغارات الجهاد المر ، وتواسيه بنفسها وما لها ، يقول رسول الله ﷺ : « آمنت بي حين كفر بي الناس ، وصدقني حين كذبني الناس ، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس ، ورزقني الله ولدها ، وحرم ولد غيرها »^(٤) .

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال : أتى جبريل النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله هذه خديجة ، قد أنت ، معها إماء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هي أتتكم فاقرأوا عليها السلام من ربها ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب^(٥) .

تراكم الأحزان:

وقدت هاتان الحادستان المؤلمتان خلال أيام معدودة ، فاهتزت مشاعر الحزن والألم في قلب

(١) صحيح البخاري ، باب قصة أبي طالب ٥٤٨/١ .

(٢) نص على موتها في رمضان من تلك السنة ابن الحوزي في التلقيح ص ٧ ، والعلامة المنصور فوري في رحمة للعالين ١٦٤/٢ وغيرها .

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده ١١٨/٦ .

(٤) صحيح البخاري . باب تزويع النبي ﷺ خديجة خديجة وفضلها ٥٣٩/١ .

رسول الله ﷺ ، ثم لم تزل تتوالى عليه المصائب من قومه ، فقد كانوا تجرأوا عليه ، وكاشفوه بالكوال والأذى بعد موت أبي طالب ، فازداد غماً على غم ، حتى ينس منهم ، وخرج إلى الطائف ، رجاء أن يستجيبوا لدعوته أو يؤمنوا وينصروه على قومه ، فلم ير من يؤمنوا ولم ير ناصراً ، وأذوه مع ذلك أشد الأذى ، ونالوا منه ما لم ينله قومه .

وكا اشتتد وطأة أهل مكة على النبي ﷺ ، اشتدت على أصحابه ، حتى التجأ رفيقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الهجرة عن مكة ، فخرج حتى بلغ برك الغمام ، يريد الحبشة ، فأرجمه ابن الدغنة في جواره^(١) .

قال ابن إسحاق : لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فتبرأ على رأسه تراباً ، ودخل بيته ، والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ، ورسول الله ﷺ يقول لها : لا تبكي يا بنتي ، فإن الله مانع أباك . قال : ويقول بين ذلك : ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب^(٢) .

ولأجل تواли مثل هذه الآلام في هذا العام سماه رسول الله ﷺ عام الحزن ، وبهذا اللقب صار معروفاً في التاريخ .

الزواج بسودة رضي الله عنها:

وفي شوال من هذه السنة - سنة ١٠ من النبوة - تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة ، كانت من أسلم قدماً ، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وكان زوجها السكران بن عمرو ، وكان قد أسلم وهواجر معها ، فمات بأرض الحبشة ، أو بعد الرجوع إلى مكة ، فلما حلت خطبها رسول الله ﷺ وتزوجها ، وكانت أول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة ، وبعد عدة أعوام وهبت نوبتها لعائشة^(٣) .

(١) صرخ الشاه أكبر خان النجيف آبادي بأن هذه الواقعة كانت في هذه السنة انظر تاريخ إسلام ١٢٠/١ والقصة بطولها مروية في ابن هشام ١/٣٧٢، ٣٧٤، ٥٥٣، وفي صحيح البخاري ١/٥٥٢.

(٢) ابن هشام ١/٤١٦.

(٣) رحمة للعاملين ٢/١٦٥، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٠.

عوامل الصبر والثبات

وهنا يقف الحليم حيران ، ويسأله عقلاً الرجال فيما بينهم : ما هي الأسباب والعوامل التي بلغت بال المسلمين إلى هذه الغاية القصوى ، والحمد لله العجز من الثبات ؟ كيف صرروا على هذه الاضطهادات التي تشعر لسماعها الجلد ، وترجف لها الأفخدة ؟ ونظراً إلى هذا الذي يتخالج القلوب ، نرى أن نشير إلى بعض هذه العوامل والأسباب إشارة عابرة بسيطة :

١ - إن السبب الرئيسي في ذلك أولاً وبالذات هو الإيمان بالله وحده ومعرفته حق المعرفة ، فالإيمان الجازم إذا خالطت بشاشته القلوب يزن الجبال ولا يطيش ، وإن صاحب هذا الإيمان الحكم وهذا اليقين الجازم يرى متابعته الدنيا مهما كثرت وكبرت وتفاقمت واشتدت – يراها في جنب إيمانه – طحالب عائمة فوق سيل حارف جاء ليكسر السدود المنيعة والقلاع الحصينة ، فلا يبالي بشيء من تلك المتابعة ، أمام ما يجده من حلوة إيمانه وطراوة إذعانه وبشاشة يقينه ﴿فَامَّا الْزَّبَدُ فِيهِبْ جُفَاءٌ وَامَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (١٣ : ١٧) .

ويتفسر من هذا السبب الوحيد أسباب أخرى تقوى هذا الثبات والمصايرة وهي :

٢ - قيادة تهوي إليها الأفخدة ، فقد كان النبي ﷺ – وهو القائد الأعلى للأمة الإسلامية بل وللبشرية جموعاً – يتمتع من جمال الخلق وكمال النفس ، ومكارم الأخلاق ، والشيم النبيلة والشمائل الكريمة ، بما تتجاذب إليه القلوب ، وتتفاني دونه النفوس ، وكانت منصبته من الكمال الذي يعيش لم يرزق بمثلها بشر ، وكان على أعلى قمة من الشرف والنبل والخير والفضل ، وكان من العفة والأمانة والصدق ، ومن جميع سبل الخير على ما لم ينمار ولم يشك فيه أعداؤه فضلاً عن محبيه ورفقايه ، لا تتصدر منه كلمة إلا ويستيقنون صدقها .

اجتمع ثلاثة نفر من قريش ، كان قد استمع كل واحد منهم إلى القرآن سراً عن صاحبيه ثم

انكشف سرهم ، فسأل أحدهم أبا جهل - وكان من أولئك الثلاثة - ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال : ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعمنا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تنازدنا على الركب ، وكنا كفسي رهان ، قالوا : لانا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه^(١).

وكان أبو جهل يقول : يا محمد إننا لا نكذب ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَعِيْدُونَ اللَّهُ يَعْلَمُ حَدُودَ﴾^(٢).

وغمزه الكفار يوماً ثلاثة مرات ، فقال في الثالثة : يا معاشر قريش ، جئتم بالذبح ، فأخذتهم تلك الكلمة ، حتى إن أشدتهم عداوة يرفوه بأحسن ما يجد عنده .

ولما ألقوا عليه سلا جزور وهو ساجد دعا عليهم ، فذهب عنهم الضحك ، وساورهم الهم والقلق ، وأيقنوا أنهم هالكون .

ودعا على عبيدة بن أبي هب فلم يزل على يقين من لقاء ما دعا به عليه ، حتى إنه حين رأى الأسد قال : قتلني والله - محمد - وهو بمكة .

وكان أبي بن خلف يتوعده بالقتل . فقال : بل أنا أقتلك إن شاء الله ، فلما طعن أُبياً في عنقه يوم أحد - وكان خدشاً غير كبير - كان أبي يقول : إنه قد كان قال لي بمكة : أنا أقتلك . فوالله لو بصرت على لقتلي^(٣) - وسيأتي .

وقال سعد بن معاذ - وهو بمكة - لأمية بن خلف : لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنهم - أي المسلمين - قاتلوك ، ففرغ فرعاً شديداً ، وعهد أن لا يخرج عن مكة ، ولما أجلأه أبو جهل للخروج يوم بدر اشتراك أجود بغير بمكة ليتمكنه من الفرار ، وقالت له امرأته : يا أبا صفوان ، وقد نسيت ما قال لك أخوك اليهبي؟ قال : لا والله ما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً^(٤) .

(١) ابن هشام ٣١٦/١ .

(٢) رواه الترمذى فى تفسير سورة الأنعام ١٣٢/٢ .

(٣) ابن هشام ٨٤/٢ .

(٤) انظر صحيح البخارى ٥٦٣/٢ .

هكذا كان حال أعدائه عليهما السلام ، أما أصحابه ورفقاو فقد حل منهم محل الروح والنفس ، وشغل منهم مكان القلب والعين ، فكان الحب الصادق يندفع إليه اندفاع الماء إلى المدور ، وكانت النفوس تعجب إلهي الجذاب الحديد إلى المغناطيس .

صوريه هيولى كل جسم وмагناطيس أفردة الرجال وكان من أثر هذا الحب والتفضلي أنهم كانوا ليرون أن تندق أنفاسهم ولا يخدش له ظفر أو يشك شوكه .

وطيء أبو بكر بن أبي قحافة يوماً بمحنة ، وضرب ضرباً شديداً ، دنا منه عتبة بن ربيعة ، فجعل يضره بنعلين مخصوصين ، ويعرفهما لوجهه ، وزرا على بطن أبي بكر ، حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وحملت بنت نعيم أبي بكر في ثوب ، حتى أدخلوه منزله ، ولا يشكون في موته ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله عليهما السلام ، فمسوا منه بالستنهم وعذلوه ، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه ، فلما خلت به أخت عليه ، وجعل يقول : ما فعل رسول الله عليهما السلام ؟ فقالت : والله لا علم لي بصاحبك ، فقال : اذهب إلى أم جميل بنت الخطاب فأسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل ، فقالت : إن أبي بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ، قالت : ما أعرف أبي بكر ولا محمد بن عبد الله ، وإن كنت تخبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت ، قالت : نعم فمضت معها حتى وجدت أبي بكر صريراً دنقاً ، فدنت أم جميل ، وأعلنت بالصياح ، وقالت : والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإنني لأرجو أن يتყنم الله لك منهم ، قال : فما فعل رسول الله عليهما السلام ؟ قالت : هذه أمرك تسمع ، قال : فلا شيء عليك منها ، قالت : سالم صالح ، فقال : أين هو ؟ قالت : في دار ابن الأرقم قال : فإن الله علني أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله عليهما السلام ، فأمهلتها ، حتى إذا هدأت الرجل ، وسكن الناس ، خرجتا به ، يتكىء عليهما ، حتى أدخلتهما على رسول الله عليهما السلام (١) .

وستنتقل نوادر الحب والتفضلي في موقع شتى من هذه المقالة ، ولا سيما ما وقع في يوم أحد ، وما وقع من خبيب وأمثاله .

٣ - الشعور بالمسؤولية – فكان الصحابة يشعرون شعوراً تماماً ما على كواهل البشر من المسؤولية الفخمة الضخمة ، وأن هذه المسؤولية لا يمكن عنها الخياد والانحراف بحال ، فالعواقب

(١) البداية والنهاية ٣٠/٣ .

التي تترتب على الفرار عن تحملها أشد وخامة وأكبر ضرراً عما هم فيه من الاضطهاد ، وأن الخسارة التي تلحقهم - وتلحق البشرية جماء - بعد هذا الفرار لا يقاس بحال على المتابع التي كانوا يواجهونها نتيجة هذا التحمل .

٤ - الإيمان بالأخرة - وهو مما كان يقوى هذا الشعور - الشعور بالمسؤولية - فقد كانوا على يقين جازم من أنهم يقومون لرب العالمين ، يحاسبون بأعمالهم دفها وجلها ، صغيرها وكبیرها ، فإذا إلى النعيم المقيم ، وإما إلى عذاب خالد في سوء الجحيم ، فكانوا يقضون حياتهم بين الحنف والرجاء ، يرجون رحمة ربهم ويختلفون عذابه ، وكانوا ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَلَقُولُوْمَ وَرِجْلَهُمْ إِلَى زَرَّهُمْ رَكِعُوْنَ﴾ وكانوا يعرفون أن الدنيا بعذابها ونعيمها لا تساوي جناح بعوضة في جنب الآخرة ، وكانت هذه المعرفة القوية تهون لهم متابعتها ومشاقها ومرارتها ، حتى لم يكونوا يكترثون لها ويلقون إليها بالأـ .

٥ - القرآن - وفي هذه الفترات العصبية الرهيبة الحالكة كانت تنزل السور والأيات تقيم الحجج والبراهين على مبادئ الإسلام - التي كانت الدعوة تدور حولها - بأساليب منيعة خلابة ، وترشد المسلمين إلى أساس قدر الله أن يتكون عليهم أعظم وأروع مجتمع بشري في العالم - وهو المجتمع الإسلامي - وتنير مشاعر المسلمين ونوازعهم على الصبر والتجلد ، تضرب لذلك الأمثال ، وتبين لهم ما فيه من الحكم : ﴿أَمَّا حَسِبْتُمْ أَنَّ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مِثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهِمْ أَبْسَأَهُمْ وَالضَّرَّاءُ وَرُزْلِوا حَقَّ يَقُولُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ أَمْنَوْا مَعَهُمْ مَنِّي نَصْرًا اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٢١٤: ٢) ﴿اللَّهُ أَحَسَّ النَّاسَ أَنَّ يُرَكَّوْنَ أَنَّ يَقُولُوا أَمَّا كَا وَهُمْ لَا يَفْتَنُونَ﴾ ولقد فتنَتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٣٠، ٢١، ٢٩﴾ .

كما كانت تلك الآيات ترد على إبرادات الكفار والمعاندين ردًّا مفحماً ، ولا تبقى لهم حيلة ، ثم تحدّرهم مرة عن عاقب وخيمة - إن أصرّوا على غيّهم وعنادهم - في جلاء ووضوح ، مستدلاً بأيام الله ، والشواهد التاريخية التي تدل على سنة الله في أوليائه وأعدائه ، وتلطّفهم مرة ، وتوادي حق التفهم والإرشاد والتوجيه ، حتى ينصرفوا عما هم فيه من الضلال المبين .

وكان القرآن يسير بال المسلمين في عالم آخر ، ويصرّهم من مشاهد الكون ، وجمال الروبيّة ، وكمال الألوهية ، وآثار الرحمة والرأفة ، وتحليات الرضوان ما يحيّنون إليه حينياً لا يقوم أي عقبة .

وكانت في طي هذه الآيات خطابات للمسلمين ، فيها يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، وتصور لهم صورة أعدائهم من الكفارة الطغاة الظالمين ، يحاكمون ، ويصادرون ، ثم يسجبون في النار على وجوههم ، ذوقوا مس سفر .

٦ - البشارات بالنجاح - ومع هذا كله كان المسلمون يعرفون منذ أول يوم لاقوا فيه الشدة والاضطهاد - بل ومن قبله - أن الدخول في الإسلام ليس معناه جر المصائب والحتوف . بل إن الدعوة الإسلامية تهدف - منذ أول يومها - إلى القضاء على الجاهلية الجهلاء ونظامها الغاشم ، وأن من أهدافها الأساسية بسط النفوذ على الأرض والسيطرة على الموقف السياسي في العالم ، لتقود الأمة الإنسانية والجمعية البشرية إلى مرضاة الله . وتخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله .

وكان القرآن يتذلّل بهذه البشارات - مرة بالتصريح وأخرى بالكتابية - ففي تلك الفترات القاسمة التي ضيقت الأرض على المسلمين ، وكادت تخنقهم ، وتقضي على حياتهم ، كانت تنزل الآيات بما جرت بين الأنبياء السابقين وبين أقوامهم الذين قاموا بتكميلهم والكفر بهم ، وكانت تشتمل هذه الآيات على ذكر الأحوال التي تطابق تماماً أحوال مسلمي مكة وكفارها ، ثم تذكر هذه الآيات بما تمخضت عنه تلك الأحوال من إهلاك الكفارة والظالمين ، وإيراث عباد الله الأرض والديار . فكانت في هذه القصص إشارات واضحة إلى فشل أهل مكة في المستقبل ، ونجاح المسلمين مع نجاح الدعوة الإسلامية .

وفي هذه الفترات نزلت آيات تصرح بيسارة غلبة المؤمنين قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُلَّ مُنَذِّرٍ بِعِبَادَنَا الرَّسُولَيْنَ ﴾١٦١﴿ إِنَّمَا كَمُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾١٦٢﴿ وَلَنْ جُنَاحَاهُمُ الْغَلَبُوْنَ ﴾١٦٣﴿ فَتُؤْلَى عَنْهُمْ حَقَّ حِلَّيْنِ ﴾١٦٤﴿ وَبَتِّرَهُمْ قَسْوَفُ يَبْصِرُوْنَ ﴾١٦٥﴿ أَفَيُعِذًا بِإِنَّا يَسْتَعْجِلُوْنَ ﴾١٦٦﴿ فَإِذَا نَزَّلَ سَاحِرُهُمْ فَسَاءَ صَبَّاحُ الْمُنْذَرِيْنَ ﴾١٦٧﴾
٣٧ ، ١٧١ - ١٧٧ وقال : ﴿ سَيِّرُهُمُ الْمَعْمُوْنُ وَيَوْلُوْنَ الدَّبَرَ ﴾١٦٨﴿ ٥٤ : ٤٥﴾ وقال : ﴿ جُنَاحٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَخْرَابِ ﴾١٦٩﴿ ٣٨﴾ ونزلت في الذين هاجروا إلى الحبشة : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوْلَهُمُ الْبَيْتَنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَا جُرْأَهُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُوْنَ ﴾١٦١﴾ وسألوه عن قصة يوسف فأنزل الله في طيبة : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَلَخُوْيِهِ مَا يَنْتَلِلُ السَّابِلَيْنَ ﴾١٦٢﴾ ٧) أي فأهل مكة السائلون يلاقون ما لاقي إخوانه من الفشل ، ويستسلمون كاستسلامهم ، وقال وهو يذكر الرسل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رُسُلَهُمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَاتِنَا فَأَوْحَى إِنَّهُمْ رَجُوْمٌ لَّهُمْ لَنْ يُلْكِنَ الظَّلَمِيْنَ ﴾١٦٣﴾

وَلَنْسَكُنْتُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِهِ ﴿١٤﴾ (١٣:١٤) .
وحيناً كانت الحرب مشتعلة بين الفرس والرومان ، وكان الكفار يحبون غلبة الفرس بصفتهم
مشركين ، وال المسلمين يحبون غلبة الرومان بصفتهم مؤمنين بالله والرسول والوحى والكتب واليوم
الآخر وكانت الغلبة للفرس ، أنزل الله بشارة غلبة الروم في بعض سنين ، ولكنه لم يقتصر على هذه
البشرة الواحدة ، بل صرخ بشارة أخرى وهي نصر الله للمؤمنين حيث قال : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ
يَفْرَغُ الْمُؤْمِنُونَ لِّبِنَاتِ اللَّهِ ﴾ (٣٠:٤) .

وكان رسول الله ﷺ نفسه يقوم بمثل هذه البشارات بين آونة وأخرى ، فكان إذا وافق
الموسم ، وقام بين الناس في عكاظ وجنة وذى المجاز ، لتبلیغ الرسالة ، لم يكن يبشرهم بالجنة
فحسب ، بل يقول لهم بكل صراحة ، يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وتملكوا بها
العرب ، وتدين لكم بها العجم ، فإذا متم كنتم ملوكاً في الجنة^(١) .

وقد أسلفنا ما أجاب به النبي ﷺ عتبة بن ربيعة حين أراد مساومته على رغائب الدنيا ،
وما فهمه ورجاه عتبة من ظهور أمره عليه الصلاة والسلام .

وكذلك ما أجاب به النبي ﷺ آخر وقد جاء إلى أبي طالب ، فقد صرخ لهم أنه يطلب
منهم كلمة واحدة يعطونها ، تدين لهم العرب ، ويعملون العجم .

قال خباب بن الأرت : أتيت النبي ﷺ وهو متوسد برده ، وهو في ظل الكعبة ، وقد لقينا
من المشركين شدة ، قلت : ألا تدعوا الله ، فقدع ، وهو محمر وجهه ، فقال : لقد كان من
قبلكم ليشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن
الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله – زاد بيان الراوي –
والذئب على غنم^(٢) وفي رواية ولكنكم تستعجلون^(٣) .

ولم تكن هذه البشارات مخفية مستورة ، بل كانت فاشية مكشوفة ، يعلمها الكفرة ، كما
كان يعلمها المسلمين ، حتى كان الأسود بن المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبي ﷺ

(١) رواه الترمذى وقد مضى مراراً .

(٢) صحيح البخارى ٥٤٣/١ .

(٣) نفس المصدر ٥١٠/١ .

تغامزوا بهم ، وقالوا : قد جاءكم ملوك الأرض ، سيفلبون على ملوك كسرى وقيصر ، ثم يصفرون ويصفقون^(١) .

وأمام هذه البشارات بالمستقبل الحميد المستنير في الدنيا ، مع ما فيه من الرجاء الصالح الكبير بالبالغ إلى النهاية في الفوز بالجنة ، كان الصحابة يرون أن الأضطهادات التي تتوالى عليهم من كل جانب ، وال المصائب التي تحيط بهم من كل الأرجاء ، ليست إلا : « سحابة صيف عن قليل تفشع » .

هذا ولم يزل الرسول ﷺ يغذي أرواحهم برغائب الإيمان ، ويزكي نفوسهم بتعليم الحكمة والقرآن ، ويربيهم تربية دقيقة عميقة ، يحدو بنفسهم إلى منازل سمو الروح ، ونقاء القلب ، ونظافة الخلق ، والتحرر من سلطان الماديات ، والمقاومة للشهوات ، والتزوع إلى رب الأرض والسماءات ، ويدركي جمرة قلوبهم ، وينحرجهم من الظلمات إلى النور ، ويأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل وقهر النفس ، فازدادوا رسوحاً في الدين ، وعزوفاً عن الشهوات ، وتفانياً في سبيل المرضاة ، وحنيناً إلى الجنة ، وحرصاً على العلم ، وفقهاً في الدين ، ومحاسبة للنفس وقهرها للتزععات ، وغلبة على العواطف ، وتسبيطاً على التاثرات والهائجات ، وتقيداً بالصبر والمدودة والوقار .

(١) فقه السيرة ص ٨٤ .

المرحلة الثالثة دعوة الإسلام خارج مكة

الرسول - ﷺ - في الطائف :

في شوال^(١) سنة عشر من النبوة (في أواخر مايو أو أوائل يونيو سنة ٦١٩ م) خرج النبي ﷺ إلى الطائف ، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلًا ، سارها ماشياً على قدميه جيئه وذهوباً ، ومعه مولاه زيد بن حارثة ، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام ، فلم تجب إليه واحدة منها . فلما انتهى إلى الطائف عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف ، وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الفقي ، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله ، وإلى نصرة الإسلام ، فقال أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة (أي يزقها) ، إن كان الله أرسلك ، وقال الآخر : أما وجد الله أحداً غيرك ، وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، إن كنت رسولاً لأنك أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولكن كنت تكذب على الله ما يتبعني أن أكلمك . فقام عنهم رسول الله ﷺ ، وقال لهم : إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى .

وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام ، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلمه ، فقالوا : اخرج من بلادنا ، وأغروا به سفهاءهم ، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعيدهم ، يسبوته ويصيرون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، فوقفوا له ساطين (أي صفين) وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفة ، ورجموا عرقيبه ، حتى اختضب نعلاه بالدماء . وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه ، حتى أصابه شجاج في رأسه ، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى أخلاؤه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة ، على ثلاثة أميال من الطائف ، فلما التجأ إليه رجعوا

(١) صرح بذلك النجيب آبادي في تاريخ إسلام ١٢٢١ ، وهو الراجع عندي .

عنه ، وأتى رسول الله ﷺ إلى حبلة من عنب ، فجلس تحت ظلها إلى جدار فلما جلس إليه واطمأن ، دعا بالدعاء المشهور الذي يدل على امتلاء قلبه كآبة وحزناً لما لقي من الشدة ، أسفًا على أنه لم يؤمن به أحد ، قال :

(اللهم إلينك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتوجهبني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبيالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعود بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك) .

فلما رأه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً ، يقال له عداس ، وقال له : خذ قطضا من هذا العنبر واذهب به إلى هذا الرجل . فلما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ مد يده إليه قائلاً : « باسم الله » ، ثم أكل .

قال عداس : إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ : من أى البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ قال : أنا نصري ، من أهل « نينوى ». فقال رسول الله ﷺ من قرية الرجل الصالحة يونس بن متى . قال له : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال رسول الله ﷺ : ذاك أخي ، كاننبياً وأنانبي ، فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبلها .

قال ابنا ربيعة أحد هما للآخر : أما غلامك فقد أفسدك عليه . فلما جاء عداس قال له : ويحك ما هذا ؟ قال : يا سيدى ، ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل ، لقد أخربني بأمر لا يعلمه إلانبي ، قال له : ويحك يا عداس ، لا يصرفك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه .

ورجع رسول الله ﷺ في طريق مكة بعد خروجه من الحائط كثيماً محزوناً كسير القلب ، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال ، يستأمره أن يطبق الأحشبين على أهل مكة .

وقد روى البخاري تفصيل القصة - بسنده - عن عروة بن الزبير ، أن عائشة رضي الله عنها حدثه أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال :

لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجني إلى ما أردت ، فانطلقت – وأنا مهموم – على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الشعال – وهو المسمى بقرن المنازل – فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أطلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك . وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فنادي ملك الجبال ، فسلم علي ، ثم قال : يا محمد ، ذلك ، فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين – أي لفعلت ، والأخشبان : هما جبلان مكة ، أبو قبيس والذي يقابلها وهو قعيقان – قال النبي عليه السلام : بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً^(١) .

وفي هذا الجواب الذي أدلني به الرسول عليه السلام تجلت شخصيته الفذة ، وما كان عليه من الخلق العظيم الذي لا يدرك غوره .

وأفاق رسول الله عليه السلام ، واطمأن قلبه ؛ لأجل هذا النصر الغيبي الذي أمدده الله عليه من فوق سبع سماوات ، ثم تقدم في طريق مكة حتى بلغ وادي نخلة ، وأقام فيه أياماً . وفي وادي نخلة موضعان يصلحان للإقامة – السيل الكبير والرية – لما بهما من الماء والخصب ، ولم نقف على مصدر يعين موضع إقامته عليه السلام فيهما .

وخلال إقامته هناك بعث الله إليه نفراً من الجن ، ذكرهم الله في موضعين من القرآن ، في سورة الأحقاف : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوْا فَلَمَّا فُضِّلُوا وَلَوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِيْنَ ﴾١﴿ قَالُوا يَقُولُونَ مِنْ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا نُزِّلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْقِيمٍ ﴾٢﴿ يَقُولُونَ مِنْ أَجْبَوْا دَاعِيَ اللَّهِ وَإِمْنَوْا بِهِ يَعْفُرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُبَرِّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾٤٦ : ٣٠ ، ٢٩ . ٣١ . ٤٦﴾ .

وفي سورة الجن : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ أَسْتَمِعُ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَعَامَنَاهُهُ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرِبِّنَا أَحَدًا ﴾١ إلى تمام الآية الخامسة عشرة .

(١) صحيح البخاري . كتاب بدء الخلق / ١٥٨ ، مسلم . باب ما لقي النبي عليه السلام من أذى المشركين والمنافقين . ١٠٩/٢ .

ومن سياق هذه الآيات - وكذا من سياق الروايات التي وردت في تفسير هذا الحادث - يتبين أن النبي ﷺ لم يعرف بحضور ذلك التفر من الجن ، وإنما علم بذلك حين أطلعه الله عليه بهذه الآيات ، وأن حضورهم هذا كان لأول مرة ، ويقتضي سياق الروايات أنهم وفدو بعد ذلك مراراً .

وحقاً كان هذا الحادث نصراً آخر أمدده الله من كنوز غيه المكتون بمحنوده التي لا يعلمها إلا هو ، ثم إن الآيات التي نزلت بقصد الحادث كانت في طيبة بشارات بنجاح دعوة النبي ﷺ ، وأن أي قوة من قوات الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها : ﴿ وَمَنْ لَا يُحِبَّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَفْلَانِهُ أَوْلَانِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٤٦ : ٣٢) ﴿ وَإِنَّا أَنَّ لَنَا نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنَنْعِزَ مَهْرَبَاهُ ﴾ (١٢ : ٧٢) .

أمام هذه النصرة ، وأمام هذه البشارات ، أقشعت سحابة الكآبة والحزن واليأس ، التي كانت مطية عليه منذ أن خرج من الطائف مطروداً مدحوراً ، حتى صمم على العود إلى مكة ، وعلى القيام باستئناف خطته الأولى في عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد وجد وحماس .

وحيثند قال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوكم ؟ يعني قريشاً ، فقال : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً وخرجاً ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه .

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا دنا من مكة مكت بحراء ، وبعث رجلاً من خزاعة إلى الأنس بن شريق ليجيشه ، فقال : أنا حليف ، والحليف لا يغير . فبعث إلى سهل بن عمرو ، فقال سهل : إنبني عامر لا تغير علىبني كعب ، فبعث إلى المطعم بن عدي ، فقال المطعم : نعم ، ثم تسلح ودعا بيته وقومه فقال : البسو السلاح ، وكونوا عند أركان البيت ، فإني قد أجرت حمداً ، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ : أن ادخل ، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى يا معشر قريش ، إني قد أجرت حمداً فلا يهجه أحد منكم ، وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه ، وصل ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، ومطعم بن عدي وولده محدثون به بالسلاح حتى دخل بيته .

وقيل : إن أبا جهل سأله مطعماً : أبجير أنت أم متابع - مسلم -؟ قال : بل مجير . قال : قد أجرنا من أجرت^(١) .

وقد حفظ رسول الله ﷺ للمطعم هذا الصنبع ، فقال في أسارى بدر : لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له^(٢) .

(١) النقطنا تفصيل حادث الطائف من ابن هشام ٤١٩/١ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، وزاد المعاد ٤٦/٢ ، ٤٧ ، وختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ورحمة للعالين ٧١/١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، وتاريخ إسلام للنجيب آبادي ١٢٣/١ ، ١٢٤ .

(٢) صحيح البخاري ٥٧٣/٢ .

عرض الإسلام على القبائل والأفراد

في ذي القعدة سنة عشر من النبوة – في أواخر يونيو أو أوائل يوليو سنة ٦١٩ م – عاد رسول الله ﷺ إلى مكة ؛ ليستأنف عرض الإسلام على القبائل والأفراد ، ولاقترب الموسم كان الناس يأتون إلى مكة رجالاً ، وعلى كُل ضامر يأتي من كل فج عميق ، لقضاء فريضة الحج ، وليشهدوا منافع لهم ، ويدركوا الله في أيام معلومات ، فانتهز رسول الله ﷺ هذه الفرصة ، فأتاهم قبيلة قبيلة يعرض عليهم الإسلام ، ويدعوهم إليه ، كما كان يدعوهم منذ السنة الرابعة من النبوة ..

القبائل التي عرض عليها الإسلام:

قال الزهري : وكان من يسمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ ، ودعاهم عرض نفسه عليهم بنو عامر بن صعصعة ، ومحارب بن خصفة ، وفرازة ، وغسان ، ومرة ، وحنيفة ، وسلمي ، وعبس ، وبنو نصر ، وبنو البكاء ، وكندة ، وكلب ، والحارث بن كعب ، وعدرة ، والحضرامة ، فلم يستجب منهم أحد^(١) .

وهذه القبائل التي سماها الزهري لم يكن عرض الإسلام عليها في سنة واحدة ، ولا في موسم واحد ، بل إنما كان ما بين السنة الرابعة من النبوة إلى آخر موسم قبل الهجرة . ولا يمكن تسمية سنة معينة لعرض الإسلام على قبيلة معينة ، نعم هناك قبائل قد جزم العلامة المنصور فوري أن عرض الإسلام عليهم كان في موسم السنة العاشرة^(٢) . وقد ذكر ابن إسحاق كيفية العرض وردودهم ، وهناك ملخصاً :

(١) روى ذلك الترمذى ، انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله التجدي ص ١٤٩ .

(٢) رحمة للعالمين ١/٧٤ ، وبه جزم النجيب آبادى ، انظر تاريخ إسلام ١٢٥/١ .

١ - بنو كلب - أتى النبي ﷺ إلى بطن منهم ، يقال لهم بنو عبد الله ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، حتى إنه ليقول لهم : يا بني عبد الله ، إن الله قد أحسن اسم أبيكم ، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم .

٢ - بنو حنيفة - أتاهم في منازلهم فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه رداً منهم .

٣ - وأتى إلىبني عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فقال بحيرة بن فراس (رجل منهم) : والله لو أتيتني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال : أرأيت إن نحن بايتك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعده؟ قال : الأمر إلى الله ، يضعه حيث يشاء ، فقال له : أفتهدنخورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه .

ولما رجعت بنو عامر تحدثوا إلى شيخ لهم لم يواكب الموسم ، لكبر سنه ، وقالوا له : جاءنا في من قريش منبني عبد المطلب ، يزعم أنهنبي ، يدعونا إلى أن نمنعه ، ونقوم معه ، ونخرج به إلى بلادنا ، فوضع الشیخ يديه على رأسه ، ثم قال : يابني عامر هل لها من تلاف؟ لذنبابها^(١) من مطلب؟ والذي نفس فلان بيده ما تقوها إسماعيلي فقط ، وإنها لحق ، فain رأيكم كان عنكم^(٢)؟

المؤمنون من غير أهل مكة:

وكما عرض رسول الله ﷺ الإسلام على القبائل والوفود ، عرض على الأفراد والأشخاص ، وحصل من بعضهم على ردود صالحة ، وأمن به عدة رجال بعد هذا الموسم بقليل . وهناك لوحة منهم :

١ - سويد بن صامت - كان شاعرًا لبياً من سكان يثرب ، يسميه قومه الكامل ، لحلده وشعره وشرفه ونسبه ، جاء مكة حاجاً أو معتمراً ، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، فقال : لعل الذي معلمك مثل الذي معي . فقال له رسول الله ﷺ : وما الذي معلمك . قال : حكمة لقمان . قال : اعرضها على . فعرضها ، فقال له رسول الله ﷺ : إن هذا الكلام حسن ، والذي

(١) مثل يضرب لما فات ، وأصله من ذنابي الطائر إذا أفلت من حباله فطلبت الأخذ بذناباه .

(٢) ابن هشام ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

معي أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى على ، هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فأسلم ، وقال : إن هذا لقول حسن . فلما قدم المدينة لم يلبث أن قتل يوم بعاث^(١) . وكان إسلامه في أوائل سنة ١١ من النبوة^(٢) .

٢ - إياس بن معاذ - كان غلاماً حدثاً من سكان يثرب ، قدم في وفد من الأوس ، جاءوا يتسمون بالخلف من قريش على قومهم من الخزرج ، وذلك قبيل حرب بعاث في أوائل سنة ١١ من النبوة ، إذ كانت نيران العداوة متقدة في يثرب بين القبيلتين - وكان الأوس أقل عدداً من الخزرج - فلما علم رسول الله ﷺ بقدمهم جاءهم فجلس إليهم ، وقال لهم : هل لكم في خير مما جئتم به ؟ فقالوا : وما ذاك ؟ قال : أنا رسول الله ، بمعنى إلى العباد ، أدعوهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل على الكتاب ، ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فقال إياس بن معاذ : أي قوم ، هذا والله خير مما جئتم به ، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع - رجل كان في الوفد - حفنة من تراب البطحاء فرمى بها وجه إياس ، وقال : دعنا عنك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا ، فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ ، وانصرفوا إلى المدينة من غير أن ينجحوا في عقد حلف مع قريش .

وبعد رجوعهم إلى يثرب لم يلبث إياس أن هلك ، وكان يهلك ويكتب ويحمد ، ويسبح عند موته ، فلا يشكرون أنه مات مسلماً^(٣) .

٣ - أبو ذر الغفارى - وكان من سكان نواحي يثرب ، ولما بلغ إلى يثرب خبر مبعث النبي ﷺ بسويد بن صامت وإياس بن معاذ وقع في أذن أبي ذر أيضاً ، وصار سبباً لإسلامه^(٤) .

روى البخاري عن ابن عباس قال : قال أبو ذر : كنت رجلاً من غفار ، فبلغنا أن رجلاً قد خرج يزعم أنهنبي ، فقلت لأخى : انطلق إلى هذا الرجل وكلمه ، واتنتي بخبره ، فانطلق ، فلقيه ، ثم رجع ، فقلت : ما عندك ؟ فقال : والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير ، وينهى

(١) نفس المصدر ٤٢٥/١ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، رحمة للعلميين ١/٧٤ .

(٢) تاريخ إسلام للنجيب آبادي ١/١٢٥ .

(٣) ابن هشام ١/٤٢٧ ، ٤٢٨ ، و تاريخ إسلام للنجيب آبادي ١/١٢٦ .

(٤) نفس المصدر الأخر ١/١٢٨ .

عن الشر ، فقلت له : لم تشفي من الخبر ، فأخذت جراباً وعصاً ، ثم أقبلت إلى مكة ، فجعلت لا أعرفه ، وأكره أن أسأله عنه ، وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد . قال : فمر بي على . فقال : كأن الرجل غريب ؟ قال : قلت : نعم . فقال : فانطلق إلى المنزل ، فانطلقت معه ، لا يسألني عن شيء ولا أسأله ولا أخبره . فلما أصبحت غدوت إلى المسجد ؛ لأسائل عنه ، وليس أحد يخبرني عنه بشيء . قال : فمر بي على فقال : أما زال للرجل يعرف منزله بعد ؟ قال : قلت لا . قال : فانطلق معى ، قال : فقال : ما أمرك ؟ وما أقدمك هذه البلدة ؟ قال : قلت له : إن كممت على أحبرتك ، قال : فإني أفعل ، قال : قلت له : بلغنا أنه قد خرج ه هنا رجل يزعم أنه نبي الله فأرسلت أخي يكلمه ، فرجع ولم يشفي من الخبر ، فأردت أن ألقاه .

قال له : أما إنك قد رشدت ، هذا وجهي إليه ، ادخل حيث أدخل ، فإني إن رأيت أحداً أخافه عليك قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي ، وامض أنت ، فمضى ، ومضيت معه حتى دخل ، ودخلت معه على النبي ﷺ ، قلت له : اعرض على الإسلام ، فعرضه ، فأسلمت مكانى ، فقال لي : يا أبا ذر ، أكتم هذا الأمر ، وارجع إلى بلدك ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل . قلت : والذي بعثك بالحق لأخرجن بها بين أظهرهم ، فجئت إلى المسجد وقريش فيه ، قلت : يا عشر قريش ، إنيأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فقالوا : قوموا إلى هذا الصابىء . فقاموا ، فضربت لأمومت ، فأدركني العباس ، فأكب علي ، ثم أقبل عليهم فقال ، ويلكم تقتلون رجلاً من غفار ؟ ومتجركم وممركم على غفار . فأقلعوا عنى ، فلما أن أصبحت الغد ، رجعت ، قلت مثل ما قلت بالأمس ، فقالوا قوموا إلى هذا الصابىء ، فصنع بي ما صنع بالأمس ، فأدركني العباس ، فأكب علي وقال مثل مقالته بالأمس^(١) .

٤ - طفيلي بن عمرو الدوسى - كان رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً رئيس قبيلة دوس ، وكان لقبيلته إمارة أو شبه إمارة في بعض نواحي اليمن ، قدم مكة في عام ١١ من النبوة ، فاستقبله أهلها قبل وصوله إليها ، ويدلوا له أجل تحية وأكرم التقدير ، وقالوا له : يا طفيلي ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا ، وقد فرق جماعتنا ، وشت أمينا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وأبيه ، وبين الرجل وأخيه ، وبين الرجل وزوجه ، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئاً .

(١) صحيح البخاري باب قصة زمزم ٤٩٩ / ١ ، ٥٠٠ وباب إسلام أبي ذر ١ / ٥٤٤ ، ٥٤٥ .

يقول طفيلي : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه ، حتى حشوت أدني حين غدوت إلى المسجد كرسفا ؛ فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله ، قال فغدوت إلى المسجد ، فإذا هو قائم يصلى عند الكعبة ، فقمت قريباً منه ، فأبا الله إلا أن يسمعني بعض قوله ، فسمعت كلاماً حسناً ، فقلت في نفسي : واثكل أمي ، والله إنني رجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يعنيني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته ، فمكثت حتى انصرف إلى بيته ، فاتبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فعرضت عليه قصة مقدمي ، وتخويف الناس إياي ، وسد الأذن بالكرسف ، ثم سمع بعض كلامه ، وقلت له : اعرض علي أمرك ، فعرض علي الإسلام ، وتلا علي القرآن ، فوالله ما سمعت قولأً قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت له : إني مطاع في قومي ، وراجع إليهم ، وداعيمهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لي آية ، فدعا .

وكانت آيتها أنه لما دنا من قومه جعل الله نوراً في وجهه مثل المصباح ، فقال : اللهم في غير وجهي ، أخشي أن يقولوا : هذه مثلا ، فتحول النور إلى سوطه ، فدعا أبوه وزوجته إلى الإسلام فأسلموا ، وأبطاً عليه قومه في الإسلام لكن لم يزل بهم حتى هاجر بعد الخندق^(١) ومعه سبعون أو ثمانون بيضاً من قومه ، وقد أبلى في الإسلام بلا حسناً ، وقتل شهيداً يوم البیامة^(٢) .

٥ - ضماد الأزدي - كان من أزد شنوة من اليدين ، وكان يرقى من هذا الربع ، قدم مكة فسمع سفهاءها يقولون : إن محمداً مجنون ، فقال : لو أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي ، فلقيه ، فقال : يا محمد ، إني أرقى من هذا الربع ، فهل لك ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضلله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد .

قال : أعد على كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، فقال : لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن قاموس البحر ، هات يدك أبأيتك على الإسلام ، فبأيعمه^(٣) .

(١) بل وبعد الحديثة ، فقد قدم المدينة ورسول الله ﷺ ينbir . انظر ابن هشام ٣٨٥/١ .

(٢) ابن هشام ١/٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، رحمة للعلميين ١/٨١ ، ٨٢ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٤٤ ، تاريخ إسلام للنجيب آبادي ١/١٢٧ .

(٣) رواه مسلم ، مشكاة المصابيح ، باب علامة النبوة ٥٢٥/٢ .

ست نسمات طيبة من أهل يثرب:

وفي موسم الحج من سنة ١١ من النبوة - يوليو سنة ٦٢٠ - وجدت الدعوة الإسلامية بذوراً صالحة ، سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات ، اتقى المسلمون في ظلها الوارفة عن لفحات الظلم والطغيان طيلة أعوام .

وكان من حكمته ﷺ - إزاء ما كان يلقى من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل الله - أنه كان يخرج إلى القبائل في ظلام الليل ، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من أهل مكة المشركين^(١) .

خرج كذلك ليلة ومعه أبو بكر وعلي ، فمر على منازل ذهل وشيبان بن ثعلبة وكلمهم في الإسلام . وقد دارت بين أبي بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة ، وأجاد بني شيبان بأرجى الأجوبة ، غير أنهم توقفوا في قبول الإسلام^(٢) .

ثم مر رسول الله ﷺ بعقبة مني ، فسمع أصوات رجال يتكلمون^(٣) ، فعمدتهم حتى لحقهم ، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب ، كلهم من الخزرج ، وهم :

- (١) أسعد بن زراة
- (٢) عوف بن الحارث بن رفاعة ، ابن عفراء
- (٣) رافع بن مالك بن العجلان
- (٤) قطبة بن عامر بن حديدة
- (٥) عقبة بن عامر بن نابي
- (٦) جابر بن عبد الله بن رئاب

وكان من سعادة أهل يثرب أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة أن نبياً من الأنبياء مبعوث في هذا الزمان ، سيخرج فتبعه ، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم^(٤) .

(١) تاريخ إسلام للتحبيب آبادي ١٢٩/١ .

(٢) انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٥١ ، ١٥٠ ، ١٥٢ .

(٣) رحمة للعاملين ٨٤/١ .

(٤) زاد المعاد ٥٠/٢ ، وابن هشام ٤٢٩/١ ، ٥٤١ .

فلما لحقهم رسول الله ﷺ قال لهم : من أنتم ، قالوا : نفر من الخزرج ، قال : من موالي اليهود ؟ أي حلفائهم ، قالوا : نعم . قال : أفلأ تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه ، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته ، ودعاهم إلى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن . فقال بعضهم بعض : تعلمون والله يا قوم ، إنه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقونكم إليه ، فأسرعوا إلى إجابة دعوته وأسلموا .

وكانوا من عقلاء يثرب ، أنهكتهم الحرب الأهلية التي مضت من قرب ، والتي لا يزال لها بها مستعرًا ، فأملوا أن تكون دعوته سبباً لوضع الحرب ، فقالوا : إننا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فستقدم عليهم ، فندعوه إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

ولما رجع هؤلاء إلى المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ ^(١) .

استطراد تزويج رسول الله - ﷺ - بعائشة :

وفي شوال من هذه السنة - سنة ١١ من النبوة - تزوج رسول الله ﷺ عائشة الصديقة رضي الله عنها ، وهي بنت ست سنين وبني بها بالمدينة في شوال في السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع سنين ^(٢) .

(١) نفس المصدر ٤٢٩ ، ٤٢٨/١ .

(٢) تلقيع فهوم أهل الآخر ص ١٠ ، صحيح البخاري ٥٥١/١ .

الإسراء والمعراج

ويبن النبي ﷺ في هذه المرحلة التي كانت دعوته تشق فيها طريقاً بين النجاح والاضطهاد ، وكانت تتراءى نحوماً ضئيلة تتلمع في آفاق بعيدة ، وقع حادث الإسراء والمعراج .

واختلف في تعين زمنه على أقوال شتى :

- ١ - فقيل : كان الإسراء في السنة التي أكرمه الله فيها بالنبوة ، اختاره الطبرى .
- ٢ - وقيل : كان بعد المبعث بخمس سنين ، رجع ذلك النبوي والقرطبي .
- ٣ - وقيل : كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٠ من النبوة ، اختاره العلامة المنصورفوري .

٤ - وقيل : قبل الهجرة بستة عشر شهراً ، أي في رمضان سنة ١٢ من النبوة .

٥ - وقيل : قبل الهجرة بسنة وشهرين ، أي في المحرم سنة ١٣ من النبوة .

٦ - وقيل : قبل الهجرة بسنة ، أي في ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة .

وردت الأقوال الثلاثة الأولى بأن خديجة رضي الله عنها توفيت في رمضان سنة عشر من النبوة ، وكانت وفاتها قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كانت ليلة الإسراء^(١) . أما الأقوال الثلاثة الباقية فلم أجده ما أرجح به واحداً منها ، غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء متأخر جداً .

(١) انظر لهذه الأقوال زاد المعاد ٤٩/٢ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، رحمة للعالمين ١/٧٦ وتاريخ إسلام للنجيب آبادي ١٢٤/١ .

وروى أئمَّةُ الْحَدِيثِ تفاصيلَ هذِهِ الْوَقْعَةِ . وَفِيهَا يُلَيِّ نَسْرَدُهَا بِإِيمَاجِازِ :

قال ابن القيم : أسرى برسول الله ﷺ ، بحسبه على الصحيح ، من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ، راكباً على البراق ، صحبة جبريل عليهما الصلاة والسلام ، فنزل هناك ، وصل بالأنبياء إماماً ، وربط البراق بحلقة باب المسجد .

ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا ، فاستفتح له جبريل ، ففتح له ، فرأى هنالك آدم أبا البشر ، وسلم عليه ، فرحب به ، ورد عليه السلام ، وأقر بنبوته ، وأراه الله أرواح الشهداء عن بيته ، وأرواح الأشقياء عن يساره .

ثم عرج به إلى السماء الثانية ، فاستفتح له ، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم ، فلقيهما وسلم عليهما ، فردا عليه ، ورحبا به ، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الثالثة ، فرأى فيها يوسف ، وسلم عليه ، فرد عليه ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الرابعة ، فرأى فيها إدريس ، وسلم عليه ، ورحب به وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الخامسة ، فرأى فيها هارون بن عمران ، وسلم عليه ، ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء السادسة فلقي فيها موسى بن عمران ، وسلم عليه ورحب به ، وأقر بنبوته .

فلما جاوزه بكى موسى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أبكي لأن غلاماً بعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي .

ثم عرج به إلى السماء السابعة ، فلقي فيها إبراهيم عليه السلام ، وسلم عليه ، ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم رفع إلى سدة المنتهى ، ثم رفع له البيت المعمور .

ثم عرج به إلى الجبار جل جلاله ، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، وفرض عليه خمسين صلاة ، فرجع حتى مرّ على موسى ، فقال له : بم أمرك ؟

قال بمحسين صلاة : قال : إن أمتك لا تطبق ذلك ، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فالتفت إلى جبريل ، كأنه يستشيره في ذلك ، فأشار : أن نعم ، إن شئت ، فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى ، وهو في مكانه – هذا لفظ البخاري في بعض الطرق – فوضع عنه عشراً ، ثم أنزل حتى مر موسى ، فأخبره ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل ، حتى جعلها خمساً ، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف ، فقال : قد استحييت من ربِّي ، ولكنني أرضي وأسلم ، فلما بعد نادى مناد : قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي – انتهى^(١) .

ثم ذكر ابن القيم خلافاً في رؤيته ﷺ ربه تبارك وتعالى ، ثم ذكر كلاماً لابن تيمية بهذا الصدد ، وحاصل البحث أن الرؤية بالعين لم ثبتت أصلاً وهو قول لم يقله أحد من الصحابة . وما نقل عن ابن عباس من رؤيته مطلقاً ورؤيته بالفؤاد فال الأول لا ينافي الثاني .

ثم قال : وأما قوله تعالى في سورة النجم ﴿ثُمَّ دَنَّا فَنَدَلَ﴾ (٨ : ٥٣) فهو غير الدنو الذي في قصة الإسراء ، فإن الذي في سورة النجم هو دنو جبريل ، وتدلية ، كما قالت عائشة وابن مسعود ، والسياق يدل عليه ، وأما الدنو والتدلية في حديث الإسراء فذلك صريح في أنه دنو الرب تبارك وتعالى وتدلية ، ولا تعرض في سورة النجم لذلك ، بل فيه أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى . وهذا هو جبريل ، رآه محمد ﷺ على صورته مرتين : مرة في الأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى ، والله أعلم^(٢) انتهى .

وقد وقع حادث شق صدره ﷺ هذه المرة أيضاً ، وقد رأى ضمن هذه الرحلة أموراً عديدة :

عرض عليه اللبن والخمر ، فاختار اللبن ، فقيل : هديت الفطرة أو أصبت الفطرة ، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك .

ورأى أربعة أنهار في الجنة : نهران ظاهران ، ونهران باطنان ، والظاهران هما : النيل والفرات ،

(١) زاد المعاد ٤٧/٢ ، ٤٨ .

(٢) زاد المعاد ٤٧/٢ ، ٤٨ ، ٥٤٨ ، ٤٨١ ، ٤٧١ ، ٤٧٠ ، ٤٥٦ ، ٤٥٥ ، ٥٠/١ ، وانظر صحيح البخاري ١/٦٨٤ ، ٥٥٠ ، ٥٤٩ .

ومعنى ذلك أن رسالته ستتوطن الأودية الخصبة في النيل والفرات ، وسيكون أهلها حملة الإسلام جيلاً بعد جيل ، وليس معناه أن مياه النهرين تتبع من الجنة .

ورأى مالك خازن النار ، وهو لا يضحك ، وليس على وجهه بشر وبشاشة ، وكذلك رأى الجنة والنار .

ورأى أكلة أموال اليتامي ظلماً لهم مشافر كمشافر الإبل ، يقذفون في أفواههم قطعاً من نار كالأفهار ، فتخرج من أدبارهم .

ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة ، لا يقدرون لأجلها أن يتحولوا عن مكانهم ، وير بهم آل فرعون حين يعرضون على النار فيطاؤنهم .

ورأى الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جباه لحم غث متبن ، يأكلون من الف ث المتن ، ويتركون الطيب السمين .

ورأى النساء اللاتي يدخلن على الرجال من ليس من أولادهم ، راهن معلقات بشدّهن .
ورأى عيراً من أهل مكة في الإياب والذهب ، وقد دفهم على بعير ندة لهم ، وشرب ماءهم من إناء مغطى وهم نائمون ، ثم ترك الإناء مغطى ، وقد صار ذلك دليلاً على صدق دعوه في صباح ليلة الإسراء^(١) .

قال ابن القيم : فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته الكبيرة ، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم وضراروْتهم عليه ، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس ، فجلاه الله له ، حتى عاينه ، فطفق يخربون عن آياته ، ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئاً ، وأخبرهم عن عيرهم في مسراه ورجوعه ، وأخبرهم عن وقت قدومها ، وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها وكان الأمر كما قال ، فلم يزد هم ذلك إلا نفوراً ، وألى الظالمون إلا كفوراً^(٢) .

يقال سمي أبو بكر رضي الله عنه صديقاً ؛ لتصديقه هذه الواقعـة حين كذبـها الناس^(٣) .

(١) المصادر السابقة وابن هشام ١/٣٩٧ ، ٢/٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

(٢) زاد المعاد ١/٤٨ ، وانظر أيضاً صحيح البخاري ٢/٦٨٤ ، وصحیح مسلم ١/٩٦ ، وابن هشام ١/٤٠٢ ، ٤٠٣ .

(٣) نفس المصدر الأخير ١/٣٩٩ .

وأوجز وأعظم ما ورد في تعليل هذه الرحلة هو قوله تعالى : ﴿ لَرِبِّهِ مِنْ إِيَّاهُنَّ ﴾ (١٧)
 ١) وهذه سنة الله في الأنبياء ، قال : ﴿ وَكَذَلِكَ نَرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَلَيَكُونُ مِنَ الْمُوْقِنِينَ ﴾ (٦ : ٧٥) وقال موسى : ﴿ لَرِبِّكَ مِنْ إِيَّاهُنَّ الْكَبِيرَ ﴾ (٢٠ : ٢٣)
 وقد بين مقصد هذه الإرادة بقوله : ﴿ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوْقِنِينَ ﴾ بعد استناد علوم الأنبياء إلى رؤية
 الآيات يحصل لهم من عين اليقين ما لا يقدر قدره ، وليس الخبر كالمعاينة ، فيتحمرون في سبيل
 الله ما لا يتحمل غيرهم ، وتصير جميع قوات الدنيا عندهم كجناح بعوضة لا يعبأون بها إذا
 ما تدول عليهم بالحنن والعداب .

والحكم والأسرار التي تكمن وراء جزئيات هذه الرحلة إنما محل بحثها كتب أسرار الشريعة ،
 ولكن هنا حقائق بسيطة تتفجر من ينابيع هذه الرحلة المباركة وتتدفق إلى حدائق أزهار السيرة
 النبوية – على صاحبها الصلاة والسلام والتلبيحة – أرى أن أسجل بعضًا منها بالإيجاز :

يرى القارئ في سورة الإسراء أن الله ذكر قصة الإسراء في آية واحدة فقط ، ثم أخذ في
 ذكر فضائح اليهود وجرائمهم ، ثم نبههم بأن هذا القرآن يهدي لمن هي أقوم ، فربما يظن القارئ
 أن الآيتين ليس بينهما ارتباط ، والأمر ليس كذلك ، فإن الله تعالى يشير بهذا الأسلوب إلى أن
 الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس ؛ لأن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الأمة الإنسانية ؛ لما
 ارتكبوا من الجرائم التي لم يبق معها مجال لبقاءهم على هذا المنصب ، وأن الله سينقل هذا المنصب
 فعلًا إلى رسوله ﷺ ، ويجمع له مركزي الدعوة الإبراهيمية كلها ، فقد آن أوان انتقال القيادة
 الروحية من أمة إلى أمة ، من أمة ملأت تاريخها بالغدر والخيانة والإثم والعدوان ، إلى أمة تتدفق
 بالبر والخيرات ، ولا يزال رسوها يتمتع بوعي القرآن الذي يهدي لمن هي أقوم .

ولكن كيف تنتقل هذه القيادة ، والرسول يطوف في جبال مكة مطروداً بين الناس ، هذا
 السؤال يكشف الغطاء عن حقيقة أخرى ، وهي أن دوراً من هذه الدعوة الإسلامية قد أوشك
 إلى النهاية والتمام ، وسيبدأ دور آخر مختلف عن الأول في مجراه ، ولذلك نرى نص بعض الآيات
 تشتمل على إنذار سافر ووعيد شديد بالنسبة إلى المشركين ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ تَهْلِكَ قَرْيَةً أَمْرَنَا مُرْفَقَهَا
 فَسَقَوْفِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرَتْهَا نَدَمِرًا ﴾ (١٦ : ١٧) ﴿ وَكُمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ
 مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكُنَّ بِرَبِّكَ يَذُوبُ عِبَادُهُ حَيْرًا بَصِيرًا ﴾ (١٧ : ١٧) وبجنب هذه الآيات
 آيات أخرى تبين ل المسلمين قواعد الحضارة وبنودها ومبادئها التي يتبني عليها مجتمعهم

الإسلامي ، كأنهم قد أتوا إلى الأرض ، تملکوا فيها أمورهم من جميع النواحي ، وكونوا وحدة متماسكة تدور عليها رحى المجتمع ، ففيه إشارة إلى أن الرسول ﷺ سيد ملجاً ومأمناً يستقر فيه أمره ، ويصير مركزاً لبث دعوته في أرجاء الدنيا . هذا سر من أسرار هذه الرحلة المباركة ، يتصل ببحثنا ، فآثرنا ذكره .

ولأجل هذه الحكمة وأمثالها نرى أن الإسراء إنما وقع إما قبيل بيعة العقبة الأولى أو بين العقبتين ، والله أعلم .

بيعة العقبة الأولى

قد ذكرنا أن ستة نفر من أهل يثرب أسلموا في موسم الحج سنة ١١ من النبوة ، وواعدوا رسول الله ﷺ إبلاغ رسالته في قومهم .

وكان من جراء ذلك أن جاء في الموسم التالي – موسم الحج سنة ١٢ من النبوة يوليو سنة ٦٢١ م – اثنا عشر رجلاً ، فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد اتصلوا برسول الله ﷺ في العام السابق – والسادس الذي لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رئاب – وسبعة سواهم . وهم :

- (١) معاذ بن الحارث ، ابن عفراه من بني النجار (من الخزرج)
 - (٢) ذكوان بن عبد القيس من بني زريق (من الخزرج)
 - (٣) عبادة بن الصامت من بني غنم (من الخزرج)
 - (٤) يزيد بن ثعلبة من حلفاء بني غنم (من الخزرج)
 - (٥) العباس بن عبادة بن نضلة من بني سالم (من الخزرج)
 - (٦) أبو الهيثم بن التيهان من بني عبد الأشهل (من الأوس)
 - (٧) عويم بن ساعدة من بني عمرو بن عوف (من الأوس)
- الأخيران من الأوس ، والبقية كلهم من الخزرج^(١) .

اتصل هؤلاء برسول الله ﷺ عند العقبة بمنى ، فباعوه بيعة النساء ، أي وفق بيعتهن التي نزلت عند فتح مكة .

روى البخاري عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : تعالوا ، بابعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا بهتان تفترونه بين

(١) رحمة للعلميين ٨٥ / ١ وابن هشام ٤٣١ / ٤٣٢ ، ٤٣٢ .

أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وف منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله ، فأمره إلى الله ، إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه . قال : فبأيته – وفي نسخة فباعته – على ذلك ^(١) .

سفير الإسلام في المدينة :

وبعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم بعث النبي ﷺ مع هؤلاء المبايعين أول سفير في يثرب ، لعلم المسلمين فيها شرائع الإسلام ، ويفقههم في الدين ، ول يقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشرك ، واختار لهذا السفارة شاباً من شباب الإسلام من السابقين الأولين ، وهو مصعب بن عمير العبدري رضي الله عنه .

النجاح المغتبط :

نزل مصعب بن عمير على أسعد بن زراة ، وأخذنا يشان الإسلام في أهل يثرب بجد وحماس ، وكان مصعب يعرف بالمقريء .

ومن أروع ما يروى من نجاحه في الدعوة أن أسعد بن زراة خرج به يوماً يريد داربني عبد الأشهل وداربني ظفر ، فدخلما في حائط من حواططبني ظفر ، وجلسا على بئر يقال لها بئر مرق ، واجتمع إليهما رجال من المسلمين – وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيداً قومهما من بني عبد الأشهل يومئذ على الشرك – فلما سمعا بذلك قال سعد لأسيد : اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما ، وانههما عن أن يأتيا دارينا ، فإن أسعد بن زراة ابن خالي ، ولو لا ذلك لكفيتك هذا .

فأخذ أسيد حرثه وأقبل إليهما ، فلما رأه أسعد قال لمصعب : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه ، قال مصعب : إن يجلس أكلمه . وجاء أسيد فوقف عليهما متشتتاً ، وقال : ما جاء بكما إلينا ؟ تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكمما بأنفسكم حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره ، فقال :

(١) صحيح البخاري ، باب علامه الإمام حب الأنصار ٧/١ ، باب وفود الأنصار ١/٥٥٠ ، ٥٥١ واللفظ من هذا الباب ، وباب قوله تعالى : «إذا جاءك المؤمنات» ٢/٧٢٧ ، باب الحدود كفارة ٢/١٠٠٣ .

أنصفت ، ثم رکز حربته وجلس ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وتلا عليه القرآن . قال : فوالله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، في إشراقه وتهلهل ، ثم قال : ما أحسن هذا وأجمله ؟ كيف تصنعن إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟

قال له : تغتسل ، وتطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين . فقام واغتسل ، وطهر ثوبه ، وتشهد وصلى ركعتين ، ثم قال : إن ورأي رجلاً إن تبعكما لم يختلف عنه أحد من قومه ، وسأرشده إليكما الآن – سعد بن معاذ – ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد في قومه ، وهم جلوس في ناديه ، فقال سعد : أخلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم .

فلما وقف أسيد على النادي قال له سعد : ما فعلت ؟ فقال : كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهم فقاولا : نفعل ما أحببنا .

وقد حدثت أنبني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه – وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتكم – ليخفروك ، فقام سعد مغضباً للذى ذكر له ، فأخذ حربته ، وخرج إليهما ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متثناً ، ثم قال لأسعد بن زرارة : والله يا أبا أمامة لو لا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني ، تغشانا في دارنا بما نكره ؟

وقد كان أسعد قال لمصعب : جاءك والله سيد من ورائه قومه ، إن يتبعك لم يختلف عنك منهم أحد ، فقال مصعب لسعد بن معاذ : أو تقد فتسمع ؟ فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ، قال : قد أنصفت ، ثم رکز حربته فجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قال : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، في إشراقه وتهلهل ، ثم قال : كيف تصنعن إذا أسلتم ؟ قالا : تغتسل ، وتطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين . ففعل ذلك .

ثم أخذ حربته ، فأقبل إلى نادي قومه ، فلما رأوه قالوا : خلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما وقف عليهم قال : يابني عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيدنا

وأفضلنا رأياً ، وأيمتنا نقيبة ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . فما أمسى بهم رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة إلا رجل واحد - وهو الأصيرم - تأخر إسلامه إلى يوم أحد ، فأسلم ذلك اليومقاتل وقتل ، ولم يسجد لله سجدة ، فقال النبي عليه السلام : « عمل قليلاً وأجر كبيراً » .

وأقام مصعب في بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من داربني أمية بن زيد وخطة ووائل ، كان فيها قيس بن الأسلت الشاعر - وكانوا يطيعونه - فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة .

وقبيل حلول موسم الحج التالي - أي حج السنة الثالثة عشرة - عاد مصعب بن عمير إلى مكة ، يحمل إلى رسول الله عليه السلام بشائر الفوز ، ويقص عليه خبر قبائل يثرب ، وما فيها من مواهب الخير ، وما لها من قوة ومنعة^(١) .

(١) ابن هشام ١/٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٩٠/٢ ، وزاد المعاد ٥١/٢ .

بيعة العقبة الثانية

في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من النبوة - يونيو سنة ٦٢٢ م - حضر لأداء مناسك الحج بعض وسبعون نفساً من المسلمين من أهل يثرب ، جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين ، وقد تساءل هؤلاء المسلمين فيما بينهم - وهم لم يزالوا في يثرب أو كانوا في الطريق - حتى متى ترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف ؟

فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي ﷺ اتصالات سرية ، أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يتجمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة حيث الجمرة الأولى من مني ، وأن يتم هذا الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل .

ولترك أحد قادة الأنصار يصف لنا هذا الاجتماع التاريخي ، الذي حول مجرى الأيام في صراع الوثنية والإسلام ، يقول كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه :

(٤) خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام ، سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، أخذناه معنا - وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا - فبكى ملائكة ، وقلنا له : يا أبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنما نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً ، ثم دعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة ، قال : فأسلم وشهد معنا العقبة ، وكان نقيباً .

(٥) قال كعب : « فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ ، نسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند

العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً وأمرأتان من نسائنا ؛ نسيبة بنت كعب - أم عمارة - من بنى مازن بن النجار ، وأسماء بنت عمرو - أم منيع - من بنى سلمة » .

فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ، ومعه (عمه) العباس بن عبد المطلب - وهو يومئذ على دين قومه - إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، وتوثق له ، وكان أول متكلم^(١) .

بداية المحادثة وتشريح العباس خطورة المسئولية:

وبعد أن تكامل المجلس بدأت المحادثات لإبرام التحالف الديني والعسكري ، وكان أول المتكلمين هو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ . تكلم ليشرح لهم - بكل صراحة - خطورة المسؤولية التي ستلقى على كواهلهم نتيجة لهذا التحالف . قال :

« يا معشر الخزرج - وكان العرب يسمون الأنصار خزرجاً ، خزرجها وأوسها كلها - إن محمداً منا حيث قد علمت ، وقد منعناه من قومنا من هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وإنه قد أدى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافقون له بما دعوته إليه ، ومانعوه من خالقه ، فأنت وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده » .

قال كعب : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت^(٢) .

وهذا الجواب يدل على ما كانوا عليه من عزم وتصميم وشجاعة وإيمان وإخلاص في تحمل هذه المسؤولية العظيمة ، وتحمل عواقبها الخطيرة .

وألقى رسول الله ﷺ بعد ذلك بيانه ، ثم تمت البيعة .

(١) ابن هشام ١/٤٤٠ ، ٤٤١ .

(٢) نفس المصدر ١/٤٤١ ، ٤٤٢ .

بنود البيعة:

وقد روى ذلك الإمام أحمد عن جابر مفصلاً . قال جابر : قلنا : يا رسول الله على ما نبأيك ؟ قال :

- (١) على السمع والطاعة في النشاط والكسل .
- (٢) وعلى النفقة في العسر واليسر .
- (٣) وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- (٤) وعلى أن تقوموا في الله ، لا تأخذكم في الله لومة لام .
- (٥) وعلى أن تتصرونني إذا قدمت إليكم ، وتنعنوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولهم الجنة^(١) .

وفي رواية كعب - التي رواها ابن إسحاق - البند الأخير فقط من هذه البنود ، ففيه « قال كعب . فتكلم رسول الله ﷺ ، فنلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورحب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ، والذي يبعثك بالحق (نبياً) لمنعك مما نمنع أزْرَنَا^(٢) منه ، فباعنا يا رسول الله ، فتحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة ، ورشاها كابراً (عن كابر) .

قال : فاعتراض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبلاً ، وإنما قاتلوا - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

قال : فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : بل الدم الدم ، والمدم المدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسلم من سالم^(٣) .

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن ، وصححه الحاكم وابن حبان ، انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٥٥ ، وروى ابن إسحاق ما يشبه هذا عن عبادة بن الصامت ، وفيه بند زائد ، وهو « أن لا نزارع الأمر أهله » ، انظر ابن هشام ٤٥٤/١ .

(٢) العرب تكتي عن المرأة بالإزار وتكتي أيضاً بالإزار عن النفس .

(٣) ابن هشام ٤٤٢/١ .

التأكيد من خطورة البيعة:

وبعد أن تمت المحادثة حول شروط البيعة ، وأجمعوا على الشروع في عقدها قام رجالان من الرعيل الأول من أسلموا في مواسم سنتي ١١ ، ١٢ من النبوة ، قام أحدهما تلو الآخر ، ليؤكدا للقوم خطورة المسؤولية ، حتى لا يباعوه إلا على جلية من الأمر ، وليعرفوا مدى استعداد القوم للتضحية ويتأكدا من ذلك .

قال ابن إسحاق : لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن عبدة بن نضلة : هل تدرؤن علام تباعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تباعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلاً أسلتمتهم ، فمن الآن ، فهو والله إن فلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافقون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذلوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا : فإننا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فمالنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ قال : الجنة . قالوا أبسط يدك ، فبسط يده فباعوه^(١) .

وفي رواية جابر (قال) : فقمنا نباعيه ، فأخذ بيده أسد بن زراة – وهو أصغر السبعين – فقال رويداً يا أهل يرب ، إنما لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعذبكم السيف ، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذلوه ، وأجركم على الله ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فهو أعدل لكم عند الله^(٢) .

عقد البيعة:

وبعد إقرار بند البيعة ، وبعد هذا التأكيد والتتأكد بدأ عقد البيعة بال歃بة ، قال جابر – بعد أن حكى قول أسد بن زراة – : قالوا يا أسد ، أمنط عنا يدك ، فوالله لا نذر هذه البيعة ، ولا نستقبلها^(٣) .

(١) نفس المصدر ٤٤٦/١ .

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث جابر .

(٣) نفس المصدر .

وحيثئذ عرف أسعد مدى استعداد القوم للتضحية في هذا السبيل ، وتأكد منه – وكان هو الداعية الكبير مع مصعب بن عمير ، وبالطبع فكان هو الرئيس الديني على هؤلاء المبایعین – فكان هو السابق إلى هذه البيعة . قال ابن إسحاق : فبنو النجار يزعمون أن أباً أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده^(١) .

وبعد ذلك بدأت البيعة العامة ، قال جابر : فقمنا إليه رجلاً رجلاً فأخذ علينا البيعة ، يعطينا بذلك الحنة^(٢) .

وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الواقعة فكانت قولهاً . ما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية فقط^(٣) .

ائنا عشر نقيباً:

وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله ﷺ انتخاب اثني عشر زعيماً يكونون نقباء على قومهم ، يكفلون المسؤولية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة ، فقال للقوم : أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ؛ ليكونوا على قومكم بما فيهم .

فتم انتخابهم في الحال ، وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . وهكذا أسماؤهم :

نقباء الخزرج:

- (١) أسعد بن زرارة بن عدس .
- (٢) سعد بن الربيع بن عمرو .
- (٣) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة .
- (٤) رافع بن مالك بن العجلان .

(١) قال ابن إسحاق : وبنو عبد الأشيل يقولون : بل أبو الهيثم بن التهان ، وقال كعب بن مالك : بل البراء بن معروف (ابن هشام ٤٤٧ / ١) قلت : لعلهم حسبيوا ما دار بينهما وبين الرسول ﷺ بيعة ، وإلا فالآخرى الناس بالتقدير إذ ذاك هو أسعد بن زرارة . والله أعلم .

(٢) مسنن الإمام أحمد .
(٣) انظر صحيح مسلم باب كيفية بيعة النساء ١٣١ / ٢ .

- (٥) البراء بن معور بن صخر .
- (٦) عبد الله بن عمرو بن حرام .
- (٧) عبادة بن الصامت بن قيس .
- (٨) سعد بن عبادة بن دليم .
- (٩) المنذر بن عمرو بن خنيس .

نقباء الأوس:

- (١) أسيد بن حضير بن سماك .
- (٢) سعد بن خيثمة بن الحارث .
- (٣) رفاعة بن عبد المنذر بن زير^(١) .

ولما تم انتخاب هؤلاء النقباء أخذ عليهم النبي ﷺ ميثاقاً آخر بصفتهم رؤساء مسؤولين .

قال لهم : « أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككافالة الموارين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي – يعني المسلمين – » قالوا : نعم .

شيطان يكتشف المعاهدة:

ولما تم إبرام المعاهدة ، وكان القوم على وشك الانقضاض ، اكتشفها أحد الشياطين ، وحيث جاء هذا الاكتشاف في اللحظة الأخيرة ، ولم يكن يمكن إبلاغ زعماء قريش هذا الخبر سراً لياغروا المجتمعين وهو في الشعب ؛ قام ذلك الشيطان على مرتفع من الأرض ، وصاح بأنفذ صوت سمع قط : « يا أهل الأخشاب – المنازل – هل لكم في محمد والصباة معه ؟ قد اجتمعوا على حربكم » .

فقال رسول الله ﷺ « هذا أذب العقبة ، أما والله يا عدو الله لأنفرعن لك » . ثم أمرهم أن ينفضوا إلى رحالم^(٢) .

(١) زير بالياء الموحدة ، وقيل بدل رفاعة ، أبو الهيثم بن التيهان ، ابن هشام ٤٤٣ / ٤٤٤ ، ٤٤٦ .

(٢) زاد المعاد ٥١ / ٢ .

استعداد الأنصار لضرب قريش:

وعند سماع صوت هذا الشيطان قال العباس بن عبادة بن نضلة : « والذى بعثك بالحق ، إن شئت لم ينفعك على أهل مني غداً بأسياقنا ». فقال رسول الله ﷺ : لم نؤمر بذلك ، ولكن أرجعوا إلى رحالكم ، فرجعوا وناموا حتى أصبحوا^(١) .

قريش تقدم الاحتجاج إلى رؤساء يثرب:

ولما قرع هذا الخبر آذان قريش وقعت فيهم ضجة أثارت القلاقل والأحزان ، لأنهم كانوا على معرفة تامة من عواقب مثل هذه البيعة ونتائجها بالنسبة إلى أنفسهم وأموالهم ، فما إن أصبحوا حتى توجه وفد كبير من زعماء مكة وأكابر مجرميها إلى خيم أهل يثرب ، ليقدم احتجاجه الشديد على هذه المعاهدة . فقد قال :

« يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتباعونه على حربنا ، وإن الله ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينكم منكم »^(٢) .

ولما كان مشركون الخزرج لا يعرفون شيئاً عن هذه البيعة ؛ لأنها تمت في سرية تامة ، وفي ظلام الليل ، انبعث هؤلاء المشركين يحملون بالله : ما كان من شيء ، وما علمناه ، حتى أتوا عبد الله بن أبي بن سلول ، فجعل يقول : هذا باطل ، وما كان هذا ، وما كان قومي ليفتاتوا على مثل هذا ، لو كنت بيثرب ما صنع قومي هذا حتى يؤمروني .

أما المسلمين فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم لاذوا بالصمت ، فلم يتحدث أحد منهم بنفي أو إثبات .

ومال زعماء قريش إلى تصديق المشركين ، فرجعوا خائبين .

(١) ابن هشام ٤٤٨/١ .

(٢) نفس المصدر ٤٤٨/١ .

تأكد الخبر لدى قريش ومطاردة المبایعین:

عاد زعماء مكة وهم على شبه اليقين من كذب هذا الخبر ، لكنهم لم يزالوا ينتظرون
- يكثرون البحث عنه ويدقون النظر فيه - حتى تأكد لديهم أن الخبر صحيح ، والبيعة قد تمت
فعلاً . وذلك بعد ما نفر الحجاج إلى أوطانهم ، فسارع فرسانهم بمطاردة اليثربين ، ولكن بعد
فوات الأوان ، إلا أنهم تمكنا من رؤية سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو ، فطاردوهما ، فأما المنذر
فأعجز القوم ، وأما سعد فاللقووا القبض عليه ، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله ، وجعلوا يضربوه
وبجرونه وبجرون شعره حتى أدخلوه مكة ، فجاء المطعم بن عدي والحارث بن حرب بن أمية
فخلصاه من أيديهم . إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة ، وتشاورت الأنصار حين
فقدوا أن يكرروا إليه ، فإذا هو قد طلع عليهم ، فوصل القوم جميعاً إلى المدينة^(١) .

هذه هي بيعة العقبة الثانية - التي تعرف بيعة العقبة الكبرى - وقد تمت في جو تعلوه
عواطف الحب والولاء والتلاحم بين أشتات المؤمنين ، والثقة والشجاعة والاستبسال في هذا
السبيل ، فمؤمن من أهل يترقب يجنو على أخيه المستضعف في مكة ، ويتعصب له ، ويغضب
من ظالمه ، وتبجيشه في حنایاه مشارع الود لهذا الأخ الذي أحبه بالغيب في ذات الله .

ولم تكن هذه المشاعر والعواطف نتيجة نزعة عابرة تزول على مر الأيام ، بل كان مصدرها
هو الإيمان بالله وبرسوله وكتابه ، إيمان لا يزول أمام أي قوة من قوات الظلم والعدوان ، إيمان إذا
هبت ريحه جاءت بالعجائب في العقيدة والعمل ، وبهذا الإيمان استطاع المسلمون أن يسجلوا
على أوراق الدهر أعمالاً ، ويتركوا عليها آثاراً ، خلا عن نظائرها الغابر والحاضر ، وسوف يخلو
المستقبل .

(١) زاد المعاد ٢/٥١، ٥٢، ابن هشام ١/٤٤٩، ٤٤٨، ٤٥٠.

طلائع الهجرة

وبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية ، ونفع الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تنجو بالكفر والجهالة - وهو أخطر كسب حصل عليه الإسلام منذ بداية دعوته - أدنى رسول الله ﷺ لل المسلمين بالهجرة إلى هذا الوطن .

ولم يكن معنى الهجرة إلا إهدار المصالح ، والتضحية بالأموال ، والنجاة بالشخص فحسب ، مع الإشعار بأنه مستباح منهوب ، قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها ، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم ، لا يدرى ما يتمحض عنه من قلقل وأحزان .

وبدأ المسلمون بهاجرون ، وهم يعرفون كل ذلك ، وأخذ المشركون يحملون بينهم وبين خروجهم ، لما كانوا يحسون من الخطر ، وهاك نماذج من ذلك :

(١) كان من أول المهاجرين أبو سلمة - هاجر قبل العقبة الكبرى بسنة على ما قاله ابن إسحاق - وزوجته وابنه ، فلما أجمع على الخروج قال له أصحابه : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ؟ علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ فأخذوا منه زوجته ، وغضب آل أبي سلمة لرجلهم ، فقالوا : لا نترك ابنتنا معها إذ نزعموها من أصحابنا ، وتجاذبوا الغلام بينهم فخلعوا يده ، وذهبوا به . وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة ، وكانت أم سلمة بعد ذهاب زوجها ، وضياع ابنها تخرج كل غداة بالأبطح تبكي حتى تنسى ، ومضى على ذلك نحو سنة ، فرق لها أحد ذويها وقال : ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقم بينها وبين زوجها ولدتها فقالوا لها : الحق بزوجك إن شئت ، فاسترجعت ابنتها من عصبيه ، وخرجت تزيد المدينة - رحلة تبلغ خمساً وعشرين كيلو متراً - وليس معها أحد من خلق الله ، حتى إذا كانت بالتنعيم لقيها عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، وبعد أن عرف حالها شيعها حتى أقدمها إلى المدينة ، فلما نظر إلى قباء

قال : زوجك في هذه القرية فادخلها على بركة الله ، ثم انصرف راجعاً إلى مكة^(١) .

(٢) ولما أراد صهيب الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكاً حقيراً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم ت يريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك . فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالي ، أتخلون سبيلي ؟ قالوا : نعم . قال : فإني قد جعلت لكم مالي ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : ربح صهيب ، ربح صهيب^(٣) .

(٤) وتواتر عمر بن الخطاب ، وعياش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص بن وائل موسعاً يصبحون عنده ، ثم يهاجرون إلى المدينة ، فاجتمع عمر وعياش وحبس عنهم هشام .

ولما قدموا المدينة ونزلوا بقباء قدم أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش - وأم الثلاثة واحدة - فقالوا له : إن أمك قد ندرت أن لا يمس رأسها مشط ، ولا تستظل بشمس حتى تراك ، فرق لها . فقال له عمر : يا عياش ، أنه والله إن يريده القوم إلا ليقتلوه عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو آذى أمك القمل لامتنشتت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظللت ، فأبا عياش إلا الخروج معهما ؛ ليبرر قسم أمه ، فقال له عمر : أما إذا قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول ، فالزرم ظهرها ، فإن رايك من القوم رب فانجع عليها . فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : يا ابن أخي والله لقد استغللتهم بغيري هذا ، أفلأ تعقبني على ناقتك هذه ؟ قال : بلى فناناخ وأنanaxa ليتحول عليها ، فلما استروا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه ، ثم دخلا به مكة نهاراً موثقاً ، وقالا : يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهائكم ، كما فعلنا بسفهينا هذا^(٤) .

هذه ثلاثة نماذج لما كان المشركون يفعلونه بمن يريد الهجرة إذا علموا بذلك . ولكن مع كل

(١) ابن هشام ١/٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

(٢) نفس المصدر ١/٤٧٧ .

(٣) بقي هشام وعياش في قيد الكفار حتى إذا هاجر رسول الله ﷺ قال يوماً : من لي بعياش وهشام ؟ فقال الوليد بن الوليد : أنا لك يا رسول الله بهما ، فقد الوليد مكة مستخفياً ، ولقي امرأة تحمل إليهما طعاماً فبقيا حتى عرف موضعهما ، وكأنهما محبوسين في بيت لا سقف له ، فلما أنسى سور الحدار ، وقطع قيديهما وحملهما على بعيره حتى قدم المدينة انظر ابن هشام ١/٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، وكان قدوم عمر المدينة في عشرين من الصحابة (صحيح البخاري ١/٥٥٨) .

ذلك خرج الناس أرسلاً يتبع بعضهم بعض . وبعد شهرين وبضعة أيام من بيعة العقبة الكبرى لم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي - أقاما بأمره لهما - وإنما من احتبسه المشركون كرها . وقد أعد رسول الله ﷺ جهازه ينتظر متى يؤمر بالخروج ، وأعد أبو بكر جهازه^(١) .

روى البخاري عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ للMuslimين إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين - وهو المحرثان - فهاجر من هاجر قبل المدينة . ورجع عاملاً من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ على رسليك ، فإني أرجو أن يؤذن لي ، فقال له أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال : نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر - وهو الخبط - أربعة أشهر^(٢) .

(١) زاد المعاد ٥٢/٢ .

(٢) صحح البخاري ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ٥٥٣/١ .

في دار الندوة «برمان قريش»

ولما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا وخرجوا ، وحملوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج ، وقعت فيهم ضجة أثارت القلاقل والأحزان ، وأخذ القلق يساورهم بشكل لم يسبق له مثيل ، فقد تجسد أمامهم الخطر الحقيقي العظيم ، الذي يهدد كيانهم الوثني والاقتصادي ، فقد كانوا يعلمون ما في شخصية محمد - ﷺ - من غاية قوة التأثير مع كمال القيادة والإرشاد ، وما في أصحابه من العزيمة والاستقامة والفداء في سبيله ، ثم ما في قبائل الأوس والخزرج من قوة ومنعة ، وما في عقلاه هاتين القبيلتين من عواطف السلم والصلاح ، والتداعي إلى نبذ الأحقاد فيما بينهما ، بعد أن ذاقوا مرارة الحروب الأهلية طيلة أعوام من الدهر .

كما كانوا يعرفون ما للمدينة من الموقع الاستراتيجي بالنسبة إلى الحجنة التجارية التي تمر بساحل البحر الأحمر من اليمن إلى الشام. وقد كان أهل مكة يتاجرون إلى الشام بقدر ربع مليون دينار ذهب سنويًا ، سوى ما كان لأهل الطائف وغيرها . ومعلوم أن مدار هذه التجارة كان على استقرار الأمن في تلك الطريق .

فلا يخفى ما كان لقريش من الخطر البالغ في ترکر الدعوة الإسلامية في يثرب ، ومحاباة أهلها ضدتهم .

شعر المشركون بتفاقم الخطر الذي كان يهدد كيانهم ، فصاروا يبحثون عن أفعى الوسائل لدفع هذا الخطر ، الذي مبعثه الوحيد هو حامل لواء دعوة الإسلام محمد ﷺ .

وفي يوم الخميس ٢٦ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة ، الموافق ١٢ من شهر سبتمبر سنة

(٦٢٢م^(١)) – أي بعد شهرين ونصف تقريباً من بيعة العقبة الكبرى – عقد برمان مكة (دار الندوة) في أوائل النهار^(٢) أخطر اجتماع له في تاريخه ، وتوافق إلى هذا الاجتماع جميع نواب القبائل القرشية ، ليتدارسوا خطة حاسمة تكفل القضاء سريعاً على حامل لواء الدعوة الإسلامية ، وتقطع تيار نورها عن الوجود نهائياً .

وكانت الوجوه البارزة في هذا الاجتماع الخطير من نواب قبائل قريش :

(١) أبو جهل بن هشام ، عن قبيلةبني مخزوم .

(٢) جبير بن مطعم ، وطعيمة بن عدي ، والحارث بن عامر ، عن بنى نوفل بن عبد مناف .

(٣) شيبة وعتبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب ، عن بنى عبد شمس بن عبد مناف .

(٤) النضر بن الحارث (وهو الذي كان ألقى على رسول الله ﷺ سلا جزور) عن بنى عبد الدار .

(٥) أبو البختري بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام عن بنى أسد بن عبد العزى .

(٦) نبيه ومنبه ابنا الحجاج ، عن بنى سهم .

(٧) أمية بن خلف ، عن بنى جمع .

ولما جاجعوا إلى دار الندوة حسب الميعاد اعترضهم إيليس في هيئة شيخ جليل ، عليه بَثْ له ، ووقف على الباب ، فقالوا : من الشیخ ؟ قال : شیخ من أهل نجد سمع بالذی اتعدم له ، فحضر معکم لیسمع ما تقولون ، وعسى أن لا يعدمکم منه رأیاً ونصحاً . قالوا : أجل فادخل ، فدخل معهم .

(١)أخذنا هذا التاريخ بعد مراجعة التحقيقات التي سجلها العلامة محمد سليمان المنصور فوري في رحمة للعالمين ٩٥/١ ، ٩٧ ، ١٠٢ ، ٤٧١/٢ .

(٢) يدل على انعقاد الاجتماع في أوائل النهار ما رواه ابن إسحاق أن جريل آخر النبي ﷺ بمؤامرة هذا الاجتماع وأذن في الهجرة . ثم ما رواه البخاري من حديث عائشة أن النبي ﷺ جاء أبا بكر في نحر الظهرة وقال له : « قد أذن في الخروج » وسيأتي .

النقاش البرهاني والإجماع على قرار عاشم بقتل النبي - ﷺ -

وبعد أن تكامل الاجتماع بدأ عرض الاقتراحات والحلول ، ودار النقاش طويلاً . قال أبو الأسود : نخرجه من بين أظهرنا ونفيه من بلادنا ، ولا نبالي أين ذهب ، ولا حيث وقع ، فقد أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

قال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلوته منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحمل على حي من العرب ، ثم يسيراً بهم إليكم - بعد أن يتبعوه - حتى يطأكم بهم في بلادكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، دبروا فيه رأياً غير هذا .

قال أبو البخري : احبسوه في الحديد ، وأغلقوا عليه باباً ، ثم ترقصوا به ما أصحاب أمثاله من الشعراء الذين كانوا قبله - زهراً والنابغة - ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصحابهم .

قال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأي ، والله لعن حبستموه - كما تقولون - ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلاوشكوا أن يثبوا عليكم ، فينزعواه من أيديكم ، ثم يكتروكم به ، حتى يغلبواكم على أمركم . ما هذا لكم برأي ، فانظروا في غيره .

وبعد أن رفض البرلمان هذين الاقتراحين قدم إليه اقتراح آخر وافق عليه جميع أعضائه ، تقدم به كبير مجرمي مكة أبو جهل بن هشام . قال أبو جهل : والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا : وما هو يا أبي الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فيما ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً ، فلن يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرفضوا منا بالعقل ، فعقلناه لهم .

قال الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل ، هذا الرأي الذي لا أرى غيره . ووافق برمان مكة على هذا الاقتراح الآثم بالإجماع ، ورجع النواب إلى بيوتهم ، وقد صمموا على تنفيذ هذا القرار فوراً^(١) .

(١) انظر ابن هشام ٤٨٠/١ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ .

هجرة النبي - ﷺ -

ولما تم اتخاذ القرار الغاشم بقتل النبي ﷺ نزل إليه جبريل بمحاجي ربه تبارك وتعالى ، فأخرجه بمأمرة قريش ، وأن الله قد أذن له في الخروج ، وحدد له وقت الهجرة قائلاً : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه^(١) .

وذهب النبي ﷺ في الهجرة إلى أبي بكر رضي الله عنه ؛ ليremain معه مراحل الهجرة ، قالت عائشة رضي الله عنها : بينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهرة قال قائل لأبي بكر هذا رسول الله ﷺ متყعاً ، في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فداء له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر .

قالت : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن ، فأذن له ، فدخل ، فقال النبي ﷺ لأبي بكر : « أخرج من عندك ». فقال أبو بكر : إنما هم أهلك ، بأبي أنت يا رسول الله . قال : « فإني قد أذن لي في الخروج » ، فقال أبو بكر : الصحبة بأبي أنت يا رسول الله ؟ قال رسول الله ﷺ : « نعم »^(٢) .

وبعد إبرام خطة الهجرة رجع رسول الله ﷺ إلى بيته ، ينتظر مجيء الليل .

تطويق منزل الرسول - ﷺ -

أما أكبر مجرمي قريش فقضوا نهارهم في الإعداد لتنفيذ الخطة المرسومة التي أقرها برمان مكة (دار الندوة) صباحاً ، واختير لذلك أحد عشر رئيساً من هؤلاء الأكابر ، وهم :

(١) ابن هشام ٤٨٢/١ ، زاد المعاد ٥٢/٢ .

(٢) صحيح البخاري ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ٥٥٣/١ .

- (١) أبو جهل بن هشام .
- (٢) الحكم بن أبي العاص .
- (٣) عقبة بن أبي معيط .
- (٤) النضر بن الحارث .
- (٥) أمية بن خلف .
- (٦) زمعة بن الأسود .
- (٧) طعيمة بن عدي .
- (٨) أبو هلب .
- (٩) أبي بن خلف .
- (١٠) نبيه بن الحجاج .
- (١١) أخوه منه بن الحجاج ^(١) .

قال ابن إسحاق : فلما كانت عتمة الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى نام ، فيثبون عليه ^(٢) .

وكانوا على ثقة ويقين جازم من نجاح هذه المؤامرة الدنيوية ، حتى وقف أبو جهل وفقة الزهو والخيلاء ، وقال مخاطباً لأصحابه المطوقين في سخرية واستهزاء : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم ناراً تحرقون فيها ^(٣) .

وقد كان ميعاد تنفيذ تلك المؤامرة بعد منتصف الليل ، فباتوا متيقظين يتظرون ساعة الصفر ، ولكن الله غالب على أمره ، بيده ملوك السموات والأرض ، يفعل ما يشاء ، وهو يجير ولا يجر عليه ، فقد فعل ما خاطب به الرسول ﷺ فيما بعد : ﴿وَإِذَا مَكَرْتُكُمْ بِكَمْنَانَ كَفَرُوا لِيُتَشْتُكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ أَلَّا يَحِدُّ الْمَذَكُورِينَ﴾ (٣٠:٨) .

- (١) زاد المعاد ٥٢/٢ .
- (٢) ابن هشام ٤٨٢/١ .
- (٣) نفس المصدر ٤٨٣/١ .

الرسول - ﷺ - يغادر بيته:

ومع غاية استعداد قريش لتنفيذ خطتهم فقد فشلوا فشلاً فاحشاً . ففي هذه الساعة المحرجة قال رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب : نم على فراشي ، وتسجع ببردي هذا الحضرمي الأخضر ، فنم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم ، وكان رسول الله ﷺ ينام في بردة ذلك إذا نام^(١) .

ثم خرج رسول الله ﷺ ، واخترق صفوفهم ، وأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذره على رؤوسهم ، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونـه ، وهو يتلو : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَنِي آيُّدِيهِمْ سَكَّارًا مَّنْ حَلَّ فِيهِمْ سَدَّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبَصِّرُونَ﴾ (٣٦:٩) فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، ومضى إلى بيت أبي بكر ، فخرجـا من خوخة في دار أبي بكر ليلاً حتى لحقا بغار ثور في اتجاه اليمـن^(٢) .

وبقي المهاصرون ينتظرون حلول ساعة الصفر ، وقبيل حلولها تجلت لهم الخيبة والفشل ، فقد جاءـهم رجل من لم يكن معهم ، ورأـهم بيـابـه فقال : ما تـانتـظـرون ؟ قالـوا مـحمدـا . قالـ : خـبـتم وـخـسـرـتم ، قدـ وـالـلـهـ مـرـ بـكـمـ ، وـذـرـ عـلـى رـؤـوسـكـمـ التـرـابـ ، وـانـطـلـقـ لـحـاجـتـهـ ، قالـوا وـالـلـهـ مـاـ أـبـصـرـنـاهـ ، وـقامـوا يـنـفـضـونـ التـرـابـ عـنـ رـؤـوسـهـمـ .

ولـكـهـمـ تـطـلـعـوا مـنـ صـيـرـ الـبـابـ فـرأـوا عـلـيـاـ ، فـقـالـوا وـالـلـهـ إـنـ هـذـاـ لـحـمـدـ نـائـماـ ، عـلـيـهـ بـرـدـةـ ، فـلـمـ يـبـرـحـواـ كـذـلـكـ حـتـىـ أـصـبـحـواـ . وـقـامـ عـلـيـ عنـ الفـرـاشـ ، فـسـقـطـ فـيـ أـيـدـيـهـمـ ، وـسـأـلـوهـ عـنـ رسولـ اللهـ ﷺ ، فـقـالـ : لـاـ عـلـمـ لـيـ بـهـ^(٣) .

من الدار إلى الغار:

غادر رسول الله ﷺ بيـتهـ فيـ لـيـلـةـ ٢٧ـ مـنـ شـهـرـ صـفـرـ سنةـ ١٤ـ مـنـ النـبـوـةـ المـوـافـقـ

(١) نفس المصدر ٤٨٢/١ ، ٤٨٣ .

(٢) نفس المصدر ٤٨٣/١ ، زاد المعاد ٥٢/٢ .

(٣) نفس المصادر السابقـين .

١٢/١٢ سبتمبر سنة ٦٢٢ م^(١) . وتأتي إلى دار رفيقه – وأمن الناس عليه في صحبته وما له – أبي بكر رضي الله عنه . ثم غادرا منزل الأخير من باب خلفي ، ليخرجوا من مكة على عجل ، وقبل أن يطلع الفجر .

ولما كان النبي ﷺ يعلم أن قريشاً ستتجه في الطلب ، وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسي المتوجه شمالاً ، فقد سلك الطريق الذي يضاده تماماً ، وهو الطريق الواقع جنوب مكة ، والتجه نحو اليمن . سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال ، حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثور ، وهذا جبل شامخ ، وعر الطريق ، صعب المرتفق ، ذو أحجار كثيرة ، فحفيت قدما رسول الله ﷺ ، وقيل : بل كان يمشي في الطريق على أطراف قدميه كي يخفى أثره فحفيت قدماه ، وأيا ما كان ؛ فقد حمله أبو بكر حين بلغ إلى الجبل ، وطفق يشتد به حتى انتهى به إلى غار في قمة الجبل ، عرف في التاريخ بغار ثور^(٢) .

إذهما في الغار:

ولما انتهى إلى الغار قال أبو بكر : والله لا تدخله حتى أدخله قبلك ، فإن كان فيه شيء أصابني دونك ، فدخل فكسحه ، ووجد في جانبه ثقباً فشق إزاره وسدها به ، وبقي منها اثنان فألقمهما رجليه ، ثم قال لرسول الله ﷺ : ادخل . فدخل رسول الله ﷺ ، ووضع رأسه في حجره ونام ، فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر ، ولم يتحرك خافة أن يتبه رسول الله ﷺ ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ ، فقال : مالك يا أبي بكر ؟ قال لدغت ، فداك أبي وأمي ، فتغل رسول الله ﷺ ، فذهب ما يجده^(٣) .

(١) رحمة للعالمين ٩٥/١ – ويكون شهر صفر هذا من السنة الرابعة عشرة من النبوة إذا فرضنا بداية السنين من شهر حرم ، وأما إذا بدأنا السنين من الشهر الذي أكرم الله فيه نبيه ﷺ بالنبوة ، فيكون شهر صفر هذا من السنة الثالثة عشرة قطعاً . وعامة من يكتب في السيرة ربما يختار هذا ، وربما يختار ذلك ، فكثيراً ما يتخطى في ترتيب الواقع ، ويقع في أغلاط ونظرات إلى ذلك اخترنا بداية السنين من شهر حرم .

(٢) رحمة للعالمين ٩٥/١ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله التجددي ص ١٦٧ .

(٣) رواه زيد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وفيه ثم انتقض عليه (أي رفع أثر السم حين موته) وكان سبب موته . انظر مشكاة المصايف ، باب مناقب أبي بكر ٥٥٦/٢ .

وكمنا في الغار ثلاث ليل ، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد^(١) . وكان عبد الله بن أبي بكر بيت عندهما . قالت عائشة : وهو غلام شاب ثقف لقن ، فيدلج من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه ، حتى يأتيمها بخbir ذلك حين يختلط الظلام . و (كان) يرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم ، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء ، فيبيتان في رسول - وهو ابن منتهما ورضييفهما - حتى ينبع بهما عامر بن فهيرة بغلس ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث^(٢) . وكان عامر بن فهيرة يتبع بعنه أثر عبد الله بن أبي بكر بعد ذهابه إلى مكة ليغطي عليه^(٣) .

أما قريش فقد جن جنونها حيناً تأكّد لديها إفلات رسول الله ﷺ صباح ليلة تنفيذ المؤامرة . فأول ما فعلوا بهذا الصدد أنهم ضربوا علياً ، وسحبوه إلى الكعبة ، وحبسوه ساعة ، عليهم يظفرون بخbirهما^(٤) .

ولما لم يحصلوا من على على جدوى جاءوا إلى بيت أبي بكر ، وقرعوا بابه ، فخرجت إليهم أسماء بنت أبي بكر ، فقالوا لها : أين أبوك ؟ قالت : لا أدرى والله أين أبي ؟ فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً خبيثاً - فلطم خدها لطمة طرح منها قرطها^(٥) .

وقررت قريش في جلسة طارئة مستعجلة استخدام جميع الوسائل التي يمكن بها القبض على الرجلين ، فوضعت جميع الطرق النافذة من مكة (في جميع الجهات) تحت المراقبة المسلحة الشديدة ، كما قررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منها لمن يعيدها إلى قريش حيين أو ميتين ، كائناً من كان^(٦) .

(١) انظر فتح الباري ٧/٣٣٦ .

(٢) صحيح البخاري ١/٥٥٢ ، ٥٥٤ .

(٣) ابن هشام ١/٤٨٦ .

(٤) رحمة للعلميين ١/٩٦ .

(٥) ابن هشام ١/٤٨٧ .

(٦) انظر صحيح البخاري ١/٥٥٤ .

وحيثند جدت الفرسان والمشاة وقصاص الأثر في الطلب ، وانتشروا في الجبال والوديان ،
والوهاد والمضاب ، لكن من دون جدوى وبغير عائدية .

وقد وصل المطاردون إلى باب الغار ، ولكن الله غالب على أمره ، روى البخاري عن أنس عن أبي بكر قال : كت مع النبي ﷺ في الغار فرفعت رأسي ، فإذا أنا بأقدام القوم ، فقلت يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رأنا . قال : اسكت يا أبو بكر ، اثنان الله ثالثهما ، وفي لفظ : ما ظنك يا أبو بكر باثنين الله ثالثهما^(١) .

وقد كانت معجزة أكرم الله بها نبيه ﷺ ، فقد رجع المطاردون حين لم يبق بينه وبينهم إلا خطوات معدودة .

في الطريق إلى المدينة:

وحين خمدت نار الطلب ، وتوقفت أعمال دوريات التفتيش ، وهدأت ثائرات قريش بعد استمرار المطاردة الخبيثة ثلاثة أيام بدون جدوى ، تهياً رسول الله ﷺ وصاحبـه للخروج إلى المدينة .

وكان قد استأجر عبد الله بن أريقط الليبي ، وكان هادياً خربتاً - ماهراً بالطريق - وكان على دين كفار قريش ، وأمناه على ذلك ، وسلمها إليه راحلتهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاثة ليال براحلتهما ، فلما كانت ليلة الإثنين - غرة ربيع الأول سنة ٦١ هـ / سبتمبر سنة ٦٢٢ م - جاءهما عبد الله بن أريقط بالراحلين وحيثند قال أبو بكر للنبي ﷺ : يا رسول الله ، خذ إحدى راحلتي هاتين . وقرب إلى أفضلهما . فقال رسول الله ﷺ : بالثمن .

وأتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها بسفرهما ، ونسيت أن تجعل لها عصاما ، فلما
ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس لها عصام ، فشققت نطاقها باثنين ، فعلقت السفرة بوحد ،
وانتطقت بالآخر ، فسميت ذات النطاقين ^(١) .

(١) صحيح البخاري ٥١٦ / ٥٥٨ ، ولم يكن بكر مخافة على نفسه ، بل سببه الوحيد هو ما روى أن أبا بكر لما رأى القافلة اشتد حزنه على رسول الله ﷺ وقال: إن قلت فإنما أنا رجل واحد ، وإن قلت أنت هلكت الأمة ، فعندها قال له رسول الله ﷺ لا تحزن إن الله معناه) انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٦٨ .

(٢) صحيح البخاري /١ ٥٣٣ ، ٥٥٥ وابن هشام /١ ٤٨٦ .

ثم ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه ، وارتحل معهما عامر بن فهيرة ، وأخذ بهم الدليل – عبد الله بن أريقط – على طريق الساحل .

وأول ما سلك بهم بعد الخروج من الغار أنه أمعن في اتجاه المخنوب نحو اليمين ، ثم اتجه غرباً نحو الساحل ، حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس اتجه شمالاً على مقربة من شاطئ البحر الأحمر ، وسلك طريقاً لم يكن يسلكه أحد إلا نادراً .

وقد ذكر ابن إسحاق الموضع التي مر بها رسول الله ﷺ في هذا الطريق قال : لما خرج بهما الدليل سلك بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ، ثم سلك بهما على أسفل أفع ، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديداً ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك ، فسلك بهما الْخَرَار ، ثم سلك بهما ثانية المرة ، ثم سلك بهما لقفا ، ثم أجاز بهما مدحلة لقف ، ثم استبطن بهما مدحلة مجاح ، ثم سلك بهما مرجع مجاح ، ثم تبطن بهما مرجع ذي الغضوبين ، ثم بطن ذي كشر ، ثم أخذ بهما على الجداجد ، ثم على الأجرد ، ثم سلك بهما ذا سلم ، من بطن أعداء مدحلة تعهن ، ثم على العباید ، ثم أجاز بهما الفاجة ، ثم هبط بهما العرج ، ثم سلك بهما ثانية العائز – عن يمين ركوبة – حتى هبط بهما بطن رئ ، ثم قدم بهما على قباء^(١) . وهكذا بعض ما وقع في الطريق :

(١) روى البخاري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : أسرينا ليلتنا ومن الغد حتى قام قائم الظهيرة ، وخلال الطريق ، لا يمر فيه أحد ، فرفعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليها الشمس ، فنزلنا عنده ، وسويت للنبي ﷺ مكاناً بيدي ، ينام عليه ، ويسقطت عليه فروة ، وقلت : نم يا رسول الله ، وأنا أنفض لك ما حولك ، فنام ، وخرجت أنفض ما حوله ، فإذا أنا برابع مقابل بعنه إلى الصخرة ، يريد منها مثل الذي أردنا ، فقلت له : من أنت يا غلام ؟ فقال : لرجل من أهل المدينة أو مكة . قلت : أفي غنمك لين ؟ قال : نعم . قلت : أفحلب ؟ قال : نعم . فأخذ شاة ، فقلت : انفض الضرع من التراب والشعر والقذى . فحلب في كعب كثبة من لين ، ومعي إداوة حملتها للنبي ﷺ ، يرتوي منها ، يشرب ويتوضاً ، فأتيت النبي ﷺ ، فكرهت أن أوقظه ، فوافقته حين استيقظ ، فصبت من الماء على اللبن حتى برد أسفله ، فقلت :

(١) ابن هشام ١/٤٩٢ .

اشرب يا رسول الله ، فشرب حتى رضيت ، ثم قال : ألم يأن الرحيل ؟ قلت : بلى ، قال : فارتحلنا^(١) .

(٢) كان من دأب أبي بكر رضي الله عنه أنه كان رداً للنبي ﷺ ، وكان شيخاً يعرف ، ونبي الله ﷺ شاب لا يعرف ، فيلقى الرجل أبياً بكر فيقول : من هذا الرجل الذي بين يديك ؟ فيقول : هذا الرجل بهدفي الطريق ، فيحسب الحاسب أنه يعني به الطريق ، وإنما يعني سبيل الخير^(٢) .

(٣) وبعهما في الطريق سراقة بن مالك . قال سراقة : بينما أنا جالس في مجلس من مجالس قوميبني مدلج ، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ، ونحن جلوس ، فقال : يا سراقة ، إني رأيت آنفًا أسودة بالساحل ، أراها محدداً وأصحابها . قال سراقة : فعرفت أنهم هم . قلت له : إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقا بأعيننا ، ثم لبست في المجلس ساعة ، ثم قمت فدخلت ، فأمرت جاريتي أن تخرج فرسي ، وهي من وراء أكمة ، فتحبسها على ، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت ، فخططت بزجه الأرض ، وخفضت عاليه ، حتى أتيت فرسي ، فركبتها ، فعرفتها تقرب بي حتى دونت منهم ، فعثرت بي فرسي فخررت عنها ، فقمت ، فاهويت يدي إلى كنانتي ، فاستخرجت منها الأذلام ، فاستقسمت بها ، أضرهم أم لا ؟ فخرج الذي أكره ، فركبت فرسي وعصيت الأذلام ، تقرب بي ، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ - وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات - ساخت يدا فرسي في الأرض ، حتى بلغتا الركبتين ، فخررت عنها ، ثم زجرتها فنهضت ، فلم تكن تخرج يديها ، فلما استوت قائمًا إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأذلام ، فخرج الذي أكره ، فناديتهم بالأمان ، فوقفوا ، فركبت فرسي حتى جثتم ، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ ، قلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الديبة ، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتابع فلم يرزاكي ، ولم يسألاني

(١) صحيح البخاري ٥١٠/١ .

(٢) روى ذلك البخاري عن أنس ٥٥٦/١ .

إلا أن قال : أخف عنا ، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن ، فأمر عامر بن فهيرة ، فكتب لي في رقعة من أدم ، ثم مضى رسول الله ﷺ .^(١)

وفي رواية عن أبي بكر قال : ارتحلنا ، والقوم يطلبوننا ، فلم يدركنا منهم أحد غير سراقة بن مالك بن جعشن على فرس له ، فقلت : هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله ، فقال : **لَا تَخْرُنْ إِبْكَ اللَّهُ مَعْنَاكَ**^(٢) .

ورجع سراقة ، فوجد الناس في الطلب ، فجعل يقول : قد استبرأت لكم الخبر ، قد كفيف ما هنَا . وكان أول النهار جاهداً عليهم ، وآخره حارساً لهم^(٣) .

(٤) ومر في مسيرة ذلك حتى مر بخيتني أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة بربة جلدة تختبئ بفناء الخيمة ، ثم تطعم وتستقي من مر بها ، فسألها : هل عندها شيء؟ قالت : والله لو كان عندنا شيء ما أعزوك القرى والشاء عازب ، وكانت سنة شهباء .

فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة ، فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد؟ قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : هل بها من لبن؟ قالت : هي أجهد من ذلك . فقال : أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت : نعم بأبي وأمي ، إن رأيت بها حلباً فاحلبهما . فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها ، وسمى الله ودعا ، فتفاجت عليه ودرت ، فدعى بإياء لها يربض الرهط ، فحلب فيه حتى علمه الرغوة ، فسقاها ، فشربت حتى رويت ، وستقي أصحابه حتى رروا ، ثم شرب ، وحلب فيه ثانية ، حتى ملأ الإناء ، ثم غادره عندها فارتحلوا .

فمالبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعزماً عجافاً يتساوكن هزاً ، فلما رأى اللبن عجب ، فقال : من أين لك هذا؟ والشاء عازب ، ولا حلوبة في البيت؟ قالت : لا والله إلا أنه من بنا رجل مبارك كان من حدبيه كيت وكيت ، ومن حاله كذا وكذا ، قال : إني والله أراه صاحب قريش الذي تطلبه ، صفيه لي يا أم معبد ، فوصفته بصفاته الرايعة بكلام رائع كأن السامع ينظر إليه وهو أمامه – وستنقله في بيان صفاتيه ﷺ في أواخر المقالة – فقال أبو معبد :

(١) نفس المصدر ١/٥٥٤ – وكان مقربني مدج بالقرب من رايغ ، وتبعهما سراقة حينها كانوا مصعدين من قديد – زاد المعاد ٢/٥٣ – فالأغلب أنه تبعهما في اليوم الثالث من رحيلهما .

(٢) صحيح البخاري ١/٥٦٠ .

(٣) زاد المعاد ٢/٥٣ .

وأله هذا صاحب فريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا ، لقد همت أن أصحبه ، ولا أعملن إن وجدت إلى ذلك سبيلا ، وأصبح صوت بمكة عالياً يسمعونه ولا يرون القائل :

قالت أسماء: ما درينا أين توجه رسول الله ﷺ إذ أقبل رجل من الجن من أسفل مكة فأنشد هذه الآيات، والناس يتبعونه ويسمعون صوته ولا يرونوه، حتى خرج من أعلىها.

قالت: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ﷺ، وأن وجهه إلى المدينة^(١).

(٥) وفي الطريق لقي النبي ﷺ أبا بريدة، وكان رئيس قومه، خرج في طلب النبي ﷺ وأبي بكر؛ رجاء أن يفوز بالكافأة الكبيرة التي كانت قد أعلنت عنها قريش، ولما واجه رسول الله ﷺ وكلمه أسلم مكانه مع سبعين رجلاً من قومه، ثم نزع عمانته، وعقدها برمحه، فاتخذها راية تعلن بأن ملك الأمن والسلام قد جاء ليحلاً الدنيا عدلاً وقسطاً^(٢).

(٦) وفي الطريق لقي رسول الله ﷺ الزبير ، وهو في ركب المسلمين ، كانوا تجأراً فافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاء^(٣).

النَّزُولُ بِقِيَاعٍ:

وفي يوم الإثنين ٨ ربيع الأول سنة ١٤ من النبوة - وهي السنة الأولى من الهجرة - الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ٦٢٢ م نزل رسول الله ﷺ بقباء^(٤) .

(١) زاد المعاد ٥٣، ٥٤.

٢) رحمة للعاملين ١/١

(٣) روى ذلك البخاري عن عروة بن الزبير ٥٥٤ / ١.

(٤) رحمة للعلميين ١٠٢/١ - وفي هذا اليوم تم عمره ~~ستة~~^{ثلاثة} وخمسين عاماً كاملاً لا وكس ولا شعلط ، وتم على نبوته ثلاثة عشر عاماً كاملاً عند من يقول : إنه أكرم بالنبوة في ٩ ربیع الأول في سنة ٤١ من عام الفیل ، وأما =

قال عروة بن الزبير : سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة ، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعد ما أطألوا انتظارهم ، فلما أتوا إلى بيتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبixin يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته يا معاشر العرب ، هذا جدكم الذي تنتظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح^(١) .

قال ابن القيم : وسمعت الرَّجُةُ والتَّكْبِيرُ فِي بَنِي عُمَرٍ بْنِ عُوْفٍ ، وَكَبَرَ الْمُسْلِمُونَ فَرَحًا بِقَدْوَمِهِ ، وَخَرَجُوا لِلقاءِهِ ، فَتَلَقَّوْهُ وَحْيُوهُ بِتَحْيَةِ النَّبِيِّ ، فَأَحَدَقُوا بِهِ مَطِيفِينَ حَوْلَهُ ، وَالسَّكِينَةُ تَعْشَاهُ ، وَالْوَحْيُ يَنْزَلُ عَلَيْهِ : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَانَا وَجَبَرِيلُ وَصَلَاحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (٤: ٦٦) ^(٢) .

قال عروة بن الزبير : فتلقوه رسول الله ﷺ ، فعدل بهم ذات اليدين ، حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف ، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول . ققام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار من لم ير رسول الله ﷺ يحيي - وفي نسخة : يحيي - أبا بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه برداه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك ^(٣) .

وكانـتـ المـديـنـةـ كـلـهـاـ قدـ زـحـفـتـ لـلـاسـتـقبـالـ ، وـكـانـ يـومـ مـشـهـودـاـ لـمـ تـشـهـدـ المـديـنـةـ مـثـلـهـ فيـ تـارـيـخـهاـ ، وـقـدـ رـأـيـ الـيهـودـ صـدـقـ بـشـارـةـ حـبـقـوقـ النـبـيـ : إـنـ اللـهـ جـاءـ مـنـ التـيـانـ ، وـالـقـدـوسـ مـنـ جـبـالـ فـارـانـ^(٤) .

ونزل رسول الله ﷺ بقباء على كلثوم بن الهدى ، وقيل : بل على سعد بن خيمصة ، والأول ثابت ، ومكث علي بن أبي طالب بمكة ثلاثة ، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الوداع التي كانت

= من يقول : إنه أكرم بالنشوة في رمضان سنة ٤١ من عام الفيل فعنده يتم على نبوته - في ذلك اليوم - اثنى عشر عاماً وخمسة أشهر و١٨ يوماً أو ٢٢ يوماً .

(١) صحيح البخاري ١/٥٥٥ .

(٢) زاد المعاد ٢/٥٤ .

(٣) صحيح البخاري ١/٥٥٥ .

(٤) صحيفـةـ حـبـقـوقـ (٣: ٣) .

عنه للناس ، ثم هاجر ماشياً على قدميه ، حتى لحقهما بقباء ، ونزل على كلثوم بن الهدم^(١) . وأقام رسول الله ﷺ بقباء أربعة أيام : الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس^(٢) . وأسس مسجد قباء وصل فيه ، وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة ، فلما كان اليوم الخامس - يوم الجمعة - ركب بأمر الله له ، وأبو بكر رده ، وأرسل إلىبني النجار - أخواه - فجاؤوا متقلدين سيفهم ، فسار نحو المدينة ، فأدركته الجمعة في بيبي سالم بن عوف ، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي ، وكانوا مائة رجل^(٣) .

الدخول في المدينة:

وبعد الجمعة دخل النبي ﷺ المدينة - ومن ذلك اليوم سميت بلدة يترتب بمدينة الرسول ﷺ ، ويعبر عنها بالمدينة مختصرًا - وكان يوماً تاربخناً أغراً ، فقد كانت البيوت والسكك ترتج بالآصوات التحميد والتقديس ، وكانت بنات الأنصار تتغنى بهذه الآيات فرحاً وسروراً^(٤) :

أشرق البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا الله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع

والأنصار إن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة ؛ إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل الرسول ﷺ عليه . فكان لا يبر بدار من دور الأنصار إلا أخذنوا خطام راحلته : هلم إلى العدد

(١) زاد المعاد ٤/٥ . ابن هشام ١/٤٩٣ ، رحمة للعلميين ١/١٠٢ .

(٢) هذا ما رواه ابن إسحاق ، انظر ابن هشام ١/٤٩٤ وهو الذي اختاره العلامة المنصور فوري انظر رحمة للعلميين ١/١٠٢ ، وفي صحيح البخاري أنه أقام بقباء أربعاً وعشرين ليلة (٦١/٦) وبضع عشرة ليلة (٥٥٥/٥٥٥) وأربع عشرة ليلة (٥٦٠/١) وهذا الأخير هو الذي اختاره ابن القم ، وقد صرحت هو نفسه أن نزوله بقباء كان يوم الإثنين وخروجها يوم الجمعة (زاد المعاد ٢/٥٤ ، ١/٥٥) ومعلوم أن فصل ما بينهما لا يزيد على عشرة أيام سوى يومي الدخول والخروج ، ومعهما لا يزيد على اثنين عشر يوماً إذا كانوا من أسبوعين .

(٣) صحيح البخاري ١/٥٥٥ ، ٥٦٠ ، زاد المعاد ٢/٥٥ ، ابن هشام ١/٤٩٤ رحمة للعلميين ١/١٠٢ .

(٤) ذكر ابن القم أن إنشاد هذه الأشعار كان عند مرجعه ﷺ من تبوك ، ووهم من يقول : إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة (زاد المعاد ٣/١٠) لكن ابن القم لم يأت على هذا التوهّم بدليل يشفي ، وقد رجع العلامة المنصور فوري أن ذلك كان عند مقدمة المدينة ، ومعه دلائل لا يمكن ردّها انظر رحمة للعلميين ١/١٠٦ .

والعدة والسلاح والمنعة ، فكان يقول لهم : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوى اليوم فبركت ، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً ، ثم التفت ورجعت فبركت في موضعها الأول ، فنزل عنها ، وذلك في بني النجار - أحواله - عليهما السلام . وكان من توفيق الله لها ، فإنه أحب أن ينزل على أحواله يكرمه بذلك ، فجعل الناس يكلمون رسول الله عليهما السلام في التزول عليهم ، وبادر أبو أيوب الأنصاري إلى رحله ، فأدخله بيته ، فجعل رسول الله عليهما السلام يقول : المرء مع رحله ، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته ، وكانت عنده^(١) .

وفي رواية أنس عند البخاري ، قال النبي الله عليهما السلام : أي بيت أهلنا أقرب ؟ فقال أبو أيوب : أنا يا رسول الله ، هذه داري ، وهذا بيتي . قال : فانطلق فهيء لنا مقيلا ، قال : قوما على بركة الله^(٢) .

وبعد أيام وصلت إليه زوجته سودة ، وبناته فاطمة وأم كلثوم ، وأسمة بن زيد ، وأم أيمن ، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر ومنهم عائشة ، وبقيت زينب عند أبي العاص ، لم يمكنها من الخروج حتى هاجرت بعد بدر^(٣) .

قالت عائشة : لما قدم رسول الله عليهما السلام المدينة وعل أبو بكر وبلال ، فدخلت عليهما فقلت : يا أبا عبد الله كيف تجده ، ويا بلال كيف تجده ، قالت : فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح في أهله
والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :

بِوَادٍ وَحْوَلِي إِذْخَرْ وَجْلِيلْ	أَلَا لَيْتْ شَعْرِي هَلْ أَبْيَنْ لِي لَيْلَةْ
وَهَلْ يَئْدُونْ لِي شَامَةْ وَطَفِيلْ	وَهَلْ أَرْدُنْ يَوْمًا مِيَاهْ مَجْنَةْ

(١) رحمة للعلميين ١/١٠٦ ، زاد المعاد ٥٥/٢ .

(٢) صحيح البخاري ١/٥٥٦ .

(٣) زاد المعاد ٢/٥٥ .

قالت عائشة : فجئت رسول الله ﷺ ، فأحررته ، فقال : اللهم حب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد حباً ، وصححها ، وبارك في صاعها ومدها ، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة^(١) .

إلى هنا انتهى قسم من حياته ﷺ ، وتم دور من الدعوة الإسلامية ، وهو الدور المكي .

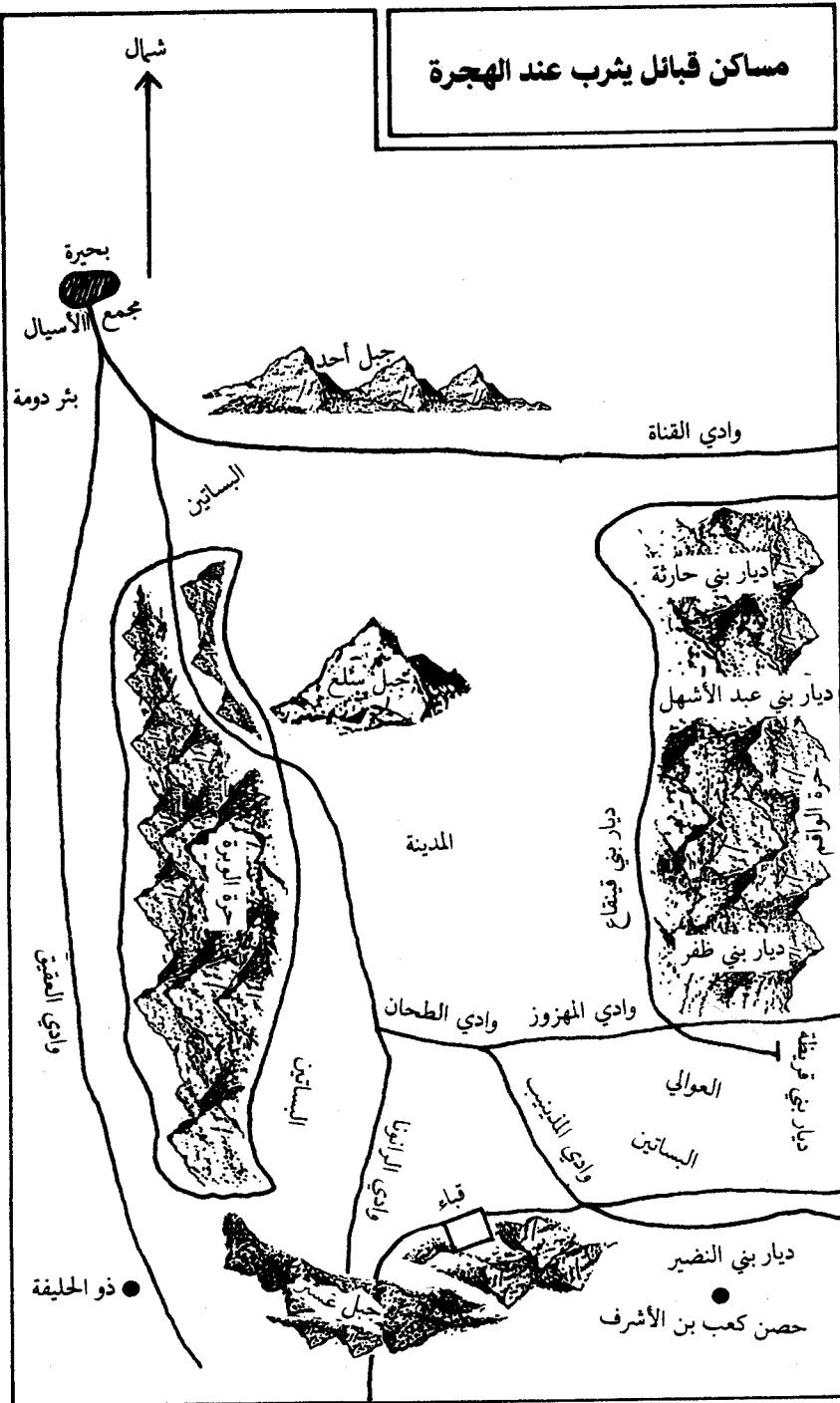
(١) صحيح البخاري ٥٨٨ / ٥٨٩ .

الحياة في المدينة

يمكن تقسيم العهد المدني إلى ثلاث مراحل :

- ١ - مرحلة أثيرت فيها القلاقل والفتن ، وأقيمت فيها العراقيل من الداخل ، وزحف فيها الأعداء إلى المدينة لاستئصال خضراها من الخارج . وهذه المرحلة تنتهي إلى صلح الحديبية في ذي القعدة سنة ٦ من الهجرة .
- ٢ - مرحلة المدننة مع الزعامة الوثنية ، وتنتهي بفتح مكة ، في رمضان سنة ثمان من الهجرة ، وهي مرحلة دعوة الملوك إلى الإسلام .
- ٣ - مرحلة دخول الناس في دين الله أفواجاً ، وهي مرحلة تواجد القبائل والأقوام إلى المدينة ، وهذه المرحلة تنتهي إلى انتهاء حياة الرسول عليه السلام في ربيع الأول سنة ١١ من الهجرة .

مساكن قبائل يشرب عند الهجرة



المرحلة الأولى الحالة الراهنة في المدينة عند الهجرة

لم يكن معنى الهجرة هو التخلص من الفتنة والاستهزاء فحسب ، بل كانت الهجرة مع هذا تعاوناً على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن . ولذلك أصبح فرضاً على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد ، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفعة شأنه .

ولا شك أن رسول الله ﷺ هو الإمام والقائد والهادي في بناء هذا المجتمع ، وكانت إليه أزمة الأمور بلا نزاع .

والأقوام التي كان يواجهها رسول الله ﷺ في المدينة كانت على ثلاثة أصناف ، يختلف أحوال كل واحد منها بالنسبة إلى الآخر اختلافاً واضحاً ، وكان يواجه بالنسبة إلى كل صنف منهم مسائل عديدة غير المسائل التي كان يواجهها بالنسبة إلى الأخرى . وهذه الأصناف الثلاثة هي :

١ - أصحابه الصفة الكرام البررة رضي الله عنهم .

٢ - المشركون الذين لم يؤمنوا بعد ، وهم من صميم قبائل المدينة .

٣ - اليهود .

أ - والمسائل التي كان يواجهها بالنسبة إلى أصحابه هو أن ظروف المدينة بالنسبة إليهم كانت تختلف تماماً عن الظروف التي مروا بها في مكة ، فهم في مكة وإن كانت تجمعهم كلمة جامعة ، وكانت يستهدفون إلى أهداف متفقة ، إلا أنهم كانوا متفرقين في بيوتات شتى ، مقهورين أذلاء مطرودين ، لم يكن لهم من الأمر شيء ، وإنما كان الأمر يهد أعدائهم في الدين ، فلم يكن هؤلاء المسلمين يستطيعون أن يقيموا مجتمعاً إسلامياً جديداً بمواده التي

لا يستغني عنها أي مجتمع إنساني في العالم ، ولذلك نرى السور المكية تقتصر على تفصيل المبادئ الإسلامية ، وعلى التشريعات التي يمكن العمل بها لكل فرد وحده ، وعلى الحث على البر والخير ومكارم الأخلاق ، والاجتناب عن الرذائل والدنايا .

أما في المدينة فكان أمر المسلمين بأيديهم منذ أول يوم ، ولم يكن عليهم سيطرة أحد من الناس ، فقد آن لهم أن يواجهوا بمسائل الحضارة والعمان ، وبمسائل المعيشة والاقتصاد ، وبمسائل السياسة والحكومة ، وبمسائل السلم وال الحرب ، والتنقية الكامل في مسائل الحلال والحرام والعبادة والأخلاق وما إلى ذلك من مسائل الحياة .

كان قد آن لهم أن يكونوا مجتمعًا جديداً ، مجتمعاً إسلامياً ، مختلفاً في جميع مراحل الحياة عن المجتمع الجاهلي ، ويتأثر عن أي مجتمع يوجد في العالم الإنساني ، ويكون مثالاً للدعوة الإسلامية التي عانى لها المسلمون ألواناً من النكال والعقاب طيلة عشر سنوات .

ولا يخفى أن تكون أي مجتمع على هذا النط لا يمكن أن يستتب في يوم واحد ، أو شهر واحد ، أو سنة واحدة ، بل لا بد له من زمن طويل ، يتكمّل فيه التشريع والتقويم مع التثقيف والتدريب والتربيّة تدريجياً ، وكان الله كفياً بهذا التشريع ، وكان رسول الله ﷺ قائماً بتنفيذـه ، والإرشاد إليه ، وتربيـة المسلمين وفقـه ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَمْمَاتِ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتَّلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُرِيكُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (٦٢: ٤) .

وكان الصحابة رضي الله عنهم مقبلين عليه بقلوبهم ، يتحلون بأحكامه ويستبشرون بها ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زادُهُمْ إِيمَانًا﴾ (٨: ٢) وليس تفصيل هذه المسائل كلها من مباحث موضوعنا فتقتصر منها على قدر الحاجة .

كان هذا أعظم ما يواجهه رسول الله ﷺ بالنسبة إلى المسلمين ، وهذا الذي كان هو المقصود - على نطاق واسع - من الدعوة الإسلامية ، والرسالة الحمدية ، ولكن لم يكن هذا قضية طارئة . نعم كانت هناك مسائل - دون ذلك - كانت تقتضي الاستعجال .

كانت جماعة المسلمين مشتملة على قسمين : قسم هم في أرضهم وديارهم وأموالهم ، لا يهتمون بذلك إلا ما يهم الرجل وهو آمن في سريه ، وهم الأنصار ، وكان بينهم تنازع مستحكم وعداء مزمن منذ أمد بعيد . وكان بجانب هؤلاء قسم آخر - وهم المهاجرون - فاتهم

كل ذلك ، ونجوا بأنفسهم إلى المدينة ، ليس لهم ملجاً يأوون إليه ، ولا عمل يعملونه ليعيشتهم ، ولا مال يبلغون به قواماً من العيش ، وكان عدد هؤلاء اللاجئين غير قليل ، وكانوا يزيدون يوماً في يوماً ، فقد كان أذن بالهجرة لكل من آمن بالله ورسوله . ومعلوم أن المدينة لم تكن على ثروة طائلة ، فتززع ميزانها الاقتصادي ، وفي هذه الساعة الحرجية قامت القوات المعادية للإسلام بشبه مقاطعة اقتصادية ، قلت لأجلها المستوردات ، وتفاقمت الظروف .

ب - أما القوم الثاني - وهم المشركون من صميم قبائل المدينة - فلم تكن لهم سيطرة على المسلمين ، وكان منهم من يتخالجه الشكوك ، ويتردد في ترك دين الآباء ، ولكن لم يكن ييطن العداوة والكيد ضد الإسلام والمسلمين ، ولم تخض عليهم مدة طويلة حتى أسلموا وأخلصوا دينهم ^{للله} .

وكان فيهم من ييطن شديد الإحن والعداوة ضد رسول الله ^{صلوات الله عليه وسلم} والمسلمين ، ولكن لم يكن يستطيع أن ينأوهم ، بل كان مضطراً إلى إظهار الود والصفاء نظراً إلى الظروف ، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبي ، فقد كانت الأوس والخزرج اجتمعوا على سيادته بعد حرب بعاث ، ولم يكونوا اجتمعوا على سيادة أحد قبله . وكانت قد نظموا له الخرز ، ليتوجهوه ويملكوه ، وكان على وشك أن يصير ملكاً على أهل المدينة إذ باغت مجيء رسول الله ^{صلوات الله عليه وسلم} ، وانصراف قومه عنه إليه ، فكان يرى أنه استلبه ملكاً ، فكان ييطن شديد العداوة ضده - ولما رأى الظروف لا تساعده على شركه ، وأنه يحرم الفوائد الدنيوية أظهر الإسلام بعد بدر ، ولكن بقي مستبطناً الكفر ، وكان لا يجد مجالاً للمكيدة برسول الله ^{صلوات الله عليه وسلم} وبال المسلمين إلا ويأتي بها - وكان أصحابه - من الرؤساء الذين حرموا المناصب المرجوة في ملوكه - يساهمونه ويدعمونه في تنفيذ خططه ، وربما كانوا يتخذون بعض الأحداث ، وضعاف العقول من المسلمين عملاً لهم ؛ لتنفيذ خططهم .

ج - أما القوم الثالث - وهم اليهود - فقد كانوا انحازوا إلى الحجاز زمن الاضطهاد الأشوري والروماني كما أسلفنا ، وكانت في الحقيقة عربانين ، ولكن بعد الانسحاب إلى الحجاز صبغوا بالصبغة العربية في الزي واللغة والحضارة ، حتى صارت أسماء قبائلهم أو أفرادهم عربية ، وحتى قامت بينهم وبين العرب علاقة الزواج والصهر ، إلا أنهم تحفظوا بعصبيتهم الجنسية ، ولم يندمجوا في العرب قطعاً ، بل كانوا يفتخرن بجنسبيتهم الإسرائيلية - اليهودية - وكانوا يحتقرن العرب احتقاراً بالغاً حتى كانوا يسمونهم أميين بمعنى أنهم وحوش سذاج ، وأرذل متأنرون ،

وكانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم ، يأكلونها كيف شاءوا ، ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمَّةِ^٣
سَيِّلٌ﴾ (٧٥:٣) ولم يكن لهم تحمس في نشر دينهم وإنما جل بضاعتهم الدينية هي : الفأل
والسحر والنفث والرقية وأمثالها ، وبذلك كانوا يرون أنفسهم أصحاب علم وفضل وقيادة
روحانية .

وكانوا مهرة في فنون الكسب والمعيشة ، فكانت في أيديهم تجارة الحبوب والقر والخمر
والثياب ، كانوا يوردون الثياب والحبوب والخمر ، ويصدرون القر ، وكانت لهم أعمال من دون
ذلك هم لها عاملون ، فكانوا يأخذون المنافع من عامة العرب أضعافاً مضاعفة ، ثم لم يكونوا
يقتصرن على ذلك ، بل كانوا أكالين للربا ، كانوا يقرضون شيوخ العرب وساداتهم ، ليكتبوا
هؤلاء الرؤساء مدائع من الشعراء ، وسمعة بين الناس بعد إنفاقها من غير جدوى ولا طائلة ، ثم
كانوا يرتهنون أرض هؤلاء الرؤساء وزروعهم وحوائطهم ، ثم لا يلبثون إلا أعواماً حتى يتملكونها .

وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعتو وفساد ، يلقون العداوة والشحنة بين القبائل
العربية المجاورة ، ويغرون بعضها على بعض بكيد خفي لم تكن تشعره تلك القبائل ، فلا تزال في
حروب دامية متواصلة ، ولا تزال أنامل اليهود تؤجج نيرانها كلما رأتها تقارب الحمود والانطفاء ،
وبعد هذا التحرير والإغراء كانوا يقدعون على جانب ، يرون ساكين ما يحمل بهؤلاء العرب ،
نعم كانوا يزودونهم بقروض ثقيلة ربوية حتى لا يجتمعوا عن الحرب لعسر النفقه ، وبهذا العمل
كانوا يحصلون على منفعتين ، كانوا يتحفظون على كيانهم اليهودي ، وينفقون سوق الربا ؛ ليأكلوه
أضعافاً مضاعفة ، ويكسروا ثروات طائلة

و كانت في يثرب منهم ثلاثة قبائل مشهورة :

- (١) بنو قينقاع ، كانوا حلفاء الخزرج ، وكانت ديارهم داخل المدينة .
- (٢) بنو النضير .

(٣) بنو قريطة ، وهاتان القبيلتان كانتا حلفاء الأوس ، وكانت ديارهما بضواحي المدينة .

وهذه القبائل هي التي كانت تثير الحروب بين الأوس والخزرج منذ أمد بعيد ، وقد ساهمت
بأنفسها في حرب بعاث ، كل مع حلفائها .

وطبعاً فإن اليهود لم يكن يرجى منهم أن ينظروا إلى الإسلام إلا بعين البغض والخذل ،

فالرسول لم يكن من جنسهم حتى ليسكن جأش عصبيتهم الجنسية التي كانت متغلبة على نفسياتهم وعقلائهم ، ثم دعوة الإسلام لم تكن إلا دعوة صالحة تؤلف بين أشتات القلوب ، وتطفيء نار العداوة والبغضاء ، وتدعى إلى التزام الأمانة في الشؤون ، وإلى التقييد بأكل الحلال من طيب الأموال ، ومعنى كل ذلك أن قبائل يرب البر العربية ستتألف فيما بينها ، وحينئذ لابد من أن تفلت من براثن اليهود ، فيفشل نشاطهم التجاري ، ويجرموا أموال الربا الذي كانت تدور عليه رحى ثروتهم ، بل ربما يتحمل أن تتيقظ تلك القبائل ، فتدخل في حسابها الأموال الربوية التي أخذها اليهود ، فتقوم بإرجاع أرضها وحوائطها التي أضاعتتها إلى اليهود في تأدية الربا .

كان اليهود يدخلون كل ذلك في حسابهم منذ عرروا أن دعوة الإسلام تحاول الاستقرار في يرب ، ولذلك كانوا يطعنون أشد العداوة ضد الإسلام ، وضد رسول الله ﷺ منذ أن دخل يرب ، وإن كانوا لم يتجرسوا على إظهارها إلا بعد حين .

ويظهر ذلك جلياً بما رواه ابن إسحاق عن أم المؤمنين صفية رضي الله عنها . قال ابن إسحاق : حدثت عن صفية بنت حبي بن أخطب أنها قالت : كنت أحب ولد أبي إليه ، وإلى عمي أبي ياسر ، لم ألقهما قط مع ولد هما إلا أحذاني دونه . قالت : فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف ، غدا عليه أبي ؛ حبي بن أخطب ، وعمي أبو ياسر بن أخطب ، مغلسين ، قالت : فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، قالت : فأتيت كليني كسلانين ساقطين يمشيان الهويني . قالت : فهششت إليهما كلاً كنْت أصنع : فوالله ما التفت إلى واحد منهما ، مع ما بهما من الغم . قالت : وسمعت عمي أبي ياسر ، وهو يقول لأبي ، حبي بن أخطب : أهو هو ؟ قال : نعم والله ، قال : أتعرفه وتشتبه ؟ قال : نعم ، قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت^(١) .

ويشهد بذلك أيضاً ما رواه البخاري في إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، فقد كان حبراً من فطاحل علماء اليهود ، ولما سمع بقدوم رسول الله ﷺ المدينة في بني النجار جاءه مستعجلًا ، وألقى إليه أسئلة لا يعلمهها إلا النبي ، ولما سمع ردوده ﷺ عليها آمن به ساعته ومكانه ، ثم قال له : إن اليهود قوم بهت ، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك ،

(١) ابن هشام ٥١٨، ٥١٩ .

فأرسل رسول الله ﷺ فجاءت اليهود ، ودخل عبد الله بن سلام البيت ، فقال رسول الله ﷺ : أي رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا ، وأخيرنا وابن آخرنا (وفي لفظ :) سيدنا وابن سيدنا ، (وفي لفظ آخر :) خيرنا وابن خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا ، فقال رسول الله ﷺ : أفرأيت إن أسلم عبد الله ؟ فقالوا : أعاذه الله من ذلك (مرتبين أو ثلاثة) ، فخرج إليهم عبد الله فقال :أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فقالوا : شرنا وابن شرنا ، ووقعوا فيه . (وفي لفظ) فقال : يا معشر اليهود اتقوا الله ، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم تعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق . فقالوا : كذبت^(١) .

وهذه أول تجربة تلقاها رسول الله ﷺ من اليهود ، في أول يوم دخل فيه المدينة .

هذا كله من حيث الداخلية ، وأما من حيث الخارجية ؛ فإن ألد قوة ضد الإسلام هي قريش ، كانت قد جربت منذ عشرة أعوام – حينما كان المسلمون تحت يديها – كل أساليب الإرهاب والتهديد والمضايقة وسياسة التجويع والمقاطعة ، وأذاقتهم التنكيلات والويلات ، وشنّت عليهم حرباً نفسية مضنية مع دعائية واسعة منظمة ، ثم لما هاجر المسلمون إلى المدينة صادرت أرضهم وديارهم وأموالهم ، وحالت بينهم وبين أزواجهم وذرياتهم ، بل حبست وعذبت من قدرت عليه ، ثم لم تقتصر على هذا ، بل تآمرت على الفتك بصاحب الدعوة ﷺ والقضاء عليه ، وعلى دعوته ، ولم تأل جهداً في تنفيذ هذه المؤامرة . وبعد هذا كله – لما نجا المسلمون إلى أرض تبعد عنها خمسة كيلو مترًّا – قامت بدورها السياسي لما لها من الصدارية الدينية والزعامة الدينية بين أوساط العرب ، بصفتها ساكنة الحرث ومجاورة بيت الله وسنته ، فأغرت غيرها من مشركي الجزيرة ضد أهل المدينة ، حتى صارت المدينة في شبه مقاطعة شديدة ، قلت مستورداتها ، في حين كان عدد اللاجئين يزيد يوماً في يوماً . إن « حالة الحرب » قائمة يقيناً بين هؤلاء الطغاة من أهل مكة وبين المسلمين في وطنهم الجديد ، ومن السفة تحمل المسلمين أوزار هذا الخصم^(٢) .

كان حقاً للMuslimين أن يصدروا أموال هؤلاء الطغاة ، كما صودرت أموالهم ، وأن يدالوا عليهم من التنكيلات بمثل ما أدالوا بها ، وأن يقيموا في سبيل حياتهم العراقيل كما أقاموها في سبيل

(١) انظر صحيح البخاري ٤٥٩/١ ، ٥٥٦ ، ٥٦١ .

(٢) الكلمة الأخيرة لحمد الغزالى في فقه السيرة ص ١٦٢ .

حياة المسلمين ، وأن يكال لهؤلاء الطغاة صاعاً بصاع ، حتى لا يجدوا سبيلاً لإبادة المسلمين ، واستئصال خضرائهم .

هذه هي القضايا والمشاكل التي كان يواجهها رسول الله ﷺ حين ورد المدينة بصفته رسولاً هادياً وإماماً قائداً .

وقد قام رسول الله ﷺ بدور الرسالة والقيادة في المدينة ، وأدلى إلى كل قوم بما كانوا يستحقونه من الرأفة والرحمة أو الشدة والنkal – ولا شك أن الرحمة كانت غالبة على الشدة والعنت – حتى عاد الأمر إلى الإسلام وأهله في بعض سنوات ، وسيجد القارئ كل ذلك جلياً في الصفحات الآتية :

بناء مجتمع جديد

قد أسلفنا أن نزول رسول الله ﷺ بالمدينة في بني النجار كان يوم الجمعة (١٢ ربيع الأول سنة ١ هـ الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ٦٢٢ م) ، وأنه نزل في أرض أمام دار أبي أيوب ، وقال : هنا المنزل إن شاء الله ، ثم انتقل إلى بيت أبي أيوب .

بناء المسجد النبوي :

وأول خطوة خطتها رسول الله ﷺ بعد ذلك هو إقامة المسجد النبوي . ففي المكان الذي برّكت فيه ناقته أمر ببناء هذا المسجد ، واشتراء من غلامين يتيمين كانوا يملكانه ، وساهم في بنائه بنفسه ، فكان ينقل اللبن والحجارة ويقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والهاجرة
وكان يقول :
هذا الحمال لا حمال خير هذا أبسر ربما وأطهر
وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة في البناء حتى إن أحدهم ليقول :
لحسن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضل
وكانت في ذلك المكان قبور المشركين ، وكان فيه خرب ونخل وشجرة من غرقد ، فأمر
رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت ، وبالحرب فسوت ، وبالنخل والشجرة ققطعت ،
وصفت في قبلة المسجد ، وكانت القبلة إلى بيت المقدس ، وجعلت عضاداته من حجارة ،
وأقيمت حيطانه من اللبن والطين ، وجعل سقفه من جريد النخل ، وعمده الجنديع ، وفرشت
أرضه من الرمال والحصى ، وجعلت له ثلاثة أبواب ، وطوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ،
والجانبان مثل ذلك أو دونه ، وكان أساسه قريباً من ثلاثة أذرع .

وبني بيوتاً إلى جانبه ، بيوت الحجر باللبن ، وسقفها بالحديد والجذوع ، وهي حجرات أزواجه عليهم السلام ، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبي أيوب^(١) .

ولم يكن المسجد موضعاً لأداء الصلوات فحسب ، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمين تعاليم الإسلام وتوجهاته ، ومنتدى تلتقي وتتالّف فيه العناصر القبلية المختلفة التي طالما نافرت بينها التزعّعات الجاهلية وحرّوها ، وقاعدة لإدارة جميع الشؤون وبث الانطلاقات ، وبرماناً لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية .

وكان مع هذا كله داراً يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون .

وفي أوائل الهجرة شرع الأذان ، النغمة العلوية التي تدوّي في الآفاق ، كل يوم خمس مرات ، والتي ترتعج لها أنحاء عالم الوجود . وقصة رؤيا عبد الله بن زيد بن عبد ربه بهذا الصدد معروفة رواها الترمذى وأبو داود وأحمد وابن خزيمة^(٢) .

المؤاخاة بين المسلمين:

وكما قام النبي عليه السلام (ببناء المسجد) مركز التجمع والتالّف ؛ قام بعمل آخر من أروع ما يأثره التاريخ ، وهو عمل المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار . قال ابن القيم : ثم آخى رسول الله عليه السلام بين المهاجرين والأنصار ، في دار أنس بن مالك ، وكانوا تسعاً من رجالاً ، نصفهم من المهاجرين ، ونصفهم من الأنصار ، آخى بينهم على المواساة ، ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام ، إلى حين وقعة بدر ، فلما أنزل الله عز وجل ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِعَضٍ﴾ (٨ : ٧٥) رد التوارث ، دون عقد الأخوة .

وقد قيل إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية ... والثابت الأول ، والمهاجرون كانوا مستغفين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار^(٣) أ.هـ .

(١) صحيح البخاري ٧١/١ ، ٥٥٥ ، ٥٦٠ ، زاد المعاد ٥٦/٢ .

(٢) انظر بلوغ المرام لابن حجر العسقلاني ص ١٥ .

(٣) زاد المعاد ٥٦/٢ .

ومعنى هذا الإخاء – كما قال محمد الغزالي – أن تذوب عصبيات الجاهلية ، فلا حمية إلا للإسلام ، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن ، فلا يتقدم أحد أو يتاخر إلا ببروعته وتقواه . وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقداً نافذاً ، لا لفظاً فارغاً ، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال ، لا تحية تثرث بها الألسنة ولا يقوم لها أثر .

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة متزوج في هذه الأخوة ، وتملاً المجتمع الجديد بأروع الأمثال^(١) .

فقد روى البخاري أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن أبي الربيع ، فقال عبد الرحمن : إني أكثر الأنصار مالاً ، فاقسم مالي نصفين ، ولي امرأتان ، فانظر أعيجهما إليك فسمها لي ، أطلقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها ، قال : بارك الله لك في أهلك وممالك ، وأين سوقكم ؟ فدللوه على سوقبني قينقاع ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقطع وسمن ، ثم تابع الغدو ، ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة ، فقال النبي ﷺ : مهيم ؟ قال : تزوجت . قال : كم سقت إليها ؟ قال : نواة من ذهب^(٢) .

وروى عن أبي هريرة قال : قالت الأنصار للنبي ﷺ : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال : لا . فقالوا : فتكلفونا المؤنة ، ونشركم في الثرة . قالوا : سمعنا وأطعنا^(٣) .

وهذا يدلنا على ما كان عليه الأنصار من الحفاوة البالغة بإخوانهم المهاجرين ، ومن التضحية والإيثار والود والصفاء ، وما كان عليه المهاجرون من تقدير هذا الكرم حق قدره ، فلم يستغلوه ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أودهم .

وحقاً فقد كانت هذه المؤاخاة فذلة ، وسياسة صائبة حكيمة ، وحلّاً رائعاً للكثير من المشاكل التي كان يواجهها المسلمون ، والتي أشرنا إليها .

ميثاق التحالف الإسلامي:

وكما قام رسول الله ﷺ بعد المؤاخاة بين المؤمنين ، قام بعقد معاهدة أزاح بها كل ما كان

(١) فقة السيرة ص ١٤٠ ، ١٤١ .

(٢) صحيح البخاري . باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ٥٥٣/١ .

(٣) صحيح البخاري – باب إذا قال : أكفي مئنة النخل إلخ ٣١٢/١ .

من حزارات الجاهلية ، والزعات القبلية ، ولم يترك مجالاً لتقاليد الجاهلية ، وهاك بندوها ملخصاً :

هذا كتاب من محمد النبي - ﷺ - بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومنتبعهم فلحق بهم ، وجاحد معهم :

(١) أنهم أمة واحدة من دون الناس .

(٢) المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانיהם بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تقدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٣) وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

(٤) وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة^(١) ظلم أو إثم أو عداوان أو فساد بين المؤمنين .

(٥) وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم .

(٦) ولا يقتل مؤمناً في كافر .

(٧) ولا ينصر كافراً على مؤمن .

(٨) وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم .

(٩) وأن من تعنا من يهد فإنه النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .

(١٠) وأن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسامم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

(١١) وأن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله .

(١٢) وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسها ، ولا يحول دونه على مؤمن .

(١٣) وأنه من اعتبط مؤمناً^(٢) قتلاً عن بيته فإنه قود به ، إلا أن يرضى ولي المقتول .

(١) الدسع : الدفع كالدرس . والمعنى أي طلب دفع ظلم . لسان العرب بتصرف .

(٢) اعتبط مؤمناً قتلاً : قتله بلا جنابة كانت منه ولا جريرة توجب قتله . لسان العرب .

(١٤) وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه

(١٥) وأنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وانه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيمة ، ولا يُؤخذ منه صرف ولا عدل .

(١٦) وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردك إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ .

أثر المعنويات في المجتمع:

بهذه الحكمة ، وبهذه الحذافة أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد ، ولكن كانت هذه الظاهرة أثراً للمعاني التي كان يتمتع بها أولئك الأجداد بفضل صحبة النبي ﷺ ، وكان النبي ﷺ يتعهدهم بالتعليم والتربية وتزكية النفوس والتحت على مكارم الأخلاق ، ويؤدّبهم بأداب الود والإخاء والمجدد والشرف والعبادة والطاعة .

سأله رجل : أي الإسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف ^(١) .

قال عبد الله بن سلام : لما قدم النبي ﷺ المدينة جئت ، فلما تبيّنت وجهه ، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، فكان أول ما قال : يا أيها الناس أفسحوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نائم ، تدخلوا الجنة بسلام ^(٢) .

وكان يقول : لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بواقهه ^(٣) .

ويقول : المسلم من سلم المسلمين من لسانه ويده ^(٤) .

ويقول : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأنبيائه ما يحب لنفسه ^(٥) .

(١) ابن هشام ١ / ٥٠٢ ، ٥٠٣ .

(٢) صحيح البخاري ٩ / ٦ .

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه والدارمى . مشكاة المصايب ١ / ١٦٨ .

(٤) رواه مسلم ، مشكاة المصايب ٢ / ٤٢٢ .

(٥-٦) صحيح البخاري ٦ / ١ .

ويقول : المؤمنون كرجل واحد ، إن اشتكتي عينه اشتكتي كله ، وإن اشتكتي رأسه اشتكتي كله^(١) .

ويقول : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعض^(٢) .

ويقول : لا تبغضوا ، ولا تحسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً ولا يجعل مسلم أن يهجر أخيه فوق ثلاثة أيام^(٣) .

ويقول : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيمة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيمة^(٤) .

ويقول : ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء^(٥) .

ويقول : ليس المؤمن بالذى يشبع وجاره جائع إلى جانبه^(٦) .

ويقول : سباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر^(٧) .

وكان يجعل : إماتة الأذى عن الطريق صدقة ، ويعدها شعبة من شعب الإيمان^(٨) .

وكان يجعلهم على الإنفاق ، ويدرك من فضائله ما تتقاذف إليه القلوب ، فكان يقول : الصدقة تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النار^(٩) .

ويقول : أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عري ،كساه الله من خضر الجنة ، وأيما مسلم

(١) رواه مسلم ، مشكاة المصابيح ٤٢٢/٢ .

(٢) متفق عليه ، مشكاة المصابيح ٤٢٢/٢ ، صحيح البخاري ٨٩٠/٢ .

(٣) صحيح البخاري ٨٩٦/٢ .

(٤) متفق عليه مشكاة المصابيح ٤٢٢/٢ .

(٥) سنن أبي داود ٢٣٥/٢ ، جامع الترمذى ١٤/٢ .

(٦) رواه البيهقي في شعب الإيمان ، مشكاة المصابيح ٤٢٤/٢ .

(٧) صحيح البخاري ٨٩٣/٢ .

(٨) والحديث في ذلك مروي في الصحيحين ، انظر مشكاة المصابيح ١٢/١ ، ١٦٧ .

(٩) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه ، مشكاة المصابيح ١٤/١ .

أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأئمها مسلم سقى مسلماً على ظمآن سقاهم الله من الرحيم الختوم^(١) .

ويقول : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجد فبكلمة طيبة^(٢) .

وبجانب هذا كان يبحث حثاً شديداً على الاستعفاف عن المسألة ، ويدرك فضائل الصبر والقناعة ، كان يعد المسألة كذوباً أو خدشاً أو خوشأ في وجه السائل^(٣) . اللهم إلا إذا كان مضطراً ، كما كان يحدث لهم بما في العبادات من الفضائل والأجر والثواب عند الله وكان يربطهم بالوحى النازل عليه من السماء ربطاً متقداً يقرؤه عليهم ، ويقرؤونه ، لتكون هذه الدراسة إشعاراً بما عليهم من حقوق الدعوة ، وتبغات الرسالة ، فضلاً عن ضرورة الفهم والتدارب .

وهكذا رفع معنوياتهم ومواهبهم ، وزودهم بأعلى القيم والأقدار والمثل ، حتى صاروا صورة لأعلى قمة من الكمال عرفت في تاريخ البشر بعد الأنبياء .

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : من كان مستيناً فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ﷺ ، كانوا أفضل هذه الأمة ، أقربها قلوبياً ، وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلفاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامته دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على أثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم^(٤) .

ثم إن هذا الرسول القائد الأعظم ﷺ كان يتمتع من الصفات المعنوية والظاهرة ، ومن الكلمات والمواهب والأمجاد والفضائل ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، بما جعله تهوى إليه الأفchedة ، وتتفانى عليه النفوس ، مما يتكلم بكلمة إلا ويبادر صحابته - رضي الله عنهم - إلى امتحانها ، وما يأتي برشد وتوجيه إلا ويتسابقون إلى التحليل به .

بمثل هذا استطاع النبي ﷺ أن يبني في المدينة مجتمعاً جديداً ، أروع وأشرف مجتمع عرفه

(١) سنن أبي داود ، وجامع الترمذى ، مشكاة المصايح ١٦٩/١ .

(٢) صحيح البخاري ١٩٠/١ ، ٨٩٠/٢ .

(٣) انظر في ذلك أبا داود والترمذى والنمسانى وابن ماجه والدارمى ، مشكاة المصايح ١٦٣/١ .

(٤) رواه رزين ، مشكاة المصايح ١/٣٢ .

التاريخ ، وأن يضع لمشاكل هذا المجتمع حلاً تتنفس له الإنسانية الصعداء ، بعد أن كانت تعبت في غياب الزمان ودياجير الظلمات .

وتمثل هذه المعنويات الشاسعة تكاملت عناصر المجتمع الجديد ، الذي واجه كل تiarات الزمان حتى صرف وجهتها ، وحول مجرى التاريخ والأيام .

معاهدة مع اليهود

بعد أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، ووثق من رسوخ قواعد المجتمع الإسلامي الجديد ، بإقامة الوحدة العقائدية والسياسية والتنظيمية بين المسلمين ، رأى أن يقوم بتنظيم علاقاته بغير المسلمين ، وكان همه في ذلك هو توفير الأمن والسلام والسعادة والخير للبشرية جماء ، مع تنظيم المنطقة في وفاق واحد ، فسن في ذلك قوانين السماح والتتجاوز التي لم تعهد في عالم مليء بالتعصب والتغالي .

وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود – كما أسلفنا – وهم وإن كانوا يطعنون العداوة للمسلمين ، لكن لم يكونوا أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد ، فقد معهم رسول الله ﷺ معايدة ترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال ، ولم يتوجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام .

وجاءت هذه المعاهدة ضمن المعاهدة التي تمت بين المسلمين أنفسهم ، والتي مر ذكرها قريباً . وهكذا بند هذه المعاهدة :

بنود المعاهدة:

- (١) إن يهودبني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم وأنفسهم ، كذلك لغيربني عوف من اليهود .
- (٢) وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم .
- (٣) وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحفة .
- (٤) وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم .

- (٥) وإنه لم يأثم امرؤ بخليفة .
- (٦) وإن النصر للمظلوم .
- (٧) وإن اليهود يتغافلون مع المؤمنين ما داموا محاربين .
- (٨) وإن يثرب حرام جوفها لأجل هذه الصحيفة .
- (٩) وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله ﷺ .
- (١٠) وإنه لا تُجاذِرُ قريش ولا من نصرها .
- (١١) وإن ينهم النصر على من دهم يثرب ... على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .
- (١٢) وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم^(١) .
- وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقيهة ، عاصمتها المدينة ورئيسها – إن صح هذا التعبير – رسول الله ﷺ ، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها لل المسلمين ، وبذلك أصبحت المدينة عاصمة حقيقة للإسلام .
- ولتوسيع منطقة الأمن والسلام عاًمد النبي ﷺ قبائل أخرى في المستقبل بمثل هذه المعاهدة ، حسب الظروف ، وسيأتي ذكرها .

(١) انظر ابن هشام ١/٥٣٥ ، ٥٤٠ .

الكافح الدامي

استفزازات قريش ضد المسلمين بعد الهجرة واتصالهم بعبد الله بن أبي :

قد أسلفنا ما كان يأتي به كفار مكة من التنكيلات والويلات ضد المسلمين ، وما فعلوا بهم عند الهجرة ، مما استحقوا لأجلها المصادر والقتال ، إلا أنهم لم يكونوا ليفيقوا من غيرهم ، ويختنعوا عن عدوائهم ، بل زادهم غيظاً أن فاتهم المسلمون ووجدوا مأمناً ومقرًا بالمدينة ، فكتبوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان إذ ذاك مشركاً بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة – فمعلوم أئمَّة كانوا مجتمعين عليه ، وكادوا يجعلونه ملكاً على أنفسهم لو لا أن هاجر رسول الله عليه السلام وأمنوا به – كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين يقولون لهم في كلمات باتة :

إنكم آويم صاحبنا ، وإننا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا ، حتى نقتل مقاتلتكم ، ونستبيح نساءكم^(١) .

وب مجرد بلوغ هذا الكتاب قام عبد الله بن أبي ليتمثل أوامر إخوانه المشركين من أهل مكة – وقد كان يعتقد على النبي عليه السلام ، لما رأه أنه استتبه ملكه – يقول عبد الرحمن بن كعب : فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأولان اجتمعوا لقتال رسول الله عليه السلام ، فلما بلغ ذلك النبي عليه السلام لقيهم ، فقال : لقد بلغ وعد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر ما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم ، فلما سمعوا ذلك من النبي عليه السلام تفرقوا^(٢) .

امتنع عبد الله بن أبي بن سلول عن إرادة القتال عند ذاك ؛ لما رأى خوراً أو رشدًا في

(١) أبو داود باب بحر النضير .

(٢) نفس المصدر .

أصحابه ، ولكن يبدو أنه كان متواطئاً مع قريش ، فكان لا يجد فرصة إلا وينتهزها لإيقاع الشر بين المسلمين والشركين ، وكان يضم معه اليهود ؛ ليعنوه على ذلك ، ولكن تلك هي حكمة النبي ﷺ التي كانت تطفئ نار شرهم حيناً بعد حين^(١) .

إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام:

ثم إن سعد بن معاذ انطلق إلى مكة معتمراً، فنزل على أمية بن خلف بمكة ، فقال لأمية : انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت ، فخرج به قريباً من لقف النهار ، فلقيهما أبو جهل فقال : يا أبا صفوان ، من هذا معك ؟ فقال : هذا سعد ، فقال له أبو جهل : ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويت الصباء ، وزعمتم أنكم تتصرونهم ، وتعينونهم ، أما والله لولا أنت مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً ، فقال له سعد ورفع صوته عليه : أما والله لعن منعنى هذا لأنعك ما هو أشد عليك منه ، طريقك على أهل المدينة^(٢) .

قريش تهدد المهاجرين:

ثم إن قريشاً أرسلت إلى المسلمين تقول لهم : لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب ، سنأتيكم فنستأصلكم ونبعد خضراءكم في عقر داركم^(٣) .

(١) انظر في هذا الصدد صحيح البخاري ٦٥٦، ٩١٦، ٦٥٥/٢، ٩٢٤.

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي .

(٣) رحمة للعاملين / ١١٦ .

(٤) مسلم باب فضل سعد بن أبي وقاص ٢٨٠ / ٢ واللفظ له ، وصحیح البخاری - باب الحرامۃ في الغزو في
سبيل الله ٤ / ٤٠٤ .

ولم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالي بل كان ذلك أمراً مستمراً ، فقد روى عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحرس ليلاً، حتى نزل ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فأنخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة ، فقال : يا أيها الناس انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل^(١) .

ولم يكن الخطر مقتبراً على رسول الله ﷺ ، بل على المسلمين كافة ، فقد روى أبي بن كعب ، قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وأتواهم الأنصار رمthem العرب عن قوس واحدة ، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه .

الإذن بالقتال:

في هذه الظروف الخطيرة التي كانت تهدد كيان المسلمين بالمدينة ، والتي كانت تنبئ عن قريش أنهم لا يفيقون عن غريم ، ولا يتمنعون عن ترددتهم بحال ، أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين ، ولم يفرضه عليهم قال تعالى : ﴿أَذْنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ إِنَّهُمْ ظَلَمُوا إِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٢٢ : ٣٩) .

وأنزل هذه الآية ضمن آيات أرشدتهم إلى أن هذا الإذن إنما هو لإزاحة الباطل ، وإقامة شعائر الله ، قال تعالى : ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَنُوهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتَوْا الزَّكُوْةَ وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (٤١ : ٢٢) .

والصحيح الذي لا مندوحة عنه أن هذا الإذن إنما نزل بالمدينة بعد الهجرة ، لا بمكة ، ولكن لا يمكن لنا القطع بتحديد ميعاد التزول .

نزل الإذن بالقتال ، ولكن كان من الحكمة إزاء هذه الظروف – التي مبعثها الوحيد هو قوة قريش وترددها – أن يسيطر المسلمون على طريق قريش التجارية المؤدية من مكة إلى الشام ، واختار رسول الله ﷺ لبسه هذه السيطرة خططين :

الأولى : عقد معاهدات الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التي كانت مجاورة لهذا الطريق ، أو كانت تقطن ما بين هذا الطريق وما بين المدينة ، وقد أسلفنا معاهدته – ﷺ – مع

(١) جامع الترمذى أبواب التفسير ١٣٠ / ٢ .

اليهود ، وكذلك كان عقد معاهمدة الحلف أو عدم الاعتداء مع جهينة قبل الأخذ في النشاط العسكري ، وكانت مساكنهم على ثلاثة مراحل من المدينة ، وقد عقد معاهمدات أثناء دورياته العسكرية وسيأتي ذكرها .

الثانية : إرسال البعوث واحدة تلو الأخرى إلى هذا الطريق .

الغزوات والسرايا قبل بدر^(١) :

ولتنفيذ هاتين الخططين بدأ في المسلمين النشاط العسكري فعلاً بعد نزول الإذن بالقتال ، وقاموا بحركات عسكرية هي أشبه بالدوريات الاستطلاعية ، وكان المطلوب منها هو الذي أشرنا إليه من الاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة ، والمسالك المؤدية إلى مكة ، وعقد المعاهمدات مع القبائل التي مساكنها على هذه الطرق ، وإشعار مشركي يثرب ويهدوها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء ، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم ، وإنذار قريش عقبي طيشها ، حتى تفيق عن غيها الذي لا تزال تتوجل في أعماقه ، وعلها تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها وأسباب معايشها فتجنح إلى السلم ، وتنتزع عن إرادة قتال المسلمين في عقر دارهم ، وعن الصد عن سبيل الله ، وعن تعذيب المستضعفين من المؤمنين في مكة ، حتى يصير المسلمون أحراضاً في إبلاغ رسالة الله في ربوع الجزيرة .

وفيما يلي أحوال هذه السرايا بالإيجاز :

١ - سرية سيف البحر ، في رمضان سنة ١٦ م . أمر رسول الله ﷺ على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب ، وبعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين ، يعرض عبراً لقريش جاءت من الشام ، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثة رجال ، فبلغوا سيف البحر من ناحية العicus^(٢) . فالتقوا واصطفوا للقتال ، فمشى مجدي بن عمرو الجهنفي - وكان حليفاً للفريقين جميعاً - بين هؤلاء وهؤلاء ، حتى حجز بينهم ، فلم يقتلوا .

وكان لواء حمزة أول لواء عقده رسول الله ﷺ ، وكان أيضًا ، وكان حامله أباً مرثد كنانة بن حصين الغنوبي .

(١) سمى المؤرخون ما خرج فيه النبي ﷺ بنفسه غزوة ، حارب فيها أم لم يحارب وما خرج فيه أحد قادته سرية .

(٢) العicus - بالكسر - مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأخر .

٢ - سرية رابع ، في شوال سنة ١ من الهجرة - أبريل سنة ٦٢٣ م ، بعث رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين راكباً من المهاجرين ، فلقي أبا سفيان - وهو في مائتين - على بطن رابع ، وقد تراهى الفريقان بالليل ، ولم يقع قتال .

وفي هذه السرية انضم رجالان من جيش مكة إلى المسلمين ، وهما المقداد بن عمرو الهراني ، وعتبة بن غزوان المازني ، وكانا مسلمين ، خرجا مع الكفار ؛ ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين . وكان لواء عبيدة أبيض ، وحامله مسطح بن أئلة بن المطلب بن عبد مناف .

٣ - سرية الحرار^(١) ، في ذي القعدة سنة ١ هـ الموافق مايو سنة ٦٢٣ م ، بعث رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص في عشرين راكباً ، يعترضون عيراً لقريش ، وعهد إليه أن لا يجاوزوا الحرار ، فخرجوا مشاة يكمنون بالنهار ويسرون بالليل حتى بلغوا الحرار صبيحة خمس ، فوجدوا العيراً قد مرت بالأمس .

كان لواء سعد رضي الله عنه أبيض ، وحمله المقداد بن عمرو .

٤ - غزوة الأباء أو ودان^(٢) - في صفر سنة ٢ هـ الموافق أغسطس سنة ٦٢٣ م ، خرج رسول الله ﷺ بنفسه ، بعد أن استخلف على المدينة سعد بن عبادة ، في سبعين رجلاً من المهاجرين خاصة ، يعترض عيراً لقريش حتى بلغ ودان ، فلم يلق كيداً .

وفي هذا الغزو عقد معاهدة حلف مع عمرو بن مخشي الضمري ، وكان سيدبني ضمرة في زمانه ، وهاك نص المعاهدة :

هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة ، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله ، ما بل بحر صوفة ، وإن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه^(٣) .

وهذه أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، وكانت غيته خمس عشرة ليلة ، وكان اللواء أبيض ، وحامله حمزة بن عبد المطلب .

(١) الحرار - بالفتح فالتشديد - بالقرب من الجحفة .

(٢) ودان - بالفتح فالتشديد - موضع بين مكة والمدينة ، بينه وبين رابع مما يلي المدينة تسعة وعشرون ميلاً ، والأباء موضع بالقرب من ودان .

(٣) انظر المواهب اللدنية ٧٥/١ وشرحه للزرقاوي .

٥ - غزوة بواط ، في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ سبتمبر سنة ٦٢٣ م ، خرج رسول الله ﷺ في مائين من أصحابه ، يعترض عيراً لقريش فيها أمية بن خلف الجمحى ومائة رجل من قريش ، وألفان وخمسمائة بعير ، بلغ بواطاً من ناحية رضوى^(١) ولم يلق كيداً .

واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سعد بن معاذ ، واللواء كان أبيض ، وحامله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

٦ - غزوة سفوان ، في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ سبتمبر سنة ٦٢٣ م أغار كرز بن جابر الفهري في قوات خفيفة من المشركين على مراعى المدينة ، ونهب بعض المواشي ، فخرج رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من أصحابه لمطاردته ، حتى بلغ وادياً يقال له سفوان من ناحية بدر ، ولكنه لم يدرك كرزًا وأصحابه ، فرجع من دون حرب ، وهذه الغزوة تسمى بغزوه بدر الأولى .

واستخلف في هذه الغزوة على المدينة زيد بن حارثة ، وكان اللواء أبيض ، وحامله علي بن أبي طالب .

٧ - غزوة ذي العشيرة - في جمادي الأولى ، وجمادي الآخرة سنة ٢ هـ الموافق نوفمبر وديسمبر سنة ٦٢٣ م ، خرج رسول الله ﷺ في خمسين ومائة ويقال : في مائين ، من المهاجرين ، ولم يكره أحداً على الخروج ، وخرجوا على ثلاثين بعيراً يعتقبونها ، يعترضون عيراً لقريش ، ذاهبة إلى الشام ، وقد جاء الخبر بفصولها من مكة فيها أموال لقريش ، بلغ ذا العشيرة^(٢) ، فوجد العير قد فاتته أيام ، وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام ، فصارت سبباً لغزوة بدر الكبرى .

وكان خروجه ﷺ في أواخر جمادي الأولى ، ورجوعه في أوائل جمادي الآخرة على ما قاله ابن إسحاق ، ولعل هذا هو سبب اختلاف أهل السير في تعين شهر هذه الغزوة .
وفي هذه الغزوة عقد رسول الله ﷺ معاهددة عدم اعتداء مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة .

(١) بواط (بالضم) ورضوى ، جبلان فرعان أصلهما من جبال جهينة : مما على طريق الشام ، بينه وبين المدينة نحو أربعة برد .

(٢) العشيرة - مصرفاً ، ويقال : العشيرة بالمد ، وقيل : العسيرة بالمهملة - موضع بناحية ينبع .

واستخلف على المدينة في هذه الغزوة أبا سلمة بن عبد الأسد الخزومي ، وكان اللواء في هذه الغزوة أبيض ، وحامله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه .

٨ - سرية خلعة - في رجب سنة ٢ هـ الموافق يناير سنة ٦٢٤ م ، بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش الأنصاري إلى خلعة في اثنى عشر رجلاً من المهاجرين ، كل اثنين يعتقان على بغير .

وكان رسول الله ﷺ كتب له كتاباً ، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه . فسار عبد الله ، ثم قرأ الكتاب بعد يومين ، فإذا فيه « إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل خلعة بين مكة والطائف ، فترصد بها غير قريش ، وتعلم لنا من أخبارهم » فقال : سمعاً وطاعة ، وأخبر أصحابه بذلك ، وأنه لا يستكرههم ، فمن أحب الشهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع ، وأما أنا فناهض ، فنهضوا كلهم ، غير أنه لما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بغيراً لهما كانوا يعتقانه ، فتخلقا في طلبه .

وسار عبد الله بن جحش حتى نزل بخلعة ، فمررت عير لقريش تحمل زبيباً وأداماً وتجارة ، وفيها عمرو بن الحضرمي وعثمان وتوفل ابن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان مولىبني المغيرة ، فتشاور المسلمين وقالوا : نحن في آخر يوم من رجب ، الشهر الحرام ، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم ، ثم اجتمعوا على اللقاء ، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله ، وأسرعوا عثمان والحكم ، وأفلت توفل ، ثم قدموا بالغير والأسيرين إلى المدينة ، وقد عزلوا من ذلك الخمس ، وهو أول خمس كان في الإسلام ، وأول قتيل في الإسلام ، وأول أسيرين في الإسلام .

وأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه ، وقال : ما أمرتكم بقتل في الشهر الحرام ، ووقف التصرف في العير والأسيرين .

ووجد المشركون فيها حدث فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله ، وكثُر في ذلك القيل والقال ، حتى نزل الوحي حاسماً هذه الأقوال ، وأن ما عليه المشركون أكبر وأعظم مما ارتكبه المسلمون

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَاتَلَ فِيهِ قَاتَلٌ فِيهِ كَبُرٌ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفَّرٌ
وَالْمَسْجِدُ الْحَرَامُ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفَتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (٢١٧:٢)

فقد صرخ هذا الوحي بأن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها ، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام ، واضطهاد أهله ، ألم يكن المسلمين مقيمين بالبلد الخرام حين تقرر سلب أمواهم وقتل نبيهم ؟ فما الذي أعاد هذه الحرمات قداستها فجأة ، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة ؟ لا جرم أن الدعاية التي أخذت ينشرها المشركون دعاية تبني على وقاحة ودعارة .

وبعد ذلك أطلق رسول الله ﷺ سراح الأسرى ، وأدى دية المقتول إلى أوليائه^(١) .

* * *

تلكم السرايا والغزوات قبل بدر ، لم يجر في واحدة منها سلب الأموال وقتل الرجال ، إلا بعد ما ارتكبه المشركون في قيادة كرز بن جابر الفهري ، فالبداية إنما هي من المشركين مع ما كانوا قد أتواه قبل ذلك من الأفاعيل .

وبعد وقوع ما وقع في سرية عبد الله بن جحش تحقق خوف المشركين ، وتجسد أمامهم الخطر الحقيقي ، ووقعوا فيما كانوا يخشون الوقوع فيه ، وعلموا أن المدينة في غاية من التيقظ والترقب ، ترقب كل حركة من حركاتهم التجارية ، وأن المسلمين يستطيعون أن يرمحوا إلى ثلاثة ميل تقريباً ، ثم يقتلوا ويأسروا رجالهم ، ويأخذوا أمواهم ، ويرجعوا سالمين غانمين ، وشعر هؤلاء المشركون بأن تجاذبهم إلى الشام أمام خطر دائم ، لكنهم بدل أن يفتقروا عن غيهم وأخذوا طريق الصلاح والمودعة - كما فعلت جهينة وبنو ضمرة - ازدادوا حقداً وغيضاً ، وصمم صناديدهم وكبارهم على ما كانوا يوعدون وبهدون به من قبل ، من إبادة المسلمين في عقر دارهم ، وهذا هو الطيش الذي جاء بهم إلى بدر .

أما المسلمين فقد فرض الله عليهم القتال بعد وقعة سرية عبد الله بن جحش ، في شهر شعبان سنة ٢٢هـ ، وأنزل في ذلك آيات بينات ﴿وَقَتْلُوا فِي سَيِّلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(١) واقتلوهم حيث ثقفوهم وأخرجوهم من حيث

(١) أخذنا تفاصيل هذه السرايا والغزوات من زاد المعد ، ٨٣/٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، وابن هشام ١/٥٦١ إلى ٦٠٥ وورحمة للعلميين ١/١١٥ ، ١١٦ ، ٢١٥/٢ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، وفي المصادر اختلاف في ترتيب هذه الغزوات والسرايا ، وفي تعين عدد الخارجين فيها - واعتمدنا في ذلك على تحقيق العلامة ابن القيم والعلامة المنصور فوري .

أَخْرِجُوكُمْ وَلَا فِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا قَتْلُوكُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْعَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكُفَّارِ ﴿١١﴾ فَإِنْ أَنْهَا قَاتِلُوكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ وَقَاتِلُوكُمْ حَتَّى لَا تَكُونُ فِتْنَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ لَهُ فَإِنْ أَنْهَا فَلَا عُذْوَنَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ (٢ : ١٩٠ : ١٩١ : ١٩٢ : ١٩٣) .

ثم لم يلبث أن أنزل الله تعالى عليهم آيات من نوع آخر ، يعلمهم فيها طريقة القتال ، ويحثهم عليه ، ويبين لهم بعض أحكامه ﴿فَإِذَا قَاتَلُوكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَضْرَبُ الرَّقَابَ حَتَّى إِذَا اتَّخَسْتُمُوهُ فَشُدُّوا الْوَنَاقَ فَإِمَامًا بَعْدَهُ إِمَامًا فَدَاهَ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْ زَادَهَا ذَلِكُ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَا يُنْصَرُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَلْبُلُو بَعْضَهُمْ بِعَيْنِهِ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضْلَلَ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ سَهِّلَهُمْ وَيُصلِّحُ بَالَّهُمْ ﴿٢﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿٣﴾ يَتَأَبَّلُهَا الَّذِينَ إِمَانُهُمْ نَصْرٌ وَاللَّهُ يَنْصُرُ كُمْ وَيُبَيِّنُ أَقْدَامَكُمْ ﴿٤﴾ (٤٧ : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) (١) .

ثم ذم الله الذين طفت أقدتهم ترجم وتحفق حين سمعوا الأمر بالقتال : ﴿فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ الْمُحْكَمَةِ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فُلُوْبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرًا مَغْشِيَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ الآية (٤٧ : ٢٠) .

وإيجاب القتال والحضور عليه ، والأمر بالاستعداد له هو عين ما كانت تقتضيه الأحوال ، ولو كان هناك قائد يسرر أغوار الظروف لأمر جنده بالاستعداد لجميع الطواريء ، فكيف بالرب العليم المتعال ، فالظروف كانت تقتضي عراكاً دامياً بين الحق والباطل ، وكانت وقعة سرية عبد الله بن جحش ضربة قاسية على غيرة المشركين وحميthem ، آلمتهم ، وتركهم يتقلبون على مثل الجمر .

وآيات الأمر بالقتال تدل بفحواها على قرب العراق الدامي ، وأن النصر والغلبة فيه لل المسلمين نهائياً ، انظر كيف يأمر الله المسلمين بإخراج المشركين من حيث أخرجوهم ، وكيف يعلمهم أحكام الحند المتغلب في الأسرى ، والإثخان في الأرض ، حتى تضع الحرب أوزارها ، هذه كلها إشارة إلى غلبة المسلمين نهائياً . ولكن ترك كل ذلك مستوراً ؛ حتى يأتي كل رجل بما فيه من التحمس في سبيل الله .

وفي هذه الأيام - في شعبان ٢ هـ / فبراير ٦٢٤ م - أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت

(١) حق الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي تحقيقاً مدللاً أن سورة محمد نزلت قبل بدر ، راجع تفهم القرآن . ١١/٥ ، ١٢ ، ١١/٥

المقدس إلى المسجد الحرام ، وأفاد ذلك أن الضعفاء والمنافقين من اليهود الذين كانوا قد دخلوا في صفوف المسلمين لإثارة البلبلة انكشفوا عن المسلمين ، ورجعوا إلى ما كانوا عليه ، وهكذا تطهرت صفوف المسلمين عن كثير من أهل الغدر والخيانة .

وفي تحويل القبلة إشارة لطيفة إلى بداية دور جديد ، لا ينتهي إلا بعد احتلال المسلمين هذه القبلة ، أو ليس من العجب أن تكون قبلة قوم بيد أعدائهم ، وإن كانت بأيديهم فلا بد من تخلصها يوماً ما .

وبعد هذه الأوامر والإشارات زاد نشاط المسلمين ، واشتدت نزعاتهم إلى الجهاد في سبيل الله ولقاء العدو في معركة فاصلة .

غزوة بدر الكبرى

أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة

سبب الغزوة:

قد أسلفنا في ذكر غزوة العشيرة أن عيراً لقريش أفلتت من النبي ﷺ في ذهابها من مكة إلى الشام ، ولما قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى الشمال ، ليقوما باكتشاف خبرها ، فوصلوا إلى الحوراء ، ومكثا حتى مر بهما أبو سفيان بالعير ، فأسرعا إلى المدينة ، وأخبرا رسول الله ﷺ بالخبر .

كانت العير مركبة من ثروات طائلة من أهل مكة ، ألف بعير موقة بالأموال ، لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبي ، ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلاً .

إنها فرصة ذهبية لعسكر المدينة ، وضربة عسكرية وسياسية واقتصادية قاصمة ضد المشركين لو أنهم فقدوا هذه الثروة الطائلة ، لذلك أعلن رسول الله ﷺ في المسلمين قائلاً : هذه عيراً قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفككموها .

ولم يعزم على أحد بالخروج ، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة ، لما أنه لم يكن يتوقع عند هذا الانتداب أنه سيصطدم بجيش مكة – بدل العير – هذا الاصطدام العنيف في بدر ، ولذلك تخلف كثير من الصحابة في المدينة ، وهم يحسبون أن مضي رسول الله ﷺ في هذا الوجه لن يudo ما ألقوه في السرايا الماضية ، ولذلك لم ينكر على أحد تخلفه في هذه الغزوة .

مبلغ قوة الجيش الإسلامي وتوزيع القيادات:

واستعد رسول الله ﷺ للخروج ومعه ثلاثة وثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً (٣١٢ أو ٣١٤) ، ٨٢ أو ٨٦ من المهاجرين ، و٦١ من الأوس و١٧٠ من الخزرج . ولم

يمتقلوا لهذا الخروج احتفالاً بليناً ، ولا اتخذوا أهبتهم كاملة ، فلم يكن معهم إلا فرسان ، فرس للزبير بن العوام ، وفرس للمقداد بن الأسود الكندي ، وكان معهم سبعون بعراً ليعقب الرجال والثلاثة على بعير واحد ، وكان رسول الله ﷺ وعليه السلام ورثة بن أبي مرثد الغنوبي يعتقبون بعيراً واحداً .

واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم ، فلما كان بالروحاء رد أبو لبابة بن عبد المنذر ، واستعمله على المدينة .

ودفع لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشي العبدري ، وكان هذا اللواء أيضاً .

وقسم جيشه إلى كتيبتين :

- ١ - كتيبة المهاجرين ، وأعطي علمها علي بن أبي طالب .
- ٢ - كتيبة الأنصار ، وأعطي علمها سعد بن معاذ .

وجعل على قيادة اليمونة الزبير بن العوام ، وعلى الميسرة المقداد بن عمرو – وكانا هما الفارسين الوحدين في الجيش كأسلافنا – وجعل على الساقية قيس بن أبي صعصعة ، وظلت القيادة العامة في يده ﷺ كقائد أعلى للجيش .

الجيش الإسلامي يتحرك نحو بدر:

سار رسول الله ﷺ في هذا الجيش غير المتأهب ، فخرج من نقب المدينة ، ومضى على الطريق الرئيسي المؤدي إلى مكة ، حتى بلغ بئر الروحاء ولا ارتحل منها ، ترك طريق مكة بيسار ، وانحرف ذات اليدين على النازية (يريد بدرأ) ، فسلك في ناحية منها ، حتى جزع وادياً يقال له رحثان ، بين النازية وبين مضيق الصفراء ، ثم مر على المضيق ، ثم انصب منه حتى قرب من الصفراء ، وهناك بعث بشبس بن عمرو الجهنمي وعدى بن أبي الزغباء الجهنمي إلى بدر يتجسسان له أخبار العبر .

الندير في مكة:

وأما خير العبر فإن أبو سفيان – وهو المسؤول عنها – كان على غاية من الحيطة والحذر ، فقد كان يعلم أن طريق مكة محفوف بالأخطار ، وكان يتحسس الأخبار ، ويسأل من لقى من

الركبان ، ولم يلبث أن نقلت إليه استخباراته بأنّه مُحَمَّداً - عليهما السلام - قد استنفر أصحابه ليوقع بالعير ، وحينئذ استأجر أبو سفيان ضمّن بن عمرو الغفاري إلى مكة ، مستنصرًا بقريش بالتفير إلى عيرهم ، لينزعوه من مُحَمَّد - عليهما السلام - وأصحابه ، وخرج ضمّن سريعاً حتى أتى مكة ، فصرخ بيطن الوادي واقفاً على بعيره ، وقد جدع أنفه ، وحول رحله ، وشق قميصه ، وهو يقول : يا معاشر قريش ، اللطيمية ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها مُحَمَّد في أصحابه ، لا أرى أن تدركوهما ، الغوث الغوث .

أهل مكة يتجهزون للغزو:

فتحفظ الناس سراعاً ، وقالوا : أيظنّ مُحَمَّد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي ؟ كلا ، والله ليعلمون غير ذلك ، فكأنوا بين رجلين ، إما خارج ، وإما باعث مكانه رجلاً ، وأوعبوا في الخروج ، فلم يختلف من أشرافهم أحد سوى أبي هلب ، فإنه عوض عنه رجلاً كان له عليه دين ، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب ، ولم يختلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي ، فلم يخرج منهم أحد .

قام الجيش المكي:

وكان قوام هذا الجيش نحو ألف وثلاثمائة مقاتل في بداية سيره ، وكان معه مائة فرس وستمائة درع ، وجمال كثيرة لا يعرف عددها بالضبط ، وكان قائده العام أبا جهل بن هشام ، وكان القائمون بتمويله تسعة رجال من أشراف قريش ، فكأنوا ينحررون يوماً تسعًا ويوماً عشرًا من الإبل .

مشكلة قبائل بني بكر:

ولما أجمع هذا الجيش على المسير ، ذكرت قريش ما كان بينها وبين بني بكر من العداوة وال الحرب ، فخافوا أن تضرّهم هذه القبائل من الخلف ، فيكونوا بين نارين ، فكاد ذلك يشיהם ، ولكن حينئذ تبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشن المدجلي - سيد بني كنانة - فقال لهم : أنا لكم جار من أن تؤتكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه .

جيش مكة يتحرك:

وحييند خرجوا من ديارهم ، كما قال الله : ﴿بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ أَنَّهُ﴾ ، وأقبلوا كما قال رسول الله ﷺ - « بعدهم وحددهم ، يخادون الله ويخدعون رسوله » ، ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرَقِ دَرِينَ﴾ ، وعلى حمية وغضب وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه ، لاجراء هؤلاء على قوافلهم .

تحركوا بسرعة فائقة نحو الشمال في تجاه بدر ، وسلكوا في طريقهم وادي عسفان ، ثم قديد ، ثم الحجفة ، وهناك تلقوا رسالة جديدة من أبي سفيان يقول لهم فيها : إنكم إنما خرجم لتحرزوا غيركم ورجالكم وأموالكم ، وقد نجاها الله فارجعوا .

الغير تفلت:

وكان من قصبة أبي سفيان أنه كان يسير على الطريق الرئيسي ، ولكنه لم يزل حذراً متيقظاً ، وضاعف حركاته الاستكشافية ، ولما اقترب من بدر تقدم عيره ، حتى لقي مجدي بن عمرو ، وسأله عن جيش المدينة ، فقال : ما رأيت أحداً أنكره ، إلا أنا قد رأيت راكبين قد أتوا إلينا هذا التل ، ثم استقيا في شن لهم ، ثم انطلقوا ، فبادر أبو سفيان إلى مناخهما ، فأخذ من أبعار بعيهما ، ففته ، فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائق يثرب ، فرجع إلى عيره سريعاً ، وضرب وجهها محولاً اتجاهها نحو الساحل غرباً ، تاركاً الطريق الرئيسي الذي يمر بدر على اليسار وبهذا نجا بالقافلة من الوقوع في قبضة جيش المدينة ، وأرسل رسالته إلى جيش مكة التي تلقاها في الحجفة .

هم الجيش المكي بالرجوع ووقوع الانشقاق فيه:

ولما تلقى هذه الرسالة جيش مكة هم بالرجوع ، ولكن قام طاغية قريش أبو جهل في كبراء وغطرسة قائلاً : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ ، فنقيم بها ثلاثة فتنحر الجوزر ، ونطعم الطعام ، ونسقي الخمر ، وتعزف لنا القيان ، وتسمع بنا العرب ومسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً .

ولكن على رغم أبي جهل أشار الأحسن بن شريق بالرجوع فعصوه ، فرجع هو وبنو زهرة

- وكان حليفاً لهم ورئيساً عليهم في هذا النفير - فلم يشهد بدرأ زهري واحد ، وكانوا حوالي ثلاثة رجال ، واغبطت بنو زهرة بعد برأي الأحسن بن شرقي ، فلم يزل فيهم مطاعماً معيماً . وأرادت بنو هاشم الرجوع ، فاشتد عليهم أبو جهل ، وقال : لا تفارقا هذه العصابة حتى نرجع .

فسار جيش مكة وقوامه ألف مقاتل بعد رجوع بنى زهرة - وهو يقصد بدرأ - فواصل سيره حتى نزل قريباً من بدر ، وراء كثيب يقع بالعدوة القصوى على حدود وادي بدر .

حراجة موقف الجيش الإسلامي :

أما استخبارات جيش المدينة فقد نقلت إلى رسول الله ﷺ - وهو لا يزال في الطريق بودي ذفران - خبر العير والنفير ، وتأكد لديه بعد التدبر في تلك الأخبار أنه لم يبق مجال للالجتناب عن لقاء دام ، وأنه لا بد من إقدام يبني على الشجاعة والبسالة ، والجرأة ، والجسارة ، فمما لا شك فيه أنه لو ترك جيش مكة يجوس خلال تلك المنطقة يكون ذلك تدعيناً لمكانة قريش العسكرية ، وامتداداً لسلطانها السياسي ، وإضعافاً لكلمة المسلمين وتوهينها لها ، بل ربما تبقى الحركة الإسلامية بعد ذلك جسداً لا روح فيه ، ويجرؤ على الشر كل من فيه حقد أو غيظ على الإسلام في هذه المنطقة .

وبعد هذا كله فهل يكون هناك أحد يضمن للمسلمين أن يمنع جيش مكة عن مواصلة سيره نحو المدينة ، حتى ينقل المعركة إلى أسوارها ، وينزرو المسلمين في عقر دارهم . كلا ، فهو حدث من جيش المدينة نكول ما لكان له أسوأ الأثر على هيبة المسلمين وسمعتهم .

المجلس الاستشاري :

ونظراً إلى هذا التطور الخطير المفاجيء عقد رسول الله ﷺ مجلساً عسكرياً استشارياً أعلى ، أشار فيه إلى الوضع الراهن ، وتبادل فيه الرأي مع عامة جيشه ، وقادته . وحينئذ تزعزع قلوب فريق من الناس ، وخافوا اللقاء الدامي ، وهم الذين قال الله فيهم ﴿كَمَا أَخْرَجَكُرِبَّكَ مِنْ يَتِيكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فِرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ⑥ يُجَدِّلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيْنَ كَانَمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ وأما قادة الجيش ؟ فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ،

ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : « يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كا قالت بني إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم ما مقاتلون ، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغمام بحالتنا معك من دونه حتى تبلغه ». فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به .

وهؤلاء القادة الثلاثة كانوا من المهاجرين ، وهم أقلية في الجيش ، فأحب رسول الله ﷺ أن يعرف رأي قادة الأنصار ، لأنهم كانوا يمثلون أغليبية الجيش ، وأن نقل المعركة سيدور على كواليهم ، مع أن نصوص العقبة لم تكن تلزمهم بالقتال خارج ديارهم ، فقال بعد ساعتين كلام هؤلاء القادة الثلاثة : « أشيروا عليّ أيها الناس » وإنما يريد الأنصار ، وفطن إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لواءهم سعد بن معاذ ، فقال :

والله ، لكأنك تريديننا يا رسول الله ؟

قال : أجل .

قال : « فقد آمنا بك ، فصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيتك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تختلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقي بنا عدوا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، ولعل الله يرييك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ». .

وفي رواية أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ : لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها أن لا تنصرك إلا في ديارهم ، وإنني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم ، فاظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، وقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطينا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرناه بغير أمرك ، فوالله لمن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لتسيرن معك ، والله لمن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك .

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال : سيروا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم .

الجيش الإسلامي يواصل سيره:

ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذفران ، فسلك على ثانيا يقال لها الأصافر ، ثم انخط منها إلى بلد يقال له الدية ، وترك الحنان يمين - وهو كثيب عظيم الأصل - ثم نزل قريباً من بدر .

الرسول - ﷺ - يقوم بعملية الاستكشاف:

وهناك قام بنفسه بعملية الاستكشاف مع رفيقه في الغار أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وبينما هما يتجولان حول معسكر مكة إذا هما بشيخ من العرب ، فسألته رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه - سأله عن الجيشين زيادة في التكتم - ولكن الشيخ قال : لا أخبرك حتى تخبراني من أنتا ؟ فقال له رسول الله ﷺ : إذا أخبرتنا أخبرناك ، قال : أو ذاك بذلك ؟ قال : نعم .

قال الشيخ : فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهو اليوم بمكانكدا وكذا - للمكان الذي به جيش المدينة - وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهو اليوم بمكانكدا وكذا - للمكان الذي به جيش مكة .

ولما فرغ من خبره قال : من أنتا ؟ فقال له رسول الله ﷺ نحن من ماء ، ثم انصرف عنه ، وبقي الشيخ يتفوه ، ما من ماء ؟ فمن ماء العراق ؟

الحصول على أهم المعلومات عن الجيش المكي:

وفي مساء ذلك اليوم بعث استخباراته من جديد ، ليبحث عن أخبار العدو ، وقام بهذه العملية ثلاثة من قادة المهاجرين ؛ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه ، ذهبوا إلى ماء بدر ، فوجدوا غلامين يستقيان بجيش مكة ، فألقوا عليهم القبض وجاءوا بهما إلى الرسول ﷺ ، وهو في الصلاة ، فاستخبرهما القوم ، فقالا : نحن سقاة قريش بعضونا نسقיהם من الماء ، فكره القوم ورجوا أن يكونوا لأبي سفيان - لا تزال في نفوسهم يقايا أمل في الاستيلاء على القافلة - فضرر بهما موجعاً ، حتى اضطر الفلامان أن يقولا : نحن لأبي سفيان ، فتركوهما .

ولما فرغ رسول الله ﷺ عن الصلاة قال لهم كالعاتب : إذا صدقكم ضربتكم وما وإذا كذبتم تركتموها ، صدقا والله ، إنهم لقريش .

ثم خاطب الغلامين قائلاً : أخبراني عن قريش ، قالا : هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهم : كم القوم ؟ قالا : كثير . قال : ما عدتهم ؟ قالا : لا ندرى ، قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوماً تسعـاً ويوماً عشرـاً ، فقال رسول الله ﷺ : القوم فيما بين التسعـمائة إلى الألـف ، ثم قال لهم : فمن فـيهـمـ من أشرافـ قـريـشـ ؟ قالـاـ : عـتبـةـ وـشـيـبـةـ اـبـنـاـ رـيـبـعـةـ ، وأـبـوـ الـبـخـرـيـ بنـ هـشـامـ ، وـحـكـيمـ بنـ حـزـامـ ، وـنـوـفـلـ بنـ خـوـيـلـ ، وـالـحـارـثـ بنـ عـامـرـ ، وـطـعـيـمـةـ بنـ عـدـيـ ، وـالـنـضـرـ بنـ الـحـارـثـ وـزـمـعـةـ بنـ الـأـسـودـ ، وـأـبـوـ جـهـلـ بنـ هـشـامـ ، وـأـمـيـةـ بنـ خـلـفـ فيـ رـجـالـ سـيـاهـمـ .

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس ، فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفالذ كبدها .

نـزـولـ المـطـرـ:

وأنزل الله عز وجل في تلك الليلة مطرًا واحدًا ، فكان على المشركين وبلا شديداً منهم من التقدم ، وكان على المسلمين طلاً طهرهم به ، وأذهب عنهم رجس الشيطان ، ووطأ الأرض ، وصلب به الرمل ، وثبت الأقدام ، ومهد به المنزل ، وربط به على قلوبهم .

الجـيـشـ الإـسـلـامـيـ يـسـبـقـ إـلـىـ أـهـمـ المـراكـزـ العـسـكـرـيـةـ:

وتحرك رسول الله ﷺ بجيشه ، ليسبق المشركين إلى ماء بدر ، ويحول بينهم وبين الاستيلاء عليه ، فنزل عشاءً أدنى ماء من مياه بدر ، وهنا قام الحباب بن المنذر كخبير عسكري وقال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنلاً أنزلتكه الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي وال الحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي وال الحرب والمكيدة ، قال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم - قريش - فنزله ونفور - أي نزب - ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً ، فنملاه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأي .

فنهض رسول الله ﷺ بالجيش ، حتى أتى أقرب ماء من العدو ، فنزل عليه شطر الليل ، ثم صنعوا الحياض ، وغوروا ما عدتها من القلب .

مقر القيادة:

وبعد أن تم نزول المسلمين على الماء اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ أن يبني المسلمين مقرًا لقيادته ، استعداداً للطوارئ ، وتقديرًا للهزيمة قبل النصر ، حيث قال : « يا نبى الله ألا نبني لك عريشًا تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحبتنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلتحت من وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يابنوا الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ، ويماهدون معك ». فاثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً ، ودعاه بخيراً ، وبنى المسلمين عريشاً على تلك مرتفع يقع في الشمال الشرقي لميدان القتال ، ويسرق على ساحة المعركة .

كما تم انتخاب فرقة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ ، يحرسون رسول الله ﷺ حول مقر قيادته .

تعبيئة الجيش وقضاء الليل:

ثم عبأ رسول الله ﷺ جيشه^(١) ، ومشى في موضع المعركة ، وجعل يشير بيده : هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله ، وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله^(٢) ، ثم بات رسول الله ﷺ يصلى إلى جذع شجرة هنالك ، وبات المسلمين ليلهم هادي الأنفاس منير الأفاق ، غمرت اللقنة قلوبهم ، وأخلعوا من الراحة قسطهم ، يأملون أن يروا بشائر ربهم بعيونهم صباحاً ﴿إِذَا يُغَشِّكُمُ الْعَيْسَ وَأَمْنَهُ مِنْهُ وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَا يَطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيَدْهِبُ عَنْكُمْ رِجْزَ الْشَّيْطَانِ وَلَيَرِيظَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثِيَّتِ بِهِ أَقْدَامَكُم﴾ (٨: ١١) .

كانت هذه الليلة ليلة الجمعة ، السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة ، وكان خروجه في ٨ أو ٩ من نفس الشهر .

(١) انظر جامع الترمذى أبواب الجهاد ، باب ما جاء في الصف والتعبية . ٢٠١/١

(٢) رواه مسلم عن أنس ، انظر مشكاة المصايح ٥٤٣/٢

الجيش المكي في عرصه القتال ووقوع الانشقاق فيه:

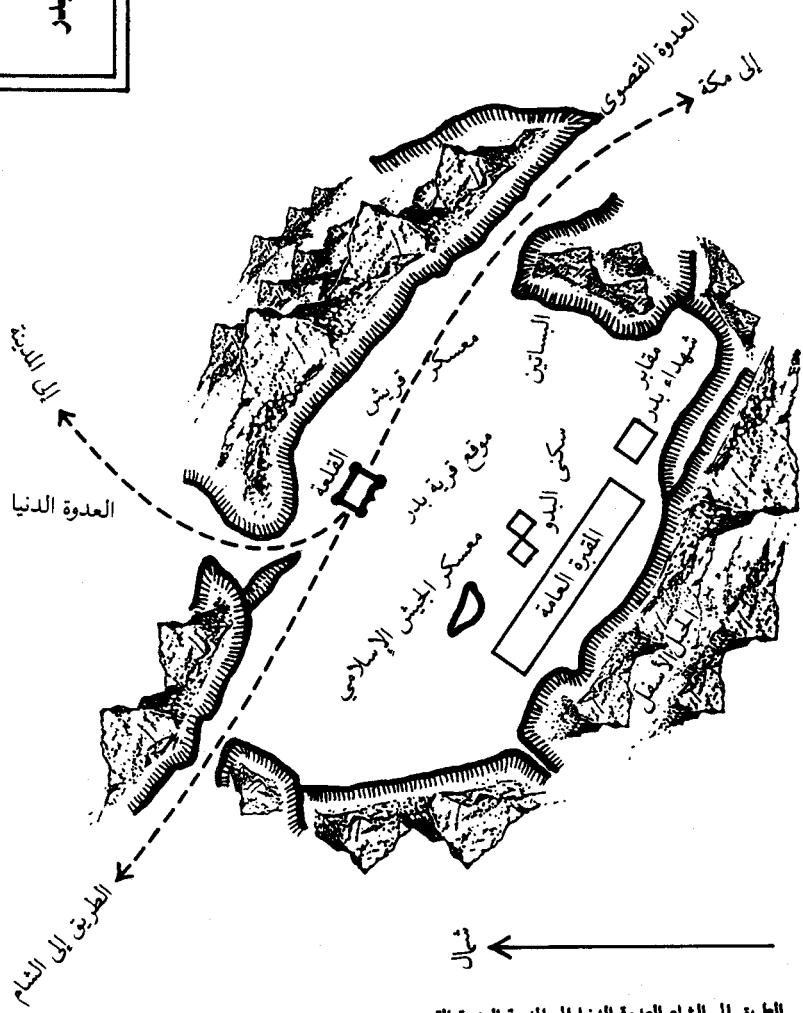
أما قريش ؟ فقضت ليتها هذه في معسكرها بالعدوة القصوى ، ولما أصبحت أقبلت في كنائسها ، ونزلت من الكثيب إلى وادي بدر ، وأقبل نفر منهم إلى حوض رسول الله ﷺ ، فقال : دعوههم ، فما شرب أحد منهم يومئذ إلا قتل ، سوى حكيم بن حزام ، فإنه لم يقتل ، وأسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وكان إذا اجتهد في البيزن قال : لا والذى نجاني من يوم بدر ، فلما اطمأنَّت قريش بعث عمر بن وهب الجمحي ؛ للتعرف على مدى قوة جيش المدينة ، فدار عمر بفرسه حول العسكر ، ثم رجع إليهم فقال : ثلاثة رجال ، يزيدون قليلاً أو ينقصون ، ولكن أمهلوني حتى أنظر القوم كمین أو مدد ؟ فضرب في الوادي حتى أبعد ، فلم ير شيئاً ، فرجع إليهم فقال : ما وجدت شيئاً ، ولكني قد رأيت يا معاشر قريش البلايا تحمل المانيا ، نواضح يترى تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة ولا ملجاً إلا سيفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادكم ، مما خير العيش بعد ذلك ، فروا رأيكم .

وحيثند قامت معارضة أخرى ضد أبي جهل - المصمم على المعركة - تدعوه إلى العودة بالجيش إلى مكة دوغاً قتال ، فقد مشى حكيم بن حزام في الناس ، وأقى عتبة بن ربيعة فقال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش ، وسيدها والمطاع فيها ، فهل لك إلى خير تذكر به إلى آخر الدهر ؟ قال : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس ، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي - المقتول في سرية نخلة - فقال عتبة : قد فعلت ، أنت ضامن على ذلك ، إنما هو حليفى فعلى عقله ذيته وما أصيـبـ منـ مـالـهـ .

ثم قال عتبة لحكيم بن حزام : فأنت ابن الحنظلية - أبا جهل ، والحنظلية أمه - فإني لا أخـشـ أـنـ يـشـجـرـ أمرـ النـاسـ غـيرـهـ .

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً فقال : يا معاشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك أفالكم ولم تعرضوا منه ما تزيدون .

خريطة غزوة بدر



الطريق إلى الشام العدوا الدنيا إلى المدينة العدوا الفصوى
معسكر قريش القلعة موقع قرية بدر البستان معسكر الجيش الإسلامي
سكنى البدو مقابر شداد بدر المقبرة العامة الجبل الأسفى إلى مكة الشمال
خريطة غزوة بدر

وانطلق حكيم بن حزام إلى أبي جهل - وهو بهيء درعاً له - قال يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني بكذا وكذا ، فقال أبو جهل : انتفع والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعثة ما قال ، ولكنه رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه - وهو أبو حذيفة بن عتبة كان قد أسلم قديماً وهاجر - فتخوفكم عليه .

ولما بلغ عتبة قول أبي جهل : « انتفع والله سحره » ، قال عتبة : سيعلم مصفر استه من انتفع سحره ، أنا أم هو ؟ وتعجل أبو جهل مخافة أن تقوى هذه المعارضة . فبعث على إثر هذه المخاورة إلى عامر بن الحضرمي - أخي عمرو بن الحضرمي المقتول في سرية عبد الله بن جحش - فقال : هذا حليفك (أي عتبة) يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثارك بعينك ، فقم فانشد خفترتك ، ومقتل أخيك ، فقام عامر ، فكشف عن استه ، وصرخ : واعمراء ، واعمراء فحمي القوم ، وحقب أمرهم ، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر ، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة . وهكذا تغلب الطيش على الحكمة ، وذهبت هذه المعارضة دون جدوى .

الجيشان يتراجعان:

ولما طلع المشركون ، وترآى الجمuan قال رسول الله ﷺ : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بجيلاًها وفخرها ، تحادك وتکذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتي ، اللهم أحشرن الغدة » . وقد قال رسول الله ﷺ - ورأى عتبة بن ربيعة في القوم على جمل له أحمر - إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا .

وعدل رسول الله ﷺ صفو المُسلِّمين ، وبينما هو يعدلها وقع أمر عجيب ، فقد كان في يده قدح يعدل به ، وكان سواد بن غزية مستنصلاً من الصف ، فطعن في بطنه بالقدح وقال : « استو يا سواد » ، فقال سواد : يا رسول الله أوجعني فأقدي ، فكشف عن بطنه ، وقال : « استقد » ، فاعتنته سواد قبل بطنه ، فقال : « ما حملك على هذا يا سواد » ؟ قال : يا رسول الله قد حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدك . فدعاه له رسول الله ﷺ بغير .

ولما تم تعديل الصفو أصدر أوامره إلى جيشه بأن لا يبدأوا القتال حتى يتلقوا منه الأوامر

الأخيرة ، ثم أدل إلهم بتوجيه خاص في أمر الحرب فقال : « إذا أكتبكم - يعني كتروكم - فارموهم ، واستبقوا نبلكم ^(١) ، ولا تسلوا السيف حتى يغشوكم ^(٢) » ، ثم رجع إلى العريش هو وأبو بكر خاصة ، وقام سعد بن معاذ بكثيّة الحراسة على باب العريش .

أما المشركون فقد استفتح أبو جهل في ذلك اليوم فقال : اللهم أقطعنا للرحم ، واتانا بما لا نعرفه ، فأحثه الغداة ، اللهم أينا كان أحب إليك وأرضي عندك فانصره اليوم ، وفي ذلك أنزل الله ﴿إِن تَسْتَفِئُ حَوْافِقَ دَجَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنْهَاوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِن تَعُودُوْا نَدَدُكُمْ وَإِن تَغْنِيَ عَنْكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَرِتْ وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨ : ١٩) .

ساعة الصفر وأول وقود المعركة :

وكان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد الخزومي - وكان رجلاً شرساً سيء الخلق - خرج قائلاً : أعاد الله لأشرين من حوضهم ، أو لأهدمته ، أو لأموتن دونه . فلما خرج إليه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، فلما التقى ضربه حمزة ، فأطعن قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً نحو أصحابه ، ثم حبا إلى الحوض حتى اتّحُم فيه ، يريد أن تبرئه ، ولكن حمزة ثني عليه بضربة أخرى أنت عليه وهو داخل الحوض .

المبارزة :

وكان هذا أول قتل نار المعركة ، فقد خرج بعده ثلاثة من خيرة فرسان قريش كانوا من عائلة واحدة ، وهم عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، فلما انفصلوا من الصف طلبوا المبارزة ، فخرج إلهم ثلاثة من شباب الأنصار ، عوف ومعوذ ابنا الحارث - وأمهما عفرا - وعبد الله بن رواحة ، فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . قالوا : أكفاء كرام ، ما لنا بكم حاجة ، وإنما نريدبني عمنا ، ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله ﷺ : « قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا علي » ، فلما قاموا ودنوا منهم ، قالوا : من أنتم ؟ فأخبروهم ، فقالوا : أنتم أكفاء كرام ، فبارز عبيدة - وكان

(١) صحيح البخاري ٥٦٨/٢ .

(٢) سنن أبي داود في سل السيف عند اللقاء ١٣/٢ .

أسن القوم - عتبة بن ربيعة ، وباز حمزة شيبة ، وباز علي الوليد^(١) ، فاما حمزة وعلى فلم يهلا قرنيهما أن قتلها ، وأما عبيدة فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان ، فأثخن كل واحد منها صاحبه ، ثم كر على حمزة على عتبة فقتلاه واحتلما عبيدة ، وقد قطعت رجله ؛ فلم يزل صمتاً حتى مات بالصفراء بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر ، حينما كان المسلمون في طريقهم إلى المدينة .

وكان علي يقسم بالله أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿هَذَا إِنْ خَصْمَانِ أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ الآية .

الهجوم العام:

وكانت نهاية هذه المبارزة بداية سيئة بالنسبة إلى المشركين ، فقدوا ثلاثة من خيرة فرسانهم وقادتهم دفعة واحدة ، فاستشاطوا غضباً ، وكرروا على المسلمين كرة رجل واحد . وأما المسلمون وبعد أن استنصروا ربهم ، واستغاثوه ، وأخلصوا له ، وتضرعوا إليه ، تلقوا هجمات المشركين المتواتلة ، وهم مرابطون في مواقعهم ، واقفون موقف الدفاع ، وقد ألحقوا بالشركين خسائر فادحة ، وهم يقولون : أحد أحد .

الرسول - ﷺ - يناشد ربه:

وأما رسول الله ﷺ ؛ فكان منذ رجوعه بعد تعديل الصفواف يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول : « اللهم أنجِّ لِي مَا وعَدْتَنِي ، اللهم إِنِّي أَنْشَدْتُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ » . حتى إذا حمى الوطيس ، واستدارت رحى الحرب بشدة ، واحتدم القتال ، وبلغت المعركة قمتها ، قال : « اللهم إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةِ الْيَوْمَ لَا تَعْبُدْ ، اللهم إِنْ شَئْتَ لَمْ تَعْبُدْ بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَدًا » . وبالغ في الابتهاج حتى سقط رداءه عن منكبيه ، فرده عليه الصديق ، وقال : حسبك يا رسول الله ، الحluck على ربك .

وأوحى الله إلى ملائكته ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتوَ الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلُقُّ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) هذا على ما قاله ابن إسحاق ، وفي رواية أحمد وأبي داود أن عبيدة باز الوليد ، وعلى باز شيبة ، وحمزة باز عتبة . مشكاة المصايف ٣٤٣/٢ .

الرُّغْبَهُ) ، وأوحى إلى رسوله ﷺ (أَنِّي مُمْدُكُم بِالْفِتْنَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ) - أي أنهم ردد لكم ، أو يردد بعضهم بعضاً أرسلاً ، لا يأتون دفعة واحدة .

نزول الملائكة:

وأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة واحدة ، ثم رفع رأسه فقال : « أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل على ثباثاً النقع » (أي الغبار) . وفي رواية محمد بن إسحاق : قال رسول الله ﷺ : « أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده ، على ثباثاً النقع » .

ثم خرج رسول الله ﷺ من باب العريش ، وهو يثب في الدرع ، ويقول : ﴿ سَيَهِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ (٤٥ : ٤٥) ، ثم أخذ حفنة من الحصباء ، فاستقبل بها قريشاً وقال : « شاهت الوجوه » ، ورمى بها في وجوههم ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينه ومنخرقه وفمه من تلك القبضة ، وفي ذلك أنزل الله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْرَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (٨ : ١٧) .

الهجوم المضاد:

وحيثند أصدر إلى جيشه أوامره الأخيرة بالهجمة المضادة فقال : « شدوا » ، وحرضهم على القتال ، قائلاً : « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » ، وقال وهو يحضهم على القتال : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » ، (وحيثند) قال العمير بن الحمام : بخ . بخ ، فقال رسول الله ﷺ : « ما يحملك على قولك : بخ . بخ » ؟ قال : لا ، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : « فإنك من أهلها » . فأخرج تمرات من قرنه ، فجعل يأكل منها ، ثم قال : لمن أنا حيت حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قتل^(١) .

وكذلك سأله عوف بن الحارث - ابن عفرا - فقال : يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده ! قال غمسه يده في العدو حاسراً ، فنزع درعاً كانت عليه ، فقدفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

(١) رواه مسلم ١٣٩/٢ ، مشكاة المصايب ٣٣١/٢ .

وحين أصدر رسول الله ﷺ الأمر بالهجوم المضاد كانت حدة هجمات العدو قد ذهبت ، وفقر حماسه ، فكان لهذه الخطة الحكيمية أثر كبير في تعزيز موقف المسلمين ، فإنهم حينها تلقوا أمر الشد والهجوم – وقد كان نشاطهم الحربي على شبابه – قاموا بهجوم كاسح مريء ، فجعلوا يقبلون الصحفوف ، ويقطعنون الأعناق ، وزادتهم نشاطاً وحدة أن رأوا رسول الله ﷺ يثب في الدرع ، ويقول في جزم وصراحة **(سَيِّئُهُمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُُّونَ الدُّبُرَ)** ، فقاتل المسلمين أشد القتال ، ونصرتهم الملائكة ، ففي رواية ابن سعد عن عكرمة قال : كان يومئذ يندر رأس الرجل لا يدرى من ضربه ، وتندر يد الرجل لا يدرى من ضربها ، وقال ابن عباس : بينما رجل من المسلمين يشتند في إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، فنظر إلى المشرك أمامه ، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « صدقت ، ذلك من مدد السماء الثالثة^(١) ». وقال أبو داود المازني : إني لأتبغ رجالاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي ، فعرفت أنه قد قتله غيري . وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيراً ، فقال العباس : إن هذا والله ما أسرني ، لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهها على فرس أبلق ، وما أراه في القوم ، فقال الأنصاري : أنا أسرته يا رسول الله ، فقال : « اسكت فقد أيدك الله بملك كريم » .

إبليس ينسحب عن ميدان القتال:

ولما رأى إبليس – وكان قد جاء في صورة سراقة بن مالك بن جعشن المدخلجي كما ذكرنا ، ولم يكن فارقهم منذ ذلك الوقت – فلما رأى ما يفعل الملائكة بالمشركين فر ونكص على عقيبه ، وتشبث به الحارث بن هشام – وهو يظنه سراقة – فوكز في صدر الحارث فألقاه ، ثم خرج هارباً ، وقال له المشركون : إلى أين يا سراقة ؟ ألم تكن قلت : إنك جار لنا ، لا تفارقا ؟ فقال : إني أرى ما لا ترون ، إني أخاف الله ، والله شديد العقاب ، ثم فر حتى ألقى نفسه في البحر .

الهزيمة الساحقة:

وبدأت أمارات الفشل والاضطراب في صفوف المشركين ، وجعلت تنحدم أمام حملات

(١) روى مثل ذلك مسلم ٩٣/٢ وغيره .

المسلمين العنيفة ، واقتربت المعركة من نهايتها ، وأخذت جموع المشركين في الفرار والانسحاب المبدد ، وركب المسلمين ظهورهم يأسرون ويقتلون حتى تمت عليهم المفزيمة .

صمود أبي جهل:

أما الطاغية الأكبر أبو جهل ، فإنه لما رأى أول أumarات الاضطراب في صفوفه حاول أن يتصدى في وجه هذا السيل ، فجعل يشجع جيشه ، ويقول لهم في شراسة ومكابرة : لا يهز منكم خذلان سراقة إياكم ، فإنه كان على ميعاد من محمد ، ولا يهلككم قتل عتبة وشيبة والوليد ، فإنهما قد عجلوا ، فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرنهم بالحبال ، ولا ألفين رجلاً منكم قتل منهم رجلاً ، ولكن خذلهم أخذنا ، حتى نعرفهم بسوء صنيعهم .

ولكن سرعان ما تبدى له حقيقة هذه الغطرسة ، فما لبث إلا قليلاً حتى أخذت الصفوف تتصدع أمام تيارات هجوم المسلمين . نعم بقي حوله عصابة من المشركين ، ضربت حوله سياجاً من السيوف وغابات من الرماح ، ولكن عاصفة هجوم المسلمين بددت هذه السياج وأقلعت هذه الغابات ، وحيثند ظهر هذا الطاغية ، ورآه المسلمون يجول على فرسه ، وكان الموت يتنتظر أن يشرب من دمه بأيدي غلامين أنصاريين .

نصر أبي جهل:

قال عبد الرحمن بن عوف : إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت ، فإذا عن يميني وعن يسارِي فتيان حدثنا السن ، فكأن لم آمن بمكانهما ، إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه : يا عم ، أربى أبي جهل ، فقلت : يا ابن أخي ، مما تصنع به ؟ قال : أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ ، قال : والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا ، فتعجبت لذلك . قال : وغمزني الآخر ، فقال لي مثلها ، فلم أنسى أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس ، فقلت : ألا تريان ؟ هذا صاحبكم الذي تسألاني عنه ، قال : فابتدره سيفيهما فضربهما حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « أيكما قتلته » ؟ فقال كل واحد منها : أنا قتلتنه ، قال : « هل مسحتنا سيفيكما » ؟ فقالا : لا ، فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين ،

فقال : « كلاماً قتله » ، وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاذ بن الجموم ، والرجلان
معاذ بن عمرو بن الجموم ومعوذ بن عفراه^(١) .

وقال ابن إسحاق : قال معاذ بن عمرو بن الجموج : سمعت القوم ، وأبو جهل في مثل الحرجة - والحرجة : الشجر الملتئف ، أو شجرة من الأشجار لا يوصل إليها ، شبه رماح المشركين وسيوفهم التي كانت حول أبي جهل لحفظه بهذه الشجرة - وهم يقولون : أبو الحكم لا يخلص إليه ، قال : فلما سمعتها جعلته من شأني فصمدت نحوه ، فلما أمكنني حملت عليه ، فضربيه ضربة أطنت قدمه - أطارتها - بنصف ساقه ، فوالله ما شببها حين طاحت إلا بالنواة تطبيع من تحت مرضحة النوى حين يضرب بها . قال : وضربني ابنه عكرمة على عاتقي ، فطرح يدي ، فتعلقت بجلدة من جنبي ، وأجهضني القتال عنه ، فلقد قاتلت عامرة يومي وإنني لأسحبها خلفي ، فلما آذتني وضعت عليها قدمي ، ثم تطبيت بها عليها حتى طرحتها^(١) ثم مر بأبي جهل وهو عقير - معوذ بن عفرا ، فضربه حتى أثبته ، فتركه وبه رمق ، وقاتل معوذ حتى قتل .

ولما انتهت المعركة قال رسول الله ﷺ : من ينظر ما صنع أبو جهل ؟ ففرق الناس في طلبه ، فوجده عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وبه آخر رقم ، فوضع رجله على عنقه ، وأخذ لحيته ليحترز رأسه ، وقال : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ قال : وبماذا أخزاني ؟ أعمد من رجل قتلتموه ^(٢) ؟ أو هل فوق رجل قتلتموه ؟ وقال : فلو غير أكار قتلي ، ثم قال : أخبرني لمن الدائرة اليوم ؟ قال : الله ورسوله ، ثم قال لابن مسعود – وكان قد وضع رجله على عنقه – لقد ارتقى مرتفعًا يا رويعي الغنم ، وكان ابن مسعود من رعاة الغنم في مكة .

وبعد أن دار بينهما هذا الكلام احتز ابن مسعود رأسه ، وجاء به إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، هذا رأس عدو الله أبي جهل ، فقال : « الله الذي لا إله إلا هو » ؟ فرددتها ثلاثاً ، ثم قال : « الله أكبر ، الحمد لله الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحدة ، انطلق أرنيه » ، فانطلقا فارتبته إياه ، فقال : « هذا فرعون هذه الأمة » .

(١) صحيح البخاري /٤٤٤ ، ٥٦٨ /٢ ، مشكاة المصابيح /٢٥٢ ، وإنما خص بالسلب واحداً منها لأن الثاني قلل شيئاً في نفس المعركة .

(٢) يقى معاذ هذا إلى زمن عثمان بن عفان (رضي الله عنه).

(٣) أي ليس علي عار فلن أبعد أن أكون رجلاً قتلهم قومه .

من روائع الإيمان في هذه المعركة

لقد أسلفنا نموذجين رائعين من عمير بن الحمام وعوف بن الحارث - ابن عفرا - وقد تجلت في هذه المعركة مناظر رائعة ، تبرز فيها قوة العقيدة وثبات المبدأ ، ففي هذه المعركة التي الآباء بالأبناء ، والأخوة بالأخوة ، خالفت بينهما المبادئ ، ففصلت بينهما السيف ، والتقي المقهور بقاهره ، فشفي منه غيظه .

١ - روى ابن إسحاق عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لأصحابه : « إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً ، لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي أحداً من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبياً البخtri بن هشام فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرهاً » ، فقال أبو حذيفة بن عتبة : أقتل آباءنا وأبناءنا وأخواننا وعشيرتنا ونترك العباس ، والله لعن لقيته لأحمنه - أو لأحمنه - بالسيف ، فبلغت رسول الله ﷺ ، فقال لعمر بن الخطاب : « يا أبا حفص ، أضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف » ، فقال عمر : يا رسول الله ، دعني فلأضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق .
فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بأمان من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عن الشهادة . فقتل يوم الجمعة شهيداً .

٢ - وكان النبي عن قتل أبي البخtri ؛ لأنه كان أكفر القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة ، وكان لا يؤذيه ولا يبلغ عنه شيء يكرهه ، وكان من قام في نقض صحيفة مقاطعةبني هاشم وبني المطلب .

ولكن أبي البخtri قتل رغم هذا كله ، وذلك أن المجذر بن زياد البلوي لقيه في المعركة ، ومعه زميل له ، يقاتلان سوياً ، فقال المجذر : يا أبي البخtri إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك ، فقال : وزميلي ؟ فقال المجذر : لا والله ما نحن بتارك زميلك ، فقال : والله إذن لأموتون أنا وهو جيئاً ، ثم اقتلا ، فاضطرب المجذر إلى قتله .

٣ - كان عبد الرحمن بن عوف وأمية بن خلف صديقين في الجاهلية بمكة ، فلما كان يوم بدر مر به عبد الرحمن ، وهو واقف مع ابنه علي بن أمية ، آخذا بيده ، ومع عبد الرحمن أدراج قد استلها ، وهو يحملها ، فلما رأه قال : هل لك في ؟ فأنما خير من هذه الأدراج التي معك ،

ما رأيت كاليم قط ، أما لكم حاجة في اللبن ؟ – يريد أن من أسرني افتديت منه بإبل كثيرة اللبن – فطرح عبد الرحمن الأذراع ، وأخذها يمشي بهما ، قال عبد الرحمن : قال لي أمية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه : من الرجل منكم المعلم بريشة النعامة في صدره ؟ قلت : ذاك حمزة بن عبد المطلب ، قال : ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل .

قال عبد الرحمن : *فواه الله إن لأقودهما إذ رأه بلال معي ، وكان أمية هو الذي يعذب بلالاً بمكة* ، فقال بلال : *رأس الكفر* أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا قلت : أي بلال ، أسيري قال : لا نجوت إن نجا . قلت : *أتسمع يا ابن السوداء* . قال : لا نجوت إن نجا . ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله ، *رأس الكفر* أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا ، قال : فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة ، وأنا أذب عنه ، قال : *فأخلف* رجل السيف فضرب رجل ابنه فوق ، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط ، فقلت أخ بنفسك ، ولا نجاء بك ، *فواه الله ما أغنى عنك شيئاً* . قال فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منها ، فكان عبد الرحمن يقول : *يرحم الله بلالاً* ، ذهبت أدراعي ، وفجعني بأسيري .

وفي زاد المعاد أن عبد الرحمن بن عوف قال لأمية : ابرك ، فبرك ، فألقى نفسه عليه ، فضربوه بالسيف من تحته حتى قتلوه ، وأصاب بعض السيوف رجل عبد الرحمن بن عوف^(١) .

٤ – وقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومئذ خاله العاص بن هشام بن المغيرة .

٥ – ونادى أبو بكر الصديق رضي الله عنه ابنه عبد الرحمن – وهو يومئذ مع المشركين – فقال : أين مالي يا خبيث ؟ فقال عبد الرحمن :

لم يرق غير شكة ويعبوب وصارم يقتل ضلال الشيب^(٢)

٦ – ولما وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله ﷺ في العريش ، وسعد بن معاذ قائم على بابه يحرسه متواضحاً سيفه ، رأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهة لما يصنع الناس ، فقال له : والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم ؟ قال : أجل والله يا رسول الله .

(١) زاد المعاد ٨٩/٢ .

(٢) الشكة : السلاح . والعبوب : الفرس الكبير الجري .

كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحب إلى من استبقاء الرجال .

٧ - وانقطع يومئذ سيف عكاشه بن محسن الأسدى ، فأنى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب ، فقال : « قاتل بهذا يا عكاشه » ، فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزه ، فعاد سيفاً في يده طويل القامة ، شديد التن أبيض الحديدية ، فقاتل به حتى فتح الله تعالى للMuslimين ، وكان ذلك السيف يسمى العون ، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد ، حتى قتل في حروب الرادة وهو عنده .

٨ - وبعد انتهاء المعركة من مصعب بن عمير العبدري أخيه أبي عزيز بن عمير ، الذي خاض المعركة ضد المسلمين ، من به وأحد الأنصار يشد يده ، فقال : مصعب لأنصارى : شد يديك به ، فإن أمه ذات متع ، لعلها تفديه منك ، فقال أبو عزيز أخيه مصعب : أهذه وصاتك بي ؟ فقال مصعب : إنه - أخي الأنصارى - أخي دونك .

٩ - ولما أمر بالقاء جيف المشركين في القليب ، وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب ، نظر رسول الله ﷺ في وجه ابنه أبي حذيفة ، فإذا هو كثيب قد تغير ، فقال : « يا أبو حذيفة لعلك قد دخلت من شأن أبيك شيء » ؟ فقال : لا والله ، يا رسول الله ، ما شركت في أبي ولا مصرعه ، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلاً وفضلًا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزاني ذلك . فدعا له رسول الله ﷺ بخير ، وقال له خيراً .

قتلى الفريقيين :

انتهت المعركة بهزيمة ساحقة بالنسبة إلى المشركين ، ويفتح مبين بالنسبة للمسلمين ، وقد استشهد من المسلمين في هذه المعركة أربعة عشر رجلاً ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار . أما المشركون فقد لحقتهم خسائر فادحة ، قتل منهم سبعون وأسر سبعون ، وعمتهم القيادة والزعماء والصناديد .

ولما انقضت الحرب أقبل رسول الله ﷺ حتى وقف على القتلى ، فقال : « بقى العشيرة

كنت لنيكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وخدلتوني ونصرني الناس ، وأخر جمعوني وأواني الناس » ، ثم أمر بهم ، فسحبوا إلى قليب من قلب بدر .

وعن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش ، فقدفوا في طوى من أطواء بدر خبيث محبت . وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرضة ثلاثة ليال ، فلما كان بيدر اليوم الثالث أمر براحته فشد عليها رحلها ، ثم مشى ، وأتبعه أصحابه حتى قام على شفة الركي ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آباءهم ، « يا فلان بن فلان ، يا فلان بن فلان ، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ قال النبي ﷺ : « والذى نفس محمد بيده ، ما أنت بأسمع لما أقول منهم » ، وفي رواية « ما أنت بأسمع منهم ، ولكن لا يحييون »^(١) .

مكة تتلقى أنباء الهزيمة:

فر المشركون من ساحة بدر في صورة غير منتظمة ، تبعثروا في الوديان والشعاب ، واتجهوا صوب مكة مذعورين ، لا يدرؤن كيف يدخلونها خجلاً .

قال ابن إسحاق : وكان أول من قدم بمصاب قريش الحيسان بن عبد الله الخزاعي ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم ابن هشام ، وأمية بن خلف في رجال من الزعماء سماهم . فلما أخذ يعد أشراف قريش قال صفوان بن أمية وهو قاعد في الحجر : والله إن يعقل هذا ، فاسأله عنى ، قالوا : ما فعل صفوان بن أمية قال : هاهو ذا جالس في الحجر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا .

وقال أبو رافع - مولى رسول الله ﷺ - : كنت غلاماً للعباس ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس ، وأسلمت أم الفضل ، وأسلمت ، وكان العباس يكتم إسلامه ، وكان أبو لهب قد تحلف عن بدر ، فلما جاءه الخبر كتبه الله وأخزاه ، وووجدنا في أنفسنا قوة وعزّا ، وكانت رجلاً ضعيفاً أعمل الأقداح ، أنتحتها في حجرة زرم ، فوالله إني لجالس فيها أنتحت أقداحي ، وعندى أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر ، إذ أقبل أبو لهب يجر رجله

(١) متفق عليه ، مشكاة المصابيح ٣٤٥/٢ .

بشر ، حتى جلس على طنب الحجرة^(١) ، فكان ظهره إلى ظهري ، فيينا هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم ، فقال له أبو هلب : هلم إلى ، فعندي لعمرى الخبر ، قال : فجلس إليه ، والناس قيام عليه . فقال : يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس ؟ قال : ما هو إلا أن لقينا القوم فمتحاجهم أكناها ، يقتلوننا كيف شاءوا ، وياوسروتنا كيف شاءوا ، وائم الله مع ذلك مات الناس ، لقينا رجال يبض على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ما ثائق^(٢) شيئاً ، ولا يقوم لها شيء .

قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجرة بيدي ، ثم قلت : تلك والله الملائكة . قال : فرفع أبو هلب يده ، فضرب بها وجهي ضربة شديدة ، فتاورته ، فاحتلني ضرب بي الأرض ، ثم بر克 على يضربني ، وكنت رجلاً ضعيفاً ، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة ، فأخذته ، فضربيته به ضربة فعلت في رأسه شجة منكرة ، وقالت : استضعفته أن غاب عنه سيده ، فقام مولياً ذليلاً ، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتله (وهي قرحة تتشاءم بها العرب ، فتركه بنوه ، وبقي ثلاثة أيام لا تقرب جنازته ، ولا يحاول دفنه ، فلما خافوا السبة في تركه حفروا له ، ثم دفعوه بعود في حفرته ، وقدفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه) .

هكذا تلقت مكة أبناء الهزيمة الساحقة في ميدان بدر ، وقد أثر ذلك فيهم أثراً سيئاً جداً ، حتى منعوا النياحة على القتل ، لثلا يشمت بهم المسلمون .

ومن الطرائف أن الأسود بن المطلب أصيب ثلاثة من أبنائه يوم بدر ، وكان يجب أن يسكن عليهم ، وكان ضرير البصر ، فسمع ليلاً صوت نائحة ، فبعث غلامه ، وقال : انظر هل أحذر التحبي ؟ هل بكت قريش على قتلها ؟ لعل أبيك على أبي حكيمه - ابني - فإن جوفي قد احترق ، فرجع الغلام وقال : إنما هي امرأة تبكي على بغير لها أصله ، فلم يتألم الأسود نفسه وقال :

ويمنعها من النوم السهود
على بدر تقاصرت الجدود
ومخزوم ورهط أبي الوليد

أتبكي أن يضل لها بعير
فلا تبكي على بكر ولكن
على بدر سراة بنى هصيص

(١) طنب الحجرة : طرفها .

(٢) لا ثائق شيئاً .

وبكي حارثاً أسد الأسود
وما لأبي حكيمه من نديد
ولولا يوم بدر لم يسودوا

وبكمهم ، ولا تسمى جميراً
ألا قد ساد بعدهم رجال

المدينة تتلقى أنباء النصر:

ولما تم الفتح لل المسلمين أرسل رسول الله ﷺ بشيرين إلى أهل المدينة ، ليجعل لهم البشرى ، أرسل عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية ، وأرسل زيد بن حارثة إلى أهل السافلة .

وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا في المدينة بإشاعة الدعايات الكاذبة ، حتى أشاعوا خبر مقتل النبي ﷺ ، ولما رأى أحد المنافقين زيد بن حارثة راكباً القصواب – ناقة رسول الله ﷺ – قال : لقد قتل محمد ، وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لا يدرى ما يقول من الرابع ، وجاء فللا^(١) .

فلما بلغ الرسول أحادط بهما المسلمين ، وأخذوا يسمعون منها الخبر ، حتى تأكد لديهم فتح المسلمين ، فعمت البهجة والسرور ، واهتزت أرجاء المدينة تهليلاً وتکبيراً ، وتقدم رؤوس المسلمين – الذين كانوا بالمدينة – إلى طريق بدر ؟ ليهتوا رسول الله ﷺ بهذا الفتح المبين .

قال أسماء بن زيد : أتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التي كانت عند عثمان بن عفان ، كان رسول الله ﷺ خلفني عليها مع عثمان .

الجيش النبوى يتحرك نحو المدينة:

أقام رسول الله ﷺ بدر بعد انتهاء المعركة ثلاثة أيام ، وقبل رحيله من مكان المعركة وقع خلاف بين الجيش حول الغنائم ، ولما اشتد هذا الخلاف أمر رسول الله ﷺ بأن يرد الجميع ما بأيديهم ، ففعلوا ، ثم نزل الوحي بحل هذه المشكلة .

عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبي ﷺ ، فشهدت معه بدرًا فاللتقي الناس ، فهزم الله العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يطاردون ويقتلون ، وأكبت طائفة على المغمي يحرزونه

(١) فللا : منهراً .

ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حربناها ، وليس لأحد فيها نصيب وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم أحق بها منا ، نحن نحبنا منها العدو وهزمناه ، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : حفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ، فأنزل الله ﷺ **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَإِنَّهُمْ وَآصِلُّوْهُا ذَاتَ بَيْتِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾** (٨ : ١) فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين^(١) .

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ بيدر ثلاثة أيام تحرك بجيشه نحو المدينة ومعه الأسرى من المشركين ، واحتمل معه النفل الذي أصيب من المشركين ، وجعل عليه عبد الله بن كعب ، فلما خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب بين المصيق وبين النازية ، وقسم هنالك الغنائم على المسلمين على السواء ، بعد أن أخذ منها الخمس .

وعندما وصل إلى الصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث – وكان هو حامل لواء المشركين يوم بيدر ، وكان من أكابر مجرمي قريش ، ومن أشد الناس كيداً للإسلام ، وإيذاء لرسول الله ﷺ – فضرب عنقه علي بن أبي طالب .

ولما وصل إلى عرق الظبية أمر بقتل عقبة بن أبي معيط ، وقد أسلفنا بعض ما كان عليه من إيذاء رسول الله ﷺ ، فهو الذي كان ألقى سلا جزور على رأس رسول الله ﷺ وهو في الصلاة ، وهو الذي خنقه برداءه ، وكاد يقتله لو لا أن يعترض أبو بكر رضي الله عنه ، فلما أمر بقتله قال : من للصبية يا محمد ؟ قال : النار^(٢) . قتل عاصم بن ثابت الأنصاري ، ويقال علي بن أبي طالب .

وكان قتل هذين الطاغيتين واجباً من حيث وجهاً الحرب ، فلم يكونا من الأسرى فحسب ، بل كانوا من مجرمي الحرب بالاصطلاح الحديث .

وفود التهنة :

ولما وصل إلى الروحاء لقيه رؤوس المسلمين – الذين كانوا قد خرجوا للتهنة والاستقبال حين

(١) أخرجه أبوداود ٥/٣٢٣ ، ٣٢٤ ، والحاكم ٢/٣٢٦ .

(٢) روى ذلك أوصياب الصحاح ، انظر سنن أبي داود مع حاشيته عون المعبود ٣/١٢ .

سمعوا بشاراة الفتح من الرسولين - يهشونه بالفتح . وحيثند قال لهم سلمة بن سلامة : ما الذي تهشوننا به ؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعاً كالبدن ، فتبرم رسول الله ﷺ ، ثم قال : « يا ابن أخي أولئك الملا » .

وقال أسميد بن حضير : يا رسول الله ، الحمد لله الذي أظفرك ، وأقر عينك ، والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدواً ، ولكن ظنت أنها غير ، ولو ظنت أنه عدو ما تخلفت ، فقال رسول الله ﷺ : « صدقت » .

ثم دخل رسول الله ﷺ المدينة مظفراً منصوراً ، قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها ، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة ، وحيثند دخل عبد الله بن أبي وأصحابه في الإسلام ظاهراً . وقدم الأسرى بعد بلوغه المدينة يوم ، فقسمهم على أصحابه ، وأوصى بهم خيراً ، فكان الصحابة يأكلون التمر ، ويقدمون لأسرائهم الخبز عملاً بوصية رسول الله ﷺ .

قضية الأسرى:

ولما بلغ رسول الله ﷺ المدينة استشار أصحابه في الأسرى ، فقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهدى بهم الله ، فيكونوا لنا عضداً .

قال رسول الله ﷺ : « ما ترى يا ابن الخطاب » ؟ قال : قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكنتني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل بن أبي طالب فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم أعداء الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين ، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم .

فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يه ما قلت ، وأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد قال عمر : فعدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر ، وهو يكيا ، فقلت يا رسول الله أخبرني ماذا يكيلك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجده بكاء تباكيت ليكائهما ، فقال رسول الله ﷺ : « للذى عرض على أصحابك : من أخذهم الفداء ، فقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة - شجرة قريبة - ^(١) .

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٣٦ .

وأنزل الله تعالى ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَقَّ يُتَحْكَمُ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الْأَذْنِيَّا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ أَعْزَى حَمَدِكُمْ ﴾١٧ تَوَلَّ أَكْتَبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَكُمْ فِيمَا أَخْذَمْ عَذَابُ عَظِيمٍ﴾ (٨ : ٦٧ ، ٦٨) .

والكتاب الذي سبق من الله هو قوله تعالى ﴿فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ (٤٧ : ٤) ففيه الإذن بأخذ الفدية من الأسرى ولذلك لم يعنبوها ، وإنما نزل العتاب لأنهم أسروا الكفار قبل أن يشنخوا في الأرض ، ثم إنهم قبلوا الفداء من أولئك الجرميين الذين لم يكونوا أسرى حرب فقط ، بل كانوا أكبر مجرمي الحرب الذين لا يترکهم قانون الحرب الحديث إلا ويخاکهم ، ولا يكون الحكم في الغالب إلا بالإعدام أو بالحبس حتى الموت .

واستقر الأمر على رأي الصديق فأخذ منهم الفداء ، وكان الفداء من أربعة آلاف درهم ، إلى ثلاثة آلاف درهم ، إلى ألف درهم ، وكان أهل مكة يكتبون ، وأهل المدينة لا يكتبون ، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم ، فإذا حذقوا فهو فداء .

ومن رسول الله ﷺ على عدة من الأسرى ، فأطلقهم بغير فداء ، منهم : المطلب بن حنطسب ، وصيفي بن أبي رفاعة ، وأبو عزة الجمحي ، وهو الذي قتله أسرًا في أحد ، وسيأتي .

ومن على ختنه أبي العاص بشرط أن يخلِّي سبيل زينب ، وكانت قد بعثت في فدائه بمال ، بعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة ، أدخلتها بها على أبي العاص ، فلما رأها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة ، واستأذن أصحابه في إطلاق أبي العاص ففعلوه ، واشترط رسول الله ﷺ على أبي العاص أن يخلِّي سبيل زينب ، فخلالها ، فهاجرت ، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلًا من الأنصار ، فقال : كونوا يبطنوا يأجج حتى تمر بكم زينب فتصحباها ، فخرجتا حتى رجعوا بها ، وقصة هجرتها طويلة مؤلمة .

وكان في الأسرى سهيل بن عمرو ، وكان خطيباً مصقاً ، فقال عمر : يا رسول الله ، انزع ثنيتي سهيل بن عمرو يدلع لسانه ، فلا يقوم خطيباً عليك في موطن أبداً ، بيد أن رسول الله ﷺ رفض هذا الطلب ، احترازاً عن المثلة ، وعن بطيش الله يوم القيمة .

وخرج سعد بن النعمان معتمراً فحبسه أبو سفيان ، وكان ابنه عمرو بن أبي سفيان في الأسرى ، بعثوا به إلى أبي سفيان فخلَّ سبيل سعد .

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة:

و حول موضوع هذه المعركة نزلت سورة الأنفال ، وهذه السورة تعليق إلهي – إن صح هذا التعبير – على هذه المعركة ، يختلف كثيراً عن التعاليم التي ينطق بها الملوك والقادات بعد الفتح . إن الله تعالى لفت أنظار المسلمين – أولاً – إلى التقصيرات والتقاريبط الأخلاقية التي كانت قد بقيت فيهم ، وصدرت بعضها منهم ، ليسعوا في تكميل نفوذهم وتزكيتها عن هذه التقاريبط . ثم ثني بما كان في هذا الفتح من تأييد الله وعونه ونصره بالغيب للمسلمين . ذكر لهم ذلك شلا يغتروا بشجاعتهم وبسالتهم ، فتتسور نفوذهم الغطرسة والكرياء ، بل ليتوكلوا على الله ويطيعوه ويطيعوا رسوله عليه الصلاة والسلام .

ثم بين لهم الأهداف والأغراض النبيلة التي خاض الرسول ﷺ لأجلها هذه المعركة الدامية الرهيبة ، ودلم على الصفات والأخلاق التي تسبيت في الفتوح وفي المعارك .

ثم خاطب المشركين والمنافقين واليهود وأساري المعركة ، وعظهم موعظة بلغة ، تهديهم إلى الاستسلام للحق والتقييد به .

ثم خاطب المسلمين حول موضوع الغنائم ، وقنن لهم مبادئه وأسس هذه المسألة . ثم بين وشرع لهم من قوانين الحرب والسلم ما كانت الحاجة تمس إليها بعد دخول الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة ، حتى تمتاز حروب المسلمين عن حروب أهل الجاهلية ، ويقوم لهم التفوق في الأخلاق والقيم والمثل ، ويتأكد للدنيا أن الإسلام ليس مجرد وجهة نظرية ، بل إنه يشق أهله عملياً على الأسس والمبادئ التي يدعوا إليها .

ثم قرر بنوداً من قوانين الدولة الإسلامية التي تقم الفرق بين المسلمين الذين يسكنون داخل حدودها ، والذين يسكنون خارجها .

وفي السنة الثانية من الهجرة فرض صيام رمضان ، وفرضت زكاة الفطر ، وبينت أنصبة الزكاة الأخرى ، وكانت فريضة زكاة الفطر وتفصيل أنصبة الزكاة الأخرى ؛ تخفيضاً لكثير من الأوزار التي يعانيها عدد كبير من المهاجرين اللاجئين ، الذين كانوا فقراء لا يستطيعون ضرباً في الأرض . ومن أحسن الواقع وأروع الصدفات أن أول عيد تعيده به المسلمون في حياتهم هو العيد

الذي وقع في شوال سنة ٢٢ هـ إثر الفتح المبين الذي حصلوا عليه في غزوة بدر ، فما أروع هذا العيد السعيد الذي جاء به الله بعد أن توج هامتهم بتاج الفتح والعز ، وما أروع منظر تلك الصلاة التي صلواها بعد أن خرجوا من بيوتهم يرفعون أصواتهم بالتكبير والتوحيد والتحميد ، وقد فاضت قلوبهم رغبة إلى الله ، وحنينا إلى رحمته ورضوانه بعد ما أولاهم من النعم ، وأيدهم به من النصر ، وذكرهم بذلك قائلاً : ﴿وَادْكُرُوا إِذَا نَّمَ فَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَنْخَطَّفُوكُمُ النَّاسُ فَلَا وَنَكُمْ وَآيَدَكُمْ بِنَصْرٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ﴾ (٨: ٢٦) .

النشاط العسكري بين بدر وأحد

إن معركة بدر كانت أول لقاء مسلح بين المسلمين والشركين ، وكانت معركة فاصلة ، أكسبت المسلمين نصراً حاسماً شهد له العرب قاطبة ، والذين كانوا أشد استياء لنتائج هذه المعركة هم أولئك الذين منوا بخسائر فادحة مباشرة ؛ وهم المشركون ، أو الذين كانوا يرون عزة المسلمين وغلبتهم ضرباً قاصماً على كيانهم الديني والاقتصادي ، وهم اليهود . فمنذ أن انتصر المسلمين في معركة بدر كان هذان الفريقان يحترقان غيظاً وحنقاً على المسلمين ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَيْهُودًا وَالَّذِينَ أَشْرَكُواۚ﴾ (٨٢: ٥) وكانت في المدينة بطانة للفريقين دخلوا في الإسلام حين لم يبق مجال لوقارهم ، وهم عبد الله بن أبي وأصحابه ، ولم تكن هذه الفرقة الثالثة أقل غيظاً من الأوليين .

وكانت هناك فرقة رابعة ، وهو البدو الضاربون حول المدينة ، لم يكن بهم مسألة الكفر والإيمان ، ولكنهم كانوا أصحاب سلب ونهب ، فأخذهم القلق ، واضطربوا لهذا الاتصار ، وخافوا أن تقوم في المدينة دولة قوية تحول بينهم وبين اكتساب قوتهم عن طريق السلب والنهب ، فجعلوا يهددون على المسلمين وصاروا لهم أعداء .

وهكذا أحاطت الأخطار بال المسلمين من كل جانب ، ولكن هذه الفرق تباينت في سلوكيها إزاء المسلمين ، وأخذ كل فريق الطريقة التي رأها كفيلة ببلوغ غايته . فيينا كانت المدينة وما حوالها تظاهر بالإسلام ، وتأخذ في طريق المؤامرات والدسائس والتحرشات والاستفزازات ، كانت فرقة من اليهود تعلن بالعداوة ، وتكاشف عن الحقد والغيظ ، وكانت مكة تهدد بالضرب القاصم وتعلن بأخذ الثأر والنقطة ، وتهتم بالتوعية العامة جهاراً ، وترسل إلى المسلمين بلسان حالها ، تقول بأنه :

ولا بد من يوم أغر محجل يطول استماعي بعده للنواب
وفعلاً ، فقد قادت غزوة قاصمة إلى أسوار المدينة عرفت في التاريخ بغزوة أحد ، والتي كان
 لها أثر سيء على سمعة المسلمين وهبتهم .

غزوة بنى سليم بالكدر

أول ما نقلت استخبارات المدينة إلى النبي ﷺ بعد بدر أن بنى سليم من قبائل غطفان تحشد قواتها للغزو على المدينة ، فباغت النبي ﷺ في مائتي راكب هذه القبائل المتحشدة في عقر دارها ، وبلغ إلى منازلهم في موضع يقال له الكدر^(١) . فقر بنو سليم وتركوا في الوادي خمسة بعير استولى عليها جيش المدينة ، وقسمها رسول الله ﷺ بعد إخراج الخمس فأصاب كل رجل بعيرين ، وأصاب غلاماً يقال له « يسار » فأعتقه .

وأقام النبي ﷺ في ديارهم ثلاثة أيام ، ثم رجع إلى المدينة .

وكانت هذه الغزوة في شوال سنة ٢ هـ بعد الرجوع من بدر بسبعة أيام ، واستختلف في هذه الغزوة على المدينة سباع بن عرفطة . وقيل : ابن أم مكتوم^(٢) .

(١) الكدر ، بالضم فالسكون : طير في لونها كدرة ، وهو ماء من مياه بنى سلم يقع في نجد على الطريق التجارية الشرقية الحيوية بين مكة والشام .

(٢) زاد المعد ٩٠ / ٢ ، ابن هشام ٤٣ / ٤٤ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٣٦ .

مؤامرة لاغتيال النبي - ﷺ

كان من أثر هزيمة المشركين في وقعة بدر أن اشتباطوا غضباً ، وجعلت مكة تغلي كالمجلس ضد النبي ﷺ ، حتى تأمر بطلان من أبوطحابها أن يقضوا على مبدأ هذا الخلاف والشقاق ، ومثار هذا الذل والهوان في زعمهم ، وهو النبي ﷺ .

جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحجر بعد وقعة بدر يسير - وكان عمير من شياطين قريش ، من كان يؤذى النبي ﷺ وأصحابه وهم بمكة - وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر ، فذكر أصحاب القليب ومصابهم ، فقال صفوان : والله إِنْ في العيش بعدهم خير .

قال له عمير : صدقت والله ، أما والله لولا دين علي ليس له عندي قضاء ، وعيال أخشي عليهم الضيحة بعدي ، لركبت إلى محمد حتى أقتلته ، فإن لي قبلهم علة ، ابني أسير في أيديهم . فاغتنمتها صفوان وقال : علي دينك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي ، أواسفهم ما بقوا ، لا يسعني شيء ويعجز عنهم .

قال له عمير : فاكتم عني شأني وشأنك . قال : أفعل .

ثم أمر عمير بسيفه فشحد له وسم ، ثم انطلق حتى قدم به المدينة ، فبيانا هو على باب المسجد ينبع راحلته رأه عمر بن الخطاب - وهو في نفر من المسلمين يتحدثون ما أكرمههم الله به يوم بدر - فقال عمر : هذا الكلب عدو الله عمير ما جاء إلا لشر . ثم دخل على النبي ﷺ فقال : يا نبي الله هذا عدو الله عمير قد جاء متوضحاً سيفه ، قال : فأدخله على ، فأقبل عمير فلبيه بحمالة سيفه ، وقال لرجال من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ ، فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به ، فلما رأه رسول الله ﷺ - وعمر

أخذ بحملة سيفه في عنقه - قال : أرسله يا عمر ، ادن يا عمير ، فدنا وقال : أنعموا صباحاً ، فقال النبي ﷺ : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام ، تحية أهل الجنة . ثم قال : ما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه . قال : فما بال السيف في عنقك ؟ قال : قبها الله من سيف ، وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال : أصدقني ما الذي جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك .

قال : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر ، فذكرتني أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لو لا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا ، فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني والله حائل بينك وبين ذلك .

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر النساء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام ، وساقني هذا المسار ، ثم تشهد شهادة الحق ، فقال رسول الله ﷺ : فهموا أخاكم في دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره . وأما صفوان فكان يقول : أبشروا بوعدة تأتكم الآن في أيام تنسىكم وقعة بدر . وكان يسأل الركبان عن عمير ، حتى أخبره راكب عن إسلامه ، فحلف صفوان أن لا يكلمه أبداً ، ولا ينفعه أبداً .

ورجع عمير إلى مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام فأسلم على يديه ناس كثير^(١) .

غزوة بنى قينقاع :

قدمنا بنود المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ مع اليهود . وقد كان حريصاً كل المحرص على تنفيذ ما جاء في هذه المعاهدة ، وفعلاً لم يأت من المسلمين ما يخالف حرفاً واحداً من نصوصها . ولكن اليهود الذين ملأوا تاريخهم بالغدر والخيانة ونكث العهود ، لم يلبثوا أن تمشوا مع طبائعهم القديمة ، وأخذوا في طريق الدس والمؤامرة والتحريض وإثارة القلق والاضطراب في صفوف المسلمين . وهناك مثالاً من ذلك :

(١) ابن هشام ١/٦٦٢ ، ٦٦٣ .

نموذج من مكيدة اليهود:

قال ابن إسحاق : مر شاس بن قيس - وكان شيخاً (يهودياً) قد عسا^(١) عظيم الكفر ، شديد الضغف على المسلمين ، شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم ، يتحدثون فيه ، فغاذه ما رأى من أقوتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد ، لا والله مالنا معهم إذا اجتمع مؤهلاً بها من قرار ، فأمر فتي شاباً من يهود كان معه ، فقال : اعمد إليهم ، فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث وما كان من قبله ، وأنشد لهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك ، وتنازعوا وتفاخروا ، حتى تواب رجلان من الحسين على الركب فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جذعة - يعني الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التي كانت بينهم - وغضب الفريقان جميعاً ، وقالوا : قد فعلنا موعدكم الظاهره - والظاهره : الحرة - السلاح السلاح ، فخرجوإليها وكانت تنشب الحرب .

بلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين ، حتى جاءهم فقال : يا عشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوا الجاهلية ، وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟

عرف القوم أنها نزعة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس^(٢) .

هذا نموذج مما كان اليهود يفعلونه ويحاولونه من إثارة القلاقل والتحرشات في المسلمين ، وإقامة العرائيل في سبيل الدعوة الإسلامية . وقد كان لهم خطط شتى في هذا السبيل ، كانوا يشنون الدعايات الكاذبة ، ويؤمنون وجه النهار ، ثم يكفرون آخراً ؛ ليزرعوا بذور الشكوك في

(١) عسا الشبح : كبر .

(٢) ابن هشام ٥٥٥/١ ، ٥٥٦ .

قلوب الضعفاء ، وكانوا يضيقون سبل المعيشة على من آمن إن كان لهم به ارتباط مالي ، فإن كان لهم عليه يتقاوضونه صباح مساء ، وإن كان له عليهم يأكلونه بالباطل ، ويكتنعون عن أدائه ، وكانوا يقولون : إنما كان علينا قرضك حينما كنت على دين آبائك ، فاما إذ صبوت فليس لك علينا من سبيل^(١) .

كانوا يفعلون كل ذلك قبل بدر ، على رغم المعاهدة التي عقدوها مع رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يصرون على كل ذلك ؟ حرصاً على رشدهم ، وعلى بسط الأمن والسلام في المنطقة .

بنو قينقاع ينقضون العهد:

لکنهم لما رأوا أن الله قد نصر المؤمنين نصراً مؤزراً في ميدان بدر ، وأنهم قد صارت لهم عزة وشوكه وهيبة في قلوب الأقاصي والأداني ، تميزت قدر غيظهم وكاشفوا بالشر . والعداوة ، وجاهروا بالبغى والأذى .

وكان أعظمهم حقداً وأكبرهم شرآ كعب بن الأشرف - وسيأتي ذكره - كما أن أشر طائفه من طوائفهم الثلاث هم يهود بني قينقاع ، كانوا يسكنون داخل المدينة - في حي باسمهم - وكانت صاغة وحدادين وصناع الظروف والأواني ، ولأجل هذه الحرف كانت قد توفرت لكل رجل منهم آلات الحرب ، وكان عدد المقاتلين فيهم سبعمائة ، وكانوا أشجع يهود المدينة ، وكانوا أول من نكث العهد والميثاق من اليهود .

فلما فتح الله لل المسلمين في بدر اشتتد طغيانهم ، وتوسعوا في تحرشاتهم واستفزازاتهم ، فكانوا يثرون الشغب ، وي تعرضون بالسخرية ، ويواجهون بالأذى كل من ورد سوقهم من المسلمين ، حتى أخذوا يتعرضون لنسائهم .

وعندما تفاقم أمرهم واشتد بغياتهم ، جمعهم رسول الله ﷺ ، فوضعهم ودعاهم إلى الرشد والمهدى ، وحذرهم مغبة البغي والعدوان ، ولكنهم ازدادوا في شرهم وغطرستهم .

روى أبو داود وغيره ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً

(١) ذكر المفسرون نماذج لفعالتهم هذه في تفسير سورة آل عمران وغيرها .

يوم بدر ، وقدم المدينة ، جمع اليهود في سوقبني قينقاع . فقال : يا معشر اليهود ، أسلعوا قبل أن يصيكم مثل ما أصاب قريشاً . قالوا : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قلت نفراً من قريش ، كانوا أغاراً لا يعرفون القتال ، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا . فأنزل الله تعالى : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُقْبَلُونَ وَتُحَشَّرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبَئْسَ الْمِهَادُ ۖ ۚ قَدْ كَانَ لَكُمْ يَوْمًا إِذْ فِتَنَنَا فِي التَّقْتَافَةِ تُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافَرَةٌ يَرْوَنَهُمْ مُشْتَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنَ وَاللَّهُ يُؤْتِدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّمَا تَكُونُ لَهُمْ لَذْهَبٌ لِأَذْلَلِ الْأَصْنَارِ﴾ (١٢:٣) .

كان معنى ما أجاب به بنو قينقاع هو الإعلان السافر بالحرب ، ولكن كظم النبي ﷺ غيظه ، وصبر المسلمين ، وأخذوا ينتظرون ما تمخض عنه الليلي .

وازداد اليهود – من بنو قينقاع – جراءة ، فقلما لبשו أن أثاروا في المدينة قلقاً واضطرباً ، وسعوا إلى حتفهم بظففهم ، وسدوا على أنفسهم أبواب الحياة .

روى ابن هشام عن أبي عون أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها ، فباعته في سوقبني قينقاع ، وجلست إلى صائغ ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبكت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها – وهي غافلة – فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله – وكان يهودياً – فشدت اليهود على المسلم قتلواه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع^(٢) .

الحصار ثم التسلیم ثم الجلاء:

وحينئذ عيل صبر رسول الله ﷺ ، فاستخلف على المدينة أبو لبابة بن عبد المنذر ، وأعطي لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب ، وسار بمنود الله إلى بنى قينقاع ، ولما رأوه تحصنوا في حصونهم ، فحاصرتهم أشد الحصار ، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة ٢ هـ ، ودام الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة ، وقدف الله في قلوبهم الرعب – الذي إذا

(١) سنن أبي داود مع عون المعبود ١١٥/٣ ، ابن هشام ٥٥٢/١ .

(٢) ابن هشام ٤٧/٢ ، ٤٨ .

أراد خذلان قوم وهزيمتهم أنزله عليهم وقدف في قلوبهم - فنزلوا على حكم رسول الله عليه السلام في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذرياتهم ، فأمر بهم فكتفوا .

وحيثند قام عبد الله بن أبي سلول بدوره التفاقي ، فألح على رسول الله عليه السلام أن يصدر عنهم عفواً ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالي - وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج - فأبطن عليه رسول الله عليه السلام ، فكرر ابن أبي مقالته ، فأعرض عنه ، فأدخل يده في جيب درعه ، فقال له رسول الله عليه السلام : أرسلني ، وغضب حتى رأوا لوجهه ظلاً ، ثم قال : ويحك ، أرسلني . ولكن المنافق مضى على إصراره ، وقال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي ، أربعين حاسرون وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحرى والأسود ، وتحصدتهم في غداة واحدة ؟ إني والله أمرؤ أخشى الدوائر .

وعامل رسول الله عليه السلام هذا المنافق - الذي لم يكن بيضى على إظهار إسلامه إلا نحو شهر واحد فحسب - عامله بالمراعاة ، فوهبهم له ، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها ، فخرجوا إلى أذرعات الشام ، فقل أن ليثوا فيها حتى هلك أكثرهم .

وقبض رسول الله عليه السلام منهم أموالهم ، فأخذ منها ثلاثة قسي ودرعين وثلاثة أسياف وثلاثة رماح ، وخمس غنائمهم ، وكان الذي تولى جمع الغنائم محمد بن مسلمة^(١) .

غزوة السويف:

بينا كان صفوان بن أمية واليهود والمنافقون يقومون بمؤامراتهم وعملياتهم ، كان أبو سفيان يفكر في عمل قليل المغام ظاهر الأثر ، يتعجل به ؛ ليحفظ مكانة قومه ، ويزيل ما لديهم من قوة ، وكان قد نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدًا ، فخرج في مائتى راكب ليبرىء بيته ، حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له نيب ، من المدينة على بريد أو نحوه ، ولكنه لم يجرؤ على مهاجمة المدينة جهارا ، فقام بعمل هو أشبه بأعمال القرصنة ، فإنه دخل في ضواحي المدينة في الليل مستخفيا تحت جناح الظلام ، فأتى حبي بن أخطب ، فاستفتح بابه ، فأتاى وخفف فانصرف إلى سلام بن مشكم - سيد بني النضير ، وصاحب كنزهم إذ ذاك ، فاستأذن عليه فأذن ، فقرأ وسقاء الخمر ، وبطئ له من خبر الناس ، ثم خرج أبو سفيان في عقب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبعث مفرزة منهم ، فأغارت على ناحية من المدينة يقال لها « العريض » ، فقطعوا

(١) زاد المعاد ٢/٧١ ، ٩١ ، ابن هشام ٤٧/٤٨ ، ٤٩ .

وأحرقوا هناك أسواراً من التخل ، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهم فقتلوها ، وفروا راجعين إلى مكة .

ولبلغ رسول الله ﷺ الخبر ، فسارع لمطاردة أبي سفيان وأصحابه ، ولكنهم فروا ببالغ السرعة ، وطروا سوياً كثيراً من أزواجهم ومتوناتهم يختفون به ، فتمكنا من الإفلات ، وبلغ رسول الله ﷺ إلى قرفة الكدر ، ثم انصرف راجعاً ، وحمل المسلمون ما طرحة الكفار من سويفهم ، وسموا هذه المباوحة بغزوة السويف . وقعت في ذي الحجة سنة ٢ هـ بعد بدر بشهرين ، واستعمل على المدينة في هذه الغزوة أبو لبابة بن عبد المنذر^(١) .

غزوة ذي أمر:

وهي أكبر حملة عسكرية قادها رسول الله ﷺ قبل معركة أحد ، قادها في المحرم سنة ٣ هـ .

وبسببها أن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ أن جماعاً كبيراً من بني ثعلبة ومحارب تجمعوا ، يربدون الإغارة على أطراف المدينة ، فدب رسول الله ﷺ المسلمين ، وخرج في أربعينات وخمسين مقاتلاً ما بين راكب وراجل ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان .

وفي أثناء الطريق قبضوا على رجل يقال له جبار من بني ثعلبة ، فأدخل على رسول الله ﷺ ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم ، فضممه إلى بلال ، وصار دليلاً لجيش المسلمين إلى أرض العدو .

وتفرق الأعداء في رؤوس الجبال حين سمعوا بقدوم جيش المدينة . أما النبي ﷺ فقد وصل بجيشه إلى مكان تجمعهم ، وهو الماء المسمى « بدبي أمر » فآقام هناك صفراً كله - من سنة ٣ هـ - أو قريباً من ذلك ، ليشعر الأعراب بقوة المسلمين ، ويستولي عليهم الرعب والرهبة ، ثم رجع إلى المدينة^(٢) .

(١) زاد المعاد ٩٠/٢ ، ٩١ ، ابن هشام ٤٤/٢ ، ٤٥ .

(٢) ابن هشام ٤٦/٢ ، زاد المعاد ٩١/٢ ، ويدركون أن محاولة اغتيال النبي ﷺ من قبل دعثور أو غورث الحاربي كانت في هذه الغزوة . والصحيح أنها في غير هذه الغزوة انظر صحيح البخاري ٥٩٣/٢ .

قتل كعب بن الأشرف:

كان كعب بن الأشرف من أشد اليهود حنقاً على الإسلام والمسلمين ، وإيذاء لرسول الله ﷺ ، وظاهراً بالدعوة إلى حربه .

كان من قبيلة طيء - من بني نهان - وأمه من بني النضير ، وكان غنياً مترفاً معروفاً بجماله في العرب ، شاعراً من شعرائها ، وكان حصنها في شرق جنوب المدينة في خلفيات ديار بني النضير .

ولما بلغه أول خبر عن انتصار المسلمين ، وقتل صناديد قريش في بدر قال : أحق هذا هؤلاء أشراف العرب ، وملوك الناس ، والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها .

ولما تأكد لديه الخبر ، انبعث عدو الله يهجو رسول الله ﷺ والمسلمين ، ويمدح عدوهم ، ويحرضهم عليهم ، ولم يرض بهذا القدر حتى ركب إلى قريش فنزل على المطلب بن أبي دعاعة السهمي ، وجعل ينشد الأشعار يذكر فيها على أصحاب القليب من قتل المشركين ، يشير بذلك حفائظهم ، ويدرك حقدتهم على النبي ﷺ ، ويدعوهم إلى حربه ، وعندما كان بمكة سائله أبو سفيان والمشركون : أديتنا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه ؟ وأي الفريقين أهدى سبيلاً ؟ فقال : أنت أهدي منهم سبيلاً ، وأفضل ، وفي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبَهَا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبِيلِ وَالظَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ أَمْتُوا سِبِيلًا﴾ (٤: ٥١) .

ثم رجع كعب إلى المدينة على تلك الحال ، وأخذ يشبب في أشعاره بنساء الصحابة ، ويؤذيهم بسلطته لسانه أشد الإيذاء .

وحينئذ قال رسول الله ﷺ : من لکعب بن الأشرف ؟ فإنه آذى الله ورسوله ، فانتدب له محمد بن مسلمة ، وعبد بن بشر ، وأبو نائلة - واسمها سلكان بن سلامة ، وهو آخر كعب من الرضاعة - والحارث بن أوس ، وأبو عبس بن حبر ، وكان قائداً لهذه المفرزة محمد بن مسلمة .

وتفيد الروايات في قتل كعب بن الأشرف أن رسول الله ﷺ لما قال : من لکعب بن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله ، فقام محمد بن مسلمة فقال : أنا يا رسول الله ، أحب أن أقتله ؟ قال : نعم . قال : فأذن لي أن أقول شيئاً . قال : قل .

فأناه محمد بن مسلمة ، فقال : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عنانا .
قال كعب : والله لعلمه .

قال محمد بن مسلمة : فإننا قد اتبعناه ، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير
شأنه ؟ وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين .
قال كعب : نعم أرهنوني .

قال ابن مسلمة : أي شيء تريده ؟
قال : أرهنوني نساءكم .

قال : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟
قال : فترهنوني أبناءكم .

قال : كيف نرهنك أبناءنا ، فيسب أحدهم ، فيقال : رهن بوسق أو وسقين . هذا عار
 علينا ، ولكننا نرهنك للأمة ، يعني السلاح .
فowاعده أن يأتيه .

وصنع أبو نائلة مثل ما صنع محمد بن مسلمة ، فقد جاء كعباً فتناشد معه أطراف الأشعار
سويعة ، ثم قال له : ويحك يا ابن الأشرف ، إني قد جئت حاجة أريد ذكرها لك فاكتم عنى .
قال كعب : أفعل .

قال أبو نائلة : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ، عادتنا العرب ، ورمتنا عن قوس واحدة ،
وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال ، وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا ،
ودار الحوار على نحو ما دار مع ابن مسلمة ، وقال أبو نائلة أثناء حديثه : إن معي أصحاباً لي على
مثل رأي ، وقد أردت أن آتيك بهم فتبיעهم وتحسن في ذلك .

وقد نجح ابن مسلمة وأبو نائلة في هذا الحوار إلى ما قصدا ، فإن كعب لن ينكر معهما
السلاح والأصحاب بعد هذا الحوار .

وفي ليلة مقمرة - ليلة الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٢٣ هـ - اجتمعت هذه المفرزة إلى

رسول الله ﷺ ، فشيّعهم إلى بقىع الغرقد ، ثم وجههم قائلًا : انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم ، ثم رجع إلى بيته ، وطرق بصلٍ ويناجي ربه .

وانتهت المفرزة إلى حصن كعب بن الأشرف ، فهتف به أبو نائلة ، فقام لينزل إليهم ، فقالت له امرأته – وكان حديث العهد بها : أين تخرج هذه الساعة ؟ أسمع صوتاً كأنه يقظره منه الدم .

قال كعب : إنما هو أخي محمد بن مسلمة ، ورضيعي أبو نائلة ، إن الكريم لو دعى إلى طعنة أجاب ، ثم خرج إليهم وهو متطيّب ينفع رأسه .

وقد كان أبو نائلة قال لأصحابه : إذا ما جاء فإني آخذ بشعره فأشمه ، فإذا رأيتوني استمكتت منه من رأسه فدونكم فاضربوه ، فلما نزل كعب إليهم تحدث معهم ساعة ، ثم قال أبو نائلة : هل لك يا ابن الأشرف أن تناشى إلى شعب العجوز فتحدث بقية ليتنا ؟ قال : إن شتم ، فخرجوها يباشون ، فقال أبو نائلة وهو في الطريق : ما رأيت كالليلة طيباً أعطر فقط ، وزهي كعب بما سمع ، فقال : عندي أعطر نساء العرب ، قال أبو نائلة : أناذن لي أن أشم رأسك ؟ قال : نعم فأدخل يده في رأسه فشمها وأشم أصحابه .

ثم مishi ساعة ثم قال : أعود ؟ قال كعب : نعم ، فعاد لثلها ، حتى اطمأن .

ثم مishi ساعة ثم قال : أعود ؟ قال : نعم ، فأدخل يده في رأسه ، فلما استمكن منه قال : دونكم عدو الله ، فاختلت عليه أسيافهم ، لكنها لم تغن شيئاً ، فأخذ محمد بن سلمة مغولاً فوضعه في ثنته ، ثم تحامل عليه حتى بلغ عانته ، فوقع عدو الله قتيلاً ، وكان قد صاح صيحة شديدة أفزعت من حوله ، فلم يبق حصن إلا أوقدت عليه النيران .

ورجعت المفرزة وقد أصيب الحارث بن أوس بذباب بعض سيف أصحابه فجرح ونزف الدم ، فلما بلغت المفرزة حرة العريض ، رأت أن الحارث ليس معهم فوققت ساعة حتى أثارهم يتبع آثارهم ، فاحتملوه ، حتى إذا بلغا بقىع الغرقد كبروا ، وسمع رسول الله ﷺ تكيرهم ، عرف أنهم قد قتلوا ، فكبير ، فلما انتهوا إليه قال : أفلحت الوجه ، قالوا : ووجهك

يا رسول الله . ورموا برأس الطاغية بين يديه ، فحمد الله على قتله ، وتغل على جرح الحارث
فيراً ، ولم يؤذ بعده^(١) .

ولما علمت اليهود بمصرع طاغيتها كعب بن الأشرف دب الرعب في قلوبهم العنيدة ،
وعلموا أن الرسول ﷺ لن يتوازن في استخدام القوة حين يرى أن النفع لا يجدي نفعاً لمن يريد
العبث بالأمن وإثارة الاضطرابات وعدم احترام المواثيق ، فلم يحرروا ساكناً لقتل طاغيهم ، بل
لزموا الهدوء ، وتظاهرموا بإيفاء العهود ، واستكأنوا ، وأسرعت الأفاعي إلى جحورها تخفيء فيها .

وهكذا تفرغ الرسول ﷺ - إلى حين - لمواجهة الأخطار التي كان يتوقع حدوثها خارج
المدينة ، وأصبح المسلمون وقد تخفف عنهم كثير من التأهب الداخلية التي كانوا يتوجسونها ،
ويشمون رائحتها بين آونة وأخرى .

* * *

غزوة بحران

وهي دورية قتال كبيرة ، قوامها ثلاثة مقاتل ، قادها الرسول ﷺ في شهر ربيع الآخر
سنة ٢ هـ إلى أرض يقال لها بحران - وهي معدن بالحجاز في ناحية الفرع - فأقام بها شهر ربيع
الآخر ثم جادى الأولى (من السنة الثالثة من الهجرة) ثم رجع إلى المدينة ، ولم يلق حرباً^(٢) .

سرية زيد بن حارثة

وهي آخر وأنجح دورية للقتال قام بها المسلمون قبل أحد، وقعت في جمادى
الآخيرة سنة ٣ هـ.

(١) أخذنا تفاصيل هذه الواقعة من ابن هشام ٥١/٢ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، وصحیح البخاری ٣٤١/١ ، ٤٢٥ ، ٥٧٧/٢ ، وسنن أبي داود مع عون المبود ٤٢/٢ ، ٤٣ ، وزاد المعاد ٩١/٢ .

(٢) ابن هشام ٥٠/٢ ، ٥١ ، وزاد المعاد ٩١/٢ ، واختلفت المصادر في تعين سبب هذه الغزوة فقيل : إن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ أن بني سليم يخشدون قوات كبيرة لغزو المدينة أو أطراها ، وقيل : بل خرج يريد قريشاً ، وهذا الثاني هو الذي ذكره ابن هشام واعتبره ابن القم - حتى لم يذكر الأول رأساً - وهو المرجو ، وذلك لأن ديار بني سليم لم تكن بناحية الفرع ، وإنما هي في نجد بعيدة عن ناحية الفرع .

وتفصيلها أن قريشاً بقيت بعد بدر يساورها القلق والاضطراب ، وجاء الصيف واقترب موسم رحلتها إلى الشام ، فأخذها هم آخر

قال صفوان بن أمية لقريش - وهو الذي انتخبه قريش في هذا العام لقيادة تجارتها إلى الشام - : إن محدداً وصحبه عوروا علينا متجرنا ، فما ندري كيف نصنع بأصحابه ، وهم لا ييرعون الساحل ؟ وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندري أين نسلك ؟ وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا ، فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف ، وإلى الحبشة في الشتاء .

ودارت المناقشة حول هذا الموضوع ، فقال الأسود بن عبد المطلب لصفوان : تنكب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق - وهي طريق طويلة جداً تحرق نحنا إلى الشام ، وتتر في شرق المدينة على بعد كبير منها ، وكانت قريش تجهل هذه الطريق كل الجهل - فأشار الأسود بن عبد المطلب على صفوان أن يتبع فرات بن حيان - منبني بكر بن وائل - دليلاً له ، يكون رائده في هذه الرحلة .

وخرجت غير قريش يقودها صفوان بن أمية ، آخذة الطريق الجديدة ، إلا أن أبناء هذه القافلة وخطة سيرها طارت إلى المدينة . وذلك أن سليمان بن النعمان - وكان قد أسلم - اجتمع في مجلس شرب - وذلك قبل تحريم الخمر - مع نعيم بن مسعود الأشعجي - ولم يكن أسلم إذ ذاك - فلما أخذت الخمر من نعيم تحدث بالتفصيل عن قضية العير وخطة سيرها ، فأسرع سليمان بن النبي عليه السلام يروي له القصة .

وجهز رسول الله عليه السلام لوقته حملة قوامها مائة راكب في قيادة زيد بن حارثة الكلبي ، وأسرع زيد حتى دهم القافلة بغنة - على حين غرة - وهي تنزل على ماء في أرض نجد يقال له قردة - بالفتح فالسكنون - فاستولى عليها كلها ، ولم يكن من صفوان ومن معه من حرس القافلة إلا الفرار بدون أي مقاومة .

وأسر المسلمون دليل القافلة - فرات بن حيان ، وقيل : ورجلين غيره - وحملوا غنيمة كبيرة من الأواني والفضة كانت تحملها القافلة ، قدرت قيمتها بمائة ألف ، قسم رسول الله عليه السلام هذه الغنيمة على أفراد السرية بعدأخذ الخمس ، وأسلم فرات بن حيان على يديه عليه السلام^(١) .

(١) ابن هشام ٥٠/٢ ، ٥١ ، فقه السيرة ص ١٩٠ ، رحمة للعلميين ٢١٩/٢ .

وكان مأساة شديدة ونكبة كبيرة أصابت قريشاً بعد بدر ، اشتد لها قلق قريش ، وزادتها هماً وحزناً . ولم يبق أمامها إلا طريقان ، إما أن تنتفع عن غطرستها وكبرياتها ، وتأخذ طريق المودعة والمصالحة مع المسلمين ، أو تقوم بحرب شاملة تعيد لها مجدها التليد وعزها القديم ، وتقضي على قوات المسلمين ، بحيث لا يبقى لهم سيطرة على هذا ولا ذاك ، وقد اختارت مكة الطريق الثانية ، فازداد إصرارها على المطالبة بالثأر ، والتهيؤ للقاء المسلمين في تعبئة كاملة ، وتصميماً على الغزو في ديارهم ، فكان ذلك وما سبق من أحداث التهديد القوي لمعركة أحد .

غزوة أحد

استعداد قريش لمعركة ناقمة:

كانت مكة تحرق غيظاً على المسلمين مما أصابها في معركة بدر من مأساة المزية وقتل الصناديد والأشراف ، وكانت تجيش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر ، حتى إن قريشاً كانوا قد منعوا البكاء على قتلامهم في بدر ، ومنعوا من الاستعجال في فداء الأسرى ؛ حتى لا يتفطن المسلمون مدى مأساتهم وحزنهم .

وعلى إثر غزوة بدر اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين ، تشفي غيظها ، وتروي غلة حقدتها ، وأخذت في الاستعداد للخوض في مثل هذه المعركة .

وكان عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وأبو سفيان بن حرب ، وعبد الله بن أبي ربيعة أكثر زعماء قريش نشاطاً وتحمساً لخوض المعركة .

وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التي كان قد نجا بها أبو سفيان والتي كانت سبباً لمعركة بدر ، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم : يا معشر قريش ، إن محمدًا قد وتركم وقتل خياركم ، فأعيننا بهذا المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأراً ، فأجابوا لذلك ، فباعوها ، وكانت ألف بعير ، والمال خمسين ألف دينار ، وفي ذلك أنزل الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْهَقُونَ أَنَّوَالَهُمْ لِيَصُدُّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَ هَاشِمَ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦: ٨) .

ثم فتحوا باب التطوع لكل من أحب المساهمة في غزو المسلمين من الأحابيش وكناة وأهل تهامة ، وأخذوا بذلك أنواعاً من طريق التحرير ، حتى إن صفوان بن أمية أغنى أبا عزة الشاعر – الذي كان قد أسر في بدر فمنْ عليه رسول الله ﷺ ، وأطلق سراحه بغير فدية ، وأخذ منه

العهد بأن لا يقوم ضده - أغراه على أن يقوم بتحريض القبائل ضد المسلمين ، وعاهده أنه إن رجع عن الغزوة حيا يغنيه ، وإنما يكفل بناته ، فقام أبو عزة بتحريض القبائل بأشعاره التي كانت تذكي حفائظهم ، كما اختاروا شاعراً آخر - مسافع بن عبد مناف الجمحي - لنفس المهمة .

وكان أبو سفيان أشد تأليباً على المسلمين بعد ما رجع عن غزوة السويف خائباً لم ينل ما في نفسه ، بل أضاع مقداراً كبيراً من ثرواته في هذه الغزوة .

وزاد الطينة بلة - أو زاد النار إذكاء ، إن صح هذا التعبير - ما أصاب قريشاً أخيراً في سرية زيد بن حارثة من الخسارة الفادحة التي قسمت فقار اقتصادها ، وزودها من الحزن واهم ما لا يقدر قدره ، وحينئذ زادت سرعة قريش في استعدادها للخوض في معركة تفصل بينهم وبين المسلمين .

قام جيش قريش وقيادته:

ولما استدارت السنة كانت مكة قد استكملت عدتها ، واجتمع إليها من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والخلفاء والأحابيش ، ورأى قادة قريش أن يستصحبوا معهم النساء ، حتى يكون ذلك أبلغ في استهانة الرجال دون أن تصاب حرمتهم وأعراضهم ، وكان عدد هذه النسوة خمس عشرة امرأة .

وكان سلاح التقليات في هذا الجيش ثلاثة آلاف بعير ، ومن سلاح الفرسان مائتا فرس^(١) جنبوها طول الطريق ، وكان من سلاح الوقاية سبعمائة درع .

وكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان بن حرب ، وقيادة الفرسان إلى خالد بن الوليد ، يعاونه عكرمة بن أبي جهل ، أما اللواء فكان إلى بنى عبد الدار .

جيش مكة يتحرك:

تحرك الجيش المكي بعد هذا الإعداد الشام نحو المدينة ، وكانت الثارات القديمة والغيط الكامن يشعل البغضاء في القلوب ، ويشف عما سوف يقع من قتال مريض .

(١) زاد المعاد ٩٢/٢ وهو المعروف ، وفي فتح الباري مائة فرس ٣٤٦/٧ .

الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو:

وكان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية ، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبي ﷺ ، ضمنها جميع تفاصيل الجيش .

وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة ، وجد في السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة - التي تبلغ مسافتها إلى خمسة كيلو متراً - في ثلاثة أيام ، وسلم الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء .

قرأ الرسالة على النبي ﷺ أباً بن كعب ، فأمره بالكتاب ، وعاد مسرعاً إلى المدينة ، وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار .

استعداد المسلمين للطوارئ:

وظلت المدينة في حالة استثاره عام ، لا يفارق رجالها السلاح ، حتى وهم في الصلوة ، استعداداً للطوارئ .

وقدّمت مفرزة من الأنصار - فيهم سعد بن معاذ ، وأبي حضير ، وسعد بن عبادة - بحراسة رسول الله ﷺ ، فكانت بيتون على بابه وعليهم السلاح .

وقدّمت على مداخل المدينة وأنقابها مفرزات تحرسها ، خوفاً من أن يؤخذوا على غرة .

وقدّمت دوريات من المسلمين - لاكتشاف تحركات العدو - تتوجّل حول الطرق التي يحتمل أن يسلكها المشركون للإغارة على المسلمين .

الجيش المكي إلى أسوار المدينة:

وتبع جيش مكة سيره على الطريق الغربية الرئيسية المعتادة ، ولما وصل إلى الأبواء اقتربت هند بنت عتبة - زوج أبي سفيان - ببني قبر أم رسول الله ﷺ ، بيد أن قادة الجيش رفضوا هذا الطلب ، وحضرّوا من العوّاقب الوخيمة التي تلتحقهم لو فتحوا هذا الباب .

ثم واصل جيش مكة سيره حتى اقترب من المدينة ، فسلك وادي العقيق ثم انحرف منه إلى ذات العين ، حتى نزل قريباً بجبل أحد في مكان يقال له عينين ، في بطن السبخة ، من قناة على

شفير الوادي – الذي يقع شمالي المدينة – فعسکر هناك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ثلاثة من الهجرة .

المجلس الاستشاري لأخذ خطة الدفاع:

ونقلت استخبارات المدينة أخبار جيش مكة خبراً بعد خبر ، حتى الخبر الأخير عن معسکره ، وحيثند عقد رسول الله ﷺ مجلساً استشارياً عسكرياً أعلى ، تبادل فيه الرأي لاختيار الموقف ، وأخبرهم عن رؤيا رأها ، قال : إني قد رأيت والله خيراً ، رأيت بقراً يذبح ، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ، ورأيت أنني أدخلت يدي في درع حصينة ، وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون ، وتأول الثلامة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته ، وتأول الدرع بالمدينة .

ثم قدم رأيه إلى أصحابه أن لا يخرجوا من المدينة، وأن يتحصنوا بها، فإن أقام المشركون بمعسکرهم أقاموا بشر مقام وبغير جدو ، وإن دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة ، والنساء من فوق البيوت ، وكان هذا هو الرأي . ووافقه على هذا الرأي عبد الله بن أبي بن سلول – رأس المنافقين – وكان قد حضر المجلس بصفته أحد زعماء الخزرج . ويبدو أن موافقته لهذا الرأي لم تكن لأجل أن هذا هو الموقف الصحيح من حيث الوجهة العسكرية ، بل ليتمكن من التباعد عن القتال دون أن يعلم بذلك أحد ، وشاء الله أن يفتضح هو وأصحابه – لأول مرة – أئم المسلمين ، وينكشف عنهم الغطاء الذي كان كفراً ونفاقهم يكمن وراءه ، ويعرف المسلمون في أخرج ساعتهم على الأفاعي التي كانت تتحرك تحت ملابسهم وأكامهم .

فقد بادر جماعة من فضلاء الصحابة من فاته الخروج يوم بدر ، فأشاروا على النبي ﷺ بالخروج ، وألحوا عليه في ذلك ، حتى قال قائلهم : يا رسول الله ، كنا نتمنى هذا اليوم وندعوا الله ، فقد ساقه إلينا وقرب المسير ، اخرج إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جئنا عنهم .

وكان في مقدمة هؤلاء المترحمين حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ – الذي كان قد أدى فرنداً سيفه في معركة بدر – فقد قال للنبي ﷺ : والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة^(١) .

(١) السيرة الخلبية ١٤/٢

ورفض رسول الله ﷺ رأيه أمام رأي الأغلبية ، واستقر الرأي على الخروج من المدينة ، واللقاء في الميدان السافر .

تكتيب الجيش الإسلامي وخروجه إلى ساحة القتال:

ثم صل النبي ﷺ الناس يوم الجمعة ، فوعظهم وأمرهم بالحمد والاجتهاد ، وأخبر أن لهم النصر بما صبروا ، وأمرهم بالتيؤ لعدوهم ، ففرح الناس بذلك .

ثم صل الناس العصر ، وقد حشدوا وحضر أهل العوالى ، ثم دخل بيته ، ومعه أصحابه أبو بكر وعمر ، فعمماه وألبساه ، فتدجج بسلامه ، وظاهر بين درعين (أي لبس درعاً فوق درع) ، وتقلد السيف ، ثم خرج على الناس .

وكان الناس يتظرون خروجه ، وقد قال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير : استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج ، فردوا الأمر إليه ، فندموا جميعاً على ما صنعوا ، فلما خرج قالوا له : يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك ، فاصنع ما شئت ، إن أحبيت أن تكث بالمدينة فافعل . فقال رسول الله ﷺ : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته - وهي الدرع - أن يضعها ، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه^(١) .

وقسم النبي ﷺ جيشه إلى ثلاثة كتائب :

(١) كتيبة المهاجرين ، وأعطي لواءها مصعب بن عمير العبدري .

(٢) كتيبة الأوس من الأنصار ، وأعطي لواءها أسيد بن حضير .

(٣) كتيبة الخزرج من الأنصار ، وأعطي لواءها الحباب بن المنذر .

وكان الجيش متالفاً من ألف مقاتل ، فيهم مائة دارع وخمسون فارساً^(٢) ، وقيل لم يكن من الفرسان أحد ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة بن بقي في المدينة ، وأذن بالرحيل ، فتحرك الجيش نحو الشمال ، وخرج السعدان أمام النبي ﷺ يدعوان دارعين .

(١) رواه أحمد والنمساني والحاكم وابن إسحاق .

(٢) قال ابن القم في المدى ٢، ٩٢ . وقال ابن حجر : هو غلط بين . وقد جزم موسى بن عقبة بأنه لم يكن معهم في أحد شيء من الخيول ، ووقع عند الواقدي كان معهم فرس لرسول الله ﷺ وفرس لأبي بردة (فتح الباري ٣٥٠/٧) .

ولما جاوز ثنية الوداع رأى كتيبة حسنة التسلیح منفردة عن سواد الجيش ، فسأل عنها ، فأخبر أئمّة اليهود من حلفاء الخزرج^(١) ، يرغبون المساهمة في القتال ضد المشركين ، فسأل : هل أسلموا ؟ فقالوا : لا . فألى أن يستعين بأهل الكفر على أهل الشرك .

استعراض الجيش :

وعندما وصل إلى مقام يقال له « الشیخان » استعرض جيشه ، فرد من استنصره ولم يره مطيقاً للقتال ، وكان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأسامة بن زيد ، وأسید بن ظہیر ، وزید بن ثابت ، وزید بن أرقم ، وعراة بن أوس ، وعمرو بن حزم ، وأبو سعيد الخدري ، وزید بن حرثة الأنصاري ، وسعد بن حبة ، ويدرك في هؤلاء البراء بن عازب ، لكن حدیثه في البخاري يدل على شهوده القتال ذلك اليوم .

وأجاز رافع بن خديج ، وسمة بن جنديب على صغر سنها ، وذلك أن رافع بن خديج كان ماهراً في رماية النبل فأجازه ، فقال سمرة : أنا أقوى من رافع . أنا أصرعه ، فلما أخبر رسول الله ﷺ بذلك أمرها أن يتصارعا أمامه ، فتصارعا ، فصرع سمرة رافعاً ، فأجازه أيضاً .

المبيت بين أحد والمدينة :

وفي هذا المكان أدركهم المساء ، فصل المغرب ، ثم صل العشاء ، وبات هنالك ، وانتخب خمسين رجلاً لحراسة المعسكر يتجلبون حوله ، وكان قائدتهم محمد بن مسلمة الأنصاري ، بطل سرية كعب بن الأشرف ، وتولى ذكوان بن عبد قيس حراسة النبي ﷺ خاصة .

تمرد عبدالله بن أبي وأصحابه :

وقبل طلوع الفجر بقليل أدخل ، حتى إذا كان بالشوط صل الفجر ، وكان بمقربة جداً من العدو فقد كان يراهم ويرونوه ، وهناك تمرد عبد الله بن أبي المناق ، فانسحب بنحو ثلث العسكرية - ثلاثة مقاتل - قائلاً : ما ندرى علام نقتل أنفسنا ؟ ومتظاهراً بالاحتجاج بأن الرسول ﷺ ترك رأيه وأطاع غيره .

(١) روى ذلك ابن سعد وفيه أنهم من بني قينقاع (٣٤/٢) ومعلوم أن بني قينقاع كان قد تم إجلاؤهم عقب بدر .

ولا شك أن سبب هذا الانزعال لم يكن هو ما أبداه هذا المنافق من رفض رسول الله ﷺ ، وإنما السبب رأيه ، وإنما لم يكن لسيره مع الجيش النبوى إلى هذا المكان معنى . بل لو كان هذا هو السبب لانزعال عن الجيش منذ بداية سيره ، بل كان هدفه الرئيسي من هذا الترد – في ذلك الظرف الدقيق – أن يحدث البلبلة والاضطراب في جيش المسلمين على مرأى وسمع من عدوهم ، حتى ينحاز عامة الجيش عن النبي ﷺ ، وتهار معنويات من يبقى معه ، بينما يتशجع العدو ، وتعلو همته لرؤية هذا المنظر ، فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبي ﷺ وأصحابه الخلصين ، ويصحو بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق وأصحابه .

وكاد المنافق ينجح في تحقيق بعض ما كان يهدف إليه ، فقد همت طائفتان – بنو حارثة من الأوس ، وبنو سلمة من المخزرج – أن تفشل ، ولكن الله تولاهما ، فثبتتا بعد ما سرى فيما الاضطراب وهما بالرجوع والانسحاب ، وعنهما يقول الله تعالى : **﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَيْنِ مِنْكُمْ أَنْ تَقْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلَتَوَلَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾** (٣ : ١٢٢) .

وحاول عبد الله بن حرام – والد جابر بن عبد الله – تذكير هؤلاء المنافقين بواجبهم في هذا الظرف الدقيق ، فتبعهم وهو يوبخهم ويخصهم على الرجوع ، ويقول تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع . فرجع عنهم عبد الله بن حرام قائلاً : أبعدكم الله ، أعداء الله ، فسيغنى الله عنكم نبيه .

وفي هؤلاء المنافقين يقول الله تعالى : **﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَأْفَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذْفَعُوا قَاتِلًا لَا تَبْعَنُكُمْ هُمْ لِنَكْفُرِيَوْمَيْدَ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَنِ يَقُولُونَ إِنَّفَوْهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾** (٣ : ١٦٧) .

بقية الجيش الإسلامي إلى أحد:

وبعد هذا الترد والانسحاب قام النبي ﷺ بقيادة الجيش – وهم سبعمائة مقاتل – ليواصل سيره نحو العدو ، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين أحد في مناطق كثيرة ، فقال : « من رجل يخرج بنا على القوم من كتب (أي من قريب) من طريق لا يمر بنا عليهم » ؟ فقال أبو خيثمة : أنا يا رسول الله ، ثم اختار طريقاً قصيراً إلى أحد يمر بحرة بنى حارثة ومزارعهم ، تاركاً جيش المشركين إلى الغرب .

ومر الجيش في هذا الطريق بجأط مربع بن قيظي – وكان منافقاً ضرير البصر – فلما أحس بالجيش قام يختو التراب في وجوه المسلمين ، ويقول : لا أحل لك أن تدخل حائطي إن كنت رسول الله فابتدره القوم ليقتلوه ، فقال : « لا تقتلوه فهذا أعمى القلب أعمى البصر » .

ونفذ رسول الله ﷺ ، حتى نزل الشعب من جبل أحد في عدوة الوادي ، فعسكر مجشه مستقبلاً المدينة ، وجاءلاً ظهره إلى هضاب جبل أحد ، وعلى هذا صار جيش العدو فاصلاً بين المسلمين وبين المدينة .

خطة الدفاع :

وهناك عبأ رسول الله ﷺ جيشه ، وهياهم صفوفاً للقتال ، فانتخب منهم فصيلة من الرماة الماهرين ، قوامها خمسون مقاتلاً ، وأعطي قيادتها لعبد الله بن جبير بن النعمان الأنصاري الأوسي البدرى ، وأمرهم بالمركز على جبل يقع على الضفة الجنوبية من وادي قناه – وعرف فيما بعد بجبل الرماة – جنوب شرق معسكر المسلمين ، على بعد حوالي مائة وخمسين متراً من مقر الجيش الإسلامي .

والهدف من ذلك هو ما أبداه رسول الله ﷺ في كلماته التي ألقاها إلى هؤلاء الرماة فقد قال لقائدهم : « انضج الخيل عنا بالليل ، لا يأتون من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فثبت مكانك لا نؤتين من قبلك »^(١) . ثم قال للرماء : « احموا ظهورنا ، فإن رأيتمنا نقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمنا قد غنمنا فلا تشركونا »^(٢) ، وفي رواية البخاري أنه قال : « إن رأيتمنا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمنا هزمنا القوم ووطأناهم ، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم »^(٣) .

وبتعيين هذه الفصيلة في الجبل مع هذه الأوامر العسكرية الشديدة سد رسول الله ﷺ الثلمة الوحيدة التي كان يمكن لفرسان المشركين أن يتسللوا من ورائها إلى صفوف المسلمين ، ويقوموا بحركات الالتفاف وعملية التطويق .

(١) ابن هشام ٦٥/٢ ، ٦٦ .

(٢) روى ذلك أحمد والطبراني والحاكم عن ابن عباس . انظر فتح الباري ٧/٣٥٠ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ١/٤٢٦ .

أما بقية الجيش فجعل على الميمنة المنذر بن عمرو ، وجعل على الميسرة الزبير بن العوام ، يسانده المقداد بن الأسود ، وكان إلى الزبير مهمة الصمود في وجه فرسان خالد بن الوليد ، وجعل في مقدمة الصفوف نخبة ممتازة من شجعان المسلمين ورجالاتهم المشهورين بالتجدة والبسالة ، والذين يوزنون بالألاف .

ولقد كانت خطة حكيمة ودقيقة جداً ، تجلى فيها عبرية قيادة النبي ﷺ العسكرية – وأنه لا يمكن لأي قائد مهما تقدمت كفاءته أن يضع خطة أدق وأحكم من هذا – فقد احتل أفضل موضع من ميدان المعركة ، مع أنه نزل فيه بعد العدو ، فقد حى ظهره ويئنه بارتفاعات الجبل ، وحى ميسرته وظهره – حين يختم القتال – بسد الثلمة الوحيدة التي كانت توجد في جانب الجيش الإسلامي ، واختار لمعسكره موضعًا مرتفعًا يحتمي به – إذا نزلت الهزيمة بال المسلمين – ولا ينجيء إلى الفرار ، حتى يتعرض للوقوع في قبضة الأعداء المطاردين وأسرهم ، ويلحق مع ذلك خسائر فادحة إلى أعدائه إن أرادوا احتلال معسكره وتقدموا إليه ، وأجلأ أعداءه إلى قبول موضع منخفض يصعب عليهم جداً أن يحصلوا على شيء من فوائد الفتح إن كانت الغلبة لهم ، ويصعب عليهم الإفلات من المسلمين المطاردين إن كانت الغلبة للمسلمين ، كما أنه عرض النقص العددي في رجاله باختيار نخبة ممتازة من أصحابه الشجعان البارزين .

وهكذا تمت تعبئة الجيش النبوى صباح يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ١٣ هـ .

الرسول - ﷺ - ينفث روح البسالة في الجيش:

ونهى الرسول ﷺ الناس عن الأخذ في القتال حتى يأمرهم ، وظاهر بين درعين ، وحرض أصحابه على القتال ، وحضهم على المصايرة والجلاد عند اللقاء ، وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة في أصحابه ، حتى جرد سيفاً باتراً ونادى أصحابه : « من يأخذ هذا السيف بمحقه ؟ » فقام إليه رجال يأخذوه – منهم علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وعمر بن الخطاب – حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة ، فقال : وما محقه يا رسول الله ؟ قال : « أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحني ». قال : أنا آخذه بمحقه يا رسول الله ، فأعطيه إياه .

وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يخال عند الحرب ، وكانت له عصابة حمراء إذا انتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت . فلما أخذ السيف عصب رأسه بتلك العصابة ، وجعل

يتبختر بين الصفين ، وحيثند قال رسول الله ﷺ : « إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الوطن » .

تعينة الجيش المكي:

أما المشركون فعبأوا جيشهم حسب نظام الصفوف ، فكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان صخر بن حرب الذي تمكر في قلب الجيش ، وجعلوا على الميمنة خالد بن الوليد – وكان إذ ذاك مشركاً – وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، وعلى المشاة صفوان بن أمية ، وعلى رماة البيل عبد الله بن أبي ربيعة .

أما اللواء فكان إلى مفرزة من بني عبد الدار ، وقد كان ذلك منصبهم منذ أن اقسمت بنو عبد مناف المناصب التي ورثوها من قصي بن كلاب – كاً أسلفنا في أوائل المقالة – وكان لا يمكن لأحد أن ينزعهم في ذلك ، تقيداً بالتقاليد التي ورثوها كابرًا عن كابر ، بيد أن القائد العام – أبي سفيان – ذكرهم بما أصاب قريشاً يوم بدر حين أسر حامل لواءهم النصر بن الحارث ، وقال لهم ليستفرز غضبهم ويثير حميتهم : يا بني عبد الدار ، قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتي الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإنما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه .

ونجح أبو سفيان في هدفه ، فقد غضب بنو عبد الدار لقول أبي سفيان أشد الغضب ، وهموا به وتوعدوه ، وقالوا له : نحن نسلم إليك لواءنا ؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع . وقد ثبتوا عند احتدام المعركة حتى أيدوا عن بكرة أبיהם .

مناورات سياسية من قبل قريش:

وقبيل نشوب المعركة حاولت قريش إيقاع الفرقه والتزاع داخل صفوف المسلمين . فقد أرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم : « خلوا بيننا وبين ابن عمنا فنتصرف عنكم ، فلا حاجة لنا إلى قتالكم » ولكن أين هذه المحاولة أمام الإيمان الذي لا تقوم له الجبال ، فقد رد عليه الأنصار ردًا عنيفاً ، وأسمعواه ما يكره .

واقربت ساعة الصفر ، وتدانت الفتتان ، فقامت قريش بمحاولة أخرى لنفس الغرض ،

فقد خرج إليهم عميل خائن يسمى أبي عامر الفاسق - واسمه عبد عمرو بن صيفي ، وكان يسمى الراهب ، فساه رسول الله ﷺ الفاسق ، وكان رأس الأوس في الجاهلية . فلما جاء الإسلام شرق به ، وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة ، فخرج من المدينة ، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ﷺ ويحضهم على قتاله ، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ، ومالوا معه - فكان أول من خرج إلى المسلمين في الأحابيش وبعدان أهل مكة ، فنادى قومه وتعرف عليهم ، وقال : يا معاشر الأوس ، أنا أبو عامر . فقالوا : لا أنعم الله بك عينا يا فاسق . فقال : لقد أصاب قومي بعدي شر . (ولما بدأ القتال قاتلهم قتالاً شديداً وراضخهم بالحجارة) . وهكذا فشلت قريش في محاولتها الثانية للتفرقة بين صفوف أهل الإيمان ويدل عملهم هذا على ما كان يسيطر عليهم من خوف المسلمين وهببهم ، مع كثريهم وتفوقهم في العدد والعدة .

جهود نسوة قريش في التحمس:

وقامت نسوة قريش بنصيبيهن من المشاركة في المعركة ، تقدوهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ، فكن يتجلولن في الصفوف ، ويضربن بالدفوف ، يستهضن الرجال ، ويحرضن على القتال ، ويزلن حفائظ الأبطال ، ويزحركن مشاعر أهل الطعن والضراب والنضال ، فتارة يخاطبن أهل اللواء فيقلن :

وَهَا بْنِي عَبْد الدَّار وَهَا جَمَّةُ الْأَدْبَار
ضَرِبًا بِكُلِّ بَتَار

وتارة يأزّن قومهن على القتال وينشدن :

لوا نعائق وإن تقبـلـوا وفـرشـ المـارـقـ فـراقـ غـيرـ وامـقـ أو تدبـرـوا نـفـارـقـ

أول وقود المعركة:

وتقارب الجمعان ، وتدانت الفتتان ، وبدأت مراحل القتال ، وكان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري ، وكان من أشجع فرسان قريش ، يسميه المسلمون كبش الكتبية ، خرج وهو راكب على جمل ، يدعو إلى المبارزة ، فأحجم عنه الناس لفطر

شجاعته ، ولكن تقدم إليه الزبير ، ولم يمهله بل وثب إليه وثبة الليث ، حتى صار معه على جمله ، ثم اقتحم به الأرض ، فألقاه عنه وذبحه بيسيه .

ورأى النبي ﷺ هذا الصراع الرائع ، فكثير وكثير المسلمين ، وأثنى على الزبير ، وقال في حقه : إن لكل نبي حوارياً ، وحواري الزبير^(١) .

ثقل المعركة حول اللواء وإيادة حملته:

ثم اندلعت نيران المعركة ، واشتد القتال بين الفريقين في كل نقطة من نقاط الميدان ، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين . فقد تعاقب بنو عبد الدار لحمل اللواء بعد قتل قائدهم طلحة بن أبي طلحة ، فحمله أخوه أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة ، وتقدم للقتال وهو يقول : إن على أهل اللواء حقاً أن تخضب الصعدة أو تندقاً فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب ، فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كفه ، حتى وصلت إلى سرتها ، فباتت رئته .

ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبي طلحة ، فرمي سعد بن أبي وقاص باسم أصحاب حنجرته ، فأدلى لسانه ومات لحيته . وقيل : بل خرج أبو سعد يدعوا إلى البراز ، فتقدما إليه علي بن أبي طالب ، فاختلفا ضربتين ، فضربه علي فقتله .

ثم رفع اللواء مسافع بن طلحة بن أبي طلحة ، فرمي عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح باسم قتله ، فحمل اللواء بعده أخوه كلاب بن طلحة بن أبي طلحة ، فانقض عليه الزبير بن العوام وقاتلته حتى قتله ، ثم حمل اللواء أخوهما الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة ، فطعنه طلحة بن عبد الله طعنة قضت على حياته ، وقيل : بل رماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح باسم قضى عليه .

هؤلاء ستة نفر من بيت واحد ، بيت أبي طلحة عبد الله بن عثمان بن عبد الدار ، قتلوا جميعاً حول لواء المشركين ، ثم حمله من بنى عبد الدار أرطاة بن شرحبيل ، فقتلته علي بن أبي طالب ، وقيل : حمزة بن عبد المطلب ، ثم حمله شريح بن قارظ قتله قرمان – وكان منافقاً قاتل مع المسلمين حمية ، لا عن الإسلام – ثم حمله أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدري ، فقتلته قرمان أيضاً ، ثم حمله ولد لشريحبيل بن هاشم العبدري قتله قرمان أيضاً .

(١) ذكره صاحب السيرة الحلبية ١٨/٢ .

فهؤلاء عشرة منبني عبد الدار - من حملة اللواء - أبيدوا عن آخرهم ، ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء ، فتقدم غلام لهم حبشي - اسمه صواب - فحمل اللواء ، وأبدي من صنوف الشجاعة والثبات ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قتلوا قبله ، فقد قاتل حتى قطعت يده ، فترك على اللواء بصدره وعنقه ؛ لثلا يسقط حتى قتل وهو يقول : اللهم هل أعذرت ، يعني هل أعذرت؟^(١) .

وبعد أن قتل هذا الغلام - صواب - سقط اللواء على الأرض ، ولم يبق أحد يحمله ، فبقي ساقطاً .

القتال في بقية النقاط:

ويبنا كان ثقل المعركة ، يدور حول لواء المشركين ، كان القتال الممرين يجري في سائر نقاط المعركة ، وكانت روح الإيمان قد سادت صنوف المسلمين ، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان تتقطع أمامه السدود ، وهم يقولون «أمت ، أمت» ، كان ذلك شعاراً لهم يوم أحد .

أقبل أبو دجانة معلمًا بعصابته الحمراء ، آخذًا بسيف رسول الله ﷺ ، مصمماً على أداء حقه ، فقاتل حتى أمعن في الناس ، وجعل لا يلقى مشركاً إلا قتلها ، وأخذ يهدّ صنوف المشركين هدّاً . قال الزبير بن العوام : وجدت في نفسي حين سالت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه ، وأعطيه أبي دجانة ، وقلت أي في نفسي : أنا ابن صافية عمته ، ومن قريش ، وقد قمت إليه ، فسألته إيه قبله فاته إيه وتركني ، والله لأنظرون ما يصنع؟ فاتبعته فآخرج عصابة له حمراء ، فغضب بها رأسه ، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت ، فخرج وهو يقول :

أنا الذي عاهمدني خليلى ونحن بالسفح لدى التخييل
أن لا أقوم الدهر في الكيول^(٢) أضرب بسيف الله والرسول
 يجعل لا يلقى أحداً إلا قتلها ، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحاً إلا ذفف عليه ،
 يجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا ، فاختلفا

(١) كان بلسانه لكنه يقلب الذال إلى الراء .

(٢) الكيول : اخر الصنوف . يعني أنه لا يقاتل في مؤخرة الصنوف . بل يظل أبداً في المقدمة .

ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجابة بدرقه ، فعضت بسيفه ، فضربه أبو دجابة فقتله^(١) .

ثم أمعن أبو دجابة في هد الصفوف ، حتى خلص إلى قائد نسوة قريش ، وهو لا يدرى بها . قال أبو دجابة : رأيت إنساناً يخمش الناس خمساً شديداً فصمدت له ، فلما حملت عليه السيف ولول ، فإذا امرأة ، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة .

وكان تلك المرأة هي هند بنت عتبة . قال الزبير بن العوام رأيت أبا دجابة قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل السيف عنها ، فقلت : الله ورسوله أعلم^(٢) .

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتال الليوث المهاجمة ، فقد اندفع إلى قلب جيش المشركين يغامر مغامرة منقطعة النظير ، ينكشف عنه الأبطال كـ تطوير الأوراق أمام الرياح الهوجاء ، فبالإضافة إلى مشاركته الفعالة في إبادة حاملي لواء المشركين ؛ فعل الأفاعيل بأبطالهم الآخرين حتى صرع وهو في مقدمة المبرزين ، ولكن لا كما تصرع الأبطال وجهاً لوجه في ميدان القتال ، وإنما كما يغتال الكرام في حلك الظلام .

نصرع أسد الله حمزة بن عبدالمطلب:

يقول قاتل حمزة وحشى بن حرب : كنت غلاماً لجبيـر بن مطعم ، وكان عمـه طعـيمـةـ بن عـدىـ قد أصـيبـ يومـ بـدرـ ، فـلـمـ سـارـتـ قـريـشـ إـلـىـ أـحـدـ قـالـ لـيـ جـبـيـرـ : إـنـكـ إـنـ قـتـلـتـ حـمـزـةـ عمـ مـحـمـدـ بـعـيـ فـأـنـتـ عـتـيقـ . قـالـ : فـخـرـجـتـ مـعـ النـاسـ - وـكـنـتـ رـجـلـ حـبـشـياًـ أـقـذـفـ بالـحـرـبةـ قـذـفـ الـحـبـشـةـ قـلـمـاًـ أـخـطـىـ بـهـ شـيـئـاًـ - فـلـمـ التـقـىـ النـاسـ خـرـجـتـ أـنـظـرـ حـمـزـةـ وـأـتـبـصـرـ ، حتى رـأـيـهـ في عـرـضـ النـاسـ مـثـلـ الـجـمـلـ الـأـورـقـ ، يـهـدـ النـاسـ هـدـاـ ماـ يـقـومـ لـهـ شـيـئـ ، فـوـالـلـهـ إـنـ لـأـتـبـاهـ لـهـ أـرـيـدـهـ ، فـأـسـتـرـ مـنـهـ بـشـجـرـةـ أـوـ حـجـرـ لـيـدـنـوـ مـنـيـ ، إـذـ تـقـدـمـنـيـ إـلـيـ سـبـاعـ بـنـ عـبـدـ الـعـزـىـ ، فـلـمـ رـآـهـ حـمـزـةـ قـالـ لـهـ : هـلـمـ إـلـيـ يـاـ بـنـ مـقـطـعـةـ الـبـظـورـ - وـكـانـ أـمـهـ خـتـانـةـ - قـالـ : فـضـرـبـهـ ضـرـبةـ كـلـمـاـ أـخـطـأـ رـأـسـهـ^(٣) .

قال : وهـزـزـتـ حـرـبـتـيـ ، حتى إـذـ رـضـيـتـ مـنـهـ دـفـعـتـهـ إـلـيـهـ ، فـوـقـعـتـ فـيـ ثـنـةـ - أـحـشـائـهـ - حتى خـرـجـتـ مـنـ بـيـنـ رـجـلـيـ ، وـذـهـبـ لـيـنـوـ نـحـويـ فـغـلـبـ ، وـتـرـكـهـ وـإـيـاـهـ حـتـىـ مـاتـ ، ثم أـتـيـهـ فـأـخـذـتـ

(١) ابن هشام ٦٨/٢ ، ٦٩ .

(٢) نفس المصدر ٦٩/٢ .

(٣) أـخـطـأـ رـأـسـهـ ، يـقـالـ عـنـ الـبـالـغـةـ فـيـ الـإـصـابـةـ .

حربي ثم رجعت إلى العسكر ، فقعدت فيه ، ولم يكن لي بغیره حاجة ، وإنما قتلته لأعشق ، فلما
قدمت مكة عنتت^(١).

السيطرة على الموقف:

وبلغم هذه الخسارة الفادحة التي لحقت بال المسلمين بقتل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب ، ظل المسلمون مسيطرين على الموقف كلهم ، فقد قاتل يومئذ أبو بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمر وطلحة بن عبد الله ، وعبد الله بن جحش ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وسعد بن الربيع ، وأنس بن النضر وأمثالهم قاتلاً فلأ عزائم المشركين ، وفتت في أعضادهم .

من أحضان المرأة إلى مقاومة السيف والدرقة:

وكان من الأبطال المغامرين يومئذ حنظلة بن أبي عامر ، وأبو عامر هذا هو الراهب الذي سمي بالفاسق ، والذي مضى ذكره قريباً – كان حنظلة حديث عهد بالعرس ، فلما سمع هواتف الحرب – وهو على امرأته – انخلع من أحضانها ، وقام من فوره إلى المجاهد ، فلما التقى بجيش المشركين في ساحة القتال ، أخذ يشق الصنوف ، حتى خلص إلى قائد المشركين أبي سفيان صخر بن حرب ، وكاد يقضى عليه لو لا أن أباً شهادة ، فقد شد على أبي سفيان ، فلما استعلاه وتمكن منه رأه شداد بن الأسود فضربه حتى قتله .

نصيب فصيلة الرماة في المعركة:

وكانت لفصيلة التي عينها الرسول عليه السلام على جبل الرماة يد يضارء في إدارة دفة القتال لصالح الجيش الإسلامي ، فقد هجم فرسان مكة بقيادة خالد بن الوليد يسانده أبو عامر الفاسق ، ثلاث مرات ليحطموا جناح الجيش الإسلامي الأيسر ، حتى يتسللوا إلى ظهور المسلمين ، فيحدثوا البلبلة والارتكاك في صفوفهم ، وينزلوا عليهم هزيمة ساحقة ، ولكن هؤلاء الرماة رشقواهم بالنبل حتى فشلت هجماتهم الثلاث^(٢).

(١) ابن هشام ٦٩/٢ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧١ ، صحيح البخاري ٥٨٣/٢ – أسلم وحتى هذا بعد معركة الطائف ، وقتل مسيلمة الكتاب بجريته تلك ، وشهد البرموك ضد الرومان .

(٢) انظر فتح الباري ٣٤٦/٧ .

الهزيمة تنزل بالمرتكبين :

هكذا دارت رحى الحرب الزبون ، وظل الجيش الإسلامي الصغير مسيطرًا على الموقف كله ، حتى خارت عزائم أبطال المشركين ، وأخذت صفوهم تتبدد عن اليدين والشمال والأمام والخلف ، كان ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم ، لا بضع مئات قلائل ، وظهر المسلمون في أعلى صور الشجاعة واليقين .

وبعد أن بذلت قريش أقصى جهدها لسد هجوم المسلمين أحسست بالعجز والخور ، وانكسرت همتها – حتى لم يجرئ أحد منها أن يدنو من لوائها ، الذي سقط بعد مقتل صواب ، فيحمله ليدور حوله القتال – فأخذت في الانسحاب ، ولجأت إلى الفرار ، ونسخت ما كانت تتحدث به في نفوسها منأخذ الثأر والوتر والانتقام ، وإعادة العز والمجد والوقار .

قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم وعده ، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لا شئ فيها . روى عبد الله بن الزبير عن أبيه أنه قال : والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم – سوق – هند بن عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ، ما دون أخذهن قليل ولا كثير .. إلخ^(١) وفي حديث البراء بن عازب عند البخاري في الصحيح : فلما لقيناهم هربوا ، حتى رأيت النساء يستخدمن في الجبل ، يرفعن سوقيهن قد بدلت خلاخيهن^(٢) . وتبع المسلمين المشركين ، يضعون فهم السلاح ، وينتهبون الغنائم .

غلطة الرماة الفظيعة :

وبينا كان الجيش الإسلامي الصغير يسجل مرة أخرى نصراً ساحقاً على مكة لم يكن أقل روعة من النصر الذي اكتسبه يوم بدر ، وقعت من أغلبية فصيلة الرماة غلطة فظيعة قلت الوضع تماماً ، وأدت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بال المسلمين ، وكادت تكون سبباً في مقتل النبي ﷺ ، وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم ، والهيبة التي كانوا يتمتعون بها بعد بدر .

لقد أسلفنا نصوص الأوامر الشديدة التي أصدرها رسول الله ﷺ إلى هؤلاء الرماة ، بلزومهم موقفهم من الجبل في كل حال من النصر أو الهزيمة ، لكن على رغم هذه الأوامر

(١) ابن هشام ٧٧/٢ .

(٢) صحيح البخاري ٥٧٩/٢ .

المشدة ؛ لما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين يتهدون غنائم العدو ، غلت أثارة من حب الدنيا ، فقال بعضهم لبعض : الغنيمة ، الغنيمة ، ظهر أصحابكم ، فما تنتظرون ؟

أما قائدهم عبد الله بن جبير ، فقد ذكرهم أوامر الرسول عليه السلام وقال : أنسىتم ما قال لكم رسول الله عليه السلام ؟

ولكن الأغلبية الساحقة لم تلق لهذا التذكير بالاً ، وقالت : والله لنأتين الناس فلنصلين من الغنيمة^(١) . ثم غادر أربعون رجلاً من هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل ، والتحقوا بسواد الجيش ، ليشاركونه في جمع الغنائم ، وهكذا خلت ظهور المسلمين ، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة من أصحابه ، التزموا مواقعهم ، مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يعادوا .

خالد بن الوليد يقوم بخطبة تطويق الجيش الإسلامي :

وانهزم خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية ، فاستدار بسرعة خاطفة ، حتى وصل إلى مؤخرة الجيش الإسلامي ، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه ، ثم انقض على المسلمين من خلفهم ، وصاح فرسانه صيحة عرف المشركون المهزومون بالتطور الجديد ، فانقلبوا على المسلمين ، وأسرعت امرأة منهم - وهي عمّرة بنت علامة الحارثية - فرفعت لواء المشركون المطروح على التراب ، فالتلف حوله المشركون ولاروا به ، وتنادى بعضهم بعضاً ، حتى اجتمعوا على المسلمين ، وثبتوا للقتال ، وأحيط المسلمين من الأمام والخلف ، ووقعوا بين شقي الرحى .

موقف الرسول الباسل إزاء عمل التطويق:

وكان رسول الله عليه السلام حينئذ في مفرزة صغيرة - تسعه نفر من أصحابه^(٢) - في مؤخرة المسلمين^(٣) ، كان يرقب بمحاللة المسلمين ومطاردتهم المشركون ؛ إذ بوغت بفرسان خالد مياغة كاملة ، فكان أمامه طريقان ، إما أن ينجو - بالسرعة - بنفسه وب أصحابه التسعة إلى ملجاً مأمون ، ويترك جيشه المطوق إلى مصيره المقدور ، وإما أن يخاطر بنفسه فيدعوا أصحابه ليجمعهم حوله ، ويتحذّل بهم جهة قوية يشق بها الطريق لجيشه المطوق إلى هضاب أحد .

(١) روى ذلك البخاري من حديث البراء بن عازب / ٤٢٦ .

(٢) في صحيح مسلم (١٠٧/٢) أنه عليه السلام أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش .

(٣) يدل عليه قوله تعالى : والرسول يدعوك في آخرك . (٣ : ١٥٣) .

وهناك تجلت عبرية الرسول ﷺ وشجاعته المنقطعة النظير ، فقد رفع صوته ينادي أصحابه : عباد الله ، وهو يعرف أن المشركين سوف يسمعون صوته قبل أن يسمعه المسلمون ، ولكن ناداهم ودعاهم مخاطراً بنفسه في هذا الظرف الدقيق .

وفعلاً فقد علم به المشركون فخلصوا إليه ، قبل أن يصل إليه المسلمون .

تعدد المسلمين في الموقف:

أما المسلمين فلما وقعوا في التطويق طار صواب طائفة منهم ، فلم تكن تهمها إلا نفسها ، فقد أخذت طريق الفرار ، وترك ساحة القتال ، وهي لا تدري ماذا وراءها ؟ وفر من هذه الطائفة بعضهم إلى المدينة حتى دخلها ، وانطلق بعضهم إلى فوق الجبل ، ورجعت طائفة أخرى فاختلطت بالشركين ، والتبس العسكريان ، فلم يتميزوا ، فوقع القتل في المسلمين بعضهم من بعض . روى البخاري عن عائشة قالت : لما كان يوم أحد هزم المشركون هزيمة بينة ، فصاح إبليس : أي عباد الله أخركم – أي احترزوا من ورائكم – فرجعت أولاهم ، فاجتلت هي وأخراهم ، فبصر حذيفة ، فإذا هو بأبيه اليه ، فقال : أي عباد الله أبي أبي . قالت : فوالله ما احتجزوا عنه حتى قتلوا ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم ، قال عروة : فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله^(١) .

وهذه الطائفة حدث داخل صفوفها ارتياك شديد ، وعمتها الفوضى ، وتأه منها الكثيرون ، لا يدرؤن أين يتوجهون ، وبينما هم كذلك إذ سمعوا صائحاً يصيح : إن محمدأ قد قتل . فطارت بقية صوابهم ، وانهارت الروح المعنوية ، أو كادت تهار في نفوس كثير من أفرادها ، فتوقف من توقف منهم عن القتال ، وألقى بأسلحته مستكيناً ، وفك آخرون في الاتصال بعد الله بن أبي رأس الماقفين – ليأخذ لهم الأمان من أبي سفيان .

ومر بهؤلاء أنس بن النضر ، وقد ألقوا بأيديهم فقال : ما تنتظرون ؟ فقالوا : قتل رسول الله ﷺ ، قال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ، ثم

(١) صحيح البخاري ١/٥٣٩ ، ٢/٥٨١ ، ٧/٣٥١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ وذكر غير البخاري أن رسول الله ﷺ أراد أن يديه . فقال حذيفة : تصدق بيته على المسلمين ، فزاد ذلك حذيفة خيراً عند النبي ﷺ . انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله التجدي ص ٢٤٦ .

قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعني المسلمين ، وأبiera إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين ، ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ ، فقال : أين يا أبا عمر ؟ فقال أنس : واهما لربيع الجنة يا سعد ، إني أجده دون أحد ، ثم مضى قاتل القوم حتى قتل ، فما عرف حتى عرفته أخته – بعد نهاية المعركة – ببناته ، وبه بعض وثمانون ما بين طعنة برعم ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم^(١) .

ونادى ثابت بن الدحداح قومه ، فقال : يا عشر الأنصار ، إن كان محمد قد قتل ، فإن الله حي لا يموت ، قاتلوا على دينكم ، فإن الله مظفركم وناصركم . فنهض إليه نفر من الأنصار ، فحمل بهم على كبيبة فرسان خالد ، فما زال يقاتلهم ، حتى قتله خالد بالبرعم ، وقتل أصحابه^(٢) .

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار ، وهو يتsshط في دمه ، فقال : يا فلان أشرعت أن محمداً قد قتل ؟ فقال الأنصاري : إن كان محمد قد قتل فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم^(٣) .

ويمثل هذا الاستبسال والتشجيع عادت إلى جنود المسلمين روحهم المعنوية ، ورجع إليهم رشدهم وصوابهم ، فعدلوا عن فكرة الاستسلام أو الاتصال بابن أبي ، وأخذدوا سلاحهم ، يهاجمون تيارات المشركين ، وهم يحاولون شق الطريق إلى مقر القيادة ، وقدبلغهم أن خير مقتل النبي عليه السلام كذب خلق ، فزادهم ذلك قوة على قوتهم ، فنجحوا في الإفلات عن التطويق ، وفي التجمع حول مركز منيع بعد أن باشروا القتال المميت ، وجالدوا بضراوة بالغة .

وكانت هناك طائفة ثلاثة لم يكن بهم إلا رسول الله عليه السلام . فقد كرت هذه الطائفة إلى رسول الله عليه السلام ، وعمل التطويق في بدايته ، وفي مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبي طالب وغيرهم رضي الله عنهم كانوا في مقدمة المقاتلين ، فلما أحسوا بالخطر على ذاته الشريفة – عليه الصلوة والسلام والتحيية – صاروا في مقدمة المدافعين .

(١) زاد المعاد ٩٣/٢ ، ٩٦ صحيح البخاري ٥٧٩/٢ .

(٢) السيرة الحلبية ٢٢/٢ .

(٣) زاد المعاد ٩٦/٢ .

احتدام القتال حول رسول الله - ﷺ -

وبينا كانت تلك الطوائف تتلقى أواصر التطويق ، تطحن بين شفي رحى المشركين ، كان العراق محتملاً حول رسول الله ﷺ ، وقد ذكرنا أن المشركين لما بدأوا عمل التطويق لم يكن مع رسول الله ﷺ إلا تسعه نفر ، فلما نادى المسلمين : هلم إلَّا ، أنا رسول الله ، سمع صوته المشركون وعرفوه ، فكروا إليه وهاجموه ، وما لوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من جيش المسلمين ، فجرى بين المشركين وبين هؤلاء النفر التسعة من الصحابة عراك عنيف ، ظهرت فيه نوادر الحب والتغافل والبسالة والبطولة .

روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما رهقه قال : من يردهم عنا وله الجنة ؟ أو هو رفيقي في الجنة ؟ فتقدم رجل من الأنصار قاتل حتى قتل ، ثم رهقه أيضاً فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبه - أي القرشيين - ما أنصفنا أصحابنا^(١) .

وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السكن ، قاتل حتى أثبته الجراحة فسقط^(٢) .

أخرج ساعة في حياة الرسول - ﷺ -

وبعد سقوط بن السكن بقي الرسول ﷺ في القرشيين فقط ، ففي الصحيحين عن أبي عثمان قال : لم يبق مع النبي ﷺ في بعض تلك الأيام التي يقاتل فيها غير طلحة بن عبيد الله وسعد (بن أبي وقاص)^(٣) وكانت أخرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله ﷺ ، وفرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين ، ولم يتوان المشركون في انتهاز تلك الفرصة ، فقد رکزوا حملتهم على النبي ﷺ وطعموا في القضاء عليه ، رماه عتبة بن أبي وقاص بالحجارة فوق لشهه ، وأصييit رباعيته البيني السفل ، وكلمت شفته السفل ، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهري ، فشجه في

(١) صحيح مسلم ، باب غزوة أحد ٢/١٠٧ .

(٢) وبعد لحظة فاءت إلى رسول الله ﷺ هبة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة ، وأدنوه من رسول الله ﷺ ، فوسد قدمه ، فمات وحده على قدم رسول الله ﷺ . (ابن هشام ٢/٨١) .

(٣) صحيح البخاري ١/٥٢٧ ، ٢/٥٨١ .

جبته . وجاء فارس عنيد هو عبد الله بن قمئة فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة ، شكا لأجلها أكثر من شهر ، إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين ، ثم ضرب على وجنته ضربة أخرى عنيفة كالأولى ، حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، وقال : خذها وأنا ابن قمئة . فقال رسول الله ﷺ له وهو يمسح الدم عن وجهه : أقمأك الله ^(١) .

وفي الصحيح أنه ﷺ كسرت رباعيته ، وشج في رأسه ، فجعل يسلت الدم عنه ويقول : كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم ، وكسرروا رباعيته وهو يدعوه إلى الله ، فأنزل الله عز وجل : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يُؤْتَ بَعْثَةً أَوْ يُعَذِّبَ بَعْثَمٍ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ^(٢) .

وفي رواية الطبراني أنه قال يومئذ : اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسوله ، ثم مكث ساعة ثم قال : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ^(٣) . وكذا في صحيح مسلم أنه كان يقول : رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ^(٤) ، وفي الشفاء للقاضي عياض أنه قال : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون ^(٥) .

ولا شك أن المشركين كانوا يهدفون القضاء على حياة رسول الله ﷺ ، إلا أن القرشيين سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله قاما ببطولة نادرة ، وقاتلوا بيسالة منقطعة النظير ، حتى لم يتركا – وهما اثنان فحسب – سبيلاً إلى نجاح المشركين في هدفهم ، وكانا من أمهر رماة العرب ، فتناضلا حتى أجهضا مفرزة المشركين عن رسول الله ﷺ .

فأما سعد بن أبي وقاص ، فقد نزل له رسول الله ﷺ كناته ، وقال : ارم فداك أبي وأمي ^(٦) . ويدل على مدى كفاءته أن النبي ﷺ لم يجمع أبويه لأحد غير سعد ^(٧) .

(١) وقد سمع الله دعاء رسوله ﷺ ، فعن ابن عائذ أن ابن قمئة انصرف إلى أهلها ، فخرج إلى غنمها ، فوافاها على ذروة جبل ، فدخل فيها ، فشد عليه تيسها فطمحه أرداه من شاهق الجبل فقطع (فتح الباري ٣٧٣/٧) وعند الطبراني فسلط الله عليه تيس جبل ، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة (فتح الباري ٣٦٦/٧) .

(٢) صحيح البخاري ٥٨٢/٢ ، وصحيف مسلم ١٠٨/٢ .

(٣) فتح الباري ٣٧٣/٧ .

(٤) صحيح مسلم باب غزوة أحد ١٠٨/٢ .

(٥) كتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ١/٨١ .

(٦-٧) صحيح البخاري ١/٤٠٧ ، ٥٨٠/٢ ، ٥٨١ .

وأما طلحة بن عبيد الله فقد روى النسائي عن جابر قصة تجمع المشركين حول رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار . قال جابر : فأدرك المشركون رسول الله ﷺ فقال : من للقوم ، فقال طلحة : أنا ، ثم ذكر جابر تقدم الأنصار ، وقتلهم واحداً بعد واحداً بنحو ما ذكرنا من رواية مسلم ، فلما قتل الأنصار كلهم تقدم طلحة ، قال جابر : ثم قاتل طلحة قاتل الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصبعه ، فقال : حَسْنٌ ، فقال النبي ﷺ لو قلت : بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون ، قال : ثم رد الله المشركين^(١) . ووقع عند الحاكم في الإكيليل أنه جرح يوم أحد تسعاً وثلاثين ، أو خمساً وثلاثين ، وشلت إصبعه ، أي السبابة والتي تليها^(٢) .

وروى البخاري عن قيس بن أبي حازم قال : رأيت يد طلحة شلاء ، وقى بها النبي ﷺ يوم أحد^(٣) .

وروى الترمذى أن النبي ﷺ قال فيه يومئذ : « من ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله »^(٤) .

وروى أبو داود الطيالسى عن عائشة قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذلك اليوم كله لطلحة^(٥) .

وقال فيه أبو بكر أيضاً :

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت لك الجنان وبؤأت المها العينا^(٦)
وفي ذلك الظرف الدقيق والساعة الحرجة أنزل الله نصره بالغيب ، ففي الصحيحين عن سعد . قال : رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ، ومعه رجالان يقاتلان عنه ، عليهما ثياب بيضاء ، كأشد القتال ، ما رأيتما قبل ولا بعد . وفي رواية يعني جبريل وميكائيل^(٧) .

(١) فتح الباري ٣٦١/٧ ، وسنن النسائي ٥٢/٢ ، ٥٣ .

(٢) نفس المصدر الأول ٣٦١/٧ .

(٣) صحيح البخاري ١/٥٢٧ ، ٥٨١/٢ .

(٤) مشكاة المصايف ٢/٥٦٦ ، ابن هشام ٨٦/٢ .

(٥) فتح الباري ٣٦١/٧ .

(٦) مختصر تاريخ دمشق ٧/٨٢ (من هامش شرح شذور الذهب ص ١١٤) .

(٧) صحيح البخاري ٢/٥٨٠ .

بداية تجمع الصحابة حول الرسول - ﷺ :

وَقَعَتْ هَذِهِ كُلُّهَا بِسُرْعَةٍ هَائِلَةٍ فِي لَحْظَاتٍ خَاطِفَةٍ . وَإِلَّا فَالْمُصْطَفَوْنَ الْأُخْيَارُ مِنْ صَحَابَتِهِ عليه السلام - الَّذِينَ كَانُوا فِي مُقْدِمَةِ صَفَوفِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ الْقِتَالِ - لَمْ يَكَادُوا يَرَوْنَ تَطْوِيرَ الْمَوْقِفِ ، أَوْ يَسْمَعُونَ صَوْتَهُ عليه السلام ، حَتَّى أَسْرَعُوهُ إِلَيْهِ ؛ لَثَلَاثًا يَصْلِي إِلَيْهِ شَيْءٌ يَكْرَهُونَهُ ، إِلَّا أَنَّهُمْ وَصَلَوْا وَقَدْ لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ عليه السلام مَا لَقِيَ مِنَ الْجَرَاحَاتِ - وَسَتَةً مِنَ الْأَنْصَارِ قُدِّمُوا قَتْلًا ، وَالسَّابِعُ قَدْ أَثْبَتَهُ الْجَرَاحَاتُ ، وَسَعْدُ وَطَلْحَةُ يَكَافِحُانَ أَشَدَّ الْكَفَاحِ - فَلَمَّا وَصَلَوْا أَقَامُوا حَوْلَهُ سِيَاجًا مِنْ أَجْسَادِهِمْ وَسَلَاحِهِمْ ، وَبِالْغَوَّا فِي وَقَايَتِهِ مِنْ ضَرَبَاتِ الْعُدُوِّ ، وَرَدَ هَجْمَاتِهِمْ . وَكَانَ أُولُوا مِنْ رَجُعٍ إِلَيْهِ هُوَ ثَانِيهِ فِي الْغَارِ أَبُو بَكْرُ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

رَوَى ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ أَبُو بَكْرُ الصَّدِيقِ لِمَا كَانَ يَوْمُ أَحَدٍ انْصَرَفَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَنِ النَّبِيِّ عليه السلام ، فَكَنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَاءَ إِلَيْهِ النَّبِيِّ عليه السلام ، فَرَأَيْتُ بَيْنَ يَدِيهِ رَجُلًا يَقْاتِلُ عَنْهُ وَيَحْمِيهِ ، قَلْتُ : كَنْ طَلْحَةُ ، فَدَاكَ أَبِي وأُمِّي ، كَنْ طَلْحَةُ ، فَدَاكَ أَبِي وأُمِّي ، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ أَدْرِكَنِي أَبُو عَبِيدَةَ بْنَ الْجَرَاحِ ، وَإِذَا هُوَ يَشْتَدُّ كَأْنَهُ طَيْرٌ ، حَتَّى لَحْقَنِي ، فَدَفَعْتُنَا إِلَى النَّبِيِّ عليه السلام ، فَإِذَا طَلْحَةُ بَيْنَ يَدِيهِ صَرِيعًا ، فَقَالَ النَّبِيُّ عليه السلام : « دُونُكُمْ أَخَاكمْ فَقَدْ أَوْجَبْ » ، وَقَدْ رَمَيَ النَّبِيُّ عليه السلام فِي وَجْهِهِ ، حَتَّى غَابَتْ حَلْقَتَانِ مِنْ حَلْقِ الْمَعْفَرِ فِي وَجْهِهِ ، فَذَهَبَ لِأَنْزَعَهُمَا عَنِ النَّبِيِّ عليه السلام فَقَالَ أَبُو عَبِيدَةَ : نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ يَا أَبَا بَكْرٍ إِلَّا تَرَكْتَنِي . قَالَ : فَأَخْذُ بِهِ ، فَجَعَلَ يَنْضَضُهُ كَرَاهِيَّةً أَنْ يَؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ عليه السلام . ثُمَّ اسْتَلَ السَّهْمَ بِفِيهِ ، فَنَدَرَتْ ثَيْنَةُ أَبِي عَبِيدَةَ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : ثُمَّ ذَهَبْتُ لِأَخْذِ الْآخِرِ ، فَقَالَ أَبُو عَبِيدَةَ : نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ يَا أَبَا بَكْرٍ إِلَّا تَرَكْتَنِي ، قَالَ فَأَخْذَهُ فَجَعَلَ يَنْضَضُهُ حَتَّى اسْتَلَهُ ، فَنَدَرَتْ ثَيْنَةُ أَبِي عَبِيدَةَ الْآخِرِ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عليه السلام : « دُونُكُمْ أَخَاكمْ ، فَقَدْ أَوْجَبْ » ، قَالَ : فَأَقْبَلْنَا عَلَى طَلْحَةَ نَعَالِجُهُ . وَقَدْ أَصَابَهُ بَضْعُ عَشَرَةَ ضَرْبَةً^(۱) . (وَهَذَا أَيْضًا يَدُلُّ عَلَى مَدِى كَفَاءَةِ طَلْحَةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي الْكَفَاحِ وَالنَّضَالِ) .

وَخَلَالَ هَذِهِ الْلَّحْظَاتِ الْحَرِجَةِ اجْتَمَعَ حَوْلَ النَّبِيِّ عليه السلام عَصَابَةٌ مِنْ أَبْطَالِ الْمُسْلِمِينَ ، مِنْهُمْ أَبُو دِجَانَةَ ، وَمَصْعُبُ بْنُ عَمِيرٍ ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَسَهْلُ بْنُ حَنْيَفَ ، وَمَالِكُ بْنُ سَنَانِ وَالَّذِي أَنْتَدَ الْخَدْرِيَّ . وَأَمْ عَمَّارَةَ نَسِيَّةَ بِنَتَ كَعْبَ الْمَازِنِيَّةَ ، وَقَتَادَةَ بْنَ النَّعْمَانَ ، وَعُمَرَ بْنَ الْخَطَابِ ، وَحَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْعَةَ ، وَسَهْلَ بْنَ حَنْيَفَ ، وَأَبُو طَلْحَةَ .

(۱) زَادُ المَعَادِ ۹۵/۲

تضاعف ضغط المشركين:

كما كان عدد المشركين يتضاعف كل آن ، وبالطبع فقد اشتدت حملاتهم ، وزاد ضغطهم على المسلمين ، حتى سقط رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها ، فجحشت ركبته ، وأخذ علي بيده ، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً ، وقال نافع بن جبير : سمعت رجلاً من المهاجرين يقول : شهدت أحداً ، فنظرت إلى النيل يأتي من كل ناحية رسول الله ﷺ وسطها ، كل ذلك يصرف عنه ، ولقد رأيت عبد الله ابن شهاب الزهري يقول يومئذ : دلوني على محمد ، فلا نجوت إن نجا ، ورسول الله ﷺ إلى جنبه ، ما معه أحد ، ثم جاوزه ، فعاته في ذلك صفوان ، فقال : والله ما رأيته ، أحلف بالله أنه أنه منا من نوع . فخرجنا أربعة . فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله ، فلم يخلص إلى ذلك^(١) .

البطولات النادرة:

وقام المسلمون ببطولات نادرة وتضحيات رائعة ، لم يعرف لها التاريخ نظيراً . كان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ ، ويرفع صدره ليقيه عن سهام العدو . قال أنس : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ ، وأبو طلحة بين يديه محبوب عليه بمحفة له ، وكان رجلاً رامياً شديداً التزع ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة ، وكان الرجل يمر معه مجعهة من النبل ، فيقول : « انثراها لأبي طلحة » . قال : ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم ، فيقول أبو طلحة : بأبي أنت وأمي لا تشرف يصييك سهم من سهام القوم ، نحرى دون نحرك^(٢) .

وعنه أيضاً قال : كان أبو طلحة يترس مع النبي ﷺ بترس واحد ، وكان أبو طلحة حسن الرمي ، فكان إذا رمى تشرف النبي ﷺ ، فينظر إلى موقع نبله^(٣) .

وقام أبو دجانة أمام رسول الله ﷺ ، فترس عليه بظهره ، والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك . وبع حاطب بن أبي بلتعة عتبة بن أبي وقاص - الذي كسر الرباعية الشريفة - فضربه

(١) زاد المعاد ٩٧/٢ .

(٢) صحيح البخاري ٥٨١/٢ .

(٣) نفس المصدر ٤٠٦/١ .

بالسيف حتى طرح رأسه ، ثم أخذ فرسه وسيفه . وكان سعد بن أبي وقاص شديد الخرص على قتل أخيه – عتبة هذا – إلا أنه لم يظفر به ، بل ظفر به حاطب .

وكان سهل بن حنيف أحد الرماة الأبطال ، بايع رسول الله ﷺ على الموت ، ثم قام بدور فعال في ذود المشركين .

وكان رسول الله ﷺ يياشر الرماية بنفسه ، فعن قتادة بن العمأن أن رسول الله ﷺ رمى عن قوسه حتى اندقت سيتيها^(١) ، فأخذها قتادة بن العمأن ، فكانت عنده ، وأصبيت يومئذ عينه حتى وقتت على وجنته ، فردها رسول الله ﷺ بيده ، فكانت أحسن عينيه وأحدما .

وقاتل عبد الرحمن بن عوف حتى أصيب فوه يومئذ فهم ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر ، أصابه بعضها في رجله فخرج .

وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته ﷺ حتى أنقاذه . فقال : « مجاه » . فقال : والله لا أمجأ أبداً . ثم أذير يقاتل ، فقال النبي ﷺ : « من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا . قُتِلَ شهيداً » .

وقاتلت أم عمارة ، فاعتبرضت لابن قمئة في أناس من المسلمين ، فضررها ابن قمئة على عاتقها ضربة تركت جرحاً أجوف ، وضررت هي ابن قمئة عدة ضربات بسيفها ، لكن كانت عليه درعان فنجا ، وبقيت أم عمارة حتى أصابها اثنا عشر جرحاً .

وقاتل مصعب بن عمير بضراوة باللغة ، يدافع عن النبي ﷺ هجوم ابن قمئة وأصحابه ، وكان اللواء بيده ، فضرر بيده على يده اليمنى حتى قطعت ، فأأخذ اللواء بيده اليسرى ، وصمد في وجوه الكفار حتى قطعت يده اليسرى ، ثم برر عليه بصدره وعنقه حتى قتل ، وكان الذي قتلته هو ابن قمئة ، وهو يظنه رسول الله – لشبهه به – فانصرف ابن قمئة إلى المشركين ، وصاح : إن محمداً قد قتل^(٢) .

إشاعة مقتل النبي - ﷺ - وأثره على المعركة:

ولم يمض على هذا الصياغ دقائق ، حتى شاع خبر مقتل النبي ﷺ في المشركين والمسلمين

(١) سيتها : ما عطف من طرفها .

(٢) انظر ابن هشام ٢/٧٣ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٢ ، وزاد المعد ٢/٩٧ .

وهذا هو الظرف الدقيق الذي خارت فيه عزائم كثير من الصحابة المطوقين ، الذين لم يكونوا مع رسول الله ﷺ ، وانهارت معنوياتهم ، حتى وقع داخل صفوفهم ارتباك شديد ، وعمتها الفوضى والاضطراب ، إلا أن هذه الصيحة خفت بعض التخفيف من مضاعفة هجمات المشركين ؛ لظنهم أنهم نجحوا في غاية مرامهم ، فاشتعل الكثير منهم بتمثيل قتل المسلمين .

الرسول - ﷺ - يواصل المعركة وينقذ الموقف:

ولما قتل مصعب أعطى رسول الله ﷺ اللواء علي بن أبي طالب ، فقاتل قتالاً شديداً ، وقامت بقية الصحابة الموجدين هناك ببطولائهم النادرة يقاتلون ويدافعون .

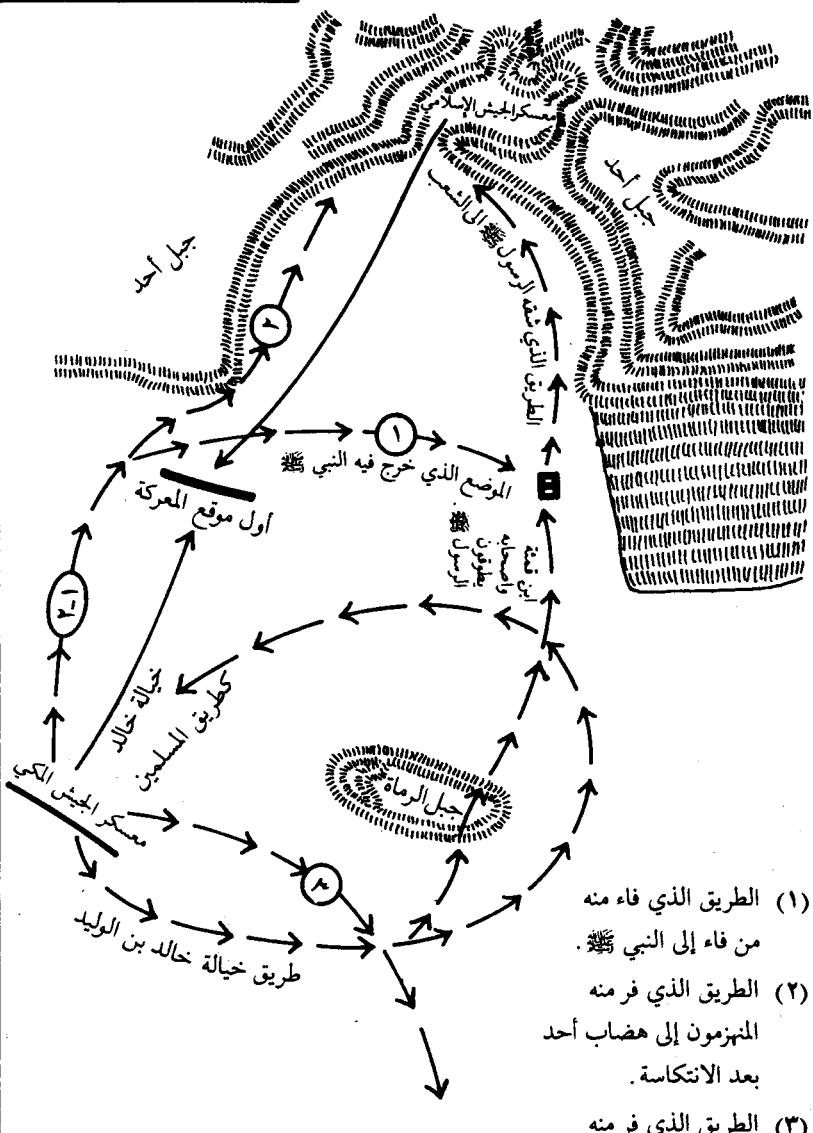
وحيثند استطاع رسول الله ﷺ أن يشق الطريق إلى جيشه المطوق ، فأقبل إليهم ، فعرفه كعب بن مالك – وكان أول من عرفه – فنادى بأعلى صوته : يا عشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله ﷺ ، فأشار إليه أن أصمت ؛ وذلك لئلا يعرف موضعه المشركون . إلا أن هذا الصوت بلغ إلى آذان المسلمين ، فلاذ إليه المسلمون ، حتى تجمع حوله حوالي ثلاثين رجلاً من الصحابة .

وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله ﷺ في الانسحاب المنظم إلى شعب الجبل ، وهو يشق الطريق بين المشركين المهاجمين ، واشتد المشركون في هجومهم ؛ لعرقلة الانسحاب إلا أنهم فشلوا أمام بسالة ليوث الإسلام .

تقدم عثمان بن عبد الله بن المغيرة – أحد فرسان المشركين – إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : لا نجوت إن نجا . وقام رسول الله ﷺ لمواجهةه . إلا أن الفرس عترت في بعض الحفر ، فنازله الحارث بن الصمة ، فضرب على رجله فأقعده ، ثم دفف عليه ، وأخذ سلاحه ، والتحق برسول الله ﷺ .

وعطف عبد الله بن جابر – فارس آخر من فرسان مكة – على الحارث بن الصمة ، فضرب بالسيف على عاتقه ، فجرحه حتى حمله المسلمون ، ولكن انقض أبو دجانة – البطل المغامر ذو العصابة الحمراء – على عبد الله بن جابر ، فضربه بالسيف ضربة أطارت رأسه . وأثناء هذا القتال المrier ، كان المسلمون يأخذهم النعاس أمنة من الله ، كما تحدث عنه

خريطة غزوة أحد



القرآن . قال أبو طلحة : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد ، حتى سقط سيفي من يدي مراراً ، يسقط وأخذه ، ويسقط وأخذه^(١) .

وبمثل هذه البسالة بلغت هذه الكتبية - في انسحاب منظم - إلى شعب الجبل وشق لبقية الجيش طريقاً إلى هذا المقام المأمون ، فتلحق به في الجبل ، وفشلت عقيرية خالد أمام عقيرية رسول الله ﷺ .

مقتل أبي بن خلف:

قال ابن إسحاق : فلما أستند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول : أين محمد لا نجوت إن نجا ؟ . فقال القوم : يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال رسول الله ﷺ : دعوه . فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ، فلما أخذها منه انتفاض انتفاضة تطايروا عنه تطايرو الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض ، ثم استقبله ، وأبصر ترقوته من فرجة بين سابعة الدرع والبيضة ، فطعنه فيها طعنة تدأداً - تدرج - منها عن فرسه مراراً ، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشاً غير كبير ، فاحتقن الدم قال : قتلني والله محمد . قالوا له : ذهب والله فؤادك ، والله إن بك من بأس ، قال : إنه قد كان قال لي بمكة : أنا أقتلك^(٢) فوالله لو بصرت على لقتلي ، فمات عدو الله بسرف ، وهم قافقون به إلى مكة^(٣) ، وفي رواية أبي الأسود عن عروة : أنه كان يخور خوار الثور ويقول : والذي نفسي بيده لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا جميعاً^(٤) .

طلحة ينهض بالنبي - ﷺ -

وفي أثناء انسحاب رسول الله ﷺ إلى الجبل عرضت له صخرة من الجبل ، فنهض إليها

(١) صحيح البخاري ٥٨٢/٢ .

(٢) وذلك أن رسول الله ﷺ لما كان بمكة كان يلقاه أبي هذا ، فيقول : يا محمد إن عندي العود فرساً أعلمه كل يوم فرقاً من ذرة ، أقتلك عليه ، فيقول رسول الله ﷺ ، بل أنا أقتلك إن شاء الله .

(٣) ابن هشام ٢/٨٤ ، زاد المعاد ٢/٩٧ .

(٤) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٥٠ .

ليعلوها ، فلم يستطع ، لأنَّه كان قد بدَّن وظاهر بين الدرعين ، وقد أصابه جرح شديد . فجلس تمحَّه طلحة بن عبيد الله ، فنهض به حتى استرَّ عليها وقال : أوجب طلحة^(١) ، أي الجنة .

آخر هجوم قام به المشركون :

ولما تمكن رسول الله ﷺ من مقر قيادته في الشعب ؛ قام المشركون بآخر هجوم حاولوا به النيل من المسلمين . قال ابن إسحاق : بينما رسول الله ﷺ في الشعب إذ علت عالية من قريش الجبل - يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد - فقال رسول الله ﷺ : اللهم إله لا ينبعي لهم أن يعلونا ، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل^(٢) .

وفي مغازي الأموي أنَّ المشركين صعدوا على الجبل ، فقال رسول الله ﷺ لسعد : أجبئهم - يقول : ارددتهم - فقال : كيف أجبئهم وحدِّي ؟ فقال ذلك ثلاثة ، فأخذ سعد سهماً من كنانته ، فرمى به رجلاً فقتلته ، قال : ثم أخذت سهماً أعرفه فرميت به آخر ، فقتلته ، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته فهبطوا من مكانهم ، فقلت : هذا سهم مبارك ، فجعلته في كنانتي . فكان عند سعد حتى مات ، ثم كان عند بنيه^(٣) .

تشويه الشهداء :

وكان هذا آخر هجوم قام به المشركون ضد النبي ﷺ . ولما لم يكونوا يعرفون من مصيره شيئاً - بل كانوا على شبه اليقين من قتله - رجعوا إلى مقرهم ، وأخذدوا يتهيأون للرجوع إلى مكة ، و Ashton من اشتغل منهم - وكذا اشتغلت نسائهم - بقتل المسلمين ، يمثلون بهم ، ويقطعن الآذان والأذوف والقروج ، ويقررون البطون ، وبقررت هند بنت عتبة كبد حمزة ، فلاكتها فلم تستطع أن تسيفها ، فلفظتها ، واتخذت من الآذان والأذوف خدماً - خلاخيل - وقلائد^(٤) .

(١) ابن هشام ٢/٨٦ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) زاد المعاد ٢/٩٥ .

(٤) ابن هشام ٢/٩٠ .

مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال حتى نهاية المعركة:

وفي هذه الساعة الأخيرة وقعت وقutan ، تدلان على مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال ، ومدى استهاتهم في سبيل الله .

١ - قال كعب بن مالك : كنت فيمن خرج من المسلمين ، فلما رأيت تمثيل المشركين بقتل المسلمين قمت فتجاوزت ، فإذا رجل من المشركين جمع الأئمة يجوز المسلمين وهو يقول : استوسقوا كما استوسقت جزر الغنم^(١) ، وإذا رجل من المسلمين ينتظره ، وعليه لأمته ، فمضي حتى كنت من ورائه ، ثم قمت أقدر المسلم والكافر ببصري ، فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيبة ، فلم أزل أنتظراهما حتى التقى ، فضرب المسلم الكافر ضربة فبلغت وركه وتفرق فرتين ، ثم كشف المسلم عن وجهه وقال : كيف ترى يا كعب ؟ أنا أبو دجانة^(٢) .

٢ - جاءت نسوة من المؤمنين إلى ساحة القتال بعد نهاية المعركة ، قال أنس : لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم ، وأنهما لم يشرمان - أرى خدم سوقةها - تتقزان القرب على متونهما ، تفرغانه في أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملاهما ، ثم تجيان فتفرغانه في أفواه القوم^(٣) .
وقال عمر : كانت (أم سليط) تزفر لنا القرب يوم أحد^(٤) .

وكانت في هؤلاء النساء أم أيمن ، إنها لما رأت فلول المسلمين يريدون دخول المدينة ، أخذت تخفي في وجوههم التراب ، وتقول لبعضهم : هاك المغزل ، وhelm سيفك . ثم سارعت إلى ساحة القتال ، فأخذت تسقي الجرحى ، فرمها حبان (بالكسر) ابن العرقه بسم ، فوقعت وتكشفت ، فأغرق عدو الله في الضحك ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهما لا نصل له ، وقال : ارم به ، فرمى به سعد ، فوقع السهم في نحر حبان ، فوقع مستلقياً حتى تكشف ، فضحكت رسول الله ﷺ حتى بدت نواجهه ، ثم قال : استقاد لها سعد ، أجب الله دعوته^(٥) .

(١) أي استجمعوا وانضموا .

(٢) البداية والنهاية ٤/١٧ .

(٣) صحيح البخاري ١/٤٠٣ ، ٢/٥٨١ .

(٤) نفس المصدر ١/٤٠١ .

(٥) السيرة الحلبية ٢/٢٢ .

بعد انتهاء الرسول - ﷺ - إلى الشعب:

ولما استقر رسول الله ﷺ في مقره من الشعب خرج علي بن أبي طالب ، حتى ملأ درنته ماء من المهراس - قيل : هو صخرة منقرفة تسع كثيراً وقيل : اسم ماء بأحد - فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه ، فوجد له ريحًا فعاشه ، فلم يشرب منه ، وغسل عن وجهه الدم ، وصب على رأسه وهو يقول : اشتد غضب الله على من دمى وجه نبيه^(١) .

وقال سهل : والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ ، ومن كان يسكب الماء وعما دووي ؟ كانت فاطمة ابنته تغسله ، وعلي بن أبي طالب يسكب الماء بالحنن ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير ، فأحرقتها ، فألاصقتها ، فاستمسك الدم^(٢) .

وجاء محمد بن مسلم بماء عذب سائغ ، فشرب منه النبي ﷺ ، ودعا له بخير^(٣) ، وصلى الظاهر قاعداً من أثر الجراح ، وصلى المسلمين خلقه قعوداً^(٤) .

شمامته أبي سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر:

ولما تكامل تهيو المشركين للانصراف ، أشرف أبو سفيان على الجبل ، فنادى : أفيكم محمد ؟ فلم يجيئوه . فقال : أفيكم ابن أبي قحافة ؟ فلم يجيئوه . فقال : أفيكم عمر بن الخطاب ؟ فلم يجيئوه - وكان النبي ﷺ منهم من الإجابة - ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم . فقال : أما هؤلاء فقد كفيفوهم ، فلم يملأ عمر نفسه أن قال : يا عدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء ، وقد أبقى الله ما يسوءك ، فقال : قد كان فيكم مثلة لم أمر بها ولم تسئني .

ثم قال : أهل هيل .

فقال النبي ﷺ : ألا تخيبونه ؟ فقالوا : فما نقول ؟ قال : قولوا : الله أعلى وأجل .

(١) ابن هشام ٢/٨٥ .

(٢) صحيح البخاري ٢/٥٨٤ .

(٣) السيرة الحلبية ٢/٣٠ .

(٤) ابن هشام ٢/٨٧ .

ئم قال : لنا العزى ولا عزى لكم .

فقال النبي ﷺ : ألا تجيسونه ؟ قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا : الله مولانا ، ولا مولى لكم .

ثم قال أبو سفيان : أنعمت فعال ، يوم بيم بدر ، وال Herb سجال .
فأجاب عمر ، وقال : لا سواء ، قتلنا في الجنة ، وقتلنا في النار .

ثم قال أبو سفيان : هلم إللي يا عمر ، فقال رسول الله ﷺ : ائته فانظر ما شأنه ؟
فجاءه ، فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر أقتلنا حمدا ؟ قال عمر : اللهم لا ، وإنه
ليستمع كلامك الآن . قال : أنت أصدق عندي من ابن قمة وأبر^(١) .

مواعدة التلاقي في بدر:

قال ابن إسحاق : ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدر العام القابل .
فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه : قل : نعم ، هو بيننا وبينك موعد^(٢) .

الثبت من موقف المشركين:

ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، فقال : اخرج في آثار القوم فانظر ماذا
يصنعون ؟ وما ي يريدون ؟ فإن كانوا قد جنحوا الخيل ، وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة .. وإن
كانوا قد ركبوا الخيل وساقو الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذي نفسي بيده لشن أرادوها لأسرى
إليهم فيها ، ثم لأناجزنهم . قال علي : فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنحوا الخيل
وامتطوا الإبل ، ووجهوا إلى مكة^(٣) .

تفقد القتلى والجرحى:

وفرغ الناس لتفقد القتلى والجرحى بعد منصرف قريش . قال زيد بن ثابت : بعثني رسول

(١) ابن هشام ٩٣/٢ ، ٩٤ ، زاد المعاد ٩٤/٢ ، صحيح البخاري ٥٧٩/٢ .

(٢) ابن هشام ٩٤/٢ .

(٣) ابن هشام ٩٤/٢ ، وفي فتح الباري أن الذي خرج في آثار المشركين هو سعد بن أبي وقاص (٣٤٧/٧) .

الله عليه السلام يوم أحد أطلب سعد بن الربيع ، فقال لي : إن رأيته فأقرئه مني السلام ، وقل له : يقول لك رسول الله عليه السلام : كيف تجذك ؟ قال : فجعلت أطوف بين القتلى ، فأرأيته وهو يآخر رمق ، وفيه سبعون ضربة : ما بين طعنة برم ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم ، فقلت : يا سعد ، إن رسول الله عليه السلام يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : أخبرني كيف تجذك ؟ قال : وعلى رسول الله عليه السلام ، قل له : يا رسول الله أجد ريح الجنة ، وقل لقومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله عليه السلام وفيكم عين تطرف ، وفاقت نفسي من وقته^(١) .
ووجدوا في الجرحى الأصيরم – عمرو بن ثابت – وبه رمق يسير ، وكانوا من قبل يعرضون عليه الإسلام فيأباه ، فقالوا : إن هذا الأصييرم ما جاء به ؟ لقد تركناه وإنه لنكر هذا الأمر ، ثم سأله : ما الذي جاء بك ؟ أحدب على قومك ، أم رغبة في الإسلام ؟ فقال : بل رغبة في الإسلام ، آمنت بالله ورسوله ، ثم قاتلت مع رسول الله عليه السلام حتى أصابني ما ترون ، ومات من وقته ، فذكروه لرسول الله عليه السلام ، فقال : هو من أهل الجنة . قال أبو هريرة : ولم يصل لله صلاة قط^(٢) .

ووجدوا في الجرحى قzman – وكان قد قاتل قتال الأبطال ، قتل وحده سبعة أو ثمانية من المشركين – وجدوه قد أثبته الجراحة ، فاحتملوه إلى دار بني ظفر ، وبشره المسلمين فقال : والله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي ، ولو لا ذلك ما قاتلت . فلما اشتد به الجراح نحر نفسه . وكان رسول الله عليه السلام يقول : إذا ذكر له ، إنه من أهل النار^(٣) – وهذا هو مصير المقاتلين في سبيل الوطنية أو في أي سبيل سوى إعلاء كلمة الله ، وإن قاتلوا تحت لواء الإسلام ، بل وفي جيش الرسول والصحابة .

وعلى عكس من هذا كان في القتلى رجل من يهود بني ثعلبة ، قال لقومه : يا معشر يهود والله لقد علمت أن نصر محمد عليكم حق . قالوا : إن اليوم يوم السبت . قال : لا سبت لكم . فأخذ سيفه وعدته ، وقال : إن أصبت فمالي محمد ، يصنع فيه ما شاء ، ثم غدا فقاتل حتى قتل ، فقال رسول الله عليه السلام : خير يرق خير يهد^(٤) .

(١) زاد المعاد ٩٦/٢ .

(٢) نفس المصدر ٩٤/٢ ، وابن هشام ٩٠/٢ .

(٣) نفس المصدر الأول ٩٧/٢ ، ٩٨ ، وابن هشام ٨٨/٢ .

(٤) ابن هشام ٨٨/٢ ، ٨٩ .

جمع الشهداء ودفنهم:

وأشرف رسول الله ﷺ على الشهداء ، فقال : أنا شهيد على هؤلاء ، إنه ما من جريح يخرج في الله إلا والله يبعثه يوم القيمة ، يدمى جرحه اللون لون الدم ، والريح ريح المسك^(١) .

وكان أناس من الصحابة قد نقلوا قتلاهم إلى المدينة ، فأمر أن يردوهم فيدفنوهم في مقابرهم ، وأن لا يغسلوا ، وأن يدفنوا كما هم بثيابهم بعد نزع الحديد والجلود ، وكان يدفن الاثنين والثلاثة في القبر الواحد ، ويجمع بين الرجلين في ثوب واحد ، ويقول : أئيم أكثر أحذا للقرآن ؟ فإذا أشاروا إلى رجل قدمه في اللحد ، وقال : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيمة . ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام ، وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من الحبّة^(٢) .

وقدروا نعش حنظلة ، فتفقدوه ، فوجدوه في ناحية فوق الأرض يقطر منه الماء ، فأخير رسول الله ﷺ أصحابه أن الملائكة تغسله ، ثم قال : سلوا أهله ما شأنه ؟ فسألوا امرأته ، فأخبرتهم الخبر . ومن هنا سمي حنظلة : غسيل الملائكة^(٣) .

ولما رأى ما بمحمة – عمه وأخيه من الرضاعة – اشتد حزنه ، وجاءت عمتة صفية تريد أن تنظر أخاها حمزة ، فأمر رسول الله ﷺ ابنها الزبير أن يصرفها ، لا ترى ما بأخيها ، فقالت : ولم ؟ وقد بلغني أن قد مثل بأخي ، وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأنفسن ولأصبرن إن شاء الله . فأتته ، فنظرت إليه ، فصلت عليه – دعت له – واسترجمت واستغفرت له . ثم أمر رسول الله ﷺ بدفنه مع عبد الله بن جحش – وكان ابن أخيه ، وأخاه من الرضاعة .

قال ابن مسعود : ما رأينا رسول الله ﷺ باكيًا قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب ، وضعه في القبلة ، ثم وقف على جنازته ، وانتصب حتى نشع من البكاء^(٤) والتشع الشبيق .

(١) نفس المصدر ٩٨/٢ .

(٢) زاد المعاد ٩٨/٢ ، وصحیح البخاری ٥٨٤/٢ .

(٣) زاد المعاد ٩٤/٢ .

(٤) رواه ابن شاذان ، انظر مختصر سيرة رسول الله ﷺ للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٥٥ .

وكان منظر الشهداء مريعاً جداً يفتت الأكباد . قال خباب : (إن) حزنة لم يوجد له كفن إلا بردة ملحاء ، إذا جعلت على رأسه قلست عن قدميه ، وإذا جعلت على قدميه قلست عن رأسه حتى مدت على رأسه ، وجعل على قدميه الإذخر^(١) .

وقال عبد الرحمن بن عوف : قتل مصعب بن عمير وهو خير مني ، وكفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه ، وإن غطي رجلاه بدا رأسه ، وروي مثل ذلك عن خباب ، وفيه « فقال لنا النبي ﷺ غطوا بها رأسه واجعلوا على رجله الإذخر »^(٢) .

الرسول - ﷺ - يثنى على ربه عز وجل ويدعوه:

روى الإمام أحمد ، لما كان يوم أحد وانكفا المشركون ، قال رسول الله ﷺ : استروا حتى أثني على ربى عز وجل ، فصاروا خلفه صفوفاً ، فقال :

اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما باعدت ، ولا مبعد لما قربت . اللهم : ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك .

اللهم إني أسألك العيم المقيم ، الذي لا يحول ولا يزول . اللهم : إني أسألك العون يوم العيالة ، والأمن يوم الخوف . اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعنا . اللهم حب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين . اللهم توفنا مسلمين وأحياناً مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرا الذين يكذبون رسليك ، وتصدرون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعداك . اللهم قاتل الكفرا الذين أوتوا الكتاب إله الحق^(٣) .

الرجوع إلى المدينة، ونواذر الحب والتفاني:

ومما فرغ رسول الله ﷺ من دفن الشهداء والثناء على الله والتضرع إليه انصرف راجعاً إلى

(١) رواه أحمد ، مشكاة المصايح ١٤٠/١ .

(٢) صحيح البخاري ٥٧٩/٢ ، ٥٨٤ .

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد ، والإمام أحمد في مستنه ٤٢٤/٣ .

المدينة ، وقد ظهرت له نوادر الحب والتفاني من المؤمنات الصادقات ، كما ظهرت من المؤمنين في أثناء المعركة .

لقيته في الطريق حمنة بنت جحش ، فنعي إليها أخوها عبد الله بن جحش ، فاسترجمت واستغفرت له ، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب ، فاسترجمت واستغفرت ، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير ، فصاحت ولولت ، فقال رسول الله ﷺ : إن زوج المرأة منها لي مكان^(١) .

ومر بأمرأة من بنى دينار ، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبواها بأحد ، فلما نعوا لها قالت : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيراً يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تخبين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير إليها ، حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعده جلل – تزيد صغيرة^(٢) .

وجاءت إليه أم سعد بن معاذ تudo ، وسعد آخذ بلجام فرسه ، فقال : يا رسول الله أمي ، فقال : مرجباً بها . ووقف لها . فلما دنت عزابها بابها عمرو بن معاذ . فقالت : أما إذ رأيتك سالماً ، فقد أشتويت المصيبة (أي استقللتها) . ثم دعا لأهل من قتل بأحد وقال : يا أم سعد أبشرني وبشري أهلهم أن قتلامهم تراافقوا في الجنة جميعاً ، وقد شفعوا في أهلهم جميعاً . قالت : رضينا يا رسول الله ، ومن يكفي عليهم بعد هذا ؟ ثم قالت : يا رسول الله ، ادع لمن خلفوا منهم ، فقال : اللهم أذهب حزن قلوبهم ، واجبر مصيبيتهم ، وأحسن الخلف على من خلفوا^(٣) .

الرسول - ﷺ - في المدينة:

وانتهى رسول الله ﷺ مساء ذلك اليوم – يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣ هـ – إلى المدينة . فلما انتهى إلى أهلها ناول سيفه ابنته فاطمة ، فقال : اغسل عن هذا دمه يا بنية ، فوالله لقد صدقني اليوم . وناولها علي بن أبي طالب سيفه ، فقال : وهذا أيضاً فاغسل عنده دمه ، فوالله لقد صدقني اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : لئن كنت صدقت القتال ، لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة^(٤) .

(١) ابن هشام ٩٨/٢ .

(٢) نفس المصدر ٩٩/٢ .

(٣) السيرة الحلبية ٤٧/٢ .

(٤) ابن هشام ١٠٠/٢ .

قتلى الفريقيين:

انفقت جل الروايات على أن قتلى المسلمين كانوا سبعين ، وكانت الأغلبية الساحقة من الأنصار ، فقد قتل منهم خمسة وستون رجلاً ، واحد وأربعون من الخزرج ، وأربع وعشرون من الأوس ، وقتل رجل من اليهود . وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط .

وأما قتلى المشركين فقد ذكر ابن إسحاق أنهم اثنان وعشرون قتيلاً ، ولكن الإحصاء الدقيق – بعد تعميق النظر في جميع تفاصيل المعركة التي ذكرها أهل المغازي والسير ، والتي تتضمن ذكر قتلى المشركين في مختلف مراحل القتال – يفيد أن عدد قتلى المشركين سبعة وثلاثون ، لا اثنان وعشرون . والله أعلم^(١) .

حالة الطوارئ في المدينة :

بات المسلمون في المدينة – ليلة الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ – بعد الرجوع عن معركة أحد – وهم في حالة الطواريء ، باتوا – وقد أنهكهم التعب ، ونال منهم أبي منال – يبحرسون أنقاب المدينة ومداخلها ، ويحرسون قائدتهم الأعلى رسول الله عليه السلام خاصة ، إذ كانت تلاحقهم الشهابات من كل جانب .

غزوة حمراء الأسد:

وبات الرسول عليه السلام وهو يفكر في الموقف ، فقد كان يخاف أن المشركين إن فكروا في أنهم لم يستفيدوا شيئاً من النصر والغلبة التي كسبوها في ساحة القتال ، فلا بد من أن يندموا على ذلك ، ويرجعوا من الطريق لغزو المدينة مرة ثانية ، فصمم على أن يقوم بعملية مطاردة الجيش المكي .

قال أهل المغازي ما حاصله : إن النبي عليه السلام نادى في الناس ، وندبهم إلى المسير إلى لقاء العدو – وذلك صباح الغد من معركة أحد ، أي يوم الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ – وقال : لا يخرج معنا إلا من شهد القتال ، فقال له عبد الله بن أبي : أركب معك ؟ قال : لا ، واستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد ، والخوف المزيد ، وقالوا : سمعاً وطاعة ،

(١) انظر ابن هشام ٢/١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ٣٥١/٧ ، فتح الباري

وغزوة أحد لحمد أحمد باشيل ص ٢٧٨، ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

واستاذنه جابر بن عبد الله ، وقال : يا رسول الله ، إني أحب أن لا تشهد مشهداً إلا كنت معك ، وإنما خلفني أبي على بناته ، فاذن لي ، أسيء معك ، فاذن له .

وسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، حتى بلغوا حمراء الأسد ، على بعد ثمانية أميال من المدينة فعسکروا هناك .

وهناك أقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم - ويقال : بل كان على شركه ، ولكنه كان ناصحاً لرسول الله ﷺ ، لما كان بين خزاعة وبني هاشم من الخلف ، فقال : يا محمد ، أما والله لقد عز علينا ما أصبابك في أصحابك ، ولوردننا أن الله عافاك - فأمره رسول الله ﷺ أن يلحق أبا سفيان فيخذله .

ولم يكن ما خافه رسول الله ﷺ من تفكير المشركين في العودة إلى المدينة إلا حقاً ، فإنهم لما نزلوا بالروحاء على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة تلاوموا فيها بينهم ، وقال بعضهم بعض : لم تصنعوا شيئاً ، أصبتم شوكتم وحدهم ، ثم تركتموهم ، وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم ، فارجعوا حتى نتأصل شأفتهم .

ويبدو أن هذا الرأي جاء سطحياً من لم يكن يقدر قوة الفريقين ومعنوياتهم تقديرأً صحيحاً ، ولذلك خالفهم زعيم مسئول « صفوان بن أمية » قائلاً : يا قوم ، لا تفعلوا فإني أخاف أن يجمع عليكم من تخلف من الخروج - أي من المسلمين في غزوة أحد - فارجعوا والدولة لكم ، فإني لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم . إلا أن هذا الرأي رفض أمامرأي الأغلبية الساحقة ، وأجمع جيش مكة على المسير نحو المدينة ، ولكن قبل أن يتحرك أبو سفيان بجيشه من مقره لحقه معبد بن أبي معبد الخزاعي ، ولم يكن يعرف أبو سفيان بإسلامه ، فقال : ما وراءك يا معبد ؟ فقال معبد - وقد شن عليه حرب أعصاب دعائية عنيفة - : محمد ، قد خرج في أصحابه ، يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم ، وندموا على ما ضيعوا ، فيهم من الحق عليكم شيء لم أر مثله قط .

قال أبو سفيان : وبخت ، ما تقول ؟

قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل - أو - حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة .

قال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم .

قال : فلا تفعل ، فإني ناصح .

وحيثند انهارت عزائم الجيش المكي ، وأخذه الفزع والرعب ، فلم ير العافية إلا في مواصلة الانسحاب والرجوع إلى مكة . ييد أن أبي سفيان قام بحرب أعصاب دعائية ضد الجيش الإسلامي ، لعله ينفع في كف هذا الجيش عن مواصلة المطاردة ، وطبعاً فهو ينفع في الاجتناب عن لقائه ، فقد مر به ركب من عبد القيس يريد المدينة ، فقال : هل أنتم مبلغون عني حمداً رسالة ، وأوقر لكم راحتكم هذه زبيباً بعكاظ إذا أتيتم إلى مكة ؟

قالوا : نعم .

قال : فأبلغوا حمداً أنا قد أجمعنا الكرة ؛ لنستأصله ونستأصل أصحابه .

فمر الركب برسول الله ﷺ وأصحابه ، وهم بحمراء الأسد ، فأخبرهم بالذى قاله أبو سفيان ، وقالوا : إن الناس قد جعوا لكم فاخشوهם ، فزادهم - أي زاد المسلمين قوهم ذلك - إيماناً ﴿ وَقَالُوا حَسِينَا اللَّهُ وَنَعَمْ الْوَكِيلُ ﴾ ١٧٣ فانقلبوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِ لَمْ يَمْسَسُهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ .

أقام رسول الله ﷺ بحمراء الأسد بعد - مقدمه يوم الأحد - الإثنين والثلاثاء والأربعاء - ٩/١٠ شوال سنة ١٤٣هـ - ثم رجع إلى المدينة . وأخذ رسول الله ﷺ قبل الرجوع إلى المدينة أبو عزة الجمحى - وهو الذي كان قد منّ عليه من أسرى بدر ؛ لفقره وكثرة بناته ، على أن لا يظاهر عليه أحداً ، ولكنه نكث وغدر ، فحضر الناس بشعره على النبي ﷺ وال المسلمين كما أسلفنا ، وخرج لمقاتلتهم في أحد - فلما أخذه رسول الله ﷺ قال : يا محمد أقلي ، وامتن على ، ودعني لبني ، وأعطيك عهداً أن لا أعود مثل ما فعلت ، فقال ﷺ : لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول : خدعت حمداً مرتين ، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، ثم أمر الزير أو عاصم بن ثابت فضرب عنقه .

كما حكم بالإعدام في جاسوس من جواسيس مكة ، وهو معاوية بن المغيرة بن أبي العاص ، جد عبد الملك بن مروان لأمه ، وذلك أنه لما رجع المشركون يوم أحد جاء معاوية إلى ابن عمته عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فاستأمن له عثمان رسول الله ﷺ ، فأمنه على أنه إن وجد بعد

ثلاث قتله ، فلما خلت المدينة من الجيش الإسلامي أقام فيها أكثر من ثلات يتجسس لحساب قريش ، فلما رجع الجيش خرج معاوية هارباً ، فأمر رسول الله عليه صلواته زيد بن حارثة وعمار بن ياسر ، فتعقباه حتى قلاه^(١) .

وما لا شك فيه أن غزوة حراء الأسد ليست بغزوة مستقلة ، إنما هي جزء من غزوة أحد وتنتمي لها ، وصفحة من صفحاتها .

تلك هي غزوة أحد بجميع مراحلها وتفاصيلها ، وطالما بحث الباحثون حول مصير هذه الغزوة ، هل كانت هزيمة أم لا ؟ والذي لا يشك فيه أن التفوق العسكري في الصفحة الثانية من القتال كان للمشركين ، وأنهم كانوا مسيطرين على ساحة القتال ، وأن خسارة الأرواح والنفوس كانت في جانب المسلمين أكثر وأفصح ، وأن طائفنة من المؤمنين انهزمت قطعاً ، وأن دفة القتال جرت لصالح الجيش المكي ، لكن هناك أموراً تمنعنا أن نعبر عن كل ذلك بالنصر والفتح .

فمما لا شك فيه أن الجيش المكي لم يستطع احتلال معسكر المسلمين ، وأن المقدار الكبير من الجيش المدني لم يتتجيء إلى الفرار - مع الارتباك الشديد والفوضى العامة - بل قاوم بالبسالة حتى تجمع حول مقر قيادته ، وأن كفته لم تسقط إلى حد أن يطارده الجيش المكي ، وأن أحداً من جيش المدينة لم يقع في أسر الكفار ، وأن الكفار لم يحصلوا على شيء من غنائم المسلمين ، وأن الكفار لم يقوموا إلى الصفحة الثالثة من القتال مع أن جيش المسلمين لم يزل في معسكره ، وأنهم لم يقيموا بساحة القتال يوماً أو يومين أو ثلاثة أيام - كما هو دأب الفاتحين في ذلك الرمان - بل سارعوا إلى الانسحاب وترك ساحة القتال ، قبل أن يتركها المسلمون ، ولم يختروا على الدخول في المدينة لنهب الذراري والأموال ، مع أنها على بعد عدة خطوات فحسب ، وكانت مفتوحة وخالية تماماً .

كل ذلك يؤكد لنا أن ما حصل لقريش لم يكن أكثر من أئمهم وجدوا فرصة ، نجحوا فيها بإلحاق الخسائر الفادحة بال المسلمين ، مع الفشل فيما كانوا يهدفون إليه من إبادة الجيش الإسلامي

(١) أخذنا تفصيل غزوة أحد ، وحرباء الأسد من ابن هشام ٢٠ / ٢ إلى ١٢٩ ، وزاد المعاد ٩١ / ٢ إلى ١٠٨ ، وفتح الباري ٣٤٥ / ٧ إلى ٣٧٧ مع صحيح البخاري ، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي من ص ٢٤٢ إلى ٢٥٧ ، وقد أحملنا على المصادر الأخرى في مواضعها .

بعد عمل التطويق - وكثيراً ما يلقى الفاتحون بمثل هذه الخسائر التي نالها المسلمون - أما أن ذلك كان نصراً وفتحاً فكلا وحاشا .

· بل يؤكد لنا تعجّيل أبي سفيان في الانسحاب والانصراف ؛ أنه كان يخاف على جيشه المرة والهزيمة لو جرت صفحة ثالثة من القتال ، ويزداد ذلك تأكداً حين نظر إلى موقف أبي سفيان من غزوة حراء الأسد .

وإذن فهذه الغزوة إنما كانت حرباً غير منفصلة ، أخذ كل فريق بقسطه ونصيبه من النجاح والخسارة ، ثم حاد كل منهما عن القتال ، من غير أن يفر عن ساحة القتال ويترك مقره لاحتلال العدو ، وهذا هو معنى الحرب غير المنفصلة .

وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿وَلَا تَهُنُّ فِي أَبْيَانِ الْقَوْمِ إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الْمُؤْمِنُونَ كَمَا أَنَّ الْمُؤْمِنَاتِ وَرَجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ (٤) فقد شبه أحد العسكريين بالآخر في وعيّن الألم ، مما يفيد أن الموقفين كانوا مئتين ، وأن الفريقين رجعاً وكل غير غالب .

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة :

ونزل القرآن يلقي ضوءاً على جميع المراحل المهمة من هذه المعركة مرحلة ، ويدلي بتعليقات تصرح بالأسباب التي أدت إلى هذه الخسارة الفادحة ، وأبدى التواحي الضعيفة التي لم تزل موجودة في طوائف أهل الإيمان بالنسبة إلى واجهم في مثل هذه المواقف الحاسمة ، وبالنسبة إلى الأهداف النبيلة السامية التي أنشئت للحصول عليها هذه الأمة ، التي تمتاز عن غيرها بكونها خير أمة أخرجت للناس .

كما تحدث القرآن عن موقف المنافقين ، ففضحهم ، وأبدى ما كان في باطنهم من العداوة لله ولرسوله ، مع إزالة الشبهات والوساوس التي كانت تختلّ بقلوب ضعفاء المسلمين ، والتي كان يشيرها هؤلاء المنافقون وأخواتهم اليهود - أصحاب الدس والمؤامرة - وقد أشار إلى الحكم والغايات المحمودة التي تخضّت عنها هذه المعركة .

نزلت حول موضوع المعركة ستون آية من سورة آل عمران تبتدئ بذكر أول مرحلة من مراحل المعركة : ﴿وَإِذْ عَذَّتْ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوَّءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَدِّعَ لِلْقِتَالِ﴾ (٣) وترك في نهايتها تعليقاً جاماً على نتائج هذه المعركة وحكمتها قال تعالى : ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ

عَلَىٰ مَا آتَنُّمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيْبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلَعُكُمْ عَلَىٰ أَغْيَتِ وَلَذِكْنَ اللَّهَ يَعْصِي
مِنْ رَسُولِهِ، مَنْ يَشَاءُ فَمَا نُوِّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَسْقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ (١٧٩: ٣).

الحكم والغايات المحمودة في هذه الغزوة:

قد بسط ابن القيم الكلام على هذا الموضوع بسطاً تماماً^(١). وقال ابن حجر : قال العلماء : وكان في قصة أحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة منها : تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية ، وشوم ارتکاب النبي ، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول ﷺ أن لا يبرحوا منه . ومنها أن عادة الرسل أن تبتلي و تكون لها العاقبة ، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائماً دخل في المؤمنين من ليس منهم ، ولم يتميز الصادق من غيره ، ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة ، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين تميز الصادق من الكاذب ، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين ، فلما جرت هذه القصة ، وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول عاد التلويح تصريحاً ، وعرف المسلمون أن لهم عدواً في دورهم ، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم . ومنها أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضم النفس ، وكسر الشاختها ، فلما ابْتُلَ المؤمنون صرروا ، وجزع المنافقون . ومنها أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم ، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها . ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم . ومنها أنه أراد إهلاك أعدائه ، فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيائهم في أذى أوليائه ، فمحض بذلك ذنوب المؤمنين ، ومحق بذلك الكافرين^(١).

(١) انظر زاد المعاد ٩٩/٢ إلى ١٠٨.

السرايا والبعوث بين أحد والأحزاب

كان لتأساة أحد أثر سيء على سمعة المؤمنين ، فقد ذهبت ريحهم ، وزالت هيبةهم عن النفوس ، وزادت المتابعة الداخلية والخارجية على المؤمنين ، وأحاطت الأخطر بالمدينة من كل جانب ، وكاشف اليهود والمناقون والأعراب بالعداء السافر ، وهلت كل طائفة منهم أن تثال من المؤمنين ، بل طمعت في أن تقضي عليهم ، وتستأصل شأفتهم .

فلم يغض على هذه المعركة شهان حتى تبأت بـنـوـأـسـدـ لـلـإـغـارـةـ عـلـىـ الـمـدـيـنـةـ ، ثم قامـتـ قـبـائـلـ عـضـلـ وـقـارـةـ فـيـ شـهـرـ صـفـرـ سـنـةـ ٤ـ هـ بـمـكـيـدـةـ ، سـبـيـتـ فـيـ قـتـلـ عـشـرـةـ مـنـ الصـحـابـةـ ، وـفـيـ نـفـسـ الـشـهـرـ قـامـتـ بـنـوـعـامـرـ بـمـكـيـدـةـ مـثـلـهـ ، سـبـيـتـ فـيـ قـتـلـ سـبـعـيـنـ مـنـ الصـحـابـةـ ، وـتـعـرـفـ هـذـهـ الـوـقـعـةـ بـقـبـيـلـةـ بـئـرـ مـعـونـةـ ، وـلـمـ تـزـلـ بـنـوـ نـصـيرـ خـلـالـ هـذـهـ الـمـدـدـةـ تـجـاهـرـ بـالـعـدـاوـةـ حـتـىـ قـامـتـ فـيـ رـبـيعـ الـأـوـلـ سـنـةـ ٤ـ هـ بـمـكـيـدـةـ تـهـدـفـ إـلـىـ قـتـلـ النـبـيـ ﷺـ ، وـتـجـرـأـتـ بـنـوـ غـطـفـانـ ، حـتـىـ هـمـتـ بـالـغـزوـ عـلـىـ الـمـدـيـنـةـ فـيـ جـمـادـيـ الـأـوـلـ سـنـةـ ٤ـ هـ .

فرجع المسلمين التي كانت قد ذهبت في معركة أحد تركت المسلمين - إلى حين - يهددون بالأخطار ، ولكن تلك هي حكمة محمد ﷺ التي صرفت وجوه التيارات وأعادت للمسلمين هيبتهم المفقودة ، وأكسبت لهم العلو والمجد من جديد ، وأول ما أقدم عليه بهذا الصدد هي حركة الطاردة التي قام بها إلى حرماء الأسد ، فقد حفظ بها مقداراً كبيراً من سمعة جيشه ، واستعاد بها من هيبتهم ومكانتهم ما ألقى اليهود والمناقين في الدهش والذهول ، ثم قام بمناورات أعادت للمسلمين هيبتهم ، بل زادت فيها ، وفي الصفحة الآتية شيء من تفاصيلها :

سرية أبي سلمة:

أول من قام ضد المسلمين بعد نكسة أحد هم بـنـوـأـسـدـ بنـ خـزـيـعـةـ ، فقد نقلـتـ استـخـبـاراتـ

المدينة أن طلحة وسلمة أبني خوبلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما ، يدعون بني أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله ﷺ .

فسارع رسول الله ﷺ إلى بعث سرية قوامها مائة وخمسون مقاتلاً من المهاجرين والأنصار ، وأمر عليهم أبا سلمة وعقد له لواء ، وباغت أبو سلمة بني أسد بن خزيمة في ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم ، فتشتتوا في الأمر ، وأصاب المسلمين إبلًا وشاء لهم ، فاستاقوها ، وعادوا إلى المدينة سالحين غافلين لم يلقوا حرباً .

كان مبعث هذه السرية حين استهل هلال المحرم سنة 4 هـ ، وعاد أبو سلمة وقد نفر عليه جرح كان قد أصابه في أحد ، فلم يلبث حتى مات^(١) .

بعث عبد الله بن أبي أنيس:

وفي اليوم الخامس من نفس الشهر - المحرم سنة 4 هـ - نقلت الاستخبارات أن خالد بن سفيان الهمذاني يمحشد الجموع لحرب المسلمين ، فأرسل إليه النبي ﷺ عبد الله بن أبي أنيس ليقضي عليه .

وظل عبد الله بن أبي أنيس غائباً عن المدينة ثمانى عشرة ليلة ، ثم قدم يوم السبت لسبعين بقين من المحرم ، وقد قتل خالداً وجاء برأسه ، فوضعه بين يدي النبي ﷺ ، فأعطاه عصا ، وقال : « هذه آية بيني وبينك يوم القيمة ، فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل معه في أكفانه »^(٢) .

بعث الرجيع:

وفي شهر صفر من نفس السنة - أي الرابعة من الهجرة - قدم على رسول الله ﷺ قوم من عضل وقارة ، وذكروا أن فيهم إسلاماً . وسألوا أن يبعث معهم من يعلّمهم الدين ، ويقرئهم القرآن ، بعث معهم ستة نفر - في قول ابن إسحاق وفي رواية البخاري أنهم كانوا عشرة - وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوبي - في قول ابن إسحاق وعند البخاري أنه عاصم بن ثابت جد عاصم بن عمر بن الخطاب - فذهبوا معهم ، فلما كانوا بالرجيع - وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز

(١) زاد المعاد ٢/١٠٨ .

(٢) نفس المصدر ٢/١٠٩ ، وابن هشام ٢/٦١٩ ، ٦٢٠ .

بين رابع ونinth - استصرخوا عليهم حياً من هذيل يقال لهم بنو حبيان ، فتبعوه بقرب من مائة رام ، واقتضوا آثارهم حتى لحقوهم ، فأحاطوا بهم - وكانوا قد حاولوا إلى فدده - وقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا تقتل منكم رجلاً . فأما عاصم فأي من التزول ، وقاتلهم في أصحابه ، فقتل منهم سبعة بالليل ، وبقي خبيب وزيد بن الدثنة ورجل آخر فأعطوه العهد والميثاق مرة أخرى ، فنزلوا إليهم ، ولكنهم غدروا بهم وربطوه بأوتار قسيهم ، فقال الرجل الثالث : هذا أول العذر ، وأي أن يصحبهم ، فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم ، فلم يفعل ، فقتلواه ، وانطلقا بخبيب وزيد فباعوهما بمكة ، وكانا قتلا من رؤوسهم يوم بدر ، فأما خبيب فمكث عندهم مسجونة ، ثم أجمعوا على قتلها ، فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم ، فلما أزمعوا على صلبها قال : دعوني حتى أركع ركعتين ، فتركتوه فصلاهما ، فلما سلم قال : والله لو لا أن تقولوا : إن ما بي جزع لزدت ، ثم قال : اللهم أحصهم عدداً ، وقاتلهم بددأ ، ولا تبق منهم أحداً ، ثم قال :

لقد أجمع الأحزاب حولي وألبوا
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم
إلى الله أش��وا غربتي بعد كربلا
فذا العرش صبرني على ما يراد بي
وقد خيروني الكفر والموت دونه
ولست أبالي حين أقبل مسلماً
وذلك في ذات الإله وإن يشد

قال له أبو سفيان : أيسرك أن حمداً عندنا نضرب عنقه ، وأنك في أهلك ؟ فقال : لا والله ما يسرني أني في أهلي وأن حمداً في مكانه الذي هو فيه تصبيه شوكه تؤذيه .

ثم صلبوه ووكلوا به من يحرس جثته ، فجاء عمرو بن أمية الصمرى ، فاحتمله بمخدعه ليلاً ،
فذهب به فدنه ، وكان الذى تولى قتل خبيب هو عقبة بن الحارث وكان خبيب قد قتل أباه
حارثاً يوم بدر .

وفي الصحيح أن خبيباً أول من سن الركعتين عند القتل ، وأنه رئي وهو أسير يأكل قطضاً من العنب ، وما بعكة تمرا .

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه .

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه - وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر - فبعث الله عليه مثل الظللة من الدبر - الزناير - فحملته من رسليهم ، فلم يقدروا منه على شيء . وكان عاصم أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك ، ولا يمس مشركاً ، وكان عمر لما بلغه خبره يقول : يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته^(١) .

مأساة بئر معونة:

وفي نفس الشهر الذي وقعت فيه مأساة الرجيع وقعت مأساة أخرى أشد وأفظع من الأولى ، وهي التي تعرف بogeneity بئر معونة .

وملخصها أن أبي براء عامر بن مالك (المدعو بلاعب الأسنة) قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد ، فقال : يا رسول الله لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك ؟ لرجوت أن يجيبوهم ، فقال : « إني أخاف عليهم أهل نجد » ، فقال أبو براء : أنا جار لهم ، فبعث معه أربعين رجلاً - في قول ابن إسحاق ، وفي الصحيح أنهم كانوا سبعين ، والذي في الصحيح هو الصحيح - وأمر عليهم المنذر بن عمرو أحدبني ساعدة الملقب بالمعتق ليموت ، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم ، فساروا يختطبون بالهار ، يشترون به الطعام لأهل الصفة ، ويتدارسون القرآن ، ويصلون بالليل ، حتى نزلوا بئر معونة - وهي أرض بينبني عامر وحرة وبني سليم - فنزلوا هناك ، ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيلي ، فلم ينظر فيه ، وأمر رجلاً فطعنه بالحربة من خلفه ، فلما أنفذها فيه ورأى الدم قال حرام : الله أكبر ، فزت ورب الكعبة .

ثم استنفر عدو الله لقتله بنى عامر إلى قتال الياقين ، فلم يجيئه لأجل جوار أبي براء ، فاستنفر بنى سليم ، فأجابت به عصبية ورعل وذكوان ، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، إلا كعب بن زيد بن التجار ، فإنه ارث من بين القتلى ، فعاش حتى قتل يوم الخندق .

وكان عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن عقبة بن عامر في سرح المسلمين ، فرأيا الطير تحوم

(١) ابن هشام ٢/١٦٩ إلى ١٧٩ ، وزاد المعاد ٢/١٠٩ ، صحيح البخاري ٢/٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٨٥ .

على موضع الوعة ، فنزل المنذر ، فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه ، وأسر عمرو بن أمية الضمرى ، فلما أخبر أنه من مضر جز عامر ناصيته ، وأعنته عن رقبة كانت على أمه .

ورجع عمرو بن أمية الضمرى إلى النبي ﷺ حاملاً معه أبناء المصاب الفادح ، مصرع سبعين من أفالصل المسلمين ، تذكر نكباتهم الكبيرة بنكبة أحد ؛ إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح ؛ وأولئك ذهبوا في غدرة شائنة .

ولما كان عمرو بن أمية في الطريق بالقرقرة من صابر قناة ، نزل في ظل شجرة وجاء رجال من بني كلاب فنزلوا معه ، فلما ناما فتك بهما عمرو ، وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه ، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به ، فلما قدم أخبار رسول الله ﷺ بما فعل ، فقال : لقد قتلت قتيلين لأدينهما وانشغل بجمع ديانتهم من المسلمين وخلفائهم اليهود^(١) ، وهذا الذي صار سبباً لغزوة بني النضير كما سيدرك .

وقد تألم النبي ﷺ لأجل هذه المأساة ، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة^(٢) تألماً شديداً ، وتغلب عليه الحزن والقلق^(٣) ، حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التي قامت بالغدر والفتوك في أصحابه ، ففي الصحيح عن أنس قال : دعا النبي ﷺ على الذين قتلوا أصحابه بئر معونة ثلاثين صباحاً ، يدعون في صلاة الفجر على رعل وذكوان ولحيان وعصبة ، ويقول : « عصبية عصت الله ورسوله » ، فأنزل الله تعالى على نبيه قرآنًا فرقاً حتى نسخ بعد « بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه » فترك رسول الله ﷺ قتوته^(٤) .

غزوة بني النضير:

قد أسلفنا أن اليهود كانوا يحرقون على الإسلام والمسلمين ، إلا أنهم لم يكونوا أصحاب حرب وضرب ، بل كانوا أصحاب دس ومؤامرة ، فكانوا يجاهرون بالحقد والعداوة ، ويختارون أنواعاً من الحيل ، لإيقاع الإيذاء بال المسلمين دون أن يقوموا للقتال ، مع ما كان بينهم وبين

(١) انظر ابن هشام ١٨٣/٢ إلى ١٨٨ ، وزاد المعاد ١٠٩/٢ ، ١١٠ ، صحيح البخاري ٥٨٤/٢ ، ٥٨٦ .

(٢) ذكر الواقدي أن خبر أصحاب الرجيع وخبر أصحاب بئر معونة أقى النبي ﷺ في ليلة واحدة .

(٣) روى ابن سعد عن أنس ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة « مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٦٠ .

(٤) البخاري ٥٨٦/٢ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ .

ال المسلمين من عهود ومواثيق ، وأنهم بعد وقعةبني قينقاع ، وقتل كعب بن الأشرف خافوا على أنفسهم ، فاستكانوا والتزموا المهدوء والسكوت .

ولكتهم بعد وقعة أحد تجرأوا ، فكاشفوا بالعداوة والغدر ، وأخذوا يتصلون بالمنافقين وبالمرتكبين من أهل مكة سرا ، ويعملون لصالحهم ضد المسلمين^(١) .

وصبر النبي ﷺ حتى ازدادوا جرأة وجسارة بعد وقعة الرجيع وبئر معونة ، حتى قاموا بمؤامرة تهدف القضاء على النبي ﷺ .

وبيان ذلك أنه ﷺ خرج إليهم في نفر من أصحابه ، وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابين اللذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري – وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة – فقالوا : نفعل يا أبا القاسم ، اجلس هنا حتى نقضي حاجتك . فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم يتظرون وفاءهم بما وعدوا ، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلى وطائفة من أصحابه .

وخلال اليهود بعضهم إلى بعض ، وسؤال لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم ، فتأمروا بقتله ﷺ ، وقالوا : أيكم يأخذ هذه الرحي ، ويصعد فيلقها على رأسه يشدّه بها ؟ ... فقال أشقاهم عمرو بن جحاش : أنا . فقال لهم سلام بن مشكم : لا تفعلوا ، فوالله ليخبرن بما همّت به ، وإنّه لنقض العهد الذي بيننا وبينه ، لكنهم عزموا على تنفيذ خطتهم .

ونزل جبريل من عند رب العالمين على رسوله ﷺ يعلمه بما همّوا به ، فنهض مسرعاً ، وتوجه إلى المدينة ، ولحقه أصحابه فقالوا : نهضت ولم نشعر بك ، فأخبرهم بما همت به يهود .

وما لبث رسول الله ﷺ أن بعث محمد بن مسلمة إلى بني النضير يقول لهم : اخرجوا من المدينة ولا تساكوني بها ، وقد أجلتكم عشرأ ، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه . ولم يجد يهود مناصاً من الخروج ، فأقاموا أياماً يتجهزون للرحيل ، بيد أن رئيس المنافقين عبد الله بن أبي - بعث إليهم أن اثبتوا وتنعوا ، ولا تخرجو من دياركم ، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم ، فيموتون دونكم ﴿لَيْنَ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ فُوتَتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ وتنصركم قريطة وخلفاؤكم من غطفان .

وهناك عادت لليهود ثقتم ، واستقر رأيهم على المساواة ، وطبع رئيسهم حبي بن أخطب فيما

(١) يؤخذ ذلك مما رواه أبو داود في باب خبر النضير ١١٦/٣ ، ١١٧ « عن العبود شرح سنن أبي داود » .

قاله رأس المنافقين ، فبعث إلى رسول الله ﷺ يقول : إننا لا نخرج من ديارنا ، فاصنع ما بدا لك .

ولا شك أن الموقف كان حرجاً بالنسبة إلى المسلمين ، فإن اشتباكهم بخصومهم في هذه الفترة المحرجة من تاريخهم لم يكن مأمون العاقب ، وقد رأيت كلَّ العرب عليهم ، وفتكتهم الشنيع ببعوثهم ، ثم إن يهود بنى النضير كانوا على درجة من القوة تجعل استسلامهم بعد الاحتمال ، وتجعل فرض القتال معهم محفوفاً بالكاره ، إلا أن الحال التي جدت بعد مأساة بئر معونة وما قبلها زادت حساسية المسلمين بجرائم الاغتيال والغدر التي أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفراداً ، وضاعت نعمتهم على مقتفيها ، ومن ثم قرروا أن يقاتلوا بنى النضير - بعد همهم باغتيال الرسول ﷺ - مهما تكون النتائج ..

فلما بلغ رسول الله ﷺ جواب حيي بن أخطب كبر وكبر أصحابه ، ثم نهض لمناجزة القوم ، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وسار إليهم ، وعلى بن أبي طالب يحمل اللواء ، فلما انتهى إليهم فرض عليهم الحصار .

والتجأ بنو النضير إلى حصنهم ، فأقاموا عليها يرمون بالنبيل والحجارة ، وكانت تخيم لهم وبساتينهم عوناً لهم في ذلك ، فأمر بقطعها وتحريقها ، وفي ذلك يقول حسان :

وهان على سراة بني لويٰ حريق بالسويرة مستطير
البويرة : اسم لخطل بنى النضير ، وفي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِسَنَةٍ أَوْ
تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أَصْوْلِهَا فَإِذَا ذِنَنَ اللَّهُ ﷺ﴾ (٥٩ : ٥) .

واعتزلتهم قريظة ، وخانهم عبد الله بن أبي وحلفاؤهم من غطفان ، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيراً ، أو يدفع عنهم شراً ، ولهذا شبه سبحانه وتعالى قصتهم ، وجعل مثلهم : ﴿كَمِثْلِ الشَّيْطَنِ إِذَا قَالَ لِلْإِنْسَنِ أَكَفَرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ ﴾ (١٦ : ٥٩) .

ولم يطرأ الحصار - فقد دام ست ليال فقط ، وقيل : خمس عشرة ليلة - حتى قذف الله في قلوبهم الرعب ، فاندحروا وتهاروا للإسلام وإلقاء السلاح ، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ : نحن نخرج عن المدينة ، فأنزههم على أن يخرجوا عنها بتفوسيهم وذراريهم ، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح .

نزلوا على ذلك ، وخرروا بيوتهم بأيديهم ، ليحملوا الأبواب والشباك ، بل حتى حمل بعضهم الأوتاد وجذوع السقف ، ثم حملوا النساء والصبيان ، وتحملوا على سماة بغير ، فترحل أكثرهم وأكابرهم كحيي بن أخطب وسلم بن أبي الحقيق إلى خير ، وذهب طائفة منهم إلى الشام ، وأسلم منهم رجالان فقط يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب ، فأحرزا أمواهما .

وقبض رسول الله ﷺ سلاح بني النضير ، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم ، فوجد من السلاح خمسين درعاً ، وخمسين بيضة ، وثلاثمائة وأربعين سيفاً .

وكانت أموال بني النضير وديارهم خالصة لرسول الله ﷺ ، يضعها حيث يشاء ، ولم يخسمها لأن الله أفاءها عليه ، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب ، فقسمها بين المهاجرين الأولين خاصة ، إلا أنه أعطى أبا دجانة وسهل بن حنيف الأنصاريين لفقرهما ، وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله .

كانت غزوة بني النضير في ربيع الأول سنة ٤ من الهجرة ، أغسطس ٦٢٥ م وأنزل الله في هذه الغزوة سورة الحشر بأكمتها ، فوصف طرد اليهود ، وفضح مسلك المنافقين ، وبين أحكام الفيء ، وأثنى على المهاجرين والأنصار ، وبين جواز القطع والحرق في أرض العدو للمصالحة الحربية ، وأن ذلك ليس من الفساد في الأرض ، وأوصى المؤمنين بالتزام التقوى والاستعداد للآخرة ، ثم ختمها بالثناء على نفسه وبيان أسمائه وصفاته .

وكان ابن عباس يقول عن سورة الحشر : قل : سورة النضير^(١) .

غزوة نجد:

وبهذا النصر الذي أحرزه المسلمون – في غزوة بني النضير – دون تضحيات توطد سلطانهم في المدينة ، وتحاذل المنافقون عن الجهرة بكيدهم ، وأمكن الرسول ﷺ أن يتفرغ لقمع الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد أحد ، وتواكبوا على بعوث الدعاة يقتلون رجالها في نذالة وكفران^(٢) ، وبلغت بهم الحرجة إلى أن أرادوا القيام بمحرر غزوة على المدينة .

(١) ابن هشام ١٩٠ / ٢ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، زاد المعاد ٧١ / ٢ ، ١١٠ ، صحيح البخاري ٥٧٤ / ٢ ، ٥٧٥ .

(٢) كلمة لحمد الغزالى في فقه المسيرة ص ٢١٤ .

فقبل أن يقوم النبي ﷺ بتأديب أولئك الغادرين نقلت إليه استخبارات المدينة بتحشيد جموع البدو والأعراب منبني محارب ونبي ثعلبة من غطفان ، فسارع النبي ﷺ إلى الخروج ، يجوس فيافي نجد ، ويلقي بنذور الخوف في أفسدة أولئك البدو القساة ؛ حتى لا يعاددوا مناكرهم التي ارتكبواها مع المسلمين .

وأضحت الأعراب الذين مردوا على النهب والسطو لا يسمعون بقدم المسلمين إلا حذروا وتمنعوا في رؤوس الجبال . وهكذا أرهب المسلمون هذه القبائل المغيرة وخلطوا بمشاعرهم الرعب ، ثم رجعوا إلى المدينة آمنين .

وقد ذكر أهل المغازي والسير بهذا الصدد غزوة معينة غزاها المسلمون في أرض نجد في شهر ربيع الثاني أو جمادي الأولى سنة ٤ هـ ، ويسمون هذه الغزوة بغزوة ذات الرقاع . أما وقوع الغزوة خلال هذه المدة فلا شك فيه . وهذا الذي كانت تقتضيه ظروف المدينة ، فإن موسم غزوة بدر التي كان قد تواعد بها أبو سفيان حين انصرافه من أحد كان قد اقترب ، وإخلاء المدينة ، مع ترك البدو والأعراب على تمردهم وغضرناتهم ، والخروج مثل هذا اللقاء الرهيب - لم يكن من مصالح سياسة الحروب قطعاً ، بل كان لا بد من خضد شوكتهم ، وكف شرهم قبل الخروج مثل هذه الحرب الكبيرة التي كانوا يتوقعون وقوعها في رحاب بدر .

وأما أن تلك الغزوة التي قادها الرسول ﷺ في ربيع أو جمادي الأولى سنة ٤ هـ هي غزوة الرقاع فلا يصح ، فإن غزوة ذات الرقاع شهدتها أبو هريرة وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهم . وكان إسلام أبي هريرة قبل غزوة خيبر بأيام ، وكذلك أبو موسى الأشعري رضي الله عنه وافق النبي ﷺ بخيبر . وإذاً فغزوة ذات الرقاع بعد خيبر ، ويدل على تأخرها عن السنة الرابعة أن النبي ﷺ صلى فيها صلاة الخوف ، وكانت أول شرعية صلاة الخوف في غزوة عسفان ، ولا خلاف أن غزوة عسفان كانت بعد الخندق ، وكانت غزوة الخندق في أواخر السنة الخامسة .

غزوة بدر الثانية:

ولما خضد المسلمون شوكة الأعراب ، وكففوا شرهم ، أخذوا يتجهزون للاقتال عدوهم الأكبر ، فقد استدار العام ، وحضر الموعد المضروب مع قريش - في غزوة أحد - وحق

محمد ﷺ وصحابه أن يخرجوا؛ ليواجهوا أبا سفيان وقومه، وأن يديروا رحى الحرب كرة أخرى، حتى يستقر الأمر لأهدى الفريقين وأجدرهما بالبقاء^(١).

ففي شعبان سنة ٤ هـ يناير سنة ٦٢٦ مـ، خرج رسول الله ﷺ لموعده في ألف وخمسمائة، وكانت الخيل عشرة أفراس، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة وانتهى إلى بدر، فآقام بها ينتظر المشركين.

وأما أبو سفيان، فخرج في ألفين من مشركى مكة، ومعهم خمسون فرساناً، حتى انتهى إلى مر الظهران على بعد مرحلة من مكة فنزل بمجنة - ماء في تلك الناحية.

خرج أبو سفيان، من مكة متناقلًا، يفكر في عقى القتال مع المسلمين، وقد أخذه الرعب، واستولت على مشاعره الهيبة، فلما نزل بمر الظهران خار عزمه، فاحتال للرجوع، وقال لأصحابه: يا معاشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإنى راجع فارجعوا.

ويبدو أن الخوف والهيبة كانت مستولية على مشاعر الجيش أيضًا، فقد رجع الناس ولم يدوا أي مصادمة لهذا الرأي وأي إصرار وإلحاح على مواصلة السير للقاء المسلمين.

وأما المسلمون فأقاموا ببدر ثانية أيام يتظرون العدو، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا بدرهم درهمين، ثم رجعوا إلى المدينة وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم، وتوطدت هيئتهم في النفوس وسادوا على الموقف.

وتعرف هذه الغزوة ببدر الموعد، وبدر الثانية، وبدر الآخرة وبدر الصغرى^(٢).

غزوة دومة الجندل:

عاد رسول الله ﷺ من بدر، وقد ساد المنطقة الأمن والسلام، واطمأنت دولته، فتفرغ للتوجه إلى أقصى حدود العرب حتى تصير السيطرة للمسلمين على الموقف، ويعرف بذلك الموالون والمعادون.

(١) كلمة محمد الغزالى في فقه السيرة ٣١٥.

(٢) انظر لتفصيل هذه الغزوة ابن هشام ٢٠٩/٢ ، ٢١٠ ، زاد الم العاد ١١٢/٢.

مكث بعد بدر الصغرى في المدينة ستة أشهر ، ثم جاءت إليه القبائل حول دومة الجندل – قريباً من الشام – تقطع الطريق هناك ، وتهب ما يمر بها ، وأنها قد حشدت جمعاً كبيراً تزيد أن تهاجم المدينة ، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى ، وخرج في ألف من المسلمين خمس ليال بقين من ربيع الأول سنة ٥ هـ ، وأخذ رجلاً من بني عذرة دليلاً للطريق يقال له مذكور .

خرج يسير الليل ويكتن النهار ؟ حتى يفاجيء أعداءهم وهم غارون ، فلما دنا منهم إذا هم مغربون ، فهجم على ماشيتهم ورعايهم ، فأصاب من أصاب ، وهرب من هرب .

وأما أهل دومة الجندل ففروا في كل وجه ، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحداً ، وأقام رسول الله ﷺ أيامأ ، وبث السرايا وفرق الجيوش ، فلم يصب منهم أحداً ، ثم رجع إلى المدينة ، ووادع في تلك الغزوة عيينة بن حصن ، ودُومة بالضم ، موضع معروف بمشارف الشام ، بينما وبين دمشق خمس ليال ، وبعدها من المدينة خمس عشرة ليلة .

بهذه الإقدامات السريعة الخامسة ، وبهذه الخطط الحكيمية الخازمة نجح النبي ﷺ في بسط الأمن ، وتنفيذ السلام في المنطقة والسيطرة على الموقف ، وتحويل مجرى الأيام لصالح المسلمين ، وتحفيض المتاعب الداخلية والخارجية التي كانت قد تواتت عليهم ، وأحاطتهم من كل جانب ، فقد سكت المنافقون واستكانوا ، وتم إجلاء قبيلة من اليهود ، وبقيت الأخرى تظاهر بإيفاء حق الجوار وبإيفاء العهود والمواثيق ، واستكانت البدو والأعراب ، وحدت قريش عن مهاجمة المسلمين ، ووجد المسلمون فرصة لافتتاح الإسلام وتبلیغ رسالات رب العالمين .

غزوة الأحزاب

عاد السلام والأمن ، وهدأت الجزيرة العربية بعد الحروب والبعثات التي استغرقت أكثر من سنة كاملة ، إلا أن اليهود – الذين كانوا قد ذاقوا ألواناً من الذلة والهوان نتيجة غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم ودسائسهم – لم يفيقوا من غيهم ، ولم يستكينوا ولم يتعظوا بما أصابهم نتيجة الغدر والتآمر ، فبعد نفثهم إلى خير ظلوا يتظرون ما يحمل بال المسلمين نتيجة المناوشات التي كانت قائمة بين المسلمين والوثنيين . وما تحول بجرى الأيام لصالح المسلمين ، وتحضرت الليالي والأيام عن بسط نفوذهم ، وتوطد سلطانهم ، تحرق هؤلاء اليهود أي تحرق .

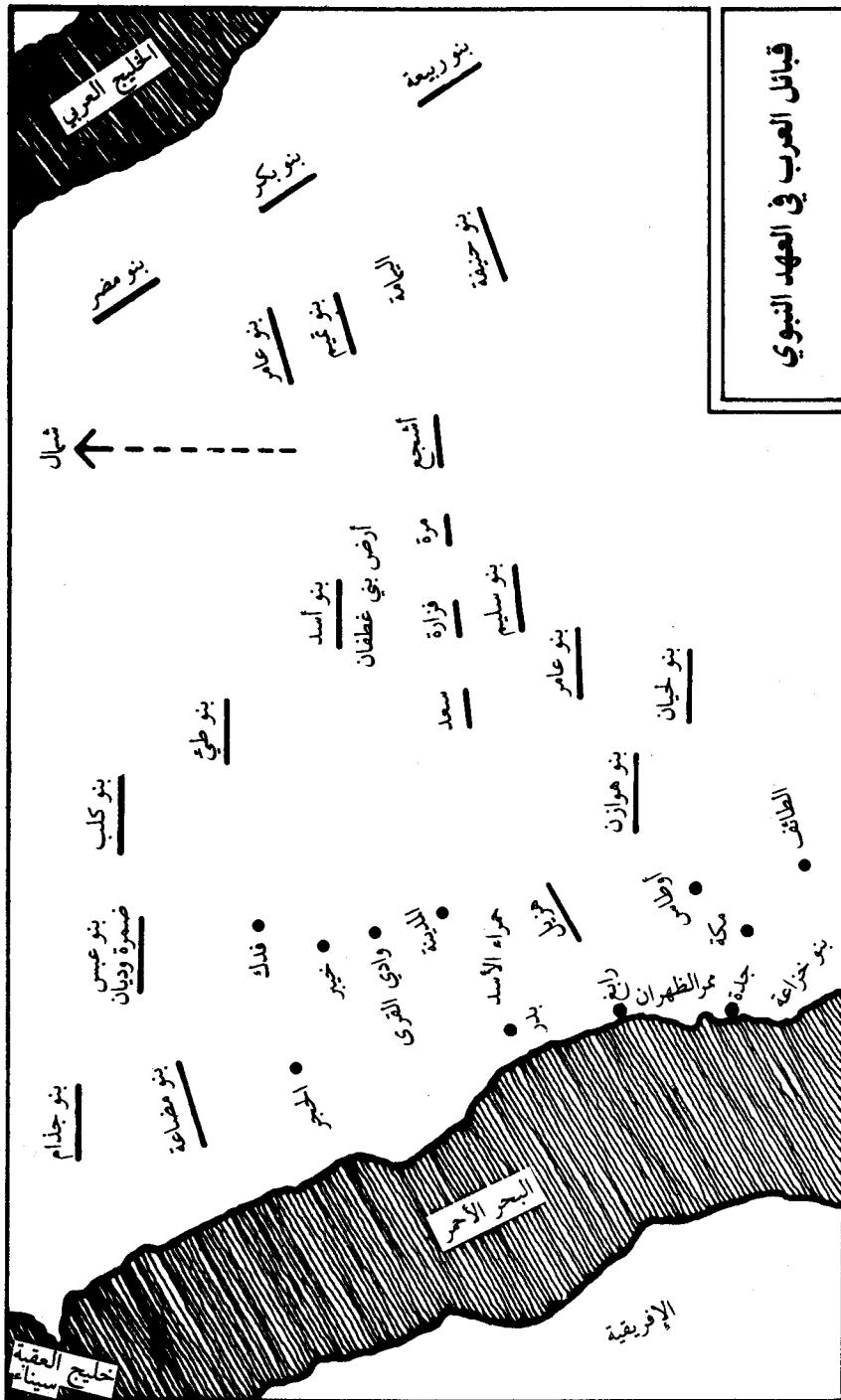
وشرعوا في التآمر من جديد على المسلمين ، وأخذنوا يعدون العدة ، لتهيئة ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لا حياة بعدها . ولما لم يكونوا يجدون في أنفسهم جرأة على مناورة المسلمين مباشرة ، خططوا لهذا الغرض خطة رهيبة .

خرج عشرون رجلاً من زعماء اليهود وسادات بني النضير إلى قريش بمكة ، يحرضونهم على غزو الرسول ﷺ ، ويولونهم عليه ، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم ، فأجابتهم قريش ، وقريش قد أخلفت وعدها في الخروج إلى بدر ، فرأيت في ذلك إنقاذ سمعتها والبر بكلمتها .

ثم خرج هذا الوفد إلى غطفان ، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشاً ، فاستجابوا لذلك ، ثم طاف الوفد في قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك ، فاستحباب له من استجاب ، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبي ﷺ ودعونه والمسلمين .

وفعلاً خرجت من الجنوب قريش وكنانة وحلفاءهم من أهل تهامة – وقادتهم أبو سفيان – في أربعة آلاف ، ووافاهم بنو سليم ببر الظهران ، وخرجت من الشرق قبائل غطفان : بنو فزار ،

قبائل العرب في العهد النبوي



يقودهم عيينة بن حصن ، وبنو مرة ، يقودهم الحارث بن عوف ، وبنو أشجع يقودهم مسمر بن رخيلا كا خرجت بنو أسد وغيرها .

واتجهت هذه الأحزاب ، وتحركت نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه .

وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش عرمي يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، جيش ربما يزيد عدده على جميع من في المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيخوخة .

ولو بلغت هذه الأحزاب المخربة والجنود المجندة إلى أسوار المدينة بغتة لكان أعظم خطر على كيان المسلمين مما يقاس ، ربما تبلغ إلى استئصال الشافة وإبادة الحضراء ، ولكن قيادة المدينة كانت قيادة متيقظة ، لم تزل واضعة أناملها على العروق النابضة ، تجسس الظروف ، وتقدر ما يتم خوض عن مجراتها ، فلم تكدر تتحرك هذه الجيوش عن مواضعها حتى نقلت استخبارات المدينة إلى قيادتها فيها بهذا الرزف الخطير .

وسرع رسول الله ﷺ إلى عقد مجلس استشاري أعلى ، تناول فيه موضوع خطة الدفاع عن كيان المدينة ، وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى ، اتفقوا على قرار قدمه الصحابي النبيل سلمان الفارسي رضي الله عنه . قال سلمان : يا رسول الله ، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصروا خندقنا علينا – وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك – .

وسرع رسول الله ﷺ إلى تنفيذ هذه الخطة ، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يخروا من الخندق أربعين ذراعاً .

وقام المسلمون بجد ونشاط يخرون الخندق ، ورسول الله ﷺ يحثهم ويساهمهم في عملهم هذا ، ففي البخاري عن سهل بن سعد ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق ، وهو يخرون ، ونحن ننقل التراب على أكبادنا^(١) ، فقال رسول الله ﷺ :

اللَّهُمَّ لَا يَعِيشُ إِلَّا يَعِيشُ الْآخِرَةُ فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ^(٢)

وعن أنس : خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فإذا المهاجرون والأنصار يخرون في غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم . فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال :

(١) أكبادنا : بالمشاة جمع كَبَدٌ وهو ما بين الكاهل إلى الظهر .

(٢) صحيح البخاري باب غزوة الخندق ٥٨٨/٢ .

اللهم إِن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والهاجرة
قالوا مجيبين له :

نَحْنُ الَّذِينَ بَاسَاعُوا مُحَمَّداً عَلَى الْجَهَادِ مَا بَقِيَنَا أَبْدًا^(١)
وَفِيهِ عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : رَأَيْتَهُ عَلَيْهِ سَلَامٌ يَنْقُلُ مِنْ تَرَابِ الْخَنْدَقِ حَتَّى وَارَى عَنِ الْغَبَارِ
جَلْدَةَ بَطْنِهِ ، وَكَانَ كَثِيرُ الشِّعْرِ ، فَسَمِعَتْهُ يَرْجُزُ بِكَلْمَاتِ ابْنِ رَوَاحَةَ ، وَهُوَ يَنْقُلُ مِنَ التَّرَابِ ،
وَيَقُولُ :

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدِينَا
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا
إِنَّ الْأَلْيَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا
وَإِنْ أَرَادُوا فَتْنَةً أَيْنَا
قَالَ : ثُمَّ يَمْدُّ بِهَا صَوْتَهُ بَآخِرِهَا ، وَفِي رِوَايَةٍ :

إِنَّ الْأَلْيَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فَتْنَةً أَيْنَا^(٢)

كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَعْمَلُونَ بِهَذَا النِّشَاطِ وَهُمْ يَقْاسُونَ مِنْ شَدَّةِ الْجُوعِ ، مَا يَفْتَنُ الْأَكْبَادَ قَالَ
أَنْسٌ : (كَانَ أَهْلُ الْخَنْدَقِ) يَؤْتُونَ بَلْءَ كَفِيَّ مِنَ الشَّعْرِ ، فَيَصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَيِّنَةً^(٣) تَوْضِعُ
بَيْنَ يَدِيِّ الْقَوْمِ ، وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ ، وَهِيَ بَشْعَةٌ فِي الْحَلْقِ وَهَا رَبْعٌ مُّتَنَّ .

وَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامِ الْجُوعَ فَرَفَعْنَا عَنْ بَطْوَنَنَا عَنْ حَجْرٍ حَجْرٍ ،
فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ حَجْرَيْنِ^(٤) .

وَهَذِهِ الْمَنَاسِبَةُ وَقَعَ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ آيَاتٍ مِّنْ أَعْلَامِ النَّبِيِّ ، رَأَى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي
النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَصَاً شَدِيداً ، فَذَبَحَ بَهِيمَةً وَطَحَنَتْ امْرَأَتُهُ صَاعَةً مِنْ شَعِيرٍ ثُمَّ التَّمَسَّ مِنْ
رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَرَاً أَنْ يَأْتِي فِي نَفْرٍ مِّنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَامَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِجَمِيعِ أَهْلِ الْخَنْدَقِ ، وَهُمْ
أَلْفَ فَأَكَلُوا مِنْ ذَلِكَ الطَّعَامِ وَشَبَّعُوا ، وَبَقِيتْ بِرْمَةِ الْلَّحْمِ تَغْطِي بَهُ كَمَا هِيَ ، وَبَقِيَ الْعُجَنْ يَخْبِزُ كَمَا

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر ٥٨٩/٢ .

(٣) نفس المصدر ٥٨٨/٢ . وَالْإَهَالَةُ : الْدَّهْنُ الَّذِي يُؤْتَمْ بِهِ سَوَاءً كَانَ زِيَّاً أَوْ سَمَّاً أَوْ شَحْمَاً سَنَحةً : أَيْ تَغْرِي
طَعْمَهَا وَلَوْنَهَا مِنْ قَدْمَهَا .

(٤) رواه الترمذى مشكاة المصابيح ٤٤٨/٢ .

هو^(١) . وجاءت أخت النعمان بن بشير بحفنة من تمر إلى الخندق ليتغدى أبوه وخاله ، فمررت برسول الله ﷺ فطلب منها التمر وبدده فوق ثوب ، ثم دعا أهل الخندق فجعلوا يأكلون منه . وجعل التمر يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنه يسقط من أطراف الثوب^(٢) .

وأعظم من هذين ما رواه البخاري عن جابر قال : إنا يوم الخندق نخفر ، فعرضت كدية شديدة ، فجاؤها النبي ﷺ فقالوا : هذه كدية عرضت في الخندق ، فقال : أنا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر – ولبنتا ثلاثة لا نذوق ذواقاً – فأخذ النبي ﷺ المعلول ، فضرب فعاد كثيناً أهيل أو أهيم^(٣) ، أي صار رملًا لا يتتسك .

وقال البراء : لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول ، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ ، فجاء وأخذ المعلول فقال : بسم الله ثم ضرب ضربة ، وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة ، ثم ضرب الثانية قطع آخر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت فارس ، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن ، ثم ضرب الثالثة ، فقال : بسم الله ، قطع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صناعة من مكاني^(٤) .

وروى ابن إسحاق مثل ذلك عن سلمان الفارسي رضي الله عنه^(٥) .

ولما كانت المدينة تحيط بها الحرات والجبال وبساتين من التخيل من كل جانب سوى الشمال ، وكان النبي ﷺ يعلم كخبير عسكري حاذق أن زحف مثل هذا الجيش الكبير ، ومهاجمة المدينة – لا يمكن إلا من جهة الشمال ، اتخذ الخندق في هذا الجانب .

وواصل المسلمون عملهم في حفره ، فكانوا يحفرون طول النهار ، ويرجعون إلى أهليهم في

(١) روى ذلك البخاري ٥٨٨/٢ ، ٥٨٩ .

(٢) ابن هشام ٢١٨/٢ .

(٣) صحيح البخاري ٥٨٨/٢ .

(٤) سنن النسائي ٥٦/٢ ، وأحمد في مسنده واللفظ ليس للنسائي ، وفيه عن رجل من الصحابة .

(٥) ابن هشام ٢١٩/٢ .

المساء ، حتى تكامل الخندق حسب الخطة المنشودة ، قبل أن يصل الجيش الوثني العرمم إلى أسوار المدينة^(١) .

وأقبلت قريش في أربعة آلاف ، حتى نزلت مجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزعابة ، وأقبلت غطfan ومنتبعهم من أهل نجد في ستة آلاف حتى نزلوا بذنب نعمى إلى جانب أحد .

﴿ وَلَمَّا رَأَهُ الْمُؤْمِنُونَ الْأَخْرَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (٣٣ : ٢٢) .

وأما المنافقون وضعفاء النفوس فقد تزعرت قلوبهم لرؤية هذا الجيش ﴿ وَلَذِي قُولُ الْمُنَذِّفُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَإِلَّا عُرُورًا ﴾ (٣٣ : ١٢) .

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين ، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع فتحصنتوا به ، والخندق بينهم وبين الكفار . وكان شعارهم « حم لا ينصرون » ، واستختلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في آطام المدينة .

ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة ، وجدوا خندقاً عريضاً يحول بينهم وبينها ، فالتوجهوا إلى فرض الحصار على المسلمين ، بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم ، إذ كانت هذه الخطة - كما قالوا - مكيدة ما عرفتها العرب ، فلم يكونوا أدخلوها في حسابهم رأساً .

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضباً ، يتحسرون نقطة ضعيفة ؛ لينحدروا منها وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين ، يرشقونهم بالليل ، حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه ، ولا يستطيعوا أن يقتحموه ، أو يهيلوا عليه التراب ، ليبيوا به طريقاً يمكنهم من العبور .

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدو في ترقب نتائج الحصار ، فإن ذلك لم يكن من شيمهم ، فخرجت منها جماعة فيها عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وغيرهم ، فتيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه ، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسلع ، وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الشغرة التي أقحموا منها خيالهم ، ودعا عمرو إلى المبارزة ، فانتدب له علي بن أبي طالب ، وقال

(١) نفس المصدر ٣٣١ ، ٣٣٠ / ٣

كلمة حمي لأجلها - وكان من شجعان المشركين وأبطالهم - فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على عليٍّ ، فتجاولا وتصاولا ، حتى قتله علي رضي الله عنه ، وانهزم الباقيون حتى اقتحموا من الخندق هاربين ، وقد بلغ بهم الرعب إلى أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزم عن عمرو .

وقد حاول المشركون في بعض الأيام محاولة بليعة ، لاقتحام الخندق ، أو لبناء الطرق فيها ، ولكن المسلمين كافحوا مكافحة مجيدة ، ورشقوهم بالنبل وناضلوهم أشد النضال حتى فشل المشركون في محاولتهم .

ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة فات بعض الصلوات عن رسول الله ﷺ والمسلمين ، ففي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه : أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق ، فجعل يسب كفار قريش . فقال : يا رسول الله ما كدت أن أصلى حتى كادت الشمس أن تغرب ، فقال النبي ﷺ : « والله ما صليتها » ، فنزلنا مع النبي ﷺ بطحان ، فتوضاً للصلوة وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب^(١) .

وقد استاء رسول الله ﷺ لفوات هذه الصلوة حتى دعا على المشركين ، ففي البخاري عن علي عن النبي ﷺ أنه قال يوم الخندق : ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كا شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس^(٢) .

وفي مسند أحمد والشافعي أنهم حبسوه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، فصلاهن جميعاً . قال النووي : وطريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أيامًا فكان هذا في بعض الأيام ، وهذا في بعضها . انتهى^(٣) .

ومن هنا يؤخذ أن محاولة العبور من المشركين ، والمكافحة المتواصلة من المسلمين دامت أيامًا ، إلا أن الخندق لما كان حائلًا بين الجيшиين لم يجر بيهما قتال مباشر وحرب دامية ، بل اقتصروا على المراومة والمناضلة .

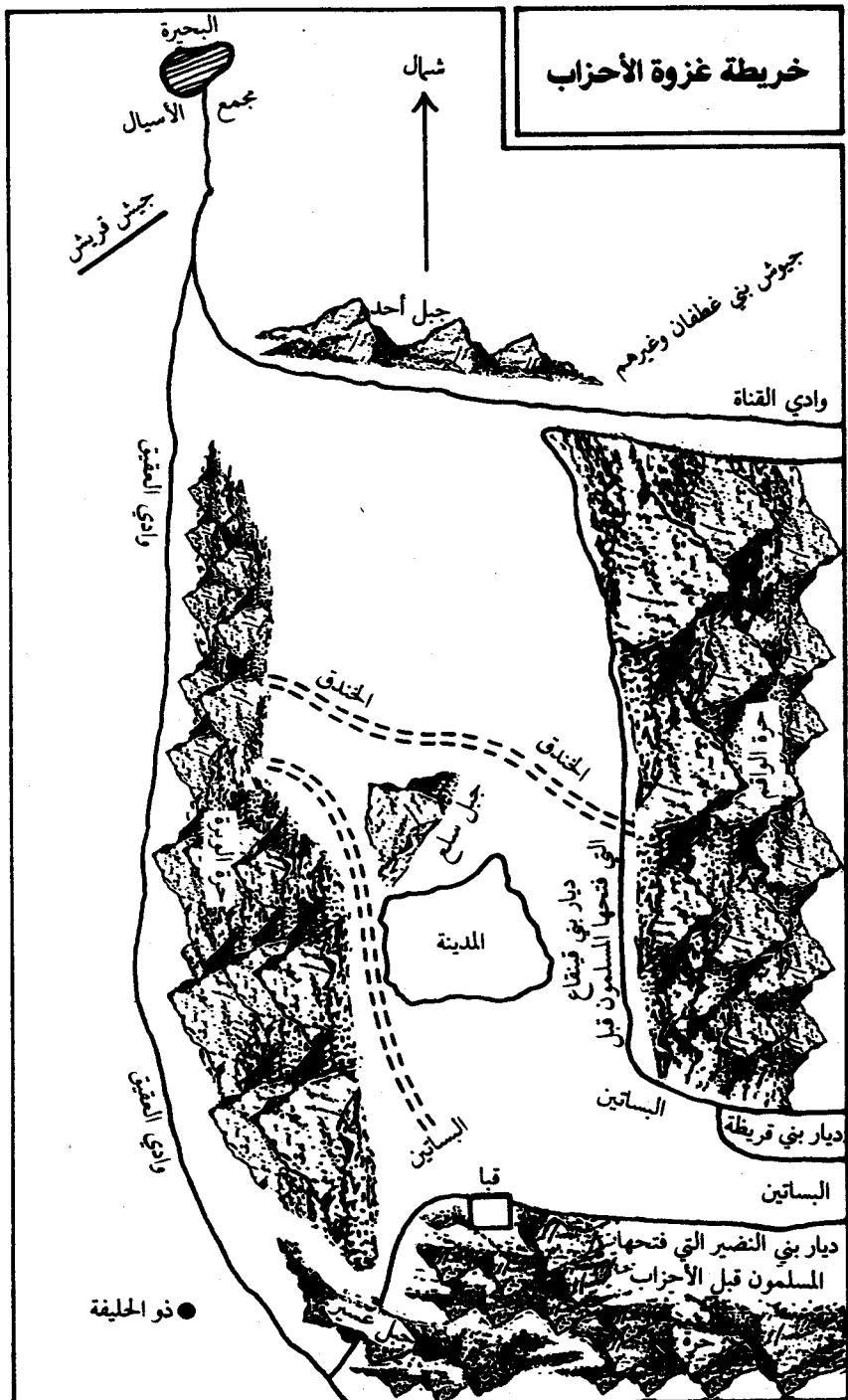
وفي هذه المراومة قتل رجال من الجيшиين ، يعدون على الأصابع ستة من المسلمين وعشرة من المشركين ، بينما كان قتل واحد أو اثنين منهم بالسيف .

(١) صحيح البخاري ٥٩٠/٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٨٧ ، وشرح مسلم للنووي ٢٢٧/١ .

خريطة غزوة الأحزاب



وفي هذه المراマة رُمي سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم فقطع منه الأكحل ، رماه رجل من قريش يقال له حبان بن العرقة ، فدعا سعد : اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليَّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه ، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيتنا وبينهم ، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقي لهم ؛ حتى أجاهدهم فيك ، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتني فيها^(١) . وقال في آخر دعائه : ولا تمني حتى تقر عيني من بني قريطة^(٢) .

وبينا كان المسلمون يواجهون هذه الشدائِد على جبهة المعركة كانت أفعاعي الدس والتامر تتقلب في جحورها ، تريد إيصال السم داخل أجسادهم . انطلق كبير مجرمي بني النضير إلى ديار بني قريطة ، فأتى كعب بن أسد القرطي – سيد بني قريطة ، وصاحب عقدهم وعهدهم ، وكان قد عاقد رسول الله ﷺ على أن ينصره إذا أصابته حرب كما تقدم – فضرب عليه حبي الباب ، فأغلقه كعب دونه ، فما زال يكلمه حتى فتح له بابه ، فقال حبي : إني قد جئتكم يا كعب بعزم الدهر وبحر طام ، جئتكم بقريش على قادتها وсадتها ، حتى أنزلتهم بمجمع الأسياخ من رومة ، وبغطfan على قادتها وсадتها حتى أزلتهم بذنب نقمي إلى جانب أحد ، قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه .

فقال له كعب : جئتك والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه ، فهو يرعد ويبرق ، ليس فيه شيء ، وبمحك يا حبي ! فدعوني وما أنا عليه ، فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً .

فلم يزل حبي يكتب يفتله في الذروة والغارب ، حتى سمح له على أن أعطاه عهداً من الله وميشاقاً : لعن رجعت قريش وغضفان ، ولم يصيروا محمدًا أن أدخل معك في حصنك ، حتى يصيبيني ما أصابك ، فقضى كعب بن أسد عهده ، وبرىء مما كان بينه وبين المسلمين ، ودخل مع المشركين في المحاربة ضد المسلمين^(٣) .

وفعلًا قد قاتلت بہود بني قريطة بعمليات الحرب . قال ابن إسحاق : كانت صفية بنت عبد المطلب في فارع حصن حسان بن ثابت ، وكان حسان فيه مع النساء والصبيان ، قالت

(١) صحيح البخاري ٥٩١/٣ .

(٢) ابن هشام ٣٣٧/٣ .

(٣) ابن هشام ٢٢١ ، ٢٢٠/٢ .

صفية : فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، وقد حارت بنو قريظة ، وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عننا ، ورسول الله ﷺ وال المسلمين في نحور عدوهم ، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إن أثانا آت ، قالت : فقلت يا حسان ، إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن ، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عننا رسول الله ﷺ وأصحابه ، فأنزل إلية فاقته . قال : والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، قالت : فاحتجزت^(١) ثم أخذت عموداً ، ثم نزلت من الحصن إليه ، فضربته بالعمود حتى قتلتة ، ثم رجعت إلى الحصن ، وقلت : يا حسان انزل إلية فاسله ، فإنه لم يعنني من سلبه إلا أنه رجل . قال : ما لي بسلبه من حاجة^(٢) .

وقد كان لهذا الفعل الجيد من عمة الرسول ﷺ أثر عميق في حفظ ذراري المسلمين ونسائهم ، ويبدو أن اليهود ظنوا أن هذه الآطام والخصوص في منعة من الجيش الإسلامي – مع أنها كانت خالية عنهم تماماً – فلم يجترئوا مرة ثانية للقيام بمثل هذا العمل ، إلا أنهم أخذوا يهدون الغزاة الوثنين بالمؤمن كدليل عملي على ابضمامهم إليهم ضد المسلمين ، حتى أخذ المسلمين من مؤئهم عشرين جملأ .

وانتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين فبادر إلى تحقيقه ، حتى يستجيhi موقف قريظة ، فواجهه بما يجب من الوجهة العسكرية ، وبعث لتحقيق الخبر السعديين : سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وعبد الله بن رواحة ، وخوات بين جبير ، وقال : « انطلقوا حتى تنتظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه ، ولا تفتوا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس ». فلما دنوا منهم وجدوهم على أختب ما يكون ، فقد جاهروهم بالسب والعداوة ، ونالوا من رسول الله ﷺ ، وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ، ولا عقد . فانصرفوا عنهم ، فلما أقبلوا على رسول الله ﷺ لحنوا له ، وقالوا : عضل وقارة ، أي أنهم على غدر ، كغدر عضل وقارة بأصحاب الرجيع .

(١) احتجزت : شدت وسطها .

(٢) ابن هشام ٢/٢٨ . يحمل هذا الحديث على أن حساناً كان جباناً ، وقد دفع هذا بعض العلماء وأنكروه ، وذلك أن الحديث منقطع الإسناد ، ولو صحي طجي به حسان ، وإن صحي الحديث فربما كان حسان معتلاً في ذلك اليوم ، وهذا أول ما تأول .

وعلى رغم محاولتهم إخفاء الحقيقة تفطن الناس جلية الأمر ، فتجسد أمامهم خطر رهيب .

وقد كان أحوج موقف يقفه المسلمون ، فلم يكن يحول بينهم وبين قريطة شيء يمنعهم من ضربهم من الخلف ، بينما كان أمامهم جيش عمر لم يكنوا يستطيعون الانصراف عنه ، وكانت ذرارةهم ونسائهم بقريبة من هؤلاء الغادرين في غير منعة وحفظ ، وصاروا كما يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ رَأَيْتَ الْأَبْصَرَ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظَرُوكُنَّ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴾ ﴿ هُنَالِكَ أَبْتُلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلَّلُوا زَلَّا لِأَشَدِيدًا ﴾ (٣٢ : ١٠ ، ١١) ونجم النفاق من بعض المنافقين ، حتى قال : كان حمداً يعدنا أن نأكل كوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط . وحتى قال بعض آخر في ملأ من رجال قومه : إن بيوتنا عورة من العدو ، فإذا ذكرنا أن نخرج ، فنرجع إلى دارنا ، فإنها خارج المدينة ، وحتى همت بنو سلمة بالفشل وفي هؤلاء أنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَفِّقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ مَا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولَهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ﴿ وَإِذْ قَاتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَتَاهُلُّ بِيَرِبَ لِأَمْقَامَ لَكُمْ فَأَرْجِعُوهُ وَيَسْتَعِذُنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ لَتَهْ يَقُولُونَ إِنَّهُمْ بِيُوْتَنَاعِرَةٍ وَمَا هُنَّ بِعُورَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (٣٣ : ١٢ ، ١٣) .

أما رسول الله ﷺ فتنقن بشوبه حين أتاه غدر قريطة ، فاضطجع ومكث طويلاً ، حتى اشتد على الناس البلاء ، ثم غلت به روح الأمل ، فنهض يقول : « الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره » ، ثم أخذ يخطط لمحابية الظرف الراهن ، وكجزء من هذه الخطة كان يبعث الحرس إلى المدينة ؛ لئلا يُوقِّي الذرياري والنساء على غرة ، ولكن كان لا بد من إقدام حاسم ، يفضي إلى تخاذل الأحزاب ، وتحقيقاً لهذا الهدف أراد أن يصالح عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة ؛ حتى ينصرفا بقومهما ، وبخلو المسلمين لإلحاد المزيفة الساحقة العاجلة على قريش التي اختبروا مدى قوتها وبأسها مراراً ، وجرت المراوضة على ذلك ، فاستشار السعدين في ذلك ، فقالا : يا رسول الله إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة ، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه ، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهداانا له ، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف ، فصوّب رأيهما وقال : « إنما هو شيء أصنعه لكم ، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة » .

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجْلَ - وَلَهُ الْحَمْدُ - صَنَعَ أَمْرًا مِّنْ عَنْدِهِ خَذَلَ بِهِ الْعَدُوُ ، وَهُزِمَ جَمْعُهُمْ ، وَفَلَ حَدَّهُمْ ، فَكَانَ مَا هِيَا مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا مِّنْ غُطْفَانَ يَقَالُ لَهُ نَعِيمَ بْنَ مُسْعُودَ بْنَ عَامِرَ الْأَشْجَعِيَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ ، وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِيمَانِي ، فَمَرَنِي مَا شَاءَتْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ ، فَخَذَلَ عَنَا مَا اسْتَطَعْتَ ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ ، فَذَهَبَ مِنْ فُورِهِ إِلَى بَنِي قَرِيظَةَ - وَكَانَ عَشِيرًا لَّهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ - فَدَخَلُوا عَلَيْهِمْ وَقَالُوا : قَدْ عَرَفْتُمْ وَدِيَ إِيَّاكمْ ، وَخَاصَّةً مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، قَالُوا : صَدِقْتُ . قَالَ : فَإِنَّ قَرِيشًا لَّيْسُوا مِثْلَكُمْ ، الْبَلْدَ بَلْدُكُمْ فِيهِ أَمْوَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنَسَاؤُكُمْ ، لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَتَحَوَّلُوا مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ ، وَإِنَّ قَرِيشًا وَغُطْفَانَ قَدْ جَاؤُوكُمْ لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ ، وَقَدْ ظَاهَرُوكُمْ عَلَيْهِ ، وَبِلَدُهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَنَسَاؤُهُمْ بَغْرِهِ ، فَإِنَّ أَصَابُوكُمْ فَرْصَةً اتَّهَزُوكُمْ ، وَإِلَّا لَخَقَوا بِيَلَادِهِمْ وَتَرَكُوكُمْ وَمُحَمَّدًا فَانتَقِمُ مِنْكُمْ ، قَالُوا فَمَا الْعَمَلُ يَا نَعِيمَ ؟ قَالَ : لَا تَقْاتِلُوكُمْ مَعْهُمْ حَتَّى يَعْطُوكُمْ رِهَانَنِ . قَالُوا : لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ .

ثُمَّ مَضَى نَعِيمُ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى قَرِيشٍ ، وَقَالَ لَهُمْ : تَعْلَمُونَ وَدِي لَكُمْ وَنَصْحِي لَكُمْ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : إِنَّ الْيَهُودَ قَدْ نَدَمُوا عَلَى مَا كَانُوا مِنْهُمْ مِنْ نَفْضِ عَهْدِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ ، وَإِنَّهُمْ قَدْ رَاسَلُوهُ أَنْهُمْ يَأْخُذُونَ مِنْكُمْ رِهَانَنِ يَدْفَعُونَهُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ يَوْلُونَهُ عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّ سَأْلَوكُمْ رِهَانَنِ فَلَا تَعْطُوهُمْ ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى غُطْفَانَ ، فَقَالَ لَهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ .

فَلَمَّا كَانَ لِيَلَةُ السَّبْتِ مِنْ شَوَّالٍ - سَنَةُ ٥٦ - بَعْثَوْا إِلَى الْيَهُودَ : أَنَا لَسْنَا بِأَرْضِ مَقَامِ ، وَقَدْ هَلَكَ الْكَرَاعُ وَالْخَفُ ، فَانْهَضُوا بِنَا حَتَّى نَاجِزَ مُحَمَّدًا ، فَأُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الْيَهُودُ أَنَّ الْيَوْمَ هُوَ يَوْمُ السَّبْتِ ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَصَابَ مِنْ قَبْلِنَا حِينَ أَحَدَثُوا فِيهِ ، وَمَعَهُمْ هَذَا فَإِنَا لَا نَقْاتِلُكُمْ حَتَّى تَبْعَثُو إِلَيْنَا رِهَانَنِ . فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِذَلِكَ قَالَتْ قَرِيشٌ وَغُطْفَانٌ : صَدَقْتُمْ وَاللَّهُ نَعِيمُ ، فَبَعْثَوْا إِلَى الْيَهُودَ : إِنَّا وَاللَّهُ لَا نُرْسِلُ إِلَيْكُمْ أَحَدًا ، فَاقْتَرَبُوكُمْ مَعْنًا حَتَّى نَاجِزَ مُحَمَّدًا . فَقَالَتْ قَرِيشَةُ : صَدَقْتُمْ وَاللَّهُ نَعِيمُ . فَتَخَذِّلُ الْفَرِيقَيْنَ ، وَدَبِّتُ الْفَرْقَةَ بَيْنَ صَفَوفِهِمْ ، وَخَارَتْ عَزَّائِهِمْ .

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَدْعُونَ اللَّهَ تَعَالَى : « اللَّهُمَّ اسْتَرْ عُورَاتَنَا وَآمِنْ رُوَاعَاتَنَا » وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْأَحْزَابِ ، قَالَ : « اللَّهُمَّ مَنْزَلُ الْكِتَابِ ، سَرِيعُ الْحِسَابِ ، اهْزِمُ الْأَحْزَابَ ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ »^(١) .

(١) صحيح البخاري كتاب الجهاد ٤١١/١ ، وكتاب المغازي ٥٩٠/٢

وقد سمع الله دعاء رسوله وال المسلمين ، فبعد أن دبت الفرقة في صفوف المشركين ، وسرى بينهم التخاذل ، أرسل الله عليهم جنداً من الريح ، فجعلت تقوس خيامهم ، ولا تدع لهم قدرأ إلا كفافها ، ولا طبأ إلا قلعته ، ولا يقر لهم قرار ، وأرسل جنداً من الملائكة ينزلونهم ، ويقولون في قلوبهم الرعب والخوف .

وأرسل رسول الله ﷺ في تلك الليلة الباردة القارسة حذيفة بن البشّان يأتيه بخبرهم ، فوجدهم على هذه الحال ، وقد تهياوا للرحيل ، فرجع إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره برحيل القوم ، فأصبح رسول الله ﷺ وقد رد الله عدوه بغيظه لم ينالوا خيراً ، وكفاه الله قاتلهم ، فصدق وعده ، وأعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فرجع إلى المدينة .

وكانت غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين ، وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ والمسلمين شهراً أو نحو شهر ، ويدو بعد الجمع بين المصادر أن بداية فرض الحصار كانت في شوال ، ونهايته في ذي القعدة ، وعند ابن سعد أن انصرف رسول الله ﷺ من الخندق كان يوم الأربعاء لسبعين بقين من ذي القعدة .

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر ؛ بل كانت معركة أعصاب ، لم يجر فيها قتال مميت ، إلا أنها كانت من أحمق المعارك في تاريخ الإسلام ، تميخت عن تخاذل المشركين ، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التي تنموا في المدينة ، لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتي بجمع أقوى مما أتت به في الأحزاب ، ولذلك قال رسول الله ﷺ حين أجلى الله الأحزاب : « الآن نغزوه ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم »^(١) .

(١) صحيح البخاري ٥٩٠/٢ .

غزوة بنى قريظة

وفي اليوم الذي رجع فيه رسول الله إلى المدينة ، جاءه جبريل عليه السلام عند الظهر ، وهو يقتتل في بيت أم سلمة ، فقال : أو قد وضعت السلاح ؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، فانهض بن معلم إلى بنى قريظة ، فإني سأر أمامك أزلزل بهم حصونهم ، وأقذف في قلوبهم الرعب ، فسار جبريل في موكيه من الملائكة .

فأمر رسول الله عليه السلام مؤذناً فاذن في الناس : من كان ساماً مطيناً فلا يصلين العصر إلا بنى قريظة . واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وأعطي الرایة على بن أبي طالب ، وقدمه إلى بنى قريظة فسار على حتى إذ دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله عليه السلام .

وخرج رسول الله عليه السلام في موكيه من المهاجرين والأنصار ، حتى نزل على بئر من آبار قريظة يقال لها بئر أنا ، ويادر المسلمين إلى امثال أمره ، ونهضوا من فورهم ، وتحركوا نحو قريظة ، وأدركتهم العصر في الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلحها إلا في بنى قريظة كما أمرنا ، حتى أن رجالاً منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة ، وقال بعضهم : لم يرد منا ذلك ، وإنما أراد سرعة الخروج ، فصلوها في الطريق ، فلم يعنف واحدة من الطائفتين .

هكذا تحرك الجيش الإسلامي نحو بنى قريظة أرسلاً ، حتى تلاحقوا بالنبي عليه السلام ، وهم ثلاثة آلاف ، والخيل ثلاثون فرساناً ، فنازلوا حصون بنى قريظة ، وفرضوا عليهم الحصار . ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلات خصال : إما أن يسلموا ، ويدخلوا مع محمد عليه السلام في دينه ، فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم – وقد قال لهم : والله لقد تبين لكم أنه النبي مرسلاً ، وأنه الذي تجدونه في كتابكم – وإما أن يقتلوا ذرائهم ونساءهم بأيديهم ، وبخروا إلى النبي عليه السلام بالسيوف مصلتين ، ينجزونه حتى يظفروا بهم ، أو يقتلوا عن آخرهم ، وإما أن يهجموا على رسول الله عليه السلام وأصحابه ، ويكتبوا يوم السبت ؛ لأنهم قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه ، فأبوا أن يجيئوه إلى واحدة من هذه الخصال الثلاث ،

وحيثند قال سيدهم كعب بن أسد (في ازعاج وغضب) : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً .

ولم يق لقريطة بعد رد هذه الخصال الثلاث إلا أن يتزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، لكنهم أرادوا أن يتصلوا ببعض حلفائهم من المسلمين ، لعلهم يتعرفون ماذا سيحل بهم إذا نزلوا على حكمه ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن أرسل إلينا أبو لبابة نستشيره ، وكان حليفاً لهم ، وكانت أمواله وولده في منطقتهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال ، وجهش النساء والصبيان يكون في وجهه ، فرق لهم ، وقالوا : يا أبو لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال : نعم ! وأشار بيده إلى حلقه ، يقول إنه الذبح ، ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله فمضى على وجهه ، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ ، حتى أتى المسجد النبوى بالمدينة ، فربط نفسه بسارية المسجد ، وحلف أن لا يحمله إلا رسول الله ﷺ بيده ، وأنه لا يدخل أرضبني قريطة أبداً . فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره – وكان قد استبطأه – قال : أما أنه لو جاءنى لاستغرت له ، أما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه .

ويرغم ما وأشار إليه أبو لبابة فترت قريطة النزول على حكم رسول الله ﷺ ، ولقد كان باستطاعة اليهود أن يتحملوا الحصار الطويل ؛ لتوفر المواد الغذائية والمياه والأبار ومناعة الحصون ، ولأن المسلمين كانوا يقايسون البرد القارس والجوع الشديد وهم في العراء ، مع شدة التعب الذي اعتراهم ؛ لمواصلة الأعمال الحربية من قبل بداية معركة الأحزاب ، إلا أن حرب قريطة كانت حرب أعصاب ، فقد قذف الله في قلوبهم الرعب ، وأخذت معنوياتهم تهار ، وبلغ هذا الانهيار إلى نهايته أن تقدم علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وصاح علي : يا كثيبة الإيمان ، والله لأذوقن ما ذاق حزنة أو لأفتحن حصنهم .

وحيثند بادروا إلى النزول على حكم رسول الله ﷺ ، وأمر رسول الله ﷺ باعتقال الرجال ، فوضعت القيود في أيديهم تحت إشراف محمد بن مسلمة الأننصاري، وجعلت النساء والذراري معزز عن الرجال في ناحية ، وقامت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، قد فعلت في بنى قينقاع ما قد علمت ، وهم حلفاء إخواننا المخرج ، وهؤلاء موالينا ، فأحسن فيما ، فقال : ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا : بلى ، قال : فذاك إلى سعد بن معاذ . قالوا : قد رضينا .

فأرسل إلى سعد بن معاذ ، وكان في المدينة ، لم يخرج معهم ؛ للجرح الذي كان أصحابه في معركة الأحزاب ، فاركب حماراً ، وجاء إلى رسول الله ﷺ ، فجعلوا يقولون وهم كنفيه : يا سعد ، أجمل في مواليك فأحسن فيهم ، فإن رسول الله ﷺ قد حكمك لتحسين فيهم ، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئاً ، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم ، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فعنهم القوم .

ولما انتهى سعد إلى النبي ﷺ قال للصحابة : قوموا إلى سيدكم . فلما أزلوه قالوا : يا سعد ، إن هؤلاء القوم قد نزلوا على حكمك . قال : وحكمي نافذ عليهم ؟ قالوا : نعم . قال : وعلى المسلمين ؟ قالوا : نعم . قال : وعلى من هنأ ؟ – وأعرض بوجهه ، وأشار إلى ناحية رسول الله ﷺ إجلالاً له وتعظيمها – قال : نعم وعلىي . قال : فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال ، وتسبى الذرية ، وتقسم الأموال ، فقال رسول الله ﷺ : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات .

وكان حكم سعد في غاية العدل والإنصاف ، فإن بني قريظة بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع – كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفاً وخمسين سيفاً ، وألفين من الرماح ، وثلاثمائة درع ، وخمسين ترس وحجفة ، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم .

وأمر رسول الله ﷺ فحبست بني قريظة في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار ، وحفرت لهم خنادق في سوق المدينة ، ثم أمر بهم فجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسلاً أرسلاً ، وتضرب في تلك الخنادق أعناقهم . فقال من كان بعد في الحبس لرئيسهم كعب بن أسد : ما تراه يصنع بنا ؟ فقال : أفي كل موطن لا تعقلون أما ترون الداعي لا ينزع ؟ والداهب منكم لا يرجع ؟ هو والله القتل . وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة ، فضررت أعناقهم .

وهكذا تم استصال أفاعي الغدر والخيانة ، الذين كانوا قد نقضوا الميثاق المؤكدة ، وعاونوا الأحزاب على إبادة المسلمين في أحرج ساعة كانوا يمرون بها في حياتهم – وكانوا قد صاروا بعلمهم هذا من أكبر مجرمي الحروب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام – .

وقتل مع هؤلاء شيطان نبي التضير ، وأحد أكبر مجرمي معركة الأحزاب حبي بن أخطب والد صافية أم المؤمنين رضي الله عنها ، كان قد دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان ؟ وفأة ل羯ع بن أسد بما كان عاشه عليه حين جاء يشيره على الغدر والخيانة أيام

غزوة الأحزاب ، فلما أتى به – وعليه حلة قد شقها من كل ناحية بقدر أغلة لثلا يسلبها – مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، قال لرسول الله ﷺ : أما والله ما لمت نفسي في معادتك ، ولكن من يغالب الله يغلب . ثم قال : أيها الناس ، لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ، ثم جلس فضررت عنقه .

وقتل من نسائهم امرأة واحدة ، كانت قد طرحت الراحا على خlad بن سويد فقتلته ، فقتلت لأجل ذلك .

وكان قد أمر رسول الله بقتل من أنتب ، وترك من لم ينتب ، فكان من لم ينتب عطية القرظي ، فترك حيا ، فأسلم ، وله صحبة .

واستوهب ثابت بن قيس الزبير بن باطا وأهله وماله – وكانت للزبير يد عند ثابت – فوهبهم له ، فقال ثابت بن قيس : قد وهبك رسول الله ﷺ إلى ، ووهب ليمالك وأهلك فهم لك . فقال الزبير بعد أن علم بمقتل قومه : سألك يدي عندك يا ثابت إلا لحقتنى بالآبة ، فضرب عنقه ، وألقيه بالآبة من اليهود ، واستحيانا ثابت – من ولد الزبير بن باطا – عبد الرحمن بن الزبير ، فأسلم ، وله صحبة . واستوهبت أم المنذر سلمى بنت قيس التجارية رفاعة بن سموأل القرظي ، فوهبها لها ، فاستحيته ، فأسلم ، وله صحبة .

وأسلم منهم تلك الليلة نفر من قبل النزول ، فتحققوا دماءهم وأموالهم وذارتهم . وخرج تلك الليلة عمرو – وكان رجلاً لم يدخل معبني قريطة في غدرهم برسول الله ﷺ – فرأه محمد بن سلمة قائد الحرس النبوي ، فخلع سبيله حين عرفه ، فلم يعلم أين ذهب .

وقسم رسول الله ﷺ أموال بني قريطة بعد أن أخرج منها الخمس ، فأسمهم للفارس ثلاثة أسمهم ، سهمان للفرس وسهم للفارس ، وأسمهم للراجل سهماً واحداً ، وبعث من السبايا إلى نجد تحت إشراف سعد بن زيد الأنصاري ، فابتاع بها خيلاً وسلاحاً .

واصطفي رسول الله ﷺ لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنافة ، فكانت عنده حتى توفي عنها وهي في ملكه ، هذا ما قاله ابن إسحاق^(١) وقال الكلبي : إنه ﷺ أعتقها ، وتزوجها سنة ٦ هـ ، وماتت مرجعه من حجة الوداع فدفنتها بالبقع^(٢) .

(١) انظر ابن هشام ٢٤٥/٢ .

(٢) تلقيع فهو أهل الآخر ص ١٢ .

ولما أتى أمر قريظة أجيست دعوة العبد الصالح سعد بن معاذ رضي الله عنه – التي قدمنا ذكرها في غزوة الأحزاب – وكان النبي ﷺ قد ضرب له خيمة في المسجد ليعوده من قريب ، فلما تم أمر قريظة انتقضت جراحته . قالت عائشة : فانفجرت من لبته فلم يرعنهم – وفي المسجد خيمة من نبي غفار – إلا والدم يسيل إليهم ، فقالوا : يا أهل الخيمة ، ما هذا يأتينا من قبلكم ، فإذا سعد يغدو جرحه دماً ، فمات منها^(١) .

وفي الصحيحين عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ^(٢) . وصحح الترمذى من حديث أنس : قال : لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون : ما أخف جنازته ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الملائكة كانت تحمله »^(٣) .

قتل في حصار بني قريظة رجل واحد من المسلمين ، وهو خlad بن سويد ، الذي طرحت عليه الرحى امرأة من قريظة ، ومات في الحصار أبو سنان بن محسن أخو عكاشه .

أما أبو لبابة ، فأقام مرتبطاً ست ليال ، تأثيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلوة ، ثم يعود فيربط بالجذع ، ثم نزلت توبته على رسول الله ﷺ سحراً ، وهو في بيت أم سلمة ، فقامت على باب حجرتها ، وقالت لي : يا أبو لبابة أبشر فقد تاب الله عليك ، فثار الناس ليطلقوه ، فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ ، فلما مر النبي ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه .

وقعت هذه الغزوة في ذي القعدة سنة ٥ هـ ، ودام الحصار خمساً وعشرين ليلة^(٤) . وأنزل الله تعالى في غزوة الأحزاب وبني قريظة آيات من سورة الأحزاب ، علق فيها على أهم جزئيات الواقعة بين حال المؤمنين والمنافقين ، ثم تخذيل الأحزاب ، ونتائج الغدر من أهل الكتاب .

(١) صحيح البخاري ٥٩١/٢ .

(٢) صحيح البخاري ٥٣٦/١ ، وصحيح مسلم ٢٩٤/٢ ، وجامع الترمذى ٢٢٥/٢ .

(٣) جامع الترمذى ٢٢٥/٢ .

(٤) ابن هشام ٢/٢٢٧ ، ٢٣٨ ، وانظر لتفصيل هذه الغزوة ابن هشام ٢/٢٣٣ إلى ٢٧٣ وصحيف البخاري ٥٩١ ، ٥٩٠/٢ ، زاد المعاد ٢/٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٨٩ ، ٢٨٨ .

النشاط العسكري بعد هذه الغزوة

مقتل سلام بن أبي الحقيق

كان سلام بن أبي الحقيق - وكنيته أبو رافع - من أكابر مجرمي اليهود ، الذين حربوا الأحزاب ضد المسلمين وأعنهم بالمؤن والأموال الكثيرة^(١) ، وكان يؤذى رسول الله ﷺ ، فلما فرغ المسلمون من أمر قريظة استأذنت الخزرج رسول الله ﷺ في قتله ، وكان قتل كعب بن الأشرف على أيدي رجال من الأوس ، فرغبت الخزرج في إحرار فضيلتهم ؛ فلذلك أسرعوا إلى هذا الاستئذان .

وأذن رسول الله ﷺ في قتله ، ونبي عن قتل النساء والصبيان ، فخرجت مفرزة قومها خمسة رجال ، كلهم من بني سلمة من الخزرج ، قائدهم عبد الله بن عتيك .

خرجت هذه المفرزة ، واتجهت نحو خيبر ، إذ كان هناك حصن أبي رافع ، فلما دنا منه - وقد غربت الشمس ، وراح الناس بسرحهم - قال عبد الله بن عتيك لأصحابه : اجلسوا مكانكم ، فإني منطلق ومتعلطف للبواب ، لعلي أن أدخل ، فأقبل حتى دنا من الباب ، ثم تقنع بشوبه كأنه يقضى حاجته ، وقد دخل الناس ، فهتف به الباب : يا عبد الله إن كنت تزيد أن تدخل فادخل ، فإني أريد أن أغلق الباب .

قال عبد الله بن عتيك : فدخلت فكمنت ، فلما دخل الناس أغلق الباب ، ثم علق الأغاليق على ود^(٢) قال : فقمت إلى الأقاليد فأخذتها ، ففتحت الباب ، وكان أبو رافع يسرر عنده ، وكان في علالي له ، فلما ذهب عنه أهل سمه صعدت إليه ، فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت على من داخل . قلت : إن القوم لو ندرروا بي لم يخلصوا إلي حتى أقتله ، فانتهيت إليه ،

(١) انظر فتح الباري ٢٤٣/٧ .

(٢) أي المفاتيح على وتد .

فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله ، لا أدرى أين هو من البيت . قلت : أبا رافع ، قال : من هذا ؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش ، فما أغنت شائعاً ، وصاح ، فخرجت من البيت فأمكثت غير بعيد ، ثم دخلت إليه ، فقلت : وما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ فقال : لأمك الويل ، إن رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف ، قال : فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله . ثم وضعت ضبيب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره ، فعرفت أنني قتله ، فجعلت أفتح الأبواب بباباً بباباً ، حتى انتهيت إلى درجة له ، فوضعت رجلي ، وأنا أرى أنني قد انتهيت إلى الأرض ، فوقيع في ليلة مقمرة ، فانكسرت ساق ، فعصبتها بعمامة ، ثم انطلقت حتى جلست على الباب . فقلت : لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الديك صاح الناعي على السور فقال : أنتي أبا رافع تاجر أهل الحجاز ، فانطلقت إلى أصحابي فقلت : النجاء ، فقد قتل الله أبا رافع . فانتهيت إلى النبي عليه السلام ، فحدثه فقال : « ابسط رجلك ، فبسطت رجلي فمسحها فكأنما لم أشتكرها ». ^(١)

هذه رواية البخاري ، وعند ابن إسحاق أن جميع النفر دخلوا على أبي رافع ، واشتراكوا في قتله ، وأن الذي تحامل عليه بالسيف حتى قتله هو عبد الله بن أنيس ، وفيه أنهم لما قتلوه ليلاً ، وانكسرت ساق عبد الله بن عتيك حملوه ، وأتوا منها من عيونهم فدخلوا فيه ، وأُوقِدَ اليهود النيران ، واشتبدوا في كل وجه ، حتى إذا يئسوا رجعوا إلى صاحبهم ، وإنهم حين رجعوا احتملوا عبد الله بن عتيك حتى قدموا على رسول الله عليه السلام ^(٢).

كان مبعث هذه السرية في ذي القعدة أو ذي الحجة سنة ٥٥ هـ ^(٣).

ولما فرغ رسول الله عليه السلام من الأحزاب وقريظة ، واقتصر من مجرمي الحروبأخذ يوجه حلات تأدبية إلى القبائل والأعراب ، الذين لم يكونوا يستكينون للأمن والسلام إلا بالقوة . القاهرة .

(١) صحيح البخاري ٢/٥٧٧.

(٢) ابن هشام ٢/٢٤٧ ، ٢٤٥ .

(٣) رحمة للعلمين ٢/٢٢٢ مع ما يؤخذ من المصادر الأخرى المذكورة في غزوة الأحزاب وقريظة .

سرية محمد بن مسلمة:

كانت أول سرية بعد الفراغ من الأحزاب وقريظة ، وكان عدد قوات هذه السرية ثلاثة راكباً .

تحركت هذه السرية إلى القرطاء ، بناحية ضربة بالبكرات من أرض نجد ، وبين ضربة والمدينة سبع ليال ، تحركت لعشر ليال خلون من المحرم سنة ٦هـ إلى بطنبني بكر بن كلاب ، فلما أغارت عليهم هرب سائرهم ، فاستأق المسلمون نعماً وشاء ، وقدموا المدينة للليلة بقيت من المحرم ومعهم ثمامة بن أثال الحنفي سيد بنى حنيفة ، كان قد خرج متذمراً لاغتيال النبي ﷺ بأمر من مسلمة الكذاب^(١) ، فأخذه المسلمون ، فلما جاءوا به ربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج إليه النبي ﷺ فقال : « ما عندك يا ثمامة » ؟ فقال : عندي خير يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت ، فتركه ، ثم مرّ به مرة أخرى ، فقال له مثل ذلك ، فرد عليه كارداً أولًا ، ثم مرّ مرة ثالثة فقال - بعد ما دار بينهما الكلام السابق : أطلقوا ثمامة ، فأطلقواه ، فذهب إلى نخل قريب من المسجد ، فاغسل ، ثم جاءه فأسلم ، وقال : والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجه إلى ، والله ما كان على وجه الأرض دين أبغض إلى من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الأديان إلى ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة ، فبشره رسول الله ﷺ ، وأمره أن يعتمر ، فلما قدم على قريش قالوا : صبات يا ثمامة ، قال : لا والله ، ولكنني أسلمت مع محمد ﷺ ، ولا والله لا يأتكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ . وكانت يمامه ريف مكة ، فانصرف إلى بلاده ، ومنع العمل إلى مكة ، حتى جهت قريش ، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرجامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حمل الطعام ، ففعل رسول الله ﷺ^(٢) .

غزوة بنى حيyan:

بنو حيyan هم الذين كانوا قد غدروا بعشرة من أصحاب رسول الله ﷺ بالرجيع ، وتسبيوا في إعدامهم ، ولكن لما كانت ديارهم متوجلة في الحجاز إلى حدود مكة ، والتارات الشديدة قاتمة

(١) السيرة الخلبية ٢٩٧/٢ .

(٢) زاد المعاد ١١٩/٢ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

بين المسلمين وقريش والأعراب ، لم يكن يرى رسول الله ﷺ أن يتوجل في البلاد بمقربة من العدو الأكبر ، فلما تهاذلت الأحزاب ، واستوهن عزائمهم ، واستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما ، رأى أن الوقت قد آن لأن يأخذ منبني لحيان ثأر أصحابه المقتولين بالرجيع ، فخرج إليهم في ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة ٦ هـ في مائتين من أصحابه ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأظهر أنه يريد الشام ، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران – واد بين أمع وعسفان ، حيث كان مصاب أصحابه ، فترحم عليهم ودعا لهم – وسمعت به بنو لحيان ، فهربوا في رؤوس الجبال ، فلم يقدر منهم على أحد ، فأقام يومين بأرضهم ، وبعث السرايا ، فلم يقدروا عليهم ، فسار إلى عسفان ، فبعث عشرة فوارس إلى كراع الغيم لتسمع به قريش ، ثم رجع إلى المدينة ، وكانت غيته عنها أربع عشرة ليلة .

متابعة البعوث والسرايا:

ثم تابع رسول الله ﷺ في إرسال البعوث والسرايا . وهاك صورة مصغرة منها :

- ١ – سرية عكاشة بن حصن إلى الغمر ، في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦ هـ . خرج عكاشة في أربعين رجلاً إلى الغمر ، ماء لبني أسد ، فقر القوم ، وأصاب المسلمين مائتي بعير ساقوها إلى المدينة .
- ٢ – سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصبة ، في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦ هـ . خرج ابن مسلمة في عشرة رجال إلى القصبة في دياربني ثعلبة ، فكمن القوم لهم – وهم مائة – فلما ناموا قتلواهم ، إلا ابن مسلمة فإنه أفلت منهم جريحاً .
- ٣ – سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصبة ، في ربيع الآخر سنة ٦ هـ . وقد بعثه النبي ﷺ على إثر مقتل أصحاب محمد بن مسلمة ، فخرج ومعه أربعون رجلاً إلى مصارعهم ، فساروا ليتهم مشاة ، ووافوا ببني ثعلبة مع الصبح ، فأغاروا عليهم ، فأعجزوه هرباً في الجبال ، وأصابوا رجلاً واحداً فأسلم ، وغنموا نعمًا وشاء .
- ٤ – سرية زيد بن حارثة إلى الجموم ، في ربيع الآخر سنة ٦ هـ . والجموم ماء لبني سليم في مر الظهران ، خرج إليهم زيد فأصاب امرأة من مزينة يقال لها حليمة ، فدلتهم على محله من بني

سلم أصابوا فيها نعماً وشأة وأسرى ، فلما قفل بما أصاب ، وهب رسول الله ﷺ للعزيزية نفسها وزوجها .

٥ - سرية زيد أيضاً إلى العيص ، في جمادى الأولى سنة ٦ هـ ، في سبعين ومائة راكب ، وفيها أخذت أموال عير لقريش كان قائدها أبو العاص ختن رسول الله ﷺ ، وأفلت أبو العاص ، فأقى زينب فاستجار بها ، وسألها أن تطلب من رسول الله ﷺ رد أموال العير عليه ، ففعلت ، وأشار رسول الله ﷺ على الناس برد الأموال من غير أن يذكرهم ، فردوا الكثير والقليل والكبير والصغير ، حتى رجع أبو العاص إلى مكة ، وأدى الودائع إلى أهلها ، ثم أسلم وهاجر ، فرد عليه رسول الله ﷺ زينب بالنكاح الأول بعد ثلاثة سنين ونيف . كما نسبت في الحديث الصحيح^(١) ردها بالنكاح الأول ؛ لأن آية تحريم المسلمات على الكفار لم تكن نزلت إذ ذاك ، وأما ما ورد من الحديث من أنه رد عليه بنكاح جديد أو رد عليه بعد ست سنين فلا يصح معنى ، كما أنه ليس بصحيح سندأ^(٢) . والعجب من يتمسكون بهذا الحديث الضعيف ، فإنهم يقولون : إن أبو العاص أسلم في أواخر سنة ثمان قبيل الفتح ، ثم ينافقون أنفسهم ، فيقولون : إن زينب ماتت في أوائل سنة ثمان . وقد بسطنا الدلائل في تعليقنا على بلوغ المaram ، وجنح موسى بن عقبة أن هذا الحادث وقع في سنة ٧ من قبل أبي بصير وأصحابه ، ولكن ذلك لا يطابق الحديث الصحيح ولا الضعيف .

٦ - سرية زيد أيضاً إلى الطرف أو الطرق ، في جمادى الآخرة سنة ٦ هـ . خرج زيد في خمسة عشر رجلاً إلى بني ثعلبة ، فهرت الأعراب ، وخافوا أن يكون رسول الله ﷺ سار إليهم ، فأصاب من نعمتهم عشرين بعراً ، وغاب أربع ليال .

٧ - سرية زيد أيضاً إلى وادي القرى ، في رجب سنة ٦ هـ . خرج زيد في اثنى عشر رجلاً إلى وادي القرى ؛ لاستكشاف حركات العدو إن كانت هناك ، فهجم عليهم سكان وادي القرى ، فقتلوا تسعة ، وأفلت ثلاثة فيهم زيد بن حارثة^(٣) .

(١) انظر سنن أبي داود مع شرحه عن المعبود باب إلى متى ترد عليه أمرأته إذا أسلم بعدها .

(٢) انظر الكلام على المحدثين في تحفة الأحوذى ١٩٥/٢ .

(٣) رحمة للعالمين ٢٢٦/٢ ، وانظر لهذه السرايا المصدر المذكور ، وزاد المعاد ١٢٠/٢ ، ١٢٢ ، ١٢١ ، وحواشي تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٢٨ ، ٢٩ .

٨ - سرية الخبط - تذكر هذه السرية في رجب سنة ٨ هـ ، ولكن السياق يدل على أنها كانت قبل الحديبية ، قال جابر ، بعثنا النبي ﷺ في ثلاثة أيام راكب أميرنا أبو عبيدة بن الجراح ، نرصد عيراً لقريش ، فأصابنا جرع شديد حتى أكلنا الخبط ، فسمى جيش الخبط ، فنحر رجل ثلاثة جزائر ، ثم نحر ثلاثة جزائر ، ثم إن أبو عبيدة نهاد ، فالقى إلينا البحر دابة يقال لها : العنبر ، فأكلتنا منه نصف شهر ، وأدهنا منه ، حتى ثابت منه أجسامنا ، وصلحت ، وأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه ، فنظر إلى أطول رجل في الجيش وأطول جمل ، فحمل عليه ، ومر تحته ، وتزودنا من لحمه وسائلق ، فلما قدمنا المدينة ، أتينا رسول الله ﷺ ، فذكرنا له ذلك ، فقال : هو رزق أخرج الله لكم ، فهل معكم من لحمه شيء تطعمنا ، فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه^(١) .

وإنما قلنا : إن سياق هذه السرية يدل على أنه كانت قبل الحديبية ؛ لأن المسلمين لم يكونوا يتعرضون لغير قريش بعد صلح الحديبية .

(١) صحيح البخاري ٦٢٥ / ٢ ، صحيح مسلم ١٤٥ / ٢ ، ٦٢٦ ، ١٤٦ .

غزوة بنى المصطلق أو غزوة المريسيع (في شعبان سنة ٦٥هـ)

وهذه الغزوة وإن لم تكن طويلة الذيل ، عريضة الأطراف ، من حيث الوجهة العسكرية ؟ إلا أنها وقعت فيها وقائع أحدثت البلبلة والاضطراب في المجتمع الإسلامي ، وتمحضت عن افتتاح المنافقين ، والتشريعات التعزيرية التي أعطت المجتمع الإسلامي صورة خاصة من النبل والكرامة وطهارة النفوس . ونسرد الغزوة أولاً ، ثم نذكر تلك الواقعة .

كانت هذه الغزوة في شعبان سنة ست من الهجرة على أصح الأقوال^(١) . وسببها أنه بلغه عليه السلام أن رئيس بنى المصطلق الحارث بن أبي ضرار سار في قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله ، فبعث بريدة بن الحصيب رض الأسلمي ؛ لتحقيق الخبر فأتاهم ، ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه ورجع إلى رسول الله عليه السلام فأخبره الخبر .

وبعد أن تأكد لديه عليه السلام صحة الخبر ندب الصحابة ، وأسرع في الخروج ، وكان خروجه لليلتين خلتا من شعبان ، وخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزوة قبلها ، واستعمل على

(١) والدليل على ذلك ما ثبت في حديث الإفك من أن القضية كانت بعدما أنزل الحجاب ، وأية الحجاب نزلت في شأن زينب ، وزينب إذ ذاك كانت تحنه ، فإنه عليه السلام سأله عن عائشة فقالت : أحمي سمعي وبصري . قالت عائشة : وهي التي كانت تسامي من أزواج النبي عليه السلام ، وأما ما وقع في حديث الإفك من أن سعد بن معاذ وسعد بن عبادة تذارعا في أصحاب الإفك ، ومعلوم أن سعد بن معاذ مات عقب غزوة بنى قريظة ، فالظاهر أن هذا وهم الرواи ، فقد روى ابن إسحاق حديث الإفك عن الزهرى عن عبد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة ، فلم يذكر فيه سعد بن معاذ بل ذكر أسد بن حضير ، قال أبو محمد بن حزم : وهذا هو الصحيح الذي لا شك فيه ، وذكر سعد بن معاذ وهم (وانظر زاد المعاد ٢٢٣ / ١١٥) والعجب من محمد الغزالى أنه نسب إلى ابن القيم أنه يعتبر هذه الغزوة من حوادث السنة الخامسة (فقه السيرة ص ٢٢٣) مع أن كلامه في المدى (١١٥ / ٢) يأتى عن ذلك .

المدينة زيد بن حارثة ، وقيل أبا ذر ، وقيل نحيلة بن عبد الله الليبي ، وكان الحارث بن ضرار قد وجه عيناً ؛ ليأتيه بخبر الجيش الإسلامي ، فألقى المسلمين عليه القبض وقتلوه .

ولما بلغ الحارث بن أبي ضرار ومن معه مسيرة رسول الله ﷺ وقتلته عليه ، خافوا خوفاً شديداً ، وتفرق عنهم من كان معهم من العرب ، وانتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيع - بالضم فالفتح مصغراً ، اسم بلاء من مياههم في ناحية قديد إلى الساحل - فتهيؤوا للقتال ، وصف رسول الله ﷺ أصحابه ، ورابة المهاجرين مع أبي بكر الصديق ، ورابة الأنصار مع سعد بن عبادة ، فتراموا بالنيل ساعة ، ثم أمر رسول الله ﷺ فحملوا حملة رجل واحد ، فكانت النصرة . وانهزم المشركون ، وقتل من قتل ، وسبي رسول الله ﷺ النساء والذراري والنعيم والشأن ، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد ، قتله رجل من الأنصار ظناً منه أنه من العدو .

كذا قال أهل المغازي والسير ، قال ابن القيم : وهو وهم ، فإنه لم يكن بينهم قتال ، وإنما أغار عليهم على الماء فسي ذارتهم وأموالهم كما في الصحيح : أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون ، وذكر الحديث^(١) انتهى .

وكان من جملة النبي جويرية بنت الحارث سيد القوم ، وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتتها ، فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها ، فأعنت المسلمين بسبب هذا التزويج مائة أهل بيته من بني المصطلق قد أسلموا ، وقالوا : أصحاب رسول الله ﷺ .^(٢)

وأما الواقع التي حدثت في هذه الغزوة ؛ فالأجل أن مبعثها كان هو رأس النفاق عبد الله بن أبي وأصحابه ؛ نرى أن نورد أولاً شيئاً من أفعالهم في المجتمع الإسلامي .

دور المناقين قبل غزوة بني المصطلق:

قدمنا مراراً أن عبد الله بن أبي كان يخنق على الإسلام وال المسلمين ، ولا سيما على رسول الله ﷺ حتى شديداً . لأن الأوس والخرزج كانوا قد اتفقوا على سيادته ، وكانوا ينظمون له الخرز ؛ ليتوجهوا إذ دخل فيهم الإسلام ، فصرفهم عن ابن أبي ، كان يرى أن رسول الله ﷺ هو الذي استلباه ملكه .

(١) وانظر صحيح البخاري كتاب العنك ٣٤٥/١ ، وانظر أيضاً فتح الباري ٣٤١/٧ .

(٢) زاد المعاد ١١٢/٢ ، ١١٣ ، ابن هشام ٢٨٩/٢ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

وقد ظهر حنقه هذا وتحرقه منذ بداية الهجرة قبل أن يتظاهر بالإسلام ، وبعد أن تظاهر به . ركب رسول الله ﷺ مرة على حمار ؛ ليعود سعد بن عبادة ، فمر بمجلس فيه عبد الله بن أبي ، فخمر ابن أبي أنه قال : لا تغروا علينا . ولما تلا رسول الله ﷺ على المجلس القرآن ، قال : مجلس في بيتك ، ولا تغشنا في مجلسنا^(١) .

وهذا قبل أن يتظاهر بالإسلام ، ولما تظاهر به بعد بدر ، لم يزل إلا عدواً لله ولرسوله وللمؤمنين ، ولم يكن يفكر إلا في تشتيت المجتمع الإسلامي ، وتهجين كلمة الإسلام ، وكان يواли أعداءه ، وقد تدخل في أمربني قيقانع كما ذكرنا ، وكذلك جاء في غزوة أحد من الشر والغدر والتفرق بين المسلمين ، وإثارة الارتكاك والفوضى في صفوفهم بما مضى .

وكان من شدة مكر هذا المنافق وخداعه للمؤمنين ، أنه كان بعد التظاهر بالإسلام ، يقوم كل جمعة حين يجلس رسول الله ﷺ للخطبة ، فيقول : هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم ، أكرمكم الله وأعزكم به ، فانصروه ، وعزروه ، واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس ، فيقوم رسول الله ﷺ ويخطب ، وكان من وقاره هذا المنافق أنه قام في يوم الجمعة التي بعد أحد - مع ما ارتكبه من الشر والغدر الشنيع - قام ليقول ما كان يقوله من قبل ، فأخذ المسلمين بشيابه من نواحيه ، وقالوا له : اجلس أي عدو الله ، لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت ، فخرج يخطب رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بغير أن قمت أشدّ أمره ، فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال : ويلك ، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ ، قال : والله ما أبتغي أن يستغفر لي^(٢) .

وكانت له اتصالات ببني النضير يؤامر معهم ضد المسلمين ، حتى قال لهم : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، وإن قوتكم لننصرنكم .

وكذلك فعل هو وأصحابه في غزوة الأحزاب من : إثارة القلق والاضطراب ، وإلقاء الرعب والدهشة في قلوب المؤمنين ما قد قص الله تعالى في سورة الأحزاب ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ إلى قوله ﴿ يَحْسَبُونَ الْأَكْرَابَ لَمْ يَذَهَّبُوا وَلَمْ

(١) ابن هشام ١/٥٨٤ ، ٥٨٧ ، ٩٢٤ . صحيح البخاري ٢/٩٢٤ ، صحيح مسلم ٩/٢ .

(٢) ابن هشام ٢/١٠٥ .

يَأَيُّ الْأَحَزَابِ يَوْمَ وَلَوْنَهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُونَ عَنْ أَنْبَابِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَنَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ۝

بيد أن جميع أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والمشركين كانوا يعرفون جيداً أن سبب غلبة الإسلام ليس هو التفوق المادي ، وكثرة السلاح والجيوش والعدد ؛ وإنما السبب هي القيم والأخلاق والمثل التي يتمتع بها المجتمع الإسلامي ، وكل من يمت بصلة إلى هذا الدين ، وكانوا يعرفون أن منبع هذا الفيض إنما هو رسول الله ﷺ ، الذي هو المثل الأعلى - إلى حد الإعجاز - لهذه القيم .

كما عرفوا بعد إدارة دفة الحروب طيلة خمس سنين ، أن القضاء على هذا الدين وأهله لا يمكن بطريق استخدام السلاح ، فقرروا أن يشنوا حرباً دعائية واسعة ضد هذا الدين من ناحية الأخلاق والتقاليد ، وأن يجعلوا شخصية الرسول أول هدف لهذه الدعاية . ولما كان المنافقون هم الطابور الخامس في صفوف المسلمين ، ولكونهم سكان المدينة ، كان يمكن لهم الاتصال بال المسلمين واستفزاز مشاعرهم كل حين . تحمل فريضة الدعاية هؤلاء المنافقون ، وعلى رأسهم ابن أبي .

وقد ظهرت خطتهم هذه جليّة بعد غزوة الأحزاب ، حينما تزوج رسول الله ﷺ بأم المؤمنين زينب بنت جحش ، بعد أن طلقها زيد بن حارثة ، كان من تقاليد العرب أنهم كانوا يعتبرون المتبني مثل ابن الصليبي ، فكانوا يعتقدون حرمة حلية المتبني على الرجل الذي تبنيه ، فلما تزوج النبي ﷺ بزینب وجد المنافقون ثلثتين - حسب زعمهم - لإثارة المشاغب ضد النبي ﷺ .

الأولى : أن زوجته هذه كانت زوجة خامسة ، والقرآن لم يكن أذن في الزواج بأكثر من أربع نسوة ، فكيف صح له هذا الزواج ؟

الثانية : أن زينب كانت زوجة ابنه - متباها - فالزواج بها من أكبر الكبائر ، حسب تقاليد العرب - وأكثروا من الدعاية في هذا السبيل ، واختلقوا قصصاً وأساطير ، قالوا : إن محمداً رآها بغترة ، فتأثر بحسنها فشغفه حباً ، وعلقت بقلبه ، وعلم بذلك ابنه زيد فخل سبيلها لحمد ، وقد نشروا هذه الدعاية الخたلقة نشرأً بقيت آثاره في كتب التفسير والحديث إلى هذا الزمان ، وقد

أثرت تلك الدعاية أثراً قوياً في صفوف الضعفاء حتى نزل القرآن بالأيات البينات ، فيها شفاء لما في الصدور ، وينبئ عن سعة نشر هذه الدعاية أن الله استفتح سورة الأحزاب بقوله : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِي أَنْقَلَ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَفَرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْهِ حَكِيمًا﴾ (١٣٣) .

وهذه إشارات عابرة ، وصورة مصغرة لما اقترفه المنافقون قبل غزوة بنى المصطلق ، وكان النبي ﷺ يكابر كل ذلك بالصبر واللين والتلطف ، وكان عامة المسلمين يحتزون عن شرمهم ، أو يتحملونه بالصبر ، إذ كانوا قد عرفوهم بافتضاحهم مرة بعد أخرى ، حسب قوله تعالى :

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْسِدُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّةً ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ (٩: ١٢٦) .

دور المنافقين في غزوة بنى المصطلق:

ولما كانت غزوة بنى المصطلق ، وخرج فيها المنافقون مثلوا قوله تعالى : ﴿لَوْخَرَ جُوَافِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا أَلَا وَلَا وَضَعُوا خَلَلَكُمْ بِغَوَنَكُمُ الْفِنَّةَ﴾ فقد وجدوا متنفسين للتنفس بالشر فأثاروا الارتباك الشديد في صفوف المسلمين ، والدعاية الشنيعة ضد النبي ﷺ ، وهكذا بعض التفصيل عنها .

١. قول المنافقين: «لنن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»

كان رسول الله ﷺ بعد الفراج من الغزو مقيناً على المريسيع ، ووردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجر يقال له جهجاه الغفاري ، فازدحم هو وسانان بن وبر الجهنمي على الماء ، فاقتلا ، فصرخ الجهنمي : يا معاشر الأنصار . وصرخ جهجاه : يا معاشر المهاجرين . فقال رسول الله ﷺ : أبدعواي الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ دعواها فإنها منتهية . ويبلغ ذلك عبد الله بن أبي بن سلول فغضب - وعنه رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم غلام حدث - وقال : أو قد فعلوها ، قد نافرونا وكاثرلونا في بلادنا ، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول : من كلبك يأكلك ، أما والله لنن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره فقال لهم : هذا

ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهن بلادكم ، وقاسمتهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

فأخبر زيد بن أرقم عمه بالخبر ، فأخبار عمه رسول الله ﷺ وعنه عمر ، فقال عمر : مر عباد بن بشر فليقتله . فقال : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن أذن بالرحيل . وذلك في ساعة لم يكن يرتحل فيها ، فارتحل الناس ، فلقيه أسيد بن حضير فحياه ، وقال : لقد رحت في ساعة منكرة ؟ فقال له : أو ما بلغك ما قال أصحابكم ؟ يريد ابن أبي ، فقال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجون الأعز منها الأذل ، قال : فأنت يا رسول الله ، تخرجه منها إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال : يا رسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه يرى أنك استلبته ملكاً .

ثم مشى الناس يومهم ذلك حتى أسمى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل الناس ، فلم يلبيوا أن وجدوا مس الأرض ، فوقعوا نياماً . فعل ذلك ؛ ليشغل الناس عن الحديث .

أما ابن أبي فلما علم أن زيد بن أرقم بلغ الخبر جاء إلى رسول الله ﷺ ، وحلف بالله ما قلت ما قال ، ولا تكلمت به ، وقال من حضر من الأنصار : يا رسول الله ، عسى أن يكون الغلام قد أوهם في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ، فصدقه ، قال زيد : فأصابني هم لم يصني مثله قط ، فجلست في بيتي ، فأنزل الله ﷺ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ إِلَيْهِ قَوْلَهُ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَمِّىٌ يَنْفَضُوا إِلَىٰ هِيَخْرِجُونَ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذْلُّ ، فارسل إلي رسول الله ﷺ فقرأها على ، ثم قال : إن الله قد صدقك^(١) .

وكان ابن هذا المنافق - وهو عبد الله بن عبد الله بن أبي - رجلاً صالحًا من الصحابة الآخيار ، فغيراً من أبيه ، ووقف له على باب المدينة ، واستل سيفه ، فلما جاء ابن أبي قال له : والله لا تجوز من ه هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، فإنه العزيز وأنت الذليل ، فلما جاء

(١) انظر صحيح البخاري ٤٩٩ / ١ ، ٧٢٧ / ٢ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٢٩٠ / ٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ .

النبي ﷺ أذن له ، فخل سبيله ، وكان قد قال عبد الله بن عبد الله بن أبي : يا رسول الله إن أردت قتلها فمرني بذلك ، فأنا والله أحمل إليك رأسه^(١) .

٢. حديث الإفك:

وفي هذه الغزوة كانت قصة الإفك ، وملخصها أن عائشة رضي الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله ﷺ معه في هذه الغزوة بقرعة أصابتها ، وكانت تلك عادته مع نسائه ، فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض المنازل ، فخرجت عائشة لحاجتها ، ففقدت عقداً لأختها كانت أعارتها إياها ، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه في وقتها ، فجاء النفر الذين كانوا يرجلون هودجها فظنواها فيه فحملوا الهودج ، ولا ينكرون خفته ؛ لأنها رضي الله عنها كانت فتية السن لم يغشاها اللحم الذي كان يثقلها ، وأيضاً فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفته ، ولو كان الذي حمله واحداً أو اثنين لم يخف عليهما الحال ، فرجعت عائشة إلى منازلهم ، وقد أصابت العقد ، فإذاً ليس به داع ولا مجيب ، فقعدت في المنزل ، وظلت أئمهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها ، والله غالب على أمره ، يدبر الأمر فوق عرشه كما يشاء ، فغلبتها عيناها ، فسامت ، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، زوجة رسول الله ﷺ ؟ – وكان صفوان قد عرض في أخريات الجيش لأنه كان كثير النوم ، فلما رأها عرفها ، وكان يراها قبل نزول الحجاب ، فاسترجع وأناخ راحلته ، فقربها إليها ، فركبتها ، وما كلمتها كلمة واحدة ، ولم تسمع منه إلا استرجاعه ، ثم سار بها يقودها ، حتى قدم بها ، وقد نزل الجيش في خر الظهيرة ، فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكنته ، وما يليق به ، ووجد الخبيث عدو الله ابن أبي متنفساً ، فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه ، فجعل يستحكي الإفك ، ويستوشيه ، ويشيشه ، ويذيعه ، ويجمعه ، ويفرقه ، وكان أصحابه يتقربون به إليه ، فلما قدموا المدينة أفضض أهل الإفك في الحديث ، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلّم ، ثم استشار أصحابه – لما استثبت الوحي طويلاً – في فراقها ، فأشار عليه علي رضي الله عنه أن يفارقها ، ويأخذ غيرها ، تلويناً لا تصريحاً ، وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها ، وأن لا يلتفت إلى كلام الأعداء . فقام على المنبر يستعذ من عبد الله بن أبي ، فأنظره أسد بن حضرير

(١) نفس المصدر الأخير ، وختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٧٧ .

سيد الأوس رغبته في قتله ، فأخذت سعد بن عبادة – سيد الخزرج وهي قبيلة ابن أبي – الحمية القبلية ، فجرى بينهما كلام تناول له الحياة ، فخفضهم رسول الله ﷺ حتى سكتوا وسكت .

أما عائشة ؟ فما رجعت مرضت شهراً ، وهي لا تعلم عن حديث الإفك شيئاً ، سوى أنها كانت لا تعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كانت تعرفه حين تشتكي ، فلما نفحت خرجت مع أم مسطوح إلى البراز ليلاً ، فعثرت أم مسطوح في مرطها ، فدعت على ابنها ، فاستنكرت ذلك عائشة منها ، فأخبرتها الخبر ، فرجعت عائشة واستذنت رسول الله ﷺ ؛ لتأتي أبوها وتستيقن الخبر ، ثم أتتها بعد الإذن حتى عرفت جلية الأمر ، فجعلت تبكي ، فبكى ليتين يوماً ، لم تكن تكتحل بنوم ، ولا يرقا لها دمع ، حتى ظنت أن البكاء كبدها ، وجاء رسول الله ﷺ في ذلك ، فشهاد وقال : أما بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه .

وحيثذ قلص دمعها ، وقالت لكل من أبوها أن يجيءا ، فلم يدرريا ما يقولان ، فقالت : والله لقد علمت لقد سمعت هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم ، وصدقتم به ، فلعن قلت لكم : إني بريئة – والله يعلم إني بريئة – لا تصدقوني بذلك ، ولكن اعترفت لكم بأمر – والله يعلم إني منه بريئة – لتصدقني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا قول إني يوسف . قال : ﴿فَصَبَرْ جِمِيلٌ وَاللَّهُ أَمْسَعَانٌ عَلَىٰ مَا تَصْفُونَ﴾ .

ثم تحولت واضطجعت ، ونزل الوحي ساعتها ، فسرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها : يا عائشة ، أما الله فقد برأك ، فقالت لها أمها : قومي إليه .. فقالت عائشة – إدلاً ببراءة ساحتها ، وثقة بمحبة رسول الله ﷺ – : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله .

والذي أنزله الله بشأن الإفك هو قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آتَاهُمْ وَبِالْإِفْكِ عَصَبَةً مُّنْكَرٍ﴾ . العشر الآيات .

وجلد من أهل الإفك مسطوح بن أثابة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش ، جلدوا ثمانين ، ولم يحد الخبيث عبد الله بن أبي مع أنه رأس أهل الإفك ، والذي تولى كبره ، إما لأن

الحدود تخفيف لأهلها ، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة ، وإما للمصلحة التي ترك لأجلها قتله^(١) .

وهكذا وبعد شهر أقشعت سحابة الشك والارتياح والقلق والاضطراب عن جو المدينة ، واقتضى رأس المنافقين افتضاحاً لم يستطع أن يرفع رأسه بعد ذلك ، قال ابن إسحاق : وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحديث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه . فقال رسول الله عليه السلام لعمر : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلت يوم قلت لي اقتله لأرعدت له أُنف ، ولو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله عليه السلام أعظم بركة من أمري^(٢) .

(١) صحيح البخاري / ١ ، ٣٦٤ / ٢ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، زاد المعاد / ٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ وابن هشام ٢٩٣ / ٢ إلى ٣٠٧ .

(٢) ابن هشام ٢٩٣ / ٢ .

البعوث والسرايا بعد غزوة المريسيع

- ١ - سرية عبد الرحمن بن عوف إلى ديار بني كلب بدومة الجندل ، في شعبان سنة ٦ هـ . أقعده رسول الله ﷺ بين يديه ، وعممه بيده ، وأوصاه بأحسن الأمور في الحرب ، وقال له : إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم ، فمكث عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام يدعوه إلى الإسلام ، فأسلم القوم وتزوج عبد الرحمن تماضر بنت الأصبع ، وهي أم أبي سلمة ، وكان أبوها رأسهم ولنكمهم .
- ٢ - سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفذك ، في شعبان سنة ٦ هـ . وذلك أنه بلغ رسول الله أن بها جماعة يريدون أن يهدوا اليهود ، فبعث إليها علياً في مائتي رجل ، وكان يسير الليل ويكتمن النهار ، فأصاب عيناً لهم ، فأقرّ أنهم بعثوه إلى خيبر يعرضون عليهم نصرتهم على أن يجعلوا لهم ثغر خيبر ، ودل العين على موضع تجمع بني سعد ، فأغار عليهم علي ، فأخذ خمسةٍ بغير ألفي شاة ، وهرت بنو سعد بالظعن ، وكان رئيسهم وبر بن عليم .
- ٣ - سرية أبي بكر الصديق أو زيد بن حارثة إلى وادي القرى ، في رمضان سنة ٦ هـ . كان بطون فرارة يريد اغتيال النبي ﷺ ، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق . قال سلمة بن الأكوع : وخرجت معه ، حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشتنا الغارة ، فوردنا الماء ، فقتل أبو بكر من قتل ، ورأيت طائفة وفيهم الذاري ، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فأدركهم ، ورميت بهم بينهم وبين الجبل ، فلما رأوا السهم وقفوا ، فيهم امرأة هي أم قرفة عليها قشع من أديم ، معها ابنتها من أحسن العرب ، فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر ، فنفلي أبو بكر ابنتها ، فلم أكشف لها ثوباً ، وقد سأله رسول الله ﷺ بنت أم قرفة ، فبعث بها إلى مكة ، وفدي بها أسرى من

ال المسلمين هناك^(١) .

وكانت أم قرفة شيطانة تحاول اغتيال النبي ﷺ ، وجهزت ثلاثين فارساً من أهل بيتها لذلك ، فلاقت جزاءها وقتل الثلاثون .

٤ - سرية كرز بن جابر الفهري^(٢) إلى العرنين ، في شوال سنة ٦ هـ وذلك أن رمطاً من عكل وعرينة أظهروا الإسلام ، وأقاموا بالمدينة فاستوحوها ، فبعثهم رسول الله ﷺ في ذود في المرعى ، وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبواها ، فلما صحوا قتلوا راعي رسول الله ﷺ ، واستاقوا الإبل وكفروا بعد إسلامهم ، فبعث في طلتهم كرزا الفهري في عشرين من الصحابة ، ودعا على العرنين : اللهم أعم عليهم الطريق ، واجعلها عليهم أضيق من مسك ، فعمى الله عليهم السبيل ، فأدركوا ، فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسلمت أعينهم ، جزاء وقصاصاً بما فعلوا ، ثم تركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا^(٣) وحديثهم في الصحيح عن أنس^(٤) .

ويذكر أهل السير بعد ذلك سرية عمرو بن أمية الضمري مع سلمة بن أبي سلمة ، في شوال سنة ٦ هـ ، أنه ذهب إلى مكة لاغتيال أبي سفيان ، لأن أبي سفيان كان أرسل أعرابياً لاغتيال النبي ﷺ ، بيد أن المبعوثين لم ينجحوا في الاغتيال ، لا هذا ، ولا ذاك ، ويذكرون أن عمراً قتل في الطريق ثلاثة رجال ، ويقولون إن عمراً أخذ جثة الشهيد خبيب في هذا السفر ، والمعروف أن خبيباً استشهد بعد الرجيع بأيام أو أشهر ، ووقعة الرجيع كانت في صفر سنة ٤ هـ ، فلا أدري هل اختلط السفران على أهل السير ، أو كان الأمران في سفر واحد في السنة الرابعة ، وقد أنكر العلامة المنصور فوري أن تكون هذه السرية سرية حرب أو مناوشة . والله أعلم .

هذه هي السرايا والغزوas بعد الأحزاب ، وبني قريظة ، لم يجر في واحدة منها قتال مريح ، وإنما وقعت فيها وقعة مصادمة خفيفة ، فليست هذه البعثة إلا دوريات استطلاعية ، أو تحركات تأديبية ؛ لإرهاب الأعراب والأعداء الذين لم يستكينوا بعد . ويفتخر بعد التأمل في الظروف أن جرى الأيام كان قد أخذ في التطور بعد غزوة الأحزاب ، وأن أعداء الإسلام كانت

(١) انظر صحيح مسلم ٨٩/٢ ويقال : إن هذه السرية كانت سنة سبع .

(٢) هنا هو الذي كان قد أغاد على سرح المدينة قبل بدر في غزوة سفوان ثم أسلم وقتل شهيداً يوم فتح مكة .

(٣) زاد المعاد ١٢٢/٢ .

(٤) صحيح البخاري ٦٠٢/٢ .

معنوياتهم في انهيار متواصل ، ولم يكن بقى لهم أمل في نجاح كسر الدعوة الإسلامية وغضد شوكتها ، إلا أن هذا التطور ظهر جلياً بصلاح الحديبية ، فلم تكن المدنة إلا الاعتراف بقوة الإسلام ، والتسجيل على بقائهما في ربوع المجزية العربية .

وقعة الحديبية

(في ذي القعدة سنة 6 هـ)

سبب عمرة الحديبية:

ولما تقدم التطور في الجزيرة العربية إلى حد كبير لصالح المسلمين ، أخذت طلائع الفتح الأعظم ونهاج الدعوة الإسلامية تبدو شيئاً فشيئاً ، وبدأت التهيدات لإقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم في المسجد الحرام ، الذي كان قد صد عنه المشركون منذ ستة أعوام .

أرأى رسول الله ﷺ في النام وهو بالمدينة ، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام ، وأخذ مفتاح الكعبة ، وطافوا واعتمروا ، وحلق بعضهم وقصر بعضهم ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا ، وحسبوا أنهم دخلوا مكة عاهم ذلك ، وأخبار أصحابه أنه معتمر فتجهزوا للسفر .

استئثار المسلمين:

واستئثر العرب ومن حوله من البوادي ليخرجوا معه ، فأبطأ كثير من الأعراب ، وغسل ثيابه ، وركب ناقته القصواء ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم أو غليلة الليثي ، وخرج منها يوم الإثنين غرة ذي القعدة سنة 6 هـ ، ومعه زوجته أم سلمة ، في ألف وأربعينات ، ويقال ألف وخمسمائة ، ولم يخرج معه بسلاح ، إلا سلاح المسافر ، السيف في القرب .

المسلمون يتحركون إلى مكة:

وتحرك في اتجاه مكة ، فلما كان بذي الحليفة قلد الم Heidi وأشعره ، وأحرم بالعمرمة ، ليأمن الناس من حربه ، وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يختبره عن قريش ، حتى إذا كان قريباً من عسفان أتاه عينه ، فقال : إني تركت كعب بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش ، وجمعوا لك جوحاً وهم مقاتلك ، وصادوك عن البيت . واستشار النبي ﷺ أصحابه وقال : « أتررون نمبل

إلى ذراري هؤلاء الذين أعادنهم فنصيبيهم؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين مخزونين، وإن نجوا يكمن عنق قطعها الله، أم تريدون أن نؤم هذا البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟؟ فقال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرین، لم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فزوحوا، فراحوا».

محاولة قريش ضد المسلمين عن البيت:

وكان قريش لما سمعت بخروج النبي ﷺ عقدت مجلساً استشارياً، فقررت فيه ضد المسلمين عن البيت كيفما يمكن، فبعد أن أعرض رسول الله ﷺ عن الأحاديث، نقل إليه رجل من بنى كعب أن قريشاً نازلة بذى طوى، وأن مائة فارس في قيادة خالد بن الوليد مرابطة بكراع الغيم، في الطريق الرئيسي الذي يصل إلى مكة. وقد حاول خالد ضد المسلمين، فقام بفرسانه إزاءهم يتراى الجيشان، ورأى خالد المسلمين في صلاة الظهر يركعون ويسجدون فقال: لقد كانوا على غرة، لو كنا حملنا عليهم لأصبننا منهم، ثم قرر أن يميل على المسلمين - وهم في صلاة العصر - ميلة واحدة، ولكن الله أنزل حكم صلاة الخوف، ففاقت الفرصة خالداً.

تبديل الطريق ومحاولة الاجتناب عن اللقاء الدامي:

وأخذ رسول الله ﷺ طريقاً وعرأ بين شعاب، وسلك بهم ذات اليدين بين ظهرى الحمش، في طريق على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة، وترك الطريق الرئيسي الذي يفضي إلى الحرم مارأ بالتنعيم، تركه إلى اليسار، فلما رأى خالد قترة الجيش الإسلامي قد خالفوا عن طريقه انطلق يركض نذيرأ لقريش.

وسار رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بشنيبة المرار بركت راحلته، فقال الناس: حل حل، فأحلت، فقالوا: خلأتم القصواء، خلأتم القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأتم القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حabis الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطوة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»، ثم زجرها فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى

الحدبية ، على ثمد^(١) قليل الماء ، إنما يتبرضه^(٢) الناس تبرضاً ، فلم يلبيت أن نزحوه ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش ، فانتزع سهماً من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا .

بديل يتوسط بين رسول الله - ﷺ - وقريش:

ولما اطمأن رسول الله ﷺ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة ، وكانت خزاعة عيبة^(٣) نصح لرسول الله ﷺ من أهل تهامة ، فقال : إني تركت كعب بن لؤي ، نزلوا أعداد مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل^(٤) ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت . قال رسول الله ﷺ : « إنا لم نجعه لقتال أحد ، ولكن جتنا معتمرین ، وإن قريشاً قد أنهكتهم الحرب وأضرت بهم ، فإن شاءوا مادتهم ، ودخلوا بيني وبين الناس ، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإن فقد جموا ، وإن أبويا إلا القتال فوالذي نفسي بيده لأقاتلهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ، أو لينفذن الله أمره . »

قال بديل : سأبلغهم ما تقول ، فانطلق حتى أتى قريشاً : إني قد جئتكم من عند هذا الرجل ، وسمعته يقول قوله ، فإن شئتم عرضته عليكم . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء . وقال ذو الرأي منهم هات ما سمعته . قال : سمعته يقول كذا وكذا ، فبعثت قريش مكرز بن حفص ، فلما رأه رسول الله ﷺ قال : هذا رجل غادر ، فلما جاء وتكلم قال له مثل ما قال لبديل وأصحابه ، فرجع إلى قريش وأخبرهم .

رسل قريش:

ثم قال رجل من كنانته - اسمه الحليس بن علقة - : دعوني آته . فقالوا : آته . فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البدن ، فابعثوها ، فبعثوها له ، واستقبله القوم يلبون ، فلما رأى ذلك . قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء

(١) ثمد : حوض .

(٢) يتبرض : يأخذ منه القليل .

(٣) عيبة نصح الرجل : موضع سره .

(٤) استعار العوذ المطافيل للنساء مع أولادهن ، والعوذ : الإبل حديثة النساج ، والمطافيل : التي معها أولادها .

أن يصدوا عن البيت ، فرجع إلى أصحابه فقال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت ، وما أرى أن يصدوا ، وجري بينه وبين قريش كلام أحفظه .

قال عروة بن مسعود الثقفي : إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلاها ، ودعوني آته فقالوا : آته ، فاتاه ، فجعل يكلمه ، فقال له النبي ﷺ نحوا من قوله لم يلدي ، فقال له عروة عند ذلك : أي محمد ،رأيت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ، وإن تكن الأخرى فوالله إني لأرى وجوها ، وأرى أوباشاً من الناس خلقاً أن يفروا بيدعوك ، فقال له أبو بكر : امتص بظر اللات ، أخن نفر عنه ، ؟ قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر ، قال : أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت عندي لم أجزك بها لأجتباك . وجعل يكلم النبي ﷺ ، وكلما كلمه أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المفر ، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف ، وقال : آخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ ، فرفع عروة رأسه وقال : من ذا ؟ قالوا : المغيرة بن شعبة ، فقال : أي غدر ، أو لست أسعى في غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبي ﷺ : أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه في شيء (وكان المغيرة ابن أخي عروة) .

ثم إن عروة جعل يمرق أصحاب رسول الله ﷺ وعلاقتهم به ، فرجع إلى أصحابه ، فقال : أي قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ، على قيسر وكسرى والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظمن أصحاب محمد مهداً ، والله إن تخنم خاتمة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فذلك بها وجهه وجده ، وإذا أمرهم ابتدوا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يمدون إليه النظر تعظيمياً له ، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلاها .

هو الذي كف أيديهم عنكم :

ولما رأى شباب قريش الطائشون ، الطامعون إلى الحرب ، رغبة زعمائهم في الصلح ، فكروا في خطة تحول بينهم وبين الصلح ، فقرروا أن يخرجوا ليلاً ويتسللوا إلى معسكر المسلمين ، ويحدثوا أحذاناً تشعل نار الحرب ، وفعلاً قد قاموا بتنفيذ هذا القرار ، فقد خرج سبعون أو مئانون منهم

ليلاً فهبطوا من جبل التنعيم ، وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين ، غير أن محمد بن مسلمة قائد الحرس اعتقلهم جميعاً . ورغبة في الصلح أطلق سراحهم النبي ﷺ وعفا عنهم ، وفي ذلك أنزل الله ﷺ **(وَهُوَ الَّذِي كَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيْكُمْ عَنْهُمْ يَبْطِئُنَّ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ)** . (٤٨ : ٢٤)

عثمان بن عفان سفيراً إلى قريش:

وحينما أراد رسول الله ﷺ أن يبعث سفيراً يؤكد لدى قريش موقفه وهدفه من هذا السفر ، فدعى عمر بن الخطاب ليرسله إليهم ، فأعتذر قائلاً : يا رسول الله ليس لي بمكة أحد منبني كعب يغضب لي إن أؤذيت ، فأرسل عثمان بن عفان ، فإن عشيرته بها ، وإنه مبلغ ما أردت ، فدعاه ، وأرسله إلى قريش ، وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عمراً ، وادعهم إلى الإسلام . وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ، ونساء مؤمنات ، فيبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخف فيها أحد بالإيمان .

فانطلق عثمان حتى مر على قريش بيلدح ، فقالوا : أين تريد ؟ فقال : بعثني رسول الله ﷺ كذا وكذا ، قالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ حاجتك ، وقام إليه أبيان بن سعيد بن العاص ، فرحب به ثم أسرح فرسه ، فحمل عثمان على الفرس ، وأجاره وأرده حتى جاء مكة ، وبلغ الرسالة إلى زعماء قريش . فلما فرغ عرضوا عليه أن يطوف بالبيت ، لكنه رفض هذا العرض ، وأنى أن يطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ .

إشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان:

واحتبسه قريش عندها – ولعلهم أرادوا أن يتشاروروا فيما بينهم في الوضع الراهن ، ويرموا أمرهم ، ثم يردوا عثمان بجواب ما جاء به من الرسالة – وطال الاحتباس ، فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل ، فقال رسول الله ﷺ لما بلغته تلك الإشاعة : لا نبرح حتى ناجز القوم ، ثم دعا أصحابه إلى البيعة ، ثاروا إليه بيايعونه على أن لا يغروا ، وبايعته جماعة على الموت ، وأول من بايعه أبو سنان الأنصاري ، وبايده سلمة بن الأكوع على الموت ثلاث مرات ، في أول الناس ووسطهم وأخرهم ، وأخذ رسول الله ﷺ ييد نفسه وقال : هذه عن عثمان ، ولما تمت البيعة جاء

عنان فبایعه ، ولم يختلف عن هذه البيعة إلا رجل من المنافقين يقال له جد بن قيس .

أخذ رسول الله ﷺ هذه البيعة تحت شجرة ، وكان عمر آخذًا بيده ، ومعقل بن يسار آخذًا بغضن الشجرة يرفعه عن رسول الله ﷺ ، وهذه هي بيعة الرضوان التي أنزل الله ف بها **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** الآية (٤٨ : ٤٨) .

ابرام الصلح وبنوده:

وعرفت قريش حراجة الموقف ، فأسرعت إلى بعث سهيل بن عمرو لعقد الصلح ، وأكدت له أن لا يكون في الصلح إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً . فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رأه عليه السلام قال : قد سهل لكم أمركم ، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ، فجاء سهيل فتكلم طويلاً ، ثم اتفقا على قواعد الصلح وهي هذه :

- ١ - الرسول - ﷺ - يرجع من عامه ، فلا يدخل مكة وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثة ، معهم سلاح الراكب ، السيف فيقرب ، ولا تتعرض قريش لهم بأي نوع من أنواع التعرض .
- ٢ - وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكشف بعضهم عن بعض .
- ٣ - من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وتعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين جزءاً من ذلك الفريق ، فأي عدوان تتعرض له أي من هذه القبائل يعتبر عدواً على ذلك الفريق .
- ٤ - من أقى حمدًا من قريش من غير إذن ولته - أي هارباً منهم - رده عليهم ، ومن جاء قريشاً من مع محمد - أي هارباً منه - لم يرد عليه .

ثم دعا علياً ليكتب الكتاب ، فأملأ عليه « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : أما الرحمن فوالله لا ندرى ما هو ؟ ولكن اكتب باسمك اللهم . فأمر النبي ﷺ علياً بذلك . ثم أملأ (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله) فقال سهيل : لو نعلم أنك رسول الله ما صدناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال : إني رسول الله وإن كذبتوني ،

وأمر علياً أن يكتب محمد بن عبد الله ، ويححو لفظ رسول الله ، فلبي على أن يمحو هذا اللفظ ، فمحاه عليهما بيده ، ثم تمت كتابة الصحيفة ، ولما تم الصلح دخلت خزاعة في عهد رسول الله عليهما - وكانوا حليف بني هاشم منذ عهد عبد المطلب كما قدمنا في أوائل المقالة ، فكان دخوهم في هذا العهد ؟ تأكيداً لذلك الحلف القديم - ودخلت بنو بكر في عهد قريش .

رد أبي جندل:

وبينا الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل يوسف في قيوده ، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين ، فقال سهيل : هذا أول ما أقضيك عليه على أن ترده . فقال النبي عليهما : إنما لم نقض الكتاب بعد . فقال : فوالله إذا لا أقضيك على شيء أبداً . فقال النبي عليهما فأجزه لي . قال : ما أنا بمجزره لك . قال : بلى فافعل ، قال : ما أنا بفاعل . وقد ضرب سهيل أبا جندل في وجهه ، وأخذ بتلاييه وجره ؛ ليردء إلى المشركين ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أللهم إلى المشركين يفتون في ديني ؟ فقال رسول الله عليهما : يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخراجاً ، إنما قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا ، وأعطيتمناهم على ذلك ، وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم .

فوثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول : اصبر يا أبا جندل ، فإما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، ويدني قائم السيف منه ، يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباها ، فضن الرجل بأبيه ، ونفذت القضية .

النحر والخلق للحل عن العمرة:

ولما فرغ رسول الله عليهما من قضية الكتاب قال : قوموا ، فانحرروا ، فوالله ما قام منهم أحد حتى قال ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقى من الناس ، فقالت : يا رسول الله أتحب ذلك ؟ اخرج ، ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تتحر بدنك ، وتدعو حالتك فيحلقك ، فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فل ذلك ، نحر بدنك ، ودعا حالقه ، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد

بعضهم يقتل بعضاً غماً ، وكانوا نحرروا البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة ، ونحر رسول الله ﷺ جملأً كان لأبي جهل ، كان في أنفه برة من فضة ، ليغيب به المشركين ، ودعا رسول الله ﷺ للمحلقين ثلاثة بالمغفرة وللمقصرين مرة وفي هذا السفر أنزل الله فدية الأذى لمن حلق رأسه بالصيام ، أو الصدقة ، أو النسك في شأن كعب بن عجرة .

الآباء عن رد المهاجرات:

ثم جاء نسوة مؤمنات فسألن أولياً هن أن يردهن عليهم بالعهد الذي تم في الحديبية ، فرفض طلبهن هذا ، بدليل أن الكلمة التي كتبت في المعاهدة بصدق هذا البند هي : (وعلى أنه لا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك إلا رددته علينا)^(١) فلم تدخل النساء في العقد رأساً . وأنزل الله في ذلك ﴿إِنَّمَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَهُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَلَا مَحْرُومَاتٍ هُنَّ حَقٌّ لِّرَبِّيهِنَّ هُنَّ بِعِصْمِ الْكَوَافِرِ هُنَّ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَعْلَمُ أَنَّهُنَّ يَتَحَمَّلْنَ بِعْدَهُنَّ هُنَّ إِنَّمَا الَّذِينَ آتَاهُنَّ إِذَا جَاءَهُمُ الْمُؤْمِنَاتُ يَبْعَدُنَّهُنَّ عَنْ أَنْ لَا يُشْرِكُنَّ إِلَّا شَيْئًا﴾ إلخ ، فمن أقرت بهذه الشروط قال لها : قد بايتك . ثم لم يكن يردهن .

وطلق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم . فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك . تزوج بإحداهما معاوية ، وبالآخرى صفوان بن أمية .

ماذا يتم خض عن بنود المعاهدة:

هذه هي هدنة الحديبية ، ومن سبر أغوار بنداتها مع خلفياتها لا يشك أنها فتح عظيم لل المسلمين ، فقريش لم تكن تعرف بال المسلمين أي اعتراف ، بل كانت تهدف استهلال شأفتهم ، وتنتظر أن تشهد يوماً ما نهايتهم ، وكانت تحاول بأقصى قوتها الحيلولة بين الدعوة الإسلامية ، وبين الناس ، بصفتها مثلاً الرعامة الدينية والصدرارة الدينوية في جزيرة العرب ، وب مجرد الخروج إلى الصلح اعتراف بقوة المسلمين ، وأن قريشاً لا تقدر على مقاومتهم ، ثم البند الثالث يدل لفحواه على أن قريشاً نسبت صدارتها الدينية وزعامتها الدينية ، وأنها لا تهمها الآن إلا نفسها ، أما سائر الناس وبقية جزيرة العرب فلو دخلت في الإسلام بأجمعها ، فلا يهم ذلك قريشاً ، ولا تتدخل في ذلك بأي نوع من أنواع التدخل . أليس هذا فشلاً ذريعاً بالنسبة إلى

(١) صحيح البخاري / ٣٨٠ .

قريش؟ وفتحاً مبيناً بالنسبة إلى المسلمين؟ إن الحروب الدامية التي جرت بين المسلمين وبين أعدائهم لم تكن أهدافها – بالنسبة إلى المسلمين – مصادرة الأموال وإبادة الأرواح، وإنما الناس، أو إكراه العدو على اعتناق الإسلام، وإنما كان الهدف الوحيد الذي يهدفه المسلمون من هذه الحروب هو الحرية الكاملة للناس في العقيدة والدين ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلِيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلِيَكُفِرْ﴾ . لا يحول بينهم وبين ما يريدون أي قوة من القوات، وقد حصل هذا الهدف بجميع أجزاءه ولوازمه، وبطريق رعايا لا يحصل بهاته في الحروب مع الفتح المبين، وقد كسب المسلمون لأجل هذه الحرية نجاحاً كبيراً في الدعوة، فييناً كان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف قبل الهجرة؛ صار عدد الجيش الإسلامي في ستين عند فتح مكة عشرة آلاف.

أما البند الثاني؛ فهو جزء ثانٌ لهذا الفتح المبين، فالMuslimون لم يكونوا بادئين بالحروب، وإنما بدأتها قريش، يقول الله تعالى ﴿وَهُمْ بَدَأُوكَمْ أَوَّلَكَ مَرَّةً﴾ ، أما المسلمين فلم يكن المقصود من دورياتهم العسكرية إلا أن تفيق قريش عن غطرستها، وصدّها عن سبيل الله، وتعمل معهم بالمساواة، كل من الفريقين يعمل على شاكلته فالعقد بوضع الحرب عشر سنين حد هذه الغطرسة والصد، ودليل على فشل من بدأ الحرب وضعفه وانهياره.

أما البند الأول؛ فهو حد لصد قريش عن المسجد الحرام، فهو أيضاً فشل لقريش، وليس فيه ما يشفى قريشاً سوى أنها نجحت في الصد لذلك العام الواحد فقط.

أعطت قريش هذه الخلل الثلاث للMuslimين، وحصلت بإذنها خلة واحدة فقط، وهي ما في البند الرابع، ولكن تلك الخلة تافهة جداً، ليس فيها شيء يضر المسلمين، فمعולם أن المسلم ما دام مسلماً لا يفر عن الله ورسوله، وعن مدينة الإسلام، ولا يفر إلا إذا ارتد عن الإسلام ظاهراً أو باطناً، فإذا ارتد فلا حاجة إليه للMuslimين، وانفصلوا من المجتمع الإسلامي خيراً من بقاءه فيه، وهذا الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: إنه من ذهب منا إلىهم فأبعده الله^(١)، وأما من أسلم من أهل مكة – فهو وإن لم يبق للجوئه إلى المدينة سبيل – لكن أرض الله واسعة، لم تكن الحبشة واسعة للMuslimين حينما لم يكن يعرف أهل المدينة عن الإسلام شيئاً؟ وهذا الذي أشار إليه النبي ﷺ بقوله « ومن جاءنا منهم س يجعل الله له فرجاً ومخروجاً »^(٢).

(١) صحيح مسلم باب صلح الحديبية ١٠٥/٢.

(٢) نفس المصدر.

والأخذ بمثل هذا الاحتفاظ ، وإن كان مظهر الاعتزاز لقريش ، لكنه في الحقيقة ينبع عن شدة انزعاج قريش وهلعهم وخورهم ، وعن شدة خوفهم على كيانهم الثاني ، وكأنهم كانوا قد أحسوا أن كيانهم اليوم على شفا جرف هار ، لا بد له من الأخذ بمثل هذا الاحتفاظ . وما سمح به النبي ﷺ من أنه لا يسترد من فر إلى قريش من المسلمين ، فليس هذا إلا دليلاً على أنه يعتمد على ثبيت كيانه وقوته كمال الاعتماد ، ولا يخاف عليه من مثل هذا الشرط .

حزن المسلمين ومناقشة عمر مع النبي - ﷺ -

هذه هي حقيقة بنود هذه المدونة ، لكن هناك ظاهرتان عمت لأجلهما المسلمين كآبة وحزن شديد ، الأولى : أنه كان قد أخبرهم أنا سنأتي البيت فنطوف به ، فماهه يرجع ولم يطف به ؟ الثانية : أنه رسول الله ﷺ وعلى الحق ، والله وعد إظهار دينه ، فماهه قبل ضغط قريش ، وأعطي الدينية في الصلح ؟ كانت هاتان الظاهرتان مثار الريب والشكوك والوساوس والظنون . وصارت مشاعر المسلمين لأجلهما جريحة ، بحيث غالب لهم والحزن على التفكير في عواقب بنود الصلح . ولعل أعظمهم حزناً كان عمر بن الخطاب ، فقد جاء إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله أنسنا على حق وهم على باطل ؟ قال : بلى . قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلامهم في النار ؟ قال : بلى . قال : فقيم نعطي الدينية في ديننا ، ونرجع لما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال : يا ابن الخطاب إني رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناصري ، ولن يضيعني أبداً . قال : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : بلى ، فأحرجتك أنا نأته العام ؟ قال : لا . قال : فإنك آتيه ومطوف به .

ثم انطلق عمر متغياً فأنق أبا بكر ، فقال له كا قال لرسول الله ﷺ ، ورد عليه أبو بكر ، كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء ، وزاد : فاستمسك بغرزه حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق . ثم نزلت ﴿إِنَّا فَتَحَالَّكَ فَتَحَمِّلُنَا﴾ إلخ فأرسل رسول الله إلى عمر فأقرأه إياه ، فقال : يا رسول الله أو فتح هو ؟ قال : نعم . فطابت نفسه ورجع .

ثم ندم عمر على ما فرط منهندماً شديداً . قال عمر : فعلت لذلك أ عملاً ، مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ ، مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حتى

رجوت أن يكون خيراً^(١).

انحلت أزمة المستضعفين:

ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، واطمأن بها ، انفلت رجل من المسلمين ، من كان يعبد من مكة ، وهو أبو بصير رجل من ثقيف حليف لقرיש ، فأرسلوا في طلبه رجلين وقالوا للنبي ﷺ العهد الذي جعلت لنا ، فدفعه النبي ﷺ إلى الرجلين ، فخرججا به حتى ياعدا ذلك الخليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً . فاستله الآخر ، فقال : أجل . والله إنه جيد ، لقد جربت به ثم جربت . فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه حتى برد .

وفر الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعود ، فقال رسول الله ﷺ حين رأه : لقد رأى هذا ذرعاً ، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال : قتل صاحبي ، وإن لم يقتل ، فجاء أبو بصير وقال : يا نبي الله ، قد والله أوف الله ذمتك ، قد ردتني إليهم ، ثم أنجاني الله منهم ، قال رسول الله : ويل أمه ، مسرع حرب لو كان له أحد ، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلتحق بأبي بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة . فوالله ما يسمعون بغير خرجت لقرיש إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلواهم وأخذوا أموالهم . فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشدته الله والرحم لما أرسل ، فمن أتاها فهو آمن ، فأرسل النبي ﷺ إليهم ، فقدموا عليه المدينة^(٢) .

إسلام أبطال من قريش:

وفي أوائل سنة 7 من الهجرة بعد هذه الهدنة أسلم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة والمذنة ، فتح الباري ٤٣٩/٧ إلى ٤٥٨ ، صحيح البخاري ١/٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٥٩٨/٢ ، ٦٠٠ ، ٧١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٤٠/٢ ، ١٤٠ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ابن هشام ٢٠٨/٢ إلى ٣٢٢ ، زاد المعاد ٢/١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله التجدي ص ٢٠٧ إلى ٢٠٥ ، تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) المصادر السابقة .

وعثمان بن طلحة ، ولما حضروا عند النبي ﷺ قال : إن مكة قد ألغت إلينا أفلاد كبدها^(١) .

(١) اختلفوا كثيراً في تعين السنة التي أسلم فيها هؤلاء الصحابة ، وعامة كتب أسماء الرجال تصرح أنها سنة ثمان ، ولكن قصة إسلام عمرو بن العاص عند التجاشي معروفة ، وأسلم خالد وعثمان بن طلحة حين رجع عمرو بن العاص من الحبشة فإنه بعد الرجوع قصد المدينة فلقياه في الطريق ، وحضر الثلاثة عند النبي ﷺ وأسلموا وهذا يقتضي أنهم أسلموا في أوائل سنة سبع . والله أعلم .

المرحلة الثانية طور جديد

إن هدنة الحديبية كانت بداية طور جديد في حياة الإسلام ، وال المسلمين ، فقد كانت قريش أقوى قوة وأعدها وألدها في عداء الإسلام ، وبانسحابها عن ميدان الحرب إلى رحاب الأمن والسلام ، انكسر أقوى جناح من أجنحة الأحزاب الثلاثة – قريش وغطفان واليهود – ولا كانت قريش ممثلة للوثنية وزعيمتها في ربوع جزيرة العرب ، انخفضت حدة مشاعر الوثنين ، وانهارت نزعاتها العدائية إلى حد كبير ، ولذلك لا نرى لغطفان استفزازاً كبيراً بعد هذه المدنة ، وجل ما جاء منهم إنما جاء من قبل إغراء اليهود .

أما اليهود فقد كانوا جعلوا خيرهم بعد جلاهم عن يثرب وكرا للدس والتآمر . كانت شياطينهم تبيض هناك وتفرخ ، وتوتجح نار الفتنة ، وتغري الأعراب الضاربة حول المدينة ، وتبنيت للقضاء على النبي ﷺ والمسلمين ، أو لإلحاق الخسائر الفادحة بهم ، ولذلك كان أول إقدام حاسم من النبي ﷺ بعد المدنة هو شن الحرب الفاصلة على هذا الوكر .

ولكن هذه المرحلة التي بدأت بعد المدنة أعطت للمسلمين فرصة كبيرة ، لنشر الدعوة الإسلامية وإبلاغها ، وقد تضاعف نشاط المسلمين في هذا المجال ، وبرز نشاطهم في هذا الوجه على نشاطهم العسكري . ولذلك نرى أن نقسم هذه المرحلة على قسمين :

- (١) النشاط في مجال الدعوة ، أو مكتبة الملوك والأمراء .
- (٢) النشاط العسكري .

وقبل أن نتابع النشاط العسكري في هذه المرحلة ، نتناول موضوع مكتبة الملوك والأمراء ، إذ الدعوة الإسلامية هي المقدم طبعاً ، بل ذلك هو المهدف الذي عانى له المسلمون ما عانوه من المصائب والآلام ، والحرروب والفتن ، والقلائل والاضطرابات .

مكاتبته الملوك والأمراء

في أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كتب إلى الملوك بدعوهم إلى الإسلام .

ولما أراد أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له : إنهم لا يقبلون إلا وعليه خاتم ، فاختذ النبي ﷺ خاتماً من فضة ، نقشه : محمد رسول الله ، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر : محمد سطر ، رسول سطر ، والله سطر ، هكذا :

الله

رسول^(١)

محمد

واختار من أصحابه رسلاً لهم معرفة وخبرة ، وأرسلهم إلى الملوك ، وقد جزم العلامة المنصور فوري أن النبي ﷺ أرسل هؤلاء الرسل غرة المحرم سنة سبع من الهجرة قبل الخروج إلى خير ب أيام^(٢) . وفيما يلي نصوص هذه الكتب ، وبعض ما تمحضت عنه .

١. الكتاب إلى النجاشي ملك الحبشة:

وهذا النجاشي اسمه أصحمة بن الأبجر ، كتب إليه النبي ﷺ مع عمرو بن أمية الضرمي في آخر سنة ست أو في الحرم سنة سبع من الهجرة . وقد ذكر الطبرى نص الكتاب ، ولكن النظر الدقيق في ذلك النص ، يفيد أنه ليس بنص الكتاب الذي كتبه ﷺ بعد الحديبية ، بل لعله نص كتاب بعثه مع جعفر حين خرج هو وأصحابه مهاجرين إلى الحبشة في العهد المكى ،

(١) صحيح البخارى ٢/٨٧٢، ٨٧٣ .

(٢) رحمة للعلميين ١/١٧١ .

فقد ورد في آخر الكتاب ذكر هؤلاء المهاجرين بهذا اللفظ (وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفرأ معه نفر من المسلمين ، فإذا جاءك فاقرهم ودع التجير) .

وروى البهقي عن ابن إسحاق نص كتاب كتبه النبي ﷺ إلى النجاشي وهو هذا : هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشه ، سلام على من اتبع المهدى ، وأمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية الإسلام ، فإني أنا رسوله فأسلم تسلّم ، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلْمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ لَا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا عَبْدًا أَرَبَّا بَأْمَنْ دُونَ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلُّوْ فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ، فإن أبىت فإن عليك إثم النصارى من قومك .

وقد أورد المحقق الكبير الدكتور حميد الله (باريس) نص كتاب قد عثر عليه في الماضي القريب - كما أورده ابن القيم مع الاختلاف في الكلمة فقط - وبذل الدكتور في تحقيق ذلك النص جهداً بليناً واستعان في ذلك كثيراً باكتشافات العصر الحديث ، وأورد صورته في الكتاب وهو هكذا .

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشه ، سلام على من اتبع المهدى ، أما بعد فإني أَهْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمَهِيمُ ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته . ألقاها إلى مريم البنتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفعه ، كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني ، وتومن بالذى جاءنى فإني رسول الله ﷺ ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبل نصيحتي ، والسلام على من اتبع المهدى^(۱) .

وأكيد الدكتور المحترم أن هذا هو نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلى النجاشي بعد الحديثية ، أما صحة هذا النص فلا شك فيها بعد النظر في الدلائل ، وأما أن هذا الكتاب هو الذي كتب بعد الحديثية فلا دليل عليه ، والذي أورده البهقي عن ابن إسحاق أشبه بالكتب التي زاد المعاد : أسلم أنت بدل والسلام على من اتبع المهدى . انظر زاد المعاد . ٦٠/٣

(۱) انظر رسول أكرم کی سیاسی زندگی (بالاردو) ص ۱۰۸، ۱۲۲، ۱۲۳، ۱۲۴، ۱۲۵، وفى

كتبها النبي ﷺ إلى ملوك وأمراء النصارى بعد الحديبية ، فإن فيه الآية الكريمة : ﴿ يَأْهَلُ الْكِتَابَ تَعَالَوْا إِلَيْكَ لِمَةٍ ۚ ۝ إِنَّ كَمَا كَانَ دَأْبُهُ فِي تُلُكَ الْكِتَابِ ، وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ اسْمُ الْأَصْحَامَةِ صَرِيْحًا ، وَأَمَّا النَّصُّ الَّذِي أُورَدَهُ الدَّكْتُورُ حَمِيدُ اللَّهِ ، فَالْأَغْلُبُ عَنِيْدِي أَنَّ نَصَ الْكِتَابِ الَّذِي كَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِ أَصْحَامَةِ إِلَى خَلِيفَتِهِ ، وَلَعِلَّ هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي تَرْكِ الْأَسْمَاءِ .

وَهَذَا التَّرْتِيبُ لَيْسَ عَنِيْدِي عَلَيْهِ دَلِيلٌ قَطْعِيٌّ سَوْيِ الشَّهَادَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ الَّتِي تَؤَذِّنُ بِهَا نَصوصُ هَذِهِ الْكِتَابِ . وَالْعَجَبُ مِنَ الدَّكْتُورِ حَمِيدِ اللَّهِ أَنَّهُ جَزَمَ أَنَّ النَّصَ الَّذِي أُورَدَهُ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ هُوَ نَصُ الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِ أَصْحَامَةِ إِلَى خَلِيفَتِهِ مَعَ أَنَّ اسْمَ أَصْحَامَةِ وَارَدَ فِيهِ هَذَا النَّصُ صَرِيْحًا وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ^(١) .

وَلَا يَلْعُغُ عُمَرُ بْنُ أُمَيَّةَ الصَّمْرِيَّ كِتَابَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى النَّجَاشِيِّ أَخْذَهُ النَّجَاشِيُّ ، وَوُضُعَ عَلَى عَيْنِهِ وَنُزِلَ عَنْ سَرِيرِهِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَأَسْلَمَ عَلَى يَدِ جَعْفَرٍ بْنِ أَبِي طَالِبٍ . وَكَتَبَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ ، وَهَاهُ نَصُهُ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِلَى مُحَمَّدِ رَسُولِ اللَّهِ مِنَ النَّجَاشِيِّ أَصْحَامَةَ سَلامٌ عَلَيْكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، أَمَّا بَعْدُ :

فَقَدْ بَلَغَنِي كَابِلُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا ذَكَرْتُ مِنْ أَمْرِ عِيسَى ، فَوَرَبَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ ، إِنْ عِيسَى لَا يَزِيدُ عَلَى مَا ذَكَرْتُ ثُفُرُوقًا ، إِنَّهُ كَمَا قُلْتَ ، وَقَدْ عَرَفْنَا مَا بَعْثَتْ بِهَا إِلَيْنَا ، وَقَدْ قَرَبَنَا أَبْنَى عَمَكَ وَأَصْحَابَكَ فَأَشْهِدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ صَادِقًا مَصْدِقًا وَقَدْ بَايَعْتُكَ ، وَبَايَعَتْ أَبْنَى عَمَكَ ، وَأَسْلَمَتْ عَلَى يَدِيهِ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ^(٢) .

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ طَلَبَ مِنَ النَّجَاشِيِّ أَنْ يُرْسِلَ جَعْفَرًا وَمِنْ مَعِهِ مِنْ مَهَاجِرِي الْجَبَشَةِ ، فَأَرْسَلُوهُمْ فِي سَفَيَتَيْنِ مَعَ عُمَرَ بْنِ أُمَيَّةَ الصَّمْرِيَّ ، فَقَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ بَخِيرٌ^(٣) . تَوَفَّ النَّجَاشِيُّ هَذَا فِي رَجَبِ سَنَةِ تَسْعَ مِنَ الْمَحْرَجَةِ بَعْدَ تَوْكُكِهِ ، وَنَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ وَفَاتَهُ ، وَصَلَّى عَلَيْهِ

(١) انظر هذه المباحث كتاب الدكتور حميد الله «رسوم أكرم» كي سياسي زندكي، ص ١٠٨، إلى ١١٤ ومن ١٢١ إلى ١٣١.

(٢) زاد المعاد ٦١/٣.

(٣) ابن هشام ٣٥٩/٢.

صلوة الفائب . ولما مات وخلف على عرشه ملك آخر كتب إليه النبي ﷺ كتاباً آخر
ولا يدرى هل أسلم أم لا؟^(١) .

٤ - الكتاب إلى المقوس ملك مصر:

وكتب النبي ﷺ إلى جرج بن متى^(٢) ، الملقب بالمقوس ملك مصر والإسكندرية : « بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوس عظم القبط ، سلام على من اتبع المهدى ، أما بعد ، فإنني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط . **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابَ تَعَالَوْا إِلَيَّ كَلِمَةَ سَوَامِيعَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا شُرِكَ لَيْهِ شَيْئًا وَلَا يَتَحَذَّبَ عَنْنَا بَعْضًا أَزْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّ تَوْلَوْنَا فَقُولُوا أَشْهَدُوا إِنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٣) .**

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبي بلتعة . فلما دخل حاطب على المقوس قال له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه رب الأعلى ، فأخذته الله نkal الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك بك .

فقال المقوس : إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه .

فقال حاطب : ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه ، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقر لهم منه النصارى ، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشرى عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، فكلنبي أدرك قوماً فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت من أدركه هذا النبي ، ولسنا نتهاك عن دين المسيح ، ولكننا نأمرك به .

(١) ر بما يؤخذ هذا مما رواه مسلم عن أنس ٩٩/٢ .

(٢) هذا على رأي العلامة المصوروفى في كتاب رحمة للعالمين ١/١٧٨؛ وقال الدكتور حميد الله « ابن اسمه بنiamin » انظر : رسول أكرم کی سیاسی زندگی ص ١٤١ .

(٣) هذا النص أورده ابن القمي في زاد المعاد ٦١/٣ والذى أورده الدكتور حميد الله أحداً من صورة الكتاب الذى عتر عليه في الماضي القريب يختلف بعض كلماته عن هذا النص ، فقيهه « فأسلم تسلم يؤتك الله » الخ . وفيه « إثم القبط » بدل قوله « إثم أهل القبط » انظر : رسول أكرم کی سیاسی زندگی ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

قال المقوقس : إنني قد نظرت في أمر هذا النبي ، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبر وإلخبار بالنجوى وسانظر .

وأخذ كتاب النبي ﷺ ، فجعله في حق من عاج ، وختم عليه ودفع به إلى جارية له ، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية ، فكتب إلى رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم » محمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك ، أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعوه إليه ، وقد علمت أن نبياً بقي ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين ، لهما مكان في القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركها ، والسلام عليك .

ولم يزد على هذا ولم يسلم ، والجاريتان مارية ، وسيرين ، والبالغة دلائل بقية إلى زمن معاوية^(١) ، واتخذ النبي ﷺ مارية سرية له ، وهي التي ولدت له إبراهيم . وأما سيرين فأعطتها لحسان بن ثابت الأنباري .

٣. الكتاب إلى كسرى ملك فارس:

وكتب النبي ﷺ إلى كسرى ملك فارس « بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهاد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعابة الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلّم ، فإن أبىت فإن إثم الجوس عليك .

واختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمي ، فدفعه السهمي إلى عظيم البحرين ، ولا ندرى هل بعث عظيم البحرين رجلاً من رجالاته ، أم بعث عبد الله السهمي ، وأياً ما كان فلما قرئ الكتاب على كسرى مزقه ، وقال في غطرسة : عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلى ، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال : مزق الله ملکه ، وقد كان كما قال ، فقد كتب كسرى إلى باذان عامله على العين : ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدتين ، فليأتيا

(١) زاد المعاد ٦١/٣

به . فاختار باذان رجلين من عنده ، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، فلما قدموا المدينة ، وقابلوا النبي ﷺ قال أحدما : إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وبعثني إليك لتنطلق معى ، وقال قوله تهديدياً ، فأمرهما النبي ﷺ أن يلاقيه غداً .

وفي ذلك الوقت كانت قد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر ، فقد قام شIROYEH بن كسرى على أبيه فقتله ، وأخذ الملك لنفسه ، وكان ذلك في ليلة الثلاثاء عشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع^(١) ، وعلم رسول الله ﷺ الخبر من الوحي ، فلما غدوا عليه أخبارها بذلك : فقالا : هل تدرى ما تقول ؟ إننا قد نقمنا عليك ما هو أيسير ، أفتكتب هذا عنك ، وتخبره الملك . قال : نعم أخبراه ذلك عنى ، وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى ! وينتهي إلى منتهى الخف والحاfer . وقولا له : إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك ، وملكتك على قومك من الأبناء ، فخرجا من عنده حتى قدموا على باذان فأخباره الخبر ، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شIROYEH لأبيه ، وقال له شIROYEH في كتابه : انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبي إليك ، فلا تهجه حتى يأتيك أمري .

وكان ذلك سبباً في إسلام باذان ومن معه من أهل فارس بالرين^(٢) .

٤. الكتاب إلى قيصر ملك الروم:

وروى البخاري ضمن حديث طويل نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلى ملك الروم هرقل ، وهو هذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتوك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأربعين ، **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْ إِنَّكُمْ لَمَعْوَمُونَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَيَا يَأْتِي مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْ فَقُولُوا أَشْهَدُّو إِنَّا مُسْلِمُونَ »^(٣) .**

(١) فتح الباري ١٢٧/٨ .

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرى ١٤٧/١ ، ١٢٨ ، ١٢٧/٨ ، فتح الباري ١٤٧/١ ، ١٢٨ ، وانظر رحمة للعالمين أيضاً

ج .

(٣) صحيح البخاري ٤/١ ، ٥ .

واختار لحمل هذا الكتاب دحية بن خليفة الكلبي ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ، ليدفعه إلى قيسر ، وقد روى البخاري عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجأراً بالشام في المدة التي كان رسول الله عليه مأذنها أبا سفيان وكفار قريش ، فأثروا وهم بإيليا^(١) ، فدعاهم في مجلسه وحوله عظاماء الروم ، ثم دعاهم ودعا ترجانه فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنهنبي ؟ قال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسباً ، فقال : أدنوه مني ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجانه : إني سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبني فكذبواه ، فوالله لو لا الحياة من أن يأثروا على كذبنا لكذبت عنه .

ثم قال : أول ما سألني عنه أنس قال : كيف نسبة فيكم ؟ فقلت : هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا . قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال : فأشراف الناس اتبواه أم ضعفاءهم ؟ قلت : بل ضعفاءهم . قال : أينزيلون أم ينقضون ؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا . قال : فهل تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها – قال : ولم تكنني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة – قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قاتلکم إيه ؟ قلت : الحرب بينما وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباءكم ، ويأمروا بالصلة والصدق والعفاف والصلة . فقال للترجمان : قل له : سألك عن نسبة فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسول تبعث في نسبة من قومها ، وسائلك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا . قلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قبله ، وسائلك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا ، فقلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب

(١) كان قيسر جاء إذ ذاك في إيليا – بيت المقدس – من حمص ، شكرأ لما من الله عليه من إلحاق المزعجة الساحقة بالفرس (انظر صحيح مسلم ٩٩/٢) ، وكانت الفرس قد قتلوا كسرى أبوريز ، وصلحوا الروم على رد ما كانوا قد احتلوا من بلاد قيسر ، وردوا إليه الصليب الذي تزعم النصارى أن المسيح عليه السلام كان قد صلب عليه ، فكان قيسر قد جاء إلى إيليا (بيت المقدس) سنة ٦٢٩ م (أي سنة ٥٧ هـ) يضع الصليب في موضعه ، وبشكير الله على هذا الفتح المبين .

ملك أبيه ، وسألتك هل كتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكتب على الله ، وسألتك أشراف الناس اتبواه أم ضعفاً لهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبواه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تختلط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك بماذا يأمر ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، وبنهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلوة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظنه أنه منكم ، فلو أني أعلم أنني أخلص إليه لتجسمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه ، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده ، وكثير اللعنة ، وأمر بنا فآخر جنا ، قال : فقلت لأصحابه حين أخرجنا ، لقد أمير أمراً ابن أبي كبشة ، إنه ليخافه ملكبني الأصغر ، فما زلت موافقاً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام^(١) .

هذا ما رأه أبو سفيان من أثر هذا الكتاب على قيس ، وقد كان من أثره عليه أنه أجاز دحية بن خليفة بن الكلبي ، حامل كتاب الرسول ﷺ بمال وكسوة ، ولما كان دحية بمحضه في الطريق لقيه ناس من جذام ، فقطعوها عليه ، فلم يتركوا معه شيئاً ، فجاء رسول الله ﷺ قبل أن يدخل بيته ، فأخبره ، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى حسمى ، وهي وراء وادي القرى في خمسة رجل ، فشن زيد الغارة على جذام ، فقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، واستعاد نعمهم ونساءهم ، فأخذ من التعم ألف بعير ، ومن الشاء خمسة آلاف ، والسببي مائة من النساء والصبيان .

وكان بين النبي ﷺ وبين قبيلة جذام موادعة ، فأسرع زيد بن رفاعة الجذامي أحد زعماء هذه القبيلة بتقديم الاحتجاج إلى النبي ﷺ ، وكان قد أسلم هو ورجال من قومه ونصره دحية حين قطع عليه الطريق ، فقبل النبي ﷺ احتجاجه وأمر برد الغنائم والسببي .

(١) صحيح البخاري ٤/١ ، صحيح مسلم ٩٨/٢ ، ٩٩ .

وعامة أهل المغازي يذكرون هذه السرية قبل الحديبية ، وهو خطأ واضح ، فإن بعث الكتاب إلى قيسر كان بعد الحديبية . ولذا قال ابن القيم : هذا بعد الحديبية بلا شك^(١) .

٥. الكتاب إلى المنذر بن ساوي:

وكتب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوي حاكم البحرين كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام ، وبعث إليه العلاء بن الحضرمي بذلك الكتاب ، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ : أما بعد يا رسول الله، فإني قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ، ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضي محبوس وبهود ، فأحدثت إلي في ذلك أمرك ، فكتب إليه رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وأنشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد فإني أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح فإما يتصح لنفسه ، وإنما من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وإن رسلي قد أثروا عليك خيراً ، وإنني قد شفعتك في قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلمو عليه ، وعفوت عن أهل الذنب ، فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلم نزعلك عن عملك ومن أقام على يهودية أو محبوبة فعليه الجزية »^(٢) .

٦. الكتاب إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة:

وكتب النبي ﷺ إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي ، سلام على من اتبع المدى ، وأعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والخافر ، فأسلم تسلماً ، وأجعل لك ما تحت يديك » .

واختار لحمل هذا الكتاب سليمان بن عمرو العامري ، فلما قدم سليمان على هوذة بهذا الكتاب مختوماً أنزله ، وحياه ، وقرأ عليه الكتاب ، فرد عليه رداً دون رد ، وكتب إلى النبي ﷺ :

(١) انظر زاد المعاد ١٢٢/٢ ، وحاشية تلقيع فهوم أهل الأثر ص ٢٩.

(٢) زاد المعاد ٦١/٣ ، ٦٢ ، والنص الذي أورده الدكتور حميد الله آخرنا من صورة الكتاب الذي عثر عليه في أثاضي القرى يختلف في كلمة واحدة ، ففيه « لا إله غيره » بدل قوله : « لا إله إلا هو » .

ما أحسن ما تدعوا إليه وأجمله ، والعرب تهاب مكانى ، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك ، وأجاز سليطاً بجازة ، وكصاء أثواباً من نسج هجر ، فقدم بذلك كله على النبي ﷺ فأخирه ، وقرأ النبي ﷺ كتابه فقال : لو سألك قطعة من الأرض ما فعلت ، باد ، وباد ما في يديه . فلما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح جاءه جبريل عليه السلام بأن هؤلة مات ، فقال النبي ﷺ : أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتبني ، يقتل بعدي ، فقال قائل : يا رسول الله من يقتله ؟ فقال : أنت وأصحابك ، فكان كذلك ^(١) .

٧. الكتاب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق:

كتب إليه النبي ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر ، سلام على من اتبع المدى ، وآمن به وصدق ، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يقى لك ملوكك ». ^(٢)

واختار لحمل هذا الكتاب شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة ، ولما أبلغه الكتاب قال : من ينزع ملكي مني ؟ أنا سائر إليه . ولم يسلم ^(٣) .

٨. الكتاب إلى ملك عمان:

وكتب النبي ﷺ كتاباً إلى ملك عمان جifer وأخيه عبد ابني الجلندي ، ونصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله إلى جifer وعبد ابني الجلندي ، سلام على من اتبع المدى ، أما بعد ، فإني أدعوكاً بدعاية الإسلام ، أسلماً تسلماً ، فإني رسول الله ﷺ إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فإنكمما إن أقررتما بالإسلام وليتكمما ، وإن أبيتمما أن تقدراً بالإسلام فإن ملوككم زائل ، وخيلي تحمل بساحتكم ، وتظهر نبوتي على ملوككم ». ^(٤)

واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص رضي الله عنه . قال عمرو : فخرجت حتى انتهيت إلى عمان ، فلما قدمتها عمدت إلى عبد - وكان أحلم الرجالين ، وأسهلهما خلقاً - فقلت : إني رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك ، فقال : أحي المقدم على بالسن والملك ،

(١) زاد المعاد ٦٢/٣ .

(٢) نفس المصدر ٦٢/٣ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرى ١٤٦/١ .

وأنا أوصلك إلـيـه حتـى يـقـرـأ كـتابـك ، ثـم قـال : وـما تـدـعـو إـلـيـه ؟ قـلت : أـدـعـو إـلـى الله وـحـده لا شـرـيك لـه ، وـتـخلـع مـا عـبـد مـن دـوـنـه ، وـتـشـهـد أـن حـمـداً عـبـدـه وـرـسـولـه . قـال : يـا عـمـرو ، إـنـك اـبـن سـيـد قـومـك ، فـكـيـف صـنـع أـبـوـك ؟ إـنـا لـنـا فـيـه قـدـوة . قـلت : مـات وـلـم يـؤـمـن بـمـحـمـد عـلـيـه ، وـوـدـدـت أـنـه كـان أـسـلـم وـصـدـق بـه ، وـقـد كـنـت أـنـا عـلـى مـثـل رـأـيـه حتـى هـدـانـي الله لـلـإـسـلـام . قـال : فـمـقـى تـبـعـتـه ؟ قـلت : قـرـيـباً . فـسـأـلـي أـين كـان إـسـلـامـك ؟ قـلت : عـنـد النـجـاشـي ، وـأـخـبـرـتـه أـنـ النـجـاشـي قـد أـسـلـم ، قـال : وـكـيـف صـنـع قـوـمـه بـمـلـكـه ، قـفـلـت أـقـرـوـه وـاتـبـعـوـه . قـال : وـالـأـسـاقـفـة وـالـرـهـبـان تـبـعـوـه ؟ قـلت : نـعـم . قـال : انـظـر يـا عـمـرو مـا تـقـول ، إـنـه لـيـس مـن خـصـلـة فيـ رـجـل أـفـضـحـ له مـن الـكـذـب . قـلت : مـا كـذـبـت ، وـمـا نـسـتـحلـه فيـ دـيـنـنـا ، ثـم قـال : مـا أـرـى هـرـقـل عـلـم بـإـسـلـام النـجـاشـي . قـلت : بـلـ ، قـال : فـبـأـي شيء عـلـمـت ذـلـك ؟ قـلت : كـان النـجـاشـي يـخـرـج لـه خـرـجاً ، فـلـمـا أـسـلـم وـصـدـق بـمـحـمـد عـلـيـه ، قـال : لـا وـالـلـه لـو سـأـلـي درـهـماً وـاحـدـاً مـا أـعـطـيـتـه ، فـبـلـغـ هـرـقـل قـوـلـه فـقـال لـه النـيـاق أـخـوـه : أـتـدـع عـبـدـك لـا يـخـرـج لـك خـرـجاً ، وـيـدـيـن بـدـيـن غـيـرـك دـيـنـا مـحـدـثـاً ؟ قـال هـرـقـل : رـجـل رـغـب فيـ دـيـن ، فـاختـارـه لـنـفـسـه ، مـا أـصـنـع بـه ؟ وـالـلـه لـوـلا الضـن بـمـلـكـي لـصـنـعـتـ كـاـنـصـنـعـ . قـال : انـظـر مـا تـقـول يـا عـمـرو ؟ قـلت : وـالـلـه صـدـقـتـك . قـال عـبـد : فـأـخـبـرـنـي مـا الذـي يـأـمـرـ به وـيـنـبـئـ عنـه ؟ قـلت : يـأـمـر بـطـاعـة الله عـز وـجـل ، وـيـنـبـئـ عـنـ مـعـصـيـتـه ، وـيـأـمـر بـالـبـر وـصـلـة الرـحـم ، وـيـنـبـئـ عـنـ الـظـلـم وـالـعـدـوـان ، وـعـنـ الزـنـا ، وـعـنـ الـحـمـر ، وـعـنـ عـبـادـة الـحـجـر وـالـوـثـن وـالـصـلـيـب . قـال : مـا أـحـسـنـ هـذـا الذـي يـدـعـو إـلـيـه ، لـو كـانـ أـخـي يـتـابـعـنـي عـلـيـه لـرـكـبـنـا حتـى نـؤـمـن بـمـحـمـد عـلـيـه وـنـصـدـقـ بـه ، وـلـكـنـ أـخـي أـضـرـ بـمـلـكـه مـنـ أـنـ يـدـعـه وـيـصـيـرـ ذـنـبـاً . قـلت : إـنـه إـنـ أـسـلـم مـلـكـه رـسـول الله عـلـيـه عـلـى قـوـمـه . فـأـخـبـرـه بـمـا فـرـض رـسـول الله عـلـيـه فيـ الصـدـقـاتـ فيـ الـأـمـوـال حتـى اـتـهـيـتـ إـلـى الـإـبـل . قـال : يـا عـمـرو ، وـتـؤـخـذـ مـنـ سـوـاـئـمـ مـوـاشـيـنـا الـتـي تـرـعـيـ الشـجـر وـتـرـدـ المـيـاه ؟ قـلت : نـعـم ، قـفال : وـالـلـه مـا أـرـى قـوـمـي فيـ بـعـد دـارـهـم وـكـثـرـه عـدـدـه يـطـبـعـونـ هـذـا . قـال : فـمـكـثـتـ بـيـابـه أـيـامـاً ، وـهـو يـصـلـ إـلـى أـخـيـه فـيـخـيرـه كـلـ خـرـجـي ، ثـمـ إـنـه دـعـانـي بـمـا فـدـخـلـتـ عـلـيـه ، فـأـخـذـ أـعـوـانـه بـضـبـعـيـ ، قـفال : دـعـوه ، فـأـرـسـلـتـ ، فـذـهـبـتـ لـأـجـلـسـ ، فـأـبـأـنـا يـدـعـونـي أـجـلـسـ ، فـنـظـرـتـ إـلـيـه قـفال : تـكـلـمـ بـحـاجـتـكـ ، فـدـفـعـتـ إـلـيـه الـكـتـاب مـخـتـوـمـاً ، فـقـضـ خـاتـمـه ، وـقـرـأـ حتـى اـتـهـيـتـ إـلـى آخـرـه ، ثـمـ دـفـعـه إـلـى أـخـيـه فـقـرـأـ مـثـلـ قـرـاءـتـه ، إـلـا أـنـي رـأـيـتـ أـخـاه أـرـقـ مـنـه ، قـال : أـلـا تـخـبـرـنـي عـنـ قـرـيـشـ كـيـفـ

صنعت؟ فقلت : تبعوه ، إما راغب في الدين ، وإما مقهور بالسيف . قال : ومن معه؟ قلت : الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدي الله إياهم أنهم كانوا في ضلال ، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الخرجة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعته توطئك الخيل وتبيد خضراءك ، فأسلم تسلم ، ويستعملك على قومك ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال قال : دعني يومي هذا ، وارجع إلى غداً .

فرجعت إلى أخيه فقال : يا عمرو ، إني لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكته . حتى إذا كان الغد أتيت إليه ، فألي أذن لي ، فانصرفت إلى أخيه ، فأخبرته أنني لم أصل إليه ، فأوصلني إليه ، فقال : إني فكرت فيما دعوتني إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما في يدي ، وهو لا يبلغ خيله هنا ، وإن بلغت خيله لقت قتالاً ليس كفتال من لاق . قلت : أنا خارج غداً ، فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه ، فقال : ما نحن فيما ظهر عليه ، وكل من أرسل إليه قد أجابه ، فأصبح فأرسل إلي ، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً ، وصدق النبي ﷺ ، وخلياً بيني وبين الصدقة ، وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لي عوناً على من خالفني^(١) .

وسياق هذه القصة تدل على أن إرسال الكتاب إليهما تأخر كثيراً عن كتب بقية الملوك ، والأغلب أنه كان بعد الفتح :

وبهذه الكتب كان النبي ﷺ قد أبلغ دعوته إلى أكثر ملوك الأرض . فمنهم من آمن به ومنهم من كفر . ولكن شغل فكرة هؤلاء الكافرين ، وعرف لديهم باسمه ودينه .

(١) زاد المعاد ٦٢/٣ .

النشاط العسكري بعد صلح الحديبية غزوة الغابة أو غزوة ذي قرد

هذه الغزوة حركة مطاردة ضد فصيلة من بني فزارة قامت بعمل القرصنة في لقاح رسول الله ﷺ.

وهي أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ بعد الحديبية ، وقيل خير . ذكر البخاري في ترجمة باب أنها كانت قبل خير بثلاث ، وروى ذلك مسلم مستنداً من حديث سلمة بن الأكوع . وذكر الجمھور من أهل المغارب أنها كانت قبل الحديبية وما في الصحيح أصح مما ذكره أهل المغارب^(١) .

وخلالصة الروايات عن سلمة بن الأكوع بطل هذه الغزوة أنه قال : بعث رسول الله ﷺ بظهوره مع غلامه رياح ، وأنا معه بفرس أبي طلحة ، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزارى قد أغار على الظهر ، فاستقه أجمع ، وقتل راعيه ، فقلت : يا رياح خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة ، وأخير رسول الله ﷺ . ثم قمت على أكمة ، واستقبلت المدينة ، فناديت ثلاثة : يا صباحاه ، ثم خرجت في آثار القوم أرمهم بالنيل وأرتجز ، أقول :

أنسا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع

فوالله ما زلت أرمهم وأتعقر بهم ، فإذا رجع إلى فارس جلست في أصل الشجرة ، ثم رميته فعقرت به ، حتى إذا دخلوا في تضائق الجبل علوته ، فجعلت أرمهم بالحجارة ، فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله تعالى من بغير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري ، وخلوا بيدي وبيني ، ثم اتبعهم أرمهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة ، وثلاثين رحماً يستخفون ،

(١) انظر صحيح البخاري باب غزوة ذات قرد ٦٠٣/٢ ، وصحیح مسلم باب غزوة ذي قرد وغيرها ١١٣/٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٦٠ ، زاد المعاد ١٢٠/٢ .

ولا يطرون شيئاً إلا جعلت عليه آراما من الحجارة ، يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه . حتى أتوا متضايقاً من ثنية فجلسوا يتغدون ، وجلست على رأس قرن ، فصعد إلي منهم أربعة في الجبل ، قلت : هل تعرفوني ؟ أنا سلمة بن الأكوع ، لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته ، ولا يطلبني فiderكتني ، فرجعوا . فما برح مكانى حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر . فإذا أولهم أخرم ، وعلى أثره أبو قنادة ، وعلى أثره المقداد بن الأسود ، فالتفى عبد الرحمن وأخرم ، فقرر بعد الرحمن فرسه ، وطعنه عبد الرحمن فقتله ، وتحول على فرسه ولحق أبو قنادة بعد الرحمن فطعنه فقتله ، وولى القوم مدبرين ، نتبعهم ، أعدوا على رجي ، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه بناء يقال له ذا قرد ، ليشربوا منه ، وهم عطاش ، فأجلتهم عنه ، فما ذاقوا قطرة منه ، ولحقني رسول الله ﷺ والخيل عشاء ، قلت : يا رسول الله إن القوم عطاش ، فلو بعثتني في مائة رجل استنقذت ما عندهم من السرح ، وأخذت بأعنق القوم ، فقال : يا ابن الأكوع . ملكت فأسجع ^(١) ، ثم قال : إنهم ليقرؤن الآن في غطفان .

وقال رسول الله ﷺ : خير فرسانا اليوم أبو قنادة ، وخير رجالنا سلمة . وأعطاني سهرين ، سهم الرجل وسهم الفارس ، وأردفني وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة .
استعمل رسول الله ﷺ على المدينة في هذه الغزوة ابن أم مكتوم ، وعقد اللواء للمقداد بن عمرو ^(٢) .

(١) أسجع : أي سهل والمعنى قدرت فاعف .

(٢) انظر المصدرین السابقین ، وزاد المعاد ٢٠٢ .

(غزوة خيبر ووادي القرى)

(في المحرم سنة ٥٧هـ)

كانت خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد ستين أو ثمانين ميلاً من المدينة في جمة الشمال ، وهي الآن قرية في مناخها بعض الوعاء .

سبب الغزو:

ولما اطمأن رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة ، وأمن منه أمّاً باتاً بعد المدنة أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين - اليهود وقبائل نجد - حتى يتم الأمان والسلام ، ويسود المدح في المنطقة ، ويفرغ المسلمين من الصراع الدامي المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه .
ولما كانت خيبر هي وكرة الدس والتآمر ، ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب ، كانت هي الجديرة بالتفاف المسلمين أولاً .

أما كون خيبر بهذه الصفة ، فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حربوا الأحزاب ضد المسلمين ، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة ، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين - الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي - وبغطfan وأعراب البادية - الجناح الثالث من الأحزاب - وكانوا هم أنفسهم يهبون للقتال ، فأفلقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محنتها متواصلة ، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ ، وإزاء ذلك اضطر المسلمين إلى بعوث متواتلة ، وإلى الفتكت برأس هؤلاء المتآمرين ، مثل سلام بن أبي الحقيق ، وأسir بن رزام ، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك . وإنما أبطأوا في القيام بهذا الواجب ؛ لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعنده منهم - وهي قريش - كانت مجاهدة للمسلمين ، فلما انتهت هذه المجاهدة صفا الجحوة لمحاسبة هؤلاء الجرميين ، واقترب لهم يوم الحساب .

الخروج إلى خير:

قال ابن إسحاق : أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض الحرم ، ثم خرج في بقية الحرم إلى خير .

قال المفسرون : إن خير كانت وعداً وعدها الله تعالى بقوله : ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَفَاتِنَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ (٤٨ : ٢٠) يعني صلح الحديبية ، وبالمعنى الكبير خير

عدد الجيش الإسلامي:

ولما كان المنافقون وضعفاء الإيمان تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية ، أمر الله تعالى نبيه ﷺ فيهم قائلاً : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ إِلَى مَفَاتِنَ أَتَأْخُذُوهَا ذَرْوَنَا نَتَبَعُكُمْ بِرِيدُوبَكْ أَنْ يُبَدِّلُوا كُلَّمَا اللَّهُ قُلَّ لَنْ تَتَبَعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلٍ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٤٨ : ١٥) .

فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خير ، أعلن أن لا يخرج معه إلا راغب في الجهاد ، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعين .

واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري ، وقال ابن إسحاق : غليلة بن عبد الله الليثي ، والأول أصح عند المحققين^(١) .

وحينئذ قدم أبو هريرة المدينة مسلماً ، فوافى سباع بن عرفطة في صلاة الصبح فلما فرغ من صلاته أتى سباعاً فزوده ، حتى قدم على رسول الله ﷺ وكلم المسلمين فأشركوه وأصحابه في سهامتهم .

اتصال المنافقين باليهود:

وقد قام المنافقون يعملون لليهود ، فقد أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبي إلی بهود خير : أن حمداً قصد قصداًكم وتوجه إليكم ، فخذلوا حذركم ، ولا تخافوا منه ، فإن عددكم وعدتكم كبيرة ، وقوم محمد شرذمة قليلون ، عزل لا سلاح معهم إلا قليل . فلما علم ذلك أهل خير ، أرسلاوا كتابة بن أبي الحقيق وهو ذة بن قيس إلى غطفان . يستعنونهم ؛ لأنهم كانوا حلفاء بهود

(١) انظر فتح الباري ٤٦٥/٧ ، زاد المعاد ١٣٣/٢ .

خير ، ومظاهرين لهم على المسلمين . وشرطوا لهم نصف ثمار خير إن هم غلبو المسلمين .

الطريق إلى خير:

وسلك رسول الله ﷺ في اتجاهه نحو خير جبل عصر (بالكسر وقيل بالتحريك) ثم على الصباء ، ثم نزل على واد يقال له الرجيع ، وكان بينه وبين غطfan مسيرة يوم وليلة ، فتيأت غطfan وتوجهوا إلى خير ، لإمداد اليهود ، فلما كانوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم حساً ولغطاً ، فظنوا أن المسلمين أغروا على أهاليهم وأموالهم فرجعوا ، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خير .

ثم دعا رسول الله ﷺ الدليلين الذين كانوا يسلكان بالجيش – وكان اسم أحدهما حسيل – ليدلاه على الطريق الأحسن ، حتى يدخل خير من جهة الشمال – أي جهة الشام – فيحول بين اليهود وبين طريق فرارهم إلى الشام كما يحول بينهم وبين غطfan .

قال أحدهما : أنا أذلك يا رسول الله – ﷺ – ، فأقبل حتى انتهى إلى مفرق الطرق المتعددة وقال : يا رسول الله هذه طرق يمكن الوصول من كل منها إلى المقصود ، فأمر أن يسمى لها واحداً واحداً . قال : اسم واحد منها حزن فألى النبي ﷺ من سلوكه ، وقال : اسم الآخر شاش ، فامتنع منه أيضاً وقال : اسم آخر حاطب . فامتنع منه أيضاً ، وقال حسيل : مما بقي إلا واحداً قال عمر : ما اسمه قال : مرحباً ، فاختار النبي ﷺ سلوكه .

بعض ما وقع في الطريق:

١ - عن سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع النبي ﷺ إلى خير فسرنا ليلاً ، فقال ، رجل من القوم لعامر : يا عامر ألا تسمعنا من هنياتك ؟ – وكان عامر رجلاً شاعراً – فنزل يحدو بال القوم . يقول :

اللهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهتَدِينَا وَلَا تَصْدِقَا وَلَا صَلِينَا
فَاغْفِرْ فَدَاءَ لَكَ مَا اتَقِنَا وَثِيتُ الْأَقْدَامِ إِنْ لَاقِنَا
وَلَقِينَ سَكِينَةَ عَلَيْنَا إِنَّا إِذَا صَيَحْ بَنَا أَيْنَا
وَبِالصَّيَاحِ عَوْلَاهُ عَلَيْنَا

قال رسول الله ﷺ : « من هذا السائق » ؟ قالوا : عامر بن الأكوع . قال : « يرحمه الله » . قال رجل من القوم : وجبت يا نبي الله ، لولا أمعتنا به^(١) . وكانوا يعرفون أن رسول الله ﷺ لا يستغفر لإنسان يخصه إلا استشهد^(٢) ، وقد وقع في حرب خير .

٢ - وفي الطريق أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير (الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله) فقال رسول الله ﷺ : « أربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً^(٣) .

٣ - وبالصهباء من أدنى خير صلى العصر ، ثم دعا بالأزواد ، فلم يؤت إلا بالسوق فامر به فوري ، فأكل وأكل الناس ، ثم قام إلى المغرب ، فمضمض ، وممضمض الناس . ثم صلى ولم يتوضأ^(٤) ، ثم صلى العشاء^(٥) .

الجيش الإسلامي إلى أسوار خير:

بات المسلمون الليلة الأخيرة التي بدأ في صباحها القتال قريباً من خير ، ولا تشعر بهم اليهود ، وكان النبي ﷺ إذا أتى قوماً بليل لم يقربهم حتى يصبح ، فلما أصبح صل الفجر بغلس ، وركب المسلمين ، فخرج أهل خير بمساحيم ومكالئهم ، ولا يشعرون ، بل خرجوا لأرضهم ، فلما رأوا الجيش قالوا : محمد ، والله محمد والخبيث ، ثم رجعوا هاربين إلى مدinetهم ، فقال النبي ﷺ : « الله أكبر ، خربت خير ، الله أكبر خربت خير . إنما إذا نزلنا بساحة قوم فسأ صباح المنذرين^(٦) .

وكان النبي ﷺ اختار لعسكره منزلة ، فأتاه حباب بن المنذر فقال : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أنزله الله ، أم هو الرأي في الحرب ؟ قال : « بل هو الرأي » ، فقال : يا رسول الله

(١) صحيح البخاري باب غزوة خير ٦٠٣/٢ ، صحيح سلم باب غزوة ذي قرد وغيرها ٦١٥/٢ .

(٢) نفس المصدر الآخر .

(٣) صحيح البخاري ٦٠٥/٢ .

(٤) نفس المصدر ٦٠٣/٢ .

(٥) مغازي الواقدي (غزوة خير ص ١١٢) .

(٦) صحيح البخاري باب غزوة خير ٦٠٤ ، ٦٠٣/٢ .

إن هذا المنزل قريب جداً من حصن نطا ، وجميع مقاتلي خير فيها ، وهم يدررون أحوالنا ، ونحن لا ندري أحوالهم ، وسهامهم تصل إلينا . وسهامنا لا تصل إليهم ، ولا نأمن من بياتهم ، وأيضاً هنا بين النخلات ، ومكان غائر ، وأرض وخيمة ، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاسد نتخذه مسيراً . قال عليه السلام : « الرأي ما أشرت ، ثم تحول إلى مكان آخر » .

ولما دنا من خير وأشرف عليها قال : « قفوا » . فوقف الجيش فقال : « اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، فإننا لنسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ، وننعوا بك من شر هذه القرية ، وشر أهلها ، وشر ما فيها ، أقدموا بسم الله » ^(١) .

التهيؤ للقتال وحصون خير:

ولما كانت ليلة الدخول قال : « لا أعطين الرأبة غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله عليه السلام ، كلهم يرجو أن يعطاه فقام : « أين علي بن أبي طالب » ، فقالوا : يا رسول الله هو يشتكي عينيه ^(٢) . قال : « فأرسلوا إليه » . فأتى به ، فبصرت رسول الله عليه السلام في عينيه ودعا له فبرئ ، كان لم يكن به وجع ، فأعطيه الرأبة ، فقال : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا . قال : « انفذ على رسليك ، حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خيراً لك من أن يكون لك حمر النعم ^(٣) .

وكانت خير منقسمة إلى شطرين ، شطر فيها خمسة حصون :

١ - حصن ناعم .

٢ - حصن الصعب بن معاذ .

٣ - حصن قلعة الزير .

٤ - حصن أبي .

(١) ابن هشام ٣٢٩/٢ .

(٢) وكان لأجل هذه الشكوى تخلف في أول المسير ، ثم لحق بالجيش .

(٣) صحيح البخاري باب غزوة خير ٥٠٥/٢ ، ٦٠٦ ، ويؤخذ من بعض الروايات أن إعطاء الرأبة لعلي كان بعد

فشل عدة محاولات لفتح حصن من حصونهم . والراجح عند المحققين هو ما ذكرنا .

٥ - حصن النزار .

والمحصون الثلاثة الأولى تقع في منطقة يقال لها (النطاة) ، وأما الحصان الآخران فيقعان في منطقة تسمى بالشق .

أما الشطر الثاني ، ويعرف بالكتيبة ، ففيه ثلاثة حصون فقط :

- ١ - حصن القموص (كان حصن بني أبي الحقيق من بنى النضير) .
- ٢ - حصن الوطيط .
- ٣ - حصن السلام .

وفي خير حصون وقلاع غير هذه الثانية ، إلا أنها كانت صغيرة لا تبلغ إلى درجة هذه القلعة في مناعتها وقوتها .

والقتال المزبور إنما دار في الشطر الأول منها ، أما الشطر الثاني فمحصونها الثلاثة مع كثرة المخارين فيها سلمت دونما قتال .

بعد المعركة وفتح حصن ناعم:

وأول حصن هاجمه المسلمون من هذه المحصون الثانية هو حصن ناعم ، وكان خط الدفاع الأول للبيهود لمكانه الاستراتيجي ، وكان هذا الحصن هو حصن مربح البطل اليهودي الذي كان يعد بالآلاف .

خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالمسلمين إلى هذا الحصن ، ودعا اليهود إلى الإسلام ، فرفضوا هذه الدعوة ، ويرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم مربح ، فلما خرج إلى ميدان القتال دعا إلى المبارزة . قال سلمة بن الأكوع : فلما أتينا خير نخرج ملكهم مربح ينطر بسيفه يقول :

قد علمت خير أنى مربح شاكي السلاح بطل مغرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فهز له عمي عامر فقال :

قد علمت خير أنى عامر شاكي السلاح بطل مفارم

فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف مرحباً في ترس عمي عامر ، وذهب عامر يسفل له ، وكان سيفه قصيراً ، فتناول به ساق اليهودي ليضرره ، فيرجع ذباب سيفه ، فأصاب عين ركبته فمات منه ، وقال فيه النبي ﷺ : « إن له لأجرين وجمع بين أصبعيه ، إنه لحاقدٌ مجاهدٌ قل عربي مشى بها مثله » ^(١) .

ويبدو أن مرحباً دعا بعد ذلك إلى البراز مرة أخرى ، وجعل يرتجز بقوله : قد علمت خير أني مرحباً .. إلخ ، فبرز له علي بن أبي طالب . قال سلمة بن الأكوع : فقال علي :

أنا الذي سنتني أمي حيدره كلث غابات كريه المنظره
أوفيهم بالصاع كيل السندره

فضرب رأس مرحباً فقتله ، ثم كان الفتح على يديه ^(٢) .

ولما دنا علي رضي الله عنه من حصنهم اطلع يهودي من رأس الحصن ، وقال : من أنت ، فقال : أنا علي بن أبي طالب ، فقال اليهودي : علوم وما أنزل على موسى .

ثم خرج ياسر أخوه مرحباً وهو يقول : من ييارز ؟ فبرز إليه الزبير ، فقالت صفية أمه : يا رسول الله ، يقتل ابني ؟ قال : « بل ابنته يقتله ». فقتله الزبير .

ودار القتال المrier حول حصن ناعم ، قتل فيه عدة سراة من اليهود ، انهارت لأجله مقاومة اليهود ، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين ، ويؤخذ من المصادر أن هذا القتال دام أياماً لاق المسلمين فيها مقاومة شديدة ، إلا أن اليهود يغسوا من مقاومة المسلمين ، فتسلىوا من هذا الحصن إلى حصن الصعب ، واقتصر المسلمون حصن ناعم .

فتح حصن الصعب بن معاذ:

وكان حصن الصعب الحصن الثاني من حيث القوة والمناعة بعد حصن ناعم ، قام المسلمين

(١) صحيح مسلم باب غزوة خير ١٢٢/٢ ، باب غزوة ذي قرد وغيرها ١١٥/٢ ، صحيح البخاري باب غزوة خير ٦٠٣/٢ .

(٢) بين المصادر اختلاف كبير في الرجل الذي قتل مرحباً ، وفي اليوم الذي قتل فيه ، وفتح هذا الحصن . وبعض هذا الاختلاف موجود في سياق روايات الصحيحين أيضاً ، وهذا الترتيب أخذناه بعد ترجيح سياق رواية البخاري .

بالمجوم عليه تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنصاري ، ففرضوا عليه الحصار ثلاثة أيام ، وفي اليوم الثالث ، دعا رسول الله ﷺ لفتح هذا الحصن خاصة .

وروى ابن إسحاق : أن نبي سهم من أسلم أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : لقد جهتنا وما بأيدينا من شيء ، فقال : « اللهم إنك قد عرفت حالمهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدي شيء أعطيم إياه ، فاقتح عليهم أعظم حصونها عنهم غباء ، وأكثرها طعاماً وودكاً ». فغدا الناس فتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ ، وما بخبير حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه^(١) .

ولما ندب النبي ﷺ المسلمين بعد دعائهما لهاجمة هذا الحصن كان بنو أسلم هم المقاديم في المهاجمة ، ودار البراز والقتال أمام الحصن . ثم فتح الحصن في ذلك اليوم قبل أن تغرب الشمس ، ووجد فيه المسلمون بعض المجنينات والدبابات .

ولأجل هذه المخاعة الشديدة التي ورد ذكرها في رواية ابن إسحاق كان رجال من الجيش قد ذبحوا الحمير ، ونصبوا القدور على النيران ، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك نهى عن لحوم الحمر الإنسية .

فتح قلعة الزبير:

وبعد فتح حصن ناعم والصعب تحول اليهود من كل حصون النطاء إلى قلعة الزبير ، وهو حصن متبع في رأس قلة ، لا تقدر عليه الخيل والرجال لصعوبته وامتناعه ، ففرض عليه رسول الله ﷺ الحصار ، وأقام محاصرةً ثلاثة أيام . فجاء رجل من اليهود ، وقال : يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهراً ما بالوا ، إن لهم بشراباً وعيوناً تحت الأرض ، يخرجون بالليل ويشربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، فإن قطعت مشربهم عليه أصحرروا لك . ققطع ماءهم عليهم ، فخرجوها فقاتلوا أشد القتال ، قتل فيه نفر من المسلمين ، وأصيب نحو العشرة من اليهود ، وافتتحه رسول الله ﷺ .

(١) ابن هشام ملخصاً / ٢٣٢ ، والودك : دسم اللحم .

فتح قلعة أبي:

وبعد فتح قلعة الزير انتقل اليهود إلى قلعة أبي وتحصنوا فيه ، وفرض المسلمين عليهم الحصار ، وقام بطلان من اليهود واحد بعد الآخر بطلب المبارزة ، وقد قتلهم أبطال المسلمين ، وكان الذي قتل المبارز الثاني هو البطل المشهور أبو دجابة سماك بن خرشة الأنصاري صاحب العصابة الحمراء ، وقد أسرع أبو دجابة بعد قتله إلى اقتحام القلعة ، واقتحم معه الجيش الإسلامي ، وجرى قتال مماثر ساعة داخل الحصن ، ثم تسلل اليهود من القلعة ، وتحولوا إلى حصن التزار آخر حصن في الشطر الأول .

فتح حصن النزار:

كان هذا الحصن أمنع حصون هذا الشطر ، وكان اليهود على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحام هذه القلعة ، وإن بذلوا قصارى جهدهم في هذا السبيل ، ولذلك أقاموا في هذه القلعة مع الذراري والنساء ، بينما كانوا قد أخلوا منها القلاع الأربع السابقة .

وفرض المسلمين على هذا الحصن أشد الحصار ، وصاروا يضغطون عليهم بعنف ، ولكن الحصن يقع على جبل مرتفع متبع لم يكونوا يجدون سبيلاً للاقتحام فيه ، أما اليهود فلم يجتروا للخروج من الحصن ، للاشتباك مع قوات المسلمين ، لكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيفة برشق البنال ، وبالقاء الحجارة .

وعندما استعصى حصن التزار على قوات المسلمين ، أمر النبي ﷺ بنصب آلات المنجنيق ، ويدو أن المسلمين قذفوا بها القذائف ، فأوقعوا الخلل في جدران الحصن ، واقتحموه ، ودار قتال مماثر في داخل الحصن ، انتزם أمامه اليهود هزيمة منكرة ، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من التسلل من هذا الحصن كما تسللوا من الحصون الأخرى ، بل فروا – من فروا – من هذا الحصن تاركين للمسلمين نسائهم وذرارتهم .

وبعد فتح هذا الحصن المذكور تم فتح الشطر الأول من خير ، وهي ناحية النطة والشق ، وكانت في هذه الناحية حصون صغيرة أخرى ، إلا أن اليهود بمجرد فتح هذا الحصن أخلوا هذه الحصون ، وهردوا إلى الشطر الثاني من بلدة خير .

فتح الشطر الثاني من خير:

ولما فتح ناحية النطأة والشق ، تحول رسول الله ﷺ إلى أهل الكتبية والوطيع والسلام حصن أبي الحقيق من بني النضير ، وجاءهم كل فل كان انزرم من النطأة والشق ، وتحصن هؤلاء أشد التحصن .

وأختلف أهل المغازي هل جرى هناك قتال في أي حصن من حصونها الثلاثة أم لا ؟ فسياق ابن إسحاق صرخ في جريان القتال لفتح حصن القموص . بل يؤخذ من سياقه أن هذا الحصن تم فتحه بالقتال فقط من غير أن يجري هناك مفاوضة للاستسلام^(١) .

أما الواقدي ، فيصرح تمام التصریح أن قلاع هذا الشطر الثلاثة إنما أخذت بعد المفاوضة ، ويمكن أن تكون المفاوضة قد جرت لاستسلام حصن القموص بعد إدارة القتال . وأما الحصنان الآخران فقد سلما إلى المسلمين دونما قتال .

ومهما كان فلما أتى رسول الله ﷺ إلى هذه الناحية – الكتبية – فرض على أهلها أشد الحصار ، ودام الحصار أربعة عشر يوماً ، واليهود لا يخرجون من حصونهم ، حتى هم رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلاك سألوا رسول الله ﷺ الصلح .

المفاوضة:

وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ : أنزل فأكلعك ؟ قال : نعم فنزل ، وصالح على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة ، وترك الذريدة لهم ، ويخرجون من خير وأرضها بذرارهم ، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء – أي الذهب والفضة – والكراع والحلقة إلا ثوباً على ظهر إنسان^(٢) ، فقال رسول الله ﷺ : وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتوني شيئاً ، فصالحوه على ذلك^(٣) . وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين ، وبذلك تم فتح خير .

(١) ابن هشام ٢٣٦، ٢٣١/٢ .

(٢) ولكن صرخ في رواية أبي داود أنه عاهد على أن المسلمين يسمحون لليهود عند جلالهم عن خير أن يأخذوا من الأموال ما حملت ركبهم (انظر سنن أبي داود ، باب ما جاء في حكم أرض خير ٧٦/٢) .

(٣) زاد المعاد ١٣٦/٢ .

قتل ابني أبي الحقيق لنقض العهد:

وعلى رغم هذه المعايدة غيب ابنا أبي الحقيق مالاً كثيراً ، غيا مسكا فيه مال وحل حبي بن أخطب ، كان احتمله معه إلى خير حين أجليت النضير .

قال ابن إسحاق : وأتي رسول الله ﷺ بكنانة بن الريبع ، وكان عنده كنز بنى النضير ، فسألها عنه ، فجحد أن يكون يعرف مكانه ، فأقى رجل من اليهود فقال : إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة . فقال : رسول الله ﷺ لكتنانة : أرأيت إن وجدناه عندك ألا تقتل ؟ قال : نعم ! فأمر بالخربة ، فحرقت ، فأخرج منها بعض كنزهم ، ثم سأله عما بقي ، فأقى أن يؤديه . فدفعه إلى الزبير ، وقال : عذبه حتى تستحصل ما عنده ، فكان الزبير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه ، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة ، فضرب عنقه بمحمود بن مسلمة (وكان محمود قتل تحت جدار حصن ناعم ألقى عليه الرحي ، وهو يستظل بالجدار فمات) .

وذكر ابن القيم أن رسول الله ﷺ أمر بقتل ابني أبي الحقيق ، وكان الذي اعترف عليهم بإخفاء المال هو ابن عم كنانة .

وسبي رسول الله ﷺ صافية بنت حبي بن أخطب ، وكانت تحت كنانة ابن أبي الحقيق ، وكانت عروساً حدثة عهد بالدخول .

قسمة الغنائم:

وأراد رسول الله ﷺ أن يجعل اليهود من خير ، فقالوا : يا محمد ، دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ، ونقوم عليها ، فنحن أعلم بها منكم ، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها ، وكانوا لا يفرغون يقومون عليها ، فأعطائهم خير على أن لهم الشطر من كل زرع ، ومن كل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم . وكان عبد الله بن رواحة يخرصه عليهم .

وقسم أرض خير على ستة وثلاثين سهماً ، وجمع كل سهم مائة سهم ، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم ، فكان لرسول الله ﷺ والمسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم ، لرسول الله ﷺ سهم كسبه أحد المسلمين ، وعزل النصف الآخر وهو ألف وثمانمائة سهم ،

سهم لتوابيه وما ينزل به من أمور المسلمين ، وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم ، لأنها كانت طعمة من الله لأهل الخديبية من شهد منهم ومن غاب ، وكانوا ألفاً وأربعينمائة وكان معهم مائتا فرس ، لكل فرس سهمان ، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم ، فصار للفارس ثلاثة أسمهم وللراجل سهم واحد^(١) .

ويدل على كثرة مفاصيم خير ما رواه البخاري عن ابن عمر قال : ما شبعنا حتى فتحنا خير ، وما رواه عن عائشة قالت : لما فتحت خير قلنا : الآن نشبع من التمر^(٢) . ولما رجع رسول الله عليه السلام إلى المدينة رد المهاجرين إلى الأنصار منائهم التي كانوا منحوم إياها من التخيل حين صار لهم بخير مال ونخيل^(٣) .

قدوم جعفر بن أبي طالب والأشعريين :

وفي هذه الغزوة قدم عليه ابن عمّه جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، ومعهم الأشعريون أبو موسى وأصحابه .

قال أبو موسى : بلغنا مخرج رسول الله عليه السلام ونحن بالمين ، فخرجنَا مهاجرين - أنا وأخوان لي - في بعض وخمسين رجلاً من قومي ، فركبنا سفينتين ، فالقينا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة ، فوافقنا جعفراً وأصحابه عنده ، فقال : إن رسول الله عليه السلام بعثنا وأمرنا بالإقامة ، فأقيموا معنا ، فأقمنا معه حتى قدمنا فوافقنا رسول الله عليه السلام حين فتح خير ، فأقسم لهم لنا ، وما قسم لأحد غاب عن فتح خير شيئاً إلا من شهد معه ، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه ، قسم لهم معهم^(٤) .

ولما قدم جعفر على النبي عليه السلام تلقاه وقبله ، وقال : والله ما أدرى بأيهما أفرح ؟ بفتح خير أم بقدوم جعفر^(٥) .

(١) زاد المعاد ١٣٧/٢ ، ١٣٨ .

(٢) صحيح البخاري ٦٠٩/٢ .

(٣) زاد المعاد ١٤٨/٢ ، صحيح سلم ٩٦/٢ .

(٤) صحيح البخاري ٤٤٣/١ ، وانظر أيضاً فتح الباري ٤٨٤/٧ ، ٤٨٦ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧ .

(٥) زاد المعاد ١٣٩/٢ .

وكان قدوم هؤلاء على أثر بعث الرسول ﷺ إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري ، يطلب توجيههم إليه ، فأرسلهم النجاشي على مركبين ، وكانوا ستة عشر رجلاً ، معهم من بقي من نسائهم وأولادهم ، وبقيتهم جاؤوا إلى المدينة قبل ذلك^(١) .

الزواج بصفية:

ذكرنا أن صفة جعلت في السبايا حين قتل زوجها كنانة بن أبي الحقيق لغدره ، ولما جمع النبي جاء دحية بن خليفة الكلبي ، فقال : يا نبى الله ، أعطني جارية من السبي . فقال : اذهب فخذ جارية . فأخذ صافية بنت حبي ، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا نبى الله أعطى دحية صافية بنت حبي سيدة قريظة وبني النضير ، لا تصلح إلا لك ، قال : ادعوه بها . فجاء بها ، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال : خذ جارية من النبي غيرها ، وعرض عليها النبي ﷺ الإسلام فأسلمت ، فأعتقها وتزوجها ، وجعل عتقها صداقها ، حتى إذا كان بسد الصبياء راجعاً إلى المدينة حلت ، فجهزتها له أم سليم ، فأهدتها له من الليل ، فأصبح عروسأً بها ، وأولم عليها بمحبس من التمر والسمن والسوق ، وأقام عليها ثلاثة أيام في الطريق يبني بها^(٢) .

ورأى بوجهها حضرة ، فقال : ما هذا ؟ قالت : يا رسول الله ، رأيت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه ، وسقط في حجري ، ولا والله ما أذكر من شانك شيئاً ، فقصصتها على زوجي ، فلطم وجهي . فقال : تمنين هذا الملك الذي بالمدينة^(٣) .

أمر الشاة المسمومة:

ولما اطمأن رسول الله بخبير بعد فتحها أهدت له زينب بنت الحارث ، - امرأة سلام بن مشكم - شاة مصلبة ، وقد سألت أي عضو أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ فقيل لها : الذراع ، فأكلت فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع ، فلماك منها مضبغة ، فلم يسعها ، ولفظها ، ثم قال : إن هذا

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرى ١٢٨/١ .

(٢) صحيح البخاري ٥٤/١ ، ٥٤/٢ ، ٦٠٦ ، ٦٠٤/٢ ، ١٣٧/٢ ، زاد المعاد ٢ .

(٣) نفس المصدر الأخير ، وابن هشام ٢/٣٣٦ .

العظم ليخبرني أنه مسموم . ثم دعا بها فاعترفت ، فقال : ما حملك على ذلك ؟ قالت : إن كان ملكاً استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيخبر ، فتجاوز عنها .
وكان معه بشر بن البراء بن معور ، أخذ منها أكلة ، فأساغها ، فمات منها .
واختلفت الروايات في التجاوز عن المرأة وقتلها ، وجمعوا بأنه تجاوز عنها أولاً ، فلما مات بشر قتلها قصاصاً^(١) .

قتلى الفريقيين في معارك خيبر:

وجملة من استشهد من المسلمين في معارك خيبر ستة عشر رجلاً ، أربعة من قريش وواحد من أشجع ، وواحد من أسلم ، وواحد من أهل خيبر ، والباقيون من الأنصار .

ويقال : إن شهداء المسلمين في هذه المعركة ١٨ رجلاً . وذكر العلامة المنصور فوري ١٩ رجلاً ، ثم قال : إني وجدت بعد التفحص ٢٣ اسمًا ، واحد منها في الطبرى فقط ، وواحد عند الواقدى فقط ، وواحد مات لأجل أكل الشاة المسمومة ، وواحد اختلفوا هل قتل في بدر أو خيبر . والصحيح أنه قتل في بدر^(٢) .

أما قتل اليهود فعددهم ثلاثة وتسعون قبلاً .

فدرك :

ولما بلغ رسول الله ﷺ إلى خيبر ، بعث محبصة بن مسعود إلى يهود فدرك ، ليدعوهم إلى الإسلام فأبطأوا عليه ، فلما فتح الله خيبر قذف الرعب في قلوبهم ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك ، بمثل ما صالح عليه أهل خيبر ، فقبل ذلك منهم ، فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة ، لأنه لم يوجد على المسلمين بخيل ولا ركاب^(٣) .

(١) انظر زاد المعاد ١٣٩/٢ ، ١٤٠ ، فتح الباري ٤٩٧/٧ ، وأصل القصة مروية في البخاري مطولاً ومحضراً ، ٤٤٩/١ ، ٦١٠/٢ ، ٨٦٠ ، ٢٦٩ ، وفي ابن هشام ٣٣٧/٢ ، ٣٣٨ ، ٢٧٠ .

(٢) رحمة للعلميين ٢٦٨/٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٣) ابن هشام ٣٣٧/٢ ، ٣٥٣ .

وادي القرى:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر ، انصرف إلى وادي القرى ، وكان بها جماعة من اليهود ، وانضاف إليهم جماعة من العرب .

فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمي وهم على تعبئة ، فقتل مدعم عبد لرسول الله ﷺ ، فقال الناس : هنباً له الجنة ، فقال النبي ﷺ : كلا . والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغام ، لم تصبها المقاس ، لتشتعل عليه ناراً . فلما سمع بذلك الناس جاء رجل إلى النبي ﷺ بشراك أو شراكين ، فقال النبي ﷺ : شراك من نار أو شراكان من نار^(١) .

ثم عبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال ، وصفهم ، ودفع لواه إلى سعد بن عبادة ، ورابة إلى الحباب بن المنذر ، ورابة إلى سهل بن حنيف ، ورابة إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا ، وبرز رجل منهم ، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله ، حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً ، كلما قتل منهم رجل دعا من بقي إلى الإسلام .

وكانت الصلاة تحضر هذا اليوم ، فيصل إلى أصحابه ، ثم يعود ، فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله ، فقاتلهم حتى أمسوا ، وغدا عليهم ، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم ، وفتحها عنوة ، وغممه الله أموالهم ، وأصابوا أنثاناً ومتاعاً كثيراً .

وأقام رسول الله ﷺ بوادي القرى أربعة أيام ، وقسم على أصحابه ما أصاب بها ، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود ، وعاملهم عليها^(٢) (كما عامل أهل خيبر) .

تيماء:

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خيبر ثم فدك ووادي القرى لم يبدوا أي مقاومة ضد المسلمين ، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون للصلح . قبل ذلك منهم رسول الله ﷺ ، وأقاموا بأموالهم^(٣) ، وكتب لهم بذلك كتاباً ، وهاك نصه : هذا كتاب محمد رسول الله لبني

(١) صحيح البخاري ٦٠٨/٢ .

(٢) زاد المعاد ١٤٦/٢ ، ١٤٧ .

(٣) نفس المصدر ١٤٧/٢ .

عاديا ، إن هم الذمة ، وعليهم الجزية ، ولا عداء ولا جلاء ، الليل مد ، والنهر شد ، وكب
خالد بن سعيد^(١) .

العودة إلى المدينة:

ثم أخذ رسول الله في العودة إلى المدينة ، وفي مرجعه ذلك سار ليلة ، ثم نام في آخر الليل بعض الطريق ، وقال للبلال : « اكلاً لنا الليل » فغلبت بلال عيناه ، وهو مستند إلى راحاته ، فلم يستيقظ أحد ، حتى ضربتهم الشمس ، وأول من استيقظ بعد ذلك رسول الله عليه السلام ، ثم خرج من ذلك الوادي ، وتقدم ، ثم صلى الفجر بالناس ، وقيل : إن هذه القصة في غير هذا السفر^(٢) .

وبعد النظر في تفصيل معارك خيبر يبدو أن رجوع النبي عليه السلام كان في أواخر صفر أو في ربيع الأول سنة ٧هـ .

سرية أبان بن سعيد:

كان النبي عليه السلام يعرف أكثر من كل قائد عسكري أن إخلاء المدينة تماماً بعد انتصارات الأشهر الحرم ليس من الحزم قطعاً ، بينما الأعراب ضاربة حوالها طلب غرة المسلمين للقيام بالنهب والسلب أو أعمال القرصنة ، ولذلك أرسل سرية إلى نجد لإرهاب الأعراب ، تحت قيادة أبان بن سعيد ، بينما كان هو إلى خيبر ، وقد رجع أبان بن سعيد بعد قضاء ما كان واجباً عليه ، فوافى النبي عليه السلام بخيبر ، وقد افتحها .

والأغلب أن هذه السرية كانت في صفر سنة ٧هـ . ورد ذكر هذه السرية في البخاري^(٣) .
قال ابن حجر : لم أعرف حال هذه السرية^(٤) .

(١) ابن سعد .

(٢) ابن هشام ٢/٣٤٠ ، والقصة معروفة مروية في عامة كتب الحديث : وانظر زاد المغاد ٢/١٤٧ .

(٣) انظر صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٢/٦٠٨ ، ٦٠٩ .

(٤) فتح الباري ٧/٤٩١ .

بقية السرايا والغزوات في السنة السابعة

غزوة ذات الرقاع:

ولما فرغ رسول الله ﷺ عن كسر جناحين قوين من أجنحة الأحزاب الثلاثة ؛ ففرغ تماماً للالتفات إلى الجناح الثالث ، أي إلى الأعراب القساة الضاربين في يماني نجد ، والذين ما زالوا يقومون بأعمال النهب والسلب بين آونة وأخرى .

ولما كان هؤلاء البدو لا تجمعهم بلدة أو مدينة ، ولم يكونوا يقطنون الحصون والقلاع ، كانت الصعوبة في فرض السيطرة عليهم وإخمام نار شرهم تماماً تزداد بكثير مما كانت بالنسبة إلى أهل مكة وخير ، ولذلك لم تكن تجدي فيهم إلا حملات التأديب والإرهاب ، وقام المسلمين بمثل هذه الحملات مرة بعد أخرى .

ولفرض الشوكة - أو لاجتاع البدو الذين كانوا يتحشدون للإغارة على أطراف المدينة - قام رسول الله ﷺ بحملة تأدبية عرفت بغزوة ذات الرقاع .

وعامة أهل المغاربي يذكرون هذه الغزوة في السنة الرابعة ، ولكن مساهمة أبي موسى الأشعري وأبي هريرة رضي الله عنهما في هذه الغزوة تدل على وقوعها بعد خير ، والأغلب أنها وقعت في شهر ربيع الأول سنة ٧هـ .

وملخص ما ذكره أهل السير حول هذه الغزوة أن النبي ﷺ سمع باجتماع أنصار أو بني ثعلبة وبني محارب من غطفان ، فأسرع بالخروج إليهم في أربعمائة أو سبعمائة من أصحابه ، واستعمل على المدينة أبا ذر أو عثمان بن عفان ، وسار فتوغل في بلادهم حتى وصل إلى موضع يقال له نخل على بعد يومين من المدينة ، ولقي جمعاً من غطفان فتوافقوا ولم يكن بينهم قتال ، إلا أنه صلّى بهم يومئذ صلاة الخوف .

وفي البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر يبتنا بغير نعقبه ، فنقبت أقدامنا ، ونقبت قدماي ، وسقطت أظفاراي ، فكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت ذات الرقاع ؛ لما كان نعصب الخرق على أرجلنا^(١) .

وفيه عن جابر : كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع ، فإذا أتيتنا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ ، فنزل رسول الله ﷺ ، وتفرق الناس في العضة ، يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه . قال جابر : فئمنا نومة ؟ فجاء رجل من المشركين ، فاختلط سيف رسول الله ﷺ ، فقال : أخافني ؟ قال : لا . قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله . قال جابر : فإذا رسول الله ﷺ يدعونا ، فجئنا فإذا عنده أعرابي جالس ، فقال رسول الله ﷺ : إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم ، فاستيقظت وهو في يده صلتنا ، فقال لي : من يمنعك مني ؟ قلت : الله . فها هو ذا جالس . ثم لم يعاتبه رسول الله ﷺ .

وفي رواية : وأقيمت الصلاة فصل بطاقة ركعتين ، ثم تأخرروا ، وصل بالطاقة الأخرى ركعتين ، وكان للنبي ﷺ أربع ، وللقوم ركعتان^(٢) .

وفي رواية أبي عوانة : فسقط السيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ ، فقال : من يمنعك مني ؟ قال : كن خير آخذ . قال : تشهد أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله ؟ قال الأعرابي : أعاهدك أن لا أقاتلتك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، قال : فخلّي سبيله . فجاء إلى قومه ، فقال جتنكم من عند خير الناس^(٣) .

وفي رواية البخاري قال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر : اسم الرجل غورث بن الحارث^(٤) قال ابن حجر : ووقع عند الواقدي في سبب هذه القصة أن اسم الأعرابي دعثور ، وأنه أسلم . لكن ظاهر كلامه أنها قصتان في غزوتين والله أعلم^(٥) .

وفي مرجعهم من هذه الغزوة سبوا امرأة من المشركين ، فنذر زوجها أن لا يرجع حتى يهريق

(١) صحيح البخاري باب غزوة ذات الرقاع ٥٩٢/٢ ، وصحیح مسلم باب غزوة ذات الرقاع ١١٨/٢ .

(٢) صحيح البخاري ٥٩٣/٢ ، ٤٠٨ ، ٤٠٧/١ .

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٦٤ ، وانظر فتح الباري ٤١٦/٧ .

(٤) صحيح البخاري ٥٩٣/٢ .

(٥) فتح الباري ٤٢٨/٧ .

دماً في أصحاب محمد عليه السلام ، فجاء ليلاً ، وقد أرصد رسول الله عليه السلام رجلين ربيعة^(١) لل المسلمين من العدو ، وهم عباد بن بشر وعمار بن ياسر ، فضرب عباداً وهو قائم يصلى بهم فزعه ، ولم يبطل صلاته ، حتى رشقه بثلاثة أسمهم ، فلم ينصرف منها حتى سلم ، فأيقظ صاحبه ، فقال : سبحان الله ، هلا نبهتني ، فقال : إني كتبت في سورة فكرهت أن أقطعها^(٢) .

كان لهذه الغزوة أثر في قذف الرعب في قلوب الأعراب القساة ، وإذا نظرنا إلى تفاصيل السرايا بعد هذه الغزوة ؛ نرى أن هذه القبائل من غطفان لم تخترى أن ترفع رأسها بعد هذه الغزوة ، بل استكانت شيئاً فشيئاً حتى استسلمت ، بل وأسلمت ، حتى نرى عدة قبائل من هذه الأعراب تقوم مع المسلمين في فتح مكة ، وتغزو حنيناً ، وتأخذ من غنائمها ، ويعث إليها المصدقون فتعطى صدقاتها بعد الرجوع من غزوة الفتح ، فهذا تم كسر الأجنحة الثلاثة التي كانت ممثلة في الأحزاب ، وساد المنطقة الأمن والسلام ، واستطاع المسلمون بعد ذلك أن يسدوا بسهولة كل خلل وثلمة حدثت في بعض المناطق من بعض القبائل ، بل بعد هذه الغزوة بدأت التهديدات لفتح البلدان والممالك الكبيرة ، لأن داخل البلاد كانت الظروف قد تطورت لصالح الإسلام والمسلمين .

وبعد الرجوع من هذه الغزوة أقام رسول الله عليه السلام إلى شوال سنة ٧٣هـ . وبعث في خلال ذلك عدة سرايا ، وهكذا بعض تفصيلها :

١ - سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوج بقديد ، في صفر أو ربيع الأول سنة ٧٤هـ . كان بنو الملوج قد قتلوا أصحاب بشير بن سويد ، فبعثت هذه السرية لأخذ الثأر . فشنوا الغارة في الليل فقتلوا من قتلوا ، وساقوا النعم ، وطاردهم جيش كبير من العدو ، حتى إذا قرب من المسلمين نزل مطر ، فجاء سيل عظيم حال بين الفريقين . ونجح المسلمون في بقية الانسحاب .

٢ - سرية حسمى في جمادى الثانية سنة ٧٦هـ ، وقد مضى ذكرها في مکاتبة الملك .

٣ - سرية عمر بن الخطاب إلى تربة في شعبان سنة ٧٦هـ . ومعه ثلاثون رجلاً ، كانوا

(١) ربيعة : الشخص المخصص للمراقبة .

(٢) زاد المعاد ١١٢/٢ ، وانظر لتفصيل مباحث هذه الغزوة ابن هشام ٢٠٣/٢ ، إلى ٢٠٩ ، زاد المعاد ١١٠/٢ ، ١١١ ، ١١٢ ، فتح الباري ٤١٧/٧ إلى ٤٢٨ .

يسرون الليل ويستخفون في النهار ، وأتى الخبر إلى هوازن فهربوا ، وجاء عمر إلى محاهم ، فلم يلق أحداً فانصرف راجعاً إلى المدينة .

٤ - سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بناحية فدك في شعبان سنة ٧ هـ ، في ثلاثة رجالاً . خرج إليهم واستافق الشاء والنعم ، ثم رجع فأدركه الطلب عند الليل ، فرمومهم بالنبيل حتى فني نبيل بشير وأصحابه ، فقتلوا جميعاً إلا بشير فإنه ارتث إلى فدك ، فأقام عند يهود ، حتى برأت جراحه ، فرجع إلى المدينة .

٥ - سرية غالب بن عبد الله الليثي في رمضان سنة ٧ هـ إلى بني عوال ، وبني عبد بن ثعلبة بالميافع ، وقيل إلى الحرقات من جهة في مائة وثلاثين رجالاً ، فهجموا عليهم جميعاً ، وقتلوا من أشرف لهم ، واستاقوا نعماً وشاء ، وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد مرداس بن نهيل بعد أن قال : لا إله إلا الله . فقال النبي ﷺ ، هللا شفقت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟

٦ - سرية عبد الله بن رواحة إلى خيبر في شوال سنة ٧ هـ في ثلاثة رجالاً . وذلك أن أسيراً أو بشيراً بن رزام كان يجمع غطفان لغزو المسلمين ، فأخرجوا أسيراً في ثلاثة من أصحابه ، وأطعموه أن الرسول ﷺ يستعمله على خيبر ، فلما كانوا بقرقرة نيار وقع بين الفريقين سوء ظن أفضى إلى قتل أسير وأصحابه الثلاثين .

٧ - سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بمن وجبار (بالفتح ، أرض لغطفان وقيل لفزانة وعدرة) في شوال سنة ٧ هـ في ثلاثة من المسلمين ، للقاء جمع كبير تجمعوا للإغارة على أطراف المدينة . فساروا الليل وكملوا النهار ، فلما بلغتهم مسيرة بشير هربوا ، وأصاب بشير نعماً كثيرة ، وأسر رجلين ، فقدم بهما إلى المدينة ، إلى رسول الله ﷺ ، فأسلموا .

٨ - سرية أبي حدرد الأسيلي إلى الغابة . ذكرها ابن القم في سرايا السنة السابعة قبل عمرة القضاء ، وملخصها أن رجلاً من جشم بن معاوية أقبل في عدد كبير إلى الغابة ، يريد أن يجمع قيساً على محاربة المسلمين . فبعث رسول الله ﷺ أبو حدرد مع رجلين فاختار أبو حدرد خطة حرية حكيمة ، وهزم العدو هزيمة منكرة ، واستافق الكثير من الإبل والغنم^(١) .

(١) زاد المعد ١٤٩/٢ ، ١٥٠ ، وانظر لتفصيل هذه السرايا رحمة للعلميين ٢٢٩/٢ ، ٢٣٠ ، ٢٢١ ، زاد المعد ١٤٨/٢ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، تلقيح فهو أهل الآخر مع حواشيه ص ٣١ ومحضر سيرة الرسول للشيخ عبد الله الجدي ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

عمره القضاء

قال الحاكم : تواترت الأخبار أنه عليه السلام لما هل ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتروا قضاء عمرتهم ، وأن لا يختلف منهم أحد شهد الحديبية ، فخرجوا إلا من استشهد ، وخرج معه آخرون معترين ، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان . أهـ^(١) .

واستخلف على المدينة عويف أبو رهم الغفاري ، وساق ستين بدنة ، وجعل عليها ناجية بن جنوب الإسلامي ، وأحرم للعمره من ذي الخليفة ، ولها ، ولها المسلمون معه ، وخرج مستعداً بالسلاح والمقاتلة ، خشية أن يقع من قريش غدر ، فلما بلغ يأجوج وضع الأداة كلها ، الحجف ، والجان ، والنبل ، والرماح ، وخلف عليها أوس بن خولي الأنباري في مائتي رجل ، ودخل بسلاح الراكب والسيوف في القرب^(٢) .

وكان رسول الله عليه السلام عند الدخول راكباً على ناقه الفضاء ، والمسلمون متواشحو السيوف ، محدقون برسول الله عليه السلام يليون .

وخرج المشركون إلى جبل قعيقان - الجبل الذي في شمال الكعبة - ليروا المسلمين ، وقد قالوا فيها بينهم : إنه يقدم عليكم وفد وتهتم حمى يثرب ، فأمر النبي عليه السلام أصحابه أن يرميوا الأشواط الثلاثة ، وأن يمسوا ما بين الركين . ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرميوا الأشواط كلها إلا الإبقاء ، وإنما أمرهم بذلك ليري المشركون قوتهم^(٣) ، كما أمرهم بالاضطباب ، أي أن يكشفوا المناكب يعني ، ويضعوا طرق الرداء على اليسرى .

(١) فتح الباري ٧/٧٠٠ .

(٢) نفس المصدر وزاد المعاد ٢/١٥١ .

(٣) صحيح البخاري ١/٢١٨، ٢١٠، ٦١١، ٦١١، صحيح مسلم ١/٤١٢ .

ودخل رسول الله ﷺ مكة من الثنية التي تطلعه على الحجون – وقد صر المشركون ينظرون إليه – فلم يزل يلقي حتى استلم الركن بمحجهه ، ثم طاف ، وطاف المسلمين ، وعبد الله بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ يرتجز متوضحاً بالسيف :

خلوا فكيل الخير في رسوله
قد أنزل الرحمن في تزييه
يَا رب إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقَوْلِكَ
بِأَنَّ خَيْرَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِهِ
ضَرِبَ أَيْزِيلَ الْهَمَامَ عَنْ خَلِيلِهِ^(١)
وَفِي حَدِيثِ أَنْسٍ قَالَ عُمَرٌ : يَا ابْنَ رَوَاحَةَ بَنْ يَدِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَفِي حِرمَةِ اللَّهِ تَقُولُ
الشِّعْرُ ؟ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « خَلَ عَنْهُ يَا عُمَرَ ، فَلَهُ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَصْحَةِ النَّبِيلِ »^(٢).

ورمل رسول الله ﷺ والمسلمون ثلاثة أشواط ، فلما رأهم المشركون قالوا : هؤلاء الذين زعمتم أنهم قد وهنتم ، هؤلاء أجلد من كذا وكذا^(٣) .

ولما فرغ من الطواف سعى بين الصفا والمروءة ، فلما فرغ من السعي ، وقد وقف الهدي عند المروءة ، قال : « هذا المنحر وكل فجاج مكة منحر ». فتحر عن المروءة وحلق هناك ، وكذلك فعل المسلمون ، ثم بعث ناساً إلى ياجع ، فيقيموا على السلاح ، ويأتي الآخرون فيقضون نسائهم ففعلوا .

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثة أيام ، فلما أصبح من اليوم الرابع أتوا عليه ، فقالوا : قل لصاحبك : اخرج عنا ، فقد مضى الأجل ، فخرج النبي ﷺ ، ونزل بسرف فأقام بها .

ولما أراد الخروج من مكة تبعتهم ابنة حبزة ، تナدي يا عم يا عم ، فتناولها على ، واحتضم فيها علي وجعفر وزيد ، فقضى النبي ﷺ جعفر ، لأن حالتها كانت تخته .

وفي هذه العمرة تزوج النبي ﷺ بيمونة بنت الحارث العامرية ، وكان رسول الله ﷺ قبل

(١) اضطررت الأشعار وترتيبها في الروايات فجمعنا بين شتيتها .

(٢) رواه الترمذى ، أبواب الاستذان والأدب ، باب ما جاء في إنشاد الشعر ١٠٧/٢ .

(٣) صحيح مسلم ٤١٢/١ .

الدخول في مكة بعث جعفر بن أبي طالب بين يديه إلى ميمونة ، فجعلت أمرها إلى العباس ، وكانت أختها أم الفضل تحته ، فزوجها إيه ، فلما خرج من مكة خلف أمها رافع ليحمل ميمونة إليه حين يمشي ، فبني بها بسرف^(١) .

وسميت هذه العمرة بعمره القضاء ؛ إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحديبية ، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة أي المصالحة التي وقعت في الحديبية ، والوجه الثاني رجحه المحققون^(٢) وهذه العمرة تسمى بأربعة أسماء : القضاء ، والقضية ، والقصاص ، والصلح^(٣) .

وبعد الرجوع من عمرة القضاء بعث عدة سرايا ، هاكم تفصيلها :

١ - سرية ابن أبي العوجاء ، في ذي الحجة سنة ٧٧هـ ، في خمسين رجلاً بعثه رسول الله إلى بني سليم ، ليدعوهم إلى الإسلام ، فقالوا : لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا ، ثم قاتلوا قتالاً شديداً ، جرح فيه أبو العوجاء ، وأسر رجالان من العدو .

٢ - سرية غالب بن عبد الله إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفذك في صفر سنة ٨٨هـ . بعث في مائتي رجل ، فأصابوا من العدو نعماً ، وقتلوا منهم قتيلاً .

٣ - سرية ذات أطلع في ربيع الأول سنة ٨٨هـ . كانت بنو قضااعة قد حشدت جموعاً كبيرة للإغارة على المسلمين ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ كعب بن عمير الأنصاري في خمسة عشر رجلاً ، فلقوا العدو ، فدعوه إلى الإسلام ، فلم يستجيبوا لهم ، وأرشقوهم بالبيل حتى استشهدوا كلهم إلا رجل واحد ، فقد ارتث من بين القتلى^(٤) .

٤ - سرية ذات عرق إلى بني هوازن في ربيع الأول سنة ٨٨هـ . كانت بنو هوازن قد أمدت الأعداء مرة بعد أخرى ، فأرسل إليه شجاع بن وهب الأسد في خمسة وعشرين رجلاً ، فاستأقوا نعماً من العدو ، ولم يلقوا كيداً^(٥) .

(١) زاد المعاد ١٥٢/٢ .

(٢) انظر زاد المعاد ١٧٢/١ ، فتح الباري ٥٠٠/٧ .

(٣) انظر نفس المصدر الأخير .

(٤) رحمة للعلميين ٢٢١/٢ .

(٥) نفس المصدر وتلقيح فهوم أهل الأثر لابن الموزي ص ٣٣ حاشية .

معركة مؤتة

وهذه المعركة أكبر لقاء مثخن ، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمين في حياة رسول الله ﷺ ، وهي مقدمة وتمهيد لفتح بلاد النصارى ، وقعت في جمادى الأولى سنة ٨ هـ ، وفق أغسطس أو سبتمبر سنة ٦٢٩ م .
مؤتة (بالضم فالسكون) هي قرية بأدنى بلقاء الشام ، بينها وبين بيت المقدس مرحلتان .

أسباب المعركة:

وسبب هذه المعركة أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى ، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني – وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيسر – فأوثقه رباطاً ، ثم قدمه ، فضرب عنقه .

وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم ، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب ، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين نقلت إليه الأخبار ، فجهز إليه جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل^(١) ، وهو أكبر جيش إسلامي ، لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب .

أمراء الجيش ووصية رسول الله - ﷺ - إليهم:

أمر رسول الله ﷺ على هذا البعث زيد بن حارثة ، وقال : « إن قتل زيد فجعله ، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة »^(٢) . وعقد لهم لواء أبيض ، ودفعه إلى زيد بن حارثة^(٣) .

(١) زاد المعاد ١٥٥/٢ ، فتح الباري ٥١١/٧ .

(٢) صحيح البخاري باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٦١١/٢ .

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٣٢٧ .

وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا والا استعانا بالله عليهم ، وقاتلتهم ، وقال لهم : « اغزوا بسم الله في سبيل الله من كفر بالله ، لا تقدروا ، ولا تغيروا ، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ، ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلاً بصومعة ، ولا تقطعوا خللاً ولا شجرة ، ولا تهدموا بناء »^(١) .

توديع الجيش الإسلامي وبكاء عبدالله بن رواحة

ولما تهيأ الجيش الإسلامي للخروج حضر الناس ، ودعوا أمراء رسول الله ﷺ ، وسلموا عليهم ، وحيثند بكى أحد أمراء الجيش ، عبد الله بن رواحة ، فقالوا : ما يبكيك ؟ فقال : أما والله ما بي حب الدنيا ، ولا صباية بكم ، ولكنني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار ﴿ وَلَذِكْرُ الْأَوَادِ هَا كَانَ عَلَى رَيْكَ حَتَّىٰ مَقْضِيَاهُ ﴾ (١٩ : ٧١) فلست أدرى كيف لي بالصدر بعد الورود ؟ فقال المسلمين : صححكم الله بالسلامة ، ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين غافلين ، فقال عبد الله بن رواحة :

لكنني أسائل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ^(٢) تفذ الزبدأ
أو طعنـة يـدي حـران بـجهـزة بـحربـة تـفذ الأـحـشـاء والـكـبـداـ
حتـى يـقال إـذـا مـرـوا عـلـى جـدـثـي^(٣) أـرـشـدـهـ اللهـ مـنـ غـازـ ، وـقـدـ رـشـداـ
ثـمـ خـرـجـ القـوـمـ ، وـخـرـجـ رسـوـلـ اللهـ ﷺ مـشـيـعاـ لـهـ حـتـىـ بـلـغـ ثـيـةـ الـوـدـاعـ ، فـوـفـ
وـوـدـعـهـمـ^(٤) .

تحرك الجيش الإسلامي، ومباغنته حالة رهيبة:

وتحرك الجيش الإسلامي في اتجاه الشمال حتى نزل معان ، من أرض الشام ، مما يلي الحجاز الشمالي ، وحيثند نقلت إليهم الاستخبارات بأن هرقل نازل بما يزيد من ألف بلقاء في مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من خم وجدام وبلقين وبهراء وبلي مائة ألف .

(١) نفس المصدر ، ورحمة للعلميين ٢٧١/٢ .

(٢) الفرغ : السعة .

(٣) المحدث : القبر .

(٤) بن هشام ٢/٣٧٣ ، ٤/٣٦ ، زاد المعاد ٢/١٥٦ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٣٢٧ .

المجلس الاستشاري بمعان:

لم يكن المسلمين أدخلوا في حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرم ، الذي يوغلوا به في هذه الأرض البعيدة – وهل يهجم جيش صغير ، قوامه ثلاثة آلاف مقاتل فحسب ، على جيش كبير عرم ، مثل البحر الخضم ، قوامه مائتا ألف مقاتل ؟ حار المسلمين ، وأقاموا في معان ليترين يفكرون في أمرهم ، وينظرون ويتشارون ، ثم قالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ ، فنخبره بعدد عدونا ، فإنما أن يمدنا بالرجال ، وإنما أن يأمرنا بأمره فنمضي له .

ولكن عبد الله بن رواحة عارض هذا الرأي ، وشجع الناس ، قائلاً : يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجم طلبون ، الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنما هي إحدى الحسنين ، إما ظهور وإنما شهادة . وأخيراً استقر الرأي على ما دعا إليه عبد الله بن رواحة .

الجيش الإسلامي يتحرك نحو العدو:

وحيثند بعد أن قضى الجيش الإسلامي ليترين في معان ، تحركوا إلى أرض العدو ، حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها « مشارف » ، ثم دنا العدو ، وانحاز المسلمون إلى مؤنة ، فعسكرروا هناك ، وتعابوا للقتال ، فجعلوا على ميمنتهم قطبة بن قادة العندي ، وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصاري .

بداية القتال، وتناوب القواد:

وهناك في مؤنة التقى الفريقان ، وببدأ القتال المريء ، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتي ألف مقاتل . معركة عجيبة تشاهدتها الدنيا بالدهشة والخيرة ، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجبائب .

أخذ الراية زيد بن حارثة – حب رسول الله ﷺ – وجعل يقاتل بضراوة بالغة ، وبراسة لا يوجد لها نظير إلا في أمثاله من أبطال الإسلام ، فلم ينزل يقاتل ويقاتل حتى شاط في رماح القوم ، وخر صريراً .

وحيثند أخذ الراية جعفر بن أبي طالب ، وطقق يقاتل قتالاً منقطع النظير ، حتى إذا أرهقه القتال اتّحـم عن فرسه الشقراء فعقرها ، ثم قاتل حتى قطعت يمينه ، فأخذ الراية بشماله ، ولم يزل بها حتى قطعت شماليه ، فاحتضنها بعضاًديه ، فلم يزل رافعاً إياها حتى قتل . يقال : إن روميا ضربه ضربة قطعته نصفين ، وأتاه الله بمناحيه جناحين في الجنة ، يطرير بهما حيث يشاء ، ولذلك سمي بمعغر الطيار ، وبمعغر ذي الجناحين .

روى البخاري عن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل ، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ، ليس منها شيء في دبره . يعني ظهره^(١) .

وفي رواية أخرى قال ابن عمر : كنت فيهم في تلك الغزوة ، فالمتسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية^(٢) . وفي رواية العمري عن نافع زيادة « فوجدنا ذلك فيها أقبل من جسده »^(٣) .

ولما قتل جعفر بعد القتال بمثل هذه الضراوة والبسالة أخذ الرایة عبد الله بن رواحة ، وتقى
بها ، وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه ، ويتردد بعض التردد حتى حاد حيدة ، ثم قال :

الراية إلى سيف من سيف الله:

وحينئذ تقدم رجل من بني عجلان - اسمه ثابت بن أرقم - فأخذ الراية وقال : يا معاشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل ، فاصطلح الناس على

(١) صحيح البخاري ، باب عزوة مؤة من أرض الشام . ٦١١/٢

(٢) نفس المصدر ٦١١/٢.

(٣) انظر فتح الباري ٥١٢/٧ ، وظاهر الحديثين التخالف في العدد ، وجمع بأن الزيادة باعتبار ما وجد فيه من رمي السهام ، انظر المصدر المذكور .

خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية قاتل قتالاً مريضاً ، فقد روى البخاري عن خالد بن الوليد قال : لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعه أسياف ، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية^(١) . وفي لفظ آخر : لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعه أسياف ، وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية^(٢) .

وقد قال رسول الله ﷺ يوم مؤتة - مخراً بالوحى ، قبل أن يأتي إلى الناس الخبر من ساحة القتال - : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تدركان - حتى أخذ الراية سيف من سيف الله ، حتى فتح الله عليهم^(٣) .

نهاية المعركة:

ومع الشجاعة البالغة والبسالة والضراوة المريتين كان مستغرباً جداً أن ينجح هذا الجيش الصغير في الصمود أمام تيارات ذلك البحر الغطسطم من جيوش الروم ، ففي ذلك الوقت أظهر خالد بن الوليد مهارته وبنوغه في تخلص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه .

واختلفت الروايات كثيراً فيما آلت إليه أمر هذه المعركة أخيراً . ويظهر بعد النظر في جميع الروايات أن خالد بن الوليد نجح في الصمود أمام جيش الرومان طول النهار ، في أول يوم من القتال ، وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية ، تلقى الرعب في قلوب الرومان ؛ حتى ينجح في الانحياز المسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة ، فقد كان يعرف جيداً أن الإفلات من براثنهم صعب جداً لو انكشف المسلمون ، وقام الرومان بالمطاردة .

فلما أصبح اليوم الثاني غير أوضاع الجيش ، وعياء من جديد ، فجعل مقدمته ساقه ، ويعيشه ميسرة ، وعلى العكس ، فلما رأهم الأعداء أنكروا حالم ، وقالوا : جاءهم مدد ، فرعبوا ، وصار خالد - بعد أن ترأى الجيشان ، وتناولوا ساعة - يتأنّى المسلمين قليلاً ، مع حفظ نظام جيشه ، ولم يتبعهم الرومان ظناً منهم أن المسلمين يخدعونهم ، ويحاولون القيام بمكيدة ترمي بهم في الصحراء .

وهكذا انحاز العدو إلى بلاده ، ولم يفكّر في القيام بمطاردة المسلمين ، ونجح المسلمين في

(١) صحيح البخاري باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٦١١/٢ .

(٢) نفس المصدر ٦١١/٢ .

(٣) نفس المصدر ٦١١/٢ .

الأنهياز سالمين ، حتى عادوا إلى المدينة^(١) .

قتلى الفريقين:

واستشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلاً ، أما الرومان ، فلم يُعرف عدد قتلامهم غير أن تفصيل المعركة يدل على كثورتهم .

أثر المعركة:

وهذه المعركة وإن لم يحصل المسلمون بها على الثأر ، الذي عانوا ماراتها لأجله ، لكنها كانت كبيرة الأثر لسمعة المسلمين ، إنها ألقت العرب كلها في الدهشة والخيرة ، فقد كانت الرومان أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض ، وكانت العرب تظن أن معنى جلالها هو القضاء على النفس وطلب الحتف بالظلف ، فكان لقاء هذا الجيش الصغير – ثلاثة آلاف مقاتل – مع ذلك الجيش الضخم العمرم الكبير – مائتا ألف مقاتل – ثم الرجوع عن الغزو من غير أن تلحق به خسارة تذكر ، كان كل ذلك من عجائب الدهر ، وكان يؤكد أن المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته ، وأنهم مؤيدون ومنصورو من عند الله ، وأن صاحبهم رسول الله حقاً ، ولذلك نرى القبائل اللدودة التي كانت لا تزال تثور على المسلمين جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام ، فأسلمت بنو سليم وأشجع وغطفان وذبيان وفزانة وغيرها .

وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامي مع الرومان ، فكانت توطة وتمهيداً لفتح البلدان الرومانية ، واحتلال المسلمين الأراضي البعيدة النائية .

* * *

سرية ذات السلاسل:

ولما علم رسول الله ﷺ ب موقف القبائل العربية التي تقطن مشارف الشام في معركة مؤتة ، من اجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين ، شعر بيسيس الحاجة إلى القيام بمحكمة باللغة توقع الفرقة بينها وبين الرومان ، وتكون سبباً للاختلاف بينها وبين المسلمين ، حتى لا تتحشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخرى .

(١) انظر فتح الباري ٥١٣/٧ ، ٥١٤ ، زاد المعاد ٢/١٥٦ ، وتفصيل المعركة مأخوذ من هذين المصادرتين والتي قبلهما .

واختار لتنفيذ هذه الخطة عمرو بن العاص ؛ لأن أم أبيه كانت امرأة من بلي ، وبعثه إليهم في جمادى الآخرة سنة ٨٨ هـ على إثر معركة مؤتة ليستألفهم ، ويقال : بل نقلت الاستخبارات أن جمعاً من قضاة قد تجمعوا ، ي يريدون أن يدنو من أطراف المدينة ، وبعثه إليهم ، ويمكن أن يكون السببان اجتمعاً معاً .

وعقد رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص لواء أبيض ، وجعل معه راية سوداء ، وبعثه في ثلاثة من سراة المهاجرين والأنصار ، ومعهم ثلاثون فرساً ، وأمره أن يستعين بن مربى من بلي وعدرة وبليقين ، فسار الليل وكمن النهار ، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً ، بعث رافع بن مكث الجهنمي إلى رسول الله ﷺ يستمده ، وبعث إليه أبو عبيدة بن الجراح في مائتين وعقد له لواء ، وبعث له سراة المهاجرين والأنصار - فيهم أبو بكر وعمر - وأمره أن يلحق بهم ، وبعثوا ، وأن يكونوا جميعاً ولا يختلفوا ، فلما لحق به أراد أبو عبيدة أن يوم الناس ، فقال عمرو : إنما قدمت على مددأ ، وأنا الأمير ، فأطاعه أبو عبيدة ، فكان عمرو يصلى بالناس.

وسار حتى وطىء بلاد قضاة ، فدخلوها حتى أُتي أقصى بلادهم ، ولقي في آخر ذلك جمعاً ، فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا .

وبعث عوف بن مالك الأشجعي بريداً إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره بقوفهم وسلامتهم ، وما كان في غزاتهم .

وذات السلسل (بضم السين الأولى وفتحها : لغتان) بقعة وراء وادي القرى ، بينها وبين المدينة عشرة أيام . وذكر ابن إسحاق أن المسلمين نزلوا على ماء بأرض جذام يقال له السلسل ، فسمى ذات السلسل^(١) .

سرية أبي قتادة إلى خضراء:

كانت هذه السرية في شعبان سنة ٨٨ هـ . وذلك لأن بني غطفان كانوا يتحشدون في خضراء - وهي أرض محارب بنجد - فبعث إليهم رسول الله ﷺ أبي قتادة في خمسة عشر رجلاً فقتل منهم ، وسى وغم ، وكانت غيته خمس عشرة ليلة^(٢) .

(١) انظر ابن هشام ٢/٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، زاد المعاد ٢/١٥٧ .

(٢) رحمة للعلميين ٢/٢٢٣ ، تلقيح فهوم أهل الآخر ص ٣٣ .

غزوة فتح مكة

قال ابن القيم : هو الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنته وحزبه الأمين ، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين ، من أيدي الكفار والمرجع ، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء ، وضررت أطنان عزه على مناكب الجوزاء ، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً ، وأشرف به وجه الأرض ضياء وابتهاجاً هـ^(١) .

سبب الغزوۃ:

قدمنا في وقعة الحديبية أن بنداً من بنود هذه المعاهدة يفيد أن من أحب أن يدخل في عقد محمد - ﷺ - وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءاً من ذلك الفريق ، فأي عداون تتعرض له أي من تلك القبائل يعتبر عدواً على ذلك الفريق .

وبحسب هذا البند دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش ، وصارت كل من القبيلتين في أمن من الأخرى ، وقد كانت بين القبيلتين عداوة وتوترات في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ، وقعت هذه المدنة ، وأمن كل فريق من الآخر اغتنمها بنو بكر ، وأرادوا أن يصيروا من خزاعة الشأن القديم ، فخرج نوقل بن معاوية الدبلي في جماعة من بنى بكر في شهر شعبان سنة ٨ هـ ، فأغاروا على خزاعة ليلاً ، وهم على ماء يقال له « الوتير » فأصابوا منهم رجالاً ، وتناوشوا واقتلوا ، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح ، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل ، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر : يا نوقل ، إننا

زاد المعاد / ٢٦٠ . (١)

قد دخلنا الحرم ، إهلك إهلك . فقال كلمة عظيمة : لا إله اليوم يا بني بكر ، أصيروا ثاركم ،
فلعمرى إنكم لسرقون في الحرم ، أفلأ تصيبون ثاركم فيه ؟

ولما دخلت خزاعة مكة جلأوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي ، وإلى دار مولى لهم يقال له رافع .

وأسع عمرو بن سالم الخزاعي ، فخرج حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فوقف عليه ، وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال :

يا رب إبني ناشد محمدأ
حلف أينما وأييه الأتلدا^(١)
قد كنتم ولداً وكنا والداً^(٢)
فانصر ، هداك الله ، نصراً أيداً
وادع عباد الله يأتوا مداداً
فيهم رسول الله ، قد تجرداً
أيضاً مثل البدر ، يسمو صعداً
إن سيم خسفاً وجهه تربداً
ونقضوا ميثاقك المؤكداً
وزعموا أن لست أدعوا أحداً
وهم أذل ، وأقل عدداً
وجعلوا لي في كداء رصداً
وقتلونا ركعاً وسجداً^(٣)

قال رسول الله ﷺ : نصرت يا عمرو بن سالم ، ثم عرضت له سحابة من السماء فقال : إن هذه السحابة لتسنبل بنصر بنى كعب .

ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة ، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، فأخبروه بمن أصيب منهم ، وبمظاهره قريش بنى بكر عليهم ، ثم رجعوا إلى مكة .

أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح :

ولا شك أن ما فعلت قريش وحلفاؤها كان غدراً محضاً ونقضاً صريحاً للميثاق لم يكن له أى

(١) الأتلد : القديم ، يشير إلى الحلف الذي كان بين خزاعة وبين بنى هاشم منذ عهد عبد المطلب .

(٢) يشير إلى أم عبد مناف - وهي حبي زوجة قصي - كانت من خزاعة .

(٣) يقول : قتلنا وقد أسلمنا .

مير ، ولذلك سرعان ما أحسست قريش بغدرها ، وخففت وشعرت بعواقبه الوخيمة ، فعقدت مجلساً استشارياً ، وقررت أن تبعث قائدها أبا سفيان مثلاً لها ؛ ليقوم بتجديد الصلح .

وقد أخبر رسول الله ﷺ أصحابه بما ستفعله قريش إزاء غدرتهم . قال : كأنكم بأيدي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ، ويزيد في المدة .

وخرج أبو سفيان - حسب ما قررته قريش - فلقي بدبل بن ورقاء بعسفان - وهو راجع من المدينة إلى مكة - فقال : من أين أقبلت يا بدبل ؟ - وظن أنه أتى النبي ﷺ - فقال : سرت في خزانة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي . قال : أو ما جئت محمداً ؟ قال : لا .

فلما راح بدبل إلى مكة قال أبو سفيان : لعن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى ، فأتيك راحلته ، فأخذ من بعرها ففته ، فرأى فيها النوى ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بدبل محمداً .

وقدم أبو سفيان المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبة ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ، فقال : يا بنتي ، أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك نجس . فقال : والله لقد أصابك بعدي شر .

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه ، فلم يرد عليه شيئاً ، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ ، فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : آنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجده إلا الذر لجاهدكم به ، ثم جاء فدخل على علي بن أبي طالب ، وعنده فاطمة ، وحسن غلام يدب بين يديهما ، فقال : يا علي ، إنك أمس القوم بي رحماً ، وإنني قد جئت في حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائباً ، أشفع لي إلى محمد ، فقال : ويحكم يا أبا سفيان ، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة ، فقال : هل لك أن تأمرني ابنك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ .

وحيشذ أظلمت الدنيا أمم عيني أبي سفيان ، فقال لعلي بن أبي طالب في هام وانزعاج و Yas وقوط : يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي ، فانصحي . قال : والله ما أعلم لك شيئاً يغنى عنك . ولكنك سيدبني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك . قال : أو ترى ذلك مغناً عنك شيئاً ؟ قال : لا والله ما أظنه ، ولكن لم أجده لك غير ذلك . فقام أبو سفيان في المسجد ، فقال : أيها الناس ، إني قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره ، وانطلق .

ولما قدم على قريش ، قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمداً فكلمته ، فوالله ما رد علي شيئاً ، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجده فيه خيراً ، ثم جئت عمر بن الخطاب ، فوجدته أدنى العدو ، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم ، قد أشار علي بشيء صنعته ، فوالله ما أدرى هل يعني شيء أم لا ؟ قالوا : وبم أمرك ؟ قال : أمرني أن أجير بين الناس ، ففعلت ، قالوا فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا . قالوا : وبذلك ، إن زاد الرجل على أن لعب بك . قال : لا والله ما وجدت غير ذلك .

التهيؤ للغزوة ومحاولة الإخفاء:

يؤخذ من رواية الطبراني أن رسول الله ﷺ أمر عائشة - قبل أن يأتي إليه خبر نقض الميثاق بثلاثة أيام - أن تجهزه ، ولا يعلم أحد ، فدخل عليها أبو بكر ، فقال : يا بنتي ما هذا الجهاز ؟ قالت : والله ما أدرى . فقال : والله ما هذا زمان غزو بنى الأصفر ، فأين يريد رسول الله ؟ قالت : والله لا علم لي . وفي صباح الثالثة جاء عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً ، وارتجز : يا رب إني ناشد محمدأ .. الآيات . فعلم الناس بنقض الميثاق ، وبعد عمرو جاء بدليل ثم أبو سفيان وتأكد عند الناس الخبر ، فأمرهم رسول الله ﷺ بالجهاز ، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة . وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها .

وزيادة في الإخفاء والتعمية بعث رسول الله ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال تحت قيادة أبي قحادة بن ربيع إلى بطن إضم فيما بين ذي حشب وذي المروءة على ثلاثة برد من المدينة ، في أول شهر رمضان سنة ٨ هـ ، ليظنن الظّان أنه ﷺ يتوجه إلى تلك الناحية ، ولتهذب بذلك الأخبار ، وواصلت هذه السرية سيرها ، حتى إذا وصلت حيثاً أمرت بلغتها أن رسول الله ﷺ

خرج إلى مكة ، فسارت إليه حتى لحقته^(١) .

وكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتاباً يخربهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم ، ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته في قرون رأسها ، ثم خرجت به ، وأتي رسول الله ﷺ الخبر من النساء بما صنع حاطب ، فبعث عليها والمقداد ، فقال : انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش ، فانطلقا تعادي بما خيلهما حتى وجدا المرأة بذلك المكان ، فاستنزلها ، وقالا : معلمك كتاب؟ فقالت ما معي كتاب ، فقتلا رحلها فلم يجدَا شيئاً ، فقال لها علي : أخلف بالله ، ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا ، والله لتخربن الكتاب أو لنجردنك . فلما رأت الجد منه قالت : أعرض ، فأعرض ، فعلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إلىهما ، فأتيها به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه : (من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش) يخربهم بمسير رسول الله ﷺ ، فدعى رسول الله ﷺ حاطباً ، فقال : ما هذا يا حاطب؟ فقال : لا تعجل على يا رسول الله ، والله إني لمؤمن بالشورسوله ، وما ارتدت ولا بدلت ، ولكنني كنت امراً ملصقاً في قريش لست من أنفسهم ، ولهم أهل وعشيرة وولد ، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم ، وكان من معلمك لهم قرابات يحمونهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أأخذ عندهم يداً يحمون بها قرانتي . فقال عمر بن الخطاب : دعني يا رسول الله أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله ، وقد نافق ، فقال رسول الله ﷺ : إنه قد شهد بدرأ ، وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد أطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غرفت لكم ، فغرفت عيناً عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم^(٢) .

وهكذا أخذ الله العيون ، فلم يبلغ إلى قريش أي خبر من أخبار تجهز المسلمين وتعيّثهم للزحف والقتال .

(١) وهذه السرية لقيت عامر بن الأضبيط ، فسلم عليهم بتحية الإسلام ، فقتله عمل بن جحادة لشيء كان بينهما ، وأخذ بعره ومتبه ، فأنزل الله ﷺ ولا تقولوا من ألقى إليكم السلام لست مؤمناً به الآية ، وجاوزوا بمحلم ليستغفر له رسول الله ﷺ ، فلما قام بين يديه قال : اللهم لا تغفر لهم ، وقاما ثلثا ، فقام وانه ليتحقق دموعه بطرف ثوبه ، قال ابن إسحاق : وزعم قومه أنه استغفر له بعد ذلك . انظر زاد المعد ١٥٠/٢ ، وأبن هشام ٦٢٦/٢ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ .

(٢) انظر صحيح البخاري ٤٢٢/١ ، ٤٢٣/٢ ، ٦١٢/٢ .

الجيش الإسلامي يتحرك نحو مكة:

ولعشر خلوات من شهر رمضان المبارك سنة ٨ هـ غادر رسول الله ﷺ المدينة متوجهًا إلى مكة ، في عشرة آلاف من الصحابة رضي الله عنهم واستخلف على المدينة أبو رهم الغفارى .

ولما كان بالجحفة أو فوق ذلك لقيه عمه العباس بن عبد المطلب ، وكان قد خرج بأهله وعياله مسلماً مهاجرًا ، ثم لما كان رسول الله ﷺ بالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبي أمية ، فأعرض عنهما ؛ لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والمجو ، فقالت له أم سلمة : لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقي الناس بك . وقال علي لأبي سفيان بن الحارث : أئت رسول الله ﷺ من غيل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف : ﴿قَالُوا تَأَلَّهُ لَقَدْ مَا تَرَكَ اللَّهُ عَلِيَّا وَإِنْ كَثُرَ الْخَطْبُونَ﴾ (٩١ : ١٢) فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولًا . ففعل ذلك أبو سفيان ، فقال له رسول الله ﷺ : ﴿لَا تَنْهِيَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحْمَمِينَ﴾ (٩٢ : ١٢) فأنشد أبو سفيان أبياتاً منها :

لعمرك إني حين أحمل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكمالدج الحيران أظلم ليه فهذا أولي حين أهدي فأهلدي
هداني هاد غير نفسي ولدني على الله من طردته كل مطرد
فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : أنت طردتني كل مطرد^(١) .

الجيش الإسلامي ينزل بصر الظهران:

وواصل رسول الله ﷺ سيره وهو صائم ، والناس صيام ، حتى بلغ الكديد – وهو ماء بين عسفان وقديد – فأفطر وأفطر الناس معه^(٢) ، ثم وصل سيره حتى نزل بصر الظهران – وادي فاطمة – نزله عشاء ، فأمر الجيش ، فأوقدوا النيران ، فأوقدت عشرة آلاف نار ، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(١) حسن إسلام أبي سفيان هذا بعد ذلك ، ويقال : إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياء منه ، وكان رسول الله ﷺ يحبه ، وشهاد له بالجنة ، وقال : أرجو أن يكون خلفاً من حزرة . ولما حضرته الوفاة قال : لا تبكون علي ، فوالله ما نطقت بحقيقة منذ أسلمت . زاد المعد ١٦٢/٢ ، ١٦٣ .

(٢) صحيح البخاري ٦١٣/٢ .

أبو سفيان بين يدي رسول الله - ﷺ :

وركب العباس - بعد نزول المسلمين ببر الظهران - بغلة رسول الله عليه السلام البيضاء ، وخرج يلتسم لعله يجد بعض الخطابة أو أحداً ينbir قريشاً ؟ ليخرجوا يستأنون رسول الله عليه السلام قبل أن يدخلها .

وكان الله قد عمى الأخبار عن قريش ، فهم على وجل وترقب ، وكان أبو سفيان يخرج يتتجسس الأخبار ، فكان قد خرج هو وحكيم بن حزام ، وبديل بن زرقاء يتتجسسون الأخبار .

قال العباس : والله إني لأسيء عليها - أي على بغلة رسول الله عليه السلام - إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء ، وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسراً . قال : يقول بديل : هذه والله خزانة ، خمشتها الحرب ، فيقول أبو سفيان : خزانة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسراها .

قال العباس : فعرفت صوته ، قلت : أبا حنظلة ؟ فعرف صوتي ، فقال : أبا الفضل ؟ قلت : نعم . قال : مالك ؟ فداك أبي وأمي . قلت : هذا رسول الله عليه السلام في الناس ، واصباح قريش والله .

قال : فما الحيلة ؟ فداك أبي وأمي ، قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة ، حتى آتي بك رسول الله عليه السلام فأستأمنه لك ، فركب خلفي ، ورجع أصحابه .

قال : فجئت به ، فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين ، قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله عليه السلام وأنا عليها قالوا : عم رسول الله عليه السلام على بغلته . حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ، فقال : من هذا ؟ وقام إلي ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان ، علو الله ؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله عليه السلام ، وركضت البغلة فسبقت ، فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله عليه السلام ، ودخل عليه عمر ، فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان فدعوني أضرب عنقه ، قال : قلت : يا رسول الله ، إني قد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله عليه السلام فأخذت برأسه ، قلت : والله لا ينادي الليلة أحد دوني ، فلما أكثر عمر في شأنه قلت : مهلاً يا عمر ،

فواهله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت مثل هذا ، قال : مهلاً يا عباس ، فواهله
إسلامك كان أحب إلي من إسلام الخطاب ، لو أسلم ، وما بي إلا أنا قد عرفت أن إسلامك
كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب .

فقال رسول الله ﷺ : اذهب به يا عباس إلى رحلتك ، فإذا أصبحت فأنتي به ، فذهبت ،
فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله ﷺ ، فلما رأه قال : ويحلك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك
أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ؟ لقد ظننت
أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عن شيفاً بعد .

قال : ويحلك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ، قال : بأبي أنت وأمي ،
ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ؟ أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئاً . فقال له العباس :
ويحلك أسلم ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، قبل أن تضرب عنقك ، فأسلم
وشهد شهادة الحق .

قال العباس : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً . قال : نعم ،
من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو
آمن .

الجيش الإسلامي يغادر من الظهران إلى مكة:

وفي هذا الصباح - صباح يوم الثلاثاء للسابع عشر من شهر رمضان سنة 8هـ - غادر
رسول الله ﷺ من الظهران إلى مكة ، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم
الجبل^(١) ، حتى تمر به جنود الله فيراها ، ففعل ، فمرت القبائل على راياتها ، كلما مرت به قبيلة
قال : يا عباس من هذه ؟ فيقول - مثلاً - : سليم ، فيقول : مالي ولسليم ؟ ثم تمر به القبيلة
فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فيقول : مزينة ، فيقول : مالي ولمزينة ؟ حتى نفذت القبائل ،
ما تمر به قبيلة إلا سأله العباس عنها ، فإذا أخبره قال مالي ولبني فلان ؟ حتى مر به
رسول الله ﷺ في كتيبته الحضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من
الحاديدين ، قال : سبحان الله يا عباس من هؤلاء ؟ قال : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين

(١) الخطم : الأنف ، شيء يخرج من الجبل يضيق به الطريق .

والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة . ثم قال : والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً . قال العباس : يا أبا سفيان ، إنها النبوة ، قال : فنعم إذن .

وكانت رأبة الأنصار مع سعد بن عبادة ، فلما مر بأبي سفيان قال له اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرماء ، اليوم أذل الله قريشاً . فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال : يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال : وما قال ؟ فقال : كذا وكذا . فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ما نأمن أن يكون له في قريش صولة ، فقال رسول الله ﷺ : بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً ، ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء ، ودفعه إلى ابنه قيس ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد . وقيل : بل دفعه إلى الزبير .

قريش تباغت زحف الجيش الإسلامي:

ولما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال له العباس : النجاء إلى قومك . فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة ، وصرخ بأعلى صوته : يا عشر قريش ، هذا محمد ، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . فقمت إليه زوجته هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحميت الدسم الأئمث الساقين ، قبح من طليعة قوم .

قال أبو سفيان : ويلكم ، لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . قالوا : قاتلك الله ، وما تغنى عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . ففرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، وبثوا أوباشا لهم ، وقالوا : نقدم هؤلاء فإن كان لقريش شيءٌ كنا معهم ، وإن أصييوا أعطينا الذي سئلنا . فتجمع سفهاء قريش وأخفاوها مع عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وسيبل بن عمرو بالخدمة ليقاتلوا المسلمين ، وكان فيهم رجل منبني بكر - حماس بن قيس - كان يعد قبل ذلك سلاحاً ، فقالت له امرأته : لماذا تعد ما أرى ؟ قال : محمد وأصحابه قال : والله ما يقوم محمد وأصحابه شيء . قال : إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم . ثم قال :

إِنْ يُقْبَلُوا إِلَيْهِ الْيَوْمَ فَمَا لِي عَلَيْهِ هَذَا سَلَاحٌ كَامِلٌ وَالله
وَذُو غَرَارِينَ سَرِيعُ السُّلْطَةِ^(۱)

(۱) عَلَهُ : يقال عَلَّ الرَّجُل يعل من المرض ، غرارين : حدبين ، السلة : الانتشال والسحب .

فكان هذا الرجل فيمن اجتمعوا في الخدمة .

الجيش الإسلامي بذى طوى:

أما رسول الله ﷺ فمضى حتى انتهى إلى ذى طوى - وكان يضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى أن شعر لحيته ليكاد يمْسِ واسطة الرحل - وهناك وزع جيشه وكان خالد بن الوليد على الجبنة اليمنى - وفيها أسلم وسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب - فأمره أن يدخل مكة من أسفلها ، وقال : إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً ، حتى تواافقني على الصفا .

وكان الزبير بن العوام على الجبنة اليسرى ، وكان معه راية رسول الله ﷺ ، فأمره أن يدخل مكة من أعلىها - من كداء - وأن يغزو رايته بالحجون ، ولا يبرح حتى يأتيه .

وكان أبو عبيدة على الرجالة والحسر - وهم الذين لا سلاح معهم - فأمره أن يأخذ بطن الوادي ، حتى ينصب لمكة بين يدي رسول الله ﷺ .

الجيش الإسلامي يدخل مكة:

وتحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامي على الطريق التي كلفت الدخول منها فأما خالد وأصحابه فلم يلقهم أحد من المشركين إلا أناموه ، وقتل من أصحابه من المسلمين كرز بن جابر الفهري وخنيس بن خالد بن ربيعة ، كانوا قد شذا عن الجيش ، فسلكوا طريقاً غير طريقه فقتلوا جميعاً ، وأما سفهاء قريش فلقيهم خالد وأصحابه بالخدمة فناوشوهم شيئاً من قتال ، فأصابوا من المشركين الثاني عشر رجلاً فانهزم المشركون ، وانهزم حماس بن قيس - الذي كان يعد السلاح لقتال المسلمين - حتى دخل بيته ، فقال لأمرأته : أغلقي على بالي . فقالت : وأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخدمة إذ فر صفوان وفر عكرمة
 واستقبلتنا بالسيوف المسلمين يقطعن كل ساعده وججمه
 ضرباً فلا يسمع إلا غمغمه هم نهيت خلفنا وهمهمه^(١)
 لم تنطقي في اللوم أدنى كلامه

(١) النهيت والمهمة : أصوات .

وأقبل خالد يجوس مكة حتى واف رسول الله ﷺ على الصفا .
وأما الزبير فتقدم حتى نصب راية رسول الله ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح ، وضرب له هناك قبة ، فلم يبرح حتى جاءه رسول الله ﷺ .

الرسول - ﷺ - يدخل المسجد الحرام ويظهره من الأصنام:

ثم نهض رسول الله ﷺ ، والهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد ، فأقبل إلى الحجر الأسود ، فاستلمه ، ثم طاف بالبيت ، وفي يده قوس ، وحول البيت عليه ثلاثة وستون صنعاً ، فجعل يطعنها بالقوس ، ويقول : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَاهَنَ الْبَطْلُ إِنَّ الْبَطْلَ كَانَ رَهْوَفَا ﴾ (١٧ : ٨١) ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يَبْدِئُ الْبَطْلُ وَمَا يَعْبِدُ ﴾ (٣٤ : ٤٩) والأصنام تساقط على جوهرها .

وكان طوافه على راحلته ، ولم يكن حرمأ يومئذ ، فاقتصر على الطواف ، فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، فأمر بها ففتحت ، فدخلها ، فرأى فيها الصور ، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - يستقسمان بالأزلام ، فقال : قاتلهم الله ، والله ما استقسما بها قط . ورأى في الكعبة حماماً من عيدان ، فكسرها بيده ، وأمر بالصور فمحبت .

الرسول - ﷺ - يصلى في الكعبة ثم يخطب أمم قريش:

ثمأغلق عليه الباب ، وعلى أسامة وبلال ، فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب ، حتى إذا كان بيته وبينه ثلاثة أذرع وقف ، وجعل عمودين عن يساره ، وعموداً عن يمينه ، وثلاثة أعمدة وراءه - وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة - ثم صلى هناك ، ثم دار في البيت ، وكير في نواحيه ، ووحد الله ، ثم فتح الباب ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً يتظرون ماذا يصنع ؟ فأخذ بعضاً من الباب ، وهو تخته ، فقال :

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ ، أَلَا
كل مائة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين ، إِلَّا سَدَانَةُ الْبَيْتِ وَسَقَايَةُ الْحَاجِ ، أَلَا وَقْتِلَ الْخَطَأُ

شبه العمد - السوط والعصا - ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها في بطونها أولادها .

يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة المحايلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية ﴿بَيْنَ أَهْلِهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَرَّةٍ وَأَنْتُمْ وَجْهَنَّمَ شُعُورًا وَقَابِلُوا إِعْرَافًا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقْنَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ حِلْمٌ﴾ (٤٩ : ١٣) .

لاتترىب عليكم اليوم:

ثم قال : يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : ﴿لَا تَتَرَبَّ عَلَيْكُمْ أَيَّامٌ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء .

مفتاح البيت إلى أهله:

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد ، فقام إليه علي رضي الله عنه ، ومفتاح الكعبة في يده ، فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية ، صل الله عليك ، وفي رواية : أن الذي قال ذلك هو العباس ، فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعني له ، فقال له : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء ، وفي رواية ابن سعد في الطبقات أنه قال له حين دفع المفتاح إليه : خذوها خالدة نالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم ، يا عثمان ، إن الله استأمنكم على بيته ، فكلوا ما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف .

بلال يؤذن على الكعبة

وحانت الصلاة ، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة ، وأبو سفيان بن حرب ، وعتاب بن أسيد ، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا ، فيسمع منه ما يغطيه ، فقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه حق لا تبعته ، فقال أبو سفيان : أما والله لا أقول شيئاً ، لو تكلمت لأخبرت عن هذه الحصباء ، فخرج عليهم النبي ﷺ فقال لهم : قد علمت الذي قلت ، ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول : أخبرك .

صلاة الفتح أو صلاة الشكر:

ودخل رسول الله ﷺ يومئذ دار أم هانء بنت أبي طالب ، فاغتسل وصلى ثمان ركعات في بيتها ، وكان صحي ، فظنها من ظنها صلاة الضحى وإنما هذه صلاة الفتح ، وأجارت أم هانء حموين لها ، فقال رسول الله ﷺ : قد أجرنا من أجرت يا أم هانء ، وقد كان أخوها علي بن أبي طالب أراد أن يقتلهم ، فأغلقت عليهما باب بيتهما ، وسألت النبي ﷺ ، فقال لها ذلك .

إهدر دماء رجال من أكابر الجرميين:

وأهدر رسول الله ﷺ يومئذ دماء تسعه نفر من أكابر الجرميين ، وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة ، وهم عبد العزى بن خطبل ، وعبد الله بن أبي سرح ، وعكرمة بن أبي جهل ، والحارث بن نفيل بن وهب ، ومقيس بن صيابة ، وهبار بن الأسود ، وفيitan كانتا لاين خطبل ، كانوا تغopian بهجو النبي ﷺ ، وسارة مولاية لبعض بنى عبد المطلب ، وهي التي وجد معها كتاب حاطب .

فأما ابن أبي سرح ، فجاء به عثمان إلى النبي ﷺ ، وشفع فيه فحقن دمه ، وقبل إسلامه بعد أن أمسك عنه ، رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله ، وكان قد أسلم قبل ذلك وهواجر ، ثم ارتد ورجع إلى مكة .

وأما عكرمة بن أبي جهل فقر إلى العين ، فاستأمنت له امرأته ، فأمنته النبي ﷺ فتبعه ، فرجع معها وأسلم ، وحسن إسلامه .

واما ابن خطبل فكان متعلقاً بأستار الكعبة ، فجاء رجل إلى النبي ﷺ وأخبره فقال : اقتله . قتله .

واما مقيس بن صيابة فقتله نحيلة بن عبد الله ، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك ، ثم عدا على رجل من الأنصار قتله ، ثم ارتد ولحق بالمشاركين .

واما الحارث فكان شهيد الأذى لرسول الله ﷺ بمكة ، فقتله علي .

واما هبار بن الأسود فهو الذي كان قد عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت ،

فتخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جينها ، ففر هارب يوم مكة ، ثم أسلم وحسن إسلامه .

وأما القيتان فقتلت إحداهما ، واستؤمن للأخرى ، فأسلمت ، كما استؤمن لسارة وأسلمت .

قال ابن حجر : وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلال الخزاعي فقتله على ، وذكر الحاكم أيضاً من أهدر دمه كعب بن زهير ، وقصته مشهورة وقد جاء بعد ذلك ، وأسلم ومدح ، وروحي بن حرب ، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان ، وقد أسلمت ، وأربب مولاه ابن خطل أيضاً قتلت ، وأم سعد ، قتلت فيما ذكر ابن إسحاق ، فكملت العدة ثمانية رجال وست نسوة ، وبمحمل أن تكون أربب وأم سعد القيتان ، اختلف في اسمهما ، أو باعتبار الكنية واللقب^(١) .

إسلام صفوان بن أمية، وفضالة بن عمير:

لم يكن صفوان من أهدر دمه ، لكنه بصفته زعيماً كبيراً من زعماء قريش خاف على نفسه وفر ، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحي رسول الله ﷺ فأمنه ، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة ، فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر من جهة إلى اليمن فرده ، فقال لرسول الله ﷺ : أجعلني بالخيار شهرين . قال : أنت بالخيار أربعة أشهر . ثم أسلم صفوان ، وقد كانت امرأته أسلمت قبله ، فأقرها على النكاح الأول .

وكان فضالة رجلاً جريحاً جاء إلى رسول الله ﷺ ، وهو في الطواف ، ليقتله فأخبره الرسول ﷺ بما في نفسه فأسلم .

خطبة الرسول - ﷺ - في اليوم الثاني من الفتح:

ولما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله ﷺ في الناس خطيباً ، فحمد الله ، وأنى عليه ، ومجده بما هو أهل ، ثم قال : أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيمة ، فلا يحل لأمرىء يؤمّن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ، أو

(١) فتح الباري ١٢، ١١/٨.

يغضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ قولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما حلت لي ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليلغ الشاهد الغائب .

وفي رواية : لا يغضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا تلتفت ساقطته إلا من عرفها ، ولا يختلي خلاه ، فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر ، فإنه لقينهم وبيتهم ، فقال : إلا الإذخر .

وكان خزاعة قتلت يومئذ رجلاً من بني ليث بقتل لهم في الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ بهذا الصدد : يا معاشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر القتل إن نفع ، لقد قتلتم قتيلاً لأدینه ، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخیر النظرين ، إن شاؤوا فدم قاتله ، وإن شاؤوا فعقله .

وفي رواية : فقام رجل من أهل اليمن يقال له « أبو شاه » فقال : اكتب لي يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : اكتبوا لأبي شاه^(١) .

تخوف الأنصار من بقاء الرسول - ﷺ - في مكة :

ولما تم فتح مكة على الرسول ﷺ - وهي بلده ووطنه ومولده - قال الأنصار فيها بینهم : أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبنته أن يقيم بها - وهو يدعى على الصفا رافعاً يديه - فلما فرغ من دعائه قال : ماذا قلت؟ قالوا : لا شيء يا رسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال رسول الله ﷺ : معاذ الله الحيَا حيَاكُم ، والممات مماتكُم .

أخذ البيعة :

وحين فتح الله مكة على رسول الله ﷺ وال المسلمين بين لأهل مكة الحق ، وعلموا أن لا سبيل إلى النجاح إلا الإسلام ، فأذعنوا له ، واجتمعوا للبيعة ، فجلس رسول الله ﷺ على الصفا يباعي الناس ، وعمر بن الخطاب أسفل منه ، يأخذ على الناس ، فباعوه على السمع والطاعة فيها استطاعوا .

(١) انظر لهذه الروايات صحيح البخاري ١ / ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٤٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٦١٥/٢-٢ ، ٦١٧ ، وصحيح مسلم ١ / ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، وأبن هشام ٤١٦ ، ٤١٥/٢ ، أبو داود ٢٧٦ .

وفي المدارك^(١) : روي أن النبي ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء ، وهو على الصفا ، وعمر قاعد أسفل منه ، يباعهن بأمره ، ويبلغهن عنه ، فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متذكرة خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها ، لما صنعت بمحمة ، فقال رسول الله ﷺ : أبايعكن على أن لا تشر肯 بالله شيئاً ، فبایع عمر النساء على أن لا يشر肯 بالله شيئاً . فقال رسول الله ﷺ : ولا تسرفن . فقالت هند : إن أبا سفيان رجل صحيح ، فإن أنا أصبت من ماله هنات ؟ فقال أبو سفيان : وما أصبت فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها ، فقال : وإنك هند ؟ قالت : نعم ، فاعف عما سلف يا نبي الله ، عفا الله عنك .

قال : ولا يزنين . قالت : أو تزني الحرة ؟ فقال : ولا يقتلن أولادهن . قالت : ربياهن صغراً ، وقتلتهم كباراً ، فأئتم لهم أعلم - وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر - فضحك عمر حتى استلقى ، فبسم رسول الله ﷺ .

قال : ولا يأتين بهتان . قالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، وما تأمننا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : ولا يعصينك في معروف . قالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك .

ولما رجعت جعلت تكسر صنمتها وتقول : كنا منك في غرور .

إقامةه - بمكة ، وعمله فيها:

وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً ، يجدد معايم الإسلام ، ويرشد الناس إلى الهدى والتقى ، وخلال هذه الأيام أمر أبا سيد الخزاعي ، فجدد أنصاب الحرم ، وبث سراياه للدعوة إلى الإسلام ، ولكسر الأوثان التي كانت حول مكة ، فكسرت كلها ، ونادي مناديه بمكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره .

السرايا والبعث:

١ - ولما اطمأن رسول الله ﷺ بعد الفتح بعث خالد بن الوليد إلى العزي ، لخمس ليال بقين من شهر رمضان (سنة ٢٨ هـ) ليهدمنها ، وكانت بنخلة ، وكانت لقريش وجميعبني كنانة ،

(١) انظر مدارك التنزيل للنسفي تفسير آية البيعة .

وهي أعظم أصنامهم ، وكان سدتها بني شيبان ، فخرج إليها خالد في ثلاثة فارساً حتى انتهى إليها ، فهدمها ، ولا رجع سأله رسول الله ﷺ : هل رأيت شيئاً؟ قال : لا قال : فإنك لم تهدمها ، فارجع إليها فاهدمها ، فرجع خالد متغيطاً قد جرد سيفه ، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس ، فجعل السادن يصيح بها ، فضربها خالد فجزها باثنين ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : نعم ، تلك العزى ، وقد أتيت أن تعبد في بلادكم أبداً .

٢ - ثم بعث عمرو بن العاص في نفس الشهر إلى سواع ليدهمه ، وهو صنم مذيل برهاط ، على ثلاثة أمتال من مكة ، فلما انتهى إليه عمرو قال له السادن : ما تزيد؟ قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه ، قال : لا تقدر على ذلك ، قال : لم؟ قال : تمنع . قال : حتى الآن أنت على الباطل؟ ويحك ، فهل يسمع أو يصر؟ ثم دنا فكسره ، وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته ، فلم يجدوا فيه شيئاً ، ثم قال للسادن : كيف رأيت؟ قال : أسلمت الله .

٣ - وفي نفس الشهر بعث سعد بن زيد الأشهل في عشرين فارساً إلى مناة ، وكانت بالمشلل عند قديد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم ، فلما انتهى سعد إليها قال له سادنها : ما تزيد؟ قال : هدم مناة ، قال : أنت وذاك ، فأقبل إليها سعد ، وخرجت امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس ، تدعى بالوليل ، وتضرب صدرها ، فقال لها السادن : مناة دونك بعض عصائبك ، فضربها سعد فقتلها ، وأقبل إلى الصنم فهدمه وكسره ، ولم يجدوا في خزانته شيئاً .

٤ - ولما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى بعثه رسول الله ﷺ في شعبان من نفس السنة (٨١هـ) إلى بني جذيمة ، داعياً إلى الإسلام ، لا مقابلاً . فخرج في ثلاثة وخمسين رجالاً من المهاجرين والأنصار وبني سليم ، فانتهى إليهم ، فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فجعلوا يقولون : «صيّاناً صيّاناً» فجعل خالد يقتلهم ويأسرهم ، ودفع إلى كل رجل من كان معه أسريراً ، فأمر يوماً أن يقتل كل رجل أسريراً ، فألي ابن عمر وأصحابه حتى قدموا على النبي ﷺ ، فذكروا له ، فرفع ﷺ يديه وقال : اللهم إني أبراً إليك مما صنع خالد - مرتين -^(١) .

وكانت بني سليم هم الذين قتلوا أسراعهم دون المهاجرين والأنصار ، وبعث رسول الله ﷺ

(١) صحيح البخاري ٤٥٠ / ٦٢٢ .

علياً فودى لهم قتلامن و ما ذهب منهم ، وكان بين خالد و عبد الرحمن بن عوف كلام وشر في ذلك ، فبلغ عليه فقال : مهلاً يا خالد ، دع عنك أصحابي ، فوالله لو كان أحد ذهباً ، ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحه^(١).

تلك هي غزوة فتح مكة ، وهي المعركة الفاصلة والفتح الأعظم الذي قضى على كيان الوثنية قضاء باتاً ، لم يترك لبقائها مجالاً ولا مرراً في ربوة الجزيرة العربية ، فقد كانت عامة القبائل تتضرر ماذا يتضمن عنه العراق والاصطدام الذي كان دائراً بين المسلمين والوثنيين ، وكانت تلك القبائل تعرف جداً أن الحرم لا يسيطر عليه إلا من كان على الحق ، وكان قد تأكد لديهم هذا الاعتقاد الجازم أي تأكد قبل نصف القرن حين قصد أصحاب الفيل هذا البيت ، فأهللوكوا وجعلوا كعصف مأكول .

وكان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم ، أمن الناس به وكلم بعضهم بعضاً ، وناظره في الإسلام ، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه والمناظرة عليه ، ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام ، حتى إن عدد الجيش الإسلامي الذي لم يزد في الغزوات السالفة على ثلاثة آلاف إذا هو يزخر في هذه الغزوة في عشرة آلاف .

وهذه الغزوة الفاصلة فتحت أعين الناس ، وأزالت عنها آخر الستور التي كانت تحول بينها وبين الإسلام . وهذا الفتح سيطر المسلمين على الموقف السياسي والديني كلها معاً في طول جزيرة العرب وعرضها ، فقد انتقلت إليهم الصدارة الدينية والزعامة الدينية .

فالطور الذي كان قد بدأ بعد هدنة الحديبية لصالح المسلمين قد تم ، وكمل بهذا الفتح المبين ، وبدأ بعد ذلك طور آخر كان لصالح المسلمين تماماً ، وكان لهم فيه السيطرة على الموقف تماماً . ولم يبق لأقوام العرب إلا أن يفدوا إلى الرسول عليه ، فيعتنقوا الإسلام ، ويحملوا دعوته إلى العالم ، وقد تم استعدادهم لذلك في سنتين آتىين .

(١) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢٨٩/٢ إلى ٤٣٧ ، وصحيح البخاري ١/كتاب الجهاد وكتاب المسالك و٢/٢ إلى ٦١٥ ، ٦٢٢ ، ٦٢٢ ، فتح الباري ٣/٨ إلى ٢٧ ، وصحيح مسلم ٤٣٧/١ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٣٩/٢ ، ١٠٢/٢ ، ١٣٠ ، ١٣٠ ، وزاد المعاد ١٦٠/٢ إلى ١٦٨ ، وختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله التجدي ص ٣٢٢ إلى ٣٥١ .

المرحلة الثالثة

وهي آخر مرحلة من مراحل حياة الرسول ﷺ ، تمثل النتائج التي أثمرتها دعوته الإسلامية بعد جهاد طويل وعناء ومتاعب وقلائل وفتن واضطرابات ومعارك وحروب دامية ، واجهتها طيلة بضعة وعشرين عاماً .

وكان فتح مكة هو أخطر كسب حصل عليه المسلمون في هذه الأعوام ، تغير لأجله مجىء الأيام ، وتحول به جو العرب ، فقد كان الفتح حداً فاصلاً بين المدة السابقة عليه وبين ما بعده ، فإن قريشاً كانت في نظر العرب حماة الدين وأنصاره ، والعرب في ذلك تبع لهم ، فخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثنى في جزيرة العرب .

ويمكن أن نقسم هذه المرحلة إلى صفحتين :

(١) صفحة المجاهدة والقتال .

(٢) صفحة ت سابق الشعوب والقبائل إلى اعتناق الإسلام .

وهاتان الصفحتان متلاصقتان تناوبتا في هذه المرحلة ، ووقعت كل واحدة منها خلال الأخرى ، إلا أنها احتزنا في الترتيب الوضعي ، أنا نأى على ذكر كل من الصفحتين متميزة عن الأخرى ، ونظرأ إلى أن صفحة القتال أصدق بما مضى ، وأكثر مناسبة من الأخرى قدمناها في الترتيب .

غزوة حنين

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة شدّه لها العرب ، وبواغت القبائل المجاورة بالأمر الواقع ، الذي لم يكن يمكن لها أن تدفعه ، ولذلك لم تتمكن عن الاستسلام إلا بعض القبائل الشرسة القوية المتغطرسة ، وفي مقدمتها بطون هوازن وثيف ، واجتمعت إليها نصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال – وكلها من قيس عيلان – رأت هذه البطون من نفسها عزاً وأنفقة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع ، فاجتمعت إلى مالك بن عوف النصري ، وقررت المسير إلى حرب المسلمين .

مسير العدو ونزوله بأوطاس

ولما أجمع القائد العام – مالك بن عوف – المسير إلى حرب المسلمين ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبنائهم ، فسار حتى نزل بأوطاس – وهو واد في دار هوازن بالقرب من حنين ، لكن وادي أوطاس غير وادي حنين ، وحنين واد إلى جنب ذي المجاز ، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات^(١) .

مجرب الحروب يغلط رأي القائد:

ولما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس ، وفيهم دريد بن الصمة – وهو شيخ كبير ، ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شجاعاً مجريباً – قال دريد : بأي واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : نعم مجال الخيل ، لا حزن ضرس ، ولا سهل دهس ، مالي أسع رغاء البعير ، وهناك الحمير ، وبكاء الصبي وثغاء الشاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم

(١) انظر فتح الباري ٤٢ ، ٢٧/٨ .

وابناءهم ، فدعا مالكاً وسأله عما حمله على ذلك ، فقال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وما له ليقاتل عنهم ، فقال : راعي ضأن والله ، وهل يرد المنزه شيئاً ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك . ثم سأله عن بعض البطون والرؤساء ، ثم قال : يا مالك إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً ، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم ، ثم ألق الصباة على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك .

ولكن مالكاً - القائد العام - رفض هذا الطلب قائلاً : والله لا أفعل ، إنك قد كبرت وكبر عقلك ، والله لتطيعني هوازن أو لأنكأن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى ، وكروه أن يكون لدريد فيها ذكر أورأي ، فقالوا : أطعناك . فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يفتني .

ياليتني فيها جذع أخب فيها وأضع
أقـود وطفـاء الدمع كأنـها شـاة صـدع

سلاح استكشاف العدو:

وجاءت إلى مالك عيون كان قد بعثهم للاستكشاف عن المسلمين ، جاءت هذه العيون وقد تفرقت أوصالهم . قال : ويلكم ، ما شأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً يضاً على خيل بلق ، والله ما نمسكنا أن أصابنا ما ترى .

سلاح استكشاف رسول الله - ﷺ :

ونقلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ بمسير العدو ، فبعث أبا حدد الإسلامي ، وأمره أن يدخل في الناس ، فيقم بهم حتى يعلم عليهم ، ثم يأتيه بخبرهم ، ففعل .

الرسول - ﷺ - يغادر مكة إلى حنين:

وفي يوم السبي - السادس من شهر شوال سنة 8هـ - غادر رسول الله ﷺ مكة - وكان ذلك اليوم التاسع عشر من يوم دخوله في مكة - خرج في اثنى عشر ألفاً من المسلمين ، عشرة آلاف من كانوا خرجوا معه لفتح مكة ، وألفان من أهل مكة ، وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام ، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأداتها ، واستعمل على مكة عتاب بن أسد .

ولما كان عشيّة جاء فارس ، فقال : إني طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنا بهوازن على بكرة أُبِّهم بطنعهم ونעםهم وشائمهم ، فتَبَسَّمَ رسول الله ﷺ وقال : تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله ، وتطوع للحراسة تلك الليلة أنس بن أبي مرنند الغنوبي^(١) .

وفي طريقهم إلى حنين رأوا سدرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواع ، كانت العرب تعلق عليها أسلحتهم ، ويذبحون عندها رمافعون ، فقال بعض أهل الجيش لرسول ﷺ : اجعل لنا ذات أنواع ، كما لهم أنواع . فقال : الله أكبر ، قلت والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى : أجعل لنا إلهنا كما لهم آله ، قال : إنكم قوم تجهلون ، إنها السنن ، لتركين سنن من كان قبلكم^(٢) .

وقد كان بعضهم قال نظراً إلى كثرة الجيش : لن نغلب اليوم ، وكان قد شق ذلك على رسول الله ﷺ .

الجيش الإسلامي يهاجمت بالرماة والمهاجمين :

انتهى الجيش الإسلامي إلى حنين ليلة الأربعاء لعشرين خلuron من شوال ، وكان مالك بن عموف قد سبقهم ، فأدخل جيشه بالليل في ذلك الوادي ، وفرق كعباته في الطريق والمداخل ، والشعب والأحياء والمضائق ، وأصدر إليهم أمره بأن يرشقوا المسلمين أول ما ظنوا ، ثم يشدوا شدة رجل واحد .

وبالسحر عبأ رسول الله ﷺ جيشه ، وعقد الألوية والرايات وفرقها على الناس ، وفي عمایة الصبع استقبل المسلمون وادي حنين ، وشرعوا يتحدون فيه ، وهم لا يذرون بوجود كعباء العدو في مضائق هذا الوادي فبيئاً ينحطون إذا هم تطر عليهم النبال ، وإذا كاتب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد ، فانصر المسلمون راجعين ، لا يلوى أحد على أحد ، وكانت هزيمة منكرة ، حتى قال أبو سفيان بن حرب ، وهو حديث عهد بالإسلام : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر - الأخر - وصرخ جبلة أو كلدة بن الحميد : لا بطل السحر اليوم .

(١) انظر سنن أبي داود .

(٢) روى ذلك الترمذى .

وأخبار رسول الله ﷺ جهة اليمين وهو يقول : هلموا إلـي أـمـهـا النـاسـ ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ، ولم يبق معه في موقعه إلا عدد قليل من المهاجرين وأهـل بيته .
وحيـثـنـدـ ظـهـرـتـ شـجـاعـةـ النـبـيـ ﷺـ التـيـ لاـ نـظـيرـ لـهـ .ـ فـقـدـ طـفـقـ يـرـكـ بـغـلـتـهـ قـبـلـ الـكـفـارـ وـهـ
يـقـولـ :

أـنـاـ النـبـيـ لـاـ كـذـبـ **أـنـاـ اـبـنـ عـبـدـ الـمـطـلـبـ**
يـدـ أـنـ أـبـاـ سـفـيـانـ بـنـ الـحـارـثـ كـانـ آـخـذـاـ بـلـجـامـ بـغـلـتـهـ ،ـ وـالـعـبـاسـ بـرـكـابـهـ ،ـ يـكـفـانـهـ ،ـ أـنـ
لـاـ تـسـرـعـ .ـ ثـمـ نـزـلـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ فـاستـنـصـرـ رـبـهـ قـائـلاـ :ـ اللـهـمـ أـنـزـلـ نـصـرـكـ .

رجوع المسلمين واحتدام المعركة:

وأمر رسول الله ﷺ عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادي الصحابة قال العباس : فقلت بأعلى صوتي : أين أصحاب السمرة ؟ قال : فوالله لكان عطفهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها ، فقالوا : يا ليك ، يا ليك^(١) . ويدهب الرجل ليثني بغيره فلا يقدر عليه ، فيأخذ درعه ، فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ، وينخل سيهـلـهـ ،ـ فـيـؤـمـ الصـوتـ ،ـ حـتـىـ إـذـ اـجـتـمـعـ إـلـيـهـ مـنـهـ مـائـةـ اـسـتـقـبـلـوـ النـاسـ وـاقـتـلـوـ .

وصرفت الدعوة إلى الأنصار ، يا عشر الأنصار ، يا عشر الأنصار ، ثم قصرت الدعوة فيبني الحارث بن الخزرج ، وتلاحتت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى كما كانوا تركوا الموقعة .
وتجدد الفريقيان بجالدة شديدة ، ونظر رسول الله ﷺ إلى ساحة القتال ، وقد استحر واحتدم ، فقال : « الآن حمي الوطيس ». ثم أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب الأرض ، فرمى بها في وجوه القوم وقال : شاهـتـ الـوـجـوهـ ،ـ فـمـاـ خـلـقـ اللـهـ إـنـسـانـاـ إـلـاـ مـلـأـ عـيـنـيهـ تـرـابـاـ مـنـ تـلـكـ الـقـبـضـةـ ،ـ فـلـمـ يـزـلـ حـدـهـمـ كـلـيـاـ وـأـمـرـهـمـ مـدـبـراـ .

انكسار حدة العدو، وهزيمته الساحقة:

ومـاـ هـيـ إـلـاـ سـاعـاتـ قـلـائلـ -ـ بـعـدـ رـمـيـ القـبـضـةـ -ـ حـتـىـ اـهـزـمـ الـعـدـوـ هـزـيـةـ مـنـكـرـةـ ،ـ وـقـتـلـ مـنـ
ثـقـيفـ وـحـدـهـمـ نـحـوـ السـبـعينـ ،ـ وـحـازـ الـمـسـلـمـونـ مـاـ كـانـ مـعـ الـعـدـوـ مـنـ مـالـ وـسـلاحـ وـظـعنـ .

(١) صحيح مسلم ١٠٠/٢ .

وهذا هو التطور الذي أشار إليه سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَيَوْمَ حِينٍ إِذَا أَغْبَثْتُكُمْ كُثُرَتْكُمْ فَلَمْ تُفْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ هُمْ وَلَيَشْتُمْ مُدْرِيْنَ ۚ هُمْ أَنْزَلُ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا مُّتَرَوِّهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكُفَّارِ﴾ (٩: ٢٥، ٢٦).

حركة المطاردة:

ولما انهزم العدو صارت طائفة منهم إلى الطائف ، وطائفة إلى نخلة ، وطائفة إلى أوطاس ، فأرسل النبي ﷺ إلى أوطاس طائفة من المطاردين يقودهم أبو عامر الأشعري ، فتناولوا الفريقيان القتال قليلاً ، ثم انهزم جيش المشركين ، وفي هذه المناوشة قتل القائد أبو عامر الأشعري .

وطاردت طائفة أخرى من فرسان المسلمين فلول المشركين الذين سلكوا نحلا ، فأدركـت دريد بن الصمة فقتله ربيعة بن رفيع .

وأما معظم فلول المشركين الذين حلوا إلى الطائف ؛ فتوجه إليهم رسول الله عليه السلام بنفسه بعد أن جمع العنائم .

الفنان:

وكان الغنام : السبي ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرون ألفاً ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، أمر رسول الله ﷺ بجمعها ، ثم حبسها بالجعرانة ، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفارى ، ولم يقسمها حتى فرغ من غزوة الطائف .

وكانت في السبي الشيء بنت الحارث السعدية ؛ أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة ، فلما
جيء بها إلى رسول الله ﷺ عرفت له نفسها بعلامة فأكرمتها ، وبسط لها رداءه ،
وأجلسها عليه ، ثم من عليها ، وردها إلى قومها .

غزوة الطائف:

وهذه الغزوة في الحقيقة امتداد لغزوة حنين ، وذلك أن معظم فلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع القائد العام - مالك بن عوف النصري - وتحصنوا بها ، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين وجمع الغنائم بالجعرانة في نفس الشهر - شوال سنة ٥٨ هـ .

وقدم خالد بن الوليد على مقدمته طليعة في ألف رجل ، ثم سلك رسول الله ﷺ إلى الطائف ، فمر في طريقه على النخلة اليابانية ، ثم على قرن المنازل ، ثم على لية ، وكان هناك حصن مالك بن عوف فأمر بهدمه ، ثم واصل سيره حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريباً من حصنه ، وعسكر هناك ، وفرض الحصار على أهل الحصن .

ودام الحصار مدة غير قليلة ، ففي رواية أنس عند مسلم أن مدة حصارهم كانت أربعين يوماً ، وعند أهل السير خلاف في ذلك ، فقيل : عشرين يوماً ، وقيل : بضعة عشر ، وقيل : ثمانية عشر ، وقيل : خمسة عشر^(١) .

ووُقعت في هذه المدة مaramاة ومقاذفات ، فالمسلمون أول ما فرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رمياً شديداً كأنه رجل جراد ، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة ، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً ، وأضطروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مسجد الطائف اليوم ، ف العسكروا هناك .

ونصب النبي ﷺ المنجنيق على أهل الطائف ، وقدف به القذائف ، حتى وقعت شدحة في جدار الحصن ، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة^(٢) ، ودخلوا بها إلى الخدار ليحرقوه ، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد محممة بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرميهم بالنبيل وقتلوا منهم رجالاً .

وأمر رسول الله ﷺ - كجزء من سياسة الحرب لإلحاء العدو إلى الاستسلام - أمر بقطع الأعناب وتحريقها . قطعها المسلمون قطعاً ذريعاً ، فسألته ثيف أن يدعها الله والرحم ، فتركها الله والرحم .

ونادي مناديه ﷺ : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ، فخرج إليهم ثلاثة وعشرون^(٣) رجلاً فيهم أبو بكرة - تصور حصن الطائف وتدل منه بيكرة مستدية يستنقى عليها ، فكناه رسول الله ﷺ «أبا بكرة» - فأعتقهم رسول الله ﷺ ، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يownه ، فشق ذلك على أهل الحصن مشقة شديدة .

(١) فتح الباري ٤٥/٨ .

(٢) لم تكن الدبابة كدبابتنا اليوم ، وإنما كانت تصنع من الخشب ، كان الناس يدخلون في جوفها ثم يدفعونها في أصل الحصن لينقبوه وهم في جوفها ، أو ليدخلوا من الثقبات .

(٣) صحيح البخاري ٦٢٠/٢ .

ولما طال الحصار ، واستعصى الحصن ، وأصيب المسلمين بما أصيوا من رشق النبال ويسكك الحديد الحمامة – وكان أهل الحصن قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة – استشار رسول الله ﷺ نوبل بن معاوية الدبلي فقال : هم ثعلب في حجر ، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك ، وحيثند عزم رسول الله ﷺ على رفع الحصار والرحيل ، فأمر عمر بن الخطاب فاذن في الناس : إنا قافلون غداً إن شاء الله ، فنزل عليهم وقالوا : نذهب ولا نفتحه ؟ فقال رسول الله ﷺ : اغدوا على القتال ، فغدوا فأصابهم جراح ، فقال : إنا قافلون غداً إن شاء الله ، فسرروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ، ورسول الله ﷺ يضحك .

ولما ارتحلوا واستقلوا قال : قولوا : آيون تائبون عابدون ، لربنا حامدون .

وقيل : يا رسول الله ادع على ثقيف ، فقال : اللهم اهد ثقيفاً وات بهم .

قسمة الغنائم بالجعرانة :

ولما عاد رسول الله ﷺ بعد رفع الحصار عن الطائف ؛ مكث بالجعرانة بضع عشرة ليلة لا يقسم الغنائم ، ويتأني بها ، يتغى أن يقدم عليه وفد هوازن تائبين ، فيحرزوا ما فقدوا ، ولكنه لم يبعه أحد ، فبدأ بقسمة المال ، ليسكن المتطلعين من رؤساء القبائل وأشراف مكة ، فكان المؤلفة قلوبهم أول من أعطى وحظي بالأنصبة الجزلة .

وأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل ، فقال : ابني يزيد ؟ فأعطيه مثلها ، فقال : ابني معاوية ؟ فأعطيه مثلها ، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ، ثم سأله مائة أخرى ، فأعطاه إيابها . وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ثم مائة ثم مائة – كذا في الشفاء^(١) ، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل ، وكذلك أعطى رجالاً من رؤساء قريش وغيرها مائة مائة من الإبل ، وأعطى آخرین خمسين خمسين وأربعين حتى شاع في الناس أن محمداً يعطي عطاء ما يخاف الفقر ، فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة ، فانتزعت رداءه فقال : أيها الناس ردوا على ردائي ، فو الذي نفسي بيده لو كان عندي شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم ، ثم ما أقيمتوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً .

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ٨٦/١ .

ثم قام إلى جنب بعيره فأخذ من سمامه وبرة ، فجعلها بين إصبعه ، ثم رفعها ، فقال : أبها الناس ، والله مالي من فيكم ، ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم .

وبعد إعطاء المؤلفة قلوبهم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بإحضار الغنائم والناس ، ثم فرضها على الناس ، فكانت سهامهم لكل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاة ، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بعيراً وعشرين ومائة شاة .

كانت هذه القسمة مبنية على سياسة حكيمة ، فإن في الدنيا أقواماً كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم ، لا من عقولهم ، فكما تهدي الدواب إلى طريقها بجزمة برسيم تظل تهدى إليها فمهما حتى تدخل حظيرتها آمنة ، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتتهش له^(١) .

الأنصار تجد على رسول الله - ﷺ -

وهذه السياسة لم تفهم أول الأمر ، فأطلقت ألسنة شتى بالاعتراض ، وكان الأنصار من وقعت عليهم مغامر هذه السياسة ، لقد حرموا جميعاً أعطية حنين ، وهم الذين نودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع الرسول ﷺ حتى تبدل الفرار انتصاراً ، وهامهم أولاء يرون أيدي الفارين ملائى ، وأما هم فلم ينحو شيئاً قط^(٢) .

روى ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري قال : لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطایا في قريش وفي قبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم ، حتى كثرت فيهم القالة ، حتى قال قائل لهم : لقي والله رسول الله ﷺ قوله ، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ؟ قسمت في قومك ، وأعطيت عطایا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يلك في هذا الحي من الأنصار منها شيء . قال : « فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ » قال : يا رسول الله ما أنا إلا من قومي : قال : « فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة » ، فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة ، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم

(٢-١) كلمة لحمد الغزالى في فقه السيرة ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال : لقد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها على في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم » ؟ قالوا : بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل .

ثم قال : « ألا تحيوني يا معشر الأنصار » ؟ قالوا : بماذا تحييني يا رسول الله ؟ الله ولرسوله المن والفضل . قال : « أما والله لو شتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، وخدعوا فأنصرناك ، وطريداً فآتيناك ، وعائلاً فآسيناك .

أوجدت يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسموا ، ووكلتم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم ؟ فو الذي نفس محمد بيده ، لو لا الهجرة لكت امراً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً ، وسلكت الأنصار شعباً ؛ لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار » .

فبكى القوم حتى أخذلوا حاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً ، ثم انصرف رسول الله ﷺ ، وتفرقوا^(١) .

قدوم وفد هوازن:

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلماً ، وهم أربعة عشر رجلاً ، ورأسمهم زهير بن صرد ، وفيهم أبو برقان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة ، فسألوه أن يمن عليهم بالسي والأموال ، وأدوا إليه بكلام ترق له القلوب ، فقال : « إن معي من ترون ، وإن أحب الحديث إلى أصدقه ، فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ » قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً . فقال : « إذا صليت الغداة - أي صلاة الظهر - فقوموا فقولوا : إننا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين ، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يرد إلينا سبيينا » ، فلما صلوا الغداة

(١) ابن هشام ٤٩٩/٢ ، ٥٠٠ ، وروى مثل ذلك البخاري ٦٢٨/٢ ، ٦٢١ .

قاموا فقالوا ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وسأل لكم الناس » ، فقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا . وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا . وقال العباس بن مردارس : أما أنا وبنو سليم فلا . فقالت بني سليم : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . فقال العباس بن مردارس : وهنتموني .

قال رسول الله ﷺ : « إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين ، وقد كنت استأنيت بهم ، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالآباء والنساء شيئاً . فمن كان عنده منهن شيء فطابت نفسه بأن يرده فسبيل ذلك ، ومن أحب أن يستمسك بمحقه فليرد عليهم ، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا » ، فقال الناس : قد طيبنا لرسول الله ﷺ . فقال : « إنا لا نعرف من رضي منكم من لم يرض . فارجعوا حتى يعرف إلينا عرفاً كأمرك ، فردوا عليهم نساعهم وأبناءهم ، لم يختلف منهم أحد غير عيينة بن حصن فإنه ألى أن يرد عجوزاً صارت في يديه منهم ، ثم ردّها بعد ذلك ، وكسا رسول الله ﷺ السبي قبطية .

العمرة والانصراف إلى المدينة:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قسمة الغنائم في الجعرانة أهلَّ معتبراً منها ، فأدى العمرة ، وانصرف بعد ذلك راجعاً إلى المدينة بعد أن ولَّ على مكة عتاب ابن أسد ، وكان رجوعه إلى المدينة لست ليال بقيت من ذي القعدة سنة ٨ هـ .

قال محمد الغزالى : اللهم ما أفسح المدى الذي بين هذه الآونة الظافرة بعد أن توج الله هامته بالفتح المبين ، وبين مقدمه إلى هذا البلد النبيل منذ ثمانية أعوام ؟

لقد جاء مطارداً يبغى الأمان ، غريباً مستوحشاً ينشد الإيلاف والإيناس ، فأكرم أهله مثواه ، وآلوه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، واستخفوا بعداوة الناس جميعاً من أجله ، وهو هو ذا بعد ثمانية أعوام يدخل المدينة التي استقبلته مهاجرًا خائفاً ؛ لاستقبله مرة أخرى وقد

دانت له مكة ، وألقت تحت قدميه كبراءها وجاهليتها فأنهضها ، ليعزها بالإسلام ، وعفا عن خطيباتها الأولى ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يَتَّقَى وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيقُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢) .
٩٠^(١).

(١) فقه السيرة ص ٣٠٣ ، وانظر لتفصيل هذه الغزوات - فتح مكة وحنين والطائف ، وما وقع خلالها - زاد المعاد ج ٢ من ص ١٦٠ إلى ٢٠١ ، وابن هشام ج ٢ من ص ٣٨٩ إلى ٥٠١ ، وصحيح البخاري أبواب غزوة الفتح وحنين وأوطاس والطائف وغيرها ج ٢ من ص ٦١٢ إلى ٦٢٢ ، وفتح الباري ج ٨ من ص ٣ إلى ٥٨ .

البعوث والسرايا بعد الرجوع من غزوة الفتح

وبعد الرجوع من هذا السفر الطويل الناجح أقام رسول الله ﷺ بالمدينة يستقبل الوفود ، ويبعث العمال ، ويبيث الدعاة ، ويكتب من بقي فيه الاستكبار عن الدخول في دين الله ، والاستسلام للأمر الواقع الذي شاهدته العرب . وهاك صورة مصغرة من ذلك :

المصدقون:

قد عرفت مما تقدم أن رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة كان في أواخر أيام السنة الثامنة فما هو إلا أن استهل هلال المحرم من سنة 9 هـ ، وبعث رسول الله ﷺ المصدقين إلى القبائل . وهذه هي قائمتهم :

- | | |
|---|-------------------------|
| إلى بني تميم . | (١) عيينة بن حصن |
| إلى أسلم وغفار . | (٢) يزيد بن الحchin |
| إلى سليم ومزينة . | (٣) عباد بن بشر الأشهلي |
| إلى جهينة . | (٤) رافع بن مكيث |
| إلى بني فزاره . | (٥) عمرو بن العاص |
| إلى بني كلاب . | (٦) الضحاك بن سفيان |
| إلى بني كعب . | (٧) بشير بن سفيان |
| إلى بني ذبيان . | (٨) ابن اللتبية الأزدي |
| إلى صنعاء . (وخرج عليه الأسود العنسي وهو
بها). | (٩) المهاجر بن أبي أمية |

- | | |
|--|------------------------|
| إلى حضرموت . | زياد بن لبيد (١٠) |
| إلى طيء وبني أسد . | عدي بن حاتم (١١) |
| إلى بني حنظلة . | مالك بن نويرة (١٢) |
| إلى بني سعد (إلى قسم منهم) . | الزيرقان بن بدر (١٣) |
| إلى بني سعد (إلى قسم منهم) . | قيس بن عاصم (١٤) |
| إلى البحرين . | العلاء بن الحضرمي (١٥) |
| إلى نجران (لجمع الصدقة والجزية كلهم) . | علي بن أبي طالب (١٦) |

وليس هؤلاء العمال كلهم بعثوا في الحرم سنة ٩هـ ؛ بل تأخر بعث عدة منهم إلى اعتناق الإسلام من تلك القبائل التي بعثوا إليها . نعم كانت بداية بعث العمال بهذا الاهتمام البالغ في الحرم سنة ٩هـ . وهذا يدل على مدى نجاح الدعوة الإسلامية بعد هدنة الحديبية ، وأما بعد فتح مكة فقد دخل الناس في دين الله أفواجاً .

السرايا:

وكان بعث المصدقون إلى القبائل ، مست الحاجة إلى بعث عدة من السرايا ، مع سيادة الأمن على عامة مناطق الجزيرة . وهكذا لوحة تلك السرايا :

١ - سرية عيينة بن حصن الفزارى - في الحرم سنة ٩هـ - إلى بني تميم ، في خمسين فارساً ، لم يكن فيهم مهاجري ولا أنصارى ، وسببها أن بني تميم كانوا قد أغروا القبائل ، ومنعوهم عن أداء الجزية .

وخرج عيينة بن حصن يسير الليل ويكتمن النهار ، حتى هجم عليهم في الصحراء ، فولى القوم مدربين ، وأخذ منهم أحد عشر رجلاً وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً ، وساقهم إلى المدينة ، فأنزلوا في دار رملة بنت الحارث .

وقدم فيهم عشرة من رؤسائهم ، فجاءوا إلى باب النبي ﷺ ، فنادوا : يا محمد اخرج إلينا ، فخرج فتعلقا به ، وجعلوا يكلمونه ، فوقف معهم ، ثم مضى حتى صلى الظهر ، ثم جلس في صحن المسجد ، فأظهروا رغبتهم في المفاخرة والمباهاة ، وقدموا خطيبهم عطارد بن حاجب فتكلم ، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس - خطيب الإسلام - فأجابهم ، ثم

قدموا شاعرهم الزيرقان بن بدر فأنشد مفاحراً ، فأجابه شاعر الإسلام حسان بن ثابت على البديهة .

ولما فرغ الخطيبان والشاعران قال الأقرع بن حابس : خطيبيه أخطب من خطيبينا ، وشاعره أشعر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلى من أصواتنا ، وأقوالهم أعلى من أقوالنا ، ثم أسلموا فأجازهم رسول الله ﷺ ، فأحسن جوائزهم ، ورد عليهم نسائهم وأبنائهم^(١) .

٢ - سرية قطبة بن عامر إلى حي من خضم بناحية تبالة ، بالقرب من تربة ، في صفر سنة ٩ هـ . خرج قطبة في عشرين رجلاً على عشرة أبعة يعتقبونها ، فشن الغارة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثر الجرحى في الفريقين جميعاً ، وقتل قطبة من قتل ، وساق المسلمون النعم والنساء والشاء إلى المدينة .

٣ - سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب في ربيع الأول سنة ٩ هـ . بعثت هذه السرية إلى بني كلاب ؛ لدعوتهم إلى الإسلام ، فأبوا وقاتلوا ، فهزموهم المسلمون وقتلوا منهم رجالاً .

٤ - سرية علقة بن مجرز المذلي إلى سواحل جدة في شهر ربيع الآخر سنة ٩ هـ في ثلاثة . بعثهم إلى رجال من الجبعة كانوا قد اجتمعوا بالقرب من سواحل جدة للقيام بأعمال القرصنة ضد أهل مكة . فخاض علقة البحر حتى انتهى إلى جزيرة . فلما سمعوا بمسير المسلمين إلهم هربوا^(٢) .

٥ - سرية علي بن أبي طالب إلى صنم لطيء . يقال له القلس - ليدهمه - في شهر ربيع الأول سنة ٩ هـ . بعثه رسول الله ﷺ في خمسين ومائة على مائة بعير وخمسين فرساً ، ومعه راية سوداء ولواء أبيض ، فشنوا الغارة على حملة حاتم مع الفجر ، فهدموه وملأوا أيدיהם من السبي والنعم والشاء ، وفي السبي أخت عدي بن حاتم ، وهرب عدي إلى الشام ، ووجد المسلمين في

(١) مكنا ذكره أهل المغازي أن هذه السرية كانت في الحرم سنة ٩ هـ . وفيه نظر ظاهر ، فإن السياق يشعر بأن الأقرع بن حابس لم يكن أسلم قبلها ، وقد ذكروا أن الأقرع بن حابس هو الذي قال حين استرد رسول الله ﷺ سبايا بني هوزن : أما أنا وبنو تميم فلا . وهذا يقتضي إسلامه قبل هذه السرية .

(٢) فتح الباري ٨/٥٩ .

خزانة القلس ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع ، وفي الطريق قسموا الغنائم ، وعزلوا الصفي
لرسول الله ﷺ . ولم يقسموا آل حاتم .

ولما جاءوا إلى المدينة استعطفت أخت عدي بن حاتم رسول الله ﷺ قائلة :
يا رسول الله ، غاب الوارد وانقطع الوالد ، وأنا عجوز كبيرة ، ما بي من خدمة ، فَمَنْ عَلَيْيَ ، مَنْ
الله عليك . قال : « من وافدك » ؟ قالت : عدي بن حاتم . قال : « الذي فر من الله
ورسله » ؟ ثم مضى ، فلما كان الغد قالت مثل ذلك ، وقال لها مثل ما قال أمس . فلما كان بعد
الغد قالت مثل ذلك ، فَمَنْ عَلَيْهَا ، وكان إلى جنبه رجل - ترى أنه على - فقال لها : « سليه
الحملان - . فسألته ، فأمر لها به .

ورجعت أخت عدي بن حاتم إلى أخيها عدي بالشام ، فلما لقيته قالت عن
رسول الله ﷺ : لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها ، اته راغباً أو راهباً ، فجاء عدي بغير أمان
ولا كتاب ، فأتى به إلى داره ، فلما جلس بين يديه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « ما يفرك ؟
أيفرك أن تقول : لا إله إلا الله ؟ فهل تعلم من إله سوى الله » ؟ قال : لا . ثم تكلم ساعة ثم
قال : « إنما تفر أن يقال : الله أكبر فهل تعلم شيئاً أكبر من الله » ؟ قال : لا . قال : « فإن
اليهود مغضوب عليهم ، وإن النصارى ضالون » . قال : فإني حنيف مسلم . فانبسط وجهه
فرحاً ، وأمر به فنزل عند رجل من الأنصار ، وجعل يأتي النبي ﷺ طرفي النهار^(١) .

وفي رواية ابن إسحاق عن عدي : أن النبي ﷺ لما أجلسه بين يديه في داره قال له : إيه
يا عدي بن حاتم ، ألم تكن ركوسيا ؟ قال : بلى . قال : أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع ؟
قال : قلت : بلى . قال : فإن ذلك لم يجعل لك في دينك . قال : قلت أجل والله . قال : وعرفت
أنهنبي مرسل ، يعرف ما يجعله^(٢) .

وفي رواية لأحمد أن النبي ﷺ قال : يا عدي أسلم وسلم . فقلت إني من أهل دين .
قال : أنا أعلم بدينك منك . فقلت : أنت أعلم بديني مني ؟ قال : نعم ، ألاست من الركوسية

(١) زاد المعاد ٢٠٥/٢ .

(٢) ابن هشام ٥٨١/٢ .

وأنت تأكل مرباع قومك ؟ فقلت : بلى قال : فإن هذا لا يحل لك في دينك . قال : فلم يعد أن
قالما فتواضعت لها^(١) .

وروى البخاري عن عدي قال : بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكى إليه الفاقة ، ثم
أتاه آخر فشكى إليه قطع السبيل ، فقال : يا عدي ، هل رأيت الحيرة ؟ فإن طالت بك حياة
فلترى العظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحداً إلا الله ، ولكن طالت بك
حياة لتفتحن كنوز كسرى ، ولكن طالت بك حياة لترى الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو
فضة ويطلب من يقبله ، فلا يجد أحداً يقبله منه - الحديث - وفي آخره : قال عدي : فرأيت
العظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله ، وكانت فيمن أفتحت كنوز
كسرى بن هرمز ، ولكن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ « يخرج ملء
كفه »^(٢) .

(١) مسنن الإمام أحمد .

(٢) صحيح البخاري انظر مشكاة المصايح ٥٢٤/٢ .

غزوَةٌ تبُوك

في رجب سنة ٥٩ هـ

إن غزوة فتح مكة كانت غزوة فاصلة بين الحق والباطل . لم يبق بعدها مجال للريبة والظن في رسالة محمد ﷺ عند العرب ، ولذلك انقلب المجرى تماماً ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً - كما سيظهر ذلك مما تقدمه في فصل الوفود ، ومن العدد الذي حضر في حجة الوداع - وانتهت المتابعة الداخلية واستراح المسلمون ؛ لتعليم شرائع الله ، وبث دعوة الإسلام .

سبب الغزوَة:

إلا أنها كانت هناك قوة تعرضت للمسلمين من غير مبرر ، وهي قوة الرومان - أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض في ذلك الزمان - وقد عرفنا فيها تقدم أن بداية هذا التعرض كانت بقتل سفير رسول الله ﷺ - الحارث بن عمير الأزدي - على يدي شرحبيل بن عمرو الغساني ، حينما كان السفير يحمل رسالة النبي ﷺ إلى عظيم بصرى ، وأن النبي ﷺ أرسل بعد ذلك سرية زيد بن حارثة التي اصطدمت بالروم اصطداماً عنيفاً في مؤته ، ولم تنجع في أخذ الثأر من أولئك الظالمين المتغطسين ، إلا أنها تركت أروع أثر في نفوس العرب ، قريهم وبعدهم .

ولم يكن قيسار ليصرف نظره عما كان لمعركة مؤته من الأثر الكبير لصالح المسلمين ، وعما كان يطمح إليه بعد ذلك كثير من قبائل العرب من استقلالهم عن قيسار ، ومواطأتهم للMuslimين ، إن هذا كان خطراً يتقدم ويخطو إلى حدوده خطوة بعد خطوة ، ويهدد التغور الشامية التي تجاور العرب ، فكان يرى أن القضاء يجب على قوة المسلمين قبل أن تتجسد في

صورة خطير عظيم لا يمكن القضاء عليها ، وقبل أن تثير القلاقل والثورات في المناطق العربية المجاورة للروماني .

ونظراً إلى هذه المصالح لم يقض قيسار بعد معركة مؤتة سنة كاملة ؛ حتى أخذ يهوي الجيش من الرومان والعرب التابعة لهم من آل غسان وغيرهم ، وبدأ يجهز لحركة دامية فاصلة .

الأخبار العامة عن استعداد الرومان وغسان:

وكان الأنبياء ترماي إلى المدينة بإعداد الرومان ؛ للقيام بغزو حاسمة ضد المسلمين ، حتى كان الخوف يتسرورهم كل حين ، لا يسمعون صوتاً غير معناد إلا ويظنونه زحف الرومان ، ويظهر ذلك جلياً مما وقع لعمر بن الخطاب ، فقد كان النبي عليه السلام آلى من نسائه شهراً في هذه السنة (٩٦هـ) وكان هجرهن واعزل عنهن في مشربة له . ولم يفطن الصحابة إلى حقيقة الأمر في بدايته فظنوا أن النبي عليه السلام طلقهن ، فسرى فيهم الهم والحزن والقلق ، يقول عمر بن الخطاب – وهو يروي هذه القصة – : وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أنا في الخبر ، وإذا غاب كنت آتيه أنا بالخبر – وكان يسكنان في عوالي المدينة ، يتناوبان إلى النبي عليه السلام – ونحن نتخفّف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا ، فقد امتلأت صدورنا منه ، فإذا صاحبى الأنصاري يدق الباب ، فقال : افتح ، افتح ، قلت : جاء الغساني ؟ قال : بل أشد من ذلك ، اعتزل رسول الله عليه السلام أزواجه . الحديث^(١) .

وفي لفظ آخر (أنه قال) : وكنا تحدثنا أن آل غسان تتعلّم التعال لغزونا ، فنزل صاحب يوم نوبته ، فرجع عشاء ، فضرب بالي ضرباً شديداً وقال : أنتم هو ؟ ففرعت ، فخرجت إليه ، وقال : حدث أمر عظيم . قلت : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا بل أعظم منه وأطول ، طلق رسول الله عليه السلام نساءه . الحديث^(٢) .

وهذا يدل على خطورة الموقف . الذي كان يواجهه المسلمون بالنسبة إلى الرومان . ويزيد ذلك تأكداً ما فعله المناقون حينما نقلت إلى المدينة أخبار إعداد الرومان ، فبرغم ما رأه هؤلاء المناقون من نجاح رسول الله عليه السلام في كل الميادين ، وأنه لا يوجّل من سلطان على ظهر الأرض ،

(١) صحيح البخاري ٢/٧٣٠ .

(٢) نفس المصدر ١/٣٣٤ .

بل يذيب كل ما يعرض في طريقه من عوائق ، برغم هذا كله طرق هؤلاء المنافقون يأملون في تحقق ما كانوا يخونونه في صدورهم ، وما كانوا يتربصونه من الشر بالإسلام وأهله . ونظراً إلى قرب تتحقق آمالهم أنشأوا وكرة للدس والتآمر ، في صورة مسجد ، وهو مسجد الضرار ، أسسه كفراً وتفرقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ، وعرضوا على رسول الله ﷺ أن يصلى فيه ، وإنما مرامهم بذلك أن يخدعوا المؤمنين ، فلا يفطنوا ما يؤتى به في هذا المسجد من الدس والمؤامرة ضدهم ، ولا يلتقطوا إلى من يرده ويصدر عنه ، فيصير وكرة مأمونة هؤلاء المنافقين ولرفاقائهم في الخارج ، ولكن رسول الله ﷺ أخر الصلاة فيه – إلى قوله من الغزو – لشغله بالجهاز ، ففشلوا في مرامهم وفضحهم الله ، حتى قام الرسول ﷺ بهدم المسجد بعد القبول من الغزو ، بدل أن يصلى فيه .

الأخبار الخاصة عن استعداد الرومان وغضان:

كانت هذه هي الأحوال والأخبار التي يواجهها ويتلقاها المسلمين ، إذ بلغتهم من الأنبياء الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن هرقل قد هياً جيشاً عرماً قوامه أربعون ألف مقاتل ، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم ، وأنه أجلب معهم قبائل لخم وجدام وغيرهما من متصرفه العرب ، وأن مقدمة هم بلغت إلى البلقاء . وهكذا تمثل أمام المسلمين خطر كبير .

زيادة خطورة الموقف:

والذي كان يزيد خطورة الموقف أن الزمان كان فصل القيظ الشديد ، وكان الناس في عشرة وجدب من البلاء وقلة من الظهر ، وكانت الثمار قد طابت ، فكانوا يحبون المقام في ثمارهم وظللهم ، ويكرهون الشخص على الحال ، من الزمان الذي هم فيه ، ومع هذا كله كانت المسافة بعيدة ، والطريق وعرة صعبة .

الرسول - ﷺ - يقرر القيام بإقدام حاسم:

ولكن الرسول ﷺ كان ينظر إلى الظروف والتطورات بنظر أدق وأحكم من هذا كله . إنه كان يرى أنه لو تواني وتكاسل عن غزو الرومان في هذه الظروف الحاسمة ، وترك الرومان لتجوس خلال المناطق التي كانت تحت سيطرة الإسلام ونفوذه ، وتزحف إلى المدينة ؛ كان له أسوأ أثر

على الدعوة الإسلامية ، وعلى سمعة المسلمين العسكرية ، فالمجاهمة التي تلفظ نفسها الأخير بعد ما لقيت من الضربة القاسمة في حنين ستحيا مرة أخرى ، والمنافقون الذي يتربصون الدوائر بال المسلمين بخناجرهم من الخلف ، في حين تهجم الرومان بحملة ضاربة ضد المسلمين من الأمام ، وهكذا يتحقق كثير من الجهود التي بذلها هو وأصحابه في نشر الإسلام ، وتذهب المكاسب التي حصلوا عليها بعد حروب دامية ودوريات عسكرية متواصلة ... تذهب هذه المكاسب بغير جدوى .

كان رسول الله ﷺ يعرف كل ذلك جيداً، ولذلك قرر القيام - مع ما كان فيه من العسرة والشدة - بغزوة فاصلة يخوضها المسلمون ضد الرومان في حدودهم ، ولا يمهلونهم حتى يزحفوا إلى دار الإسلام .

الاعلان بالتهيؤ لقتال الرومان:

ولما قرر رسول الله ﷺ الموقف أعلن في الصحابة أن يتجهزوا للقتال ، وبعث إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة يستنفرهم ، وكان قل ما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها ، ولكنه نظراً إلى خطورة الموقف وإلى شدة العسرة أعلن أنه يريد لقاء الرومان ، وجلّى للناس أمرهم ؛ ليتأهبوا أهبة كاملة ، وحضهم على الجهاد ، ونزلت قطعة من سورة براءة تثيرهم على المخلاف ، وتحمّلهم على القتال ورغبتهم رسول الله ﷺ في بذل الصدقات ، وإنفاق كراميم الأموال في سبيل الله .

السلمون يتسابقون إلى التجهيز للغزو:

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول الله ﷺ يدعوه إلى قتال الروم إلا وتسابقو إلى امثاله ، فقاموا بتجهزون للقتال بسرعة بالغة ، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية ، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلّف عن هذه الغزوة - إلا الذين في قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر - حتى كان يجئ أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول الله ﷺ ؛ ليخرجوا إلى قتال الروم ، فإذا قال لهم : ﴿لَا أَحِدُ مَا أَحْلَكُمْ عَلَيْهِ تَوَلُّا وَأَعْيُّهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا لَا يَهِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ (٩٢: ٩) .

كما تسابق المسلمين في إنفاق الأموال وبذل الصدقات . كان عثمان بن عفان قد جهز عيراً للشام ، مائتا بعير بأقابها وأحلاسها ، وما تأها أوقية ، فتصدق بها ثم تصدق بمائة بعير بأحلاسها وأقابها ، ثم جاء بآلف دينار فنثرها في حجره عليه السلام ، فكان رسول الله عليه السلام يقلبها ويقول : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم »^(١) ، ثم تصدق وتصدق ، حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس سوى التقدود .

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة ، وجاء أبو بكر بماله كله ، ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله – وكانت أربعة آلاف درهم ، وهو أول من جاء بصدقته ، وجاء عمر بنصف ماله ، وجاء العباس بمال كثير ، وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة ، كلهم جاءوا بمال ، وجاء عاصم بن عدي بستعين وسبعين من الدرر ، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها ، حتى كان منهم من أنفق مداً أو مدين لم يكن يستطيع غيرها ؛ وبعثت النساء ما قدرن عليه من مسک ومعاضد وخلافل وقرط وخواتم .

ولم يمسك أحد يده ، ولم يدخل بماله إلا المنافقون الذين يلْمِزُونَ الْمُطَوَّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَحْمِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُرٍ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ (٩ : ٧٩)

الجيش الإسلامي إلى تبوك:

وهكذا تجهز الجيش ، فاستعمل رسول الله عليه السلام على المدينة محمد بن مسلمة الأنباري ، وقيل سباع بن عرفطة ، وخلف على أهله علي بن أبي طالب ، وأمره بالإقامة فيه ، وغمض عليه المنافقون ، فخرج فلحق برسول الله عليه السلام ، فرده إلى المدينة وقال : « ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي » .

ثم تحرك رسول الله عليه السلام يوم الخميس نحو الشمال يريد تبوك ، ولكن الجيش كان كبيراً – ثلاثة ألف مقاتل ، لم يخرج المسلمون في مثل هذا الجمع الكبير قبله قط – فلم يستطع المسلمون مع ما بذلوه من الأموال أن يجهزو تجهيزاً كاملاً . بل كانت في الجيش قلة شديدة بالنسبة إلى الرزد والمراكب ، فكان ثمانية عشر رجلاً يعتقبون بعيراً واحداً وربما أكلوا أوراق

(١) جامع الترمذى . مناقب عثمان بن عفان ٢١١/٢ .

الأشجار حتى تورمت شفاههم ، واضطروا إلى ذبح البعير - مع قلتها - ليشربوا ما في كرشه من الماء ، ولذلك سمي هذا الجيش جيش العسرة .

ومر الجيش الإسلامي في طريقه إلى تبوك بالحجر - ديار ثود الذين جابوا الصخر بالواد ، أي وادي القرى - فاستنقى الناس من بئرها ، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ : « لا تشربوا من مائتها ولا تتوضأوا منه للصلوة . وما كان من عجبن عجتموه فاعلفوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئاً » ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها ناقة صالح عليه السلام .

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال : لما مر النبي ﷺ بالحجر قال : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ؛ أن يصييكم ما أصابهم ، إلا أن تكونوا باكين » ، ثم قنع رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادي^(١) .

واشتدت في الطريق حاجة الجيش إلى الماء حتى شكوا إلى رسول الله ﷺ ، فدعا الله ، فأرسل الله سحابة فامطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجتهم من الماء .

ولما قرب من تبوك قال : « إنكم ستأتون غداً إن شاء الله تعالى عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار ، فمن جاءها فلا يمْسِ من مائتها شيئاً حتى آتي » . قال معاذ : فجئنا وقد سبق إليها رجلان ، والعين تبض بشيء من مائتها ، فسألهما رسول الله ﷺ : « هل مسستها من مائتها شيئاً » ؟ قالا : نعم . وقال لها ما شاء الله أن يقول ، ثم غرف من العين قليلاً حتى اجتمع الوشل ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه ، ثم أعاده فيها فجرت العين بماكير فاستنقى الناس ، ثم قال رسول الله ﷺ : « يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى هاهنا قد ملء جناناً »^(٢) .

وفي الطريق أو لما بلغ تبوك - على اختلاف الروايات - قال رسول الله ﷺ : « تهب عليكم الليلة ريح شديدة ، فلا يقم أحد منكم ، فمن كان له بعير فليشد عقاله » ، فهبت ريح شديدة ، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طيء^(٣) .

(١) صحيح البخاري باب نزول النبي ﷺ الحجر ٦٣٧/٢ .

(٢) رواه مسلم عن معاذ بن جبل ٢٤٦/٢ .

(٣) نفس المصدر .

وكان دأب رسول الله ﷺ في الطريق أنه كان يجمع بين الظهر والغص ، وبين المغرب والعشاء جمع التقديم وجمع التأخير كلّيما .

الجيش الإسلامي بتبوك:

نزل الجيش الإسلامي بتبوك ، فعسكر هناك ، وهو مستعد للقاء العدو ، وقام رسول الله ﷺ فيهم خطيباً ، فخطب خطبة بلية ، أتى بجموع الكلم ، وحضر على خير الدنيا والآخرة ، وحذر وأنذر ، وبشر وأبشر ، حتى رفع معنوياتهم ، وجبر بها ما كان فيهم من النقص والخلل من حيث قلة الزاد والمادة والمؤنة . وأما الرومان وحلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ أخذهم الرعب فلم يجرؤوا على التقديم واللقاء ، بل تفرقوا في داخل حدودهم ، فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية ، في داخل الجزيرة وأرجائها الثانية . وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة خطيرة ، بما لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيшиْن .

جاء يحيى بن روبة صاحب أيلة ، فصالح الرسول ﷺ وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأهل أذرح ، فأعطوه الجزية ، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فهو عندهم ، وكتب لصاحب أيلة « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله وحمد النبي رسول الله ليحنة بن روبة وأهل أيلة ، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معه من أهل الشام وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً ، فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وأنه لا يحيل أن ينبعوا ماء يردونه ، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر » .

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل في أربعينات وعشرين فارساً ، وقال له : إنك ستتجده بصيد البقر ، فأتاه خالد ، فلما كان من حصنه بمنظر العين ، خرجت البقر ، تحث بقرونها بباب القصر ، فخرج أكيدر لصيدها – وكانت ليلة مقمرة – فتقلاه خالد من خيله ، فأخذه وجاء إلى رسول الله ﷺ ، فحقن دمه ، وصالحه على ألفي بعير ، وثمانمائة رأس ، وأربعينات درع ، وأربعينات رم ، وأقر بإعطاء الجزية ، فقضاه مع يحيى على قضية دومة وتبوك وأيلة وتياء .

وأيقنت القبائل التي كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتقادها على سادتها الأقدمين قد فات

أوانه ، فانقلب لصالح المسلمين ، وهكذا توسيع حدود الدولة الإسلامية ، حتى لاقت حدود الرومان مباشرة ، وشهد علماء الرومان نهايتهم إلى حد كبير .

الرجوع إلى المدينة:

ورجع الجيش الإسلامي من تبوك مظفرين منصوريين ، لم ينالوا كيداً ، وكفى الله المؤمنين بالقتال ، وفي الطريق عند عقبة حاول اثنا عشر رجلاً من المناقفين الفتك بالنبي ﷺ ، وذلك أنه حينما كان يمر بتلك العقبة كان معه عمّار يقود بزمام ناقته ، وحذيفة بن الحارث يسوقها ، وأخذ الناس يبطن الوادي ، فانتهز أولئك المناقرون هذه الفرصة . فيينا رسول الله ﷺ و أصحابه يسيراً إذ سمعوا وكرة . القوم من ورائهم ، قد غشوه وهم متسلمون ، فبعث حذيفة فضرب وجوه رواحلهم بمحاجن كان معه ، فأربعبهم الله ، فأسرعوا في الفرار حتى لحقوا بال القوم ، وأخير رسول الله ﷺ بأسمائهم ، وما هم به ، فلذلك كان حذيفة يسمى بصاحب سر رسول الله ﷺ ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿وَهُمْ أَيْمَانَ الْمَرْتَابِ﴾ .

ولما لاحت للنبي ﷺ معلم المدينة من بعيد قال : هذه طلة ، وهذا أحد ، جبل يحبنا ونجبه ، وتسامع الناس بمقدمه ، فخرج النساء والصبيان والولائين يقابلن الجيش بحفاوة بالغة ويقلن^(١) :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دع الله داع
وكان خروجه إلى تبوك في رجب وعوده في رمضان ، واستغرقت هذه الغزوة خمسين يوماً . أقام منها عشرين يوماً في تبوك . والباقي قضتها في الطريق جيحة وذهوباً . وكانت هذه الغزوة آخر غزواته ﷺ .

المخلفون:

وكانت هذه الغزوة - لظروفها الخاصة بها - اختباراً شديداً من الله تعالى ، امتاز به المؤمنون من غيرهم . كما هو دأبه تعالى في مثل هذه المواطن ، حيث يقول : ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ

(١) هنا رأي ابن القم وقد مضى البحث عليه في ص ١٧٢ .

أَمْوَالِ مُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا آتَيْتُهُ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيْبِ^{٤)} (٣ : ١٧٩) فقد خرج هذه الغزوة كل من كان مؤمناً صادقاً ، حتى صار التخلف أماراً على نفاق الرجل ، فكان الرجل إذا تخلف وذكروه لرسول الله ﷺ قال لهم : دعوه ، فإن يكن فيه خير سيلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم منه ، فلم يتخلل إلا من جنسهم العذر ، أو الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين ، الذين قعدوا بعد أن استأذنا للقعود كذباً ، أو قعدوا ولم يستأذنا رأساً . نعم كان هناك ثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين تخلفوا من غير مبرر . وهم الذين أبلغهم الله ، ثم تاب عليهم .

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد ، فصل في ركتين ، ثم جلس للناس ، فأماماً المنافقون – وهم بضعة وثمانون رجلاً^(١) – فجاوزوا يعتذرون بأنواع شتى من الأعذار ، وطفقوا يخلفون له ، فقبل منهم علانيتهم ، وبايدهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله .

وأما النفر الثلاثة من المؤمنين الصادقين – وهم كعب بن مالك ، ومراة بن الريبع ، وهلال بن أمية – فاختاروا الصدق ، فأمر رسول الله ﷺ الصحابة أن لا يكلموا هؤلاء الثلاثة ، وجرت ضد هؤلاء الثلاثة مقاطعة شديدة ، وتغير لهم الناس ، حتى تكررت لهم الأرض ، وضاقت عليهم بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وبلغت بهم الشدة أنهم بعد أن قضوا أربعين ليلة من بداية المقاطعة أموروا أن يعززوا نسائهم ، حتى تمت على مقاطعتهم خمسون ليلة ، ثم أنزل الله توبتهم **﴿وَعَلَى الْكُفَّارِ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُونَ أَن لَّا مَلْجَأٌ مِّنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِتُبُوَّأُ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَابُ الرَّحِيمُ﴾** (٩ : ١١٨) .

وفرح المسلمون ، وفرح الثلاثة فرحاً لا يقاس مداه وغايته ، فبشروا وأبشروا واستبشروا وأجازوا وتصدقوا ، وكان أسعد يوم من أيام حياتهم .

وأما الذين جنسهم العذر فقد قال تعالى فيهم : **﴿لَيْسَ عَلَى الْضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُثُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحَّوْهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾** ، الآيات (٩١:٩)

(١) ذكر الواقدي أن هذا العدد كان من منافقي الأنصار ، وأن العذرين من الأعراب كانوا أيضاً اثنين وثمانين رجلاً من بني غفار وغيرهم ، وأن عبد الله بن أبي ومن أطاعه من قومه كانوا من غير هؤلاء ، وكانوا عدداً كبيراً (انظر فتح الباري ١١٩/٨) .

وقال فيهم رسول الله ﷺ حين دنا من المدينة : « إن بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، حبسهم العذر » ، قالوا : يا رسول الله ، وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة .

أثر الغزوة :

وكان هذه الغزوة أعظم أثر في بسط نفوذ المسلمين وقويته على جزيرة العرب ، فقد تبين للناس أنه ليس لأي قوة من القوات أن تعيش في العرب سوى قوة الإسلام ، وبطلت بقايا أمل وأمنية كانت تتحرك في قلوب بقايا الجاهليين والمناقفين الذين كانوا يتربصون الدوائر بال المسلمين ، وكانوا قد عقدوا أملاهم بالرومانيين ، فقد استكانوا بعد هذه الغزوة ، واستسلموا للأمر الواقع ، الذي لم يجدوا عنه مهداً ولا مناصاً .

ولذلك لم يبق للمناقفين أن يعاملهم المسلمون بالرفق واللين ، وقد أمر الله بالتشديد عليهم ، حتى نهى عن قبول صدقائهم ، وعن الصلاة عليهم ، والاستغفار لهم ، والقيام على قبرهم ، وأمر بهدم وكرة دسهم وتأمرهم التي بنوها باسم المسجد ، وأنزل فيهم آيات افتضحاها بها افتضاحاً تاماً ، لم يبق في معرفتهم بعدها أي خفاء ، كأن الآيات قد نصت على أسمائهم لمن يسكن بالمدينة .

ويعرف مدى أثر هذه الغزوة من أن العرب وإن كانت قد أخذت في التوافد إلى رسول الله ﷺ بعد غزوته فتح مكة ؛ بل وما قبلها ، إلا أن تتابع الوفود وتكتاثرها بلغ إلى القمة بعد هذه الغزوة^(١) .

نزول القرآن حول موضوع الغزوة :

نزلت آيات كثيرة من سورة براءة حول موضوع الغزوة ، نزل بعضها قبل الخروج ، وبعضها بعد الخروج – وهو في السفر – وبعض آخر منها بعد الرجوع إلى المدينة ، وقد اشتملت على

(١) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٥١٥/٢ إلى ٥٣٧ ، وزاد المعد ٢/٣ إلى ١٣ وصحح البخاري ٦٣٢/٢ ، ٦٣٥ ، ٦٣٧ ، ٦٣٦ ، ٦٣٢ و ٢٥٢/١ ، ٤١٤ وغيرها وصححها مسلم مع شرحه للنووي ٢٤٦/٢ . وفتح الباري ١١٠/٨ وختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي من ص ٣٩١ إلى ٤٠٧ .

ذكر ظروف الغزوة ، وفضح المنافقين ، وفضل المجاهدين والخلصين ، وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين ، الخارجين منهم في الغزوة والمتخلفين ، إلى غير ذلك من الأمور .

بعض الواقع المهمة في هذه السنة:

وفي هذه السنة وقعت عدة وقائع لها أهمية في التاريخ :

- (١) بعد قدوم رسول الله ﷺ من تبوك وقع اللعان بين عمير العجلاني وأمرأه .
- (٢) رجمت المرأة الغامدية التي جاءت فاعترفت على نفسها بالفاحشة ، رجمت بعد ما فطمته ابنتها .
- (٣) توفي النجاشي أصحمة ، ملك الحبشة ، وصلى عليه رسول الله ﷺ صلاة الغائب .
- (٤) توفيت أم كلثوم بنت النبي ﷺ ، فحزن عليها حزناً شديداً ، وقال لعثمان : « لو كانت عندي ثلاثة لروجتكها » .
- (٥) مات رأس المنافقين عبد الله بن أبي سلول بعد مر جع رسول الله ﷺ من تبوك ، فاستغفر له رسول الله ﷺ ، وصلى عليه بعد أن حاول عمر منعه عن الصلاة عليه ، وقد نزل القرآن بعد ذلك بموافقة عمر .

حج أبي بكر رضي الله عنه

وفي ذي القعدة أو ذي الحجة من نفس السنة (٩٦هـ) بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج ؛ ليقيم بال المسلمين الناسك .

ثم نزلت أولى سوره براءة بنقض الموثيق وبنذرها على سواء ، فبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ليؤدي عنه ذلك ، وذلك تمشياً منه على عادة العرب في عهود الدماء والأموال ، فالتفقى على أبي بكر بالعرج أو بضجنان ، فقال أبو بكر : أمير أو مأمور ؟ قال علي : لا ، بل مأمور ثم مضيا ، وأقام أبو بكر للناس حجهم ، حتى إذا كان يوم التحرر ، قام علي بن أبي طالب عند الجمرة ، فأذن في الناس بالذى أمره رسول الله ﷺ . وبنذر إلى كل ذي عهد عهده ، وأجل لهم أربعة شهور ، وكذلك أجل أربعة أشهر لمن لم يكن له عهد ، وأما الذين لم ينقصوا المسلمين شيئاً ، ولم يظاهروا عليهم أحداً ، فآبقى عهدهم إلى مدتهم .

وبعث أبو بكر رضي الله عنه رجالاً ينادون في الناس : ألا لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

وكان هذا النداء بمثابة إعلان نهاية الوثنية في جزيرة العرب ، وأنها لا تبدىء ولا تعيد بعد هذا العام^(١) .

(١) صحيح البخاري ١/٢٢٠، ٤٥١، ٦٢٦/٢، ٦٧١، زاد المعاد ٣/٢٥، ٢٦، ٥٤٣/٢، ٥٤٤، ٥٤٥.

نظرة على الغزوات

إذا نظرنا إلى غزوات النبي ﷺ وبعوته وسرايته؛ لا يمكن لنا ولا لأحد من ينظر في أوضاع المخرب والآثارها وخلفياتها - لا يمكن لنا إلا أن نقول: إن النبي ﷺ كان أكبر قائد عسكري في الدنيا، وأسدتهم وأعمقهم فراسة وتيقظاً، إنه صاحب عبرية فذة في هذا الوصف، كما كان سيد الرسل وأعظمهم في صفة النبوة والرسالة، فلم يخض معركة من المعارك إلا في الطرف ومن الجهة اللذين يقتضيهم الحزم والشجاعة والتدمير، ولذلك لم يفشل في أي معركة من المعارك التي خاضها لغفلة في الحكمة وما إليها من تعبئة الجيش، وتعيينه على المراكز الاستراتيجية، واحتلال أفضل المواقع وأونتها للمحاجبة، و اختيار أفضل خطوة لإدارة دفة القتال، بل أثبت في كل ذلك أن له نوعاً آخر من القيادة غير ما عرفتها وتعرف الدنيا في القواد. ولم يقع ما وقع في أحد وحدين إلا من بعض الضعف في أفراد الجيش - في حنين - أو من جهة معصيتهم أو أمره، وتركهم التقييد والالتزام بالحكمة والخططة اللتين كان أوجبهما عليهم من حيث الوجهة العسكرية.

وقد بحثت عبريته ﷺ في هاتين الغزوتين عند هزيمة المسلمين، فقد ثبتت مجابها للعدو، واستطاع بحكمته الفذة أن يخيبهم في أهدافهم - كما فعل في أحد - أو يغير مجرى الحرب حتى يبدل الهزيمة انتصاراً - كما في حنين - مع أن مثل هذا التطور الخطير، ومثل هذه الهزيمة الساحقة تأخذان بمشاعر القواد، وتركان على أعصابهم أسوأ الأثر، لا يقوى لهم بعد ذلك إلا هم النجاة بأنفسهم.

هذه هي من ناحية القيادة العسكرية الحالصة. أما من نواح أخرى، فإنه استطاع بهذه الغزوات فرض الأمن وبسط السلام، وإطفاء نار الفتنة، وكسر شوكة الأعداء في صراع

الإسلام والوثنية ، وإلحادهم إلى المصالحة ، وتخليه السبيل لنشر الدعوة ، كما استطاع أن يتعرف على المخلصين من أصحابه من هو ييطن النفاق ، ويضم نوازع الغدر والخيانة .

وقد أنشأ طائفة كبيرة من القواد الذين لاقوا بعده الفرس والروماني في ميادين العراق والشام ، ففاقوهم في تحطيم الحروب وإدارة دفة القتال ، حتى استطاعوا إجلاءهم من أرضهم وديارهم وأموالهم من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمتهم كانوا فيها فاكهين .

كما استطاع رسول الله ﷺ بفضل هذه الغزوات ، أن يوفر السكنى والأرض والحرف والمشاغل للمسلمين ، حتى تفصي من كثير من مشاكل اللاجئين الذين لم يكن لهم مال ولا دار ، وهياً السلاح والكراع والعدة والنفقات ، حصل على كل ذلك من غير أن يقوم بمثقال ذرة من الظلم والطغيان والبغى والعدوان على عباد الله .

وقد غير أغراض الحروب وأهدافها التي كانت تضطرم نار الحرب لأجلها في الجاهلية ، في بينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغى والعدوان ، وأنخذ الثأر ، والفوز بالوتر ، وكبت الضعف ، وتخريب العمran ، وتدمير البنيان ، وهتك حرمات النساء ، والقسوة بالضعاف والولائد والصبيان وإهلاك الحرج والنسل ، والعيث والفساد في الأرض – في الجاهلية – إذ صارت هذه الحرب – في الإسلام – جهاداً في تحقيق أهداف نبيلة ، وأغراض سامية وغايات محمودة ، يعتز بها المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان ، فقد صارت الحرب جهاداً في تخليص الإنسان من نظام القهرا والعدوان . إن نظام العدالة والنصف ، من نظام يأكل فيه القوي الضعف ، إلى نظام يصير فيه القوي ضعيفاً حتى يؤخذ منه ، وصارت جهاداً في تخليص المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها وجعل لنا من لدنك ولينا . واجعل لنا من لدنك نصيراً ، وصارت جهاداً في تطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم والعدوان إلى بسط الأمن والسلامة والرأفة والرحمة ومراعاة الحقوق والمرءة .

كما شرع للحروب قواعد شريفة ألزم التقييد بها على جنوده وقادها ، ولم يسمح لهم الخروج عنها بحال . روى سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أو صاه في خاصته بتقوى الله عز وجل ، ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا من كفر الله ، اغزوا ، فلا تغلوا ولا تغدوا ، ولا تقتلوا ، ولا تقتلوا

وليداً .. الحديث . وكان يأمر بالتسير ويقول : يسروا ولا تعسروا ، وسكنوا ولا تنفروا^(١) . وكان إذا جاء قوماً بليل لم يغر عليهم حتى يصبح ، ونبي أشد النبي عن التحرير في النار ، ونبي عن قتل الصبية ، وقتل النساء وضربهن ، ونبي عن النهب حتى قال : إن النبي ليست بأحل من المية . ونبي عن إهلاك الحمر والنسل وقطع الأشجار إلا إذا اشتدت إليها الحاجة ، ولا يبقى سواه سبيل . وقال عند فتح مكة : لا تجهرون على جریح ، ولا تتبعن مدبراً ، ولا تقتلن أسيراً ، وأمضى السنة بأن السفير لا يقتل ، وشدد في النبي عن قتل المعاهدين حتى قال : من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها لنوجد من مسيرة أربعين عاماً ... إلى غير ذلك من القواعد النبوية التي طهرت الحروب من أدران الجاهلية ، حتى جعلتها جهاداً مقدساً^(٢) .

(١) صحيح مسلم ٨٢/٢ ، ٨٣ .

(٢) انظر ذلك مفصلاً في زاد المعاذ ، ٦٤/٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، والجهاد في الإسلام للأستاذ أبي الأعلى المودودي ص ٢١٦ إلى ٢٦٢ .

الناس يدخلون في دين الله أفواجا

كانت غزوة فتح مكة - كما قلنا - معركة فاصلة ، قضت على الوثنية قضاء باتاً ، عرفت العرب لأجلها الحق من الباطل ، وزالت عنهم الشبهات ، فتسارعوا إلى اعتناق الإسلام . قال عمرو بن سلمة : كما بماء ماء الناس ، وكان يمر بنا الركبان فتسألهما : ما للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ - أي النبي ﷺ - فيقولون : يزعم أن الله أرسله ، أوحى إليه . أوحى الله كذا ، فكنت أحفظ ذاك الكلام ، فكأنما يقرأ في صدري ، وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح ، فيقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق . فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، ويدر أي قومي بإسلامهم ، فلما قدم قال : جنتمكم والله من عند النبي ﷺ - حقاً . فقال : صلوا صلاة كذا في حين كذا ، وصلاة كذا في حين كذا ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم ، وليرمكم أكثركم قراناً . الحديث^(١) .

وهذا الحديث يدل على مدى أثر فتح مكة في تطوير الظروف ، وتعزيز الإسلام ، وتعيين الموقف للعرب ، واستسلامهم للإسلام ، وتأكد ذلك أي تأكد بعد غزوة تبوك ، ولذلك نرى الوفود تقصد المدينة ترى في هذين العامين - التاسع والعشر - ونرى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، حتى إن الجيش الإسلامي الذي كان قوامه عشرة آلاف مقاتل في غزوة الفتح ، إذا هو يزخر في ثلاثة ألف مقاتل في غزوة تبوك ، قبل أن يمضي على فتح مكة عام كامل ، ثم نرى في حجة الوداع بحراً من رجال الإسلام - مائة ألف من الناس أو مائة وأربعة وأربعون ألفاً منهم - يموج حول رسول الله ﷺ بالتلبية والتکبير والتسبيح والتحميد تدوی له الآفاق ، وترتعج له الأرجاء .

(١) صحيح البخاري ٦١٥/٢ ، ٦١٦

الوفود:

والوفود التي سردها أهل المغازي يزيد عددها على سبعين وفداً ، ولا يمكن لنا استقصاءها ، وليس كبير فائدة في بسط تفاصيلها ، وإنما نذكر منها إجمالاً ماله روعة أو أهمية في التاريخ . ول يكن على ذكر من القارئ أن وفادة عامة القبائل وإن كانت بعد الفتح ؛ ولكن هناك قبائل توافدت قبله أيضاً :

(١) وفد عبد القيس – كانت هذه القبيلة وفادتان : الأولى سنة خمس من المجرة أو قبل ذلك . كان رجل منهم يقال له منفذ بن حيان ، يرد المدينة بالتجارة ، فلما جاء المدينة بتجارته بعد مقدم النبي ﷺ ، وعلم بالإسلام أسلم وذهب بكتاب من النبي ﷺ إلى قومه فأسلموا ، فتوافدوا إليه في شهر حرام في ثلاثة أو أربعة عشر رجلاً ، وفيها سأله عن الإيمان وعن الأشربة ، وكان كثيرهم الأشج العصري الذي قال فيه رسول الله ﷺ : إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأنة .

والوفادة الثانية كانت في سنة الوفود ، وكان عددهم فيها أربعين رجلاً ، وكان فيهم الحارود بن العلاء العبدى ، وكان نصراوياً فأسلم وحسن إسلامه^(١) .

(٢) وفد دوس – كانت وفادة هذه القبيلة في أوائل سنة سبع ، ورسول الله ﷺ بخير ، وقد قدمنا حديث إسلام الطفيلي بن عمرو الدسوسي ، وأنه أسلم ورسول الله ﷺ بمكة ، ثم رجع إلى قومه ، فلم يزل يدعوهم إلى الإسلام ، ويبطون عليه ، حتى ينس منهم ، ورجع إلى رسول الله ﷺ ، فطلب منه أن يدعوه على دوس ، فقال : اللهم اهد دوساً . ثم أسلم هؤلاء ، فوفد الطفيلي بسبعين أو ثمانين بيّناً من قومه إلى المدينة في أوائل سنة سبع ورسول الله ﷺ بخير فلتحق به .

(٣) رسول فروة بنى عمرو الجذامي – كان فروة قائداً عربياً من قواد الرومان ، عاملأ لهم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معان وما حوله من أرض الشام ، أسلم بعد ما رأى من جناد المسلمين وشجاعتهم ، وصدقهم اللقاء في معركة مؤتة سنة ٨هـ . ولما أسلم بعث إلى رسول الله ﷺ رسولاً بإسلامه ، وأهدى له بغلة يضاء ، ولما علم الروم بإسلامه أخذوه

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ١/٣٣ ، فتح الباري ٨/٨٥ ، ٨٦ .

فحبسوه ، ثم خيروه بين الردة والموت ، فاختار الموت على الردة ، فصلبوه بفلسطين على ماء يقال له عفراء ، وضربوا عنقه^(١) .

(٤) وفد صداء – جاء هذا الوفد عقب انصراف رسول الله ﷺ من الجعرانة سنة ٨ هـ . وذلك أن رسول الله ﷺ هيأ بعثاً من أربعمائة من المسلمين ، وأمرهم أن يطأوا ناحية من اليمن فيها صداء ، وبينما ذلك البعض معسكراً بصدر قناة علم به زياد بن الحارث الصدائى ، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال : جئتكم وافتكم على من ورائي ، فاردد الجيش وأنا لك بقومي ، فرد الجيش من صدر قناة ، وجاء الصدائى إلى قومه فرغبهم في القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عليه خمسة عشر رجلاً منهم ، وباعوه على الإسلام ، ثم رجعوا إلى قومهم ، فدعوه ، فقشا عليهم الإسلام ، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل في حجة الوداع .

(٥) قدوم كعب بن زهير بن أبي سلمى – كان من بيت الشعراء ، ومن أشهر العرب ، وكان يهجو النبي ﷺ ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة الطائف سنة ٨ هـ ، كتب إلى كعب بن زهير أخوه بحير بن زهير أن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بعكة من كانوا يهجونه ويؤذونه ، ومن بقي من شعراء قريش هربوا في كل وجه ، فإن كانت للك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ ، فإنه لا يقتل أحداً جاء تائباً ، وإلا فانج إلى نجاتك . ثم جرى بين الأخرين مراسلات ضاقت لأجلها الأرض على كعب ، وأشفق على نفسه ، فجاء المدينة ، ونزل على رجل في جهينة ، وصل معه الصبح ، فلما انصرف وأشار عليه الجهني ، فقام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه ، فوضع يده في يده ، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه فقال : يا رسول الله . إن كعب بن زهير ، قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتكم به ؟ قال : «نعم» . قال : أنا كعب بن زهير . فوثب عليه رجل من الأنصار يستأذن ضرب عنقه ، فقال : «دعه عنك ، فإنه قد جاء تائباً نازعاً عما كان عليه» .

وحيثند أنشد كعب قصيدة المشهورة التي أو لها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها، لم يفـد، مكبـول
قال فيها – وهو يعتذر إلى رسول الله ﷺ ، ويمدحه – :

(١) زاد المعاد ٤٥/٣ ، تفهم القرآن ٢/١٦٩ .

متيم إثرها، لم يفده، مكبل
والعفو عند رسول الله مأمول
قرآن فيها مواعيظ وتفاصيل
أذب، ولو كثرت في الأقوابل
أرى وأسع ما لو يسمع الفيل
من الرسول بإذن الله تنويل
في كف ذي نقمات قيله القيل
وقيل : إنك منسوب ومسؤول
في بطن عثر غيل دونه غيل
مهند من سيف الله مسلول

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
نبشت أن رسول الله أوعدني
مهلا هداك الذي أعطاك نافلة
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم
لقد أقوم مقاماً لو يقوم به
ظل يرعد ، إلا أن يكون له
حتى وضعت يميني ما أنازعه
فلهموا أخوف عندي إذ أكلمه
من ضيغم بضراء الأرض مدره
إن الرسول لنور يستضاء به

ثم مدح المهاجرين من قريش ؛ لأنهم لم يكن تكلم منهم رجل في كعب حين جاء إلا
بحير ، وعرض في أثناء مدحهم على الأنصار لاستذان رجل منهم في ضرب عنقه ، قال :
يمشون مشي الحمال الزهر يعصهم ضرب إذا عرد السود التنايل
فلما أسلم وحسن إسلامه مدح الأنصار في قصيدة له ، وتدارك ما كان قد فرط منه في
شأنهم ، قال في تلك القصيدة :

في مقرب من صالح الأنصار
إن الخيار هم بنو الأخير
من سره كرم الحياة فلا ينزل
ورثوا المكارم كابراً عن كابر
(٦) وقد عذرة - قدم هذا الوفد في صفر سنة ٩ هـ . هم اثنا عشر رجلاً فيهم حمزة بن
النعمان . قال متتكلّمهم حين سئلوا من القوم : نحن بتو عذرة ، أخوة قصي لأمه ، نحن الذين
عصدوا قصيأً ، وأزاحوا من بطن مكة خزانة وبني بكر ، لنا قرابات وأرحام ، فرحب بهم
النبي عليه صلوات الله عليه ، وبشرهم بفتح الشام ، ونهاهم عن سؤال الكاهنة ، وعن الذبائح التي كانوا
يدبحونها . أسلموا وأقاموا أياماً ثم رجعوا .

(٧) وقد بلي - قدم في ربيع الأول سنة ٩ هـ ، وأسلم وأقام بالمدينة ثلاثة ، وقد سأله رئيسهم
أبو الضبيب عن الضيافة هل فيها أجر ؟ فقال رسول الله عليه صلوات الله عليه : « نعم ، وكل معروف صنته إلى
غني أو فقير فهو صدقة » ، وسأل عن وقت الضيافة ، فقال : « ثلاثة أيام » ، وسأل عن ضالة

الغم فقال : « هي لك أو لأخيك أو للذئب » ، وسأل عن ضالة البعير ، فقال : « مائلك وله ؟ دعه حتى يجد صاحبه » .

(٨) وفـد ثقـيف - كانت وفـادـتهم في رمضان سنة ٩ هـ . بعد مرجع رسول الله ﷺ من تـبـوك . وقصـة إـسـلامـهم أـن رـئـيـسـهـم عـروـةـ بنـ مـسـعـودـ الثـقـيفـ جاءـ إلىـ رسـولـ اللهـ ﷺ بـعـدـ مـرـجـعـهـ منـ غـزـوةـ الطـائـفـ فيـ ذـيـ الـقـعـدـةـ سـنـةـ ٨ـ هـ قـبـلـ أـنـ يـصـلـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ ، فـأـسـلـمـ عـروـةـ ، وـرـجـعـ إـلـىـ قـوـمـهـ ، وـدـعـاهـمـ إـلـىـ إـسـلـامـ - وـهـوـ يـظـنـ أـنـهـ يـطـيعـونـهـ ؛ لـأـنـهـ كـانـ سـيـداـ مـطـاعـاـ فـيـ قـوـمـهـ ، وـكـانـ أـحـبـ إـلـيـهـمـ مـنـ أـبـكـارـهـمـ - فـلـمـ دـعـاهـمـ إـلـىـ إـسـلـامـ رـمـوهـ بـالـنـبـلـ مـنـ كـلـ وـجـهـ حـتـىـ قـتـلـوهـ ، ثـمـ أـقـامـواـ بـعـدـ قـتـلـهـ أـشـهـراـ ، ثـمـ اتـتـرـوـاـ بـيـنـهـمـ ، وـرـأـواـ أـنـهـ لـاـ طـاقـةـ لـهـمـ بـحـرـبـ مـنـ حـوـلـهـ مـنـ الـعـربـ - الـذـينـ كـانـوـاـ قـدـ بـاـيـعـوـاـ وـأـسـلـمـوـ - فـأـجـمـعـوـاـ أـنـ يـرـسـلـوـ رـجـلـاـ إـلـىـ رسـولـ اللهـ ﷺ ، فـكـلـمـواـ عـبـدـ يـالـيـلـ بـنـ عـمـرـوـ ، وـعـرـضـواـ عـلـيـهـ ذـلـكـ فـأـلـيـ ، وـخـافـ أـنـ يـصـنـعـوـ بـهـ إـذـاـ رـجـعـ مـثـلـ مـاـ صـنـعـوـ بـعـروـةـ ، وـقـالـ : لـسـتـ فـاعـلـاـ حـتـىـ تـرـسـلـوـ مـعـيـ رـجـالـاـ ، فـبـعـثـوـاـ مـعـهـ رـجـلـيـنـ مـنـ الـأـحـلـافـ وـثـلـاثـةـ مـنـ بـنـيـ مـالـكـ ، فـصـارـوـاـ سـتـةـ فـيـهـمـ عـثـمـانـ بـنـ أـنـيـ الـعـاصـيـ ، وـكـانـ أـحـدـهـمـ سـنـاـ .

فـلـمـ قـدـمـواـ عـلـىـ رسـولـ اللهـ ﷺ ضـربـ عـلـيـهـمـ قـبـةـ فـيـ نـاحـيـةـ الـمـسـجـدـ ، لـكـيـ يـسـمـعـوـ الـقـرـآنـ ، وـبـرـواـ النـاسـ إـذـاـ صـلـوـاـ ، وـمـكـثـوـاـ يـخـلـفـوـنـ إـلـىـ رسـولـ اللهـ ﷺ ، وـهـوـ يـدـعـوـهـمـ إـلـىـ إـسـلـامـ ، حـتـىـ سـأـلـ رـئـيـسـهـمـ أـنـ يـكـتـبـ لـهـمـ رسـولـ اللهـ ﷺ قـضـيـةـ صـلـحـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ ثـقـيفـ . يـأـذـنـ لـهـمـ فـيـاـ بـالـزـنـ وـشـرـبـ الـخـمـورـ وـأـكـلـ الـرـبـاـ ، وـيـتـرـكـ لـهـمـ طـاغـيـتـمـ الـلـاتـ ، وـأـنـ يـعـفـيـهـمـ مـنـ الـصـلـاـةـ ، وـأـنـ لـاـ يـكـسـرـوـ أـصـنـامـهـمـ بـأـيـدـيـهـمـ ، فـأـلـيـ رسـولـ اللهـ ﷺ أـنـ يـقـبـلـ شـيـئـاـ مـنـ ذـلـكـ ، فـخـلـلـوـاـ وـتـشـاـوـرـوـاـ ، فـلـمـ يـجـدـوـ عـيـصـاـ مـعـنـ الـإـسـلـامـ لـرسـولـ اللهـ ﷺ ، فـأـسـتـسـلـمـوـاـ وـأـسـلـمـوـ ، وـاشـتـرـطـوـاـ أـنـ يـتـوـلـ رسـولـ اللهـ ﷺ هـدـمـ الـلـاتـ ، وـأـنـ ثـقـيفـاـ لـاـ يـهـدـمـونـهـ بـأـيـدـيـهـمـ أـبـدـاـ ؛ فـقـبـلـ ذـلـكـ ، وـكـتـبـ لـهـمـ كـتـابـاـ ، وـأـمـرـ عـلـيـهـمـ عـثـمـانـ بـنـ أـنـيـ الـعـاصـيـ ، لـأـنـهـ كـانـ أـحـرـصـهـمـ عـلـىـ التـفـقـهـ فـيـ إـسـلـامـ وـتـعـلـمـ الـدـيـنـ وـالـقـرـآنـ ؛ وـذـلـكـ أـنـ الـوـفـدـ كـانـوـاـ كـلـ يـوـمـ يـغـدوـنـ إـلـىـ رسـولـ اللهـ ﷺ ، وـيـخـلـفـوـنـ عـثـمـانـ بـنـ أـنـيـ الـعـاصـيـ ، فـإـذـاـ رـجـعـوـاـ وـقـالـوـاـ بـالـهـاجـرـةـ عـمـدـ عـثـمـانـ بـنـ أـنـيـ الـعـاصـيـ إـلـىـ رسـولـ اللهـ ﷺ ، فـأـسـتـقـرـأـهـ الـقـرـآنـ ، وـسـأـلـهـ عـنـ الـدـيـنـ ، وـإـذـاـ وـجـدـهـ نـائـمـاـ عـمـدـ إـلـىـ أـنـيـ بـكـرـ لـنـفـسـ الغـرـضـ ، (وـكـانـ مـنـ أـعـظـمـ النـاسـ بـرـكـةـ لـقـوـمـهـ فـيـ زـمـنـ الرـدـةـ ، فـإـنـ ثـقـيفـاـ لـمـ عـزـمـتـ عـلـىـ الرـدـةـ قـالـ

لهم : يا معاشر ثقيف كنتم آخر الناس إسلاماً ، فلا تكونوا أول الناس ردة ، فامتنعوا على الردة ، وثبتوا على الإسلام) .

ورجع الوفد إلى قومه فكتّبوا لهم الحقيقة ، وخوفهم بالحرب والقتال ، وأظهر الحزن والكآبة ، وأن رسول الله ﷺ سألهم الإسلام وترك الزنى والخمر والربا وغيرها وإلا يقاتلهم ، فأخذت ثقيف نحوة الجاهلية ، فمكثوا يومين أو ثلاثة يريدون القتال ، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب ، وقالوا للوفد : ارجعوا إليه فأعطوه ما سأله ، وحينئذ أبدى الوفد حقيقة الأمر ، وأظهروا ما صالحوا عليه ، فأسلمت ثقيف .

وبعث رسول الله ﷺ رجلاً هدم اللات ، أمر عليهم خالد بن الوليد ، فقام المغيرة بن شعبة ، فأخذ الكرزين وقال لأصحابه : والله لأضحكنكم من ثقيف . فضرب بالكرزين ، ثم سقط يركض ، فارتاج أهل الطائف ، وقالوا : أبعد الله المغيرة ، قتلته الربة ، فوثب المغيرة فقال : قبحكم الله ، إنما هي لکاع حجارة ومدر ، ثم ضرب الباب فكسره ، ثم علا أعلى سورها ، وعلا الرجال فهدموها وسروها بالأرض حتى حفروا أساسها ، وأخرجوا حلبيها ولباسها ، فهبت ثقيف ، ورجع خالد مع مفرزته إلى رسول الله ﷺ بحلبيها وكسوتها ، فقسمه رسول الله ﷺ من يومه ، وحمد الله على نصرة نبيه وإعزاز دينه^(١) .

(٩) رسالة ملوك اليمن - وبعد مرجع النبي ﷺ من تبوك قدم كتاب ملوك حمير ، وهم الحارث بن عبد كلال ، ونعميم بن عبد كلال ، والنعمان بن قيل ذي رعين ، وهدان ومعافر ، ورسوهم إلىه ﷺ مالك بن مرة الراهاوي ، بعثوه بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله ، وكتب إليهم رسول الله ﷺ كتاباً بين فيه ما للمؤمنين وما عليهم ، وأعطي فيهم المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله إذا أعطوا ما عليهم من الجزية ، وبعث إليهم رجالاً من أصحابه أميرهم معاذ بن جبل .

(١٠) وفد هدان - قدمو سنة ٩ هـ - بعد مرجعه ﷺ من تبوك ، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً أقطعهم فيه ما سألوه ، وأمر عليهم مالك بن المنط ، واستعمله على من أسلم من قومه ، وبعث إلى سائرهم خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام ، فأقام ستة أشهر يدعوهم فلم يجيئوه ، ثم بعث علي بن أبي طالب ، وأمره أن يقف خالداً ، ف جاء علي إلى هدان ، وقرأ عليهم كتاباً من رسول الله ﷺ ، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعاً ، وكتب علي ببشاره

(١) زاد المعاد ٢٦/٣ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ابن هشام ٣٥٧ إلى ٥٤٢ .

إسلامهم إلى رسول الله ﷺ ، فلما قرأ الكتاب خر ساجداً ، ثم رفع رأسه فقال : السلام على همدان ، السلام على همدان .

(١١) وفد بني فرازة – قدم هذا الوفد سنة ٩ هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك ، قدم في بضعة عشر رجالاً جاؤوا مقررين بالإسلام ، وشكوا جدب بلادهم ، فصعد رسول الله ﷺ التبر ، فرفع يديه واستسقى ، وقال : اللهم اسق بلادك وبهاك ، وانشر رحمتك ، وأحيي بذلك الميت ، اللهم اسقنا غيثاً ، مغيثاً ، مريحاً ، طبقاً ، واسعاً ، عاجلاً ، غير آجل ، نافعاً غير ضار ، اللهم سقيا رحمة ، لا سقيا عذاب ، ولا هدم ، ولا غرق ، ولا محن ، اللهم اسقنا الغيث ، وانصرنا على الأعداء^(١) .

(١٢) وفد نجران – (نجران ، بفتح النون وسكون الجيم : بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن ، كان يشتمل على ثلات وسبعين قرية ، مسيرة يوم للراكب السريع^(٢) ، وكان يُولف مائة ألف مقاتل كانوا على دين المسيحية) .

وكانت وفادة أهل نجران سنة ٩ هـ ، وقوم الوفد ستون رجلاً ، منهم أربعة وعشرون من الأشراف ، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران ، أحدهم العاقد ، كانت إليه الإمارة والحكومة باسمه عبد المسيح ، والثاني السيد ، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية باسم الأئم أو شرحبيل ، والثالث الأسقف وكانت إليه الرعامة الدينية ، والقيادة الروحانية ، باسم أبو حارثة بن علقمة .

ولما نزل الوفد بالمدينة ، ولقي النبي ﷺ سألهم وسائله ، ثم دعاهم إلى الإسلام ، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا ، وسائلوه بما يقول في عيسى عليه السلام ، فمكث رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى نزل عليه ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ إِدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُرَقَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ^(٣) **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَنَّينَ** ^(٤) **فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ** **فَقُلْ تَعَالَوْ أَنْدُعُ أَبْنَاءَ نَا وَأَبْنَاءَ كُمْ وَنِسَاءَ نَا وَنِسَاءَ كُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ بَتِّهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَذِّابِينَ** ^(٥) (٣ : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١) .

(١) زاد المعاد ٤٨/٣ .

(٢) فتح الباري ٩٤/٨ .

ولما أصبح رسول الله ﷺ أخيرهم بقوله في عيسى بن مريم في ضوء هذه الآية الكريمة ، وتركتهم ذلك اليوم ؛ ليفكروا في أمرهم ، فأبوا أن يقروا بما قال في عيسى . فلما أصبحوا وقد أبوا عن قبول ما عرض عليهم من قوله في عيسى ، وأبوا عن الإسلام دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة ، وأقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خمبل له ، وفاطمة تمشي عند ظهره ، فلما رأوا منه الجد والتبيؤ خلوا وتشاوروا ، فقال كل من العاقد والسيد للآخر : لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعتنا لا نفلح نحن ولا عقينا من بعدهنا ، فلا يبقى على وجه الأرض منا شرة ولا ظفر إلا هلك ، ثم اجتمع رأيهم على تحكيم رسول الله ﷺ في أمرهم ، فجاووا وقالوا : إننا نعطيك ما سألتنا . فقبل رسول الله ﷺ منهم الجزية ، وصالحهم على ألفي حلة ، ألف في رجب ، وألف في صفر ، ومع كل حلة أوقية ، وأعطاهم ذمة الله وذمة رسوله ، وترك لهم الحرية الكاملة في دينهم ، وكتب لهم بذلك كتاباً ، وطلبو منه أن يبعث عليهم رجالاً أميناً ، فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الحجاج ؛ ليقبض مال الصلح .

ثم طرق الإسلام يفسو فيهم ، فقد ذكروا أن السيد والعاقب أسليماً بعد ما رجعوا إلى نجران ، وأن النبي ﷺ بعث إليهم علياً ؛ ليأتيه بصدقائهم وجزيئهم ، ومعلوم أن الصدقة إنما تؤخذ من المسلمين^(١) .

(١٣) وفد بني حنيفة – كانت وفادتهم سنة ٩٦ هـ . وكانوا سبعة عشر رجلاً فيهم مسيلة الكذاب^(١) – وهو مسيلة بن ثامة بن كثير بن حبيب بن الحارث من بني حنيفة – نزل هذا الوفد في بيت رجل من الأنصار ، ثم جاؤوا إلى النبي ﷺ فأسلموا ، واختلفت الروايات في مسيلة الكذاب ، ويظهر بعد التأمل في جميعها أن مسيلة صدر منه الاستكفار والأفنة والاستكبار والطموح إلى الإمارة ، وأنه لم يحضر مع سائر الوفد إلى رسول الله ﷺ ، وأن النبي ﷺ أراد استخلافه بالإحسان بالقول والفعل أولاً ، فلما رأى أن ذلك لا يجدي فيه نفعاً تغرس فيه الشر .

(١) فتح الباري ٩٤/٨ ، ٩٥ ، زاد المعاد ٣٨/٣ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، وقد اضطربت الروايات في بيان كيفية وفد نجران ، حتى جنح بعض المحققين إلى أن وفادة أهل نجران كانت مرتين ، وقد ذكرنا – ملخصاً – ما ترجم عندها في هذا الوفد .

(٢) فتح الباري ٨/٨ ، ٨٧ .

وكان النبي ﷺ قد أرى قبل ذلك في المنام أنه أتي بمخازن الأرض ، فوقع في يديه سواران من ذهب ، فكيرا عليه وأهله ، فأوحى إليه أن انفحهما ، فنفحهما ، فذهبما ، فأولهما كذابين يخرجان من بعده ، فلما صدر من مسيلمة ما صدر من الاستكاف – وقد كان يقول : إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته – جاءه رسول الله ﷺ وفي يده قطعة من جريد ، ومه خطيبه ثابت بن قيس بن شماس ، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه ، فكلمه فقال له مسيلمة : إن شئت خلينا بينك وبين الأمر ، ثم جعلته لنا بعده ، فقال : لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تundo أمر الله فيك ، ولكن أدبرت ليقرنك الله ، والله إني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت ، وهذا ثابت يحييك عنني . ثم انصرف^(١) .

وأخيراً وقع ما تفرض فيه النبي ﷺ ، فإن مسيلمة لما رجع إلى اليمامة بقي يفكر في أمره ، حتى ادعى أنه أشرك في الأمر مع النبي ﷺ ، فادعى النبوة ، وجعل يسجع السجعات ، وأحل لقومه الخمر والرزا ، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبي ، واقتتن به قومه فتبعوه ، وأصفقوا معه ، حتى تفاقم أمره ، فكان يقال له رحمان اليمامة لعظم قدره فيهم . وكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً قال فيه : إني أشركت في الأمر معلمك ، وإن لنا نصف الأمر ، ولقريش نصف الأمر ، فرد عليه رسول الله ﷺ بكتاب قال فيه : ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَنْقَبَةُ لِلْمُمْتَقِنِ﴾^(٢) .

وعن ابن مسعود قال : جاء ابن التواحة ، وابن أثال رسولاً مسيلمة إلى النبي ﷺ ، فقال لهما : أتشهدان أني رسول الله ؟ فقالا : نشهد أن مسيلمة رسول الله . فقال النبي ﷺ : آمنت بالله ورسوله . لو كنت قاتلا رسولاً لقتلتكم^(٣) .

كان ادعاء مسيلمة النبوة سنة عشر ، وقتل في حرب اليمامة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في ربيع الأول سنة ١٢ هـ، قتلته وحشى قاتل حمزة . وأما المتنى الثاني ، وهو الأسود

(١) انظر صحيح البخاري باب وفد بنى حنيفة ، وباب قصة الأسود العنسي ٦٢٧/٢ ، ٦٢٨ وفتح الباري ٨/٨٧ إلى ٩٣ .

(٢) زاد المعاد ٣١/٣ ، ٣٢ .

(٣) رواه الإمام أحمد ، مشكاة المصايح ٢/٣٤٧ .

العنسي الذي كان بالمين ، فقتله فیروز ، واحتز رأسه قبل وفاة النبي ﷺ يوم ولیلة ، فأناته الوحى فأخبر به أصحابه ، ثم جاء الخبر من المین إلى أبي بكر رضي الله عنه^(١) .

(١٤) وفد بنی عامر بن صعصعة - كان فيهم عامر بن الطفیل عدو الله وأربد بن قیس - أخو لبید لأمه - وخالد بن جعفر ، وجبار بن أسلم ، وكانوا رؤساء القوم وشیاطینهم ، وكان عامر هو الذي غدر بأصحاب بئر معونة ، فلما أراد هذا الوفد أن يقدم المدينة تأmer عامر وأربد ، واتفقا على القتل بالنبي ﷺ ، فلما جاء الوفد جعل عامر يکلم النبي ﷺ ، ودار أربد خلفه ، واختلط سيفه شبراً ، ثم حبس الله يده فلم يقدر على سله ، وعصم الله نبیه ، ودعى عليهمما النبي ﷺ ، فلما رجعوا أرسل الله على أربد وحمله صاعقة فأحرقه ، وأما عامر فنزل على امرأة سلولیة ، فأصيب بعنة في عنقه فمات وهو يقول : أغدة كغدة البعير ، وموتاً في بيت السلولیة .

وفي صحيح البخاری : أن عامراً أتى النبي ﷺ فقال : أخيرك بين خصال ثلاث : يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر ، أو أكون خليفتك من بعدك ، أو أغزوك بعطفان بألف أشرف وألف شقراء ، فطعن في بيت امرأة ، فقال : أغدة كغدة البعير ، في بيت امرأة من نبی فلان ، إیتونی بفرسی . فركب ، فمات على فرسه .

(١٥) وفد تجیب - قدم هذا الوفد بصدقات قومه مما فضل عن فرائیم وكان الوفد ثلاثة عشر رجالاً ، كانوا يسألون عن القرآن والسنن يتعلمونها ، وسائلوا رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها ، ولم يطيلوا اللبث ، ولما أجازهم رسول الله ﷺ بعثوا إليه غلاماً كانوا خلفوه في رحالمهم ، فجاء الغلام ، وقال : والله ما أعملني من بلادي إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني ، وأن يجعل غنای في قلبي ، فدعاه بذلك ، فكان أفعى الناس ، وثبت في الردة على الإسلام ، وذكر قومه ؛ ووعظهم فثبتوا عليه ، والتقدی أهل الوفد بالنبي ﷺ مرة أخرى في حجة الوداع سنة ٤٠ هـ .

(١٦) وفد طيء - قدم هذا الوفد وفيهم زید الخیل ، فلما کلموا النبي ﷺ ، وعرض عليهم الإسلام أسلموا وحسن إسلامهم ، وقال رسول الله ﷺ عن زید : « ما ذکر لي رجل من العرب بفضل ، ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه ، إلا زید الخیل فإنه لم يبلغ كل ما فيه » ، وسماه زید الخیل .

(١) فتح الباری ٩٣/٨ .

وهكذا تابعت الوفود إلى المدينة في سنتي تسع وعشر ، وقد ذكر أهل المغازي والسير منها وفود أهل اليمن ، والأزد وبني سعد هذيم من قضاة ، وبني عامر بن قيس ، وبني أسد ، وبهاء ، وخولان ، ومحارب ، وبني الحارث بن كعب ، وغامد ، وبني المتفق ، وسلمان ، وبني عبس ، ومزينة ، ومراد ، وزيد ، وكندة ، وذى مرة ، وغسان ، وبني عيش ، ونخع – وهو آخر الوفود ، تواجد في منتصف حرم سنة ١١ هـ في ماتي رجل – وكانت وفادة الأغلبية من هذه الوفود سنة ٩٩ هـ ، وقد تأخرت وفادة بعضها إلى سنة ١١ هـ .

وتتابع هذه الوفود يدل على مدى ما نالت الدعوة الإسلامية من القبول التام ، ويسلط السيطرة والنفوذ على أنحاء جزيرة العرب وأرجائها ، وأن العرب كانت تتظر إلى المدينة بنظر التقدير والإجلال ، حتى لم تكن ترى محيصاً عن الاستسلام أمامها ، فقد صارت المدينة عاصمة لجزيرة العرب ، لا يمكن صرف النظر عنها ، إلا أنها لا يمكن لها القول بأن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسهم ؛ لأنه كان وسطهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعاً لسادتهم ، ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد ما تأصل فيها من الميل إلى الغارات ، ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب ، وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبية ﴿الْأَغْرَابُ أَشَدُّ كُفَّارَ وَنَفَّاقًا وَأَجَدَرُ الْأَيْلَمْوَادُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٩٧) وَمَنْ أَلْأَغْرَابُ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنِيقُ مَغْرَمًا وَيَرْبَضُ بِكُوَّدَ الدَّوَابِرِ عَلَيْهِمْ دَأِيرَةً أَسْوَءَ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٩٨) وَأَنْتَ عَلَى آخَرِينَ مِنْهُمْ قَالَ: ﴿وَمِنْ الْأَغْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنِيقُ فَرِيَتِي عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ الْأَنَّاهَ قَرِيبَةٌ لَهُمْ سَيِّدُ خَلْقِهِمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٩٩) .

أما الحاضرون منهم في مكة والمدينة وثقيف ، وكثير من اليمن والبحرين ؛ فقد كان الإسلام فيه قوياً ، ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين^(١) .

(١) كلمة للحضرى في محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ١٤٤/١ . وانظر في تفاصيل الوفود التي ذكرناها أو أشرنا إليها ، صحيح البخارى ١٣/١ ، ١٣/٢ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ . وابن هشام ، ٥٠١/٢ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٦٠ إلى ٦٠١ ، وزاد المعاد ٣/٢٦ إلى ٦٠ ، وفتح الباري ٨/٨٢ إلى ١٠٣ ورحمة للعالمين ١٨٤/١ إلى ٢١٧ .

نجاح الدعوة وأثرها

و قبل أن نقدم خطوة أخرى إلى مطالعة أواخر أيام حياة الرسول ﷺ؛ ينبغي لنا أن نلقي نظرة إجمالية على العمل الجلل الذي هو فذلكة حياته ، والذي امتاز به عن سائر الأنبياء والمرسلين ، حتى توج الله هامته بسيادة الأولين والآخرين .

إنه ﷺ قيل له : ﴿ يَأَيُّهَا الْمَرْأَةُ ۖ فِي أَيْنَ إِلَّا قَبِيلًا ۚ ﴾ الآيات . و ﴿ يَأَيُّهَا الْمَدْرَسَةُ ۖ قُرْآنًا زَرَّ ۚ ﴾ الآيات ، ققام ، وظل قائمًا أكثر من عشرين عاماً ، يحمل على عاتقه عباء الأمانة الكبيرى في هذه الأرض ، عباء البشرية كلها ، وعباء العقيدة كلها ، وعباء الكفاح والجهاد في ميادين شتى .

حمل عباء الكفاح والجهاد في ميدان الضمير البشري الغارق في أوهام الجاهلية وتصوراتها ، المنشق بانتقال الأرض وجoadتها ، والمكبل بأوهاق الشهوات وأغلالها ، حتى إذا خلص هذا الضمير في بعض صاحبته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الأرضية ، بدأ معركة أخرى في ميدان آخر ، بل معارك متلاحقة .. مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها ، وعلى المؤمنين بها ، الحرسين على قتل هذه الغرسنة الزكية في منبتها ، قبل أن تنمو وتمتد جذورها في التربة ، وفروعها في الفضاء ، وتظل مساحات أخرى .. ولم يكدر يفرغ من معارك الجزيرة العربية ؛ حتى كانت الروم تعد هذه الأمة الجديدة ، وتهبأ للبطش بها على تخومها الشماليه .

وفي أثناء هذا كله لم تكن المعركة الأولى - معركة الضمير - قد انتهت ، فهي معركة خالدة ، الشيطان صاحبها ، وهو لابني لحظة عن مزاولة نشاطه في أعماق الضمير الإنساني ، و محمد ﷺ قائم على دعوة الله هناك ، وعلى المعركة الدائبة في ميادينها المتفرقة ، في شظف من العيش ، والدنيا مقبلة عليه ، وفي جهد وكد ، والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن

والراحة ؛ في نصب دائم لا ينقطع ، وفي صير جميل على هذا كله ، وفي قيام الليل ، وفي عبادة ربها ، وترتيل لقرآنها ، وتبليء إلها كما أمره أن يفعل^(١) .

وهكذا عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاماً ، لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد ، حتى نجحت الدعوة الإسلامية على نطاق واسع تحرير له العقول ، فقد دانت لها الجريمة العربية ، وزالت غيرة الجاهلية عن آفاقها ، وصاحت العقول العليلة ، حتى تركت الأصنام ؛ بل كسرت ، وأخذ الجنوبيون يرتعن بأصوات التوحيد ، وسمعوا الأذان للصلوات يشق أجواء الفضاء خلال الصحراء التي أحياها الإيمان الجديد ، وانطلق القراء شمالاً وجنوبياً ، يتلون آيات الكتاب ، ويقيمون أحكام الله .

وتوحدت الشعوب والقبائل المتنازرة ، وخرج الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة الله ، فليس هناك قاهر ومقهور ، وساديات وعيدي ، وحكام ومحكمون ، وظالم ومظلوم ، وإنما الناس كلهم عباد الله ، إخوان متحابون ، ممثلون لأحكامه : أذهب الله عنهم عبودية الجاهلية ونحوتها وتعاظمها بالآباء ، ولم يبق هناك فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، الناس كلهم بني آدم ، وأدم من تراب .

وهكذا تحققت - بفضل هذه الدعوة - الوحدة العربية ، والوحدة الإنسانية والعدالة الاجتماعية ، والسعادة البشرية في قضياتها ومشاكلها الدينية ، وفي مسائلها الأخروية ، فنقلب بجري الأيام ، وتغير وجه الأرض ، وانعدل خط التاريخ ، وتبدل العقلية .

إن العالم كانت تسسيطر عليه روح الجاهلية - قبل الدعوة - ويعفن ضميره ، وتأنس روحه ، وتحتل فيه القيم والمقاييس ، ويسوده الظلم والعبودية ، وتحتاجه موجة من الترف الفاجر والحرمان التالع ، وتشاهد غاشية الكفر والضلال والظلم ، على الرغم من الديانات السماوية ، التي كانت قد أدركها التحرير ، وسرى فيها الضعف ، وقدرت سلطتها على النفوس ، واستحالت طقوساً جامدة لا حياة فيها ولا روح .

فلما قامت هذه الدعوة بدورها في حياة البشرية ؛ خلصت روح البشر من الوهم والخرافة ، ومن العبودية والرق ، ومن الفساد والتعفن ، ومن القذارة والانحلال ، وخلصت المجتمع الإنساني

(١) كلمة سيد قطب في ظلال القرآن ١٦٨/٢٩ ، ١٦٩ .

من الظلم والطغيان ، ومن التفكك والاهيار ، ومن فوارق الطبقات ، واستبداد الحكام ، واستذلال الكهان ، وقامت بناء العالم على أساس من العفة والتظافة ، والإيجابية والبناء ، والحرية والتجدد ، ومن المعرفة واليقين ، والثقة والإيمان والعدالة والكرامة ، ومن العمل الدائب ؛ لتنمية الحياة ، وترقية الحياة ، وإعطاء كل ذي حق حقه في الحياة^(١) .

وبفضل هذه التطورات شاهدت الجزيرة العربية نهضة مباركة لم تشاهد مثلها منذ نشأ فوقها العمران ، ولم يتألق تاريخها تألقه في هذه الأيام الفريدة من عمرها .

(١) من كلمة سيد قطب في مقدمة ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٤ .

حجّة الوداع

تُمَتْ أَعْمَالُ الدِّعَوَةِ ، وَإِبْلَاغُ الرِّسَالَةِ ، وَبِنَاءُ جَمَعَتْ جَدِيدٌ عَلَى أَسَاسِ إِثْبَاتِ الْأَلْوَهِيَّةِ اللَّهِ ، وَنَفِيَّاً عَنْ غَيْرِهِ ، وَعَلَى أَسَاسِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَانَ هَافِئًا خَفِيًّا نَبَعَثُ فِي قَلْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَشْعُرُهُ أَنْ مَقَامَهُ فِي الدُّنْيَا قَدْ أَوْشَكَ عَلَى النِّهايَةِ ، حَتَّى إِنَّهُ حِينَ بَعْثَتْ مَعَاذًا عَلَى الْيَمِنِ سَنَةِ ١٠١هـ قَالَ لَهُ فَيْنَا قَالَ : يَا مَعَاذَ ، إِنَّكَ عَسَى أَنْ لَا تَلْقَانِي بَعْدَ عَامِي هَذَا ، وَلَعْلَكَ أَنْ تَغْرِي بِمِسْجَدِي هَذَا وَقَبْرِي ، فَبَكَى مَعَاذُ خَشِعًا لِفَرَاقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرِي رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَمَارَ دُعَوَتِهِ ، الَّتِي عَانَى فِي سَبِيلِهَا أَلْوَانًا مِنَ التَّاعُبِ بَضْعَا وَعَشْرِينَ عَامًا ، فَيَجْتَمِعُ فِي أَطْرَافِ مَكَّةَ بِأَفْرَادِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَمِثْلِهَا ، فَيَأْخُذُونَ مِنْهُ شَرَائِعَ الدِّينِ وَأَحْكَامَهُ ، وَيَأْخُذُونَهُمُ الشَّهَادَةَ عَلَى أَنَّهُ أَدَى الْأَمَانَةَ ، وَبَلَغَ الرِّسَالَةَ ، وَنَصَحَّ الْأُمَّةَ .

أَعْلَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَصْدِهِ هَذِهِ الْحَجَّةَ الْمِبْرُورَةِ الْمَشْهُودَةِ ، فَقَدِمَ الْمَدِينَةُ بِشَرِّ كَثِيرٍ ، كَلَّهُمْ يَلْتَمِسُ أَنْ يَأْتِمَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١) . وَفِي يَوْمِ السَّبْتِ لِأَرْبِيعِ بَقِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ تَهْبَأُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلرِّحِيلِ^(٢) ، فَتَرْجِلُ وَادِهِنَ وَلِبِسَ إِزَارَهُ وَرِداءَهُ وَقَلْدَ بَدْنَهُ ، وَانْطَلَقَ بَعْدَ الظَّهَرِ ، حَتَّى بَلَغَ ذَا الْخَلِيفَةِ قَبْلَ أَنْ يَصْلِيَ الْعَصْرَ ، فَصَلَّاهَا رَكْعَتَيْنِ ، وَبَاتَ هَنَاكَ حَتَّى أَصْبَحَ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : أَتَانِي الْلَّيْلَةُ آتِيَّ مِنْ رَبِّي فَقَالَ : صَلَّى فِي هَذَا الْوَادِي الْمَبَارِكَ ، وَقَالَ : عُمْرَةُ فِي حَجَّةَ^(٣) .

(١) روى ذلك مسلم عن جابر، باب حجّة النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ / ٣٩٤.

(٢) حق ذلك ابن حجر تحقيقاً أثيناً، مع تصحيح ما ورد من أنه خرج لحسن بقين من ذي القعدة انظر فتح الباري ٨/١٠٤.

(٣) رواه البخاري عن عمرٍ / ٢٠٧.

وقيل أن يصلى الظهر اغتسلاً لحرامه ، ثم طبته عائشة بيدها بذرية وطيب فيه مسك ، في بدنها ورأسه ، حتى كان ويص الطيب يرى في مفارقه ولحيته ، ثم استدامه ولم يغسله ، ثم ليس إزاره ورداعه ، ثم يصلى الظهر ركعتين ، ثم أهل بالحج والعمرة في مصلاه ، وقرن بينهما ، ثم خرج ، فركب القصواء ، فأهل أيضاً ، ثم أهل لما استقلت به على البيداء .

ثم واصل سيره حتى قرب من مكة ، فبات بذى طوى ، ثم دخل مكة بعد أن صلى الفجر واغتسل من صباح يوم الأحد لأربع ليال خلون من ذي الحجة سنة ١٤٠ هـ – وقد قضى في الطريق ثمان ليال ، وهي المسافة الوسطى – فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت ، وسعى بين الصفا والمروة ، ولم يحل ، لأنه كان قارناً قد ساق معه المدي ، فنزل بأعلى مكة عند الحجون ، وأقام هناك ، ولم يعد إلى الطواف غير طواف الحج

وأمر من لم يكن معه هدي في أصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرة ، فيطوفوا بالبيت وبين الصفا والمروة ، ثم يحلوا حلالاً تاماً ، فترددوا ، فقال : لو استقبلت من أمري ما استدررت ما أهديت ، ولو لا أن معى المدي لأحللت ، فحل من لم يكن معه هدي ، وسمعوا وأطاعوا .

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة – وهو يوم التروية – توجه إلى منى ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر – خمس صلوات – ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس ، فأجاز حتى آتى عرفة ، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها ، حتى إذا زالت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له ، فأتى بطن الوادي ، وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربعة وعشرون أو أربعة وأربعون ألفاً من الناس ، فقام فيهم خطيباً ، وألقى هذه الخطبة الجامعة :

«أيها الناس ، اسمعوا قولي ، فإني لا أدرى لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً^(١) .

إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا . ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث – وكان مسترضاً فيبني سعد فقتله هذيل – وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع من ربانا ربنا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله .

(١) ابن هشام ٢/٦٠٣ .

فأتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكن عليين أن لا يوطعن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضر بهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهم بالمعروف .

وقد تركت فيكم ما لن تصلوا بعده إن انتصتم به ، كتاب الله^(١) .

أيها الناس ، إنه لا نبي بعدي ، ولا أمة بعدكم ، ألا فاعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم ، طيبة بها أنفسكم ، وتحجرون بيت ربكم ، وأطيعوا ولادكم ، تدخلوا جنة ربكم^(٢) .

وأنتم تسألون عنـي ، فـما أنتـم قـاتـلـون ؟ قالـوا : نـشـهـدـ أـنـكـ قدـ بلـغـتـ وـأـدـيـتـ وـنـصـحتـ .
فـقـالـ بـإـصـبـعـهـ السـبـابـةـ يـرـفـعـهـاـ إـلـىـ السـمـاءـ ، وـيـنـكـتـهـاـ إـلـىـ النـاسـ « اللـهـمـ اـشـهـدـ » . ثـلـاثـ مـرـاتـ^(٣) .

وكان الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله ﷺ - وهو بعرفة - ربيعة بن أمية بن خلف^(٤) .

وبعد أن فرغ النبي ﷺ من إلقاء الخطبة نزل عليه قوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْلَمْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمْ أَلْأَسْلَامَ دِيْنَنَا ﴾ (٥ : ٥) وعندما سمعها عمر بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان^(٦) .

وبعد الخطبة أذن بلال ثم أقام ، فصل رسول الله ﷺ بالناس الظهر ، ثم أقام فصل العصر ، ولم يصل بينهما شيئاً ، ثم ركب حتى أتي الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل حبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة ، فلم ينزل واقفاً حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص ، وأردف أسامة ، ودفع حتى أتي المزدلفة ، فصل بها

(١) صحيح مسلم باب حجة النبي ﷺ ٣٩٧/١ .

(٢) معدن الأعمال ، ورواه ابن ماجه وابن عساكر ، رحمة للعالمين ١/٢٦٣ .

(٣) مسلم ١/٣٩٧ .

(٤) ابن هشام ٢/٦٠٥ .

(٥) رواه البخاري عن ابن عمر ... انظر رحمة للعالمين ١/٢٦٥ .

الغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئاً ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصل الفجر حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواد حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، فدعاه ، وكبره ، وولله ، ووحده ، فلم يزل واقفاً حتى أسرف جداً .

دفع - من المزدلفة إلى مني - قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس حتى أتى بطن محسر ، فحرك قليلاً ، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الحمرة الكبرى ، حتى أتى الحمرة التي عند الشجرة - وهي الحمرة الكبرى نفسها ، كانت عندها شجرة في ذلك الزمان ، وتسمى بحمرة العقبة وبالحمرة الأولى - فرماها بسبع حصيات ، يكير مع كل حصاة منها ، مثل حصى الحذف رمي من بطن الوادي ، ثم انصرف إلى المنحر ، فنحر ثلاثة وستين بدنة بيده ، ثم أعطى علياً فنحر ما غير - وهي سبع وثلاثون بدنة ، تمام المائة - وأشاركه في هديه ، ثم أمر من كل بدنة بسبعة ، فجعلت في قدر ، فطبخت ، فأكلوا من لحمها ، وشربوا من مرقها .

ثم ركب رسول الله ﷺ ، فافتراض إلى البيت ، فصلى بمكة الظهر ، فأنى على بنى عبد المطلب يسوقون على زرم ، فقال : « انزعوا بنى عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقاياتكم لنزعتم معكم » ، فناولوه دلواً فشرب منه^(١) .

وخطب النبي ﷺ يوم النحر -عاشر ذي الحجة - أيضاً حين ارتفع الضحى ، وهو على ببلغة شبياء ، وعلى يعبر عنه ، والناس بين قائم وقاعد^(٢) . وأعاد في خطبته هذه بعض ما كان ألقاه أمس ، فقد روى الشیخان عن أبي بكرة قال : خطبنا النبي ﷺ يوم النحر ، قال : « إن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق السماوات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرأ منها أربعة حرم ، ثلاث متتابعات ، ذو القعدة ذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » .

وقال : « أي شهر هذا » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليس ذا الحجة » ؟ قلنا : بلى . قال : « أي بلد هذا » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليست البلدة » ؟ قلنا : بلى . قال : « فائي

(١) رواه مسلم عن جابر ، باب حجّة النبي ﷺ ٤٠٠ ، ٣٩٩ ، ٣٩٨ ، ٣٩٧/١ .

(٢) روى ذلك أبو داود ، باب أي وقت يخطب يوم النحر ٢٧٠/١ .

يوم هذا » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسمي بغير اسمه ، قال : « أليس يوم النحر » ؟ قلنا : بلى . قال : « فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا » .

« وستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

« ألا هل بلغت » ؟ قالوا : نعم ، قال : « اللهم اشهد . فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع » ^(١) .

وفي رواية أنه قال في تلك الخطبة : « ألا لا يجني جان إلا على نفسه ، ألا لا يجني جان على ولده ، ولا مولود على والده ، ألا إن الشيطان قد يشأن أن يبعد في بلدكم هذا أبداً ، ولكن ستكون له طاعة فيما تحقرنون من أعمالكم ، فسيرضي به » ^(٢) .

وأقام أيام التشريق بمني يؤذن الناسك ويعلم الشرائع ، ويدرك الله ، ويقيم سنن المدى من ملة إبراهيم ، ويحيى آثار الشرك ومعالمها ، وقد خطب في بعض أيام التشريق أيضاً ، فقد روى أبو داود بإسناد حسن عن سراء بنت نبهان قالت : خطبنا رسول الله عليه السلام يوم الرؤوس ، فقال : « أليس هذا أوسط أيام التشريق » ^(٣) . وكانت خطبته في هذا اليوم مثل خطبته يوم النحر ، ووقعت هذه الخطبة عقب نزول سورة النصر .

وفي يوم النفر الثاني - الثالث عشر من ذي الحجة - نفر النبي عليه السلام من مني ، فنزل بجيف بني كنانة من الأبطح ، وأقام هناك بقية يومه ذلك ، وليلته ، وصل إلى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم رقد رقدة ، ثم ركب إلى البيت ، فطاف به طواف الوداع ، وكان قد أمر الصحابة أيضاً .

ولما قضى مناسكه حت الركاب إلى المدينة المطهرة ، لا ليأخذ حظاً من الراحة ، بل

(١) صحيح البخاري ، باب الخطبة أيام مني . ٢٣٤/١ .

(٢) رواه الترمذى ٣٨/٢ ، ١٣٥ وابن ماجة في الحج ، مشكاة المصايخ ٢٣٤/١ .

(٣) أبو داود . باب أي يوم يخطب بمني ٢٦٩/١ .

ليستأنف الكفاح والكذح لله وفي سبيل الله^(١).

آخر البعثة:

كانت كبرىاء دولة الروم قد جعلتها تأي عليه حق الحياة ، وحملها على أن تقتل من أتباعها من يدخل فيه ، كما فعلت بفروة بن عمرو الجذامي الذي كان والياً على معان من قبل الروم .

ونظراً إلى هذه الجرأة والغطرسة أخذ رسول الله ﷺ يجهز جيشاً كبيراً في صفر سنة ١١هـ، وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة ، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، يغطي بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود ، حتى لا يحسبن أحد أن بطش الكنيسة لا معقب له ، وأن الدخول في الإسلام يجر على أصحابه الخوف فحسب .

وتكلم الناس في قائد الجيش لحداثة سنه ، واستبطأوا في بعثه ، فقال رسول الله ﷺ : إن تطعنوا في إمارته ، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل ، وائم الله إن كان خليقاً للإمارة ، وإن كان من أحب الناس إلى الله ، وإن هذا من أحب الناس إلى الله بعده^(٢).

وانتدب الناس يلتقطون حول أسامة ، ويترتبون في جيشه ، حتى خرجنوا ونزلوا الحرف ، على فرسخ من المدينة ، إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ أكرهتهم على التريث ، حتى يعرفوا ما يقضي الله به ، وقد قضى الله أن يكون هذا أول بعث ينفذ في خلافة أبي بكر الصديق^(٣).

(١) انظر لنفسه حجة النبي ﷺ صحيح البخاري كتاب الناسك ج ١ و ٦٣١ / ٢ و صحيح مسلم باب حجة النبي ﷺ وفتح الباري ج ٣ من شرح كتاب الناسك وج ٨ / ١٠٣ إلى ١١٠ وابن هشام ٦٠١ / ٢ إلى ٦٠٥ زاد المعاد ١٩٦ / ١ ، ٢١٨ إلى ٢٤٠ .

(٢) صحيح البخاري . باب بعث النبي ﷺ أسامي ٦١٢ / ٢ .

(٣) المصدر السابق وابن هشام ٦٠٦ / ٢ ، ٥٦٠ .

إلى الرفيق الأعلى

طلاقن التوديع:

لما تكاملت الدعوة ، وسيطر الإسلام على الموقف ، أخذت طلائع التوديع للحياة والأحياء
تطلع من مشاعره عليه السلام ، وتتصفح بعباراته وأفعاله .

إنه اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يوماً ، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام
فحسب ، وتدارسه جريل القرآن مرتين ، وقال في حجة الوداع : إني لا أدرى لعلني لا ألقاكم بعد
عامي هذا بهذا الموقف أبداً ، وقال وهو عند جمرة العقبة : خذوا عني مناسككم ، فلعلني لا أحج
بعد عامي هذا ، وأنزلت عليه سورة النصر في أوسط أيام التشريق ، فعرف أنه الوداع ، وأنه نعيت
إليه نفسه .

وفي أوائل صفر سنة ١١هـ خرج النبي عليه السلام إلى أحد ، فصل على الشهداء كالمودع
للأحياء والأموات ، ثم انصرف إلى المنبر فقال : إني فرطكم ، وإن شهد عليكم ، وإن والله
لأنظر إلى حوضي الآآن ، وإنني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض ، أو مفاتيح الأرض ، وإن والله
ما أخاف أن تشركوا بعدي ، ولكنني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها^(١) .

وخرج ليلة - في منتصفها - إلى البقيع فاستغفر لهم ، وقال : السلام عليكم يا أهل
المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتنة كقطع الليل المظلم ، يتبع
آخرها أوطاها ، الآخرة شر من الأولى . وبشرهم قاتلاً : إنا بكم لللاحقون .

بداية المرض:

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١هـ - وكان يوم الإثنين - شهد

(١) متفق عليه ، صحيح البخاري ٥٨٥/٢ .

رسول الله ﷺ جنازة في البقع ، فلما رجع – وهو في الطريق – أخذه صداع في رأسه ، واتقدت الحرارة ، حتى إنهم كانوا يجدون سرتها فوق العصابة التي تعصب بها رأسه .

وقد صلى النبي ﷺ بالناس وهو مريض ١١ يوماً ، وجميع أيام المرض كانت ١٣ أو ١٤ يوماً .

الأسبوع الأخير:

وثقل برسول الله ﷺ المرض ، فجعل يسأل أزواجه : أين أنا غداً؟ أين أنا غداً؟ ففهم من مراده ، فأخذن له يكoun حيث شاء ، فانتقل إلى عائشة ، يمشي بين الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب ، عاصباً رأسه تخط قدماه حتى دخل بيتها ، فقضى عندها آخر أسبوع من حياته . وكانت عائشة تقرأ بالمعوذات والأدعية التي حفظتها من رسول الله ﷺ ، فكانت تنفس على نفسه ، وتسحّه بيده رجاء البركة .

قبل الوفاة بخمسة أيام:

ويوم الأربعاء قبل خمسة أيام من الوفاة ، اتقدت حرارة العلة في بدنـه ، فاشتد به الوجع وغمـي ، فقال : هريقوا على سبع قرب من آبار شـئـى ، حتى أخرج إلى الناس ، فأعهد إليـمـهم ، فأقعدوه في مخضـبـ ، وصبـواـ عليه الماء ، حتى طـفـقـ يقول : « حـسـبـكـ ، حـسـبـكـ ». وعند ذلك أحس بخفـةـ ، فدخل المسـجـدـ – وهو معصـوبـ الرأسـ – حتى جـلـسـ على المنـبـرـ ، وخطـبـ الناسـ – والنـاسـ مجـمـعـونـ حولـهـ – فقال :

« لعنة الله على اليهود والنصارى ، اخـنـعوا قبور أـنـبيـائـهـمـ مـسـاجـدـ » – وفي رواية « قاتـلـ اللهـ الـيـهـودـ وـالـنـصـارـىـ اـتـخـذـواـ قـبـورـ أـنـبيـائـهـمـ مـسـاجـدـ »^(١) – وقال : لا تخـنـعوا قـبـرىـ وـثـنـاـ يـعـبـدـ »^(٢) . وعرض نفسه للقصاصـ قـاتـلاـ : « من كـنـتـ جـلـدتـ لهـ ظـهـرـيـ فـلـيـسـقـدـ مـنـهـ ، وـمـنـ كـنـتـ شـتـمـتـ لـهـ عـرـضاـ فـهـذـاـ عـرـضـيـ فـلـيـسـقـدـ مـنـهـ » .

ثم نـزـلـ فـصـلـ الـظـهـرـ ، ثـمـ رـجـعـ فـجـلـسـ عـلـىـ الـمـنـبـرـ ، وـعـادـ لـمـقـالـتـهـ الـأـوـلـىـ فـيـ الشـحـنـاءـ وـغـيـرـهـ ،

(١) صحيح البخاري ٦٢/١ ، موطأ الإمام مالك ص ٣٦٠ .

(٢) موطأ الإمام مالك ص ٦٥ .

فقال رجل : إن لي عندك ثلاثة دراهم ، فقال : أعطه يا فضل ، ثم أوصى بالأنصار قائلاً : « أوصيكم بالأنصار ، فإنهم كرسي وعيتي ، وقد قصوا الذي عليهم ، وبقي الذي لهم ، فاقبلا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » وفي رواية أنه قال : « إن الناس يكترون ، وتقل الأنصار ، حتى يكونوا كالملح في الطعام ، فمن ولی منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم »^(١) .

ثم قال : « إن عبداً خيره الله أن يؤتى من زهرة الدنيا ما شاء ، وبين ما عنده ، فاختار ما عنده » قال أبو سعيد الخدري : فبكى أبو بكر . قال : فديناك بأبائنا وأمهاتنا . فعجبنا له ، فقال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتى به من زهرة الدنيا ، وبين ما عنده ، وهو يقول : فديناك بأبائنا وأمهاتنا . فكان رسول الله ﷺ هو الخير ، وكان أبو بكر أعلمنا^(٢) .

ثم قال رسول الله ﷺ : « إن أمن الناس على في صحبته وما له أبو بكر ، ولو كنت متخدناً خليلاً غير ربي لاتخذت أبياً بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يقين في المسجد بباب إلا سد ، إلا باب أبي بكر »^(٣) .

قبل أربعة أيام

و يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام قال - وقد اشتد به الوجع - : « هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده » - وفي البيت رجال فيهم عمر - فقال عمر : قد غالب عليه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسبيكم كتاب الله . فاختلف أهل البيت و اختلفوا ، فمنهم من يقول : قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ ، ومنهم من يقول ما قال عمر ، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله ﷺ : « قوموا عنّي »^(٤) .

وأوصى ذلك اليوم بثلاث : أوصى بانحراف اليهود والنصارى والمرشكين من جزيرة العرب ،

(١) صحيح البخاري ١/٥٣٦ .

(٢) متفق عليه ، مشكاة المصابيح ٢/٥٤٦ .

(٣) متفق عليه . مشكاة المصابيح ٢/٥٤٨ ، صحيح البخاري ١/٤٤٩ ، ٤٢٩ ، ٦٣٨/٢ .

(٤) رواه البخاري عن أم الفضل بباب مرض النبي ﷺ ٦٣٧/٢ .

وأوصى بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم ، أما الثالث فنسيه الرواية ، ولعله الوصية بالاعتصام بالكتاب والسنّة ، أو تنفيذ جيش أسامة ، أو هي « الصلاة وما ملكت أيمانكم » .

والنبي ﷺ مع ما كان به من شدة المرض كان يصلّي بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم - يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام - وقد صلّى بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب ، فقرأ فيها بالمرسلات عرفا^(١) .

وعند العشاء زاد ثقل المرض ، بحيث لم يستطع الخروج إلى المسجد . قالت عائشة : فقال النبي ﷺ : « أصلى الناس » ؟ قلنا : لا يا رسول الله ، وهم يتظرونك . قال : « ضعوا لي ماء في الخضب » . ففعلنا ، فاغتسل ، فذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال : « أصلى الناس » ؟ - ووقع ثانيةً وثالثاً ما وقع في المرة الأولى من الاغتسال ثم الإغماء حينها أراد أن ينوء - فأرسل إلى أبي بكر أن يصلّي بالناس ، فصلّى أبو بكر تلك الأيام^(٢) ؛ ١٧ صلاة في حياته ﷺ .

وراجعت عائشة النبي ﷺ ثلاث أو أربع مرات ؛ ليصرف الإمامة عن أبي بكر ، حتى لا يتشارع به الناس ، فأبى ، وقال : « إنك صواحب يوسف . مروا أبو بكر فليصلّي بالناس » .

قبل يوم أو يومين:

ويوم السبت أو الأحد وجد النبي ﷺ في نفسه خفة ، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر ، وأبو بكر يصلّي بالناس ، فلما رأه أبو بكر ذهب ليتأخر ، فأومأ إليه بأن لا يتأخّر ، قال : « أجلساني إلى جنبه ، فأجلسه إلى يسار أبي بكر ، فكان أبو بكر يقتدي بصلوة رسول الله ﷺ ، ويسمع الناس التكبير^(٣) .

قبل يوم:

وقبل يوم من الوفاة - يوم الأحد - أعق النبي ﷺ غلمانه ، وتصدق بسبعة دنانير كانت عنده ، ووهب لل المسلمين أسلحته ، وفي الليل استعانت عائشة الزيت للمصباح من جارتها ،

(١) متفق عليه مشكاة المصايح ١٠٢/١ .

(٢) صحيح البخاري ٩٩/١ .

(٣) صحيح البخاري ٩٨/١ ، ٩٩ .

وكان درعه عليه السلام مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من الشعير .

آخر يوم من الحياة:

روى أنس بن مالك : أن المسلمين بينما هم في صلاة الفجر يوم الإثنين - وأبو بكر يصلّي بهم - لم يفجأهم إلا رسول الله عليه السلام كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم ، وهم في صفوف الصلاة ، ثم تبسم يضحك ، فنكص أبو بكر على عقيبه ؛ ليصل إلى الصف ، وظن أن رسول الله عليه السلام يريد أن يخرج إلى الصلاة ، فقال أنس : وهم المسلمون أن يفتشوا في صلاتهم ، فرحاً برسول الله عليه السلام ، فأشار إليهم بيده رسول الله عليه السلام أن أتموا صلاتكم ، ثم دخل الحجرة وأرخي الستار ^(١) .

ثم لم يأت على رسول الله عليه السلام وقت صلاة أخرى .

ولما ارتفع الضحى ، دعا النبي عليه السلام فاطمة فسارها بشيء فبكت . ثم دعاها ، فسارها بشيء فضحكت ، قالت عائشة ، فسألنا عن ذلك - أي فيما بعد - فقالت : سارني النبي عليه السلام أنه يقبض في وجنه الذي توفي فيه ، فبكت ، ثم سارني فأخبرني أن أول أهله يتبعه فضحكت ^(٢) .

وبشر النبي عليه السلام فاطمة بأنها سيدة نساء العالمين ^(٣) .

ورأت فاطمة ما برسول الله عليه السلام من الكرب الشديد الذي يتغشاه ، فقالت : واكب أباه . فقال لها : « ليس على أبيك كرب بعد اليوم » ^(٤) .

ودعا الحسن والحسين فقبلهما ، وأوصى بهما خيراً ، ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن .

وطفق الوجع يشتد ويزيد ، وقد ظهر أثر السم الذي أكله بخمير حتى كان يقول : « يا عائشة ، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخمير ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من

(١) نفس المصدر ، باب مرض النبي عليه السلام ٦٤٠/٢ .

(٢) صحيح البخاري ٦٢٨/٢ .

(٣) ويدل بعض الروايات أن هذا الحوار والبشارة لم يكن في آخر يوم من حياته بل في آخر أسبوع . رحمة للعالمين ٢٨٢/١ .

(٤) صحيح البخاري ٦٤١/٢ .

ذلك السم ^(١) .

أوصى الناس ، فقال : « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم » ، كرر ذلك مراراً ^(٢) .

الاحتضار:

وبدأ الاحتضار فأمسنده عائشة إليها ، وكانت تقول : إن من نعم الله على أن رسول الله عليه السلام توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري ، وأن الله جمع بين ريقه وريقه عند موته . دخل عبد الرحمن - بن أبي بكر - وبيده السواك ، وأنا مستندة رسول الله عليه السلام ، فرأيته ينظر إليه ، وعرفت أنه يحب السواك ، قلت : آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فتناولته ، فاشتد عليه ، وقلت : ألينه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فلنيته . فأمره - وفي رواية أنه استن بها كأحسن ما كان مستنأ - وبين يديه ركوة فيها ماء ، فجعل يدخل يديه في الماء فيسع بها وجهه ، يقول : « لا إله إلا الله ، إن للموت سكريات » - الحديث ^(٣) .

وما عدا أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو إصبعه ، وشخص بصره نحو السقف ، وتحركت شفتيه ، فأصغت إليه عائشة وهو يقول : « مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، اللهم اغفر لي وارحمني ، وألحقني بالرفيق الأعلى ، اللهم الرفيق الأعلى » ^(٤) .

كرر الكلمة الأخيرة ثلاثة ، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى . إنما الله وإنما إليه راجعون .

ووقع هذا الحادث حين اشتدت الضحى من يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ . وقد تم له عليه السلام ثلاثة ثلات وستون سنة وزادت أربعة أيام .

تفاقم الأحزان على الصحابة:

وتسرب النباء الفادح ، وأنظلمت على المدينة أرجاؤها وآفاقها . قال أنس : ما رأيت يوماً قط

(١) نفس المصدر ٦٣٧/٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) صحيح البخاري . باب مرض النبي عليه السلام ٦٤٠/٢ .

(٤) نفس المصدر والباب ، وباب آخر ما تكلم النبي عليه السلام ٦٤١ ، ٦٤٠ ، ٦٣٩ ، ٦٣٨/٢ .

كان أحسن ولا أضواً من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ ، وما رأيت يوماً كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ .^(١)

ولما ماتت فاطمة : يا أبناه أحباب ربنا دعاها . يا أبناه ، من جنة الفردوس مأواه .
يا أبناه ، إلى جبريل نعاه^(٢) .

موقف عمر:

وقف عمر بن الخطاب - وقد أخرجه الخبر عن وعيه - يقول : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى ، وإن رسول الله ﷺ ما مات ، لكن ذهب إلى ربه كاً ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات .
والله ليرجعن رسول الله ﷺ ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات^(٣) .

موقف أبي بكر:

وأقبل أبو بكر على فرس من مسكنه بالسنع حتى نزل ، فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس ، حتى دخل على عائشة فتيم رسول الله ﷺ ، وهو مغشى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ، ثم أكب عليه ، فقبله وبكى ، ثم قال : بأبي أنت وأمي ، لا يجمع الله عليك موتين ، أما الموتى التي كتبت عليك فقد متها .

ثم خرج أبو بكر وعمر يكلم الناس ، فقال : اجلس يا عمر . فأقبل الناس إليه ، وتركوا عمر ، فقال أبو بكر : أما بعد ، من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت . قال الله : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنَّ مَاتَ أُوْقِتَلَ أَنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَلِكُمْ وَمَنْ يَنْقِلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يُضْرِبَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣ : ١٤٤) قال ابن عباس : والله لكان

(١) رواه الدارمي . مشكاة المصايح ٥٤٧/٢ .

(٢) صحيح البخاري باب مرض النبي ﷺ ٦٤١/٢ .

(٣) ابن هشام ٦٥٥/٢ .

الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها .

قال ابن المسيب : قال عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبي بكر تلاها فغفرت حتى ما تقلني رجلاً ، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها ، علمت أن النبي ﷺ قد مات^(١) .

التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض :

ووقع الخلاف في أمر الخلافة قبل أن يقوموا بتجهيزه ﷺ ، فجرت مناقشات ومجادلات وحوار وردود بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة ، وأخيراً انفقوا على خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، ومضى في ذلك بقية يوم الإثنين حتى دخل الليل ، وشغل الناس عن جهاز رسول الله ﷺ ، حتى كان آخر الليل - ليلة الثلاثاء - مع الصبح ، وبقي جسده المبارك على فراشه ، مغشى بثوب حبرة ، قد أغلق دونه الباب أهله .

ويوم الثلاثاء غسلوا رسول الله ﷺ من غير أن يجردوه من ثيابه ، وكان القائمون بالغسل العباس وعلياً ، والفضل وقتم ابني العباس ، وشقران مولى رسول الله ﷺ ، وأسامي بن زيد ، وأوس بن خولي . فكان العباس والفضل وقتم يقلبونه ، وأسامي وشقران يصبان الماء ، وعلى يغسله ، وأوس أسنده إلى صدره .

ثم كفنهو في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرسف ، ليس فيها قميص ولا عمامه^(٢) .
أدرجوه فيها إدراجاً .

واختلفوا في موضع دفنه ، فقال أبو بكر : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض ، فرفع أبو طلحة فراشه الذي تُوفى عليه ، فحفر تحته ، وجعل القبر لحداً .
ودخل الناس الحجرة أرسلاً عشرة فعشرة ، يصلون على رسول الله ﷺ ولا يؤمّهم أحد ،
وصلى عليه أولًا أهل عشيرته ، ثم المهاجرون ، ثم الأنصار ، وصلت عليه النساء بعد الرجال ، ثم
صلى عليه الصبيان .

(١) صحيح البخاري ٦٤٠/٢ ، ٦٤١ .

(٢) متفق عليه ، صحيح البخاري ١٦٩/١ ، صحيح مسلم ٣٠٦/١ .

ومضى في ذلك يوم الثلاثاء كاملاً ، حتى دخلت ليلة الأربعاء ، قالت عائشة : ما علمنا بdeath of رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل من ليلة الأربعاء^(١) .

(١) محضر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٤٧١ ، وانظر لتفصيل حوقه بالرفيق الأعلى : صحيح البخاري ، باب مرض النبي ﷺ وعده أبواب بعده مع فتح الباري وصحيح مسلم ومشكاة المصايح باب وفاة النبي ﷺ وابن هشام ٦٤٩/٢ إلى ٦٦٥ وتلقيح فهو أهل الآخر من ٣٨ ص ٣٩ ورحمة للعالمين ٢٧٧/١ إلى ٢٨٦ وتبين عامة الأوقات من المصدر الأخير .

البيت النبوى

(١) كان البيت النبوى في مكة قبل الهجرة يتالف منه عليه الصلاة والسلام ، ومن زوجته خديجة بنت خويلد ، تزوجها وهو في خمس وعشرين من سنه ، وهي في الأربعين ، وهي أول من تزوجها من النساء ، ولم يتزوج عليها غيرها ، وكان له منها أبناء وبنات ، أما الأبناء ، فلم يعش منهم أحد ، وأما البنات فهن : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، فأما زينب فتزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع ، وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان رضي الله عنه الواحدة بعد الأخرى ، وأما فاطمة فتزوجها علي بن أبي طالب بين بدر وأحد ، ومنها كان الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم .

وعلمنا أن النبي ﷺ كان ممتازاً عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع زوجات لأغراض كثيرة ، فكان عدد من عقد عليهن ثلث عشرة امرأة ، منها تسعة مات عنهن ، واثنتان توفيتا في حياته ، إحداهما خديجة ، والأخرى أم المساكين زينب بنت خزيمة ، واثنتان لم يدخل بهما . وهماي أسماؤهن وشيء عنهن .

(٢) سودة بنت زمعة ، تزوجها رسول الله ﷺ في شوال سنة عشر من النبوة ، بعد وفاة خديجة بأيام ، وكانت قبله عند ابن عم لها يقال له السكران بن عمرو ، فماتت عنها .

(٣) عائشة بنت أبي بكر الصديق ، تزوجها في شوال سنة إحدى عشرة من النبوة ، بعد زواجه بسودة بسنة ، وقبل الهجرة بستين وخمسة أشهر ، تزوجها وهي بنت ست سنين ، وبني بها في شوال بعد الهجرة بسبعين شهر في المدينة ، وهي بنت تسعة سنين ، وكانت بكرأ ولم يتزوج بكرأ غيرها ، وكانت أحب الخلق إليه ، وأفقة نساء الأمة ، وأعلمهن على الإطلاق .

- (٤) حفصة بنت عمر بن الخطاب ، تأيمت من زوجها خنيس بن حذافة السهمي بين بدر وأحد ، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٣ هـ .
- (٥) زينب بنت خزيمة من بني هلال بن عامر بن صعصعة ، وكانت تسمى أم المساكين ، لرحمتها إياهم ورقتها عليهم ، كانت تحت عبد الله بن جحش ، فاستشهد في أحد ، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٤ هـ . ماتت بعد الزواج بشهرين أو ثلاثة أشهر .
- (٦) أم سلمة هند بنت أبي أمية ، كانت تحت أبي سلمة ، فماتت عنها في جمادى الآخرى سنة ٤ هـ ، فتزوجها رسول الله ﷺ في شوال من نفس السنة .
- (٧) زينب بنت جحش بن رباب من بني أسد بن خزيمة ، وهي بنت عممة رسول الله ﷺ ، وكانت تحت زيد بن حارثة - الذي كان يعتير ابناً للنبي ﷺ - فطلقتها زيد ، فأنزل الله تعالى يخاطب رسول الله ﷺ **(فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَازَ وَحْنَكَهَا)** ، وفيها نزلت من سورة الأحزاب آيات فصلت قضية النبي - وسنأتي على ذكرها - تزوجها رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة .
- (٨) جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق من خزاعة ، كانت في سبي بني المصطلق في سهم ثابت بن قيس بن شماس ، فكتابها ، فقضى رسول الله ﷺ كتابها ، وتزوجها في شعبان سنة ٦ هـ .
- (٩) أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ، كانت تحت عبيد الله بن جحش ، وهاجرت معه إلى الحبشة ، فارتدى عبيد الله وتنصر ، وتوفي هناك ، وثبتت أم حبيبة على دينها وهجرتها ، فلما بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بكتابه إلى النجاشي في المحرم سنة ٧ هـ . خطب عليه أم حبيبة فزوجها إياه وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة .
- (١٠) صفية بنت حبي بن أخطب من بني إسرائيل ، كانت من سبي خير ، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه ، فأعتقها وتزوجها بعد فتح خير سنة ٧ هـ .
- (١١) ميمونة بنت الحارث ، أخت أم الفضل لبابة بنت الحارث ، تزوجها في ذي القعدة سنة ٧ هـ ، في عمرة القضاء ، بعد أن حل منها على الصحيح .

فهو لاءً إحدى عشرة سيدة تزوج بمن الرسول ﷺ ، وبنى بمن وتوفيت منه اثنان خديجة وزينب أم المساكين - في حياته ، وتوفي هو عن التسع الباقي .

وأما اثنان اللتان لم يبن بهما ، فواحدة من بنى كلاب ، وأخرى من كندة ، وهي المعروفة بالجحونية ، وهناك خلافات لا حاجة إلى بسطها .

وأما السراري فالمعروف أنه تسرى باثنتين إحداهما مارية القبطية ، أهداها له المقوس ، فأولدها ابنه إبراهيم ، الذي توفي صغيراً بالمدينة في حياته ﷺ ، في ٢٨ / أو ٢٩ من شهر شوال سنة ١٠ هـ وفق ٢٧ يناير سنة ٦٣٢ م . والسرية الثانية هي ريحانة بنت زيد النضرية أو القرطية ، كانت من سبايا قريظة ، فاصطفاها لنفسه ، وقيل : بل هي من أزواجه ﷺ ، اعتقها قتروجها . والقول الأول رجمه ابن القيم . وزاد أبو عبيدة اثنتين آخرين ، جميلة أصحابها في بعض السبي ، وجارية وهبها له زينب بنت جحش^(١) .

ومن نظر إلى حياة الرسول ﷺ عرف جيداً أن زواجه بهذا العدد الكبير من النساء في أواخر عمره بعد أن قضى ما يقارب ثلاثين عاماً من ريعان شبابه وأجود أيامه مقتضراً على زوجة واحدة شبه عجوز - خديجة ثم سودة - عرف أن هذا الزواج لم يكن لأجل أنه وجد بفتنة في نفسه قوة عارمة من الشبق ، لا يصير معها إلا بمثل هذا العدد الكبير من النساء ؛ بل كانت هناك أغراض أخرى أجل وأعظم من الغرض الذي يتحققه عامة الزواج .

فاتجاه الرسول ﷺ إلى مصاورة أبي بكر وعمر بزواجه بعائشة وحفصة - وكذلك تزويجه ابنته فاطمة بعلي بن أبي طالب ، وتزويجه ابنته رقية ثم أم كلثوم بعثمان بن عفان - يشير إلى أنه يغوي من وراء ذلك توثيق الصلات بالرجال الأربع ، الذين عرف بلاءهم وفداءهم للإسلام في الأزمات التي مرت به ، وشاء الله أن يختارها بسلام .

وكان من تقالييد العرب الاحتراز للمصاورة ، فقد كان الصهر عندهم باباً من أبواب التقرب بين الطوائف المختلفة ، وكانوا يرون مناولة ومحاربة الأصحاب سبة وعاراً على أنفسهم ، فارد رسول الله ﷺ بزواج عدة من أمهات المؤمنين أن يكسر سورة عداء القبائل للإسلام ، وبطفيء حدة بغضائهما ، كانت أم سلمة من بنى مخزوم - حي أبي جهل وخالد بن الوليد - فلما تزوجها

(١) انظر زاد المعاد ٢٩ / ١ .

رسول الله ﷺ لم يقف خالد من المسلمين موقفه الشديد بأحد ، بل أسلم بعد مدة غير طويلة طائعاً راغباً ، وكذلك أبو سفيان لم يواجه رسول الله ﷺ بأي محاربة بعد زواجه بابنته أم حبيبة ، وكذلك لا نرى من قبيلتيبني المصطلق وبني النضير أي استفزاز وعداء بعد زواجه بجوبرية وصفية ؛ بل كانت جوبرية أعظم النساء بركرة على قومها ، فقد أطلق الصحابة أسر مائة بيت من قومها حين تزوجها رسول الله ﷺ ، وقالوا : أصحاب رسول الله ﷺ . ولا يخفى ما لهذا المن من الأثر البالغ في النفوس .

وأكير من كل ذلك وأعظم أن النبي ﷺ كان مأموراً بتزكية وتشريف قوم لم يكونوا يعرفون شيئاً من آداب الثقافة والحضارة والتقييد بلوازم المدنية ، والمساهمة في بناء المجتمع وتعزيزه . والمبادئ التي كانت أساساً لبناء المجتمع الإسلامي ، لم تكن تسمح للرجال أن يختلطوا بالنساء ، فلم يكن يمكن تشقيفهن مباشرة مع المراعاة لهذه المبادئ ، مع أن مسيس الحاجة إلى تشقيفهن لم يكن أهون وأقل من الرجال ، بل كان أشد وأقوى .

وإذن فلم يكن للنبي ﷺ سبيل إلا أن يختار من النساء المختلفة الأعمار والمواهب ما يكفي لهذا الغرض ، فيزكيهن ويربيهن ، ويعلمنهن الشرائع والأحكام ، ويشففهن بثقافة الإسلام حتى يدهنن ؛ لتربية البدويات والحضريات ، العجائز منهن والشابات ، فيكونن مؤنة التبليغ في النساء .

وقد كان لأمهات المؤمنين فضل كبير في نقل أحواله - ﷺ - المتزلية للناس ، خصوصاً من طالت حياتها منه كعائشة ، فإنها روت كثيراً من أفعاله وأقواله .

وهناك نكاح واحد كان لنقض تقليد جاهلي متصل ، وهي قاعدة التبني ، وكان للمتبني عند العرب في الجاهلية جميع الحرمات والحقوق التي كانت للابن الحقيقي سواء بسواء . وكانت قد تأسلت تلك القاعدة في القلوب ، بحيث لم يكن محوها منها ، لكن كانت تلك القاعدة تعارض معارضة شديدة للأسس والمبادئ التي قررها الإسلام في النكاح والطلاق والميراث وغير ذلك من المعاملات ، وكانت تلك القاعدة تحلى بكثيراً من المفاسد والفواحش التي جاء الإسلام ؛ ليحروها عن المجتمع .

ولعدم تلك القاعدة أمر الله تعالى رسول ﷺ أن ينكح ابنة عمته زينب بنت جحش ،

وكان تحت زيد ، ولم يكن بينهما توافق ، حتى هم زيد بطلاقها ، وذلك في ساعة تأب الأحزاب على رسول الله ﷺ وال المسلمين ، وكان رسول الله ﷺ يخاف دعاء المنافقين والمشركين واليهود ، وما يكون له من الأثر السيء في نفوس ضعفاء المسلمين ، فأحب أن لا يطلق زيد ؛ حتى لا يقع رسول الله ﷺ في هذا الامتحان .

ولا شك أن هذا التردد والانهيار كان لا يطابق مطابقة تامة للعزيمة التي بعث بها رسول الله ﷺ ، فعاتبه الله على ذلك وقال : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمْتَ لَهُ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَأَنْقَبَ اللَّهُ وَنَحْنُ فِي نَفْسِكَ مَا أَلَّهُ مُبِدِّيهِ وَنَخْشَى أَنَّا سَوْلَةَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَنَهُ ﴾ (٣٢ : ٣٢) .

وأخيراً طلقها زيد ، وتزوجها رسول الله ﷺ في أيام فرض الحصار على بني قريظة بعد أن انقضت عدتها . وكان الله قد أوجب عليه هذا النكاح ، ولم يترك له خياراً ولا مجالاً ، حتى تولى الله ذلك النكاح بنفسه يقول : ﴿ فَلَمَّا قَضَوْنَ زَيْدَ مِنْهَا وَطَرَأَ رَوْجَنَدُكَهَا إِلَيْكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَرْجَنِ أَدْعِيَاهُمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُ وَطَرَأَ ﴾ (٣٢ : ٣٢) وذلك ليهدم قاعدة النبي فعلاً كما هدمها قوله : ﴿ أَدْعُوهُمْ لِأَبَارِيهِمْ هُوَ قَسْطٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (٣٣ : ٥) . مَا كَانَ مُحَمَّداً أَبَا أَحَدِ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّنَ ﴾ (٣٣ : ٤٠) .

وكم من التقاليد المتأصلة الجازمة لا يمكن هدمها أو تعديلها بمجرد القول ، بل لا بد له من مقارنة فعل صاحب الدعوة ، ويتبين ذلك بما صدر من المسلمين في عمرة الحديبية ، كان هناك أولئك المسلمين الذين رأهم عروة بن مسعود الثقيفي ، لا يقع من النبي ﷺ خاتمة إلا في يد أحدهم ، ورأهم يتباردون إلى وضوئه حتى كادوا يقتلون عليه ، نعم كان أولئك الذين تسابقوا إلى البيعة على الموت أو على عدم الفرار تحت الشجرة ، والذين كانوا فيهم مثل أبو بكر وعمر ، لما أمر النبي ﷺ أولئك الصحابة المتقانين في ذاته – بعد عقد الصلح – أن يقوموا فيتحرروا هديهم لم يقم لامثال أمره أحد ، حتى أخذه القلق والاضطراب ، ولكن لما وأشارت عليه أم سلمة أن يقوم إلى هديه فيتحرر ، ولا يكلم أحداً ففعل ، تبادر الصحابة إلى اتباعه في فعله ، فتسابقوا إلى نحر جزورهم . وبهذا الحادث يتضح جلياً ما هو الفرق بين أثري القول والفعل هدم قاعدة راسخة .

وقد أثار المنافقون وساوس كثيرة ، وقاموا بدعايات كاذبة واسعة حول هذا النكاح ، أثر بعضها في ضعفاء المسلمين ، لا سيما أن زينب كانت خامسة أزواجاً ﷺ ، ولم يكن يعرف

المسلمين حل الزواج بأكثـر من أربع نسـوة ، وأن زـيداً كان يـعتبر ابـناً للنبي ﷺ ، والزـواج بـزوجـة الـابـن كان من أـغلـظ الفـواحـش ، وقد أـنـزل الله في سـورـة الأـحزـاب حـول المـوضـوعـين ما شـفـى وـكـفـى ، وـعـلـم الصـحـابة أـنـ التـبـني لـيـس لـه أـثـرـه في الإـسـلام ، وأنـ الله تـعـالـى وـسـع لـرـسـوـلـه ﷺ في الزـواـج ما لم يـوـسـع لـغـيرـه ، لأـغـراضـه النـبـيلـة المـتـازـة .

هـذـا ، وـكـانـت عـشـرـتـه ﷺ مـع أـمـهـات الـمـؤـمـنـين في غـايـة الشـرـف والنـبـل والنـسـمـو والنـحـسـ ، كـانـ في أـعـلـى درـجـة من الشـرـف والنـقـاعـة والنـصـر والنـواـضـع والنـخـدـمـة والنـقـاصـ بـحقـوقـ الزـواـج ، معـ أنهـ كانـ في شـظـفـ منـ العـيـش لا يـطـيقـه أحدـ . قالـ أـنسـ : ما أـعـلـمـ النـبـي ﷺ رـأـيـ رـغـيفـاً مـرـقـقاً حـتـى لـحـقـ بالـلـه ، ولا رـأـيـ شـاة سـمـيطـاً بـعـيـنه قـطـ^(١) . وـقـالـتـ عـائـشـةـ : إـنـ كـانـ لـنـتـظـرـ إـلـى الـهـلـالـ ثـلـاثـةـ أـهـلـةـ فيـ شـهـرـيـنـ ، وـمـا أـوـقـدـتـ فـيـ أـيـاتـ رـسـوـلـه ﷺ نـارـ . فـقـالـ هـاـ عـرـوـةـ : مـاـ كـانـ يـعـيـشـكـمـ ؟ قـالـتـ : الـأـسـودـانـ ؛ الـقـرـ وـالـمـاءـ^(٢) . وـالـأـخـبـارـ بـهـذـا الصـدـدـ كـثـيرـةـ .

وـمعـ هـذـا الشـظـفـ والنـضـيقـ لـمـ يـصـدـرـ مـنـهـ مـاـ يـوـجـبـ العـتـابـ إـلـاـ مـرـةـ وـاحـدةـ – حـسـبـ مـقـتضـيـ الـبـشـرـيـةـ ، وـلـيـكـونـ سـبـبـاً لـتـشـرـيـعـ الـأـحـكـامـ – فـأـنـزلـ اللـهـ آـيـةـ التـخـيـرـ ﴿يَأَيُّهَا النِّسَاءُ قُلْ لَا زُوْجَكَ إِنْ كُنْتَ تُرِدِّنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِيَّنَتْهَا فَنَعَالِمْ إِنْ أَمْتَعَكُنَّ وَأَسْرِحُكُنَّ سَرَّاً حَمِيلًا﴾ وَلِنْ كُنْتَ تُرِدِّنَ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ وـالـدـارـ الـآـخـرـةـ فـإـنـ اللـهـ أـعـدـ لـمـحـسـنـتـ مـنـكـنـ أـجـراً عـظـيـمـاً﴾ (٣٣ : ٢٨ ، ٢٩) وـكـانـ مـنـ شـرـفـهـنـ وـنـبـلـهـنـ أـثـرـنـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ ، وـلـمـ تـمـلـ وـاحـدةـ مـنـهـنـ إـلـىـ اـخـيـارـ الـدـنـيـاـ .

وـكـذـلـكـ لـمـ يـقـعـ مـنـهـنـ مـاـ يـقـعـ بـيـنـ الـضـرـائـرـ مـعـ كـثـرـتـهـ إـلـاـ شـيءـ يـسـيرـ مـنـ بـعـضـهـ حـسـبـ اـقـضـاءـ الـبـشـرـيـةـ ، ثـمـ عـاتـبـ اللـهـ عـلـيـهـ فـلـمـ يـعـدـنـ لـهـ مـرـةـ أـخـرىـ ، وـهـوـ الـذـي ذـكـرـهـ اللـهـ فيـ سـورـةـ التـحـريمـ بـقـولـهـ ﴿يَأَيُّهَا النِّسَاءُ لَا تـحـرـمـ مـاـ أـحـلـ اللـهـ لـكـ﴾ إـلـىـ تـمـ الـآـيـةـ الـخـامـسـةـ .

وـأـخـيـراًـ أـرـىـ أـنـهـ لـاـ حـاجـةـ إـلـىـ الـبـحـثـ فيـ مـوـضـعـ مـبـداًـ تـعـدـ الزـوـجـاتـ ، فـمـنـ نـظـرـ فيـ حـيـاةـ سـكـانـ أـورـيـاـ الـذـيـنـ يـصـدـرـ مـنـهـنـ النـكـيرـ الشـدـيدـ عـلـىـ هـذـاـ الـمـبـداـ ، وـنـظـرـ إـلـىـ مـاـ يـقـاسـونـ مـنـ الشـقاـوةـ وـالـمـرـأـةـ ، وـمـاـ يـأـتـونـ مـنـ الـفـضـائـعـ وـالـجـرـائمـ الشـنـيعـةـ ، وـمـاـ يـوـاجـهـوـنـ مـنـ الـبـلاـيـاـ وـالـقـلـاقـلـ لـاـخـرـافـهـمـ عـنـ هـذـاـ الـمـبـداـ كـفـىـ لـهـ ذـلـكـ عـنـ الـبـحـثـ وـالـسـتـدـلـالـ ، فـحـيـاتـهـمـ أـصـدـقـ شـاهـدـ عـلـىـ عـدـالـةـ هـذـاـ الـمـبـداـ ، وـإـنـ فـيـ ذـلـكـ لـعـبـرـةـ لـأـوـلـيـ الـأـبـصـارـ .

(١) صحيح البخاري ٩٥٦/٢ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

الصفات والأخلاق

كان النبي ﷺ يمتاز من كمال خلقه وكامل خلقه بما لا يحيط بوصفه البيان ، وكان من أثره أن القلوب فاضت بإجلاله ، والرجال تفانوا في حياته وإكباره ، بما لا تعرف الدنيا لرجل غيره ، فالذين عاشروه أحبوه إلى حد الهياج ، ولم يبالوا أن تندق أنفاسهم ولا يخداش له ظفر ، وما أحبوه كذلك إلا لأن أنصبه من الكمال الذي يعيش عادة لم يرزق بمثلها بشر – وفيما يلي نورد ملخص الروايات في بيان جماله وكماله مع اعتراف العجز عن الإحاطة .

جمال الخلق:

قالت أم عبد الخزاعية عن رسول الله ﷺ – وهي تصفه لزوجها ، حين مر بخيتها مهاجرًا : ظاهر الوضاءة ، أبلع الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثُجْلة ، ولم تزر به صعلة ، وسمّي ، في عينيه دَعْج ، وفي أشفاره وطف ، وفي صوته صحل ، وفي عنقه سطع ، أحور ، أكحل ، أزج ، أقرن ، شديد سواد الشعر ، إذا صمت علاه الوقار ، وإن تكلم علاه الباء ، أجمل الناس وأباهام من بعيد ، وأحسنه وأحلاه من قريب ، حلول المنطق ، فضل ، لا نزد ، ولا هذر ، كان منطقه خرزات نظمٍ يتهدرون ، ربعة ، لا تفحمه عين من قصر ولا تستؤه من طول ، غصن بين غصنين ، فهو أنظر الثالثة منظراً ، وأحسنهم قدرأ ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود ، محسود ، لا عابس ولا مفندا^(١) .

وقال علي بن أبي طالب – وهو ينعت رسول الله ﷺ : لم يكن بالطويل المُعْطَ ، ولا القصير المتردد ، وكان رَبْعَة من القوم ، ولم يكن بالجَعْدِ القَطْطِ ، ولا بالسَّيْطِ ، وكان جَعْدَا

(١) زاد المعد ٤/٥ . الثُّجْلة : ضخامة البدن . الصعلة : صغر الرأس . وسمّي قسيم : حسن جيل . الدعج : سواد العين . وفي أشفاره وطف : في شعر أ jelفاته طول . صحل : بحة وخشونة . سطع : طول . أزج : الحاجب الرقيق في الطول . لا نزد ولا هذر : أي وسط لا قليل ولا كثير . محفود : الذي يخدمه أصحابه =

رِجْلًا ، ولم يكن بالمُطَهَّمِ ولا بالمُكَلَّمِ ، وكان في الوجه تَذَوِيرٌ ، وكان أَيْضًا مُشَرِّبًا ، أَذْعَجَ العينين ، أَهْدَبَ الأَشْفَارَ ، جَلِيلَ الْمُشَاشِ وَالْكَتَنِ ، دقيقَ المُسْرِبةِ ، أَجْرَدَ ، شَنَّ الْكَفَنِ ، وَالْقَدَمِينِ ، إِذَا مَشَى تَقْلُعَ كَثْنَا يَمْشِي فِي صَبَبٍ ، وَإِذَا التَّفَتَ التَّفَتَ مَعًا ، بَيْنَ كَتْفَيْهِ خَاتَمَ النَّبَوَةِ ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيَّنَ ، أَجْوَدُ النَّاسِ كَفًا ، وَأَجْرَأَ النَّاسَ صَدَرًا ، وَأَصْدَقَ النَّاسَ لَهْجَةً ، وَأَوْفَ النَّاسَ ذَمَّةً ، وَأَلَيْهِمْ عَرِيَّةً ، وَأَكْرَمَهُمْ عَشْرَةً ، مِنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ ، وَمِنْ خَالِطِهِ مَعْرِفَةً أَحَبَهُ ، يَقُولُ نَاعِتَهُ : لَمْ أَرْ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مُثْلَهُ ، عَلَيْهِ^(١).

وَفِي رَوَايَةِ عَنْهُ : أَنَّهُ كَانَ ضَخْمَ الرَّأْسِ ، ضَخْمَ الْكَرَادِيسِ ، طَوْيلَ الْمُسْرِبَةِ ، إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ تَكَفِيَا كَثْنَا يَنْحُطُ مِنْ صَبَبٍ^(٢).

وَقَالَ جَابِرُ بْنُ سَمْرَةَ : كَانَ ضَلِيعَ الْفَمِ ، أَشْكَلَ الْعَيْنَ ، مَنْهُوسُ الْعَقَبَيْنِ^(٣).

وَقَالَ أَبُو الطَّفْلِيْلَ : كَانَ أَيْضًا ، مَلِيمُ الْوَجْهِ ، مَقْصِدًا^(٤).

وَقَالَ أَنْسُ بْنُ مَالِكَ : كَانَ بَسْطَ الْكَفَنِ . وَقَالَ : كَانَ أَزْهَرُ الْلَّوْنِ ، لَيْسَ بِأَيْضَ أَمْهَقَ ، وَلَا آدَمَ ، قَبْضَ وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلَيْتَهُ عَشْرَوْنَ شَعْرَةَ بَيْضَاءَ^(٥).

= وَيَعْظُمُونَهُ وَيَسْرُعُونَ فِي طَاعَتِهِ . الْخَشُودُ : الَّذِي يَجْمِعُ إِلَيْهِ النَّاسَ . وَلَا مَفْنَدًا : لَا يَفْنِدُ أَحَدًا أَيْ يَهْجِهِ وَيَسْتَقْلُ عَقْلَهُ بِلِ جَمِيلَ الْمَعَاشِ حَسَنَ الصَّحْبَةِ ، صَاحِبَ كَرِيمِ عَلِيهِ .

(١) ابن هشام ١/٤٠١ ، ٤٠٢ ، وجامع الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى ٤/٣٠ ، والمُعَظَّطُ : المتأهلى في الطول . الْمَحْمَدُ : ملتوى ومتقبضُ الشَّعْرِ . الْقَطْطُ : شديدُ الْمَحْمَدَةِ . السَّبْطُ : المسترسل . الْمُطَهَّمُ : متتفَخَّ الْوَجْهُ وَقَبْلَ الْفَاحِشِ السَّمْنِ ، وَقَبْلَ التَّحِيفِ الْجَسْمِ . الْمُكَلَّمُ : هُوَ اجْتَنَاعُ لَحْمِ الْوَجْهِ بِلَا جَهْوَمَةً . أَهْدَبُ الْأَشْفَارَ : طَوْيلُ شَعْرِ الْأَجْفَانِ . جَلِيلُ الْمُشَاشِ : أَيْ عَظِيمُ رُؤُوسِ الْعَظَامِ كَالْمَرْقَبَيْنِ وَالْكَتَنَيْنِ وَالرَّكْبَيْنِ . الْكَتَنُ : مجتمعُ الْكَفَنَيْنِ وَهُوَ الْكَاهِلُ . أَجْرَدُ : هُوَ الَّذِي لَيْسَ عَلَيْهِ شَعْرٌ . الْمُسْرِبَةُ : الشَّعْرُ الدَّقِيقُ الَّذِي هُوَ كَائِنٌ قَضَبٌ مِنَ الْعَصْدَرِ إِلَى السَّرَّةِ . الْشَّفَنُ : الغَلِيلُ الْأَصْبَاعِ مِنَ الْكَفَنَيْنِ وَالْقَدَمِينِ . الْبَدِيهَةُ : الْمَفَاجَأَةُ .

(٢) نفسُ الْمُصْدَرِ الْأَخْيَرِ . الْكَرَادِيسُ : رُؤُوسُ الْعَظَامِ وَقَبْلَهُ هِيَ مُلْتَقَى كُلِّ عَظِيمَيْنِ ضَخْمَيْنِ كَالْرَكْبَيْنِ وَالْمَرْقَبَيْنِ وَالْكَنْكَبَيْنِ أَرَادَ أَنَّهُ ضَخْمَ الْأَعْضَاءِ .

(٣) صَحِيحُ مُسْلِمٍ ٢٥٨/٢ ضَلِيعُ الْفَمِ : عَظِيمُ الْفَمِ . أَشْكَلُ الْعَيْنِ : طَوْيلُ شَقِّ الْعَيْنِ . مَنْهُوسُ الْعَقَبَةِ : قَلِيلُ الْلَّحْمِ .

(٤) نفسُ الْمُصْدَرِ . مَقْصِدًا : هُوَ الَّذِي لَيْسَ بِجَسِيمٍ وَلَا غَيْفٍ وَلَا طَوْيلٍ وَلَا قَصِيرٍ ..

(٥) صَحِيحُ الْبَخَارِيِّ ١/٥٠٢ . أَزْهَرُ الْلَّوْنِ : أَيْضًا مُشَرِّبٌ بِحَمْرَةِ . الْأَيْضَ أَمْهَقُ : شَدِيدُ الْبَيَاضِ كَلُونِ الْجَحْصِ . الْآدَمُ : الْأَسْرَرُ وَالْمَعْنَى : لَيْسَ بِأَيْسَرٍ وَلَا بِأَيْضَنِ كَرِيمِ الْبَيَاضِ بِلِ أَيْضًا بِيَاضًا نَيْرًا مُشَرِّبًا .

وقال : إنما كان شيء – أي من الشيب – في صدغيه . وفي رواية : وفي الرأس ^{أيضاً}^(١) .

وقال أبو جحيفة : رأيت بياضاً تحت شفته السفلی : العنفة^(٢) .

وقال عبد الله بن بسر : كان في عنفته شعرات بيض^(٣) .

وقال البراء : كان مربوعاً بعيد ما بين المنكبين ، له شعر يبلغ شحمة أذنيه ، رأيته في حالة حمراء ، لم أر شيئاً قط أحسن منه^(٤) .

وكان يسدل شعره أولاً لحبه موافقة أهل الكتاب ، ثم فرق رأسه بعد^(٥) .

قال البراء : كان أحسن الناس وجهها ، وأحسنهم خلقاً^(٦) .

وسئل : أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف ؟ قال : لا ، بل مثل القمر . وفي رواية : كان وجهه مستديراً^(٧) .

وقالت الريبع بنت معوذ : لو رأيته رأيت الشمس طالعة^(٨) .

وقال جابر بن سمرة : رأيته في ليلة إضعihan ، فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ وإلى القمر – عليه حلة حمراء – فإذا هو أحسن عندي من القمر^(٩) .

وقال أبو هريرة : ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ ، لأن الشمس تجري في وجهه ، وما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ ، كأنما الأرض تطوى له ، وإنما

(١) نفس المصدر ، وصحیح مسلم ٢٥٩/٢ . والبند : بضم النون وفتح الباء أو بفتح النون وتسكين الباء ومعناها : شعرات متفرقة .

(٢) صحيح البخاري ١/٥٠١ ، ٥٠٢ .

(٣) نفس المصدر ١/٥٠٢ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) صحيح البخاري ١/٥٠٣ .

(٦) نفس المصدر ١/٥٠٢ ، وصحیح مسلم ٢٥٨/٢ .

(٧) صحيح البخاري ١/٥٠٢ ، وصحیح مسلم ٢٥٩/٢ .

(٨) رواه الدارمي مشكاة المصابيح ٢/٥١٧ .

(٩) رواه الترمذی في الشمائل ص ٢ ، والدارمي ... مشكاة المصابيح ٢/٥١٨ .

لنجهد أنفسنا ، وإنه لغير مكترث^(١) .

وقال كعب بن مالك : كان إذا سر استثار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر^(٢) .
وعرق مرة وهو عند عائشة ، فجعلت تبرق أسارير وجهه ، فتمثلت له بقول أبي كبير
المذلي :

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برق كيرق العارض المتهلل^(٣)
وكان أبو بكر إذا رأه يقول :

أمين مصطفى بالخير يدعو كضوء البدر زايلاه الظلام^(٤)
وكان عمر ينشد قول زهير في هرم بن سنان :

نوكنت من شيء سوى البشر كنت المضيء ليلة البدر
ثم يقول كذلك كان رسول الله ﷺ^(٥) .

وكان إذا غضب أحمر وجهه ، حتى كأنما فقىء في وجنته حب الرمان^(٦) .

وقال جابر بن سمرة : كان في ساقيه حُمُوشة ، وكان لا يضحك إلا تبسماً ، وكنت إذا
نظرت إليه قلت : أكحل العينين ، وليس بأكحل^(٧) .

قال ابن العباس : كان أفلج الثندين ، إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من بين ثناياه^(٨) .
وأما عنقه فكانه جيد دمية في صفاء الفضة ، وكان في أشفاره غطف ، وفي لحيته كفافة ،
وكان واسع الجبين ، أزوج الحواجب في غير قرن بينهما ، أتفى العزرين ، سهل الخدين ، من لبته إلى

(١) جامع الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى ٤/٣٠٦ ، مشكاة المصايب ٢/٥١٨ .

(٢) صحيح البخارى ١/٥٠٢ .

(٣) رحمة للعلميين ٢/١٧٢ .

(٤ ، ٥) خلاصة السير ص ٢٠ .

(٦) مشكاة المصايب ١/٢٢ ، ورواوه الترمذى في أبواب القدر : باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر ٢/٣٥ .

(٧) جامع الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى ٤/٣٠٦ . والحموشة : أي دقة ولطافة متناسبة لسائر أعضائه .

(٨) رواه الدارمى ... مشكاة المصايب ٢/٥١٨ . والأفلج : الذي بين أسنانه تباعد . والثايا : أسنان مقدمة الفم .

سرته يجري كالقضيب ، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره ، أشعر الذراعين والمنكبين ، سواء البطن والصدر ، مسيح الصدر عريضه ، طويل الزند ، رحب الراحة ، سبط القصب ، خُمْصان الأَخْمَصَيْن ، سائل الأطراف ، إذا زال زال قلعاً ، يخطو تكتيناً ويعيش هوناً^(١) .

وقال أنس : ما مسست جريراً ولا ديباجاً ألين من كف النبي ﷺ ، ولا شمت ريحأً فقط أو عرفأً فقط ، وفي رواية : ما شمت عنبراً فقط ولا مسكاً ولا شيئاً ، أطيب من ريح أو عرف رسول الله ﷺ^(٢) .

وقال أبو جحيفة : أخذت بيده ، فوضعتها على وجهي ، فإذا هي أبود من الثلج ، وأطيب رائحة من المسك^(٣) .

وقال جابر بن سمرة – وكان صبياً – : مسح خدي فوجدت بيده بردأً أو ريحأً كأنما أخرجها من حونة عطار^(٤) .

وقال أنس : كان عرقه اللؤؤ . وقالت أم سليم : هو من أطيب الطيب^(٥) .

وقال جابر : لم يسلك طريقةً فيتبعه أحد إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عرقه ، أو قال : من ريح عرقه^(٦) .

وكان بين كفيفه خاتم النبوة مثل بيضة الحمام ، يشبه جسده ، وكان عند ناغض كفه اليسرى ، جمعاً عليه خيلان كأمثال التاليل^(٧) .

(١) خلاصة السير ص ١٩ ، ٢٠ . الحيد : العنق . الدمية : الصورة المصورة . الألقى : الذي ارتفع أعلى أنفه واحد دوب وسطه وضاق منخراه . والعرينين : الأنف وما صلب منه . سبط القصب : المتد الذي ليس فيه تقد ولامتوء ، والقصب يربد بها ساعديه وساقيه . الأَخْمَصُ من القدم : الموضع الذي لا يلتصق بالأرض منها عند الوطء ، والخمصان : المبالغ منه أي أن ذلك الموضع من أسفل قدميه شديد التجافي عن الأرض .

(٢) صحيح البخاري ١/٥٠٣ ، صحيح مسلم ٢/٢٥٧ .

(٣) صحيح البخاري ١/٥٠٢ .

(٤) صحيح مسلم ٢/٢٥٦ . جونة عطار : التي يدع فيها الطيب وينحرز .

(٥) نفس المصدر .

(٦) رواه الدارمي ... مشكاة المصابيح ٢/٥١٧ .

(٧) صحيح مسلم ٢/٢٥٩ ، ٢٦٠ . التاليل : هو هذه الحبة التي تظهر في الجلد كالحمسة فما دونها .

كمال النفس ومكارم الأخلاق:

كان النبي ﷺ يمتاز بفصاحة اللسان ، وبلاعنة القول ، وكان من ذلك بالفعل الأفضل ، والموضع الذي لا يجهل ، سلاسة طبع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أöttى جوامع الكلم ، وخص بيدائع الحكم ، وعلم ألسنة العرب ، يخاطب كل قبيلة بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، اجتمعت له قوة عارضة الbadية وجزالتها ، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها ، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي .

وكان الحلم والاحتمال ، والعفو عند المقدرة ، والصبر على المكاره ، صفات أدبه الله بها ، وكل حليم قد عرفت منه زلة ، وحفظت عنه هفوة ، ولكنها ﷺ لم يزد مع كثرة الأذى إلا صبراً ، وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً ، قالت عائشة : ما خير رسول الله ﷺ بين أمرین إلا اختار أيسرهم ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه ، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهي حرمة الله فينتقم الله بها^(١) ، وكان أبعد الناس غضباً ، وأسرعهم رضاً .

وكان من صفة الجود والكرم على ما لا يقادر قدره ، كان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر ، قال ابن عباس : كان النبي ﷺ أجود الناس ، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة^(٢) . وقال جابر : ما سئل شيئاً قط فقال : لا^(٣) .

وكان من الشجاعة والنجدة والبأس بالمكان الذي لا يجهل ، كان أشجع الناس ، حضر المواقف الصعبة ، وفر عنـه الكـمة والأـبطـال غـير مـرة ، وهو ثـابت لا يـرحـ ، وـمـقـيل لا يـدـبرـ ، ولا يـتـزـحـ ، وـمـا شـجـاعـ إـلا وـقـدـ أحـصـيـتـ لـهـ فـرـةـ ، وـحـفـظـتـ عـنـهـ جـوـلـةـ سـواـهـ ، قـالـ عـلـيـ : كـنـاـ إـذـاـ حـمـيـ الـبـأـسـ وـاحـمـرـتـ الـحـدـقـ اـنـقـيـنـاـ بـرـسـوـلـ اللهـ ﷺـ ، فـمـاـ يـكـونـ أـحـدـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـعـدـوـ مـنـهـ^(٤) .

قال أنس : فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله ﷺ

(١) صحيح البخاري ٥٠٣/١ .

(٢) نفس المصدر ٥٠٢/١ .

(٣) نفس المصدر ٥٠٢/١ .

(٤) انظر الشفاء للقاضي عياض ٨٩/١ ومثل ذلك روى أصحاب الصحيح والستن .

راجعاً ، وقد سبّهم إلى الصوت ، وهو على فرس لأبي طلحة عري ، في عنقه السيف ، وهو يقول : لم تراعوا ، لم تراعوا^(١) .

وكان أشد الناس حياء واغضاء ، قال أبو سعيد الخدري : كان أشد حياء من العذراء في خدرها ، وإذا كره شيئاً عرف في وجهه^(٢) ، وكان لا يثبت نظره في وجه أحد ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، لا يشافه أحداً بما يكره حياء وكرم نفس ، وكان لا يسمى رجلاً بلغ عنه شيء يكرهه ، بل يقول : ما بال أقوام يصنعون كذا . وكان أحق الناس بقول الفرزدق :

بغضي حياء وبغضي من مهابته فلا يكلم إلا حين يتسم

وكان أعدل الناس ، وأعفّهم ، وأصدقهم لهجة ، وأعظمهم أمانة ، اعترف له بذلك محاوروه وأعداؤه ، وكان يسمى قبل نبوته الأمين ، ويتحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام ، روى الترمذى عن علي أن أبا جهل قال له : إنا لا نكذبك ، ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَا كَنَّ الظَّالِمِينَ يَعِيشُونَ اللَّهُ يَعْلَمُ حَدُودَ﴾^(٣) . (٦ : ٣٣) وسأل هرقل أبا سفيان ، هل تهمنه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا .

وكان أشد الناس تواضعاً ، وأبعدهم عن الكفر ، يمنع عن القيام له كما يقumen للملوك ، وكان يعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس في أصحابه كأحدهم ، قالت عائشة : كان يخصف نعله ، ويخيط ثوبه ، ويعمل بيده كما يعمل أحدكم في بيته ، وكان بشراً من البشر يفلت ثوبه ، ويخلب شاته ، ويخدم نفسه^(٤) .

وكان أوف الناس بالعقود ، وأوصلهم للرحم ، وأعظم شفقة ورأفة ورحمة بالناس ، أحسن الناس عشرة وأدباً ، وأبسط الناس خلقاً ، أبعد الناس من سوء الأخلاق ، لم يكن فاحشاً ، ولا متفحشاً ، ولا لعاناً ، ولا صخاباً في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يغفو ويصفح ، وكان لا يدع أحداً يمشي خلفه ، وكان لا يتزلف على عبيده وإمائه في مأكل

(١) صحيح مسلم /٢٥٢ ، وصحيحي البخاري /٤٠٧ .

(٢) صحيح البخاري /١٥٠٤ .

(٣) مشكاة المصايب /٢٥٢١ .

(٤) نفس المصدر /٢٥٢٠ .

ولا ملبس ، ويندم من خدمه ، ولم يقل خادمه أَفْ قَطُّ ، ولم يعاتبه على فعل شيء أو تركه ، وكان يحب المساكين ويجالسهم ، ويشهد جنائزهم ، ولا يحقر فقيراً لفقره . كان في بعض أسفاره فأمر بإصلاح شاة ، فقال رجل : عَلٰى ذبحها وقال آخر : عَلٰى سلخها ، وقال آخر : على طبخها ، فقال عَلٰى : وعلى جمع الحطب ، قالوا : نحن نكفيك . فقال : قد علمت أنكم تكفووني ، ولكنني أكره أن أتميز عليكم ، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه ، وقام بجمع الحطب^(١) .

ولترك هند بن أبي هالة يصف لنا رسول الله ﷺ : قال هند فيها قال : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه – لا بأطراف فمه – ويتكلم بجواب الكلم ، فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير ، دمتاً ليس بالحادي ولا بالمهين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم شيئاً ، ولم يكن يذم ذوقاً – ما يطعم – ولا يمدحه ، ولا يقام لغصبه إذا تعرض للحق بشيء حتى يتصر له ، لا يغضب لنفسه ولا يتصر لها – سماحة – وإذا أشار وأشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، جل ضحكته التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام .

وكان يخزن لسانه إلا عما يعنيه ، يؤلف أصحابه ولا يفرقهم ، يكرم كريم كل قوم ، ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ، ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره .

يتقد أ أصحابه ، ويسأّل الناس عما في الناس ، ويعسن الحسن ويصوبه ، ويقع القبيح ويوجهه ، معتدل الأمر ، غير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر على الحق ، ولا يتجاوزه إلى غيره .. الذين يلوونه من الناس خيارهم ، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة .

كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ، ولا يوطن الأماكن – لا يميز لنفسه مكاناً – إذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك ، ويعطي كل جلساته نصيحة ؛ حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو قاومه حاجته صابرها حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بيسور من القول ، وقد وسع الناس بسطه

(١) خلاصة السير ص ٢٢ .

وخلقه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق متقاربين ، يتفاصلون عنده بالقوى ، مجلسه مجلس حلم وحياة وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن فيه الحرم – لا تخشى فلتاته – يتعاطفون بالقوى ، يوقرون الكبير ، ويرحمون الصغير ، ويرفدون ذا الحاجة ، ويؤمنون الغريب .

كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا فحاش ، ولا عتاب ، ولا مداح ، يتغافل عملاً يشتري ، ولا يقتنط منه ، قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثار ، وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث : لا يذم أحداً ، ولا يعبره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، إذا تكلم أطرق جلساً ، كأنما على رؤوسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم حديث أو لهم ، يضحك مما يضحكون منه ، ويعجب مما يعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق ، ويقول : إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فارفوه ، ولا يطلب الشاء إلا من مكافئ^(١) .

وقال خارجة بن زيد : كان النبي ﷺ أقر الناس في مجلسه ، لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه ، وكان كثير السكوت ، لا يتكلم في غير حاجة ، يعرض عن تكلم من غير جيل ، كان ضحكه تبسم ، وكلامه فصلاً ، لا فضول ولا تقدير ، وكان ضحكت أصحابه عنده التبسم ، توقيراً له واقتداء به^(٢) .

وعلى الجملة فقد كان النبي ﷺ محلي بصفات الكمال المنقطعة النظر ، أدبه رباه فأحسن تأدبه ، حتى خاطبه شيئاً عليه فقال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٦٨ : ٤) وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس ، وحبه إلى القلوب ، وصبره قائداً تهوي إليه الأقداء ، وألان من شكيمة قومه بعد الإباء ، حتى دخلوا في دين الله أنواراً .

وهذه الخلال التي أتينا على ذكرها خطوط قصار من مظاهر كماله وعظيم صفاته ، أما حقيقة ما كان عليه من الأمجاد والسمائل فأمر لا يدرك كنهه ، ولا يسر غوره ، ومن يستطيع معرفة كنه أعظم بشر في الوجود بلغ أعلى قمة من الكمال ، استضاء بنور ربها ، حتى صار خلقه القرآن ؟

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١٢١ / ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، وانظر أيضاً شامل الترمذى .

(٢) نفس المصدر ١٠٧ / ١ .

اللهم صلّى على محمد وعلى آل محمد ، كا صلیت على إبراهیم وعلی آل إبراهیم ، إنك حميد .
مجید .

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كا بارکت على إبراهیم وعلی آل إبراهیم ، إنك حميد .
مجید .

صفی الرحمن المبارکفوری

الجامعة السلفية
بنارس الهند
٦ / ١١ / ١٣٩٦ هـ
٦ / ١١ / ١٩٧٦ م

ثبت المراجع

- ١ - إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام
شہاب الدین احمد بن محمد الأسدی المکی (م ١٠٦٦ھ) المطبعة السلفية
بنارس الهند ١٣٩٦ھ/١٩٧٦ .
- ٢ - الأدب المفرد
محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦ھ) طبع استانبول ٤١٣٠ھ .
- ٣ - الأعلام
خیر الدین الزركلی . الطبعة الثانية القاهرة ١٩٤٥ م .
- ٤ - البداية والنهاية
إسماعیل بن کثیر الدمشقی مطبعة السعادۃ مصر ١٩٣٢ م .
- ٥ - بلوغ المرام من أدلة الأحكام
أحمد بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢ھ) المطبع القومي کانفور الهند
١٣٢٣ھ .
- ٦ - تاريخ أرض القرآن
السيد سليمان الندوی (١٣٧٣ھ) معارف بريس أعظم کدھ - الهند ١٩٥٥ م
(الطبعة الرابعة) .
- ٧ - تاريخ إسلام
شاه أكبر خان نجیب آبادی مکتبة رحمت دیوبند یونی الهند .
- ٨ - تاريخ الأمم والملوك
ابن جریر الطبری المطبعة الحسينية المصرية .

- ٩ - تاريخ عمر بن الخطاب
أبو الفرج عبد الرحمن بن الحوزي مطبعة التوفيق الأدبية بمصر .
- ١٠ - تحفة الأحوذى
أبو العلى عبد الرحمن المباركفورى (م ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٥ م) جيد برقى بريس دهلي الهند ١٣٤٦ - ١٣٥٣ هـ .
- ١١ - تفسير ابن كثير
إسماعيل بن كثير الدمشقى دار الأندلس بيروت .
- ١٢ - تفهم القرآن
الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي مركزى مكتبة جامع إسلامى الهند .
- ١٣ - تلقيح فهوم أهل الآخر
أبو الفرج عبد الرحمن بن الحوزي (م ٥٩٧ هـ) جيد برقى بريس دهلي الهند .
- ١٤ - جامع الترمذى
أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى (٢٠٢ هـ - ٢٧٥ هـ) المكتبة (الرشيدية دهلي الهند) .
- ١٥ - الجهاد في الإسلام (الأردو)
الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي ، إسلامك بيليكشتر لميتد لاهور (باكستان) الطبعة الرابعة ١٩٦٧ م .
- ١٦ - خلاصة السير
حب الدين أبو جعفر أحمد بن عبد الله الطبرى م ٦٧٤ هـ دلي برتيينگ بريس دهلي الهند ١٣٤٣ هـ .
- ١٧ - رحمة للعلميين
محمد سليمان سلمان المنصورفورى (م ١٩٣٠) حنيف بگدیوڈلی .
- ١٨ - رسول أكرم کی سیاسی زندگی
الدکتور حمید اللہ ، باریس سالم کمبینی دیوبندیو - بی الهند ١٩٦٣ م .

١٩ - الروض الأنف

أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي (٥٠٨-٥٥٨ هـ) المطبعة الجمالية
بمصر ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م .

٢٠ - زاد المعاد

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر بن أبيو المعروف بابن القيم
(٧٥١-٦٩١) المطبعة المصرية الطبعة الأولى ١٣٤٧-١٩٢٨ م .

٢١ - سفر التكوانين

٢٢ - سنن ابن ماجة

أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة الفزوني (٢٠٧-٢٧٣ هـ) .

٢٣ - سنن أبي داود

أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ٢٠٢-٢٧٥ هـ ج ١ المطبع المجددي
كانفور الهند ١٣٧٥ هـ ٢ المكتبة الرحيمية ديوينديو في الهند .

٢٤ - سنن النسائي

أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (٢١٥-٣٠٣ هـ) المكتبة السلفية
lahor (باكستان) .

٢٥ - السيرة الخلية

ابن برهان الدين .

٢٦ - السيرة التبوية

أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أبوب الحميري (٢١٣ أو ٢١٨ هـ) شركة
مكتبة ومطبعة مصطفى البافى الخلبي وأولاده بمصر المطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ -
١٩٥٥ م .

٢٧ - شرح شذور الذهب

أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف المعروف بابن هشام الانصاري
(٧٠٨-٧٦١) مطبعة السعادة بمصر .

٢٨ - شرح صحيح مسلم

أبو زكريا محيي الدين محيي بن شرف النووي (٦٧٦هـ) المكتبة الرشيدية دهلي الهند ١٣٧٦هـ.

٢٩ - شرح المواهب اللدنية

الزرقاني نسخة عتيقة مخرومة الأوائل.

٣٠ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى

القاضي عياض مطبعة عثمانية استانبول ١٣١٢هـ.

٣١ - صحيح البخاري

محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ) المكتبة الرحيمية (ديوبند الهند)

١٣٨٤-١٣٨٧هـ.

٣٢ - صحيح مسلم

مسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١هـ) المكتبة الرشيدية دهلي الهند ١٣٧٦هـ.

٣٣ - صحيفحة حقوق

٣٤ - صلح الحدبية

محمد أحمد باشيل (الطبعة الثانية) دار الفكر ١٣٩١-١٩٧١هـ.

٣٥ - الطبقات الكبرى

محمد بن سعد مطبعة برييل ليدن ١٣٢٢هـ.

٣٦ - عون المعبود شرح أبي داود

أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادي (الطبعة الأولى الهندية).

٣٧ - غزوة أحد

محمد أحمد باشيل (الطبعة الثانية).

٣٨ - غزوة بدر الكبرى

محمد أحمد باشيل (الطبعة الثالثة) ١٣٧٦هـ - ١٩٧٦م.

٣٩ - غزوة خيبر

محمد أحمد باشيل (الطبعة الثانية) دار الفكر ١٣٩١-١٩٧١م.

٤٠ - غزوة بنى قريطة

محمد أحمد باشيل (الطبعة الأولى) هـ ١٣٧٦ - ١٩٦٦ م .

٤١ - فتح الباري

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢-٧٧٣) المطبعة السلفية ومكتبتها ،
الروضة . القاهرة .

٤٢ - فقه السيرة

محمد الغزالى . دار الكتاب العربي بمصر الطبعة الثانية هـ ١٣٧٥ - ١٩٥٥ م .

٤٣ - في ظلال القرآن

سيد قطب ، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان الطبعة الثالثة .

٤٤ - القرآن الكريم

٤٥ - قلب جزيرة العرب

فؤاد حمزة المطبعة السلفية ومكتبتها ، الروضة بمصر هـ ١٣٥٢ - ١٩٢٣ م .

٤٦ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

السيد أبو الحسن علي الحسني الندوى الطبعة الرابعة مكتبة دار العروبة القاهرة
هـ ١٣٨١ - ١٩٦١ م .

٤٧ - محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

الشيخ محمد الخضري بك ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، الطبعة الثامنة
هـ ١٣٨٢ .

٤٨ - مختصر سيرة الرسول

شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي (م ١٢٠٦) مطبعة السنة
المحمدية القاهرة الطبعة الأولى هـ ١٣٧٥ - ١٩٥٦ م .

٤٩ - مختصر سيرة الرسول

الشيخ عبد الله بن محمد النجدي آل الشيخ (م بمصر ١٢٤٢ هـ) المطبعة السلفية
ومكتبتها الروضة بمصر هـ ١٣٧٩ .

٥٠ - مدارك التزيل

للنسفي .

٥١ - مرقة المفاتيح ج ٢

الشيخ أبو الحسن عبد الله الرحماني المباركفوري نامي بريس لكنه الهند

١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م .

٥٢ - مروج الذهب

أبو الحسن علي المسعودي مطبعة الشرق الإسلامية القاهرة .

٥٣ - المستدرك

أبو عبد الله محمد الحكم اليسابوري (٤٠٥ هـ) دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد. الهند.

٥٤ - مسند أحمد

الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (١٦٤ هـ) .

٥٥ - مسند الدارمي

أبو محمد عبد الله بن عبد الله الرحمن الدارمي ١٨١-٢٥٥ هـ .

٥٦ - مشكاة المصايف

ولي الدين محمد بن عبد الله التبريزى ، المكتبة الرحيمية ديويند يوني - الهند .

٥٧ - معجم البلدان

ياقوت الحموي .

٥٨ - المواهب اللدنية

للقسطلاني المطبعة الشرفة ١٣٣٦ هـ ، ١٩٠٧ م .

٥٩ - موطأ الإمام مالك

الإمام مالك بن أنس الأصبحي (١٧٩ هـ) المكتبة الرحيمية ديويند يوني - الهند .

٦٠ - وفاء الوفا

علي بن أحمد السمهودي .

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	كلمة معاشر الشيخ محمد علي الحركان
٩	مقدمة الناشر
١٣	كلمة المؤلف
٢٢-١٥	موقع العرب وأقوامها
١٥	موقع العرب
١٦	أقوام العرب
٣٤-٢٣	الحكم والإمارات في العرب
٢٣	الملك باليمن
٢٥	الملك بالحيرة
٢٧	الملك بالشام
٢٧	الإمارة بالحجاز
٣٢	الحكم في سائر العرب
٣٣	الحالة السياسية
٣٥	ديانات العرب
٤١	الحالة الدينية
٤٧-٤٣	صور من المجتمع العربي المعا申し込み
٤٣	الحالة الاجتماعية

الموضع	الصفحة
الحالة الاقتصادية.....	٤٥
الأخلاق.....	٤٦
نسب النبي ﷺ وأسرته.....	٥٣-٤٨
نسب النبي ﷺ.....	٤٨
الأسرة النبوية.....	٤٩
المولد وأربعون عاماً قبل النبوة.....	٦٤-٥٤
المولد.....	٥٤
في بني سعد.....	٥٥
إلى أمه الحنون.....	٥٧
إلى جده العطوف.....	٥٧
إلى عمه الشفيق.....	٥٨
يستنقى الفعام بوجهه.....	٥٨
مجيراً الراهب.....	٥٨
حرب الفجار.....	٥٩
حلف الفضول.....	٥٩
حياة الكدح.....	٦٠
زواجه خديجية.....	٦٠
بناء الكعبة وقضية التحكيم.....	٦١
السيرة الإجمالية قبل النبوة.....	٦٢
في ظلال النبوة والرسالة.....	٧٠-٦٥
في غار حراء.....	٦٥
جبريل ينزل بالوحى.....	٦٦
قرة الوحى.....	٦٩

الصفحة

الموضوع

٦٩	جبريل ينزل بالوحى مرة ثانية.....
٧٠	استطراد في بيان أقسام الوحى.....
٧١	أمر القيام بالدعوة إلى الله وموادها.....
٧٤	أدوار الدعوة ومراحلها.....
٧٧-٧٥	المراحل الأولى (جهاد الدعوة).....
٧٥	ثلاث سنوات من الدعوة السرية.....
٧٥	الرعيل الأول.....
٧٦	الصلوة.....
٧٧	الخير يبلغ إلى قريش إجمالاً.....
١٠٨-٧٨	المراحل الثانية (الدعوة جهاراً).....
٧٨	أول أمر بإظهار الدعوة.....
٧٨	الدعوة في الأقربين.....
٧٩	على جبل الصفا.....
٨٠	الصدع بالحق وردود فعل المشركين.....
٨١	وفد قريش إلى أبي طالب.....
٨١	المجلس الاستشاري لكف الحاجاج عن استئناف الدعوة.....
٨٣	أساليب شتى لمجابهة الدعوة.....
٨٥	الاضطهادات.....
٩١	دار الأرقم.....
٩٢	المجزرة الأولى إلى الحبشة.....
٩٤	مكيدة قريش بمعها جري الحبشه.....
٩٧	قريش يهددون أبو طالب.....
٩٧	قريش بين يدي أبي طالب مرة أخرى.....
٩٨	فكرة الطغاة في إعدام النبي ﷺ.....

الموضوع

الصفحة

إسلام حمزة رضي الله عنه.....	١٠٠
إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.....	١٠١
مثل قريش بين يدي الرسول ﷺ.....	١٠٦
أبو طالب يجمع بني هاشم وبني عبد المطلب.....	١٠٧
المقاطعة العامة.....	١١٢-١٠٩
ميثاق الظلم والعدوان.....	١٠٩
ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب.....	١١٠
نقض صحيفة الميثاق.....	١١٠
آخر وفـد قريش إلى أبي طالب.....	١١٣
عام الحزن.....	١١٧-١١٥
وفاة أبي طالب.....	١١٥
خدجية إلى رحمة الله.....	١١٦
تراكم الأحزان.....	١١٦
الزواج بسودة رضي الله عنها.....	١١٧
عوامل الصبر والثبات.....	١١٨
المراحل الثالثة (دعوة الإسلام خارج مكة)	١٢٩-١٢٥
الرسول ﷺ في الطائف.....	١٢٥
عرض الإسلام على القبائل والأفراد.....	١٤٢-١٣٠
القبائل التي عرض عليها الإسلام.....	١٣٠
المؤمنون من غير أهل مكة.....	١٣١
ست نسـمات طيبة من أهل يثرب.....	١٣٥
استطراد - تزويج رسول الله ﷺ بعائشة.....	١٣٦
الإسراء والمعراج.....	١٣٧
يـمة العقبـة الأولى.....	١٤٦-١٤٣

الصفحة

الموضوع

١٤٣	سفير الإسلام في المدينة.....
١٤٤	النجاج المفجع.....
١٥٤-١٤٧	بيعة العقبة الثانية.....
١٤٨	بداية الحادثة وتشريح العباس لخطورة المسؤولية.....
١٤٩	بنود البيعة.....
١٥٠	التأكد من خطورة البيعة.....
١٥٠	عقد البيعة.....
١٥١	اثنا عشر نقيباً.....
١٥١	نقباء الخزرج.....
١٥٢	نقباء الأوس.....
١٥٢	شيطان يكتشف المعاهدة.....
١٥٣	استعداد الأنصار لضرب قريش.....
١٥٣	قريش تقدم الاحتجاج إلى رؤساء يثرب.....
١٥٤	تأكد الخبر لدى قريش ومطاردة المباغعين.....
١٥٥	طائعون المجرة.....
١٦٠-١٥٨	في دار الندوة (برمان قريش).....
١٦٠	النقاش البرلماني والإجماعي على قرار غاشم بقتل النبي ﷺ.....
١٧٤-١٦١	هجرة النبي ﷺ.....
١٦١	تطويق منزل الرسول ﷺ.....
١٦٣	الرسول ﷺ يغادر بيته.....
١٦٣	من الدار إلى الغار.....
١٦٤	إذ هما في الغار.....
١٦٦	في الطريق إلى المدينة.....
١٧٠	التزول بقباء.....

الموضوع	الصفحة
الدخول في المدينة.....	١٧٢
الحياة في المدينة.....	١٩١-١٧٥
المرحلة الأولى - الحالة الراهنة في المدينة عند الهجرة.....	١٧٧
بناء مجتمع جديد.....	١٨٤
بناء المسجد النبوي.....	١٨٤
المؤاخاة بين المسلمين.....	١٨٥
ميثاق التحالف الإسلامي.....	١٨٦
أثر المعنويات في المجتمع.....	١٨٨
معاهدة مع اليهود - بنود المعاهدة.....	١٩٢
الكافح الدامي.....	٢٠٣-١٩٤
استفزازات قريش ضد المسلمين.....	١٩٤
إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام.....	١٩٥
قريش تهدد المهاجرين.....	١٩٥
إذن بالقتال.....	١٩٦
الغزوات والسرايا قبل بدر.....	١٩٧
غزوة بدر الكبرى.....	٢٣٣-٢٠٤
سبب الغزوة.....	٢٠٤
مبلغ قوة الجيش الإسلامي وتوزيع القيادات.....	٢٠٤
الجيش الإسلامي يتحرك نحو بدر.....	٢٠٥
الذير في مكة.....	٢٠٥
أهل مكة يتجهزون للغزو.....	٢٠٦
قوام الجيش المكي.....	٢٠٦
مشكلة قبائلبني بكر.....	٢٠٦
جيش مكة يتحرك.....	٢٠٧

الموضوع	الصفحة
العير تفلت.....	٢٠٧
هم الجيش المكي بالرجوع.....	٢٠٧
حراجة موقف الجيش الإسلامي.....	٢٠٨
المجلس الاستشاري.....	٢٠٨
الجيش الإسلامي يواصل سيره.....	٢١٠
الرسول ﷺ يقوم بعملية الاستكشاف.....	٢١٠
الحصول على أهم المعلومات عن الجيش المكي.....	٢١٠
نزول المطر.....	٢١١
الجيش الإسلامي يسبق إلى أهم المراکز العسكرية.....	٢١١
مقر القيادة.....	٢١٢
تعبيدة الجيش وقضاء الليل.....	٢١٢
جيش المكي في عرصة القتال.....	٢١٣
الحيشان يترآن.....	٢١٥
ساعة الصفر وأول وقود المعركة.....	٢١٦
البارزة.....	٢١٦
المجوم العام.....	٢١٧
الرسول ﷺ يناشد ربه.....	٢١٧
نزول الملائكة.....	٢١٨
المجوم المضاد.....	٢١٨
إبليس ينسحب عن ميدان القتال.....	٢١٩
الهزيمة الساحقة.....	٢١٩
صمود أبي جهل.....	٢٢٠
نصر أبي جهل.....	٢٢٠
من روائع الإيمان في هذه المعركة.....	٢٢٢

الموضوع

الصفحة

٢٢٤	قتلى الفريقين
٢٢٥	مكة تتلقى نبأ المزينة
٢٢٧	المدينة تتلقى أنباء النصر
٢٢٧	الجيش النبوى يتحرك نحو المدينة
٢٢٨	وفود التهنة
٢٢٩	قضية الأسرى
٢٣١	القرآن يتحدث حول موضوع المعركة
٢٣٤-٢٣٣	النشاط العسكري بين بدر وأحد
٢٣٤	غزوة بنى سليم بالكدر
٢٣٥	مؤامرة لاغتيال النبي ﷺ
٢٣٦	غزوة بنى قينقاع
٢٣٧	نمذج من مكيدة اليهود
٢٣٨	بني قينقاع ينقضون العهد
٢٣٩	الحصار ثم التسليم ثم الجلاء
٢٤٠	غروة السوق
٢٤١	غروة ذي أمر
٢٤٢	قتل كعب بن الأشرف
٢٤٥	غروة بحران
٢٤٥	سرية زيد بن حارثة
٢٨٩-٢٤٨	غزوة أحد
٢٤٨	استعداد قريش لمعركة ناقمة
٢٤٩	قواهم جيش قريش وقيادته
٢٤٩	جيش مكة يتحرك
٢٥٠	الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو

الموضوع

الصفحة

٢٥٠	استعداد المسلمين للطوارىء.....
٢٥٠	الجيش المكى إلى أسوار المدينة.....
٢٥١	المجلس الاستشاري لأخذ خطة الدفاع.....
٢٥٢	تكتيب الجيش الإسلامي وخروجه إلى ساحة القتال.....
٢٥٣	استعراض الجيش.....
٢٥٣	المبيت بين أحد والمدينة.....
٢٥٣	تمرد عبد الله بن أبي وأصحابه.....
٢٥٤	بقاء الجيش الإسلامي إلى أحد.....
٢٥٥	خطة الدفاع.....
٢٥٦	الرسول ﷺ ينفث روح البسالة في الجيش.....
٢٥٧	تعبيدة الجيش المكى.....
٢٥٧	مناورات سياسية من قبل قريش.....
٢٥٨	جهود نسوة قريش في التحمس.....
٢٥٨	أول وقود المعركة.....
٢٥٩	نقل المعركة حول اللواء وإبادة حملته.....
٢٦٠	القتال في بقية النقاط.....
٢٦١	نصر أسد الله حمزة بن عبد المطلب.....
٢٦٢	السيطرة على الموقف.....
٢٦٢	من أحضان المرأة إلى مقارعة السيوف والدرقة.....
٢٦٢	نصيب فصيلة الرماة في المعركة.....
٢٦٣	المزية تنزل بالمرشّكين.....
٢٦٣	غلطة الرماة الفظيعة.....
٢٦٤	خالد بن الوليد يقوم بخطبة تطويق الجيش الإسلامي.....
٢٦٤	موقف الرسول الباسل إزاء عمل التطويق.....

الموضوع

الصفحة

٢٦٥	تبدد المسلمين في الموقف.....
٢٦٧	احتدام القتال حول رسول الله ﷺ.....
٢٦٧	أخرج ساعة في حياة الرسول ﷺ.....
٢٧٠	بداية تجمع الصحابة حول الرسول ﷺ.....
٢٧١	تضاعف ضغط المشركين.....
٢٧١	البطولات النادرة.....
٢٧٢	إشاعة مقتل النبي ﷺ وأثره على المعركة.....
٢٧٣	الرسول ﷺ يواصل المعركة وينقذ الموقف.....
٢٧٥	مقتل أبي بن خلف.....
٢٧٥	طلحة ينهض بالنبي ﷺ.....
٢٧	آخر هجوم قام به المشركون.....
٢٧٦	تشويه الشهداء.....
٢٧٧	مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال حتى نهاية المعركة.....
٢٧٨	بعد انتهاء الرسول ﷺ إلى الشعب.....
٢٧٨	شماتة أبي سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر.....
٢٧٩	مواعدة التلاقى في بدر.....
٢٧٩	الثبات من موقف المشركين.....
٢٧٩	فقد القتل والمرحى.....
٢٨١	جمع الشهداء ودفهم.....
٢٨٢	الرسول ﷺ يثني على ربه عز وجل ويذبحه
٢٨٢	الرجوع إلى المدينة ، ونواذر الحب والتلفاني.....
٢٨٣	الرسول ﷺ في المدينة.....
٢٨٤	قتل الفريقيين.....
٢٨٤	حالة الطوارئ إلى المدينة.....

الصفحة

الموضوع

٢٨٤	غزوة حمراء الأسد.....
٢٨٨	القرآن يتحدث حول موضوع المعركة.....
٢٨٩	الحكم والغايات المحمودة في هذه الغزوة.....
٣٠٠-٢٩٠	السرايا والبعوث بين أحد والأحزاب.....
٢٩٠	سرية أبي سلمة.....
٢٩١	بعث عبد الله بن أنيس.....
٢٩١	بعث الرجيع.....
٢٩٣	مؤسسة بئر معونة.....
٢٩٤	غزوة بنى النضر.....
٢٩٧	غزوة نجد.....
٢٩٨	غزوة بدر الثانية.....
٢٩٩	غزوة دومة الجندل.....
٣٠١	غزوة الأحزاب.....
٣١٤	غزوة بنى قريظة.....
٣٢٤-٣١٩	النشاط العسكري بعد هذه الغزوة.....
٣١٩	مقتل سلام بن أبي الحقيق.....
٣٢١	سرية محمد بن مسلمة.....
٣٢١	غزوة بنى حليان.....
٣٢٢	متابعة البعوث والسرايا.....
٣٢٢-٣٢٥	غزوة بنى المصطلق أو غزوة المربيع.....
٣٢٦	دور المنافقين قبل غزوة بنى المصطلق.....
٣٢٩	دور المنافقين في غزوة بنى المصطلق.....
٣٢٩	١ - قول المنافقين « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل »
٣٣١	٢ - حديث الإفك.....

الموضوع

الصفحة	
٣٣٤	البعوث والسرايا بعد غزوة المريسيع
٣٤٨-٣٣٧	وقعة الحديبية.....
٣٣٧	سبب عمرة الحديبية.....
٣٣٧	استنفار المسلمين.....
٣٣٧	المسلمون يتحركون إلى مكة.....
٣٣٨	محاولة قريش ضد المسلمين عن البيت.....
٣٣٨	تبديل الطريق ومحاولة الاجتناب عن اللقاء الدامي.....
٣٣٩	بدليل يتوسط بين رسول الله ﷺ وقريش.....
٣٣٩	رسول قريش.....
٣٤٠	هو الذي كف أيديهم عنكم.....
٣٤١	عنان بن عفان سفيراً إلى قريش.....
٣٤١	إشاعة مقتل عنان وبيعة الرضوان.....
٣٤٢	إبرام الصلح وبنوده.....
٣٤٣	رد أبي جندل.....
٣٤٣	النحر والخلق للحل عن العمرة.....
٣٤٤	الإباء عن رد المهاجرات.....
٣٤٤	ماذا يتمخض عن بنود المعاهدة.....
٣٤٦	حزن المسلمين ومناقشة عمر مع النبي ﷺ.....
٣٤٧	انخلت أزمة المستضعفين.....
٣٤٧	إسلام أبطال من قريش.....
٣٤٩	المراحلة الثانية (طور جديد).....
٣٥٠	مكاتبة الملوك والأمراء.....
٣٥٠	١ - الكتاب إلى النجاشي ملك الحبشة.....

الموضوع

الصفحة

٢ - الكتاب إلى المقوس ملك مصر.....	٣٥٣
٣ - الكتاب إلى كسرى ملك فارس.....	٣٥٤
٤ - الكتاب إلى قيصر ملك الروم.....	٣٥٥
٥ - الكتاب إلى المنذر بن ساوي.....	٣٥٨
٦ - الكتاب إلى هودة بن علي صاحب اليمامة.....	٣٥٨
٧ - الكتاب إلى الحارث بن أبي شهر الغساني صاحب دمشق.....	٣٥٩
٨ - الكتاب إلى ملك عمان.....	٣٥٩
النشاط العسكري بعد صلح الحديبية.....	٣٧٩-٣٦٢
غزوة الغابة أو غزوة ذي قرد.....	٣٦٢
غزوة خير ووادي القرى.....	٣٦٤
سبب الغزوة.....	٣٦٤
الخروج إلى خير.....	٣٦٥
عدد الجيش الإسلامي.....	٣٦٥
اتصال المناقفين باليهود.....	٣٦٥
الطريق إلى خير.....	٣٦٦
بعض ما وقع في الطريق.....	٣٦٦
الجيش الإسلامي إلى أسوار خير.....	٣٦٧
التهيؤ للقتال وحصنون خير.....	٣٦٨
بدء المعركة وفتح حصن ناعم.....	٣٦٩
فتح حصن الصعب بن معاذ.....	٣٧٠
فتح قلعة الزير.....	٣٧١
فتح قلعة أبي.....	٣٧٢
فتح حصن التزار.....	٣٧٢

الصفحة

الموضوع

٣٧٣	فتح الشطر الثاني من خير المقاومة
٣٧٤	قتل ابني أبي الحقيق لنقض المعاهدة
٣٧٤	قسمة الغنائم
٣٧٥	قدوم جعفر بن أبي طالب والأشعرية
٣٧٦	الزواج بصفة
٣٧٦	أمر الشاة المسمومة
٣٧٧	قتل الفريقيين في معارك خير فدك
٣٧٨	وادي القرى
٣٧٨	تباء
٣٧٩	العودة إلى المدينة
٣٧٩	سرية أبان بن سعيد
٣٩٣-٣٨٠	بقية السرايا والغزوات في السنة السابعة
٣٨٠	غزوة ذات الرقاع
٣٨٤	عمرهقضاء
٣٨٧	معركة مؤتة
٣٨٧	سبب المعركة
٣٨٧	أمراء الجيش ووصية رسول الله ﷺ
٣٨٨	توديع الجيش الإسلامي وبكاء عبد الله بن رواحة
٣٨٨	تحرك الجيش الإسلامي ومباغته حالة رهيبة
٣٨٩	المجلس الاستشاري بمعان
٣٨٩	الجيش الإسلامي يتحرك نحو العدو

الموضوع	الصفحة
بداية القتال وتناوب القواد.....	٣٨٩
الراية إلى سيف من سيف الله.....	٣٩٠
نهاية المعركة.....	٣٩١
قتل الفريقين.....	٣٩٢
أثر المعركة.....	٣٩٢
سرية ذات السلسل.....	٣٩٢
سرية أبي قادة إلى خضرة.....	٣٩٣
غزوة فتح مكة.....	٤١١-٣٩٤
سبب الغزوة.....	٣٩٤
أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح.....	٣٩٥
التهيؤ للغزوة ومحاولة الإخفاء.....	٣٩٧
الجيش الإسلامي يتحرك نحو مكة.....	٣٩٩
الجيش الإسلامي ينزل ببر الظهران.....	٣٩٩
أبو سفيان بين يدي رسول الله ﷺ.....	٤٠٠
الجيش الإسلامي يغادر من الظهران إلى مكة.....	٤٠١
قريش تباغت زحف الجيش الإسلامي.....	٤٠٢
الجيش الإسلامي بذى طوى.....	٤٠٣
الجيش الإسلامي يدخل مكة.....	٤٠٣
الرسول ﷺ يدخل المسجد الحرام ويظهره من الأصنام.....	٤٠٤
الرسول ﷺ يصلى في الكعبة ثم يخطب أمام قريش.....	٤٠٤
لا تربّي عليكم اليوم.....	٤٠٥
مفتاح البيت إلى أهله.....	٤٠٥
بلال يؤذن على الكعبة.....	٤٠٥

الموضوع الصفحة

صلوة الفتح أو صلاة الشكر.....	٤٠٦
إهداز دماء رجال من أكابر المجرمين.....	٤٠٦
إسلام صفوان بن أمية وفضالة بن عمير.....	٤٠٧
خطبة الرسول ﷺ في اليوم الثاني من الفتح.....	٤٠٧
تغوف الأنصار من بقاء رسول الله ﷺ في مكة.....	٤٠٨
أخذ البيعة.....	٤٠٨
إقامةه ﷺ بمكة وعمله فيها.....	٤٠٩
السرايا والبعث.....	٤٠٩
المرحلة الثالثة.....	٤١٢
غزوة حنين.....	٤١٣-٤١٧
مسير العدو ونزوله بأوطاس.....	٤١٣
مغرب الحروب يغسل رأي القائد	٤١٣
سلاح اكتشاف العدو.....	٤١٤
سلاح استكشاف رسول الله ﷺ.....	٤١٤
الرسول ﷺ يغادر مكة إلى حنين.....	٤١٤
الجيش الإسلامي يباغت الرماة المهاجمين.....	٤١٥
رجوع المسلمين واحتدام المعركة.....	٤١٦
انكسار حدة العدو وهزيمته الساحقة.....	٤١٦
حركة المطاردة.....	٤١٧
الغائم.....	٤١٧
غزوة الطائف.....	٤١٧-٤٢٣
قسمة الغائم بالجعرانة.....	٤١٩
الأنصار تجد على رسول الله ﷺ.....	٤٢٠

الموضوع	الصفحة
قدوم وفد هوازن.....	٤٢١
العمرة والانصراف إلى المدينة.....	٤٢٢
البعوث والسرايا بعد الرجوع من غزوة الفتح.....	٤٢٨—٤٢٤
المصدقون.....	٤٢٤
السرايا.....	٤٢٥ .. .
غزوة تبوك.....	٤٣٩—٤٢٩
سبب الغزوة.....	٤٢٩
الأخبار العامة عن استعداد الرومان وغسان.....	٤٣٠
الأخبار الخاصة عن استعداد الرومان وغسان.....	٤٣١
زيادة خطورة الموقف.....	٤٣١
الرسول ﷺ يقرر القيام بإقدام حاسم.....	٤٣١
الإعلان بالتهيؤ لقتال الرومان.....	٤٣٢
المسلمون يتسابقون إلى التجهيز للغزو.....	٤٣٢
الجيش الإسلامي إلى تبوك.....	٤٣٣
الجيش الإسلامي بتبوك.....	٤٣٥
الرجوع إلى المدينة.....	٤٣٦
الخلفون.....	٤٣٦ .. .
أثر الغزو.....	٤٣٨
نزول القرآن حول موضوع الغزو.....	٤٣٨
بعض الواقع المهمة في هذه السنة.....	٤٣٩
حج أبي بكر رضي الله عنه.....	٤٤٠
نظرة على الغزوات.....	٤٤١ .. .
الناس يدخلون في دين الله أفواجاً.....	٤٤٤ .. .

الموضع	الصفحة
الفوفود.....	٤٤٥
نجاج الدعوة وأثرها.....	٤٠٥
حججة الوداع.....	٤٥٨
آخر البعوث.....	٤٦٣
إلى الرفيق الأعلى.....	٤٦٤
طلاّع التوبيخ.....	٤٦٤
بداية المرض.....	٤٦٤
الأسبوع الأخير.....	٤٦٥
قبل الوفاة بخمسة أيام.....	٤٦٥
قبل أربعة أيام.....	٤٦٦
قبل يوم أو يومين.....	٤٦٧
قبل يوم.....	٤٦٧
آخر يوم من الحياة.....	٤٦٨
الاحتضار.....	٤٦٩
تفاقم الأحزان على الصحابة.....	٤٧٩
موقف عمر.....	٤٧٠
موقف أبي بكر.....	٤٧٠
التجهيز وتوديع الحسد الشريف إلى الأرض.....	٤٧١
البيت البوبي.....	٤٧٣
الصفات والأخلاق.....	٤٨٨-٤٧٩
جمال الخلائق.....	٤٧٩
كمال النفس ومكارم الأخلاق.....	٤٨٤
ثبت المراجع.....	٤٩٤-٤٨٩